رواية

الطبعة الثالثة

رجاء عالم

طوق الحمام



جائزة بوكر العربية 2011

رجاء عالم

طوق الحمام

رواية



الكتاب

طوق الحمام

تأليف

رجاء عالم

الطبعة

الثالثة: 2011

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-475-8

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 52 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

لبيت جَدِّي عبد اللطيف

البيت الذي يحمل علامة إكس حمراء، تعني أنه مُعَدّ للإزالة، قبل أن يَتَحَوَّل قريباً إلى مواقف لإيواء هذه الكائنات العجيبة رباعية العجلات، والتي يبدو أنها سترث مكة كما جاء في الحديث عن أَمارات قيام الساعة: «يُلْقَى الذهب في الطُرقات». قرأنا ذلك حين كنا صغاراً، ولكم بدا لنا من المستحيلات الطريفة! لكن وبالنظر للأسعار الخرافية للسيارات التي يفوق عددها عدد البشر في طرقات مكة، صرنا نرى الذهب مسفوحاً، وها هي الجبال تُنقض وتتلاشى وتبتلع العمارة العريقة، ومعها بيت جدي القائم على قمة ما كان يُعْرَف بشُرُفات الحَرَم باسطنبول مكة. كل ذلك الماضي الساذج غاب الآن ولم يعد له وجود سوى في هذا الكتاب.

أقرأ هذا الكتاب لجدّي الأول يوسف العالِم المكي، الذي كان يُجَسِّد الخبز تحت سجادة صلاته بالحرم، الأمر الذي قد يبدو لنا الآن (كسلاً مثالياً)، هذا إذا سلّمنا بأن ضغط زر لبعث رسالة من مكة إلى الصين (كسلاً)، نعم جدّي كان من أولئك الذين يقطعون بلاداً بلمحة بصر.

العَالِم الذي آمنَ بأن العلم المنقول هو علمُ ميتٍ عن ميت، والموت

مُكْتَسَب بينما الحياة الباطنية وَهبيَّة، تفيض في روح العارف من بحر الحي. . . لذا تَجَنَّبَ جَدِّي كلَّ ما هو قابل للنقل، واعتكف بكل ما يفيض من بحر الحي، حتى فاض بالخبز تحت سجادة صلاته، وبالبلاد تحت قدميه، وبالنور، الذي لوجوه أبنائه وفيهم أبي محمد، يذهب بالأبصار للبصائر.

القسم الأول

أبوالرووس

الشيء الوحيد الأكيد في هذا الكتاب هو موقع الجثة: الزقاق الضيّق المُسَمَّى أبوالرووس، برؤوسه المتعددة.

من يجرؤ على كتابة زقاقٍ كأبوالرووس غيري أنا، أبوالرووس نفسه، برؤوسه المتعددة. أنا الزقاق الصغير بطرف ميقات العمرة بآخر مكة، حيث يتطهّر المعتمرون لأداء طقس العمرة التي هي: غسل آثامِ عامٍ سابق للتهيؤ لعامٍ لاحقٍ من الذنوب.

أنا أبوالرووس مَلِك التَنَفُّس، اللقب الذي استحققتُه من مهارتي في مواجهة المستحيل. فحيث إنه لم يُعْتَنَ بتنويري قط فلقد تَعَلَّمتُ أن أجلس في العتم مُخَدَّراً وأسحبُ نفساً عميقاً من الأنف (مُعَبَّأ بخمائر فضلاتٍ ونَزِّ بالوعاتٍ ونشاز أصواتٍ، كشأنِ روائحِ الحَوَاري المَنْسِيَّة) وأحبسه لدقائق قبل إطلاقه بتأنٍّ من الفم في هيئةِ إشاعاتٍ وخرافاتٍ ومحظورات أخنقُ بها سُكَّاني، الذين يبدأون في النبش عن مُسَكِّنَاتٍ في تاريخهم، لعجزهم عن احتمال واقعهم الكالح أو تفهّم العصر الذَّري الذي سيدوسهم.

ربما لم أكن زقاقاً طالعاً من عهدِ جُرْهُم والعماليق، لكنني أتأكد بتاريخٍ يَعبُرُ من سقوطِ مملكةٍ لقيامِ مملكةٍ، ومُحَمَّل بحروبٍ ودماء، استحققتُ عليه أن أُرْوَى من أكبر وديان الحجاز (النعمان) الذي هو في المُنْجِد اسمٌ مِنْ أسماء الـ (دم)، أو قناعٌ من أقنعته.

اسم أبوالرووس لا بأس به، وربما لا أحسد زقاقاً كما أحسدُ زقاق (المِرْفَق) والذي يُعتقد أن به دكان أبي بكر الصديق كان يبيع فيه الخَزَّ وفيه داره، يُقابل هذه الدار جدارٌ فيه حجر يمسّه الناس يقال إنه يُسلِّم على النبي صلَّى الله عليه وسَلَّم كلما مُسَّ. ولعلَّه الحجر الذي عناه الرسول بقوله: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسَلِّم عليَّ ليالي بُعثت.) ويُقَابلُ هذا الحَجَرَ على يسارِ الـمُستَقْبِلِ صفحةُ حَجَرٍ مَبني في الجدار في وسطه حفرة مثل محل الـمِرْفَق، يزوره العوام لاعتقادهم أن النبي عليه السلام اتكأ عليه فغاص مرفقه الشريف في ذلك الحجر، وهو يُكَلِّم الحجر الذي أمامه على شماله. ويقال إن أهل مكة إذا أصابهم عقمٌ يمشون من دار خديجة لهذا الحجر، فيُصيبهم الخصب وتكثر ذُرِّيتهم. نعم أريد أن أكون زقاقاً بمُخَيِّلَةٍ سِحريَّة تخترعُ للجدران ألسنةً وتُسلِّم وتتحاور مع المارَّة وتستجيب للمساتهم. ربما لا أستطيع منافسة أزقة بتاريخ أسطوري كتلك، لكنني على الأقل أتفوَّق على أزقة كثيرة، مثل زقاق (عانقني) الرقيع الذي لا يسمح بمرور جسدين إلا عناقاً، وكل حركةٍ فيه تستحق الرجم. ولا أنا (درب الجنائز) الموشوم بالحزن ولا يُعْبَرُ إلا مَرَّةً واحدةً. ولا أنا (بدرب المهراس) الذي يسحق الرؤوس الهَشَّة التي أُشَجِّع تَكَاثُرَها بحُرِيَّةٍ في زواياي. وأترفَّع عن أن أكون (درب المساكين) الذي يجتمع على نيرانه مُتَسوِّلو اللقْمة والخِرْقَة والدراويش منشدو المدائح المُسْتَجْدين لحقوقهم، ولا أنا درب (الفحم) أو (الحُمرة) الذي يفخر بشجرة خروب وحيدة تطرح ثمراً دموياً.

أنا (أبوالرووس) أتبرأ من كل ذلك.

أحياناً أجلس للصلاة ـ نعم، لا تندهشوا، فكُلُّ شيءٍ يُصَلِّي ـ وأحياناً أُغمضُ عيني وأنجرفُ للتفكير تحت تأثير التريبتيزول (الذي يصفونه بجرعاتٍ كبيرةٍ للاكتئاب وبجرعاتٍ صغيرةٍ للتبوُّل اللاإرادي في

الفراش، وأنا أمسكُ بكبسولة 50 ملجم، وأفتحها لأجد تلك الرميلات الصغيرة، أُقَسِّمها لخمسٍ، في ليلة أُضَاعِفُ الجُرعةَ وفي أخرى أُقَلِّصها حين تبدأ جدران أحشائي بالتآكل)، فأكفُّ وأبدأ بالتبول اللاإرداي. . .

أنا أبوالرووس: اسمٌ عَلَمٌ على زقاقٍ مجهول لكل المعلومين الذين يملكون القدرة على تغيير مصيري، وجعلني منظوراً على خارطة مكة.

الثوب

(أبوالرووس)!! لماذا حملتُ هذا الاسم المُتعدِّد والذي يُوحي بمُنَاطَحَة؟! فلقد حَدَثَ وفي زمنٍ قبلَ ظهوري للحياة أن وَجَدوا في هذه البقعة من أطرافِ مِيقَاتِ العُمْرَة أربعةَ رؤوسٍ مدفونة لأربعة رجالٍ. انتبهوا فأنا لا أُبَاشِر الآن جُثَّةَ المرأة التي وَقَعَتْ من طوق هذه الرواية وأخرجتْني من صمتي، وإنما أُورِدُ هنا حكايةَ رؤوسِ الرجال الأربعة، التي قُطِعَتْ زَمَنَ شريفٍ ما: الشريف عون ربما. أو أحد الحُكَّام الأتراك. الرجال الأربعة الذين استغلُّوا الاحتفالَ بموكبِ المَحْمَل المصري القادم من مدينة (تَنيس) بكسوة الكعبة من حريرٍ أخضر بالرسم الأحمر أعلى الباب، وانتهزوا خروجَ الشريف وعسكره لاستقباله مع أعيان مكة، فسرقوا الكسوةَ القديمةَ، التي كَوَّمَها الأغواتُ على بابِ الفَتح من جهةِ المَرْوَة، بانتظار أن يحملها آلُ شيبة لسوق الصَاغة، لإذابة الأسماء العظمى المنقوشة بالذَّهَب والفِضَّة، وبيعها للاعتياش على أثمانها، إذ كانت تلك مِنْحة مكة الحولية لآل شيبة! ولقد فَرَّ الأربعةُ بالكسوة القديمة على ظَهْرِ بعيرٍ لطريق العمرة، حيث أدركَهم حرسُ الشريف، وكانوا قد نصبوا تلك الكسوة خيمة، وأقاموا تحتها واستضافوا أصحاب العُسرة، والمجذومين، والمجانين وأصحاب العاهات، الذين كانوا يرقدون تحتها ويخرجون كما ولدتهم أُمّهاتهم مُتَخَفِّفين من العاهات والأمراض والهموم وأحياناً من

أجسادهم البشرية! ولقد كُتِمَ خبرُ السرقة والكرامات حتى لا تشيع البدعة ويحتذيها الطامعون، وأُشيع حينها أن الأربعة قد دخلوا مكة مُتَخَفِّين بثيابِ حُجّاجٍ كعادةِ الرَّحَّالَة الغربيين والخارجين عن المِلَّة: فمنهم اليهودي والنصراني والمُدَّعِي النبوَّة، وآخرهم من عَبَدَة النار. وأُجْبِرَ قاضي مكة على إصدارِ حُكْمٍ سريعٍ عليهم بالشِّرْك، أُبِيحَتْ معه دماؤهم، وضُربت رؤوسهم في ليلٍ وأُلقيَ بأجسادهم ببئر (يَاخُور) حيث تأوي السيولُ بمُخَلَّفَات مكة، ورُفِعَتْ رؤوسهم على حُزْمَةِ رماحٍ كشَوَاهِد ببقعةِ القَبْضِ عليهم. الحبكة تقتضي أن أَذْكُرَ هنا المرأة التي كانت تأتي حافيةً قاطعةً الطريقَ من مكة على قدميها، لتجلس تحت تلك الرؤوس تندبها بالأشعار والمجَسَّات وتلاوة سورة المُلْكِ أحياناً، وقيل إنها كانت عاشقةً لهؤلاء الرجال الأربعة جميعاً، لتظهر كل صباح بقدمين محترقتين برمل مكة، وتجلس لتُلاغي الرؤوس وتدفعها للتصارع على وِدِّها... ثمّ تسري مع الليل راجعة أدراجها، حتى لا تلوكها الألسن! من مناغاة تلك المرأة الحاسرة قام الزقاق، ولا بُدَّ من الاعتراف بأنني ماءُ رغبةٍ بحوضِ امرأةٍ أو بقروح قلبها وكَفَّيها، رغم أن المرأة لم تذرف دمعة واحدة على تلك الرؤوس التي كانت الغربان تُشاجرها بلا انقطاعٍ لخطفِ لُقْمَةٍ من شحم عيونها.. والمرأةُ لا تُجيب إلا بالندب والنفخ، حتى انشقَّ الزقاقُ: بوسعي القول الآن إن هذا الزقاق شَقَّتْه العواطفُ، فأوّله لوعةٌ (على مسجد رضوى) وأمواج المعتمرين، وآخره نشوةٌ بدكاكين الطَّرَبِ، وأوسطه تاريخٌ يدفنُ رأسَه في الرمل يُرَجِّع عزيف الجن ويتلاشى، لتظلّ أطرافُه مَدَاخِلَ مُوَارَبَة للحزن، ونوافذه مُسَمَّرَة للوَجْدِ، أما أكبر البوابات فتلك التي تَتَوَسَّع في السِّرّ: بوابة الشغف والأشواق، المُتَمَثِّلَة في هذه الاستراحة والبستان، التي أنشأها أول الأشراف أو آخرهم (الشريف عون أو حسين لا فرق) وصارت أشبه ما تكون بـ غَيْضَةٍ بِقَيْعَةٍ يحسبها الظمآنُ ماءً، تجذبُ طُلاّبَ الكرامات والعَسكر لحماية طريق المعتمرين من

طفرات الصعاليك المُعَاقِرين للصمغ أو العَرَق المُصَنَّع في أحواشه المهجورة والأقبية.

ما قبل الجثة

قلت إن هذه الحكاية تبدأ بجثة، ولأنها حكايتي فإنني أختار أن نُهمل الجثة، فلن نعبأ بالأموات هنا بقدر ما سنُطارد الأحياء، فلقد واظبتُ أُخفي حبكات العشق والانتقام جيداً وراء الأبواب، حتى فَضَحَتْنا هذه الجثة. وحين أُورِدُ ذِكْرَ عَزَّة أو أُفسِحَ مجالاً لفضح عائشة لغرامياتها، فلستُ أتساهل وأحصرُ فيهما هويَّةَ تلك الجثة التي تصلح أن تَتَرَشَّح لها كل بنات أبوالرووس. يجب أن أكون دقيقاً فلا أخلط الأسماءَ والأطراف والمسمَّيات وأتَعَجَّل بتوجيه الاتهام لقاتلٍ بعينه، ليس قبل أن نُفَصِّل الحكاية، ونوَثِّقها بما جَرَى في عيِّنَةِ الرؤوس الأربعة التي تراوحت بينها الشُّبهة، الرؤوس المشمولة بفحم، بهذا (الحجاب) بيني وبينها:

فهناك يوسف الموسوس بالتاريخ، والذي وَقَّعَ العميدُ بالأخضر وخَتَمَتْ جامعةُ أم القُرى بالأزرق غير القابل للتزوير على وثيقة البكالوريوس التي يحملها في التاريخ والقائمة على بحثٍ مُخْتَصَرٍ عن المنائر التاريخية على جبال مكة. ولقد كان هو منارة العشق بأبوالرووس. يُؤذِّنُ لعشقين: عَزَّة، ومكة. فلم يهبط من سطحهم، ودخل في هذيان حتى ضَمَّهما في واحد.

وهناك معَاذ الذي تَدَرَّبَ ليخلف أبيه في إمامة المسجد ـ بعد عمرٍ طويلٍ ـ فلَجَأ لسرقةِ الوقت للعمل صبياً باستديو مُؤَقَّت. وخليل بشهادة طيرانه الموقوفة وخطابات رفض التوظيف من شركات الطيران الخاصة، وهناك تيس الأغوات ربيب العَشّي الطبَّاخ والذي يلقط الأطرافَ البَشَرِيَّة ليُمارس معها شذوذه... كل هؤلاء يصلحون لأن تُرْفَعَ رؤوسهم على

رماحٍ، كما يؤكد الشيخ مُزَاحِم الذي جاء مُلاحِقاً حَمْلَةَ ابن سعود 1926 بعد الاتفاق على تسليم الملك علي بن الحسين مدينةَ جدَّة بعد حصارٍ طويل واستسلام مكة بلا حرب. الشيخ مُزَاحِم ابن الخامسة عشرة الذي تَيَتَّمَ في موقعة تَرَبَة التي قادت أخبارُ مَقْتَلَتها العظيمة الحجازَ للتسليم من دون قتال، وأطال المقام بها حتى شَهِدَ أكوامَ أظافرِ أهله القتلى تحملها الريحُ وتُفضِّضُ تشكيلات الكثبان، يحاولون الآن إعَابَة تاريخه وشيخوخته بتلك الفِضَّة التي جَمَعَها قبل أن يَفِرَّ تاركاً بحجمها ثقوباً في ذيلِ نَسَبِهِ الذي دَفَنَه معها بأرض حانوته، وتَفَرَّغ يبيع فيه «الأرزاق»، كما يسمّي الأهالي أكياس الطحين والأرز والقمح والسُّكر والشاي. الشيخ مُزَاحِم هو باختصار تاجرُ أرزاقٍ، ومُصَابٌ بإمساكٍ مُزْمِن، لا تُريحه إلا تحميلة السَّبَّابة بزيت اللوز، الأمر الذي يتحرَّجُ منه في رمضان فلا يُرْصَدُ هلالُ شوال إلا ويكون قد تَقَرَّحَ شَرْجُه وتَحَجَّرتْ أمعاؤه، حتى صار هَمُّه البحثَ عن فتوى (بأن زيت اللوز في فتحة الشرج لا يُفَطِّر أو يَجْرَح صيام الصائم!).

الجثة

هكذا كان معاذ المُصَوِّر المُتَدَرِّب يقفز بين سطحين حين وَقَفَ مشلولاً في الهواء، مسلوباً ينظر إلى الأسفل. عميقاً في الشقِّ بين البيتين لَمَحَ الجثة، في موتتها ترقدُ المرأةُ لوحةً تعرض عُريها البديع: تُرَبِّعُ ساقاً وتبسط أخرى، وفي لمحةٍ تكاثرت العيون على دموية المتبرعم بقلب الأَجَمَة.

«يا لكمال الموت في هذه الصورة!» هتف معاذ ملتقطاً صورة.

سَكَتَ عودٌ بآخر الزقاق ودَرْبَكَتْ طبلةٌ بيدِ هاوٍ غشيم، حين ظهرت امرأةٌ كبطريق في أول الزقاق تَخفِقُ عباءتُها عن ثوبِ عزائها الأبيض، راحت وجاءت حول الجثة:

«خافوا ربكم استروا عورةَ القتيلة.» كرَّرت كوثر زوجة النزَّاح، أم المُهَاجِر أحمد.

تدافع الجمعُ حولَ حَدْبَتِها التي تحجب عنهم القتيلة.

شيخٌ بلحيةٍ برتقالية اقتحم بعُكَّازِه المشهدَ، وسقطت عينُه بمائها الأزرق حَول الحلمتين تَشُقَّان كل لِضِفَّةٍ، يَشلُّه هاجسٌ وحيد:

«أُعيذُ ابنتي عَزَّة أن يكون لها جسدٌ كهذا لا يستحي حتى في موته.»

ولكي يمنع الشَيخُ مُزَاحِم القتيلةَ من تَلَبُّس ابنته كَرَّرَ لنفسه: «عَزَّة بَازِيَّة، البارحة حين صَفَعْتُها نَهَشَتْني عينُها. عَزَّة لا تحيا بمثل هذه النوابض ولا تموت بمثل هذا التهشيم للوجه! اللهم إني أسألُكَ ميتة سويَّة ومَرَدًّا غير مُخْزٍ وبعثاً بأحواض الحور العِين.»

«زُمْ زُم!» من وراء النوافذ تمتمت النساءُ ونفخت الأمهاتُ على الجثة، حتى لا تتوسَّع بحراً من فتنةٍ تَلحق ببناتِ أبوالرووس.

ضابط وسيارتا شرطة وعربة إسعاف انبثقوا من الهذيان حول الجثة على مدخلي الضيق أنا أبوالرووس. كلُّ الأصوات سَكَتَتْ حين احتاجت الأوراقُ الرسمية إلى اسم للقتيلة.

«مجهولة». لأول مَرَّة رقدت تلك المرأة بلا حجابٍ في الزقاق وتحت كل العيون. غطوها بالأبيض ورفعوها، انفلتت القَدَمُ اليمنى لتتدلَّى بساقها الممشوقة من حافة النقَّالة، مَسَحَتْ ترابي حتى عربة الإسعاف.. حيث لملمها المُمَرِّض ودفع بها إلى جوف العربة المغزول بأجهزة الإنعاش.

ما تركت القتيلَةُ من أثرٍ غير جَرَّةِ القَدَمِ تلك على ظهري، بلمحةٍ من أظافر مُشَذَّبة بتدويرٍ ومُلَمَّعة بماء الورد، وبقعةِ دماءٍ في الشقِّ بين جدار الشيخ مُزَاحِم وجدار المُعَلِّمة عائشة.

غيابة الزير

ترقب حليمةُ من سطحها ببصرها الذي يرتطم ويرجع عن جدرانِ بيوتٍي حولها، وعن أسطحي المتآكلة بالفقر وبقايا الأثاث، عكس سطحها شبه العاري إلا مِنْ نَبَات الشَّارة، تتَعَجَّب من سُكَّاني الذين لا يُفَرِّطون في مَقْعَدٍ متآكل أو أريكةٍ مبقورة، ويشاركهم فيها المطر والحَرّ والوقت، حتى تصير لهم نفسُ رطوبة الأريكة وكآبة السجاد المهترئ: تسترجع ذكرياتها عن عَزَّة وتَتوَجَّع لمَقَاطِع من ذلك الشريط. . كلُّ بيتٍ يُحصي بناته، ويتبرأ من فضيحة الجثة.

لا تعرف كم بَقِيتْ في صمتها حتى نبَّهها غرابٌ، حين انزلق في الزير المهجور بآخر السطح وأخذ يُجاهد للخروج عبر الغطاء الموارب، ثم انفلتَ ببقعةٍ سوادٍ، وخلفه طار عصفور من جوف الزير.

ما إن رَفَعَت حليمة الغطاءَ الخشبي المتآكل بالنداوة حتى اندفعت إلى حواسها تلك الأوراق يطفح بها الزير، مغطاة بأكياس القمامة البلاستيكية. يدها ارتجفت فيما تنهش قلبَها صفرةُ تلك الأوراق. «اليست مُسَوَّدَات مقالات ولدي يوسف.» مقالاته تتكدَّس بركن حجرتهما عاقلة مُفهرسَة. اغترفتْ حليمةُ بشوقها الصفحات، جرَّتْها إلى وجنتيها وأنفها، عَرَق يديٍّ يوسف، شوقه المكتوم، حتى جنونه يتعرَّج في الأحرف، من أول القصاصة بأعلى الكوم حتى ورقةِ كيسِ الإسمنت السميكة التي يَحتَلُّها رسمُ بطنِ امرأةٍ حامل. استوقفَها ذلك التخطيط بالفحم يُصوِّرُ المرأةَ من الركبتين للخاصرة، مُضَخَّماً فَخذيٍّ المرأة وبطنها المسبوكة ككمثرى طافحة.

لم يكن بوسع حليمة الأميّة فهم أيٍّ من تلك الأوراق الـمُؤَرَّخة، لكنها حفظتْها عن ظهر قلب: الصفحات التي تتدفَّق فيها الكلمات وتغيب في الأفق كقافلة جِمَالٍ مُحَمَّلة بأحطاب، وتلك التي تبرك وتترك بقعاً،

أزعجتْها تلك الكلمات التي تقفز كالقطط في مواسم التزاوج، تنتف أذنابَ بعضها، وتنثرُ الكثيرَ من الحبر والمواء، وتلك التي لا تزيد عن حفرة بقلب الصفحة أو صخرة مدسوسة توشك أن تسقط بأقصى ركنها الأيسر. وتلك الشَّبَاك ذات الفتوق والعُقَد.

أدركتْ حليمة أنها تُمسك في تلك الأوراق بأحشاء ابنها الذي شَرَّدتْه الجثةُ فلم تعد تعرف له أرضاً.

أذهلتْها عشراتُ الصفحات من ورق أكياس الإسمنت الطافحة بآثار عجلاتٍ، مُسَوَّدَة بالفحم، وبكائناتٍ بين البَشَرِ والدرَّاجات النارية، تُواكبها لافتاتٌ بأضواء نيون، وأخرى يتآكلها الصدأ، شبيهة بلوحات الدكاكين التي يزدحم بها أبوالرووس.

رفعتْ حليمةُ طَرَفَ شيلتها إلى أنفها حين تصاعدت رطوبة الفحم الذي كان ما زال طرياً. دَقَّ قلبُها بوَجَلٍ... أوصدت الغطاء بإحكامٍ على فوهة الزير، أعطتْه ظهرها:

«لو أنني أفكُّ الحرف»...

بنات ملائكة

أنا أبوالرووس أغلقتُ عيني حين اجتاحَ إعصارُ التحقيق أركاني وبيوتي، ولم يُستثنَ أحد من الاستدعاء للتحقيق بمركز الشرطة. وتوالت حملات المداهمة والتفتيش والمصادرة، صُودِرَتْ كلُّ أشرطة الفيديو المختارة بالمقهى، وحَوَّمت الغربانُ خصوصاً على بستان مُشَبَّب (الذي خلا بعد أن خسره في صَفْقَةِ تداولٍ قبل أيامٍ من ظهور الجثة). اختفى مشبب وكذلك يوسف، لذا لم يكن مفاجئاً استدعاء أمه حليمة صبَّابة الشاي للتحقيق، أنا أبوالرووس الخبير بقراءة الأفكار راقبتُ ملامح الذين راحوا وسواد وجوه من عادوا من المركز، وبَصمة الحبر على سبَّاباتهم

التي ختموا بها الافادات. أما حليمة فتهيأت للتحقيق كما لجلسة صَبِّ شاي وجَدَّدتْ قمرَ الحناء على كفها للبصم. ما إن خطّت حليمة بمكتب المُحَقِّق ناصر حتى بُهِتَ كلاهما. كانت تتوقَّع رؤيةَ الضابط علي الذي باشر الجثة ذلك الصباح، بينما ناصر هذا يفتقر إلى لمحة اللامبالاة والتراخي التي أشاعها علي بطوافه حول الجثة، لم يكفّ يضحكُ مُغازلاً لصوتٍ أنثوي يأتيه عبر هاتفه النقال الذي لم يفارق أذنه، نظرتُه طافية على الرؤوس، يغمز تعليماته لمُسَاعِده، حتى أشار له بحمل ذلك الجسد الميت وختام المشهد.

«لكن، ألن تقوم برفع البصمات أولاً؟!» بدا صوت خليل سائق التاكسي دخيلاً لكأنما انبثق - وبشكل يدعو للسخرية - من حبكة سينمائية، مثيراً اهتمام النظارة، الابتسامةُ الرسمية تجلّطت فجأة في الحر، ومن دون أن يُنهي مكالمته نهضَ الضابطُ علي للتحدي:

«هل منكم من يعلن قرابته للجثة؟» قالها جاحظاً في العيون من حوله، «ليتفضل معنا، للتحقيق المبدئي ولتسجيل الاتهام لفتح ملف القضية، والتقدم بطلب للجهات المختصة برفع البصمات. الأمر يحتاج إلى وقت، ثم سنحتاج إلى هذا القريب ليتردد علينا، المدة التي يستغرقها الكشف عن هذه القضية، عليه أن يتفرغ لنا لمدة شهر أو عام أو.. الله العالم... الاتهامات ستطال الجميع... لسنا في مسلسل تليفزيوني»..

هنا تراجع الجمعُ، وأشار الضابطُ علي لمساعده بمسح المشهد.

تأمّلت حليمة في الضابط ناصر أمامها، يفتقر تماماً إلى نظرة الفراغ البريئة والإيحاء الساذج بالتمكن والعظمة التي لِعَيْن علي. ناصر هذا مثل كائن مُجَفَّف بكبرياء، يُعَزِّزه جهاز التكييف سوني، ومروحة السقف التي تَجْلد الوجهَ وتُقشِّر أركان الحجرة، وتتراصف بيوتُ العنكبوت على خطوط التوصيلات الكهربائية، وتسري لوجه الرجل بينما يواجه نفس الوجوه الكالحة للقَتَلَة، يوجِّه نفس الأسئلة والصفعات، حتى غَلُظَ جلده

كامتداد لسجّادِ الحجرة البُنّي المحلوق من وبر بعيرٍ. الآلاف الذين أخضعهم المحقق ناصر القحطاني للتحقيق خلال الربع قرن من عمله كرئيس لقسم المباحث الجنائية خرجوا بالانطباع نفسه: إن لم يكن ناصر نفسه هو إسرافيل الذي ينفخ البوق لقيام القيامة، فإنه يستعين بإسرافيل كمساعد يتخفّى في جهاز التكييف المُستهلك سوني، ليجلد وجوه المتهمين.

«ناصر هذا مسكون.» كَست الفكرةُ ملامح حلمية بشفقة، أدار ناصر مقعدَه الدوار نصف دروة لليمين، باسطاً كتفه بالنياشين بعرض رماد المكتب متدرعاً من حصار تلك النظرة، هذه المرأة تذكّره بعمّته عطرة، ملكة وادي مِحْرِم بجبال السّرَاة. عطرة التي تزوجت نصف دزينة من الرجال ممن يصغرونها بسنوات، كانت مشهورة كالحيّة التي بوسعها أن تشلّ رجلاً بنظرة، لتجعله يرغبها.. يقولون إنها تنظر مباشرة إلى ماء الرجل، وتخترقه عبر عموده الفقري. وإنها تعرف نقاط المسّ التي تتحكّم بالحيويات. وإنها قبل وفاتها ستترك أسرار علومها لأكثر بنات وادي مِحْرِم جموحاً، على أن تُجيد القراءة لكي تُسجّل نقاط المسّ تلك وتنشرها. وكان شيوخ وادي مِحْرِم الموشِكون على الفناء يتقاتلون على ودِّ عمته عطرة لكي تتّبع أي خارطة للحيويات على أجسادهم وتبعثهم للحياة.

عَمَّتُه عطرة هي التي تلاحق أحلامه، يحلم بها دائماً في ذلك المشهد الأخير، حين جرؤتْ على مُصادمة والده في جنازة أخته فاطمة. شحبت ملامح ناصر وفاحت رائحة الدم بمكتبه من ذاك الماضي، الرائحة نفسها التي فاحت من جسد أخته فاطمة الملفوف في بياض الأكفان. في تجريد البياض لم يظهر من جسد فاطمة غير نفرة الثديين تحفران في وعيه. ناصر كان في الخامسة يومها، وسقطت كل مشاهد ذلك اليوم لتبقى رائحة الحر المجبولة بالخطر. محفورة ذاكرته بنفرة الثديين نفسها، تتوّجهما دائرتا سواد بِقُطْرِ ست بوصات تطفوان في ذلك الشارع المُتْرَب بحي الشُّهداء

بالطائف. يرى ناصر دوائر أعين الرجال تطفو وتتكاثر بذهول حول دائرتي السواد، وسخط والده يلحق، يجري ويخلع ثوبه الأبيض ليلقيه على عري فاطمة، باستحواذ مجنون، يُغلّفها ويجرجرها إلى البيت، يدفعها عبر باب الطريق للداخل وبالحركة نفسها يستخلص ثوبه بقرفٍ ليُلقيه بعيداً. . فاطمة كانت تنهض من سقطتها حين وقعت يد أبيه على أقرب أداة، دلة القهوة، وسُمِعَت تلك الضربة المبطنة، لا يفارقه وجهُ فاطمة بصنبور الدلة يغور في جبهتها، وقناع الدم الذي سقط فجأة ليغطي الوجه والعنق، وسبَّابة أبيه مهددة: «أختكم ماتت بأزمة ربو. .» أعقبَ ذلك قيامُ والده بحرق ثوبه، ثوب الأعياد وصلوات الجمعة.

قريبهم الطبيب قام بتحرير شهادة الوفاة، خافضاً عينه بحرجٍ متفهماً مصيبةَ الأب، لقد جاء مُحَمَّلاً بالأخبار: «الأب الذي رَفَضَ الجارَ المعشوق، وابن العم الذي ما إن وصلته أخبارالمعشوق حتى تبرأ من فاطمة المنذورة له، الفتاة التي لها قلب، يمنح ويلعب ويدق ويُرسلها مجنونة عارية للطريق». كل الجيران أتقنوا طقسَ دفنِ الفضيحة، حضروا، ناحوا مع الأم والأب، سردوا حالات وفاةٍ بلا حصر ناجمة عن الربو، وحالات وفاةٍ من لسعةِ حشرة. . حتى جعلوا الموت يبدو ببساطة تفويت نَفَس. . لكن وطوال الوقت كانت نظراتُ الحزن العميقة، نظراتُ التأبين تلحق أخواته الصغيرات، لأن فضيحة أختهم فاطمة كانت بمثابة موت لسُمعتهن، ولفرصتهن في أي زواج وحياة. فقط عَمَّتُه عطرة، أقسمتْ ألا تطأ لهم عتبة دار، بل سارت حتى مخفر الشرطة لتبلغ عن حادثة دلة القهوة، لتُجاوبها تلك الشفقة، أدركت أن بوسعها أن تخترق سجلّ «غينيس للأرقام»، لكن من المستحيل أن تخترق تلك الرؤوس المُصَفَّحَة بما لا يجب التفريط به: الشرف.

كان ذلك من أربعة عقود مَضَت، مأساة تَمَّتْ حبكتُها بوفاة والده لا قهراً على شجِّ فاطمة وإنما تأبيناً لسمعته. كبر ناصر يتيماً مكبلاً بسمعته

الكسيحة ليستغل أقربَ فرصة ليفرّ إلى مكة، لينجو من حموضة الدم بمدخل بيتهم. لذا فما إن وقع بيده ملف جثة أبوالرووس حتى شعر بالحاجة إلى كشف هوية ذلك الجسد، واليد التي ألقته على الطريق، نهض لنبش القضية.

نظرة حليمة الحانية اخترقت النياشين مباشرة إلى قلبه، إلى الطفل المختبئ مفجوعاً بالأخت، سال خطُّ عَرَق بين كتفيه وعلى صدغيه:

«ولدك يوسف من المُشْتَبه فيهم». . قالها بصوتٍ أجشّ في محاولةٍ لاستعادة هالة الخطر التي حَصَّنَتْه كل تلك السنين، ومع ذلك، وبتعاطفٍ تخيَّرتْ له من خلطات قهوتها القوية، تلقَّتْ إشارةَ الغليان من سَمَاوَرها، لَمَّعَتْ فناجينها وخَمَّرتْ نفس دَلَّةِ النحاس وحَبَّكتْ وصَبَّت موسوعتها عن أبوالرووس:

«يوسف قلبه خفيف، رأى الموتَ تحت جداره وطار. ولدي عَجَنَ التاريخَ وخَبَزَه وهَضَمَه بامتيازٍ ودرجة شرفٍ من جامعة أم القرى، عَيَّنوه كاتباً محترماً بجريدة أم القرى.» لم يقاطعها ناصر منصتاً لهدير مروحة سوني بالسقف، مستحضراً في قهوتها شغفه بمكة، «هذا هو الرحم المُقَدَّس الذي نذرتُ نفسي للذود عن شرفه.» زادت حفنةَ زنجبيل:

«مُشَبَّب رفيقُه، دينه وديدنه مكة وخوافيها، مُذ عرفناه وهو يغيب ويطلع لنا بتحفة.» مع قَلْبَةِ الغليان الأولى نَقَلَتْ الدَلَّةَ للجمر تحت الرماد:

«بناتُ أبوالرووس يا نار كوني برداً وسلاماً، لا تزال تضحك لهنَّ الملائكة، كلٌّ في ملكوت، لا يُسْمَعُ لهنَّ حِسٌّ. .»

«عائشة وعَزَّة، لا حول ولا قوة، أدخلُ على عائشة، في عُلْبَةٍ بجوف عُلْبَة، كَونُها وكَيَانُها شاشةُ كمبيوترها، وعَزَّة، لولا محاولاتي لإلهائها بالأقمشة لغَرِقَتْ في أوراقها والفحم.»

«ما مِنْ بنات أبوالرووس من تستوجب القتل والتعذير.»

«لو فتحتَ لي مُصْحَفاً أقسمتُ لكَ بأن يوسف غير قادر على إيذاء

بعوضة. أَكْلُه وشُربُه حِبْرٌ ووَرَقٌ.. إرثُه بهذه الدنيا كومةُ الورق التي تتآكلها رطوبةُ الزير وغربان السطح...»

مصادرات

6 إبريل 2000:

نافذة لعَزَّة:

أول معجزاتي عَزَّة. كَتَبتُها واوقعتْني بُحبِّها.

لماذا أُحبُّ عَزَّة؟

أرقبُها: تُخبّئ أسرارها في هيكل المذياع القديم، أسفل دَرَجِ السطح، تستخرجُ عَزَّةُ أول قصاصاتي إليها، يوم كنتُ في التاسعة.

في الرسم بنتٌ صغيرة مُثَلَّثة بخصلاتٍ كسبعة أوتارٍ، انقطعت للتو، يومها تناولتْ عَزَّةُ الفحمَ لأول مَرَّةٍ، وحاولت الكلام مع تلك البنت، بخطوطٍ ثلاثة أفلتتْ من البنتِ بنتاً على صورتها، اتبعتُها انا ببنت بخصلاتٍ أقصر، راحت الورقة بيننا وجاءت، فاجأتني بولدٍ كَسَرَ رتابتي، وسَمَّتْه: «يوسف». فشعرتُ بلمستها الأولى وأن لا مجال للكلام. خروج الولد ذاك جاء كأبلغ الحوادث إثماً وشغفاً.

لولا عزة لما عرفتُ معنى ممارسة العشق أبداً. في ذلك العمر المبكر اكتشفتُ ذروتي الأولى، وعزة صارت كل البنات وكل امرأة أراها.

لاحظتُ حينها أن الولد قد قام بتحرير البنت مثل حمامة لكي يُمسِّد عنقها، ويخترق إلى عوالم النساء المحرَّمة. عين الحمامة لم تلتفت إلى الوراء قط، حتى يوم أخرجتُها من مخبأها بجوف المذياع المكسور، كَتَبتُ بين عينيها بإصبعي: «لعَزَّة عينا حورية.»

تجعَّدت الورقة وتقلصَّ قلبُ البنتِ بكلمةِ الغَزَلِ، وسمعتُها تضحك: «لو أفكّ الحلقة وأقصُّ شَعْرَ البنت المُعَلَّقَة بذيلي لابتلعتُ الولدَ وطرتُ.»

قلَّب الضابطُ ناصر في كومة يوميات يوسف الحائلة، بعضها مُؤرَّخ

من عام 1987 وتتصاعد، وبعضها مؤرخ للفترة بين 355 ـ 1120 هـ، والتي تمَّتْ مصادرتها من الزير بسطح حليمة، يتصدَّرُها التقرير مُذَيَّلاً بعبارة الخبير الذي قام بفحص تلك القصاصات وترتيبها: (يُسَمِّي المدعو يوسف مُذَكَّراته نوافذ، ويُقَسِّمها تحت عنوانين: نوافذ لعَزَّة: يكتب فيها الزقاقَ لحبيبته. ونوافذ لأُمِّ القُرَى: يعيد نبش التاريخ فيها!).

قاربت الساعة منتصف الليل، بينما المُحَقِّق الشاب ناصر القحطاني لم يُغادر مكتبه، مُتأملاً أكداسَ الاستجوابات والطريق المسدودة التي انتهى إليها التحقيق، كلُّ يوم تَمرُّ عليه عشراتُ القضايا كهذه مختومة بالقتل أو مفتوحة بالاغتصاب، وتُغْلَقُ مُعَلَّقة ضدَّ مجهولٍ. لكن قضية أبوالرووس تختلف، هذا الزقاق المُتَعدِّد الرؤوس يعرف تماماً هويةَ القتيلة، ويتحداه لكشفها، مُشَكِّكاً في تاريخه كمحقق أسطوري. كان بوسعه إهمال قضية أبوالرووس ليبتلعها الأرشيف مع مئات الصفحات من مذكّرات يوسف ورسائل المُعَلِّمة عائشة، لكن هناك إرادة خفيّة تتحدّاه في تلك الأكوام، حتى ما عاد بوسعه التمييز أيها الحقيقي وأيها من غشاوات ارتفاع الكولسترول والسكر بعد ليالٍ من السهر والوجبات السريعة المجلوبة على عجل إلى مكتبه.

أجَّلَ ناصرُ النظرَ في الملف المُعَنْوَن: (رسائل عائشة الإلكترونية)، والتي قام رجالُه بتفريغها وطَبْعِها من ملفٍّ محفوظٍ تحت مُسَمَّى (الواحد) بحاسوب المُعَلِّمة المختفية، وجاء في التقرير أنها (من طَرَفٍ واحد، مُوَجَّهَة إلى مجهولٍ عَبْرَ الشبكة العنكبوتية.) أيُّ خليةٍ نائمة في تلك الرسائل؟! ومن سيُوقظها وبأيِّ أجندةٍ تفجيرية؟

30 أغسطس 2001:

كَفَنٌ لعَزَّة:

لو كانت الارض لَفَّةَ قماشٍ، فكم متراً يحتاج الواحد منا ليكتسي ويتدفأ!

ويلفّ معه طفلاً أو طفلين وعَزَّة.
أعرف حجم الكفن، نسيج القطن الأبيض الذي بطول ثمانية لعَشْرَة أمتارٍ، مشقوقاً قماطاً للعورة، وعُصبة للرأس لئلا يفغر الفم، «دائماً الفم هذا فضيحة، لا يشبع ولا حتى ميتاً.» أُفكِّر في أن الكفن هو ضربةُ تجريدٍ قُصوى، لما يمكن أن تبلغه الدنيا حولنا. أتسمحين لي فأحلم بأن أُساكنكِ فيه، لنُنجب ولداً؟
أتأمل المساحة الكرتونية التي نحتلُّها أنا وأمي إحساناً من سطح أبيك الشيخ مزاحم، أنا في الثامنة والعشرين ولكلِّ عامٍ من عمري عشرة سنتمترات مُرَبَّعَة، مئتان وثمانين سنتمتراً مُرَبَّعاً لي وضِعفها لأمي صبَّابة الشاي، تشملُ الحجرةَ الوحيدةَ والسطحَ وذاك الحَمَّام المنزوي بالركن. ولكي لا نشعر بالحقارة والبؤس، نطبخ بقايا زَنَخَ الخزين ومدخول صَبِّ الشاي ملامسين السماء كالملائكة.
أجلسُ في بسطة شاي أمي، بين سماورها وفناجينها المُلَمَّعَة، التي تصوِّر الملائكة تنعكس في الخيال المشوَّه لوجهي، لعبة أدمنتُها لتعزيز احترامي لذاتي.
سأكتبُ عن الأحجبة بينما أرقب خيالك في سماور أمي، هل يزعجك إن كتبتُ عن الموت؟ لأنني بدأتُ وجودي بمراسلة أبي الذي حَجَبَه الموتُ لأول حركةٍ أعلنتُ بها عن وجودي ببطن أمي، كاتبتُه لكي أصل إليكِ يا عَزَّة، لأخترق حجابكِ الأكبر الذي يدهسني كليلٍ.
أسعى لكتابةٍ ببساطةِ الثوبِ الذي أَتَذَكَّرُكِ أول بلوغكِ ترتدينه: أسود مشقوق على الصدر والمرفقين.
لا تسخري مني حين أكتب.
حين يجلس الرَجُل ليكتب فلكي يهز موتاه لكي لا يستمرئون موتهم، يختار الرَجُلُ الكتابةَ عِوَضاً عن الحياة كما يحلم: مساحةٌ يَتَحَرَّك فيها أبناؤه بقَنَاعَة أنه قد ناضلَ وانكسرَ من أجلهم، وأنه بَطَل بلا نياشين سواهم. أشد كتابة الرَجُل وَجَعَاً وإيهاماً تلك التي للنساء لكي يمنحنه ما لم يَمنحنه لرجلٍ قبله ولا بعده.. بائس هو الرجل الكاتب حين يمضي مُحْتَرِفَاً يكتبُ وبعد مجلداتٍ

يكتشفُ في وِحدة الكُتّاب أنه في زقاقٍ أُمّي، وإن كَتَبَ لا يُقرأ، وإن مجلدات تاريخِهِ مجرّد طعام للعثّ...
نكتبُ لنُحيي ونُميت (هكذا يجب أن ترينني).
أستدركُ فلا أُخاطبكِ وإنما أخاطبُ قارئاً ليومياتي سيجيء حتماً بعدكِ، يتلصّص بين السطور، ولأولئك الذين سيتعاقبون في التَّلَصُّص على من أكون، أقول: إنني أنا كاتبه ومؤرخه / يوسف نصف الآلي، عمري ثمانية وعشرون عاماً، ولقد حلّتْ عليّ ـ لهفوةٍ ما ـ لعنة فوُلِدتُ مُشَوَّهاً في الثمانينات، وعشتُ خلال القرن الواحد والعشرين.
غير أنني أُسَجِّلُ سِرِّي هنا: أُقسمُ لكَ أيها القارئ أنني وُلِدتُ بجسدٍ أكمل وأجمل في الخمسينات وعاصرتُ الستينات، وعَزَّة أيضاً التقتْني هناك، أحبَّتْني، وتَنَقَّلَتْ معي في الأزمان.
فلا تسأل عن حقيقةٍ وصِدقِ أي شيء.
قل إنكَ تقرأ لِمَسْخٍ يصحو في القرن الواحد والعشرين، ليمتدّ ويتمدّد كهذا الغول والهول القادم الذي هو مجموعة اتحاداتِ شركاتٍ تجارية محدودة وغير محدودة.
اسمي المُسْتَعَار: يوسف بن عَنَق، العملاق الذي يمدّ يده يتناول السمكة من قاع البحر ويرفعها ليشويها في عين الشمس، والذي يُكَلِّف قافلةً للسير لأيامٍ لتقطع المسافةَ من رأسه لقدميه لتنش عنها الذُّباب لتكتشف أنها ذئاب تنهشه. والذي نجا من طوفان نوح الذي لم يبلغ خاصرته، وسافر في الزمان، وقابل بني إسرائيل في التيه، فرفع صخرةً بحجم جبلٍ ليقتلهم، لولا أن دَعَى عليه موسى فانخرقت الصخرة لتسقط مثل طوقٍ حول عنقه.
زاويتي بجريدة أم القُرَى ما هي إلا تحية للمدعو عَوَج بن عَنَق هذا.

شَعَرَ المُحَقِّق ناصر بأن المُسَمَّى يوسف هذا يكتب ما يكتبُ مُحْتَاطَاً للشَّرَاك.. لأنه يكتبُ ليُقْرَأ.. لا يكتب كمن يُخبئ سِرّاً، وإنما ليتحدَّى سِتْرَاً. يضع عينه في عين قارئه ويُعْلِنُ ما يُخبِّئه الناسُ عادةً.. شَعَرَ بضيقٍ، للحظةٍ فكَّرَ أن يكفَّ عن القراءة لكي يَحْرِمَ هذا الاستعراضي جمهورَه..

لكن حسَّ الضابطِ فيه قال له إنه قادرٌ على الخوض في أكثر الاعترافات براءة ويُمسك فيها مُجرماً مُتخفياً. . لذا مَضى في القراءة بحسٍّ عميق بالتحدِّي:

20 سبتمبر 2004:

نافذة لعَزَّة:

أُقبِلُ على بيتي يا عزَّة من زقاقنا الضيِّق، أجعلُ قِبْلَتي مِنْوَر حَمَّامكِ، حيث أبحث عن إشارتنا المُتَّفَق عليها: قصاصةُ قماشٍ مربوطة على حديد المِنْوَر تقرأ لي تحركات أبيكِ الشيخ مُزَاحِم.

من بعيد ألمحها. الخرقة الرقيقة الحمراء التي تصرخ:

«خطر، ممنوع الاقتراب.» أدسُّ نافذتي من عُقب باب حجرتكِ، وأصعد إلى حجرتي فوق حجرتكِ، وأُبالغُ في خطواتي فوق برغبةٍ أن أحفرَ رأسكِ وجسدَكِ، أَسْكُنُكِ والوحدةَ حولكِ..

كان يجب أن أتوقَّف عن كتابة هذه الأوراق لكِ، ما عدنا صغاراً كما كنا يوم بدأنا لعبة الحياة هذه. حينها كانت أسراري تافهة، أذكرُ مما كتبتُ لكِ حين كنتُ في الصف الرابع كلمة: نكاح!

طَشَّ الدم من أذني يوم راقبتُكِ تقرئينها، وبظنِّي أنها تعني: عِناقاً، أو مضاجعة! أتعرفين كيف تُراوغ الكلمةُ معناهَا لتحتفظ بإيحاءاتِ إيقاعها الأول؟

هذا ما دَقَّتْه الكلمةُ في قلبي، وانتصبَ لها جسدي، ومهما شرح أستاذُ الفقه، ستظل تغمزني وتقول: عَانِقْها حتى تتكسَّر الأضلع والمسافات.

ما زلتُ في بحثٍ عن تلك الكلمات التي تقول شيئاً لتعني شيئاً آخر، والوجوه التي تحمل ملامح لتتستَّر على ملامح أخرى، والأحلام التي تحلمنا لتُخفينا في حلمِ كائنٍ آخر، لا يريد بدوره أن يضمَّنا إلى أحلامه، التي هي في الأصل أحلام كائنٍ آخر لا يريد أن يعيره إياها من مكتبةِ أحلامٍ حَلِمَتْها طوابيرُ البَشَرِ قبله.

أهذي لأقول بأنني بسبيلي لإسقاط الأقنعة. وأولها قناعكِ.

أحقاً صرتِ يا عَزّة امرأة وكما أنذرتِني: (طرحة) بين وجهي ووجهكَ يا يوسف الآن!

حسناً، وأنا الآن رَجُل (وأيضاً كرِجال أبوالرووس أحتاج إلى حجابٍ لعجزي) بحيث لا أنتهي صفحةً مفضوحةً لعينيكِ.

كيف تتوقّعين من رَجُلٍ أن يكون قُصَاصةً بيضاء مُوَجَّهَة إليكِ. الرَجُل الذي وَعَدتُكِ به ضاع مني، ونُزِعَتْ من رأسه القوابس.

يجب أن أواصل التنفُّس لأضخَّ لصدركِ الأوكسجين. (أنا أيضاً أسمعُني أتناقض، كما دائماً معكِ، وكما أُثيرُكِ)

أجلس في حَافلة النقل الجَمَاعي بينما أكتبُ لكِ هذه القصاصة، أتعرفين: برجي الدلو يُفْرِغ للأبد! فجأة استوقَفَني قَدَرُ (التفريغ الأبدي) هذا بمنتصف الحافلة، انتثرتْ أوراقي وتعلّقت بي عيونُ العُمَّال المتْرَبَة، هؤلاء الرجال الذين لم يُقْعِدهم خوفٌ عن الهجرة وراء أحلامهم، بينما أنا....

كم عمري الآن؟

رأسي يترجرجُ مع كلّ وقفةٍ للحافلة، وكل صعودٍ وهبوطٍ وانحطاطٍ لجسدٍ بجواري في المقعد، أحتاج إلى جمع شظايا هويتي، كبقية أبناء جيلي النفطي.

أتعرفين كيف تُحدثك الأجسادُ بالعَرَق، عَرَق هذا العامل الذي هَبَطَ بكيسِ البلاستيك المُبَقّع بزفر الأرز والدجاج يقول: إنه بين نارين، وإن عليه أن يلحق بموقع البناء، حيث سقط رفيقه بالأمس من أعلى السقّالة، وانتظروا عربةً، أي عربة، لساعاتٍ قبل أن يُحَمِّلوه في شاحنةٍ مُسَابِقين الموتَ لأقربِ مستوصفٍ، حيث مات بأربعمائة ريال سعر فتح الملف.

عَرَق الرجال يحاول أن يتبسّط معي، ويفوح مني، يقول إننا كلنا نركض من موقعٍ للبناءِ إلى موقعٍ للهدم.

أهربُ ببصري لورقةٍ تشتاقُ عينيكِ وللطريق. كلما رفعتُ بصري بَرَقَ بشرٌ وحوانيت، وألوان، تصدمني، أُرَاهِنُ: لا يمكن أن يجتمع في مساحة مترين نفس لون البشرة، مكة حمامة تُطَوِّقُ عنقها ألوانٌ متجاوزة لتدرجات الطيف البشري.

اترين معي الإلحاح يتدلّى من العلاّقات بواجهات البيع؟ نازحون طارئون يُفَرِّخون نسلاً جديداً، يحصرُ تركيبةَ مكة الجغرافية والبَشَريَّة بين شريحتيه: الشريحةِ العشوائية التي تشتغل بالبيع بلا حدود، والشريحة المُسْتَهْلِكَة، وضمن الطقس الديني تتبادلان فيما بينهما خمسة مليارات دولارٍ في شهرِ الموسم الواحد: يشربون الشاي بالحليب، النعناع بالصنوبر، القهوة الثقيلة، السفن أب، البيبسي، الشاهي، بوم بوم وبايسون كلك حركات، ويلتهمون أرز بسمتي، ويشترون السجاجيد التي حين يقفون للصلاة عليها تُستجاب كل الدعوات! كانت أمي تُحَذِّر: «أكملْ صلاتكَ واطوِ سجادتك، إبليس يُصَلِّي على السجاجيد المنسيّة..» تمرق حافلة النقل الجماعي بينما أرقب الشياطين تُصلِّي على السجاجيد المبسوطة للعرض على واجهات الحوانيت، يبدو أن نظم التسويق الحديثة تُحَقِّق صلوات أبليس. سجاجيد مكة، لو يُهدونني واحدة وتُجاب عليها صلاتي.

«أهل مكة جِذْلِق بِذْلِق فلفل يحرق، تُجَّارٌ بالسليقة يبيعون حتى الظِّلَّ والنسمة، ويبرقعونك بخَلاَص أمّك.» تفرح أمي حليمة بشِعَارها ذاك، يرسمُ ضحكةً خبيثةً مُتَفَاخِرَةً على جبال مكة.

انهيتُ لتوّي المقابلةَ الشخصيةَ مع لجنة التوظيف بمجموعة شركات الإيلاف القابضة، والناهضة بمعظم مشاريع التطوير والاستثمار للتراب الأثمن من اليوارنيوم المُخَصَّب.

الوظيفة: باحث تاريخي، لتوثيق المَوَاقِع المُرَشَّحة للتطوير مع الحفاظ على الخصوصية التاريخية للأرض الحرام.

تَقَدَّم للمقابلة (سَلَّة) من كل أصناف المؤهلات، و(الأولوية لخريجي الجامعات الأجنبية!) راودني تهشيمُ وجه رئيس اللجنة /المدير الإداري المُطَوِّر للمشاريع والذي سألني:

«أنتَ يوسف الحُجُبي؟»، قالها كمُشَكِّك، ولم ينتظر إجابة: «لو وجدنا مؤهلاتكَ كافية لربما احتجنا إلى إخضاعكَ لفترةٍ تجريبية، لو كلَّفناكَ كمتعاونٍ، أبوسعكَ أن تُحصي لنا الأوقافَ المُهْمَلة بمكة؟ وتلك المُعَطَّلة نتيجة لتَنَازُع الوَرَثَة أو انشغالهم؟» أزعجتْني النظرةُ المتعالية المُرَافقة

للسؤال، أردتُ أن أقول: «تخصُّصي التاريخ وليس النظر في النزاعات الأسرية..» توسَّعتْ تلك النظرة وقال: «أترك رقمَ هاتفكَ نتصلُ بكَ.»
كجدارٍ أسقطَه بين وجهينا وهَشَّم كل الامتدادات: أنفينا، وشفتيكِ الممتلئتين كخوخة.
مررتُ في طريقي على مُشَـبَّب، ثارت شكوكه حين سمع عن البحث في الأملاك المُهْمَلَة. جلسنا أنا وهو لحاسوبه، سَجَّلنا اسم (الإيلاف لقابضة) وأصدرنا الأمر بالبحث، لن تُصَدِّقي ما عَثَرنا عليه: أخطبوط شركات ومصانع وفنادق ومستشفيات وكليات خاصة... إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس. يرى مشبب أن من الحيوي مواصلة متابعة أنشطة الإيلاف هذه على أرض الواقع، لربما قالت لنا شيئاً. أصارحُكِ القول: مُجرَّد كتابة هذه الشكوك فَتَحَت عيني على خارطةٍ يُعَادُ رسمها تحت أقدامنا.
لن أُوَصِّل تيارَ تفكيرِ مُشَبَّب هذا، أنا اليوم مقطوع كوتر.

البارحة حلمتُ بخيط أبيض، وضعتُ آخرَ الخيط بكفِّكِ وطِرتُ بكِ، متَّكئة كنتِ على تلك الكف جالسة كما في مقعد، بينما أحَلِّق بكِ على الجبال بذاك الخيط الرفيع، وكُنَّا نرصدُ مكةَ وهي تستيقظ، مكة لا تستيقظ لأنها لا تنام... حُلُمُها الصلوات وأقدام الطائفين.. وهذا الحمام، نَفكُّ الأطواقَ عن أعناقه فترتعش من ماء.. الخيط بيني وبينك شَكَّلَ قوس قُزَح كل تلك الأعناق وبَسَطَها على أفق مكة...
لكم أنا عطشان، وأبوكِ الذي اختارَ في هذا القيظ ألا ينام!
على أحرّ من الجمر للخرقة السوداء على مِنْوَرِكِ؟؟؟ (تقول لي: أبي يغيب لدهرٍ)
في هذه اليوميات دعيني أخاطبُ نفسي أكثر من مخاطبتكِ.
مَنْ يُوظِّف رجلاً عقله يهيم في العصر العباسي الأول وإذا اخترق وَصَلَ إلى الأندلس ليسقط مع غرناطة، في ليلةٍ، ويُسَلِّم المفتاح؟ نرجع دائماً إلى المفتاح، الذي يُلَخِّص كوابيسي، أبحث عن قفلٍ بلا مفتاحٍ لكلِّ ما يُغْلَق عليَّ وعليكِ.

بلهفةٍ تَنَاوَلَتْ يدُ المُحَقِّق ناصر قصاصةً أخرى، وجَفَّ ريقه وهو يقرأ بخفَّةِ مَنْ يتسلَّل إلى بيتٍ مُحَرَّم، يَلِجُ الحُجرات حيث يُباغتُ أهلَ البيت في عُريِّهم، وتَلبُّسهم للجُرم، يخترق إلى رؤوسهم بلا وَجَلٍ، وَقَعَتْ بيده النافذة المُوَجَّهَة لأُمِّ القُرى:

(السقف) هو هاجس أجدادنا.. يكتملُ المَكيُّ ويصبح جاهزاً للموت حين يطمئن لسقفٍ بَنَاه ليتركه يُظَلِّلُ رؤوسَ وَرَثَتِه.. مِنْ أهلِ مكة مَنْ وَقَفوا بيوتَهم وأراضيهم لله، مُرْجِعين مِلْكِيَّةَ الأرضِ لخالقها، مانحين أنفسَهم ونسلَهم حَقَّ التصرف في عمارها وسكناها وتأجيرها فقط دون البيع والتصرف في الثمن. مما يُحَرِّمُ على وَرَثَتهم بيع وتبديد إرث الحَجَر والتراب بدائرة الحرم.. تَتَلَخَّصُ حكمةُ الأجداد في أن: لا يُسَال التراب إلا لشراء التراب (السيولة النقدية من بيعِ أرضٍ تُضَخُّ حتماً لشراء أرضٍ بديلة تُوْقَفُ لله...)

حكمةٌ تَتَعَرَّض الآن للتآكل، بهذه الفراغات الكبيرة في خارطة الوقف...

قراءة قَدَم

بسلاسةٍ انزلقتْ حليمة إلى دائرة الطواف بالحَرَم، وصارت واعية بقرص البدر مكتملاً بقلب الصحن يشع بفضته في الأنفاس. في الشوطين الأولين حَمَلَها بكاءٌ فارسيٌّ، يَصدرُ مُنَغَّمَاً من شاب إيراني يقود أربع نسوة مدكوكاتٍ في السِفْسَاري ويفحن برائحة عجينٍ رطب، بينما تصلها من أدوار الحرم العليا حركةُ جريان الكراسي المُتَحَرِّكة بالشيوخ العاجزين عن الطواف أو السعي! تعرف أن يوسف وراء أحدها يدفع، كوسيلةٍ مُؤَقَّتة للرزق (سعي طقس العُمْرَة بمئتي ريال بعد التخفيض).

دارتْ حليمة تُكَرِّرُ الاسمَ الأعظم (يا جَبَّار) يجبر فَقْدَها، ارتجَّ

جسدُها مُستشعراً ذبذبات الجسد النحيل الذي انشقّ من الزحام لينضمَّ إلى طوافها، ومن دون أن ترفع بصرها عن راحتَي يديها المبسوطتين بالدعاء، واصلت الطواف، مُختتمةً بالشوط السابع: (بسم الله والله أكبر. . .)
وحين رَفَعَتْ رأسَها لركن الكعبة بالحَجَر الأسود كان الحَي القيوم بارزاً بالذهب على حرير الكسوة الأسود. من دون أن تميل ببصرها لِمُرَافِقِها، أحكمتْ على راحته قبضتَها، رفعتْها إلى صدرها كما تفعل عادةً منذ ولادته، لكي تحتوي موجاته الدماغية المجنونة، وتُسَرِّب له من قبلها السكينة:

«هل تنام جيداً؟» اعتادَ يوسف سؤالَها الأزلي، رقَّ وَهْجُ الجنون الأحمر بعينيه.

«سلَّمتُهم أوراقكَ، سامحني.» ولم يُجبها، شَعَرَتْ بخطوه يتخفَّف فجأة، كطيرٍ شَدَّ على يدها مُغَادِرَاً بها الطَّوَافَ صوبَ أثرِ قَدَمَيْ سيدنا إبراهيم المطبوعتين في الحَجَرِ الذي ارتقاه لتعلية بناء الكعبة، في قُبَّةِ كريستالٍ على هيكلٍ من قاعدةٍ رخاميةٍ تحت شَبْكٍ مَطليٍّ بالذَّهَب استقبلتهما القَدَمان مُطَوَّقتين بالفضة المنقوشة بآية الكرسي ومجاورتين لمفتاح الكعبة على مخملٍ أخضر. تَجَنَّبتْ حليمة التحديقَ بجمرتَيْ عينَيْ ابنها، متأملة المفتاح الذي شغل كتابات يوسف: «أثر القدمين والمفتاح هذا تقرأهما ملايين البَشَر لآخر الأزمان، ما الرسالة المخبأة هناك؟» انتابها توق لتتبع المفتاح والقدمين ولو خطوة واحدة للنفاذ في باب المستحيل، المستحيل الذي يوطِّن ابنها وأبناء البشر الذين يُعانون الضياع مثله. «محور حياتي الأبواب والمفتاح، تلك التي تفتح أو تغلق بوجوهنا.»

نُحُولُ يوسف وشحوبُه عَمَّقَا شعورَها بالذَّنْبِ، سَارَعَتْ لإفلات يده:

«يبحثون عمن يُلصقون به تلك الجثة. . .» وتَرَدَّدت في أن تُخبره:

«الشيخ مُزَاحِم ربما سيطلب منِّي أن أُخلي السطح والحجرة.» أَربَكَها الغضبُ الذي أحسَّتْ به في خطو يوسف، «نزاع على مِلْكِيَّته للبيت. . .

يقول الشيخ مُزَاحِم إنهم يشككون في صَكِّ مِلْكِيَّته للبيت، تعرف هذا البيت كان يعود لأبي وباعه لمزاحم، والآن هناك من يدَّعي أن لديه صكّاً أقدم..»

«لا يكفُّ مزاحم ينوح ويتشكى ليُوهم الزقاقَ بأنه يُحَارِبُ في سبيل غاية نبيلة، وبالنهاية فإنّه لن يدع أحداً يسرق منه ذرةَ رملٍ واحدة، أما بالنسبة لكِ فسيظل يلعب دور المُنْقِذ للأبد..»

«معكَ حق، ما زال الأمر لم يُحسم، إذا تَأزَّمَ الأمر فهناك يُسريَّة أخت خليل الطيار دَعَتْني للرباط..»

«الرباط يا أمي؟!! أنتِ امرأة تحيا على الطرب وإحياء الأفراح بصب الشاي، ستموتين في كآبة الرباط. ربما مكة تسخطنا، لأننا حفنة من المنافقين..» شعرت حليمة بطقطقة الكهرباء بصوت يوسف وذَكَّرتْها بذاك الفجر قبل أشهر مضت، حين كان الإمام داوود يؤم المصلّين بمسجد أبوالرووس، ويتلو الآية 32 من سورة المائدة: ﴿..من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً...﴾ شيء برأس يوسف تفجّر لسماع تلك الآية، في لمحةٍ كان على سطحهم وفي اللمحة التالية كان قد قفز الزقاق بخطوةٍ واحدة، عيناه ترميان بشرر كوحشٍ جريح، دفعَ بابَ المسجد بدويّ، واندفع بين صفوف المصلّين الذين حاولوا تجاهله، لكن اندفاع يوسف فرَّقَ صفوفهم مُتوجِّهاً لأجهزة التكييف، أغلقها، وأطفأ الأنوار، بدا للمصلّين أن جسده مثل طلقة تطيش من جهازٍ لجهازٍ، حتى انتهى لمكَبِّر الصوت، اختطفه من تحت أنف الإمام داوود:

«أنتم، أهل الزقاق، يا من أُحِبُّ وأكرِّسُ مقالاتي لطرح قضاياهم الخاسرة.» واخترقت عيناه في صفوف الوجوه المذعورة، «أنتم سرقتم حياتي. خنقتم كل روح شابة في الزقاق. أنتم عصبة ضد الحياة، من المنافقين والكاذبين. تُسمُّموننا نحن شبان أبوالرووس، تحوّلتم لزقاق من

الجواسيس، تتجسسون على أشد نوايانا وأحلامنا حميمية، ولقد نجحتم في تحويل لحظاتنا الخاصة إلى جحيم، ومع ذلك تجرؤون على الوقوف بين يدي الله في صلاةٍ تُذاع بمكبرات الصوت خمس مرات يومياً!! تُصلّون متوسّلين أن يُدخلكم فسيح جناته، وقد ضيّقتم علينا الحياة..» تَجَنَّب يوسفُ نظرةَ التعاطف بعين الطبَّاخ عبد الحميد العشّي، مُوَجِّهاً احتقاره إلى الشيخ مزاحم، «أنتَ، بيُسراك تبني سجناً وبيُمناك تبني مسجداً، وتخطب مُبَشِّراً بالإيمان، أي إيمانٍ؟ الإيمان ببنتٍ تئدها كل يوم، يعلم الله أنك ستُحَاسَب أمامه يوم الدين على هذا الركوع والسجود. وأنتَ..» اتجه يوسف إلى يابس النزَّاح، «تحلم بدخول الجنة من مخلفاتنا؟!! أنتَ تنتحر يومياً مقنعاً نفسك بأنكَ قد بلغتَ الرضى في برازنا. أي مثالٍ للطموح هذا الذي تُقَدِّمه لنا ولأبنائكَ؟ ماذا لو احتذيناكَ واستحلنا لصراصير تحيا على براز الزقاق؟ أنا نفسي من المنافقين، لا أحد منا يُدرِكُ معنى أن نكون مجاورين لبيت الله الحرام، وما يقتضيه هذا الجوار من أن نحتفل بالحياة أم نحاربها؟» نقلتْ مكبراتُ الصوت تَفَجُّر الغضب في المسجد:

«هذا هو الشيطان الرجيم نفسه يتكلم.»

«هذا الولد ممسوس انظروا إلى عينيه..» استقطبت مكبِّراتُ الصوت جمهوراً أوسع، انبعثت غبرة في الزقاق، وانبثق خلقٌ من أطراف أبوالرووس متدفقين صوب المسجد للفرجة، حتى أولئك الذين لا يستيقظون عادة لصلاة الفجر لم يدعوا ظهور إبليس الخنَّاس يفوتهم.

بعض المصلّين الشبان تقدّموا بحذر في محاولةٍ لانتزاع مكبر الصوت من يد يوسف المرتجفة، من لا مكان انبثقت عزَّة تركض في عباءتها بطول أبوالرووس، تَرَدَّدتْ أمام باب المسجد، شاءت، بل تاقت لدفع جموع الرجال والنفاذ إلى يوسف، لتهدئته، لكن خوفاً مثل رفيف حمامة منعها من التقدُّم:

«يا لكم من مؤمنين، ما الذي تفعلونه هنا؟ تركعون وتسجدون كآلات بينما الإيمان في الخارج، في البيوت والشوارع، في أعمالكم صغيرها وكبيرها.» غمامةُ حر حَطَّت على المسجد وبدأت خطوط السجاد المُقلَّم تتداخل وتموج، سَحَّ العَرَق راسماً بقعاً بين الأكتاف وينزلق بالمَشْهد، أحاط جمعٌ من الشبان بيوسف، الذي صدَّ المُهَاجِمَ الأول بدفعة قوية أرسلته مُحَطِّماً دائرةَ الحصار.

«قَوَّاكم اللهُ، لا تدعوا إبليس يُفزعكم ويضعضع إيمانكم..» من مؤخر الصفوف انبثق ذلك الصوت يُشَجِّع المهاجمين، وعلا صوتُ يوسف مجيباً:

«ليكن إيمانكم بالحياة، في نفحة الحياة التي وَهَبَها لنا من روحه.. لا تحاربوا النفحة التي أرسلتنا للدنيا ونعيمها، الجَنَّة تبدأ من الطريق وتنتهي بالمسجد.»

«أغلقوا آذانكم يا إخواني المسلمين على تجديف الشيطان، وسَمّوا بالله واهجموا، هذا هو إبليس يتحدَّث إليكم عبر زبانيته يوسف..»

ذلك الفجر صحتْ حليمة من نومٍ عميق على صوت غضب ابنها يُبَثُّ عبر مكبرات الصوت بالمسجد، بقفزةٍ واحدة اختطفت عباءتها وركضت إلى الزقاق، تَكَسَّرَ الهواءُ بالمسجد حين حاصروا يوسف في تلك الزاوية،

«تأملوا في الصفقة التي عقدتموها: سجن للحياة وفردوس للموت.» أرسل الميكرفون صريراً مَزَّق صدورَ أبوالرووس، صاح يوسف بينما تناوشته الأيدي والأقدام حاقدة تُهَشِّمُ وجهَه وأضلاعه ولا تستثني ركبته المعطوبة، كانوا يضربون إبليس ذاته حتى انهار جسد يوسف يعجنه الغضب وسكت النفس بصدره!

ظهرت حليمة مخترقة الحصار، لتجد ابنها مقيداً بأسلاك المسجد وقد لَفّوا وجهَه بشماغ أحمر ليحجبوا وجه الشيطان عنهم:

«طريق يا امرأة، ابتعدي لا يطالكِ الشيطان. .» لم تعبأ بالتحذير، شقَّت طريقها بين الرجال إلى جسد ابنها الفاقد الوعي. افترشت الأرض تُلملم إلى حِجْرِها الجسدَ المهشم، تراجع الرجال أمام الصدر العارم وقد سقطت عباءته. لكن وما إن ظهرت عربة الإسعاف على فوهة أبوالرووس حتى ماجت الجموعُ من جديد وغَلَبَتْها، وَجَدَتْ حليمة نفسَها خارج المسجد لتسقط خائرة بين ذراعي عَزَّة، بينما أسفر الشيخُ مزاحم عن لحيته البرتقالية مُؤجِّجاً حَميَّةَ الرجال:

«خافوا على دينكم، الشيطان يسكن في جسد هذا الولد الملعون، اقذفوه إلى الجحيم، لا تأخذكم به رأفة.» ارتجفتْ يده بمسبحته السوداء تُحرِّض المسعفين ورجال الشرطة على إجلاء الشيطان، ورَجَّع صداه الإمامُ داوود:

«زبانية إبليس، ومن أظلمُ ممن مَنَعَ مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها. . لهم في الدنيا خزي. .» بينما دار ابنه معاذ يُشعل أجهزة التكييف، ليُنهي الإثم الذي أحدثه يوسف.

حُمل يوسف إلى مدينة الطائف، أودعوه في مستشفى شِهَار للصحة النفسية لينتهي مُقيداً بملاءات السرير، في عنبرٍ مزدحمٍ بستة من المرضى يغرقون في مخلفاتهم، وينثرون رذاذاً نتناً مع كل صيحة يلاحقون بها الممرضين ومحاولات يوسف للإفلات. كان هياجه لا يُضاهى، القَدَر الأحلك من الموت: أن ينتهي إلى مستشفى شِهَار، هذا الاسم شِهَار، وحده يُعتبر إهانةً في زقاق كأبوالرووس بمكة، حيث تلد المريضات العذراوات فجأة، ويسقط الأصحّاء موتى بين ليلةٍ وضحاها، وتتسرّب العقول في أنابيب الصرف وتفرغ الرؤوس من هويَّاتها، وتنجرف الملامح بفيضانات العَتَه والذهول.

«لم يسبق لذهني أن كان بهذا الصفاء المُرَوِّع، رجاءً اسمعوني، لا يمكن أن تَتَخفّون أمامي، نحن جميعاً من المنافقين والكذابين.» عينا

يوسف لا كلماته هما اللتان نَهَبَتا الممرضين والأطباء، عينان جاحظتان ببريق صاعق لا يتضبب مهما حقنوه بالمهدئات التي تكفي لطرح بعير، يرتخي جسده وينعقد لسانه وتظل عيناه تخترقان الوجوه بإشعاعٍ حارق ليل نهارا شَدَّ المُعَالِجُ رأسَه إلى الأسلاك مُتَجَنِّباً النظر إلى عينيه، مثل شهابين تخترقان في الرؤوس حوله، الشحنة الأولى شقَّتْ في تلافيف الدماغ، ورفعت الجسد المتشنج سنتمترات في الهواء إلا أنها فشلت في غلق الجفنين، ضاعف الشحنة، يكاد يشم رائحة حريق في تينيك العينين اللتين لم تطرفا!

خلال أسبوع تلاحقت الجلساتُ الكهربائية، إلا أنهم فشلوا تماماً في تنويمه، تهاوت ذاكرته في شظايا مُحدثة جروحاً مثل خطو حمامة أخذت تظهر في مواقع متفرقة بجسده. عزلوه في حجرة مثل مكعّب معدني لمراقبة ظهورها. تكاثرت الصعقات التي فشلت في إحداث أي شرخٍ في صندوق الغضب الذي يبثّ السموم مباشرة لدمه حتى تحَوَّل جلده إلى البنفسجي القاتم.

حين نجح يوسف في التحكُّم بتلك السموم ومَطَّ قناعاً من الهدوء على ملامحه، حان موعد عرضه على رئيس الاستشاريين المشرفين على حالته، وهناك استقطب كل أقنعته ليستجدي أن يُسْمَح له بإجراء مكالمة هاتفية واحدة!

في اليوم السابع على يوسف بشِهَار ظَهَرَ العشّي مصطحباً أمه حليمة لزيارته: «أنا لا أقل جنوناً عن أيٍّ منكم.» تأملَ العشّي في يوسف، مُحْكَم الوثاق إلى المقعد الأبيض العاري، نثار لحية لم تُشذَّب، ملامح ملتوية بألم غير بشري، يتوسَّل بذاك البريق الناري، وحولهم عُري الحجرة المخصصة للزيارة، برد التكييف المركزي يتجَلَّد على وجوه ثلاثتهم، ومع ذلك كان العرق يتصبَّب في برابخ صغيرة من صدغ حليمة إلى الذقن ويقطر إلى الصدر العظيم، شيء في ذاك العَرَق ضاعف المَلْمَحَ الزجاجي

بعين يوسف، بدا جسده القاتم جافاً متيقظاً يُحرق بنار باطنية، الصوتُ الذي فحَّ من صدره حاصرهما في شظايا خشنة.

«أنتَ أملي الوحيد في الفرار من هذا الإذلال، مقيداً إلى السرير، أرقد مثل حيوان على مخلفاتي. في حظيرة تتبول حيواناتها وتتبرز في نومها..» استقرَّتْ عينُ العشّي على حليمة بتساؤل، وجاوبتْه:

«عاقلاً أم خالعاً، ما هذا بمكانٍ يليق بابن آدم.» للمرة الأولى في حياتها شرختْ المرارةُ صوتَ حليمة.

«فقط خذوني إلى الحرم، وخلّوني هناك.» تَوَسَّل يوسف.

«كهرباء دماغه بلغت الـ 95 درجة، خمس درجات أخرى ولا رجعة لهذا الشاب إلى عقله.» استشهد الطبيب في شرح خطورة حالة يوسف لحليمة والعشّي، «عادةً ما يتراوح تردد موجات البيتا بين الـ 15 و40 موجة في الثانية، مما يُعَبِّرُ عن دماغٍ في حالةِ نشاطٍ متوقِّد، بينما دماغ قريبك..» مُحاصِراً العشي بالمعلومات الطبية متوسماً فهماً، «ينتج 32 هيرتز من موجات البيتا بلا توقف، متجاوزاً الأربعين موجة في الثانية. يحتاج الدماغ إلى الغرق في نوم عميقٍ بلا أحلام ليُنتجَ موجات الدلتا التي تسمح لجسده بالتعافي وتُعيدُ مُوَازَنَةَ ساعته البيولوجية الداخلية. أقوى المسكنات فشلت في جعل ابنكم يستغرق في النوم، وإنني أؤكّد لكم أن مغادرته للمستشفى في هذه الحالة ستقطع الشعرة التي تربطه بالعقل.» كل ما فهمه العشي وحليمة من تلك المصطلحات أن يوسف بحاجةٍ إلى التواجد في بيت الله لموازنة هذه البيتا أو الدلتا أو موجات شياطينه! حين فشل الطبيب في تخويفهما لم يسعه إلا توقيع أوراق الخروج، وأمر بأن يُقاد يوسف مُصَفَّداً إلى عربة خليل الذي ينتظرهم.

لحظة خروجهم من بوابة المستشفى سارع العشي إلى فكِّ قيود يوسف، وللحال، وللمرة الأولى في أسبوع أغمضَ يوسفُ عينيه وغفا في

المقعد الخلفي للسيارة، راقبه خليل في المرآة وضاعت من رأسه كل عباراته المُفلفلة. اخترقت السيارةُ مدينةَ الطائف صوب الهَدَى وجبال كَرَا، هبوطاً لعرفات بينما حليمة والعشي وخليل ينصتون لصوت شهيقه السحيق، بدا يوسف كرجل يتنشقُ الحياةَ، يتنشَّقُ ذاتَه العاقلة التي خَلَعَها في إقامته بشِهار. ولكن وما إن بلغوا الحرم المكي، وقبل أن تتوقف السيارة، كان يوسف قد دفع الباب وقفز متلاشياً في الزحام. قبضت حليمة على ذراع العشي تمنعه من اللحاق به:

«هو بين يدي الله الآن.» ولم تُجَرِّبْ البحث عنه، فقط بعثت بمعاذ لكي يطمئنها إلى أنه لا يزال يتذكَّر أن ينام، ثلاثة أيام متواصلة لم يغادر فيها يوسف الحرم، ولا حتى لقضاء حاجة، بدا مُفَرَّغاً يغتدي حفنات من ماء زمزم، ويتعمَّق شعورُه بالخِفَّة والشفافية، كان يتعمَّد الوقوف في صحن الحرم، يَتَخَيَّر أحد الممرات الرخامية التي تقود إلى الكعبة، ويقف معترضاً طريقَ الداخلين. وكان بشر يخترقون من خلاله كما اختراقهم في حزمة شمس. لم يعد لجسده من وجود ككثافةٍ معيقة، كانوا يخترقون فيه بينما يعمل جسدُه كأشعة إكس تكشف دخيلةَ العابرين.

عن بُعد يقفُ معاذ، يرقب يوسف يتَّخذ موقفه كل يومٍ على بابٍ من أبواب الحرم. عند الأذان للصلاة، يستقبل الداخلين، يختطف أيدي الغرباء ويشدُّ عليها مُرَحِّباً بفرحٍ طفولي، يهتف مشجعاً: «أنتَ رجل طيب، أحبك.»

وفي أحيانٍ يطارد البعضَ بغضبٍ صارخ خلال أروقة الحرم، كما فعل ببائع أعواد السواك: «أنتَ شرٌّ، أرى فيك إبليس..»

يركض الناسُ فارّين أمامه، يُفْزِعُ من يُحيِّيهم ومن يشجبهم على السواء، ويحرصون على تجنبه، يؤلم معاذ أن يرى يوسف ينفلت كشبحٍ بين الأروقة يطارد أخيلة تَتَجَنَّبه وربما لا مكان لها إلا في رأسه. واستجمع قواه وتَقَدَّمَ منه، أخذ يوسف بيده بحماسة:

«لكم تُفرحني رؤيتُكَ بعين بصيرتي الجديدة، أراكَ يا معاذ امتداداً لجسدي، مثل رُكبة ثالثة لا يمكن لشيء أن يهشمها، لا يصدمك ما أفعله بالمصلين، أنا أرى خلالكَ، كما أرى خلالهم..»

«لا أعرف ما إذا كنتَ مُحِقّاً في ما تفعله يا يوسف، أنا لا أفهم لماذل تُرَجِّع صدى الشيخ مزاحم، تُصنِّف الناس بين ملائكة وشياطين؟!»

«لا، لا يا معاذ، لستُ أنا الذي يُصَنِّف، أنا لم أعد جسداً، أنا خفيف كشعاع.. حاول أن تمسكني.» تراجع معاذ، خُيِّل إليه أنه سيخترق خلاله.

بعد أيام وحين ظَهَرَ يوسفُ في أبوالرووس، كان صامتاً صمت القبور، وراقبه أهلُ الزقاق يقضي الليالي متيقظاً لا يغمض له جفن، تَوَقُّدٌ مخيف يُعجزه حتى عن الجلوس أو الرقاد، ليل نهار كان يدور يمزق أوراقه، بدأ ببطاقة أحواله الشخصية، مروراً بشهادة البكالوريوس الموقعة من جامعة أم القرى، ومسوّدات مقالات لصحيفة أم القرى التي لم تُنشر بعد، مذكّراته عن مكة، الصور الشخصية المعدودة التي التقطها له رفاق الجامعة:

«لن أترك كلمة، لا بد من التخلص من الحياة الزائفة التي سَرَقَتْني.» محموماً كَرَّرَ لأمه حليمة التي كانت تراقبه بصمتٍ، بينما كان يقذف بقصاصات ماضيه البريء إلى الزقاق، كل فجر يصحو أبوالرووس ليدوسْ على كومة طازجة من قصاصات حياة يوسف.

كل ذلك كان بعد خيانة عَزَّة الأولى.

حطَّتْ حمامة بين أقدامهما بصحن الحرم، وأعادت حليمة إلى الحاضر، تطوف الحمامةُ حول ذاتها وتهدل وتُصوِّبُ نظراتها النارية عميقاً إلى عين يوسف، أمامهما كان مقرئ أعمى يُتمتم تراتيله ويجحظ بياض عينيه، بينما القرآن بِحِجْرِه مفتوحاً على آية النور ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاةٍ..﴾ كلما تلاها تَعَزَّزَ بياضُ عينيه.

«كل هذا مؤقت حتى يكشفون حقيقة الجثة وتنجلي أمامكَ الغُمَّة، يا رب يا كريم.»

قَاطَعَهما ذلك الارتطام المباغت مُمَزِّقاً سكينةَ صحن الحرم، تبعثر الطائفون، وتراجع الزحام، تَفَجَّر أمامهما زجاجٌ، وللحال أدرك يوسف ما حدث، رجل ملثّم، كان قد مزّق القُبَّة عن أثر قدمي النبي إبراهيم، واستدار مُهَدِّداً الحراس بمنشارٍ كهربائي، وتعالت صيحاتُ الفزع:

«لقد سرق مفتاح الكعبة، أوقفوا الكافر...» تردَّدَ الحرس خوفاً من أن يطالهم المنشار، بينما اندفع الرجلُ نحو المسعى، وللحال اندفع يوسف متخذاً طريقاً مختصرة، في دورةٍ حول ركن صنابير زمزم حيث ترك المقعد المتحرك الذي يعمل عليه. كان السارق يتّجه صوب باب المسعى الخارجي حين اندفع المقعد المتحرُك قاطعاً طريقه، الاصطدام أرسل المنشار الكهربائي في الهواء ليسقط أمام قدمَيْ حليمة التي جاءت راكضة في أعقاب يوسف:

«الحرامي، انتبه يا يوسـ..» تحشرجت الصرخةُ بصدرها، في لمحةٍ التحم الجسدان، وتدحرج يوسف مع السارق، وراقب الحشدُ الجسدين غير المتكافئين في صراعهما، حارب يوسفُ النحيلُ ذلك العملاق بالقوى الخارقة لمجنون. تدحرج المفتاحُ على الأرضية الرخامية، وغاص يوسف وراءه، وشهقت الحشودُ ترقب المفتاح ينزلق ويدور لتبتلعه تلك الحفرة المخصصة لتصريف مياه صنابير زمزم. وتَدوَّرت الحفرة في شهقةِ فزعٍ لابتلاعها مثل تلك الثروة المقدسة. وغاص يوسف بيده في الحفرة بينما تلاشى السارق كأن لم يكن. حين ظهر رجالُ الشرطة، واستحضروا ممثلي شركة الصيانة للتنقيب في الحفرة، لم يكن من أثرٍ لا ليوسف ولا للمفتاح. حتى شهود العيان شكّكوا في كونهم قد رأوا المفتاح يغوص في تلك الحفرة.

وحلَّ في المسجد الحرام صمتٌ ثقيل، أسرابُ الحمام تَجَمَّدت على

أقواس الأروقة، وانفغرت القُبَّة المهشمة على مقام إبراهيم بفجيعتها، كاشفة القدمين لليل مكة، وبدت القدمان النبويّتان تتحرقان لإتمام رحيلهما الأبدي.

عائشة: احتمال أوّلي لجثة

أنا أبوالرووس تظاهرتُ بالموت حين جلسَ المحقِّق ناصر القحطاني مُوَاجِهاً لقهوته الباردة يلعبُ بنوى التمر محتمياً بظلال المقهى القائم على فوهتي. انتظر بصبر مستتراً بالظلال تمتصُّ سماكةُ زِيّه الرسمي وهجَ الشمس، يتصبب عرقاً مراقباً الشيخ مزاحم في حانوته، حتى توسَّطت الشمسُ السماء وارتفع أذان الإمام داوود، وتوكّأ مزاحم على عكازه متجهاً إلى المسجد للصلاة. قفز ناصر مجتازاً الزقاق، لم يكن من الصعب على ناصر التسلل عبر الحانوت للباب الصغير الخلفي، مخترقاً إلى المخازن الخلفية، ابتلعته متاهةٌ من الحجرات الصغيرة الطافحة للسقف بأكياس الأرزاق، لا تترك إلا فسحة لوقوف رِجْل. تَقَدَّم ناصر يستدرجه الهجرُ وعبقُ الأرزاق المنتهية الصلاحية. رأى جهاز الراديو القديم، صندوق ضخم مُفَرَّغ ويختبئ تحت السلالم الضيقة المؤدية للسطح حيث تقيم حليمة وابنها يوسف. في هذا الراديو تخبئ عزة رسائل يوسف، اتجه إلى آخر صفوف المخازن حيث مطبخ عَزَّة، أمامه كان الموقد الصغير على طاولة منخفضة، حول الموقد قدور النحاس وأطباق الميلامين غير القابلة للكسر تتشمس تحت الفجوة الفاغرة في السقف. من الحمّام العربي المتآكل الجدران ينبثق خرطوم مياه صدئٍ لا يزال يقطر، رفع ناصر عينه متأمِّلاً نافذة الحمّام الضيقة قريباً من السقف، على قضبانها راقب قصاصات الأقمشة التي تتركها عزة رسائل ليوسف تفضح تحركات والدها، مجموعة من القصاصات السوداء تتوسطها قصاصة وحيدة حمراء.

لم يكن بوسعه ترجمة تلك الرسالة، لَفَتْه الخِرَقُ كالحفائض مغسولة ومُعلَّقة لتجف، تحطَّبتْ ولا تزال تحمل رائحةَ وحدودَ بُقع الدم العصية الإزالة. هل من الآمن التسلل إلى عزَّة الآن أم لا؟ واقفاً في تلك الفسحة الضيقة، مواجهاً لتلك القصاصات شعر ناصر بأنه هو المُرَاقَب.

حجرةٌ وحيدة راقبتْه من صدر المخازن، لا بُدَّ أنها حجرة عَزَّة، حين دفع بابها فاجأته الحجرة بعُريها، تهزأ من زِيِّه الرسمي وتتنصت على خطواته التي تمتصها الأرضيةَ الإسمنتية. لم يكن في الحجرة من أثرٍ لحياةٍ أو متعلقاتٍ شخصية، لا ثياب ولا طبعة يد منسية على الحوائط، خزانة الثياب البلاستيكية واقفة نحيلة مبقورة بسَحَّابٍ مكسور، كما لو أن عزة قد بَقَرَتْ كل حياتها. فراش محشو بقطنٍ صلب يتمدد على مصطبة أسفل النافذة، انحبست أنفاس ناصر. الحجرة عارية تماماً، ولا عبق أنثى في جنباتها. هو المُدَرَّب على التقاط عَرَق القتلى لم تلتقط حواسُه لمحةَ عَرَق واحدة. ولا شعرة ساقطة في ركن، أو عالقة بالفراش، مسرح مثالي ممسوح من أي بصمةٍ أنثوية، ومع ذلك فلقد أثاره. انحطَّ ناصر جالساً على الفراش، متخيّلاً عزة مقيّدة إلى ذاك السطح الصلب، وللحظة أعماه انتصابُه. أغلق عينيه لاعناً ذاتَه، وأجبر ساقيه على النهوض بجسده الخائر، وذهنه على التركيز في الحقائق حوله. كانت الإقامة قد رُفعت وافتتحت صلاة الظُّهر في المسجد، أربع ركعات يرجع بعدها الشيخ مزاحم إلى حانوته. أعاد ناصر التأمل في النافذة، أحدهم كان قد مزّق العوارض الخشبية، وتركها متدلية من مساميرها الصدئة. يوسف كان قد كَتَبَ في مذكراته أن تلك النافذة كانت مُسَمَّرة لم تُفْتَح قط. هل قُتِلَتْ عَزَّة وقُذِفَ بها من هذه النافذة المخلوعة؟

ركع ناصر رافعاً طرفَ فراش القطن الصلب، ليكتشف تلك الفتحة للتخزين في جسد المُصطبَة. من قلب التجويف حَدَّقت فيه عين الرجل الوطواط، نسخةٌ من عدد قديم لمجلة الوطواط، تزداد اصفراراً من طول

التنصُّت للهجر في تلك الحجرة والزقاق.

غاص ناصر ليرى ما يحويه ذاك الجارور، فجأة قفز جسدٌ على الفراش ودفنه في الفتحة، ارتطم وجهُ ناصر بوجه الرجل الوطواط، شعر بركبتين لزجتين تغوصان في ظهره قبل أن ينفلت الجسدُ المُهَاجِم، بخفةٍ خاطفةٍ يصفقُ بابَ الحجرة بالجدار وينفلت في المخازن. مذاقُ دم شاع بحلق ناصر وأنفه. للحظة خُيِّل إليه أن عنقه قد دُقَّتْ مثل دجاجة، وغطّى وجهَه الدم كقناع الوطواط. أوقفه الرعبُ على قدميه، نظر حوله فما كان من أثرٍ لأحد، فقط التكسُّر في هواء الحجرة وبابها المُشْرَع، متأخراً اندفع ناصر وراء مُهَاجِمِه، وقفَ بين حجراتِ المخازن حائراً، كل الأبواب مشرعة بلا أية آثارٍ للأقدام على عتباتها المتربة، مثل توقيعات أخفاف ماعز قادته تلك الآثار إلى الحجرة الأخيرة، والتي بدت مثل حَمّام قديم، بباب موارب مُعَزِّزاً شكوك ناصر، حشر ناصر بجسده في العتم النتن في محاولة للنفاذ إلى الداخل، كان من المستحيل دفع الباب أبعد، مجموعة من أكياس الخيش تصدُّ تقدّمه، الفتحة من الضيق بحيث لا تسمح بعبور جسد بشري.

الوشوشة بمكبرات الصوت أوحت بأن الصلاة قد بلغتْ ركعتَها الأخيرة، كان على ناصر أن يغادر فوراً، فجأة لفتت انتباهَه الحركةُ في عمق الظلام بركن الحجرة، تأتي من وراء كومة من أكياس الفحم، دفع ناصر برأسه في فرجة الباب الضيقة، متوقعاً لطمةً تفصم رأسه عن كتفيه، لكن العين التي بادلته النظرات النارية لم تكن سوى عين جرذٍ ضخم، جرذ أبوالرووس، الذي مضى يقضم بهستيريا بينما توسَّعتْ عينُ ناصر بقرف. ضحكةٌ ساخرة تسربت من الزقاق إلى المخازن، تسليم الإمام داوود خاتماً الصلاة هو ما انتشل ناصر من مخازن الشيخ مزاحم، ساخراً راقب مُحَاسبُ المقهى السوداني المُحَقِّقَ ناصر الذي اندفع في شمس الظهيرة، بوجهٍ دامٍ وعينين تلاحقان شبحاً.

مندفعاً في الزقاق لم يعد ناصر واثقاً مما حدث في حانوت مزاحم، هل خَزَنَتْ عَزَّة الرجلَ الوطواط تحت فراشها لتُضَلِّل كلبَه البوليسي بقطعة لحم مسمومة؟

خلال عقدين من الكدح كان ناصر قد أحرزَ سُمْعَتَه كباحثٍ جنائي من الطراز الأول حين طَوَّرَ نظريّته حول تحليل الظواهر السلبية في تَقَصّي الفعل الإجرامي، وتفعيل الدلائل اللامنطقية.

مثل كلب بوليسي نادر دَرَّبَ ناصرُ حدسَه لكي يذهب وراء الشخصيات التي لا تترك أثراً، فراغ البصمات هو تأكيد لوجود القاتل، يؤمن أن أنفاسَ وعَرَقَ المجرم مثل عوامل التعرية تترك أثراً في المكان بوسعه قراءته، مما حَرَّض رفاقه على إشاعة أنه يستعين بالجِنّ في كشف القضايا العويصة كما تفعل بعض الدوائر الاستخباراتية. ودليلهم على ذلك الدائرة التي تتصدر لوح إعلاناته. في كلِّ تحقيقٍ عَادَةً ما يبدأ برسمِ دائرةٍ: نُقطةُ المركز فيها (الضحيَّة)، وحولها دوائر تَتَبَاعَد كدوَّامات. يبدأ عادة من الشخصيات الهاربة لأبعد نقطةٍ على المحيط، وتتصاعد إثارتُه بالبحث عن الخيوط الخفيَّة التي تُرجعها للمركز (للضحية)، دائرة ساذجة لكنها تُفحم معاونيه فيؤمنون بسحره.

كان بوسع ناصر الجلوس للأبد في المقهى، يروح ويجيء على تلك الدائرة السحرية، ما يُحيره في هذه القضية أن (المركز) مفقود، مما يُحَفِّزُ كلَّ أداوته البوليسية. لن يترك المركز خالياً، لذا ففي المركز وَضَعَ (أبوالرووس) أنا الضحية!! وفي أبعد نقطةٍ عن الشُّبْهَة على المحيط احتارَ مَنْ. . . . فثبّتني أنا أيضاً (أبوالرووس). تراجع ناصراً متأملاً في عبقريته: (المجرم والقتيلة هو أنا أبوالرووس) مُعَادَلَةٌ قد تدعو إلى السخرية، لكنها تملّقتْني. شعرتُ بالخطورة أن أنجح في إضافة بعض البُهار إلى الركود الخانق حول ناصر هذا.

على الدوائر قام المُحَقِّق ناصر بتوزيعِ نقاطٍ من الشخصيات والبيوت

التي سيعتمد عليها لبناء جريمة أبوالرووس، (بَنَى قضيَّتَه على المحور الأزلي: عامل حواء في السقوط من الفردوس) لذا أعطى اهتماماً خاصاً للشخصيات النسائية وعلاقتها بتلك المَحَاور، مثل عَزَّة وعائشة (تَرَكَهما طافيتين بين مركز الدائرة وأول محيطات الشُّبْهَة) وذلك نتيجةً للتكتم أو إنكار اختفائهما المُتَزَامِن من الزقاق. بالإضافة إلى فيضِ الورقِ عن المرأتين. . بدأ المُحَقِّق ناصر بِجَمْعِ الإشاراتِ الصغيرة (إليهما) ضِمْنَ الإفاداتِ المُطَوَّلَة التي تربط بينهما وبقية الدوائر والمركز، هنا استوقفتْه الإشارةُ العابرة في يوميات يوسف ووصفه لعائشة بـ (الباردة!!). . .

كيف هي المرأة الباردة؟ البرود مُرْتَبط في ذهن ناصر بالأداء (الجنسي)، كامرأةٍ لا تنجح في مداعبة خَيَالَها في المرآة؟ (نبَّهتْه حاسةُ الكلب داخله بأنه يَتَشَتَّت) لكن (الرَّجُل) فيه تَغَاضَى قليلاً بدافع النَزَق، نَبَشَ عن مفهومِ البرودِ الذي عَنَاه يوسف في يومياته، قرأ:

12 أكتوبر 2004:

(سأُسقط: (عائشةَ)، لا أكتبُها لأنها باردة، وحسب مقاييسي فلقد سَبَقَتْ أهلَها بالموت، أحياناً يُخيَّل إليَّ أنها تقترب من عمرٍ حين يبلغه المرء ينغلق عليه مثل مصيدة. لا أعتقد أنها تقرأ رغم كل الكتب التي تسبقني إليها، ولا تكتب رغم أنها معلمة سابقة، عائشة مثل حَصَّالة كلمات. عائشة الموسوسة - الآن - بالنظافة، محفورة بذاكرة أبوالرووس: كنا ننتظرها حفاة حين تهبط من حافلة نقل الطالبات، نتبع منها رائحة سمك مُجفف، نرقب كعب قدمها اليسرى، ننتظر خيط الدم الرفيع الذي لمحناه يوماً يصبغ جوربها بالأحمر. كلنا عرفنا أنها قد حاضت قبل كل بنات أبوالرووس، اللواتي حَوَّلن حافلةَ المعهد إلى علبة سمك مُجفف.

لتكتب عائشةُ نَفْسَها في الفراغ، فأنا قَرَّرتُ الا أقاربها)

(باردة) و(سَبَقت بالموت)، نَشَبَتْ العبارتان بعين المُحَقِّق ناصر،

سَارَعَ إلى الملّف الشامل لرسائل عائشة الإلكترونية، والتي عُثِرَ عليها في حاسوبها تحت خانة مسوّدات drafts بعنوان (الواحد) ومُوَجَّهة إلى ألماني مجهول، استخلصَ ناصر الورقةَ الأولى وبدأ يقرأ:

من عائشة / رسالة 2:

قلتَ إنك قد كنت في الرابعة والعشرين حين عملتَ في تلك المستشفى، تحمل جثث الموتى من الثلاجة إلى ذويهم، وتعمل بنصيحة العامل العجوز فتتخيلها أحطاباً لتُحارب خوفك.

كيف تتخيّل مراسلاتنا، من مستشفى بألمانيا لزقاق بجزيرة العرب؟

استمراراً للمرض الذي تَبَنّاني لمدة عامٍ سيكون من السهل عليَّ أن أهذي؟

لماذا نشعر بأنفسنا صغاراً ضائعين حين نرقد هكذا في فراش وحدنا!

أهكذا ينفردُ بنا النعش؟

بوسعي أن أغمض عيني وأسمعُ طقطقةَ الدهن بأستار بطني.

كُنّا ستة ننام في مساحة ثلاثة أمتار مُرَبَّعة.

يقولون هناك كائنات لا تُرى بالعين ولا تفنى بغُسْلٍ ولا بمُعَقِّمات تنتظر في ألحفتنا وفُرُشنا لتأكل من أجسادنا. نتآكلُ أحياءً. أتحتملُ هذه الفكرة؟

في بُعدكَ، أرقد في فراشي وحيدة أحمل جذوع الموتى المُتَخشِّبة رواحاً ورجعة بمشرحة رأسي،

هل قلتُ لك: عائشة في العربية تعني التي تعيش وليس التي تحيا!

تَغَيَّرَ مذاقُ الشاي في حلق المُحَقِّق ناصر، انعقدَ سُكَّرُه الكثير (أربع ملاعق) على لسانه، بهذه المرأة التي تتكلّم عن الجسد، وعن السوس الذي يتآكل الجسد!! كامل حدسه البوليسي وجسده تأهب لتلك الورقة، أيّ برودةٍ هذه التي يتآكلها السوس؟ السوس يأتي من التحَلُّل من الحرارة... فجأة لم يعد كافياً جهازُ التكييفِ والمروحةُ التي تحرك هواءَ الحجرة... أكملَ قراءةَ الرسالة:

الكون يعجُّ بالرسائل المُتَبَادَلَة، في العالم الضوئي تكسَّرت الحدود، لأُناسٍ من أرجاء الأرض في بحثٍ مُضنٍ عن الحب، لتبادل ضحكة أو رفقة خفيفة...

كلماتي ضمن أسراب تلك الأصوات اليائسة والتي تبحث عن مَهْرَب.

أتواجد على الشبكة العنكبوتية لأتعلّم كيف أتحاور مع رَجُل. هل يجعلني ذلك ساذجة بنظركَ؟

رفيقةٌ مُطَلَّقَةٌ قالت لي يوماً: (كيف أتواصل وثياب الرجل، كيف لي أن أعرف أن للغُتْرِ نشاء يوقفها كعُشٍّ على الجبهة، أنا التي كبرتُ يتيمةً بين نسوة، لم أنظر إلى رجل في حياتي وجهاً لوجه، ما أهمية هذا العُشّ على أية حال؟! وكيف أعرفُ حرارةَ الماء التي يُغْسَلُ فيها الثوب لكي لا يتخشّب؟ مادة ثياب الرَّجُل وجسده ورأسه لعبة لا أعرف أسرار صيانتها وتلميعها الساطع! لم أعرف أن للرجال وسوسةً بالسيارات والكُرة وراقصات الفيديو كليب الأكثر إثارة! أنا خارج ألعالَم.)

يومها شعرتُ بالفوقية تجاه تلك المُطَلَّقَة، إذ لا تحلم غُتْرَةٌ بتطليقي. كَيّ ثيابِ الرِّجَالِ لُعبتي، خِرِّيجةُ ستة إخوةٍ ثيابهم صقيلة كالورق وغُتَرُهم ميازيب لا تنكسر بسجود.

إلا أن اللغات الذكورية الأخرى، لغة الحياة مع رجل فاتتْني، حين يجيء الأمر لملاغاة جسد رجل يتملّكني الجِذْعُ المُتَخَشِّب. (هناك هذه القصة من التراث المنسي، عن طفلة تولد لرجل موسوس بالعفة. يقوم الرجل بحبس ابنته منذ ولادتها في عالم يصنعه في قبو تحت بيته، بلا كوة للخارج، ويمحو من ذلك العالم كل أثر لذكورة، فلا يسمح لأيِّ موجود أو آلةٍ مُذَكَّرة بالدخول عليها، لا يرسل لها الأكل في صحن مذكر وإنما في صينية مؤنثة، ولا يطعمها لحم الخراف وإنما لحم الأبقار المؤنثة. ولا ترقد في سرير لأنه مُذَكَّر وإنما في محفة، ولا يزينها بالعقود والأقراط المذكرة وإنما بالأساور المؤنثة.. وهكذا.. وعهد لعجوز خبيثة بتربيتها في محيط التأنيث ذاك.. العالم الذي كبرت فيه الفتاة لم تغب ذكورته فقط وإنما لم تُخلق أصلاً. كان عالماً من التأنيث الخالص غير القابل للنقض أو للمُداخلة. لكن، وفي يوم، حَدَثَ أن

تسرّب مقص إلى القبو، ووقع في يد الفتاة التي صُدمت بذكورته، حيث قامت بإخفائه مدركة خطورته، وبالطبع كان أداتها لحفر نفق في القبو مكّنَها من الإطلال على الخارج، حيث سمعت من يتحدث عن الأمير هَرْج بن مَرْج الجميل الذي لا يُقهر، بشعره سبعين طيّة على السرج...) ولا حاجة للقول بأن تلك الآلة الوحيدة المُذَكَّرة كانت كافية لهرب الفتاة ومنازلتها وقهرها لهرج بن مرج. الانفلات الذي عجزنا عنه نحن، فتيات القرن العشرين بأبوالرووس. إذ تمت تنشئتنا في عوالم شبيهة تحت الأرض، وحين يُسمح لنا بالخروج فلا بد من طمس وجوهنا بالأسود، طاقية إخفاء تُحيلنا للاوجود، فلا يلحظنا العالمُ المُذَكَّر. لقد تم ترويضنا بحيث نعمى عن التذكير، هذا التذكير الذي تم إخصاؤه بحيث فقد قدرته على تقديم الخلاص لنا كما في هرج بن مرج. والغريب أن هذا الحكم بالطمس هو أحد رموز الحداثة بأبوالرووس، إذ خلال تاريخه، وحتى بدايات القرن العشرين، ظل وجه المرأة مفتوحاً للعلن وللشمس.

يكفي أن أستحضرَ مذاقَ تمرةٍ لأُفيق في الصباحات التي لا شيء يُحرِّضني فيها لفتح جفني. التمرُ في تاريخ الحجاز أصنام تُعْبَدُ وتؤكَلُ بلا شعور بالإثم. وبمُطْلَق الإيمان.

تستعبدني عَجْوَةُ المدينة هذه السوداء الأقرب للجفاف، لكن بقلبها رطوبة تطلع من لُعابك. تمرُ يثرب يحمل من أشواق مدينةٍ تنادي للرحيل وراء الإيمان، أينما يميل إيمانك ملْ، لذا لها حلاوة مُضَاعَفَة.

هذه العجوة هي أنا على لسانكَ (تحتاج مضغاً لِتَنزّ)، لذا أجد اللوحات التي ترسلها لي، والألوان ناطقة، تغمر وجهي بحفنناتِ صباحٍ ربيعي، يا إلهي كيف أن كتابةً بسيطةً تعطينا هذا الفيض من السِّرِّية والفرح!!

قل لي لماذا تُصرّ على أن نجد لغتنا الخاصة؟ عربيّتي لا تصلكَ؟ وألمانيتكَ لا أفهمها؟ تبقى لنا هذه الإنجليزية المتقصّفة، هِبَةٌ إلهية أن تنسبَ تلعثمي لِـلُّغةِ لا للضحالة.

لنُعطِ ظهورنا للكلام والثرثرة. دعنا نتكلم كمن يضيع داخل غابة: لا تدّعي

أنكَ تفهم الغابة التي تأخذكَ، لكنكَ تسير، تغوص قدماك في طينها المبلل بالمطر، وتمسُّ جبينك أغصانُها المحملة بأنداء البارحة، وتطالع وجهَكَ روائحُ براعمها وخضرتها التي لم تُمَسّ، ويستسلم لنداءاتها ونسائمها الخفية..

هذه هي اللغة التي أريد أن نتعارف بها، كلِّمني كما تُكَلِّم طريقاً، ماشيني، أمش فيَّ، وخلالي، بصمتٍ أو بفوضى، اركض أو تمهّل أو ازحف لتمسّني بكل عضلة ببطنكَ، ودعني أمدّ لساني لالتهام مرورك.

لو كنتَ أمامي - كما كنتَ طوال مدة علاجي بمستشفاكم - لكان بوسع يدكَ أن تأخذ بيدي وتكون حيرتي ودليلي. تُسَمِّي الأشجارَ النابتةَ برأسي، والظلامَ الذي يَحِلُّ عليَّ كلما أردتُ إطلاقَ العنانِ لأحلامي، وهذا الندى الذي يفوح بمركزي كلما راودني وجهُكَ يَنسخُ وجهي. مرآةً لي صرتَ، استفتيها كيف أبدو؟ وكيف يظهر شوقكَ حول عيني؟ وكيف تتحوّلُ رغبتُكَ إلى بثورٍ منثورة على جبهتي؟

قل لي: أما زلتُ «جميلة منعشة، كقمر صحراءٍ» أنتَ قلتَ ذلك يومَ أثلجتْ في بون. هل شَوَّهَني تَعَلُّقي بكَ؟

أنت الذي بربتةٍ على الكتف قُلتَ آني وأمسي وغدي، الكلمات الأحلام، كلمات النعاس تُنوِّمني تحت يديكَ، كلمات كعروش صغيرة أجلس في هذه وأقفز لتلك كطفلةٍ مُدللة.

التوقيع: عائشة.

طَوَّحَ المُحَقِّق ناصر بتلك الرسالة بعيداً، دَفَعَ اسمَ عائشة أقرب للمركز، الكلبُ فيه قال: إنها تستحق الإعدام. قَاوَمَ حَاجَتَه ليدفع بإصبعه إلى حلقه ويتقيأ الحموضةَ التي بَعَثَها بريدُ عائشةٍ وتهريبها لغريبٍ كهذا لأبوالرووس، من كلماتها القليلة تأكَّدتْ في عائشة خُلاصة (الرغبة الموقوتة) والمُتَرَافِقَة (بالخيانة الموقوفة) والتي يعرف من ممارسته الجنائية أنها مدفونة في كلِّ امرأةٍ تَعْبُرُه، ولا يتوصَّل لفَكِّ فتيلها أو التنبؤ بنقطة الصِّفْرِ في عَدِّها العكسي.

مهما تَصَاعَد تَحَفُّز (الكلب) فيه كانت استثارةُ (الرَّجُل) تسري وتسوقه للاستزادة، لجعل هذه المرأة المُبَاحَة تَتَعَرَّى أمامه، وَجَدَ المُحَقِّق ناصر نفسَه ينساق وراء تلك العبارة القصيرة في رسالةٍ مُستقِلَّة بلا ترقيم:

من عائشة:
جاوبتَ كلَّ شكوكي في دوام مشاعركَ بقولكَ: أنا أراكِ!
ها هو وجهي، أنحن من يحفر الخرائط على جلودنا؟ وجوهنا الشرقية مُحمَّلة بأحزان، بينما وجوهكم مثل بلاستيك، بلا تجعيدة عذاب؟ أعتقد أن أرواحنا قديمة، أرواحاً مستعملة، محمَّلة بمعرفةٍ ثقيلة عن الحياة والموت.
أول مراهقتي قرأتُ أن الألم هو ما يحرق الشوائب ليكشف معدن الذهب فينا،
كثيراً كنتُ أجلس وأُجَرِّب الألم، من لا ألم،
كان بي شيءٌ أعمقُ من الألم، هذه الحاجة إلى شيءٍ، إلى يدٍ، هنا،
حفظتُ صورةَ جذعِ الشجرةِ هذه التي نَقَشَتْها قرونُ الوعول التي تحكُّها لشحذها لمواسم التزاوج في الربيع،
كل نظرة ألقيها لتلك الرموز على الجذع يجاوبها هذا (الأعمق من الألم)..
لم يخطر لي أن أقولَ يوماً هذ الذي أقوله لكَ الآن، لأنكَ لن تقرأ عربيتي..
الآن.. أدركَني. لا أقول الألم، وإنما الأعمق منه، ما وراء كل ألم...
هل صار وجهي كأقنعة التراجيديا اليابانية؟
التوقيع: عائشة.

لا يَتَوَقَّف، يُقَلِّب ناصرُ الأوراقَ يسابق الألماني لهذه المرأة المكشوفة. من سجلاته الجنائية يعرف أن المكيَّة تَبرعُ بالعشق المُبَكَّم. عادةً ما يحتاج في تحقيقاته إلى كُلِّ (زلات اللسان) و(أصناف الضغوط) و(التهديدات) ليُجرجر أسرارَها السحيقة، وينقطع به الحبل. . . أما هذه فتُسجِّل كَشْفَها بأحرف تُدينُها حتى وإن كانت لم تغادر بها خانة drafts، فالحرف يجب ألا يكون (رقصةَ تَعَرٍّ) لأُنثى ومن مدينته المُقَدَّسة، لو كانت

عائشة هي الضحية فهي المَرَّة الأولى التي تُصادفه ضحيَّةٌ تُصِرُّ على أَرْشَفة فضيحتِها عبْرَ سُتُر الموت.

شَعَرَ المُحَقِّق ناصر بإثم حين أطلَّ الجندي في تلك اللحظة ليُنبّهه لنهاية فترة مناوبته، تساءل ما إذا كان بوسع الجندي قراءة إثمه:

«يا رحمة الله.» بَادَرَه الجندي، «أسمعتَ، الضابط علي تَوَلَّى التحقيق في قضية سرقة مفتاح الكعبة، لقد وجدوا السارق مقتولاً وقد أكلته الكلابُ في أم الدود خارج مكة.»

«حقاً؟!!» تَبَسُّط الجندي أزعجَ ناصر.

«كان يجب أن يعهدوا لكَ يا سيدي بهذه القضية، الكل في دائرتنا الجنائية يقول ما لها إلا الضابط ناصر..»

«شكراً، لكن يدي طافحة الآن.»

«هي لعنة ألا يجدوا المفتاح، لو كان الأمر بيدي لنصبتُ شَرَكَاً للشاب الذي هاجم السارق، ماذا لو كان المفتاح معه؟ لقد نقَّبتْ شركةُ الصيانة الحفرةَ والأنابيب ولم تعثر على شيء.»

«يا لمخيلتك الخصبة، تؤهلكَ لتكون مُحَقِّقاً من الطراز الأول..»

احمرّ وجهُ الجندي، نبح الكلب البوليسي الساكن لناصر مشيراً إلى حادثة سرقة مفتاح الكعبة، لكن ناصر لم يُعره انتباهاً، فقد كان نافد الصبر لينفرد بتلك الرسائل العارية.

«ما سيحل بنا أمة المسلمين ما لم نعثر على المفتاح، هل يعني هذا أن الله يوصد بابَ بيته في وجوهنا؟ أنحن ملعونون؟»

«الحل في أن يصبّوا مفتاحاً جديداً لحين حَلِّ لُغزِ المفتاح المسروق.» قالها موصداً الحوار،

«لقد حاولوا يا سيدي، صبُّوا أكثر من مفتاح، كلها انكسرت في القفل، ربما سيحتاجون إلى خلع الباب كله..»

«يحتاجون إلى خبيرٍ في الصَّبِّ، هذا كل ما في الأمر..» تحرَّك

ناصر صوب الباب فاضطر الجندي للمغادرة. في طريق خروجه تردَّدَ ناصر، استدار عائداً للمكتب، حَمَلَ كرتون الأوراق ألقى فيه مِلَفَّ رسائلِ عائشة المطبوعة وخَرَجَ بها، لم يستوقفه أيُّ تساؤلٍ كما لو كان خارجاً بمتعلقاته الشخصية. حين ركب سيارته (نَبَحَ الكلبُ داخله: بفعلتكَ هذه قد بدأتَ تَوَرّطكَ.)

شذرات

حمل الأوراق إلى شقته الصغيرة بحي الزاهر، تلك المساحة التي لا تزيد على حجرة نومٍ واسعة في ركن منها طاولة مطبخ، وعلى اليسار حمَّام صغير، مساحة اجترَّتْ عقدين من شبابه.

كلماتٌ مِنَ الرسائلِ واليومياتِ عَالِقة بجسده تُدغدغه، تستثيره، ألجمَ (الكلب) واستلمَ (الرَّجُلُ) الزمامَ: وَضَعَها على السرير، ألقى بسترته الرسمية فوق ظهر الكرسي ثم خلع سرواله، وَقَفَ وجهاً لوجه مع جسده القصير المحبوك، مَرَّر يده على كمال عضلاته، وهبوطاً:

«ما رأي فَتاة كعَزَّة أو عائشة بهذا الكمال؟!» احتاجَ إلى وقتٍ لتصريف تلك العيون والأيدي المُتشنِّجة على عنفوانه، وتصريف مَوْجِها البهيج المُعَذِّب. انتهى غارقاً. نظر حوله مُعْتَذِرَاً لجمهورٍ وَهْمي، مفكّراً بعين (الكلب) اللامبالية ترقبه. سار إلى الحمَّام، تَجَاهَلَ المرآة القصيرة والتي لا تكشف أبعد من وجهه وكتفيه، استسلم لرشاش الماء القوي، مَسَحَ كلَّ آثارِ تورّطه، ملفوفاً في فوطته رجع إلى حجرته وسريعاً جَهَّزَ كوبَ الشاي السريع من أكياس الليبتون، وشطيرة الجبنة، وحُزْمَة الجرجير وطَبَق الخيار، جسدُه لا يزال في حالةِ استنفارٍ ويستكثر الثيابَ ليستلقي عارياً للعالم، مدسوساً في سريره في أغطيته المُهَوَّشَة، مُتَحَسِّساً بكامل ظَهْرِه وساقيه قُطنَ الوسائد والملاءات، مُوَاجِهَاً لشاشةِ التليفزيون 45 بوصة

(والتي قَسَّطَ ثمنها على ثلاثة أعوام، لتفتح حُجرة نومه الضيِّقة، على بحارٍ وجبالٍ ونسوة يتمشَّى في غوايتهن كل عَشيّة). على المنضدة المجاورة فَتَحَ ملف الرسائل، وتحت قدميه ترك الصندوق العامر بالرطوبة (وبقطراتٍ من توقيعه الشخصي على اليوميات) وبدأ يقضم، وبأُذُنٍ على القَناةِ الرياضية وبعينين على اليوميات يقرأ، تاركاً لكل ورقةٍ وكلمةٍ حَفْرَ عُريِّه. تابع قراءة رسائل عائشة:

من عائشة / رسالة 3:

كم مرّة ايقظتَني في نهاية جلسة التدليك؟ بِظَهْرِ سبّابتكَ على وجنتي صعوداً؟

اتعرف؟ لمْ يربِّتْ أحدٌ على كتفي قبلكَ. في بيتنا الحُبُّ يقفُ على الباب مثل قنفذ يلبس أشواكَه قبل أن يجتاز العتبة. الحُبُّ في جيب أبي وقدور أمي، يجب أن تُحصي كلَّ ما أنفقَه أبي وكل ما طَهَتْه أمي لتعرف كم أنتَ محبوب.

بمُرَتَّب مُعَلِّم المدرسة لا يسمح لأبي بالبذخ، كان يوفِّر لنا دهشات صغيرة، كل ليلة جمعة نحتفل، يشتري لكلٍّ مِنَّا ساندويتش شاورما ورغيفاً فارغاً من الخبز الصامولي. وكنا نقسم لحم الشاورما بين الرغيفين لكي نشبع جوع بطوننا، جَدَّتي كانت تُؤكد أن في أمعائنا حَيّات تأكل عنَّا لذا لا نشبع. لكن أبي لم يكفّ يتحايل على تلك الحيّات لتشبع.

كان ذلك طقسنا المُقَدَّس، الفاكهة كانت طقساً آخر، اجتهد أبي ليوفر لكلٍّ مِنَّا برتقالةً كل يوم، خوخة كل أسبوع، وعنقود عنب كل صيف. أخي الأصغر، وهو الأثير عند أبي، كان يحتفل بخوخة يومياً طوال الصيف، وكنا نرقبه وننتظر مثل غربان لكي يقذف ببذرة خوخته، لا يعرف كيف يُجَرِّدها للعظم، وكنا نكمل عنه تلك المهمة.

قلت إنكَ قد كبرت بهذا الشعور بالإقصاء، بالهجر، حين أرسلك والداك وأنت في السادسة إلى تلك المدرسة الداخلية، لتتخرج في الثامنة عشرة للحياة، بلا ملامسة لقلب.. قلت إنك وُلدتَ جامحاً ولكن لست جامحاً بما يكفي لكي

تلتهم قلب أمك البارد على الإفطار.. أعتقد أنك ذلك المستوحش الذي يطلب الغابات فيَّ أنا الآن، يسعى وراء الجسور المتهدمة والتي تقود إلى فراغ ولا ترجع للوراء حتى بنظرة..

تحت يديكَ بدأتُ من فراغٍ إلا الألم، كمن يَنوء بتوأمٍ حول عنقه.

بينما يدك تُدَلِّك وتنبش عن الألم المخفي، وفجأة، أفقتُ على قلبي في نصف المضمار، بسرعة ثمانين ميلاً في الدقيقة، في غفلةٍ مني انْفَلَتَ، جَفَّفَ ريقي وفَتَّقَ مُلوحةً لشفتي!

لا بدّ أن يدكَ التقطتْ رَكْلَتَه الاولى، وتَصَاعُدَها، وهذا الجموحَ من شوطه الأول، قبل أن يَتَنَبَّهَ رأسي لكَ وله.

غَافَلَني قلبي فانفلت يُنبِّهُ جسدي يومَ سَرَتْ يدُكَ تُدَلِّكُ حوضي هذا المُهَشَّم، والذي لم أعد أعرف اي أجزائه من معدنٍ وأيها من عَظْمٍ حيّ.

أتخيَّلُ أنه يسخن الآن بهذا الحَرِّ ويصير شديد الحساسية يكوي بِمَلْمَسِ يدكَ الكبيرة، وتلك الأصابع، قلتَ معتذراً: إنها يد خارج كلِّ مقاييس الجمال البشري!

ويُخيَّلُ إليّ أنها طويلة ممشوقة من بون لمكة، وأنها خُلِقَت بحركةٍ رشيقةٍ مُتَّصلة لطينةٍ لا تزال تقطر إلى الآن، وبعد كل هذه الأشهر، بوسعي أن أشعر بأصابعكَ طيناً على عمودي الفقري وتعجنه بلدونةٍ لا أُصَدِّقها عن جسدي.

يدكَ تلك عجنتْ بظهري أنكَ (تهتم)، وأنني أَثَرتُ بتلك الكف حناناً لا تعرفه إلا نحو الأطفال، وحين منحتَني بريدَكَ الإلكتروني عرفتُ أنكَ – خلافاً لقناعتي – تؤمن أن بوسع دروبنا أن تلتقي مستقبلاً..

يجب أن أتوقف عن الكتابة. كما تعرف قبل الضوء ينشقّ جفني وتتدفّق في جسدي حيويةٌ عجيبة، أشعر حينها أن بوسعي الوقوع في الحُبِّ كلَّ فجر، أو في الموت.

لسنواتٍ قبلكَ اعتدتُ الوقوفَ أمام بابي ولما يتشقق نور، قلقةً دائماً بتلك الفورة التي لا تُفَسَّر، ليجيء تاكسي خليل ليُقِلّني إلى المدرسة. أحالني الحادثُ للإيداع ولم يُفارقني الصحو والتَّدَفُّق المُبَكِّر. أصارحكَ: تَنَفَّستُ

الصعداء لخلاصي من دور المُعَلِّمة الكئيب ذاك، هل قلتُ مُعَلِّمَة؟ يا لي من نكتة!! انا كنت مجرد ذراع من أذرعة الأخطبوط الذي هو أبوالرووس، أذرعة بلا عدد تُحارب الزمن، وتخنق البنات الصغيرات.

لقد كنتُ اقرب ما أكون إلى ناظرةٍ وقتٍ، مهمّتها قرع الجرس بين الحصص الدراسية. حرب صغيرة قامت بيني وبين العانسِ المسكينة ناظرة المدرسة على ذلك الجرس!

إلا انني وأيضاً تعلمتُ فن التنفيس، فكنت أقف مثل صنم في الساحة على المنصة مواجهة لطوابير الصباح، مائتا رئة تحترق بالحياة ينتظمن مُحنطات أمامي، وعلى مدى ساعةٍ كاملة بينما تُبَثُّ برامجُ الإذاعة الصباحية، يتظاهرن بالاهتمام بكل الأمثال التي عفا عليها الزمن، كل المنظومات الجاهلية، والاخبار التي كانت مع بداية القرن طريفة! مائتا وجه من جرانيت، أيّ نيّةٍ بابتسامة، أي نظرة مُحَمَّلة، أي قطعة مجوهرات بسيطة، أو شريط شعر ملون أو بقايا طلاء أظافر، أيّ محاولةٍ للتعبير الفردي عن الذات كانت كفيلة بِجَرِّ تلك البنت إلى المنصة حيث أقف، لكي أقوم وبعنايةٍ وأمام مائتي زوجٍ من الأعين المصعوقة بتمزيق تلك الذات قبل تبرعمها.

لقد كنتُ مُنَفِّذ الإعدام في مصنع الدمى ذاك. أجسادهن كانت مِلكيّة خاصة أصبغها بكآبة الرمادي من العنق للقدم، بأحذية سوداء وشرائط بيضاء لتكبيل الشعر.

بهذه الصرامة الفطرية اكتسبتُ ثقةَ الناظرة وبضع رَنّاتٍ للجرس بلا تصريحِ سبّابتِها اوهَزّةِ راسِها المُوَافِقَة.

هل لأبوالرووس مشكلة مع البنات؟ ربما هي أن: الحياة بيض عقرب **ينبعث على ظهر أمه فما إن يفقس ويكبر حتى يلدغها حتى الموت.**

كل حركة ناتيها هي لدغة لأبوالرووس، لرؤوسه المتعددة وأذرعته الأخطبوتية. هل تعرف كم رأساً تنبت مكان الرأس التي نجرؤ على قطعها؟

برأسٍ يتخيَّلُنا أبوالرووس أبكاراً غير قابلات للمس، وبالراس الآخر يتخيَّلنا دُمى للجنس.

التحدي الذي نواجهه هو كيف ننجح في أن نكون المرأة السوبر، نصفها

نسخة عن جداتنا البدويات اللواتي لا يرفعن برقعهن حتى حين يأكلن مع أزواجهن، ونصفها الآخر نسخة من كل مغنيات وراقصات الفيديو كليب.
أشعرُ بأنني مسكونة بامرأةٍ من حَجَر.
نجاتي في الكتابة إليك.

ملحوظة:
يُذَكِّرني هذا بعصا أبي، مات هو وبقيتْ العصا فوق الموت.
كبرنا كأولاد أبوالرووس وبراسِ كلٌّ منَّا عصا، مُرَقَّدة بحنفيةِ ماءٍ، لكي تسيل وتشرب من دمنا.
أول دخولي من بون، وحيدة بكل الدار على رأسي، استوقفتْني العصا في رقدتها بحنفية الدهليز، تلك التي تخرج منها ماسورة للزقاق، عليها ثلاجة ماء السبيل، للرائح والغادي.
يطمع أبي أن يدخل الجنة ببرودة ذاك السبيل الذي تتمدّد بقلبه العصا.
وأمي تُواظب على تنظيف الحنفية لتتسلل معه إلى الجنة.
رَمَقَتْني العصا بخوفٍ ربما أو (قَرَأَت الفاتحةَ على روح أبي)، بينما انتشلتُها من رقدتها بالماء لأتركها على الرفِّ هناك يمين المدخل تتشقق عطشاً.

ملحوظة 2:
في المرة الأولى التي شعرتُ فيها بكَ، وأغلقتُ كَفِّي على جذرك، فاجأتَني بالقول: «هذا ما أردتُ منحه لأمي!» شيءٌ عميق داخلي تصدَّع لقولكَ، لكنني كنتُ غائبة بكَ، هل تعرف كم عمري الآن؟ في الثلاثينات، وسبق لي الزواج، ومع ذلك لم أعرف قط هذا التجذير للرجل! هذا القبض على كيان رجل، أُدركُ الآن أن اليد خُلِقَتْ لتقبض على جذر الحياة هذا، لتشعر بهذا الانتصاب من الرأس إلى إصبع القدم.. لكنك لم تدرك كم كان الأمر جديداً بالنسبة لي، صدمة الاكتشاف، لقد كنتَ غائباً في ماضيكَ وأمكَ:
«مؤخراً اعترفتْ أمي بأنني الابنُ الذي أحَبَّتْه أكثر من إخوتي جميعاً! لكنني وُلِدتُ جامحاً ومن كائنات السماء، بينما هي فلاحة أقرب إلى برودة التراب.. عندما كنتُ في الثالثة كنت أهيم في الغابة القريبة من مزرعتنا، ويأتون

للبحث عني مع الغروب، طوال النهار أتجوّلُ بعيداً عن اللمسة البشرية، تطعمني الغابة ونباتها، بينما أمي قد فقدت قلبَها حين تربَّتْ كيتيمة، مكان القلب كانت هناك كرة من الخوف من الحياة ومن التسليم لبهجتها...»
مضيتَ تتكلَّم بينما أنا عائشة الرصينة غائبة، مجنونة، في محاولة لتصريف كآبتك.
«دعيني أشرح لك: حين ولدتُ كانت الشمس في برج الجوزاء، مواليد الجوزاء لديهم مشكلة مع الازدواج، يرون الخيارت التي تُقدِّمها الحياة بصفتها كلها ممكنة لا شيء ممنوع، بوسعهم أن يأخذوا كل المطروح بلا تمييز.. لكن الشمس تمنح وضوحاً لحل مشكلة الازدواج هذه، لكي يروا الوحدة وراء التعدد...»
أبوسعي القول إنكم في الغرب جوزاء، بينما نحن هنا الميزان المُكَبَّل؟

مرة قلتَ: أنتِ يا عائشة طير، وأنا لكِ فضاء، ما دمتِ قادرةً على التحليق ببهجة..
التوقيع: طيركَ عائشة.

في قراءةِ تلك الكلمات شَعَرَ ناصر ولأول مرة بأن جسده كان مدفوناً حيّاً ولثلاثة عقود في بئرٍ بلا قرار، وتحت أكداسٍ من التحقيقات وجرائم القتل والخيانات وقرائنها، وها هي كلمات عائشة تَرْجُمُه لينبعث ويكتشف أنه حي لا يزال.

ليست هي فقط التي تَتَلَقَّى يدَ المُعَالِج على ظَهرها وإنما هو أيضاً ناصر القحطاني ينبطح ويكشف ظهرَه لها لتُمَسِّج تلك العضلات المربوطة من دهرٍ، وتليّن تلك القسوة. .

انتزعَ ناصرُ جَسدَه من رَقْدَةِ الأُضحية تلك وقام غاضباً من نفسه. حين اندفع لِفَكِّ عِقَالِ (الكلب) وَجَدَه يَغطُّ في النوم. أَغلقَ الضوءَ ورَقَدَ. طَلَعَ الصباحُ عليه وهو يَتَقَلَّب. من دون أن يُفطر ارتدى زيّه الرسمي تلملم في ذلك النسيج الكاكي القوي وغادر.

في اللاند روفر بشارته الرسمية وبربتاتٍ سريعة نَفَش ناصرُ (الكلبَ) فيه، أكَّد له أن ضعفَ البارحة ليس إلا جزءاً من التركيبة السحرية التي يحلم بها منذ طفولته. هذا التماهي بين سوبرمان والحركات البهلوانية التي تخطف الأنفاس للمجرمين في القصص الكرتونية. دائماً وَضَعَ المجرمين في مرتبةٍ خارجَ التصنيفةِ البشرية، فإن لم يكن واحداً منهم فلقد اختار أن يكون الصدر الذي يُفاتحه القَتلَى ببراعةِ قَاتِلِيهم، أن يُدَرِّب أُذنَه فتسمع وقلبَه فيحتوي العَسَفَ الذي لا يُطيقه قلبٌ ولا أُذن، أن يكون صديقَ الحقيقةِ في الجَسدِ المُنْتَهَكِ المُتَحَلِّل، لهذا احترف التحقيقَ في جرائم القتل، ليصير قَلبُه بقوَّةِ قَلْبِ مقبرةِ المَعْلاة تأوي إليه كلُّ لوحاتِ الانتهاك والجثث المرذولة. اختار أن يكون هو أيضاً صنفاً خارجَ الأصنافِ البشرية.

الأمير

لِما يقارب الساعة وقف الكهربائي الباكستاني منتظراً على طريق العمرة تحرقه شمس الظهيرة العمودية، لذا فما إن تباطأت عربة الأجرة الصفراء الفاقعة حتى اندفع يركض، فتح البابَ وألقى بجسده على المقعد المجاور للسائق تحيطه هالةٌ من الكاري المُعَتَّق. النظرة الأولى التي ألقاها على السائق جمَّدت الدم في عروقه، تلقائياً تحركت يده لمقبض الباب يريد الخروج، لكن العربة اندفعت بسرعة جنونية.

«إكس كيوز مي سير، هذا تاكسي؟» رنَّ السؤال غبياً مؤجِّجاً سخريةَ خليل وتلذذه بالموقف،

«بالطبع هذا تاكسي، إلى أين تريدني أن آخذك؟» تلجلج الباكستاني قبل أن يجيب،

«سوق الغَزَّة بليز سير..» وتخبطت يده لفتح النافذة عبثاً،

«الأوتوماتيك لا يعمل. .» تبسَّم خليل بخبث، وجاهد الباكستاني بحثاً عن كلمة تُسعفه،

«أنتَ في joke؟ إكس كيوز مي سير، أنت same same في أمير سعودي. .» تضاعفتْ لذَّةُ خليل باضطراب الرجل،

«لا لستَ على برنامج الكاميرا الخفية، أنا فعلاً أمير سعودي، وأسوق بك، أخيراً الدنيا تبتسم لكَ. .» وجاوبه الباكستاني بابتسامة.

«سير، أنت في serious؟ أنتَ في سبب تلبس كذا ملابس كَشْخَة؟» ومَرَّتْ عينُ الباكستاني على ثوب خليل الحرير المشغول، والغترة الناصعة من تصميم لومار، مُتَوَّجة بالعقال الأسود الفاخر، يكسوه المشلح الرمادي المطرز بخيوط القصب، توقفت عين الباكستاني على الحذاء الأسود زيماس المُلَمَّع بواجهته المدببة تنحط على دواسة البنزين لتندفع العربة بسرعة جنونية،

«شوي شوي سير. . please.»

«لماذا؟! ألا تُعجبكَ طريقة الأمراء في السواقة.»

«please sir، أنا في ستة ولد صغير في باكستان، وأمي مريضة في موت سرعة. .» انحطت قدمُ خليل على الفرامل:

«أخرجْ، لا ردَّكَ الله أنتَ ولا أولادك الستة وأمك.» دفع الباكستاني الباب وقفز غير مُصَدِّق. من تحت مقعده تناول خليل زجاجةَ الماء الصحي، بجرعةٍ أفرغَ الزجاجة وانطلق مبتعداً بعربته في ظمأ للمزيد من الإذلال.

الضحية التالية كانت امرأة برفقة ولدها المراهق، خيمة سواد في عباءتها المُسدلة من الرأس إلى القدم، تنتهي بجوارب فاحمة للركبتين وقفَّازات للمرفقين، انحشرت الأم مع ابنها في المقاعد الخلفية. فاح ذعرٌ للتكة الحاسمة التي أقفلت بها الأبواب، والقدم التي انحطت على دواسة البنزين دافعة العربة بهستيريا.

حاول الولد فتح قفل الباب المجاور بلا جدوى، ارتفع صوته بصرير ينقل أمر والدته:

«توقف! انزلنا هنا، لو سمحت.»

«يا أخي..» أنطق الذعرُ الأمَ، «بحق الله، أطلقنا..»

«ليس قبل أنت تنزعي جواربك وقفازاتك. اعتبرينا في طريقنا للحَجّ.» ضحِكُ خليل وَقَعَ كصدمة.

«ماذا؟! خاف الله..»

«أنا رجل مختل عقلياً..» أجاب خليل ببساطة، «السواد يُصيبني بكآبة وقد أدخل بالعربة في أقرب حائط..» وزادت سرعة العربة.

«لحظة تقومين بخلع قفازاتك..» سارع الولد بدفع أمه لخلع القفازين، نَزَعها عن يديها، «أرأيتما لقد بدأتْ السرعة تتناقص. لحظة تخلعين جوربيكِ ستتوقف العربة كلياً وينفتح الباب أتوماتيكياً.» انحنى الولد لنزعها جورَبيها، لحظة سقط الجورب في المقعد الأمامي لاحِقاً بالقفازين علا صرير الكوابح.

قاد خليل عربته مبتعداً، مراقباً في المرآة المرأةَ وهي تتخبط في أطرافها التي ظهرت للشمس فجأة، تتعثّر وتتشرنق حول ذاتها في محاولةٍ لحمايةِ جلدها من العيون والضوء، ضحك خليل بتلذذ، «مثل دراكولا!» وتمهل ليقذف بأطراف السواد إلى الطريق.

الضحية الثالثة كانت رجلاً في الستينات، متماسك البُنية في ثوبٍ وسديري وطاقية ناصعة البياض، ويُلقي على كتفه اليسرى بمُصَنَّف من اللاس المُصفَّر.

جلس الرجل في المقعد الخلفي بصمت، وجاهد خليل لاستفزازه: زاد سرعة العربة، قام بتوقفات عنيفة مفاجئة أرسلت كل محتويات العربة وراكبها مرتطمين بالمقعد، غَيَّرَ وُجهَتَه إلى شرق غرب ثم جنوب، تلكأ أمام كل إشارة مرور مُعَدِّلاً عقاله الأسود في المرآة متحدياً ذاك الوجه

البارد، غارقاً في صيحات الأبواق المحتجة من العربات المحتجزة وراءه، أخيراً وفي منعزلٍ بمِنَى توقَّف، آمراً:

«لهنا ويكفي، غَادِرْ هذه العربة فوراً.» تأملَ الرجلُ في الجبال العارية، وفراغ الأراضى المُخَطَّطَة بالإسفلت لتوطين معسكرات الحجاج:

«وما عساني أفعل هنا؟ قلتُ الرُصيفة.»

«وأنا قلتُ هنا.»

«ارجعْني إلى حيث التقطتَني، أو سأبقى جالساً في هذا المقعد إلى يوم الدين.»

«كما تشاء!» أطفأ خليل المحرِّك، وأحاطهما تحدٍّ صامت.

«أنت مخبول..» قال الرجل ببساطة، «لو كنتُ أجيدُ السواقة لركلتكَ خارج العربة وسُقتُ إلى حيث أشاء..»

«لا خيار أمامكَ إلا أن تخرج.»

«مع قبيلتك من الجن؟ أنتَ تسوق سياقة الجن.»

«يا لبعد نظركِ!» ضحك خليل، «أكاد أستلطفكَ.»

«أنتَ لا تستلطف حتى نفسكَ..» تأمّله الرجل، «انظرْ إلى ما تلبسه، أنت لا تسخر إلا من نفسِكَ..»

«حقاً؟!! لكنني وقبل لحظات دفعتُ أحدَهم ليخرج من ثيابه، بعضُ الركاب يتبوّلون على أنفسهم، يُغرقون المقعد الذي تجلس عليه، لذا كسوته بالبلاستيك.»

«لستَ إلا ولداً في جثة رجل.»

«نعم، وأحياناً يَتَنَكَّر هذا الولد مثلك في الزي الحجازي التقليدي! في صندوق سيارتي كل أصناف الأزياء التنكرية، بوسعي أن أتحوَّل إلى شخصية كرتونية لتسلية زبائن ناضجين مثلك.»

«أنتَ روح متلجلجة مسكينة، هذا تشخيصي لحالتكَ.»

«ولا يهمك، أنا لا روح لي.»

«ألا تجد ما تفخر به إلا هذا؟! اسمعْ.» اعتدل الرجل في جلسته نافثاً كلماته إلى عنق خليل في المقعد أمامه، «أنا رجل متفرِّغ حتى للجِنّ الأزرق، لقد دفنتُ أبنائي الثلاثة في ربع شبابهم، حين يبلغون العشرين يقطفهم عزرائيل، جميعهم ذهبوا في حوادث سير، طاعون العصر. لذا فليس بوسع شيء أن يهزّني، إن شئتَ البقاء هنا حتى تأكل الغربان شحوم أعيننا فلا بأس، لكن لو حاولتَ جَرجرتي للخروج فستفلتُ عليكَ أصناف جهنم.»

«أتعني أن استعراضي السخيف لم يصدمكَ؟»

«إن كنتَ بحاجة إلى مُحَلِّل نفسي فكلي آذان صاغية، في الواقع لقد حاولوا عرضي على أحدهم حين ضيَّعتْ زوجتي وأهلي كلَّ طُرق التواصل معي.»

«أنا أبحث عن رجال مثلك.» قالها خليل باتهام، «رجال من أحشاء مكة، مثل أبي، كلكم تتشابهون، سمكٌ يموتُ خارج الماء، خارج الدائرة الضيقة اللصيقة بالحرم، لكنكم ومع ذلك تقفزون متوسعين للخارج وتدقون أعناق أولادكم. ما الذي تطلبه في حي بلاستيكي حديث كالرُصيفة؟!»

«كنتُ أُفكِّرُ في معاودة الزواج، وإنجاب المزيد من الأولاد لعزرائيل، زوجتي القديمة لا تُعين..»

«لكأنني أسمع أبي يتكلم.» ضحك خليل بمرارة.

غاصت عينُ الرجل في المساحة الجانبية المكشوفة له من وجه خليل، «مَن أنت وماذا تريد؟»

«في أحيان أنا سائق أجرة محترم، لكن في أغلب الأحيان أسوق بلا هدف أتسلَّى بالناس الصغار..»

«صغار؟!! اسمع يا ولد، يوماً ما ستأتي مع الموت وجهاً لوجه وستعرف أن كلمة صغار لا تليق بوصف روح بشرية.»

«توشك أن تُقنعني» التفت خليل لينظرَ إلى الرجل عيناً بعين، «بأنكَ لستَ بالسوء الذي تُوحي به.»

«مواجهة أناس مثلكَ أشبه ما تكون بالنظر في مرآة.»

«الآن، بدأت تُصيبني بالملل.»

«تَخَلَّصْ مني. خُذْني إلى أقرب نقطة أجد فيها عربة أجرة! تأكدْ ألا سبيل لك لقذفي في هذا الخلاء الخالي.» أدار خليل المحرك.

«قد أُوصلك إلى وجهتكَ.»

«لا، شكراً.» عاجله الرجل، «لقد صرفتُ النظر عن إنجاب الأولاد لهذا العالم، حين صار عزرائيل يحوِّل التكاسي إلى سيارات سباق، يوماً ما ستقصفُ عمرك بيدك.»

نافذة لنافذة

بالخبث المُعَتَّق في كلِّ رأسٍ من رؤوسي أنا أبوالرووس قدتُ ناصر ليُمضي صباحه مُوَزَّعَاً بين نافذتين: نافذة عزة المُسَمَّرة ونافذة عائشة المسدودة بجهاز التكييف، بالنهاية اتخذ ناصر مقعدَه في المقهى ينبش أسراري بمقارنة جغرافيتي بما ورد في رسائل عائشة، قرأ:

من عائشة: رسالة 4:

يا ^

كرَشفةِ قهوةٍ في صباحٍ بارد يُنْعِشني اسمُكَ.

أَتَذْكُرُ يومَ أحضرتَ قاموسَكَ لتتعرَّف مدينتي (مكة)؟

(wow واو) أذهَلَتْكَ بكونها مركزاً للكون.

مكة القاموس خارج جغرافية زقاقنا من الداخل.

أبوالرووس فتنة نائمة.

مرة حلمتُ بأبوالرووس في هيئةِ أنثى مُلقاة على طرف الطريق، تنقفل سماؤها على المساحة الوحيدة المحايدة: تُحفة بستان مُشَبَّب عتيق الأشراف عاشق الطرب والماء بسُرَّة وادي إبراهيم. ويُمناها مسجد رضوى ويُسراها بيت تاجر الجملة الشيخ مُزَاحِم، والعَمَّة حليمة تسكن على سطحه، وفي ظِلِّهم بيتنا. عدا ذلك فمن الرأس إلى القدم جسدٌ شعبي مُعَوْلَم يُصَلِّي ويَتَعَطَّل عن الرقص أوقات الصلاة، وفي مواسم الحج يخدم الحجيج ببسطات ملابس طارئة بينما يطمر آلاته الموسيقية، وينفض أحراشه لتأجيرها، ويُشرع أحواشَ مطابخه التي «يبول في أكلها الشيطان» كما تؤكد عجائزُ الزقاق، اللواتي نَكَّسن راياتهن أمام طبخاتِ الأيدي الغريبة.

أبوالرؤوس أو كما ننطقه أبوالرووس (خارج اللغة وقوانينها)، حين تبحث عن تاريخه تجده قد تساقط مع المُعَمِّرين، وخَتَمَت البلديَّةُ حين قامت بعملية تجميلية فاستأصلت اسمَه وتاريخَه، وسَمَّتْه بدرب النور، بقيت من أبوالرووس ذاك بقعة بَلَلٍ في رؤوسنا.. تُوحِي بدفءٍ لا نعرف مصدره، وجاء الشيخ مزاحم ليُقحم ذاكرتَه على تلك البقعة وينسفها:

«لا نسمع لأبوالرووس صوتاً يُوَحِّد الله، حتى الملائكة شلتْ أيديها منكم.»

ليس كتاجر الجُملة الشيخ مُزَاحِم مفتوناً بالعذاب، يضعه تحت أنوفنا فلا نشم سواه حين نأوي إلى فراشنا وحين نفتح أعيننا مع تسابيح الطيور، يرصدُ الشيخ مُزَاحِم عنَّا الألحانَ الأصيلة والنشاز تَتَجَمَّعُ كغيمة غربان على أبوالرووس وتُبَشِّرنا بالجحيم.

توقف ناصر عن القراءة ليكره عائشة، ثم أكمل:

«تطردون الملائكة من الزقاق بهذا العُري.» يلعن الشاشات، ويَتَجَرَّأ عليه الزقاقُ:

«الأراضي بمكة وزنها ذَهَباً، والشيخ مُزَاحِم يَتَمَلَّك الجَنَّة بوضع اليد، استقطعَ هذه الأرض منحة، وبَنَى فيها مسجده مقابل بيتٍ في الجنة بسعر الجُملة. وأقامَ داوود الحَبَشي إماماً وتَرَكَ راتبه على حسنات الزقاق.»

مُكَبِّرات الصوت تتكاثر على المئذنة، والخُطَب الـمُرتَجَلَة طفحت في مَجَالِسِ الزقاق مُحَاصِرَةً في أركانها فئرانَ البِدَع الـمُحَسَّنةَ النَسلِ، والقوارضِ التي لا يمكن ضَمها إلى نوعٍ مُكْتَشَفٍ من قبل.

لِمَ أنا قاسية على أبوالرووس هكذا؟ هل صرتُ أراه بعينيكَ؟!

التوقيع: عائشة.

عزة: احتمال قوي لجثة

إنه الصمتُ الذي لا ينتظم إلا بعد ساعاتٍ من منتصف الليل، ومنه انبثق خيالُ ناصر، يتسلل وحيداً يمسح جنبات أبوالرووس، يتنصَّتُ على أكداس القذارة التي تمتصُّ وقعَ خطواته، يُفَتِّش المدَاخل الكئيبة التي لا تكاد تُمرِّر بشراً، والأحواش المسكونة بالدواب الضالة والجن، بِنِيَّةٍ أن يقبض على أبوالرووس مُتلبِّساً. لساعاتٍ ظَلَّ يمشي غير واعٍ بأبوالرووس الذي يستدرجه ليبلغ ذلك الرجل العجوز، ينعس على مصطبة بباب خرابة. مستشعراً خطوات ناصر الذي انفغرت عيناه المُضَبَّبتان وجَرَفَتاه ليدنو أكثر. تلفَّتَ ناصر بحثاً عن مهرب. لكن الزقاق حاصره، مثل قنفذٍ يُسفر عن أشواك أطباق استقبال البث الفضائي، أطباق تنبثق من كلِّ خرابةٍ وبقايا فِنَاءٍ وصناديق مسكونة بِبَشَرٍ تبيعُ الثلج أو المأكولات المُصَنَّعة محلياً.

«لا جديد في أزقةٍ مثلي.» فجأة ارتخت كتفا ناصر، وشَعَرَ بتعبٍ عظيم يحطه ليجلس إلى جوار الجسد الذي بلا عمر، والذي كان يتكلم كما لو كان يستحضر صوتَ أبوالرووس نفسه من تحت مصطبته.

«رغيف اليوم من خميرة الأمس. خُذ العبرةَ من تاريخي، بدأتُ مسكوناً بالشياطين متحالفاً مع حواء، لاستدراج آدم خارج الحرم يوم كانت مكة دُرَّةً من دُرَرِ الجَنَّة تربض بعيداً بسُرَّة وادي إبراهيم، والذي

أَشُكُّ أنه لا يزيد على حِجْرِ امرأةٍ هي حواء ثم هاجر، والتي بَسَطَتْ ساقيها من أول الصَفَا إلى آخر المَرْوَة (من ذروة الجَلال إلى قاع الجَمَال) وتَهَاوَت أفئدةٌ وقام الناسُ بالسعي بينهما». سخر أبوالرووس من تعب ناصر المفاجئ ومضى في درسه التاريخي، «لأن الله حين خلق آدم وأسكنه الفردوس، لم يكن غائباً عن كمال الصورة غيرُ الموت، فقام بشَقِّ صدرِ آدم، انتزعَ ضلعاً وكَوَّره ودَوَّره وسَحَّبَ أطرافَه وأرسله يرعص أمامه، وهاج آدم لاسترداد ضلعه، وحين ضَمَّه بعنفٍ ليدفعه إلى مكانه بين أضلعه كان قد ضم الموت، لأن الضلع خارج صدر آدم هو الموت بعينه. . .» فحَّ أبوالرووس بصدر ناصر، «لابد أن نئد كل بنات حواء لنسترد أضلعنا ونسدّ الفراغ الذي أحدثنه في صدورنا.» نساء نساء شَعَرَ ناصر باضطراب، كان الزقاق يُنَوِّمه مغناطيسياً لتُحيط به أخيلة الشيوخ، يُرَجِّعون صَدَى أبوالرووس الطالع من جسد المصطبة.

«كيف تطبخ اللحظةَ الحاضرة بلا مقادير من الماضي ورؤيا صوب المستقبل؟! دعني أفشي لك مفتاح هذا اللغز الذي نسعى إلى حله: الموت ما هو إلا كبش يتجسَّد يوم القيامة، بينما تتجسَّد الحياة في فَرَسٍ شامخة بألف ألف جناح شفاف تُرسل همهمة عذبة، وفي ختام أهوال يوم القيام، وبعد أن يأوي أهلُ النار إلى نارهم وأهل الجنة إلى جنتهم يُؤتَى بالكبش فيُذْبَحُ وتُطلق الفَرَس لتذهب حُرَّة فلا يردها حدٌّ. أنتَ يا ناصر.» وَجَّه العجوزُ الاتهامَ لناصر الذي لم يكن واثقاً ما إذا كان الصوت يأتيه من أمام أم خلفٍ أم يهطل كلعنة، «بوسعك تجميع كل تلك الحكايا واكتشاف أن الكبش والفرس ما هما إلا خيال انبثق من صدر آدم، أي أن آدم يَتَفَوَّقُ على مخيلته ليقتل ذاته، تماماً كما هذه القضية التي تتقصَّاها، والتي لن تتجاوز قتل الكبش وإطلاق الفرس حرة. الفرس التي هي أيضاً ركوبة آدم وضلعه. بقي أن تتساءل: مَن المُرَشَّح كأبينا آدم للانتحار في الزقاق؟ صدِّقني، ليس إلا يوسف. لكن، مَن الفرس؟»

لم تلبث مآذن الحَرَم السبع أن أخذتْ نَفَساً عميقاً تستريح من النداء لصلاة الفجر، في الاستراحة بين الأذان والإقامة تَجَلَّتْ حواري مكة في مياه الوضوء، وفي تلك الهدأة أمسك أبوالرووس بخناق ناصر،

«أتسمع دوي الدماء في عروقِ الرجال الذين استدرجتُهم من أطراف الأرض بأحلام الذهب الأسود، خَلّوا وراءهم الأهل والأولاد وجاءوا كالقمل لسُكنى رؤوسي، يمتصون دمي بينما أَلْتَهِمُ أعمارَهم وأحلامهم في خرائبي وصنادقي العشوائية. أنا عجوزٌ خبيث، أقايضهم شبابهم مقابل عَفَني. وليس كالفجر يوقظ في الرجال لوعة ما ضحّوا به شهوةً لسراب الوجبات السريعة والثراء السريع.» حاول ناصر النهوض، « لِمَ تسعى إلى كشف قاتل واحد لقتيلة واحدة؟ هل توهم نفسك بقدرتك على تأمين مستقبل نظيف لزقاقٍ مثلي في هذا العصر الصاروخي؟ أنا أبوالرووس أشبه ما أكون بدائرة الحمَّامات التي أُنْشِئتْ كسبيلٍ على مداخل مِنَى وعَرَفَات ومزدلفة، دورات مياه بلا عدد، في أبنية إسمنت مُرَبَّعة، تتجاور وتستقبل مُخَلَّفَات العِبَاد. أُحَذِّركَ يا ناصر، لا تنبش ذاكرتي بحثاً عن قاتل، ستغرق في مجارٍ لا خلاص منها.»

في اللحظة التي بلا قرار والتي تسبق إقامة الصلاة صَمَتَ الكونُ يترقَّبُ رَفعَ اسم الله، حينها وفي الركن الأقصى من ذاكرته استرجعَ أبوالرووس آثماً وبتلذذٍ الخطوات الخفيفة، التي كانت تقطع فجرَه كلَّ ليلة قبل ظهور الجثة، خطوات انتهت حين طاش الحمام في مذكرات يوسف من سقوط ذلك الجسد.

بخبثٍ أخفى الزقاقُ عن ناصر الليلةَ التي شحنت بطارايات دماغ يوسف: ليلتها قاطعتْ نومَ يوسف تلك الخطوات الخاطفة، تعبر الزقاق كحمامة تطير قريباً من الأرض، من على سطحهم لَمَحَ يوسفُ الفتاةَ تركض في عباءتها صوبه، لم يكن من عادته أن ينظر إلى الأجساد المؤنثة التي تظهر فجأة، إخلاصاً لعَزَّة ابنة الشيخ مُزَاحِم. لكن شيئاً في عباءة تلك

البنت خَطَفَ بَصَرَه، خُيِّلَ إليه أنه يعرفها، لكنها لم تمنحه فرصةً للتحقُّق من هويَّتها، كانت قد تَلاشَت في النداء لإقامة الصلاة المرفوع بصوت الإمام داوود الحَبشي الأجشّ والطافح بالتقوى، والذي يُحيلُ الزقاقَ إلى بطانة قطن مُطَرَّزا! ألقى يوسفُ بالأوراق التي كان يستحلبُ فيها الفجرَ قصيدةً لعَزَّة، قَطَعَ الدَّرَجات التي تمر ببابها في لمحةٍ، سائراً عكس خطو القادمين للصلاة، مُتَتَبِّعاً جُرَّةَ البنتِ، وقَادَتْه الخطواتُ الطائرة والتي تَمَسُّ برؤوس أصابعها الأرضَ لبستانٍ عتيقِ الأشرافِ مُشَبَّب، فَكَّرَ أن مُشَبَّب شيطان، يُغوي بناتَ الزقاق في الفجر بتُحفته.

لن ينسى أبوالرووس بابَ البستان الذي يظل مُشْرَعاً لينادي كلَّ من يَعْبُر، لكنه في تلك اللحظة كان يُقفل، دَفَعَه يوسفُ ووَلَجَ، حَدَّقَ بعينيْ مُشَبَّب حين استقبلتاه بتلك اللمعة في العتمة. مضى يتمضمض بماء زمزمٍ مُبَخَّرٍ بالمصطكا وأشاحَ عن نظرةِ يوسف المُستفسرة المُتَّهِمة! شيءٌ في الهواء بَعَثَ حنينَه لعَزَّة، تلك التي يُخفي عشقَها حتى عن نفسه، راوده أن يصدم مُشَبَّب بالحديث عنها. لكن بأي الكلمات يصعقه؟ أن يقول إنه قد وُلِدَ لكي يشتاق عَزَّة، وأنها قد سَحَرَتْه في حياةٍ سابقة؟ ووُلِدَتْ بجسده كلقاحٍ؟ تَعَهَّدتها أمه حليمة حين ماتت أمها ودَفَنَها مزاحمُ في الظلمة التي دَخَلَتْها بعد ولادتها لعَزَّة. لم يرضعْ يوسفُ عَزَّةَ كفرحٍ بِقَدْرِ ما رَضِعَها كحُزنٍ شفيفٍ مُتَوَاصل، مثل نغمةِ ألمٍ بضِرْسٍ. لم تنجح أوبئةُ مواسم الحج كالإنفلونزا والكوليرا والحُمَّى الشوكية في رفع حرارة يوسف بهذا الشكل المتواصل، رغم إصابته بها جميعاً وخروجه كشعرةٍ من عجينة. الأوبئة في مكة هي لقاح الطبيعة السَّخيّ، قَتَلَت الآلافَ لتُصيبَ الفئةَ المُلقَّحَةَ مثل يوسف بالمناعة. حتى داء الرُّكَب المحفوظ في تواريخ مكة، لم يترك من أنثى أو ذَكَرٍ إلا وأقعدهم، لكن مَفَاصِلَ يوسف لا تتآكل بل تتحوَّل إلى حديد. حين لا تموت للضربة الأولى في مكة فإنك لن تموت للضربة العاشرة والألف والأخيرة، لذا فإن أهلَها يُلقون بأولادهم للدروب

الغاصة بالحجيج، يزحفون ويتعثَّرون ويؤاخون الأوبئة والأجناس ويشتغلون في الطوافة أو في التجارة، مما حَتَّمَ على الموت أن يدخل أبوالرووس على أداةٍ حديثةٍ، كالتي هشَّمتْ رُكبةَ يوسف، لأن شبان مكة صاروا يلاحقون الرزقَ على (شيطان آراواة) كما تسمّيه العجوزُ البُخارية بآخر الزقاق بمعنى (آلات الشيطان)، مثل الدرَّاجات النارية.

«كأبناء الحرم، عَزَّة ويوسف توأم، من بويضة انقسمت. .» تؤكد حليمة ضاحكة، «وحين تكفّ بويضاتهم عن الانقسام فسترث الشياطينُ الأرضَ.»

الواحد

يُقَلّب المُحَقِّقُ ناصر القحطاني صُوَرَ الموت المُكَدَّس في الأوراق حول سريره، يكاد يشعر بالنمل يتربَّص به ما إن يغفو حتى يلتهم أطرافَه من مذكرات يوسف ورسائل عائشة الطافحة بإرادة التحلُّل، تنقله الحيرةُ بعصبيةٍ شوقاً لرائحة انحلالها، تَنَاوَلَ رسالة:

من عائشة / رسالة 5:

أُشَغِّلُ كاميرا SKYPE واستلقي على سريري.

على الشاشة تتلبّسني حركاتٌ مثل موج يأخذني إلى حيث لم أحلم بالذهاب، أبلغُ ذُرى لم أصلها مع أحمد الزوج الذي أصبتُه بالشلل.

يا ديفيد،

سأستعمل هذا الرمز لمناداتكَ ^، يجب أن تَتَخَفّى فيما لو انكشفت رسائلي.

لأنها ستنكشف. لذا رجاءً اعدمْ هذه الرسالة بالمفتاح الوحيد لهويتك.

رسائلكَ ضوئية وبعد قليل لن أجد منها كلمةً في وريدي.

لذا أُخزّن رسائلك بملَف في بريدي، تحت اسم (الواحد).

^ مثل رائحة سجائرٍ في أنفاسي أُخفيها بعطر الليمون، وتخشخش

بقُطْرَانها رئتي. تسمعني أسعل كثيراً في الليل وحدي.
تسأل عمتي حليمة: سعال جاف أم رطب؟ وتسقيني ملعقة من زيت السمسم.
لمغابني مذاق سمسم.
كيف نُعَلِّق قلوبنا بآخر الأرض ونرجع بدلاً من أن نسقط موتى!
^ أرقبُ طيرَ السراج يدور على المصباح بيدي، أُغمض عيني ويُمسك بيدي ويرقص، ويدور بي، كما درنا في صالة العلاج الطبيعي ذاك الصباح.
سأنتقي بعض الكلمات التي تقود إلى أشياء أُحِبُّها وسأكتبُها بخط أكبر، وستتعثّر بها مثل حجرٍ على طريقك، أحياناً يُسَيِّلُ دمكَ، (أؤكد أنني سأترك لكَ حجراً هنا وهناك وخدشاً ما يفتنني) هل أتكلم كثيراً؟ دائماً كنتُ شديدة التكتم، ولم أسمح لأحد بالتسلل إلى راسي، أما قلبي فأينه؟ في موضعه بصدري غيبوبة.
بيني وبين الشمس ـ التي لا أراها ـ كلامٌ، وتَتَصَوَّر يا ^ أنني امرأة مُشرقة، في بلادٍ تُعَلِّمُها على الخارطة بمُلْصَق شمسٍ ضاحكة.
بينما لا أعرف مِنْ تلك الشمس إلا الجُمْلَة الإسمية الأزلية بكتابِ القَوَاعدِ للمبتدأ والخبر: (الشمسُ مُشرقةٌ، القمرُ مُنيرٌ). يصلني منها في حجرتي ومن وراء حجابٍ: ترقيطٌ ونُقَرٌ، أُعْرِبُ بها جُمَلَ الخارج. في بلادي التي لا تغيب عنها الشمس أُعَوِّضُ هشاشتي بفيتامين D وكالسيوم (أوستيوكير) صُنع في بريطانيا وأميركا واستُخْلِصَ من بحريات شرقٍ أقصى!
فلا تقل «تُنيرُ شمسُكِ حجرتي» فعن خبرتي غابتْ جُمُلٌ فعليَّةٌ كهذه.
تَتَكَثَّف قطراتُ العَرَق فوق شفتي، حتى وجهكَ يبتلُ كما رأيتُكَ ذاك الصباح، حين وَدَّعتَني على باب المستشفى وحَمَلَتْني عربةُ السفارة إلى المطار راجعة إلى الوطن.
«تعافت.» يقول تقرير تسريحي من المستشفى، لكنني، في الحقيقة، كنتُ أُهرِّب ليس الألم فقط وإنما الرجل: أنتَ في راسي وتحت جلدي، عابرة بلا رجفة لأجهزة كشف المُهَرَّبات الآلي في مطار جِدَّة.
صابون حلاقتكَ لا يزال منعشاً بحواسي، يُدغدغني لأُفيق كل صباح.

أستدير لأكشف ظهري للمرآة، أرقب الندب الطويل تُعَلِّمه حُمرةُ غُرَز الخياطة مثل خطو حمامة، بيدك لا تزال تدلكه بالفازلين، وأتساءل: كيف تُطيق لمس مثل هذا الجرح بكل تلك الرقة، تتعاطى بحنانٍ مع بشاعته التي تُقزّز، حتى أنا تقزّزني؟! قلتَ إن الأنسجة والعضلات تحتاج إلى وقتٍ لكي تتراكب وتتمازج وتردم الخندق، لكنك لم تحتجْ إلى وقتٍ لتمتزج بي.
يجب أن تُرَقِّم أنتَ أيضاً رسائلكَ لكي ننتبه لترسّب أزمنتنا.
ألا يُرافق الوقتُ الموتى؟

التوقيع: عائشة.

ذلك المساء سَخِرَ أبوالرووس من ناصر في عبوره تحت نوافذه كما يفعل كل ليلة، كل مساء حين تفوح من بيوتهم روائح خبز القمح المُحَمَّر يتبادلون السخرية منه «أبو وَنَّان» إشارة إلى صفارة إنذار سيارة الشرطة الذي يسمعون فيه إصبع اتهامٍ لكلٍّ واحدٍ منهم.

فجأة تَوَجَّسَ أبوالرووس يرقب، دفع ناصرُ بابَ بيت عائشة المهجور متسللاً إلى الدهليز المعتم، توقف هناك مواجهاً للحنفية الجافة! لم يعتنِ الزقاق بإيقافه حين استخلص عصا والِدها المُعَلِّم المُؤرَّخَة على أجسادهم، قرَّروا تركه يطفح بمأساة عائشة بعينه الضيقة التي تُذَكِّرهم بعين وطواط وراء قناع، والتي قد تحوَّلت إلى مثقبٍ لفرط ما تحاول النفاذ إلى صدور المتهمين والمشبوهين.

ما إن خطا المُحَقِّق ناصر في سطح عائشة حتى فَقَدَ وُجْهَتَه، للحظاتٍ أعماه الانفتاحُ المفاجئ فنَسي ما هو بصدده، خيّل إليه أن أي حركةٍ أو نَفَسٍ يأتيه سيُخرج عائشة: جالسة هناك مُتَكوِّمة لها وجه أخته فاطمة التي يسمّونها صُبح لفرط إشراقها، يكاد يسمع عائشة تكتب وتسأله (ألا يُرافق الوقتُ الموتى؟) طرد ناصر تلك التهويمات واقترب لحافة السطح، يدرس المسافةَ منه لموقع اكتشاف الجثة، «ما إمكانية أن تسقط

من هذا السطح؟!» كانت المسافةُ ترسمُ زاويةً مُنْكَسِرَة، فإن لم تكن الجثة قد انحرفت في سقوطها فلا يمكن أن تقع في تلك الزاوية البعيدة والأقرب لقاع الزقاق.

فجأة وتحت حذائه أحَسَّ بتَهَشُّم الزجاج، انحنى ليجد فتَات الكريستال، فِصّاً آخرَ لَمَحَه منثوراً يبرقُ في الركن وآخر، تَتَبَّعَها للصناديق المُكَدَّسة لليسار فعثر على المزيد من فصوص الكريستال مقاس 12 ملم. نَفضَ كومةَ الصناديق ليعثر على ذلك الكُمِّ المشقوق من جسد ثوبٍ، بياض الدانتيل مُعَفَّر بالتراب، لكن رائحة العطر تحوَّلت إلى لونٍ كثيفٍ مُعَتَّقٍ بعَرَق الإبط. للحظة نسي ناصر نفسه في تلك الرائحة الصفراء الأنثوية، (الكلبُ) داخله تَعَرَّف على رائحتها: عائشة! لم يشأ تعكير تلك المعرفة بأيِّ تساؤلٍ عَمَّن يمكن أن يكون قد مَزَّق ذلك الكُمّ عن ذراعها.. ومتى.. كيف هو عَرَق الموت؟؟ لو يعرف كيمياء العَرَق لقرأ اللحظات التي سَبَقَتْ هذا التمزُّق حول الكتف، أكانت لحظات عشقٍ أم ذعر...؟ شمَّ عميقاً وتَرَنَّح، الحياة هي ما فارتْ بجسده! دسَّ الكُمَّ في جيبه وغادر. وتَقَرْطسَ (الكلبُ) في ذاك الكُمّ. وَجدَ نفسَه وداخ.

ضلع يوسف

أرخى يوسفُ عينيه جاعلاً جفنيه بينه وبين العالم في محاولة للتلاشي بأعمدة الحرم. تَدَخُّله في حادثة سرقة مفتاح الكعبة جعله مُطَارَدَاً لا من قِبل القاتل فقط وإنما من قبل الشرطة. انقطع مورده من تأجير الكرسي المتحرك للمعتمرين بعد أن صادرته الشرطة. ولم يعد بوسعه استحضار خِفَّة الجنون التي حملتْه فيما مضى من لجوئه للحرم. يشعر بجسده ثقيلاً على هيكله العظمي. يتحرك وحيداً، يُلصق جذعَه إلى برودة رخام المَطَاف مُنْصِتَاً لخواءِ جوفه تطارده جثة. للمرة الأولى يشتاق بؤسَ

أبوالرووس، البؤس الذي قاومه مذ فتح عينيه على الحياة. رفع عينيه للكعبة، ودعا: «يا الله اجعلني رجلاً واخلع هذه الجثة من رأسي.» أمام الله يستحضرُ عَزَّة، لكي يَتَوَصَّل إلى النقطة التي بدأ منها الشرخ بينهما. كان من الأفضل أن تكون هي القتيلة، لأنه يتوق لأن يبكيها عوضاً عن احتقارها واحتقار ذاته. لكن ومهما بَحَثَ يخونه استحضار لحظةٍ تاقت فيها عَزَّة للوجود خارجة عنه. كان قد وَجَدَها في دمه، مُنْشَطِرَةً من ضلوعه، لها نفس حجم عينه الشاسعة، نفس قوة الساقين في الركل، ولم يكن وجهُ أمه حليمة هو الذي تلخَّصَ فيه العالم وإنما جسد عَزَّة الصغير البضّ وهي تحبو، وهي تُسابقه للمشي، وحين صارت تكبر، ثم حين غلَّفَها سوادُ العباءة وأعلموه أن عليه أن يقطع ذاك الشطر من جسده... فجأة صارت عَزَّة عاراً جاهزاً للوأد.

الآن، في الثامنة والعشرين من عمره عَرَف يوسفُ المعنى الحقيقي للتشريد، غياب عزَّة شرَّده لا خوفاً من أن تلحقه التهمة وإنما خوفاً مما فضحته القتيلة. يقولون بأن التوأم يشعر باقتراب الموت من جسد توأمه، وجسده حتى الآن يؤكد له أن عَزَّة حَيَّة.

لكن، ومنذ سرقة المفتاح ويوسف يشعر بعين تلاحقه، هناك حضورٌ يَتَرَبَّص به، يُؤَجِّل الانقضاض عليه ليستخدمه كطُعْم، لقد حَذَّرَه مُشَبَّب: «الجثةُ ليست إلا طَرَفَاً في مؤامرةٍ تستهدفنا جميعاً، تَوَارَ لريثما تتضح الرؤية، إلجأ إلى بيت الله، ولا تغادره حتى تسمع مني.» يومها سخر منه يوسف: «بارانويا نظرية المؤامرة في عالمنا الثالث، إن فشلت في تلقيح زوجتك تعزو ذلك إلى مؤامرة دولية.»

«لدي نظرية.» تَجَاهَلَ مُشَبَّب سخريته، «يحتاجون إليك لتدلّهم لغاية، هذا هو التفسير الوحيد لما سيحدث في الزقاق، هذه الجثة تعني أكثر مما نعي، ما إن ظهرت بأبوالرووس حتى قَلَبَتْ عالي الزقاق سافله.»

مُشَبَّب مخبول، لكن الرسالة المنقوشة بالجثة حفرت حروفاً برأس

يوسف. هل سينجو في لجوئه إلى بيت الله؟ لم يكن أمامه غير ذلك.

ها هو يوسف لا يكف عن الحركة ولا يستقرّ بمقَام.. إن تَوَقَّفَ لَحِقَ به مُطَارِدُه.. وكلما تَلَفَّتَ لم يكن ثمة غير أعمدة الحرم المُتَدَاخِلَةِ في أروقةٍ تَلِجها من بابِ الفَتْحِ فتدوخ لتنتهي عند بابِ الوداع أو باب الجنائز، كيف وبأي هيئة يَتَخَفَّى الداخلُ إلى بيتِ الله؟ يَتَلَثَّم بغترته المُصْفَرَّة، ثم يَعْدِل عن ذلك لكيلا يفضحه اللثام. يتماهى في الصلوات، أينما أنصتَ كان المصلون حوله يلهجون بقوائم الطلبات والأمنيات، والبعض يجرؤ فيقدم قوائم باللعنات. دَرَّب يوسفُ حواسَه لاستحضار الملائكة التي كانت تلقاه في طفولته في الحرم الذي كان ساحة للعبهم. كل جمعة تتطيَّب أمه حليمة وترافقه وعزة إلى المسجد الحرام، تلج بهما باب إجياد المُوَاجِه لأقدم جبال الأرض، الذي طلعت منه الجياد بأول الزمان، يخترق ثلاثتهم إلى صحن الحرم المحيط بالكعبة مثل كعكة مقسمة بالمعابر الرخامية تحصرُ حصى مغسولاً بأدهان المسك والعود والعنبر، ذلك الحصى استبُدِل من زمنٍ بالرخام الأبيض. ومع ذلك فإنه لا يزال وحتى الآن، حين يمشي حافياً على ذلك الرخام تتحبَّب راحة قدميه بخربشات الحصى القديم.

غَرَسَ يوسفُ رأسَه في أرضية الرخام متنصتاً على أصوات النسوة المضمرة في ذلك الصحن من كل جُمعةٍ بطفولته.

مباشرة بعد صلاةِ عصرِ كلِّ جمعة تختار حليمة الحصوةَ يمين بئر زمزم لتفرش سجادتها وتجلس، مُشَكِّلَةً قَلبَ المسرح، وحولهم تتكاثر العباءات السود على سجاجيد زاهية تفترشها النساء مع صغارهن، يمسحن العرق عن أصداغهن ويرشفن الشاي من الفناجين المُحَزَّمة بالذهب، ويلتهمن بذور البطيخ المُحَمَّصة واللوز، ويؤدين أدوارهن بحرفية: كل دائرة عباءاتٍ خشبة مسرح بطلها الأزواج، نافورة دراما يُبَهِّرها الملل.

«لا عليكِ، سبِّحي أربعة آلاف يا ودود، وسُفِّيها على ماء واسقيه

يصير الحبيب العاصي طوع بَنَانكِ. . .» نصيحة مُجَرَّبة تقطعها نهنهاتُ المرأة المهجورة تنفجر باكية عن اليمين، وعن اليسار تلك الأم تركع ركعتين لله لتلحق بابنها الشاب الذي لم تلبث أن بعثت بجنازته الخضراء للمعلاة، وحولهم نسوة يرسلن بنداءات استغاثة لله، لاستمطار الملائكة التي تهبط بمفاتيح الفرج وبخور العود الذي يتعنقد على الأروقة.

جائعاً أسلم يوسف جسده ليجرفه الحجر الأسود، دسَّ رأسه في تجويف الحجر المحوط بالفضة، مستحضراً مذاقَ عَزَّة من بين ملايين الشفاه التي انطبعت هناك على مر العصور. الحجر الذي حفرت أُمُّه حليمة برؤوسهم ما سَمِعَتْه عن جَدِّها بأنه: «ياقوتة عملاقة من يواقيت الجنة، بطول ثلاث أذرع، إذا ألقي في الماء طفا رغم عظم حجمه! وأن الله تعالى لما أخذ الميثاق على ذُرِّيَّة آدم كتب عليهم كتاباً وألقمه هذا الحجر، وأنه يُبعث يوم القيامة وله عينان ولسان وشفتان يشهد للمؤمن بالوفاء وعلى الكافر بالجحود!» تُطيل عَزَّة في تقبيل الحجر، بتواطؤ مع الجندي. ما احتدَّ لسان عَزَّة من لَعْقِ الحَجَرِ لكن نَضَحَ سوادُه من أصابعها فصارت ترسم، يُفَكِّر يوسف: «وكنا نظنها ترسم بالفحم لكنها ترسم من تلك القُبْلَة الطويلة للحجر الأسود.»

«سورة الزلزلة، اتليها وسُفِّيها عليهم ينفضّون عنكِ. . »

«سورة فُصلت، اتليها بعد العشاء بِنِيَّةِ الفصل بينكما وإعلاء الحق، يأتيكِ طوعاً أو كرها ويُنْصِفكِ حتى ألدّ خصومكِ. . .» علوم باطنة وظاهرة للتوفيق والتفريق تتبادلها الأُميّاتُ وفاتحاتُ الحَرْف بينما يتنصَّتُ الصغار بانبهارٍ، يعي يوسف أن ملائكةً كانت تهبط من تلك المفاتيح المُتَبَادَلَة بحذرٍ، مُتَسَرِّبة إلى جيوب النسوة، يقع في وعيه أن المرأة الموجوعة قادرة على فتح أبواب السموات واستمطار الملائكة، من تلك الرؤوس المُغَلَّفة بسواد الطِرَحِ، والساجدة حوله تَلْهَجُ بحرارةٍ كَبُرَ في وعيه الحَذَرُ من دمعةِ المرأة، وأنَ (الإيمان) للمرأة لا يزيد على عجينةٍ تخبزُ

منها لتأكل ولتتدفأ ولتُحَوِّط زوجهَا، تُشبعه وتخلب لُبَّه! ويُشاغله صوتُ تلك البنت منهمكة تستظهر آيات سورة الجن لاختبار الغد.

يطير بعَزَّة لتلاحقه عبر الأروقة، حيث يتصارع الصغارُ وترقبهم أعينُ الأغوات الطيبة، يتظللون بتيجان الأعمدة المعنقدة، للمحةٍ يتيه بصر يوسف في الأسقف، يرى أن الملائكة تتجسَّد في تلك الحليات المقرنصة على الأعمدة، والتذهيبات الدائرة بالسقف تنسجه بالآيات والأسماء العظمى، ملائكةٌ تَوَقَّفَ بها الزمن في لحظةِ تجلٍّ. من تلك الأروقة العتيقة نَمَا وعيه بالفن والتجويد كمُرادفٍ للمُقدَّس! تغمزه الملائكةُ فيطير على ساقيه الطويلتين ولا يقف إلا على النتوءات الباقية من جبل المروة، وتلحقه عَزَّة، تتجنَّب البنتَ التي تؤجِّرُ مِقَصَّاً لتقصير شَعْرَ المعتمرين. كان يوسف يغرق في أفكاره، يَتَسَمَّر أمام ذلك البرميل الذي يَتَجَمَّع فيه كل ذلك الشَّعْر، بكل الألوان والسماكات مثل رُخٍّ عظيم يَتَجَمَّع في طبقاتٍ له رائحةُ خُلاصةِ رغباتِ البَشَر. شفرةٌ تُخْتَزَلُ أثناء الطواف والسعي وتُقَصُّ وتُلْقَى عن كاهل المُعْتَمِر، لهذا كانت العُمْرَة كَفَّارةَ ذنوبِ عامٍ كامل.. يقف مفتوناً أمام برميل الذنوب والرغبات ذاك.

في تلك اللحظة من استحكام المَنْفَى حوله انتابتْ يوسفَ حاجةٌ للتخفُّف لا من شَعْرِه المُشَرَّب بالخطايا فقط وإنما من الحياة الجاثمة على كتفيه. جثا على ركبتيه مسلماً رأسه لموسى المراهق الإثيوبي بجوار باب المَسْعَى، بخمس ضرباتٍ تَعَرَّت طاسة رأسه صقيلة بوهجٍ أخضر. نهض خفيفاً شفَّافاً، يدسُّ أصابعَ قدميه عميقاً في المفاتيح السحرية المضمرة بصحنِ بيتِ الله، أحد هذه المفاتيح بلا شك يحمل نجاته من هذه المطاردة الوهمية التي تقضُّه.

كان الوقت بعد صلاة العشاء، هبط العتم محوِّلاً مكة إلى طاسة من الرخام طافحة بأضواء النيون. هو وقت ازدحام الحرم حيث يلجأ الخارجون من متاعب يومهم. ملفوفاً في إحرامه تَوَجَّهَ يوسف إلى خارج

الحرم، عابراً أكداس أحذية المصلين أمام باب الملك فهد، عَبَرَ الساحة الخارجية، ألقت لاس فيجاس بأضوائها الكاشفة على أعتاب بيت الله.
أعطى يوسفُ ظهرَه للمُجَمَّع التجاري مُوَاجِهاً بياضَ الحرم، ساتراً جانبَ وجهه بإحرامه ليصد فضول المارَّة. كان بانتظار معاذ ابن الإمام داوود، الذي أقبلَ يتدحرج ككرة تنس، لوحة من تناقض الورع بالعصري محشوراً في حذائه وبذلته الرياضية البيضاء صنع الصين، تتوِّجها لحيته الشعثاء مثل حلية تنكرية واصلة لصدره. وَقَفَ لوهلةٍ يَتَلَفَّت إذ لم يتعرَّف عليه، هَمَس:

«معاذ.»

انتفض معاذ: «لم أعرفكَ بين المُعْتَمِرين، حَلَقتَ شَعركَ على الصفر، وهذا الإحرام...»

«تعبتُ يا معاذ، وتشرَّدتُ وتقرَّح جسدي بالرخام..» جاء صوتُ يوسف سحيقاً من طول الهجر، «لو قُيِّض لي فأسلم رأسي لوسادة وجسدي لفراش لمتّ قريراً.»

تأمل معاذ في هيئة يوسف، بدا مثل خيال: «أعرفُ مكاناً تقيمُ فيه.. قَابِلْني عصر الجمعة عند محل تصليح العجلات بأول جبل هندي..»

كست وجهَ يوسف لمحةُ غباء، «تعرفه حيث كنتم تغافلون العجلاتي وَلَد الهِزْمَة وتسرقون درَّاجة في دورة... » هزَّ يوسف رأسه بالموافقة..

أكمل معاذ: «الآن خذ.» قَاسَمَه المُتَبَقِّي من مرتَّبه الشهري، دَفَعَ معاذُ إلى يد يوسف المترددة بالورقتين النقديتين (من فئة المئة) ولتصريف الحرج بادر بتقديم تقريره عن الزقاق:

«أبوالرووس يخضع لعملية تجميل، الأقدام الغريبة لا تسكت في أبوالرووس، في بستان مُشَبَّب يقلبون الحجارة بحثاً عن الحجاب، حملات تطهير للعُشَش والصَّنَادق من المخالفين لقوانين الإقامة، دخلنا أوكاراً لم تخطر لنا على بال.. ساقوا أطفالاً ونساء ومتسولين بلا أطراف،

يسكنون أقبية وينصبون خِرَقاً بين جدارين للسكنى، جيوش من البشر بلا أوراق، سيارت الدفع الرباعي من المرسيدس للطوارق، تقف على فم الزقاق، ويهبط المسَّاحون.. حركة غريبة.. المطيري سيد العود باع حانوته، وحَمَّلَ الأعوادَ في شاحنةٍ وغادر أبوالرووس.. ما الذي تظنه يحدث؟ كل هذا بسبب جثة؟!» نظر يوسف حوله، دزينة من أطفال الأفغان يتشمّمون الجيوب عن غنيمة، يستجدون متحجّجين ببيع أكداس من المسابح وسجاجيد الصلاة وأغطية الرأس الرخيصة، ويحرصون على تَجَنُّب يوسف الذي يحفظون تاريخ جنونه.

«من الصعب عليَّ تخيُّل كل ما تقوله..» صمت فجأة، ثم أكمل «لو فكَّرنا كمشبب لقلتُ إن الجثة ربما لا تزيد على نقطةٍ بختام ذلك الفاصل القديم، نبدأ الآن سطراً جديداً... ربما هي الحركة الطبيعية للتطوّر..»

تلاشى معاذ وبقي يوسف مُوَاجِهاً للحرم، غائباً يتأمل الحمام يُصَعِّد سُحَب بخور العود ويرسم في طيرانه دوائر مثل حرس ليلي حول بيت الله!

كان الليل قد انتصف حين عاد يوسف إلى الحرم. توقف ليلقي نظرة أخيرة على مكة متأملاً في جبل أبوقبيس المسكون بالأساطير. بدت القمم غارقة في السواد، بلا نافذة تُسَرِّبُ ضوءاً للصاعدين ولا فانوس منسي على عتبة، حُلِقَتْ قممه من بيوتها على الصفْر وتُرِك ليغرق في الخواء. فجأة كان هناك ضوء، لم يكن ما يريب في ذاك الضوء، لكن شحنة من كهرباء صاعقة ضربت برأس يوسف مُحَرِّضة كلَّ جنونه، بدا له ذلك الانبعاث المُتَردد للضوء مثل صرخة احتضارٍ أو استغاثة. هرع يوسف إلى الرواق، إلى عموده عند باب السلام حيث بقجة ثيابه، على عجلٍ بَدَّل إحرامه بثوب تقليدي يميل قطنه القديم للصُّفرة، لفَّ شماغه حول وجهه وركض مغادراً مَأمَنَه في الحرم في محاولةٍ لإنقاذِ شيء ما بقمم أبوقبيس.

للمحة كان يوسف يمشي في طفولته، في الرحلة صباح كل سبت،

حين كانت أمه حليمة تأخذهما صغاراً خارج أبوالرووس إلى جبل أبي قبيس، تمرُّ في طريقها بسوق الصغير، السوق التي ينفتح عليها الحرمُ ببابِ الوَدَاعِ والذي لا تُفَارَق مكةَ إلا منه. في مرورهم بسوق الصغير تتفجر الضحكات ونداءات بسطات البيع، تملأ أعينهم حِدَّة الخضرة التي تتسابق لتحريض حواسهم، أهرام الطماطم المُرَقَّط بالنَّدَى، مُحَوَّطة بصفوف حزم البقدونس والنعناع الفواح واللفت الأحمر وأكواز القرع الأخضر تتراصف على الأرض بين الأقدام وتتدحرج. خيرات سافرتْ ريّانة طوال الفجر على ظهور الجمال لتبلغ مكة من بساتين الطائف الشَفَا والهَدَى ووادي مِخْرِم ووادي فاطمة.

يهيج في يوسف جوعٌ لا لشيء إلا لعَزَّة التي تُسلِّم كل حواسها لروائح سوق الصغير، تندفع إلى حوانيت الكباب المِيْرو، لتظفر بكُرَةٍ من اللحم المخلوط بالدُّخن، ولا يبخل عليهم بائع اللُقيمات بعجائنه المقلية والمُغَرَّقَة بمَعْقودِ السُّكَّر أو الفلفل، يقفان يرقبان جَرَّةَ الفول المُدَمَّس بالسمن البلدي، ويد الهاون الخشبية تهرس بتنغيم المَعْصُوب من لُبِّ البُر ولُعَاب النحل أو الموز في الجرار الضخمة. ومن هناك تنتهي بهم حليمة بحانوت (أبوراس) أفضل من يحضّر لحمة رؤوس الخرفان بمكة. مثل نحَّات يُنَجِّر لها أبوراس أفضل الرؤوس، ويلفّ لحمته في قرطاس بُنِّي ويدفعه إلى يد يوسف: «أنتَ يا رجل احمل عن كريماتك.»

بالقرطاس تحت إبطه تصعد بهما حليمة أجراف جبل أبي قبيس، الصعود يكون في البداية يسيراً وتلقائياً بلا مقدمات، في دروب مُتْرَبَة تُحيطها البيوت القديمة بأسطحها بواجهات الجِصِّ المُخَرَّم، ورواشنها المتهاوية، كثير من البيوت انفتح بسقوطِ روشنٍ وقامت مكانه طبقةٌ من الخشب العاري، (مثل صيحة: يا ربّ): تشجعهما حليمة على الجَلَد، يصعدون بينما يرمقهم شيوخٌ خَانَتْهم الرُّكَبُ فأقعدتْهم، منصوبين على سُرُرٍ بالأسطح، رجال يبسطون سيقانهم أمامهم لتبدو أقدامهم كأرانب

مسلوخة (تفوح بأدهان الفيكس وشحم الدجاج الموصوف لتصلُّب المفاصل)، مثل ذاكرةٍ جَمعيةٍ تَتَصَلَّب بكوافيهم المُصَنْدَقَة وسديرياتهم الحائلة يرصدون الهابطَ والصاعدَ، وما يَجِدُّ وما لا يَجِدُّ على تلك المصطبات، إذ لا شيء يحدث في تلك البيوت إلا انتظار الصلوات للتيَمُّم في أَسِرَّتِهم والصلاة ناظرين إلى صفوف المصلين بالحرم.

حَفِظَ جسدُ يوسف صغيراً جغرافيةَ المصطبات التي تُقَسِّط بيوتَ الجبال حول سُرَّةِ الحَرَم بالأسفل، لتبدو مكة مثل جُرْفٍ مُنْحَطٍّ من الجهات الأربع لبيت الله (الكعبة)، حَفِظَ الخطوطَ المرسومة لجباه الرجال المحفورة بالمعرفة الفطرية، والتي صارت آيلة للسقوط هي الأخرى. تدفعهم حليمة ويصعدون إلى فضاءٍ موصول بالله، ويضخُّ الدمَ بقوةٍ أعنف في صدغيِّ يوسف فيفقد الرؤية في العين اليسرى، لا يرى إلا باليمنى المتجهة للسماء، بينما مكة وحَرَمها عن يسارٍ في الأسفل، بمقاماته الأربعة وقُبَّة بئر زمزم.

في صعودهم لتلك المرتفعات تجحظ عينُ عَزَّة الطفلة كعينِ حَشَرَةٍ وتصير ترى في كل الاتجاهات، وتشحب حين يفرغ دمها للبئر بالأسفل، حتى يبلغوا غَارَ الكنز. تستقبلهم فسحتُه (كإيوانٍ بقلب الصخر) تُحييها آثار الماعز وبقايا الزُوَّار. بصدر الفسحة يظهر الغَار كشقٍّ في الجبل مسدود الفوهة بالحجارة المتراكبة بتنضيدٍ كأحجيةٍ وبلا حشوةٍ أو مَلاَط يُثَبِّتها، في مُجلَّدات مَرَاجِعِ تاريخِ يوسف كان قد بَنَاها نوحُ عليه السلام لسترِ مَرْقَدِ آدم وحواء وولدهما شيث (الذي أُنْزِلَتْ عليه خمسون صحيفةٍ من الغيب وأقدار البَشَريَّة وأخفاها هناك بانتظار من يعثر عليها)، تستثير مخيلاتَهم الشقوقُ في الستار الحَجَري والقائمة لتسريب الضوء لرقدة الثلاثة، إلا أن أحداً لا يجرؤ على استراق النظر إلى قلب الغار، في تاريخ يوسف كان الصخر طرياً بعد الطوفان فانحفرت آثار نوح بطول الأجراف الشرقية، كُلُّ قَدَمٍ بطول مترٍ، وحولها يَتَحَلَّق الصاعدون صباحَ كلِّ سبت، يتَتَبَّعون بقايا

آثار أقدام النبي نوح والذي جاء يردُّ تابوتَ آدم الذي حَمَلَه معه على السفينة بعد انحسار الطوفان. يُدْرِكُ يوسفُ اليوم أن تلك الصخرة التي كانوا يفترشونها ما هي إلا البِرْكَة العامرة بماءٍ من بقايا الطوفان، والمحفورة من ضربة قدم نوح في وَدَاعِه لآدم. تبسط حليمة سُفْرَتَها بطَرَفِ الإيوان، وتُقَسِّم لحمةَ الرأس، تترك لابنها رأس اللسان المدببة (ليرمح ويذبح) من تلك الألسن التي التهمها ثلاثتُهم في قبر شيث بن آدم انبثق شغفُ يوسف بالكتابة، واحتدَّ قلمه من الخمسين صحيفة التي منحه إياها شيث، فيها سِرُّ تعميره لتسعمائة سنة، وسر تعمير البشرية، السر الذي دَفَنَه ودُفِنَ مع أبيه في غار أبي قبيس.

تَشرح حليمةُ للشيخ مُزَاحِم والد عَزَّة أن غايتها من الرحلة لأبي قُبيس (الاستشفاء)، وتخليص عَزَّة من (فزعها من النوم) ويوسف من (صداعه)، كما يعتقد المكِّيون، بأن لحمة الرأس هناك تُقَوِّي القلبَ وتشفي الصداع المُزْمِن. يسترجعُ يوسفُ قَلْبَ عَزَّة وهي صغيرة تُطْبِقُ أضراسها على بلّورة العين، فتُهْرَس ويتفجَّر بياضها على لسانها، تُباغتها صورتُها فتبصق الشحمةَ البيضاء:

«لا تبصقي النعمة سيسخطكِ اللهُ عمياء..» فتقضم رأس البصل الأخضر وتدمع عيناها! يرقبها وينتظر الغروب قبل عودتهم آملاً أن يُعَجِّل القمر فينشق على وجهها في الموضع نفسه الذي يزعم الناس أن القمر انشقّ فيه للنبي صلى الله عليه وسلم، يُخلخل الصداعُ ليوسف المَشْهَدَ من على تلك القمم، يخطر له أنه (حين تقف عَزَّة وهو إلى جوارها ممسكاً بيدها الصغيرة التي تذوب كحلاوة القطن مُشرفين على صحن الطواف المُدَوِّخ، سيبدوان أطول من سفينة نوح وقبور آدم وحواء وابنهما شيث، بشواهدها المطموسة.)

«في تاريخ يوسف ليس الكعبة فقط هي المُقَدَّس، وإنما جبال مكة أسرار كونية وشفاء.»

الهديرُ انتزعَ يوسفَ من ماضيه لخواء الحاضر، الليلة الحالكة لا يُفَرِّجُ كَرْبَها قمرٌ، فتح يوسف عينيه ليجد أنه يُواجه سوراً مُشَيَّداً من الأخشاب ليستر مُعسكر العمل على تلك القمة. شعر بالصخور ترجفُ تحت قدميه، آلات عملاقة كانت تطحن بالداخل مستورة بالليل. قفز يوسف السور ليسقط داخل المعسكر على ركبته المعطوبة. على بُعد أمتار قليلة من موقع سقوطه كانت جَرَّافة تنهش الجدارَ المرصوف الذي يحمي رقدة آدم وحواء وابنهما شيث. تساقطت حجارة الحائط المغزول وتبعثرتْ أُحجيتُه، أحرف سوداء وبيضاء تراكبت وتفرَّقت راسمة لوحات مختلفة لأشعار وعبارات، خاف يوسف أن يقرأ عن كثب ما خُيِّل إليه أنها الأقدار المحفوظة في الألواح التسعين التي تسلَّمها شيثُ من الله أول الخلق.

خلف الجرَّافة ارتفع خرطومُ رافعة عظيمة، بين أنيابها تقبض على كفنٍ يشبه مِسَلَّةٍ هَرَميَّة، كلُّ ضلعٍ من أضلاع الهَرَم جسدٌ، هَزَّ يوسفَ فَزَعٌ، كانت تلك أجساد آدم وحواء وشيث متلاحمة بوجه الهجوم، بينما الرافعة تنتزعها من أحشاء أبي قبيس وترفعها في الهواء لتُهَجِّرها. بلمحةٍ كان يوسف يندفع مثل رَقَّاصٍ في الهواء على رُكبته السليمة، بُوغتَ سائقُ الرافعة الحبشي بيوسف يدفعه عن مقعده ويَتَوَلَّى القيادة، شقَّت الصفاراتُ ليلَ أبوقبيس، وسطعت أنوارُ عربات تتجه صوب الرافعة، جاهد يوسف ليتحكم في الرافعة، التي اندفعت للأمام وطوّحت النعشَ الهرمي ليرتطم بالمهاجمين، لم يكن أمام يوسف من خَيَارٍ غير أن ينجو بذلك الكنز التاريخي من معسكر التطوير والإزالة. حين حطَّمت الرافعةُ بوابةَ المُعَسكر فوجئ يوسف بلمعة الأصفر تبرق عن يمينه وزعيق فرامل، أخرجَ سائقُ عربة الأجرة الذي كاد يرتطم به رأسه من النافذة ليشتم يوسف. ورغم الفوضى العارمة والجنون الذي يفجِّر رأسه كان يوسف شديد الجلاء والشفافية، عرف سائق التاكسي، هو وجه خليل، الطيار السابق والذي يكبره بسنوات وينافسه على عَزَّة، بدت المفارقة ليوسف، «أن تكون في

أبوالرووس وتحارب على عَزَّة غير أن تكون في بيت الله وتُحارب على الحجارة!» فجأة انطفأتْ كلُّ موجات الطاقة بدماغ يوسف، أوقفَ الرافعةَ وجلس مذهولاً في قَمْرَتِها، فرغتْ كلُّ ردود أفعاله ورغبتُه في البقاء، جلس باهتاً ينتظر أن يتكاثر عليه حُرَّاسُ الموقع ويأخذوه مخفوراً. مطاردوه أيضاً تجمَّدوا في عرباتهم في دائرة بعيدة لا يجرؤ أيٌّ منهم على الاقتراب خوفَ أن يُباغتهم المخبولُ الذي اختطف الرافعة. استغلَّ خليلُ ذلك الاضطراب فدنا بعربته من قَمْرَةِ الرافعة، فتح ليوسف باب مقعده الأمامي.

«اقفز.» قالها بدفء الأخ الأكبر، «ودعنا نبتعد بكَ عن هنا.» نظر يوسف إلى وجه خليل، سَرَتْ في دماغة موجةٌ كهربائية، بدا حائراً فيما إذا كان نداء خليل شَركاً أم نجدة. خليل الذي يعرفه كان يتفوَّق على نفسه في اضطهاده وعزة، وخصوصاً في رجعتهم كل سبت من وجبة الرأس بقمم أبوقبيس، يستقبلهم بغيرته وعبارته الساخرة، «ها؟ أتشعرون بتحسن الآن بعد أن أكلتم رأس أبينا آدم؟ وشربتم إسبرين أبي قبيس؟؟» تمد عَزَّةُ له لسانها الذي طال قبل أن تبتلعها برودةُ الدهليز المنعشة. يؤمن يوسفُ بأن بوسع خليل أن يبتلع رأسَ عَزَّة حَيَّة، بتلك العين الساخرة. من مقعده بقَمْرَة الرافعة تأمّل يوسف وجهَ خليل الذي تُشبّهه أمه حليمة بنسر مكسور الجناح.

بطرف عينه أدرك يوسف أن مطارديه قد غادروا عرباتهم، وبدأوا التقدم من الرافعة، لا سبيل أمامه للنجاة غير مُوَاطِن أبوالرووس ذاك، بلا نظرةٍ إلى الوراء قفز يوسف وجلس جوار خليل.

«أيها المخبول!» قالها خليل ضاحكاً، واندفع بعربته بسرعةٍ سينمائية، مُعفِّراً وجوهَ مطارديه بزعقةِ الكوابح، بينما بصرُ يوسف جاحظ إلى السماء صوب أجساد آدم وحواء وابنهما شيث المتلاحمة كمِسَلَّة مُعَلَّقة في سماء مكة.

لِمَ يثق الناسُ بما يقرأونه على الورق عِوَضاً عن اعتماد ما يُكتب بالطين والتمائم؟ تأملوا في أكياس البلاستيك الزفرة التي تعجن تربتي لتعرفوا ما يستهلك رؤوسي ويُعيد تدويرها.

يتتبَّع ناصر يوميات يوسف متجاهلاً القرائن والإشارات التي أحشرُها في طريقه أنا أبوالرووس، صفحات وصفحات من يوميات يوسف تشير إلى كونه الصديق الأقرب للقيط صالح المعروف بتيس الأغوات، لكنني لن أورِّط أيّاً من رؤوسي في هذا الصداع. في الواقع فإن هؤلاء الشبان بموضات الفصام التي يلاحقونها يدفعون خازوقاً في مؤخرتي التاريخية. رأس ناصر هذا، كيف سيفهم أن هناك جذوراً لكل خيال تافه في شبكة بؤسي، فمثلاً هذا اللقب تيس الأغوات (اشتهر الأغواتُ المخصيون المنذورون لخدمة الحرم في مرحلةٍ من تاريخ مكة، وكان لهم تيسٌ فحلٌ، عُرِف في مكة باسم تيس الأغوات، يُلَقِّح غنم أصحاب المواشي، يستعيرونه أياماً ولياليَ ليضمّوه إلى ما لديهم، يُفلتونه في ماعزهم، بشرط أن يقوم المُسْتَعيرُ بإشباعه وإروائه، خلالَ مدة الاستعارة بحيث لا يبخل المستعيرُ عليه بما يجعل مادته خصبة مُجْدِية مُنْتِجَة، وبذا كان أغلب النسل المبارك من صُلب تيس الأغوات هذا).

لَحِقَ اللقبُ بصالح لفرط جماله وعنفوانه حين عثر عليه الطباخ العَشّي في حوش مطبخه طفلاً في الخامسة، فتبنّاه مع زوجته أم السعد، لكن الأمر لا يتوقف هنا، إلا أن ناصر يُفَضِّل أن يجلس كما يفعل الآن، يحتسي قهوته ببرود في المقهى ويقلب اليوميات، مما يدفعني للتنصت لأعرف ما يُزيِّفه يوسف من رؤوس على كتفي، يقرأ:

6 فبراير 2000:

ككل صباح، التقيتُ بالعَشّي على باب حانوت البقالة، طوَّحَ رأسَه كمن يتتبع رائحة طبخة مدوِّخة:

«نافذتكَ اليوم أطول من كل يوم.» أنصتَ صبيانُ الحانوت وذاك الزبون لتعليقه على مقالتي، وتعدّلت نظرتهم لي وفقاً لوزن التعليق.

صاحت قِطّةٌ انغلقَ على ذيلها بابُ حانوت البقالة، مشتتاً انتباهَ ناصر، كان يجب أن أتدخّل أنا أبوالرووس لأكمل رواية هذا المشهد من زوايتي، وأفضح طرافة العشّي هذا:

في تمام الساعة السادسة صباحاً، كساعةٍ رملية، بلا تأخير أو تقديم، يقف العَشّي وقفتَه تلك أمام حامل الصُّحُف الذي لم يلبث أن دَفَعَه العاملُ لتوه امام الباب، يقف على طرف الطريق، وينبش (جريدة أُم القُرَى)، يَتَغَاضى صبيانُ المحل وقد غمرتْهم عطايا مطبخه، يعرفون أنه يُفَتِّش عن عمود يوسف اليومي بعنوان (نافذة) تُطِلُّ منها أُمُّ القُرى، يتَمَلّى فيها، طويلاً، يقيسها بالشبر، يُغْلِقُ بعدها الجريدةَ ويُرْجِعها للحامل، وتمتد يده من تلقائها إلى جريدةِ الرياض الرسمية، يدفع ثمنَها ويُغادر نافذة يوسف، مطمئناً لوجودها وراءه.
تأبط العشّي جريدةَ الرياض مخترقاً إلى فناء مطبخه.
جَرَّ كُرسيَّه الأزلي، وزعقتْ على الإسمنت قوائمُ الحديد الأجرب، للكرسي العاري برودة متلهفة لطلّتِه كل صباح، من لَفّةِ الفوطة على سُرَّته اخرج نظارتيه، جلس باسطاً ساقيه وذراعيه بعرض الصحيفة، وانغمس في الصفحة الأولى من (جريدة الرياض).
«العَشّي رَبَطَ سلوكَ الإرسال.» يتهامس صبيانُ المطبخ، بينما باب الحوش مُشْرَع، لا يبقى عابر ولا جار إلا ويعلم بأن طقس القراءة قد بدأ، وأن العالم أخذ يتدفّق على الزقاق من تلك القراءة.
تبعث أم السعد رَبيبَها تيس الأغوات بالشاي في كأس طويلة من زجاجات جبنة كرافت، يضعها على الأرض يمين العَشّي الذي يترك لأبخرة الشاي بأنفاس أم السعد التصاعد لرأسه بينما يبدأ الشوط الثاني للقراءة.
«أم السعد قارئة كاتبة.» أنا أبوالرووس أحرص فأُبقي رؤوسي خارج

طوفان هذه المرأة، والتي تكتسح الحوائط كما تكتسح سوقَ الأسهم، لكنني أُبقي عيني مفتوحة على الجلسات الصباحية السخيفة التي تعقدها للنساء في شقتها بالطابق الأول في عمارة أبيها اللبَّان المعروفة بجامعة الدول العربية.

هذا الصباح تضطرب أم السعد وهي تستقبل كوثر زوجة النزَّاح، التي تَعَهَّد ابنُه البكر أحمد الذي يعمل كمُرَافِق للشخصيات، وزوج المُعَلِّمة عائشة العرجاء...

قَاطَعَ المُحَقِّقُ ناصر المَشْهَد، صَدَمَتْه كلمةُ (العرجاء) تصف عائشة:

تَعَهَّدَ أحمد بالسعي لمن يوثِّق تيس الأغوات بالأوراق، الجنسية التي حُرم منها حين كبر مع القطط منسياً في حوش العشي، وصار من المتعذر إلحاقه بجنسية. في رؤوسي كنتُ قد عَرَّفتُ أحمد بصفته الوسيط الساخن، يستثمر علاقاته بشخصيات ذات نفوذ بوسعها (قَلْب البحر لطحينة) لحل مشاكلي المستعصية للحاق بالتطوير، يبيع تصاريح محلات الطرب واستغلال الألعاب الإلكترونية بالمقهى، مقابل رشاوى يقتطعها من لحمي، ويستدرجني في سلسلة عمليات تجميل total make over تقود لتعقيداتٍ تُحَوِّلني بالنتيجة إلى مسخ كتلك المرأة التي تريد أن تُحوِّل وجهها إلى وجه قِطَّة. يدَّعي أحمد أنه يفعل كل ذلك خدمةً لي بينما يمتص دمي لتلك الشخصيات التي تعرف من أين تنهش كتفي.

تجلس أم السعد كملكة مُتَوَّجة على أريكتها، مُوَاجِهَة لشاشة حاسوبها المفتوح على صفحة التداول، تُحَوِّطها الجاراتُ يُفصفصن بذورَ عَبَّاد الشمس المُحمَّص وآخرَ الشائعات والأخبار، مستدرجة انتباههن تنهض في نصف اتكاءةٍ، وبقلبٍ حديدي تُعطي أمرَ شراءِ ألف سهمٍ من أسهم شركة (شمس) التي تحتضر لأيام، وتعاود الاسترخاء متمددة على الأريكة، بأرقام الشاشة تتقافز لا تستقر على حال، مع كل تذبذبٍ تتحقق مكاسب لطفيليات السوق أمثالها، بحمرة شفتيها الفاقعة تدمغ حافة الفنجان، مع زيادة الريال

غير المتوقعة في السهم تنبعثُ مرتعدة لنصف اتكاءةٍ، وبضغطةِ زرٍّ تُعطي أمراً آخر بالبيع.

«نَفَذنا بجلودنا، ومن فم الأسد استفتحنا بألف.» يُطلقن تنهيدة مشتركة تُغَطِّي الحجرة بغمامةٍ من عَبَقٍ بذر البطيخ المُحَمَّص، ينضوين تحت راية قَرصنتها في سوق التداول، يعهدن إليها بثرواتهن الصغيرة، ويُطلقن لها صلاحية البيع والشراء لتقودهن إلى الثراء المستحيل. الأمر الذي يملأني أنا أبوالرووس برغبة عارمة لتهشيم ذلك الرأس المؤنث الوحيد الذي ينبت كطفيلي بين رؤوسي المُذَكَّرة.

«امرأة كأم السعد بلا شك لديها مِهْبَل عملاق بوسعه ابتلاع سوق الأسهم وأبوالرووس نفسه بل والموت.» استحكمت تلك الفكرة السخيفة برؤوس النسوة وهن يرقبن أم السعد تخوض السوق متكئة ومن دون أن تضطر للجلوس. يُلَقِّبنها خِفيةً بـ (أبوعَرَّام)، أعرفُ أنه لو قُيِّضَ لنسوة أبوالرووس الترشُّح لرئاسة البلديات لما جرؤ رجلٌ على منازلة أبوعَرَّام هذه، التي تجمع قلوب النسوة بطرف سبَّابتها المُتَرَبِّصة على لوحة المفاتيح، وكانت ستكون خطراً حقيقياً لولا انشغالها بقضية تجنيس ربيبها تيس الأغوات.

«يعلم الله أن أحمد قد بذلَ كل الجهد...» أبلغتْها كوثرُ زوج النزَّاح رسالةَ ابنها أحمد، «لكن الوسطاء ما حادوا عن الرقم: ثمانين ألف كمُقَدَّم ومثلها للمؤخر.» شهقت أم السعد:

«بيع الإحسان كبيع الظِّلِّ وزمزم. وهو سبب لعن الأمم السابقة، فحين سكن مكةَ العماليق، كانوا في عزة وثروة، فبغوا وكانوا يُؤَجِّرون الظِّلَّ، ويبيعون الماء، فأخرجهم الله تعالى من مكة، وسَلَّطَ عليهم النمل حتى خرجوا من الحرم، ثم ساقهم بالجدب، فكان يُريهم الغيث أمامهم فيتبعونه ويمضي بهم، حتى ألْحَقَهم بمَسَاقِطِ رؤوسِ آبائهم باليمن، فتفرقوا وهلكوا، وأبدل الله بهم جُرْهُم، إلى أن بغوا فأهلكهم.» درس التاريخ ذاك لم يُعكِّر ملامح كوثر القانعة. وعَبَّرت أم السعد عن غضبها معتدلة في جلستها، من على الطاولة الجانبية تناولت الوعاء الطافح بالتفاح الأحمر، وتَوَجَّست النساء بينما وبعناية أخذت تُقشِّر الحبَّات، تُكَوِّم القشور في طبق، وتقطع اللب

وتطعمه لضيفاتها، اللواتي يبدأن بالقضم بآلية كمن يؤدين مهمةً عسكرية، يرقبن بانبهار حين انقضّت أم السعد على القشور، بشهوةٍ عجيبة تقضم القشور بفم يقطر حمرة، مؤكدة أسطورة ماضيها التي تحاول النسوة تناسيها. مضين يرقبن أم السعد التي لم تأكل لب تفاحة قط، فقط القشور ويرمقنها كراية انتصار ترفعها بعد كسبها لكل معركة تخوضها ضد ظلم الرجال، راية دموية من سنوات أسرها المرعبة.

«الصحفُ حشيشة العَشّي، يقرأ ولا يكتب، نصف أُمي.» يروق لتيس الأغوات أن يشيع هذا عن مُرَبِّيه، ولا أحد بوسعه أن يجزم أو يعبأ ما إذا كان العَشّي يكتب أم لا، لكنه يُمعن في الصفحات مستنبطاً سِرّاً، يَتَتَبَّع بشغفٍ صورَ خادم الحرمين الشريفين عبد الله، وولي العهد سلطان، تفضح شغفَه ذاك الصُّوَرُ التي يستخلصها من المَلاَحق ليُعَلّقها باستماتة على جدران تلك السقيفة، كحصن بينه وبين ذلك الحوش الفوّاح بزَفَرٍ ودماء، بينه وبين الأفران التي تأكل ماءَ العين، صورٌ تمنحه حِسّاً بالوصل، تربط حوشَه إلى وجوه وطبقاتٍ من الوجود لا يبلغها خياله.
بفرح طفلٍ محترف يَتَتَبَّع العَشّي صورَ لاعبي الكرة، حين يجيء للمُلْحَق الرياضي لا بُدَّ أن يقطع القراءةَ ويتناول نظارتيه التي لم تتغير من ربع قرن، كل خبرٍ غريب يقتضي تَنَاول الزجاج بطرف فوطته، ينفث من روحه ويُلمِّع بقطن الفوطة.
عندها فقط، ومطمئناً لصقل الأخبار الصغيرة المتوارية في الأركان تحت عدستيه، يهتف العَشّي:
«الدنيا بخير.» ويميل ليرشف أولى رشفاته من شاي أم سعده.
حتى إذا مسَّت الشمسُ قدميه طوى العَشّي ذراعيه وساقيه والجريدة في حركةٍ حاسمة، ونَهضَ ليضيفها إلى صفِّ الصُحف على الرفِّ المُوَاجه للباب.
ككل صباحٍ وقف حميد العَشّي مُعطياً ظهرَه للحوش، يرشف الشاي ويتأمل في كنز الصحف المصفوف وفقاً للتواريخ ومواضيعه الأثيرة: يعرف الكوم

الذي بدأت فيه حملات الإرهاب ومكافحته والمداهمات، لديه صُوَر رجال قوى الأمن القتلى وقائمة المطلوبين الستة والثلاثين.

يعطي العَشّي نظرة خاصة لذاك الكوم، حيث تتصدَّر الطبقاتُ المزدوجة لتشير إلى موت الملوك، فيصل، خالد، فهد والحسن وحسين. ومن تَوَلّى بعدهم. وبرقيات التهنئة بالتولية وبرقيات العزاء بعد التشييع!

وهنا وعرضياً يحفظ صحف النوادر: حين ظَهَرَ أبوالرووس في خبرٍ عن معجزة عائشة، الناجية الوحيدة من حادث الحافلة الذي أودى بحياة ثلاث عوائل من أبوالرووس في طريقها للمدينة المنورة. تلاه خبرُ تَبَرُّع الأمير عبد العزيز بعلاجها بألمانيا على نفقة سمّوه الخاصة.

يتشبث العَشّي بالصفحات عن أداء سوق الأسهم والاكتتابات الكبيرة وتلك التي تصفُ المُدَنَ الاقتصادية الضخمة التي افتتحها الملك عبد الله. وَضَعَها عرضياً ليرقب تداعياتها..

نصف قرنٍ ويزيد من تراب هذه الأرض مصفوف بعناية، يعرف حميد العَشّي أنه يرصف ذاكرتَه على ذاك الرفّ، وأن بوسعه أن ينسى ويهرم ما دام صندوق ذاكرته هناك خارج مُتَنَاوَل الخَرَف، ذاكرة مستقلة يربطها متى شاء إلى فراغ رأسه ويرجع شاباً وطفلاً، منذ بدأ شغفه بالصحف حين كان لا يزال في السادسة صبيّاً بهذا الحوش، كم عمره الآن؟ كلما رَاوَدَه السؤالُ يُلقي بنظرةٍ خاطفةٍ على الرَّفّ، ويعرف أنه بعمر كومة المملكة هذه، سنواتُ الطفرة والرخاء نَقَلَتْ الحوشَ من دَكَّةَ عبيدٍ إلى حوش عَشّي، لكنها لم تعبر شبكة بؤسي أنا أبوالرووس حقيقة إلا على ذاك الرف، بصورِ مُنْشَآتٍ واحتفالاتٍ بوضع أحجار أساسات وأشرطة ومقصات ذهبية بأيدى طفلات بتيجان ورد للملوك. بعناية صفّ ورَتَّبَ حتى سنوات انحسار الطفرة، والتي كثُرت حول مطبخه حوانيت الطرب، يليها انضمام المملكة لمُنظمة التجارة العالمية، وبَادِرة الانتخابات البلدية. يرمق العَشّي بفضولِ الصَّفّ القصير قريباً من خاتمة الصفوف، ببصيرةٍ قَبَضَ على أول صورةٍ لامرأةٍ سعودية تخترقُ الصُحفَ المحلية (للإعلامية سمر جنباً إلى جنب مع مها.) بعدها وبعنايةٍ عَزَلَ الهجمةَ الأولى لصور النساء السعوديات على صفحات

الصحف، معنونة لمقالات يومية أو أسبوعية أو مُرْفَقَة بأخبارٍ قصيرة. ثم تكاثرن حتى صار من العسير العزل فاكتفى بالأرشيف الأول، كلما نظر حميد العَشّي إلى ذاك الصف يشعر بأن زحفاً نسوياً يتقدم، يُفْضَحُ مُتأخراً بين العامين 2004/2006 لكنه حاسم ويكتسح، خصوصاً خبرُ انتخابِ نساءٍ لعضوية الغرفة التجارية بجدة.. والأهم صورة أول فتاة تحصل على رخصة طيرانٍ مدني، صورتها مع الأمير الوليد، بمناسبة ضَمِّها إلى أسطول طائراته، تُظْهِر هنادي ووالدها ووالدتها مع طائرة ضخمة وتهنئات للأمير بعرض الصفحتين، يرمق بحذرٍ سَرَيَانَ كل تلك الوجوه بحبر الصحف، (عسى أن تطلع أم السعد يوماً في ذاك الزحف)، لم يُفْلِح قط في تحديد حقيقةِ مَشاعرِه تجاه مثل ذاك الاحتمال الذي سيقلبني أنا أبوالرووس رأساً على عقب، ماذا لو قامت بنشر مُذَكّراتها هي أيضاً؟ ستحتلُّ بلا شك الصفحات الأولى لكل الصحف، ستكون زلزلة، ويشهدها كل من يدفع ريالين ثمناً للصحيفة. ولا يعرف كم سيبلغ قرّاء الصحيفة في ذلك اليوم.

هل سيشعر القرّاء بقوة فخذيها والدوامة بينهما، صورة طبق الأصل عن شفتيها المطليتين بالأحمر الفاقع، والذي سيُصبح الموضة التي تحتذيها كل النساء؟

«الليلة الزجاج في العلالي... السوق للاتصالات، متورطة مع المتطورة، السوق أغلق آكل تِبن!» درَّبَ العشي نفسَه فلا يقف بتعليقات زوجته على سوق الأسهم، حيث لا يفهم شيئاً من امبراطورية الأرقام التي تتابع مَدَّها وجزرها، كل ما يعنيه أن تحتضنه بكل الإحباط والتسلط الذي لكتفيها العريضتين وصدرها المفلطح وبُنيتها المُذَكَّرة، دَرَّبَ حواسَه على الانغلاق ليبتلعه رحمُها، في انزراعٍ يُمارسه كل ليلة ويُبعث كل صباح. لكن وفي الليالي التي يشعر باضطرابها كما الليلة، فإنه ينظر عميقاً إلى رحمها ليكشف المتاريس التي تُخفيها هناك، يعرف جيداً معنى أن يَسكن جسداً سَبَقَ وسُكِنَ بأشدِّ المعادن برداً: الذَّهَب.

أنا أبوالرووس اتركه لذلك الفزع، حمداً لله، لربع قرن الآن نجحت في دفن مأساتها على الرف، إذ لم تعد تُسليني، في الوقت الذي لا يمكن للعشي أن

ينسى، مستسلماً لشهيتها المخيفة، هو الطبَّاخ المُهَاب يُضمرُ هويَّة لا تعلمها سوى أم السعد، يحلو له أن يلعب دورَ الأنثى، مستسلماً لذكورتها الطاغية ولكهف الكنز داخلها.

حَيّة السكينة

كانت العاشرة صباحاً حين أيقظ شعاعُ الشمس يوسف، كان راقداً متوسداً عموداً بباب الوداع. تَلَفَّتَ مذعوراً لكن ما كان حوله غير حفيف أجهزة التكييف الضخمة وأسراب الحمام حول الكعبة، حَرَص ألا ينظر صوب أبوقبيس خوفاً من أن يصطدم بالنعش كما رآه البارحة متأرجحاً في الهواء، للمحة ظلَّ راكعاً كحيوان على أربع، أركعه يُتْمٌ مخيف، مثل ثقب مكان القلب والأحشاء، لا يريد أن يفكِّر كم سيبقى آدم وحواء وشيث معلّقين في الهواء أو بفراغ جوفه، شَعَرَ بعين ذاك المُعْتَمِر ترقبه في حبوه، تحامل ليقف، مَشَى مُتَرَنِّحاً صوب صنابير زمزم المُلْحَقَة بالمَسْعَى، إلى البقعة حيث تعارك مع سارق المفتاح. بعد أيام من الحصار أُفرِجَ عن تلك البقعة ورجعت الصنابير لتوزيع الماء الذي ظلَّ وطوال التاريخ يتدفق مجاناً. سكب زمزم على مؤخر عنقه وبَلَّلَ قلبَه الموجوع، توضأ للصلاة، متجهاً إلى حِجْرِ إسماعيل الجزء غير المسقوف من الكعبة، والمفتوح ليُبيحَ للناس مذاقَ باطن بيت الله. مسلوباً يُلصق جسدَه بالسواد المُطَرَّزِ بالآيات، ويغمض عينيه غائراً بوجهه في الجسد الحجري بين اسميّ الله (الأعظم) المخفي و(القيوم) المُعَلَن، ليَعْمَى عنه مُطَارِدوه. يعرفُ أنه لو فارق الكعبة لانكشف لهم عُريّه. يغوص بوجهه تحت ميزابها حيث ترقد هاجر، تَهبُّ عليه أرواحُ العود والعنبر من ثوب الكعبة، تتباطأ دورتُه الدموية، ونبضُه وجهازُه العصبي، مُشَارِفَاً بجسده الموتَ، بانتظار أن تلملمه الحيَّةُ التي بُنِيَ عليها جسدُ الكعبة، يراها كما

تراءت لابن ساج: تُقْبِلُ مع إبراهيم الخليل من أرمينية، لها رأسٌ كرأس الهِرَّة وجناحان، ولها وجهٌ يتكلَّم وهي بَعْدُ ريحٌ هفهافة، ويُرافقه مَلَكٌ يَدلُّه على موضع البيت، حتى انتهى إلى مكة وبها إسماعيل، وهو يومئذ ابن عشرين سنة وقد توفيت أمه قبل ذلك ودُفنت بالحِجْرِ المعروف بحِجْر إسماعيل، فأشار له المَلَكُ إلى موضع البيت. فقاما يحفران عن القواعد، فظهرت لإبراهيمُ صخور الأساس كل صخرةٍ بحجم بعير لا يُحَرِّكها ثلاثون رجلاً، هو الأساس الأول الذي وضعه بنو آدم. وتَقَدَّمت السَّكِينَةُ فتَطَوَّقت كأنها حَيَّة على الأساس الأول وقالت: يا إبراهيم ابنِ عليَّ. فبَنَى عليها، فلذلك لا يطوف بالبيت أعرابي نافر ولا جبار إلا رأيتَ عليه السكينة.

بوسع يوسف أن يقضي الليل بطوله في هذا الجسد لولا يد الحارس التي تُنبهه:

«افسحوا مكاناً لأخيكم المسلم.» تلكّأ يوسفُ للحظة، فجأة شَعَرَ باليد الرطبة تندسُّ إلى جيبه، انتزعتْه الحركةُ من حَيَّةِ السكينة، فتح عينيه فما كان حوله غير ذلك العجوز يتأرجح طائفاً مُرَدِّداً يا قيوم. لم يجرؤ على لمس جيبه، وطار على أجنحة الحَيَّة للأروقة، بقلبٍ وَاجِفٍ وأصابع راجفة مد يده إلى جيبه مستخلصاً تلك الورقةَ الصغيرة الملفوفة حول مفتاحٍ صغير، قرأ الخط المُبلَّل لا يكاد يبين:

«خزانة 27.» ارتجَّ، لم يعد تشرّده الآن اختيارياً، صار ضمن الحبكة التي تَخَيَّلها مُشبِّب، فجأة صار على يقين من أن ذلك المفتاح سيقوده إلى اللارجعة.

(خزانة 27) أجهدَ ذهنَه ليُدرك أيَّ خزانةٍ؟ على أبواب المسجد رفوف لحفظ أحذية المصلين وكلها بلا أبواب ولا مفاتيح. إنها مباحة... بلا تفكير حثَّ يوسف خُطاه عبر باب إجياد القديم لباب الملك فهد المضاف حديثاً لتوسعة الحرم، ومنه إلى الساحة خارج الأبواب، تَرَكَ فندق التوحيد

والإنتركونتيننتال عن يساره وجعل طريقه إلى مبنى الودائع الحديث، ذلك المبنى الطويل من الألمنيوم بواجهةٍ زجاجية بوسط الساحة الرخامية، سيختبر هذا الحدس. على الباب استوقفه الموظفُ الأسمر:

«من فضلكَ، رقم الخزانة.» نبش البطاقة الصغيرة بالرقم 27، تناولها الموظفُ وقاده إلى الخزانة الأخيرة في الصف، ضخَّتْ الإثارةُ بصدغيه، كان بوسع الموظف أن يرى رجفته. تجمَّد جسد يوسف، أمامه بقلب الخزانة كان ذلك الحجاب الفضة كعُلبةٍ على هيئةِ نصفِ قمر، رؤيته فجّرت المؤامرةَ التي تخيَّلها مُشَبَّب: يوم ظهور الجثة أَسَرَّ ليوسف بأن لديه وثائق، سيقدِّمها لهم ليس على صينية وإنما في حجاب فضة، لم يحفل يوسف يومها بذاك التشبيه، لكنه الآن وجهاً لوجه مع الحجاب، مما يعني أن عليه أن يحمل تلك القرينة ويغادر مكة بلا تباطؤ، كان مُشَبَّب صريحاً في التحذير: «حين يصير الحجاب بحوزتكَ اطلبْني في هذا الرقم، لأرشدكَ إلى مكاني. أي تأخير قد يُكلفك حياتكَ..» مُشَبَّب كان قد رَتَّبَ لهذه المهمة، طوال الوقت ظَنَّ يوسف أن مجيئه مُجَرَّد حبكة بقصة كرتونية، لكن الحجاب بين يديه أحال اللعبة إلى كابوس.

الشنشنة الخفيفة دَفَعَتْ المُوَظَّفَ لمَدِّ عُنقه لاستراقِ نظرةٍ، وفاجأه حجابُ الفضة، سارع يوسف إلى دسِّه في كيس الورق وغادر. كان الموظف يتبع بنظره جسدَ يوسف النحيل مسرعاً في اتجاه مسيال المسفلة حين انقضَّت تلك الدراجة النارية براكبيها الملثمين بشماغيهما المرقطين بالأحمر، الرجل في المقعد الخلفي اختطف القرطاس بالحلية دافعاً يوسف تحت عجلات تلك الحافلة، بينما زادت الدرَّاجةُ النارية سرعتَها وغابت عن الأنظار، زعقت كوابحُ الحافلة إذ أصبح يوسف بين عجلتيها الأماميتين. ما إن توقَّفت الحافلة حتى قفز يوسف واقفاً، تَمَّ المشهد في ثوانٍ خاطفةٍ، حين أفاق مُوَظَّفُ الخزائن ونظر حوله لم يبدُ على المَارَّة أنهم قد لحظوا شيئاً، حتى يوسف كان قد تلاشى.

في زقاقٍ ضَيِّقٍ وقف يوسف يلهث، تَوَقَّف بتلك الأكشاك المُخَصَّصَة للاتصالات، طلب الرقم:

«لقد سرقوه مني.» وعمَّ صمتٌ، تهاوتْ أمامه كل ترتيبات النجاة:

«ربما تعجَّلنا، فاتتنا أمور... نحتاج إلى مراجعة.» الأمر ليوسف بالتلاشي بدا هزيلاً، كلاهما يعرف أنها مسألة وقت قبل أن يسقط تحت عجلاتٍ ما، قادمة من اتجاهٍ ما.

الطيَار

لو حَقَّقوا معي تحت القسم، لقلت إن خليل هو القاتل. الحبكات التي يلعبها مع الرُكَّاب تفوقُ مخيلةً تعيسة كمُخَيِّلة ناصر. لو أنه استشارني قبل أن يستدعي خليل للتحقيق، لكن ناصر لا يملك أن يدفع زقاقاً خبيثاً مثلي لفضح الرأس الذي مثل حلية بين رؤوسي الكئيبة. خليل متعة للنظر وللمراقبة وللكره وللتحدي لولاه لصارت حياتي كئيبة. لقد صَنَّفتُ خليل ضمن جنسٍ آلي، لا شيء يُمْتِعني كتصميمه الأعمى، هو رجلٌ مُبَرْمَج، أرقبه ينزلق كثعبان ماء رشيق وصقيل حريصاً لا يمس أركاني القذرة، هذا الثعبان يتبرأ مني، يسير مغلقاً أنفه دافعاً رأسه في المقدمة ليقف تحت نافذة عَزَّة، يعبُّ نَفَساً عميقاً ويُكَرِّر القَسَمَ (إما أن تكون لي أو لعزرائيل) ويُكمل طريقه إلى حانوت أبيها، لا يجلس، وأبداً لم تمتد يد الشيخ لتقلب فنجان القهوة وتسقيه، بينما يُكرِّر خليل في وقفته تلك خطبته لعَزَّة حتى بعد زواجه من رمزية ابنة النزَّاح، في تلك اللحظات تبدو على خليل علامات العَتَه، تَشَوُّهٌ عميق يطفو على وجهه، غضبٌ كفيل بتمزيق أحشائك. هل قلتُ بأنني فخور بخليل هذا؟ كل رأس عاقل على كتفيّ سيحتقرني لزلة اللسان هذه. لنقل إن خليل هو مَلَك التخويف والآكشن، يخوفني بعشقه للألم، وبنسَبه وعراقته الاجتماعية التي حال عليها الزمن، وتماهيه بالآلات

مثل عربة الأجرة (المؤقتة) التي يعمل عليها، والتي ما هي إلا أداة ترحيل، مما يجعله في حالةِ تفريغٍ لي أنا أبوالرووس، نظراته المحتقرة تترك ندوباً على وجهي، لكنني وبشيخوختي الخبيثة أُمضي الليلَ أُعالجُ حنينَه لما لا رجعة له، أُنصتُ لفصامه بينما يسرد عليٌّ أسطورة أبيه نوري بن الحضرمي، المشهور بالطيار، اللقب الذي يعني الرحالة. كان عليٌّ أن أُنصتَ بانسحارٍ بينما يمضي خليل باجترار صورة أبيه نوري المليح، بوجه كقرص الشمس يُطَهِّم الشيبُ خصلاته المصبوغة بقتامة طلاء الأحذية، ليدخل التاريخ بصفته أول السادة الذين كشفوا رؤوسهم في مجلس عام، كملك يتخذ مجلسه ـ من بعد صلاة كل عصر وحتى منتصف الليل ـ في شُرفةِ الطابق الأول ببيته الكبير الغاص بالأعمام والأجداد مطلاً على الحرم، مُحَوَّطاً بسحر نغمات العود التي لا يكف يعزفها طاهر كتالوج في مجلسه، بينما تعبر رجالاتُ مكة لتحيَّته، أو لمجرَّد سماعِ نكاته وضحكاته القلبية التي تُمطرُ طَلْعَةَ الحرم. يغصُّ مجلسه كل ليلة بالأعيان والعامة، يسهرون على حكاياه التي لا تنتهي عن سحر النيل، وحورياته اللواتي يُذَوِّبن اللؤلؤ في الشمبانيا ويسقين العُشَّاق أو يوقدن السجائرَ بأوراق النقد الخضراء. تتوالد حكاياه صادمة في غرابتها، ويلتقط المارَّةُ نسماتها المنعشة من أول طلعات الشامية والقرارة، كانت مكة واقعة في سحر نوري المليح، ترقبُ أدقَّ تحركاته، حين في كل موسم حَجٍّ يُلملم شجرةَ عائلته بكامل أوراقها ليزرعها على الأسطح بينما يؤجِّر قلعتَه للحجيج ليَتَبَطَّل بأُجرتها طوال العام، حتى غيَّبَتْ أرضُ النيل الطيارَ المليح وفَشِلَ ابنُه الذَّكَر الوحيد في حمل حلمه بالطيران فحَطَّ الفقرُ بخليل وأخته من تَرَفِ قَرَارَةِ مكة لحيث منحتهم أنا أبوالرووس المأوى، إذ ستظل ذراعاي دائماً مشرعتين لبقايا الأسر العريقة.

حتى ناصر يفتنه تعقيدُ شخصيةٍ كهذه، ها هو يُمضي الليل ساهراً في مقهاي ينبش أوراقَه عن خليل لا يفوته أي حائط يتهاوى في أركاني، أنا

أختنق، تحلك شبكة منعطفاتي لتلفظه. لقد أُغْلِقَ المقهى تاركاً ناصر على الكرسي وأمامه يبرد فنجان الشاي سُكَّر زيادة، تجاوزنا منتصف الليل، ها هو وأخيراً يقوم متَّجهاً صوب عربته.

في عبوره لبيت الإمام داوود حَدَثَ ما خَرَجَ عن سيطرتي، اندفع جسدٌ من العتم مرتطماً بناصر الذي شَعَرَ بالفحيح الساخر قبل أن يسقط إلى الأرض، الدقيقة التي استغرقَها ليقف على قدميه لَمَحَ خلالها جسدَ الوحش المُمَزَّق من سواد، والرأس الضخم المُكَعَّب بلون الطين يزأر لاطماً بابَ الإمام ليندفع مختفياً في الداخل. اندفع ناصر ليلحق حين اندلعت استغاثة،

«أحدُهم اقتحمَ بيتَ الإمام، وطَبَعَ قبلةً على فم سعدية بينما كانت نائمة في فراشها بين صفوف إخوتها..» لم يُصَدِّق ناصرُ أذنيه، لكن الفوضى ماتت فجأة. شعر ناصر بسخفه حين فتح الإمام داوود مُستجيباً لطرقاته الغاضبة، ومتثائباً أخذ يتأمله بعينين يثقلهما النعاس:

«أأنتم بخير؟ أحدُهم اقتحمَ عليكم...» ماتت الكلمات بحلق ناصر.

«الإيمان حصننا الحصين.» من وقفته على الباب شعر ناصر بسعدية ذاهلة في فراشها تلعق شفتيها الداميتين في الداخل، تَحَرَّق لدفع الباب والدخول لتفتيش الحجرة، لكن وجهَ الإمام الغارق في السكينة أجبره على الانسحاب مؤمناً بأنه قد تخيَّل كل ذلك.

لَفَتَ انتباهَه بابُ بيت عائشة المُوَارَب، أرسل البابُ الثقيلُ صريراً حين دفعه مُخترقاً إلى الدهليز، كان ناصر يتقدَّم في عتمٍ أشبه بشرائح فحم، أضاء ولاعة سجائره وتقدم مع ظِلِّه المتطاول على الجدران المشققة بالرطوبة، ذلك التَّكَسُّر الخافت في العتم قاده إلى البقعة أسفل السلالم، غاصت قدمه في نعومة مما صَعَّد شعوره بالذعر، دنا بضوء ولاعته من أرض الدهليز، وهناك أمامه، في دائرة الضوء الشحيح تمدَّدَ ذلك الجسد

الفحمي برأسه الطيني المُكَعَّب، وفمه الملتوي بتكشيرة وعينيه الجاحظتين، ارتجفت يد ناصر وألقت بالولاعة مُتَدحرجة في العتم. وَبَّخَ نفسَه على ذلك الجُبن وركع، متحسساً بحثاً عن الولاعة ملأه ملمسُ الحرير تحت يديه بالتقزُّز، أخيراً نجح في إشعال الولاعة وانحنى لِتَفَحُّص ذلك الجسد المتمدد، لم يكن إلا عباءة مبسوطة، مُتَوَّجَة بقناعٍ مشوه، بدم سعدية لا يزال رطباً على شفتيه المتلويتين، خيال غول يتشكل ومباشرة تحت قدمي ناصر. كان على يقين من كونها رسالة موجهة إليه، لكن من هذا الذي يُلاعبه برسائل التهديد؟ لم يجرؤ على مسّ الخيال على الأرض، كان يرتجف، حَدَّثته نفسُه بأنه يقف وجهاً لوجه مع شبح عائشة.

«هو شبح عائشة!» قفز ناصر مذعوراً، الصوتُ الذي انشقّ من العتم أذاع فزعَه على العلن، هو صوت معاذ الذي وَقَفَ يرقبه من العتم ضاحكاً، تاق ناصر ليقصم عنقه، لكنه تَجَمَّد راكعاً كمخبول، «لا تدعه يرعبكَ، ما هو إلا شبح من طفولتنا، ما من طفل بأبوالرووس إلا ويعرف أبو بَرَاقِع.» شعر ناصر بوقوعه ضحية خديعة،

«لكنه ارتطم بي، أهو أنتَ تلاعبني بأبو بَرَاقِع هذا؟»

«أنا لن أجرؤ، هي لعبة الأمهات والجَدَّات، ولو سألتَني لقلتُ إنه لا يزال يُرعبني، صحيح هو لعبة كرتونية سخيفة ومع ذلك توقظ وسواسنا الخنَّاس.»

«لكنه حقيقي، لقد رأيتُه يندفع في الزقاق لبيتكم، لا بد أنه أنتَ.»

«أقسمُ لكَ على المصحف بأنه ليس أنا.» فارقتْه الضحكةُ الساخرة، «لا بُدَّ أنه هذا.» مشيراً إلى الجسد المتمدد على أرض الدهليز، «أحدهم كان هنا، موقظاً أبو بَرَاقِع.» اختلج صوتُه، ظهر واقفاً من جهة الدَّرَج يحمل شمعةً تُلقي بخياليهما على الباب الضخم، كما لو كانا يندفعان للفرار، ورائحة اللحم المحروق تُضَبِّبُ حواسَهما وجدران الدهليز، «هل تظن أنها...» وغاب صوتُه:

«إن كانت عائشة قد فَرَّتْ من الزقاق، فلِمَ تلعب مثل هذه اللعبة للفت الأنظار؟!» جاهد ناصر لإخماد شكوكه أكثر من شكوك معاذ، «من عساه يفعلها؟»

«من الصعب التكهن، لكن الوحيد المعروف أنه يمارس لعبة التنكر هذه هو خليل.» صَدَمَتْه فكرتُه اللامنطقية، «لكنه لم يُظْهِر أي اهتمام بعائشة، ليس بامرأة بهذا العقل..»

«لكن، ما أبو بَرَاقِع هذا؟!»

«إنه غول الأقنعة، أو الأحجبة. الأمهات يلعبن لعبة الغول بالأحجبة لضبطنا حين نخرج عن السيطرة.» وقف مُحَدِّقاً في ملامح القناع المرسومة بالفحم الغليظ، مثل ملامحِ احترقت حتى التفحُّم على جسد مُهلهل من سواد، بدماء طازجة على الشفتين الممزقتين.

ها هي الرؤوس الطافحة بالأوهام، كرأس معاذ وناصر، تخرج عن سيطرتي، وها هو ناصر يستدعي خليل للتحقيق.

نسي المُحَقِّق ناصر خليلَ الطيار ينتظر خارج مكتبه مستغرقاً ينبش رسائل عائشة عن أبو بَرَاقِع:

من عائشة / رسالة 10:

طلبتُ منك أن تمنحني منكَ ركناً قصياً،

هذا الركن ليس سرداباً ولا حتى حجرة خزين على سطح بيتك، هو أقرب ما يكون لبيت على شجرة في فناء منسي.. يلجأ إليه الطفل الذي هو أنتَ، يلعب فيه القرصان أو الوحي أو يُخفي فيه أشياءه ومخاوفه الصغيرة أو مجلات المغامرات الكرتونية المُصَوَّرة.

أختبئ معك ونتلصص على نوافذ الحَمَّامات المحيطة، حيث الأخوات يغتسلن وجهاً لوجه مع خضرة اللوزة بأعشاش عصافيرها المُكَوَّرة والتي تهبط كل صباح لتمسح تعب أبوالرووس.. حين تغتسل البنت غالباً ما تتسمَّر للحظة مُحَدِّقة في كرة ذهب، لتحلم بكتاب أو بيد بعيدة لرجل أو لملاك أو بيد الله

لتنحني فجأة تحت رشاش الماء القوي.. أو لتخربش كلمات على ورقة بقلم حبر يفصد آهاته رشاشُ الماء، لتسيل حميميتها.. أبعد ما يكون قلم الحبر مناسبة للكتابة في ماء لكنه الأنسب لكتابةِ أعمقِ الأسرار والذنوب وتلك اللمسات..

كرة قش، لا أكثر... معكَ.

عائشة

ملحوظة:

لقد كنتُ أحلم، هذا ليس صوتي، هو صوت **أبو بَرَاقِع**، أبوالرووس الذي ينحشر برأسي.

كانت ليلة فضية، وكنتُ أتلمّس طريقي إلى الدهليز المعتم، استدرجتني تلك الضحكة المكتومة أحبو إلى البقعة أسفل الدرج، أمي وجَدّتي كانتا هناك، متقرفصتان تبسطان كيسَ الخضار الورقي فارغاً بينهما، تضحكان بخبثٍ وبإصبع فحم غليظ تُقَطّعان ملامح أبو بَرَاقِع البشعة، من مكمني كنتُ أسمع اللحمَ يتفلّع، وتلك العباءة الحالكة يتآكلها شرهُها الداخلي فيهترئ ويتساقط لحمها، ويتعرّى الفم بغضبٍ صاعق. لوحةٌ من العذاب يتوجّها ذاك الصوت المخنوق. في لمحة كان أبو بَرَاقِع يُحدِّق في عيني ويزحف صوبي (فيخخخخنها) اندفعتُ فارّة لكن صوتَه المخنوق كان يلعق جسدي العاري، لأكتشف أنني عارية.

بصوته المحشرج أدركني أبو بَرَاقِع على باب مسروقتي، حيث فارقتْني كل مقاومة ووقفتُ مشلولة كجذع شجرة أجرد، وتَقَدّم يريد **شَرْبَة** من دمي، عندها ظَهَرَتْ أمي حليمة متظاهرة بحمايتي، بينما تركتْ له أن يجذب ساقي من هنا أو يدي، سائل حرّاق جعل ساقي زلقة فلا ينجح أبو بَرَاقِع في حملي، تَبَوّلت على نفسي.

سبّابتك على عمودي الفقري أيقظتني،

الساق التي جَرّها أبو بَرَاقِع ستظلُّ مُخَدّرة لأسبوع، أدوار تلك المسرحية موزعة بإتقان بين أمي وجَدّتي وعمتي حليمة، يتركن خلالها شظيّةً من

قلوبنا يقتطعها أبو براقع لضمان ترويضنا. مراقبتنا لعملية تخليق أبو براقع لم تفصد رعبه، ما إن يتحرك حتى تدب فيَّ روح شيطانية تتجاوز مخيلة امي وجَدَّتي.

اعتقدُ بأنها عملية مسخ يمُارسها أبوالرووس لإبقائنا تحت سيطرته، واعتقد بأننا لن نكون أبداً مستعدين لإسقاطه لأقنعته.

أبو براقع هو التجسيد للإرادة القمعية الكامنة في نسوة أبوالرووس، سلسلة ترويض من الأم للابنة.

اتظن هذا ما يشحذ فحم عَزَّة حين ترسم؟ أو هو شغفها الناري؟

أبداً لم تأخذ عَزَّة الخوفَ على مَحْمَل الجِدِّ، حتى الحب بالنسبة لها ما هو إلا شعلة، «لِمَ تتوقعين من الحُب أن يدوم للأبد؟! ما هو إلا شعور كبقية المشاعر، أتتوقعين من الخوف أو الضيق أو الغضب أو الحزن أو الغضب أن تدوم؟ كلها آنيَّة تُوْجَد لتزول.»

دائماً كان الحب لعَزَّة مثل انفلونزا أكثر منه سرطاناً عُضالاً. لذلك كانت تطير بين القلوب، متلذذة بحمى الوقوع دائماً في الحب، وتخرج من الحمى بقلب وروح أكثر خفة، جاهزة للفيروس الأكثر تطوراً. لم تأخذ الحياة أو الرجال بكآبة جادة.

آه لو تعرف متعة التواجد حول عزَّة، مثل الوجود في بقعة شمس لا تجف على لوحةٍ فنيةٍ خالدة.

ولكم أشفقتُ على أولئك المُسَرْطَنين بحبها، مثل يوسف!

غصَّ ناصر بغيظٍ تجاه عائشة لسببٍ لا يَتَوَصَّل إلى ترجمته، لكنه شعر بالتشفِّي لتلقيها أبوالرووس بأبوبراقع.

أخيراً حين سمح لخليل الطيار بالمثول أمامه ألقى الرجلُ الأربعيني بجسده على المقعد بلا مبالاة، منزلقاً قليلاً تاركاً لناصر قراءةَ لغة جسده: الحذاءان من جلد أسود صقيل في تناقضٍ صارخ مع بياض الجورب الأبرص. الملامح الطولية، الأنف الفم العينان كلُّ مَلْمَحٍ يرسم مستطيلاً

مُنْتَظِماً، بالإضافة إلى الأذنين المقصوصتين مثل جناحي طائرة! لم يترك خليل لعيني المُحَقِّق أن تُكملا تَفَحُّصه، بَادَرَ وبدون مقدمات:

«لم يكفَّ أبي يُنفق علينا لسنواتٍ بعد تخرّجي من معهد الطيران بميامي، قَطَعَ نفقتنا وفقط حين أنجبَ من تلك الزوجة المصرية.» فجأة تَهَاوَتْ شكوكُ ناصر في كون خليل هو أبو بَرَاقِع المنفلت بدهليز عائشة، «والحريق الذي شبَّ ببيتكم بأبوالرووس، أهو فعلاً بسبب التماس الأسلاك العشوائية؟»

«شكراً لجهودكم ورجال الدفاع المدني الذين انحبست عرباتهم برأس الزقاق وما تقدمت خطوة نحو الحريق.» ومضى ينخسه شيطانٌ للتحدي، «تتساءلون الآن عن جثة، في بحرٍ من العِمَالَة المخالفة لأنظمة الإقامة ومُرَوِّجي المخدرات، والحرائق المتكررة وطفح مياه الصرف الصحي وانهيارات المباني المتآكلة المُثْقَلَة، بحرٌ يجعل دوريات الأمن وسيارات الدفاع المدني مثل لُعَب كرتونية، عاجزة عن الاختراق إلى أعماق أبوالرووس نظراً لانعدام الطرق الموصلة إلى باطنه، أبو الرووس بأمسِّ الحاجة إلى حقنة شرجية تليها عمليات استئصال بالمناظير.» واجه وقاحته بالسؤال:

«يشيع في الزقاق شعورٌ بعدم الارتياح تجاهكَ يا خليل..»

«هذا مُتَوَقَّع، فالزقاق في زمنٍ وأنا في زمن.» مشيراً بيده إلى الأعلى.

«فما الذي يُبقيك في زقاقٍ بقعر الدنيا؟!»

«مُؤَقَّت...» طَفَرَتْ قطرةُ عَرَقٍ على صدغ خليل، لو سأله المُحَقِّق (مُؤَقَّت لمتى؟) لما عَرَفَ بِما يُجيب. فَكَّر ناصر أن خليل لا يُعطي حقيقةَ عمره، بلا شعرة بيضاء تُعَكِّر صبواته.

«استغنتْ الخطوطُ السعودية عن خدماتكَ، قضيةُ ضربِ مُضيفة؟» اختلجَ عِرْقٌ بصدغ خليل، ضخَّ بدمه الهيرويين الذي فَجَّر حينها مُحرِّكات

أحلامه وقادَ حياتَه إلى الهاوية، بسبب فرط ثقته في الكوابح والطيار الآلي المغروس بجسده، كانت المَرَّة الأولى التي لا يترك فاصل اليومين لتنقية دمه من تلك الجرعة، ظَلَّ مُتَسلطِناً لما قبل الإقلاع بست ساعات، كلُّ من نظر في عينيه ببؤبؤيها المتوسعين في تلك الرحلة عَرَف أنه قد تجاوز الخطوط الحمراء:

«لا يمكن العبث بالتراتب الوظيفي في الطائرة، الطائرة مملكة في السماء بمَلِكٍ مُتَوَّج هو الكابتن، وتحته الكل رَعيَّة، تُطيعه طاعةً عمياء، من اللحظة التي تُغَلَق فيها أبواب الطائرة، وحتى تهبط وتُفتح الأبواب، بعدها فلمن لديه اعتراض أن يتقدَّم بتقريره للمسؤولين، الجَدَلُ في السماء مع الكابتن جريمةٌ يُسْتَحَقُّ عليها الإعدام..» للآن لا يريد أن يذكر ما جعله يفقد صوابه في تلك الرحلة، أهو صدُّ المضيفة التركية لتلميحاته أم ترفيعها لذاك الراكب للدرجة الأولى من دون الرجوع لمُشْرِف الرحلة (كيف له أن يعرف أن تلك التركية الملعونة بعينيها الذابلتين من زبانية الشيطان واصلة موصولة!! وبضربةٍ مخلب أسقطتْ من ملَفِّه الوظيفي خدمةَ عشرين عاماً). استغل المُحَقِّق ناصر لمعةَ جنونِ العَظَمَةِ بعين خليل ليُباغته بالسؤال:

«يوسف، ما صِلَتكَ به؟» نَفَخَ خليل ساخراً:

«يوسف في عصرِ ماقبل عبَّاس بن فِرْنَاس والأخوان رايت، في قرنه لم يُكْتَشَفْ بعدُ الطيران..» لهجةُ التشفي أثارت علامات استفهامٍ في الهواء.

«أتظن أن له علاقة بالجثة...» تململ خليل في كُرْسِيِّه:

«لا تورِّطني في اتهاماتٍ للآخرين، فأنا أخاف الله...» تاق ناصر للتهور مستسلماً للإشاعات وتفتيش صندوق عربة الأجرة للبحث عن الأزياء التنكرية التي يتهامس بشأنها أبوالرووس،

«ومُشَبَّب؟»

«خُرافة . .»

«خُرافة؟!!»

«كل شبكة هذه الأزقة الضيقة قائمة على الخرافة . . .» كان المُحَقِّق لا يزال بانتظار إجابةٍ. يعي محاولات خليل لتضليله بذاك التعميم في الإجابة. سأله:

«متزوج من ابنة النزَّاح ويقولون خطبت مؤخراً عَزَّة ورُفضْتَ؟» أجاب خليل بتحدٍّ،

«وأنتَ لديكَ اعتراض؟» في تلك اللمحة رأى ناصر الجنون الذي يَتَحَدَّث عنه الزقاق، لكن خليل تراجع عن مهاجمة المُحَقِّق، محتمياً بسخريته:

«الشايب خَرَّف، يؤمن هو أيضاً بالخرافة . . قال لي: لا تطلب عَزَّة في أوقات النحس: مُحَرَّمٌ عليَّ طَلَبُها في شهر مُحَرَّم الذي لا يسفك فيه دم، ولا أطلبها في صَفَر قال أرزاقه ضيِّقة، ولا في الجُمادين الأولى والثانية: حظوظهما مُدبرة جامدة، ولا في رمضان: تعرف . . .» غَمَزَ المُحَقِّقَ:

«تَشَابُكٌ لخيوط التقوى بخيوط الرغبة. وعليَّ أن أُكفِّر عن طلبها منه في شوال ورجب، وأقعد في ذي القعدة، ويَحِجّ الشايب في الحج . . وأنتَ يا حضرة المُحَقِّق، متزوج ولا صائم الدهر؟ الإفطار عليَّ: تمر وحلوى ولاقوم تركي ومَلْبَن مصري . .»

أبو بَرَاقِع بمواجهة أبو وَنَّان

يرقد ناصر في فراشه، بين النوم واليقظة تغزو حواسَه زخةٌ من روائح أبوالرووس وفوضاه التي لا تنقطع ليل نهار، انتقاماً من تضامنه مع عائشة في وصف أبوالرووس بأبو بَرَاقِع.

يُطل المُحَقِّق ناصر فيتنادون:

«جاء أبو وَنَّان.» عراة حفاة بوجوه معفرة بالمخاط والتراب يتَكَاثَرَ الصغارُ حول سيارته اللاندروفر الرسمية والتي لا يكفُّ يدور ضوء الإنذار على سقفها، يتركها ناصر تدور وتُشير بأصابع اتهامٍ حمراء على فوهة الزقاق، ولا يكف يلاحقه بائعُ الثلج يرجوه أن يُبْعِدَ سَيارتَه قليلاً لكي لا تحجبَ تلك التهمة رؤيةَ ثلاَّجته عن العابرين للخَطِّ السريع، بينما يغافله الصغارُ ويتركون على تلميعها الساطع خدوشاً، أو يتسلقون سقفَها لتلوين وجوههم بدموية إنذارها، أو مسح وجناتهم بمَسَّاحاتها المُدغدغة!!

نصف نائم يسمع ناصر ذلك الصوت يسخر منه: «أنت أيها الضابط تغرق في صفحات وصفحات من ذاكرة أبوالرووس المُزَيَّفة، إنهم يستدرجونك إلى تلك الذاكرة ثم يغمضون أعينهم ويوصدون آذانهم لحبسك في الكابوس المُعَشِّش بأدمغتهم. ما هذه بمذكرات، هي هجوم مضاد على واقع مُحْبِط..»

تطفو بوعيه عباراتٌ ليوسف قرأها ذلك الصباح:

3 مارس 1995:

أتجدنا نتعدَّى على الوحي الذي وَطَّنَتْه مكة، هذا الذي نُحَوِّلُ مواقِعه ورجالَه إلى أسطورةٍ بإبادة كلِّ الأدلةِ الجغرافية التي تقود إليه؟

هولاكو طَمَسَ في نهر دجلة أحبارَ أجيال من العلماء والباحثين ليُخفف ثقل العباسيين وقبلهم الأمويين.

هنا، فوهة بئر زمزم لم يعد منها غير أنابيب وصنابير لا نعرف بأي ماءٍ تطلع. قبل ربع قرن فقط كانت البئر والدلاء تقطُر برغوة الأعمار والبَرَكَة لأمة محمد. الآن، هبة الله زمزم صار للبيع.

الآن ما عادت للزمزم رغوة، ويُهدِّدنا الكوليسترول وقِصَر الأعمار، وصرنا نتناول مضادات الاكتئاب لمعالجة الأوهام:

وهم 1: (كنا نعي أُمَّةَ محمد بشكل غائم، في صورة جارية طويلة خلابة،

تقيم في البادية وتُرْضِع كلَّ أولاد البَشَر من ثديها الضخم، ولا تموت، لأن كل من نعرفه يدعو لها بمَدد العمر.)

يدفن ناصرُ رأسَه عميقاً تحت وسادته، مُتمرِّغاً في (كُمّ الثوب) الذي عثر عليه ويُخفيه كمن يُخفي ذراع قتيلة، لا يريد أن يرجع إليها، لكنها تفوح، يتجسَّد له الثوب المنزوع الكُمّ يستعجله الوصولَ. يرتعد المُحَقِّق ناصر القحطاني مُتَتَبِّعاً تلك الرائحة التي صَرَعَتْه للكُمّ بين الأسطر، مؤخراً صار يتقطع نومه، يصحو ليُسجِّلُ كلَّ عبارةٍ مثيرة للشك في رسائل عائشة، يضع إشارة × حمراء في أماكن متفجرة، ويعيدُ نسخَ بعض العبارات التي تروقه، ويحملها معه أينما ذهب ليعيد قراءة خفاياها، يشعر أن كل كلمة تُخفي انهياراً أو ضعفاً أو تُسْقِط فيه ظِلَّ رَجُلٍ باعتراف عائشة، حين قالت (العثورُ على كتابٍ كالعثور على رجل مدسوسٍ في دفتر) يبحث عن وجه ذاك الرجل، هل يُشبه وجهه؟ وكَمْ هم الرجال الذين تُخفيهم لينفردوا بتلك الرائحة؟

ما إن أفاق بعد ليلة مضطربة حتى تناول رسالة عائشة، تنشَّقَ عبيرَها وضَمَّها إلى الكومة التي أتمَّ قراءتها إلى جوار سريره، قفز من فراشه كاشفاً عُريه لرطوبة الصباح يُجلِّدها جهازُ التكييف. كان، ولأول مرة، يسير واعياً بجسده يتمطَّى على العالم بسلطنة كسولة. تلذَّذَ باحتكاك ساقيه بدولاب الموقد، حَضَّرَ فنجان قهوة نسكافيه سريعاً وعاد غائب الذهن إلى فراشه، أعاد تناول الرسالة نفسها للمرَّة العاشرة، تناول قلماً أحمر وبعد تردُّدٍ سَجَّلَ بخطٍّ يده عنواناً لرسالة عائشة:

نساء عاشقات

من عائشة / رسالة 5:
هناك ما سَاقَني لأعثر عليه.

هذا الكتاب الذي نسيتُه.. متى؟ منذ سنتي الأولى بمعهد إعداد المعلمات.
محشوراً في حفرةٍ تحت الدَّرَجِ لأعوامٍ.
صديقتي ليلى حليبٌ مدكوك في أخطر المواقع، تمد شفتيها كعصفورٍ حين تتكلم، ولصوتها بحّة وضحكة بطرف البحّة، وتعشق استراق النظر، هَرَّبَتْ هذا الكتاب، قالت كان بانتظارها في دهليزهم، سقط من صناديق عمها (مدير مدارس الفَلاَح الشهيرة بمكة) حين كان ينقل مكتبتَه الـمُحَرَّمة على الجميع، والتي كان سيورثها لأولاده الذكور بعد عمر طويل.
«تريدينه أو ندفنه؟» بهذا عَلَّقَتْ مصيرَ ذلك الكتاب بي.
أنا وليلى كنا مُهَدَّدتين بالطرد، العثورُ على كتابٍ كالعثور على رجل مدسوسٍ في دفتر الواجبات.
يومها ربطتُه تحت نهدة صدري، فتُخفيه المسافةُ واللونُ الرمادي لمريولي المدرسي، وأسدلتُ عباءتي عليّ (الإشارة المتفق عليها بين البنات وتعني أن ثيابي بَقَّعَها الطمثُ).
أنا وليلى خُفَّاشان، توارينا يومها في الحمَّام نقرأ الكلمات الأولى، وقع بصري على عبارة: (هَرَبَ لورانس إلى ألمانيا مع معلمته.) قرصتْني الكلمات بمكانٍ عميقٍ بأحشائي، وزاغ بصري وبصرها، كلمةٌ أخرى كانت ستُوقف قلبينا وتفضحنا.
من دون كل الكتب التي هَرَّبتُها بدا هذا آثماً إثماً موقوتاً.
العودة بالكتاب إلى البيت كانت انتحاراً، تسلَّلتُ، ومن دون أن ألقي بنظرةٍ عليه دسستُه يمين الباب في هذه الحفرة تحت الدرج. وبقي هناك طوال هذه السنوات، الليلة فقط أَخْرَجَه المطرُ، تبلَّلتْ أطرافُه، وفاحت صُفرَةُ الورق، وانفصلت قاعدة الغلاف، لكنه خرجَ بنفس لذعة الخوف والدهشة...
أنا وليلى لم نقرأ حتى عنوان الكتاب، فقط حفرتُ براسي صورةَ هذا الجورب الأحمر الطويل على الغلاف، ترتديه المرأة، وتتأبطُ كُرَّاسات رسمٍ.
على تلك الصورة رأيتَني يا ^ أغادرُ المستشفى بجواربكَ الحمراء الطويلة، لقد كانت حلماً قديماً لساقي، تَحَقَّقَ.
(نساء عاشقات)، هل تُصدِّق أنهن كن يرقدن محشورات تحت الدرج

وتحت بصر أمي وأبي وأحمد، وعاشقات؟! من دون الكتب التي نجحتُ في تهريبها وخاطرتُ بقراءتها هذا الكتاب، والذي أميلُ لترجمته كـ(نساء في الحُبِّ) أرعبني، مذ وقع بصري على الجورب الأحمر عرفتُ أنه سيُكلِّفني ربما حياتي! أترى لماذا؟ المرأة مضروبة في امرأة أخرى وأخرى، هنا مطر، قطرات امرأة تسقط في سائل الحب، الذي مثل ماءِ نارِ البطاريات الذي يسكبه العشاقُ الغيورون على حبيباتهم في أخبار الصحف القصيرة.

الآن أشكرُ الحكمةَ الفطرية التي دَفَعَتْني في ذلك العمر المبكِّر إلى دفن هذه (المرأة في الحُبِّ) وفي تلك الحفرة أسفل الدرج.

ها هي الآن تطلع.

يا الله، أترى؟ اسم المؤلف الإنجليزي يفضحُ اسمَكَ يا ^. ألهذا المدى تُكاشفنا هذه الأصوات الصغيرة التي تقودنا فجأة وعلى غير انتظار لمنعطفاتٍ وأسرارٍ سَهَونا عنها؟!!

فجأة صار جسدي يَقشَعِرُّ. أيُعقل أن تُقَشِّر رؤيةُ كتابٍ عن جلودنا حراشف؟! هذا الكتاب يُقشِّر بصماتي من على رؤوس أصابعي، فتصير جاهزة للدبغ بالآخر. الكتاب يُقَطِّع الوقتَ في حلقات تدور بي كخَلاط عربة الإسمنت!

يستلمني هذا الغموضُ، أترى كم هو لامنطقيّ؟

أبدأتَ تملُّ؟

مرة لمحتُ تيسَ الأغوات يُهَرِّبُ مانيكاناً لفِنَاء مطبخ أبيه العشي، صُدِمتُ، لا لما يمكن أن يفعله بالمانيكان، ولكن لأن تلك الدمية البلاستيكية ذَكَّرتْني بنفسي في ثوب عرسي. وكيف حملني أحمد مُتحطِّبة، اعتقد بأن المانيكانات تغزو زقاقنا، وتتلبس أجسادنا، وتصيب مُخَيِّلات الرجال بالسرطان.

أعرفُ، ما زلتَ يا ^ لا تفكُّ الحرف العربي، تراه كلوحة، وما زلتَ تُخاطبني بالصور وحفنة من كلمات إنجليزية، أجلسُ على هذا السرير المُبَالَغ فيه، أترك لعائشة التي تحت جلدي أن تُطل وتُلاغيك بحركات تُباغتني حتى أنا، لكنها لا تعبأ بي وتسيل بعفوية لكي تستقبلها على شاشتك. وحين أُفقدكَ

صوابك فتتنهَّد كلماتكَ الألمانية أتلقاها بجسدي، أترك لكلماتك أن تحطم أضلاعي بضمَّتها، وتقضم ذقني وحواف وجنتي، وتغوص بجمجمتي لتبلغ هذه الحاجة المُلِحَّة هنا...

لا أعرف من أين يستدرجني كل هذا العنف! (لا أريد للعاشقات من تأليف دي إتش لورانس أن يسرقنَ قلبكَ، بوسعي أن أكون أعنف وأكثر سواداً، لأن بصري وأينما تنقَّلَ في تحليل لورانس للحب يقع على كلمة: سواد، حقيقة سوداء...)

ما كل هذا السواد؟! أهو أنا؟ وبالكثير من الحدود الحمراء حول لطخة عباءتي السوداء؟

لا أعرف متى اعتادوا اللجوء إليَّ في الزقاق بكل هذه الخرائط الحياتية ويطلبون دفنها براسي، كاني مَكَبُّ ذاكرةٍ. حتى انا انسى انهم قد جاءوني، ومَنْ جاء؟ أهو مُخَدِّر سلسلة العمليات الجراحية التي خضعتُ لها أورَثَني هذه الثقوب الشمسية بذاكرتي؟ مَن الذي كان عندي قبل قليل؟ لا أسمع غير غناء معاذ في دهليزي، وحتى هذا لكأنه رَجْعُ ذاكرةِ أحدهم منسية بالدهليز.

«يريدون فكَّ أطواق الموتِ حول رقبتي بمآسيهم.»

تنفضُ ثقلَها على عنقي وتذهب، أشعر بغضاريف رقبتي تتآكل وتتقصَّف وتضغط على حبلي الشوكي، ربما لا يجب أن أسمع، لكنني أريد أن أكون مِلْحَة معكَ، مسلِّية، بحكايا ربما تافهة، لكنكَ تريد رسائلَ طوال كجمودي القديم. لكنني أستخدم جسدي كقاموس خارج كل اللغات والأصوات: كسلي اللذيذ هذا، واكتشافاتي... بكل حركةٍ أكتشفُ جزءاً مفقوداً من جسدي، وبكلِّ فعلٍ أخلعُ المزيد من شروخ الخوف والقماش.

لعبة الأقنعة انتهت.

ملحوظة 1:

أنا أيضاً.. صرت بخفة شبح.

جزءاً وراء جزءٍ نموتُ وراءَ مَنْ نُحِبُّ.

ملحوظة 2:

حلمتُ بهذا الطفل الوليد، حبله السري لم يُقَصّ بعد، على جبينه مكتوب هذا الإهداء:

إلى الولد الصغير الذي دخل العالَم وخرجَ منه في عمليةٍ إجهاض عنيفة..

خاطفاً لاحَ ورَاحَ لا سَمِعَ تَمَزُّق رَحِمٍ ولا صوتَ قَطْعِ حَبْلٍ سُرِّي.

ما جرَّحناه ولا سمَّيناه.

ملحوظة 3:

(«هل أبدو قبيحة؟» سألت أورسولا خطيبها بيركن بقلق، وطَفَتْ حول عينيه ابتسامة صغيرة،

«لا، لحسن الحظ.» ذهب إليها بيركن وأخذها بين ذراعيه كشيء من متعلقاته، كانت جميلة برهافةٍ لدرجةٍ لم يكن يُطيق النظر إليها. مغسولة بالدمع كانت الآن جديدة... مخلوقة بكمالِ نورٍ داخلي... يُدرك أن من المستحيل أن تفهم أورسولا الشعورَ بالجميل هذا الذي فاض ليتَلَقَّاها في روحه، والسعادة المتطرفة التي تأتيه من إدراكه لذاته كحيٍّ وأهلٍ للاتحاد بها، هو، الذي كان قريباً جداً من الانجراف مع جنسه البشري في هوة الموت الصناعي «الميكانيكي» لولاها. كان يتألق فيها لأنه وفي ذرة الإيمان الوحيدة التي يملكها كان القرين الملائم لها..

وحتى عندما يقول هامساً لأورسولا بصدق «أحبك.» لم تكن تلك كل الحقيقة، ما يشعر به يتجاوز الحب، مثل تلك الفرحة في الشعور بتجاوز الذات، وتجاوز الوجود القديم. كيف بوسعه أن يقول «أنا» في الوقت الذي تَحَوَّلَ فيه إلى شيء جديد وغير معروف، ليس نفسه على الإطلاق؟ هذا الضمير «أنا» هذه التركيبة من العمر، ماتت.... لم يعد هو نفسه وهي نفسها، وإنما خلاصة فَنَاء وجوده في وجودها لتشكيل هذا «الواحد» الجديد، هذا الوجود الفردوسي المستعاد من ثنائيتهما). العاشقات ص 416.

أجلس للصلاة ويغطس قلبي... لآخر النوم ويرجع يتلو، أسمعكَ تُوَجِّه كلمات لورانس لي.

أرجع لفراشي، أُكلم الله لكي لا أنسى الكلام.
وعلى حافة كل كلمةٍ يتأرجح حلمُ البارحة.
بين صحو وحلم يُؤرجحني نداؤكَ يا ^. لو مِلتُ قليلاً لسقطتُ في البارحة.
بنفس الدهشة.
ما لم أُشعل الضوء ستظل الحجرة حابسة أنفاسها في مخاض البارحة،
الساعةُ فقط تُخبرني متى دخل النهار.
أتركُ مسروقتي غارقة في وهم الليل وأتناول العاشقات قهوةً على الريق.
نيكوتين قوي يُرَجِّف يدي.
أُسَلِّط نورَ مصباحي الأصفر الحميم يرتعش على الصفحة، أشربُ شحوبَه
والكلمات ويزداد عطشي:
هل نفقد الرؤية حين ينادينا الحبُّ لنخرج من ذواتنا؟ في الطريق بين الأنا
والآخر لحظة عمى قد نجتازها أو تُلازمنا فتطمس من حولنا الكون!
واحدٌ بصير والآخر أعمى، أهكذا تتم تركيبة الحبّ!
الآن وبصوتٍ مسموع أُطمئنُ صورتي التي التقطتُها لنفسي بهاتفي النقّال:
لا أدَّعي أن أحمد لم يُحبّني!
لكن الصورة ترفض أن تستجيب.
ربما الهرب هو الحب، حتى الكره يمكن أن يكون حُبّاً.. وأنا لم أفرّ ولا
كرهتُ؟
هذا يعني أن جهاز استقبالي وإرسالي حين يجيء للمشاعر يعطب.
حين نهجرُ الكلامَ لا يجب أن نشتكي حين تتكسَّر دواخلنا في تلك التهتهات
الباهتة والمنفِّرة.
ربما نحتاج أن نُدَرِّب كلماتنا على الحنين والجريان كماء والتغلغل كطِيبٍ
على جسد صنم،
وربما نحتاج أن نُوْلَد بقاموس بكلماتٍ مفطورة على العبادة...لا أدري..

مُرْفَق:
صورة للمسروقة حيث أعيش.

حجرتي (نسمّيها المسروقة) لأنها بين دورين، مشقوقة كلحدٍ، تقتطع من فضاء الحجرة الشاهقة في الأسفل. وتضغط على صدري. كل الدار لا تزيد على حجرتين مصفوفتين عمودياً، وبقلبهما مسروقتي. الحجرة العليا كانت لنومنا كعائلة كبيرة والسفلى لجلسة أبي ودروسه الخاصة.
(المسروقة) كما ترى لا فراغ فيها لحبيب. لكنني أحشركَ هنا، في المساحة الفارغة برأسي. أحشرُكَ تحت أظافري لكي أغافلهم وأشمّكَ بين الحين والحين كأول روائح الجسد وأَعْتَقِها.

التوقيع: عائشة.

يصل ناصر إلى توقيع عائشة يتناول قلماً وورقة ويُسَجِّل اسم (أحمد)، ويُكَرِّر الاسم في صفٍّ طويلٍ، ويختمه بخطين تحت الاسم، «هذا رَجُلٌ آخر في حياة عائشة، لنرَ أين يسقط بين قِطَع أُحجية أبوالرووس؟» يتجاهل في كلمات بيركن عبارةَ (في الذهاب بحُبِّ امرأةٍ لآخر أشواطه فرحةُ تَجَاوُز الذات وتَجَاوُز الوجود القديم). تُضايقه تلك العبارة، تُضيء برأسه خطوطاً حمراء، لأنها تنتقد وجودَه الأقدم من القديم، وجودَه المهترئ، هو الذي لم يشهد تبديلاً عاصفاً كهذا الذي تنبشه عائشة من الكتب والواقع، وعبر البحار من ألمانيا لزقاقٍ منسي كأبوالرووس. . يُؤَجِّل التفكيرَ في تلك العبارة ومواجهتها إلى حينٍ.

اشعة سينية

كانت الحوانيتُ بطولِ شارعِ حَارَةِ البَابِ تفتح، عُمَّالُ البلدية يكنسون جوانبَ الأرصفة، ينتهزون هدأَةَ سيلِ العربات للملمة أكياس النايلون وعبوات المشروبات الغازية الفارغة من وسط وجوانب الطريق، رَاقَبَهم ناصر، صَبْرُهم اليومي يتحدَّاه، لو كان أمام ذلك الجبل من البقايا لفقد

صوابه من زمن، لكنهم يتقاضون أقل المُرتَّبات وتَتَصَفَّح رؤوسهم ضدَّ شمس مكة ويتآكل زِيُّهم الرسمي ويظهرون كل صباحٍ في مواقعهم، يتجلَّط الصَّبرُ في حركاتهم حتى يتحوَّل إلى كبسولات تُصَفِّحهم ضِد كلِّ ما يجيء.

أطلقَ المُحَقِّقُ ناصر ضحكةً حين لَمَحَ ذلك القفاز والمِلْقَط الذي يلقطُ العَامِلُ به الورقَ بينما يلقطُ رفاقُه البقايا بأيديهم المُجَرَّدَة. وَلَجَ إلى استديو (الحداثة) الصغير مُبَاغِتاً افتتاحيةَ معاذ بتلميع زجاج الواجهة، حَشَرَ معاذُ خرقتَه جاعلاً الحاجزَ الخشبي بين وقفته والمُحَقِّق:

«نحتاج أن نجلس. . .» وَرَّطَ التصويرُ هذا الشاب معاذ في دائرة الاتهام، حين عثر المُحَقِّق ناصر على صورة مهشمة للقتيلة، من زوايا علوية مأخوذة من السطح بعدسةِ ابن إمام المسجد، الذي يتهامسُ أبوالرووس عن احترافه للتصوير، ويحرصون فلا يتفسَّر الهمس لأبيه الإمام لكي لا يقطع على الولد طريقَه لتلك المهنة المستقبلية.

«لم أشأ هذه المَرَّة استدعاءك إلى المركز، نحتاج أن نُجري حواراً وديّاً. .» تَوَقَّدَ الحذَر بعين معاذ، قاده إلى حُجرة التصوير بمُلْصَق الغابة المُغَطِّي للجدار، أجلسه تحت الشَلال مباشرة، تَرَكَ البابَ مُوَارَباً ليسمح بمُرَاقَبَةِ المَدْخَل.

«أنت شاب ذكي. .» لتلك الافتتاحية كَتَّفَ معاذُ ذراعيه حول جسده، أدرك ناصر تلك الحركة الدفاعية، لكنه مضى إلى الهدف:

«قالوا في الزقاق إنكَ تلتقطُ صُوَراً مسروقة للزقاق من النافذة بدَرَجِ المئذنة، فهل أستطيعُ القول إنكَ الوحيد الذي يملكُ رؤيةً علويةً لأبوالرووس. .؟» بَادَرَ مَعاذ مُصَحِّحاً جُملة المُحَقِّق:

«أنا لا ألتقط صوراً علوية، بل صوراً باطنية! أبوالرووس لم يأخذني أبداً بجديّة ليُخفي أسرارَه عنّي، أتعرف ما فعل بي حفظي للقرآن؟ صرتُ كمن ابتلع فلاشاً قوياً، لا ينطفئ أبداً، يكشف كل ما يقع تحت بصري. لدي هذه الكاميرا الباطنية قَبْل أن أعرف آلة التصوير بزمنٍ. ولو سَمِعنا أبي

الإمام لألقى بي من أعلى المئذنة، وسيكون لديكَ جريمة أخرى بالغد.»
استجاب ناصر بتلك الضحكة القصيرة المدروسة، تَرَكَ مسافةً يسترخي فيها معاذ وينتهزها هو ليدرس ملامحه، تَكَوَّرَ جسدُ معاذ أمامه ببنطلونه المكحوت، وشعره المحشور في كوفيته يُشَكِّلُ صورةً مُرَكَّبَة بين الحداثة والبؤس العتيق.. تأمَّلَ ناصر في قدميّ معاذ. في الحذاء الرياضي الضخم ماركة (نايك) تقليد الصين. رَفَع ناصر بصرَه إلى سواد معاذ المفصود بلمعة عينيه، لاحظَ اضطرابَه تحت نظرته فبادر بتسديدِ سؤالِه:
«ما الذي تعرفه عن عَزَّة؟» أدركَ المُحَقِّق ناصر أنه قد أحسن التصويب، يعرف تلك الحركة اللاإرادية للأهداب التي تقول إن المُسْتَجْوَب يُخفي أمراً.. بَحْلَقَ معاذُ بوجه المُحَقِّق أمامه، وجهٌ مُنْقَضٌّ كتلك الصقور في التدريب على صيد الحَبَاري، فَجَّرَ الإجابةَ غير المُتَوَقَّعَة في وجه ناصر:
«عَزَّة قنبلة أبوالرووس الموقوتة.» القصفُ المُتَبَادَل أرخى التوترَ بينهما، انبسطت كَفًّا معاذ على ركبتيه، ساد صمتٌ، طفت برأس معاذ أصواتُ ذلك الفجر، كان قد غفا على نافذة دَرَج المئذنة، وأيقظه ذلك الارتطام، يجزم الآن أنها سَقْطَةُ الجثَّةِ، لم يفتح عينيه لفترة حتى نَبَّهَتْه الخطواتُ الفَزِعَة المتسارعة، لم تكن مسموعة، الزقاق كان مثل إسفنجة يشربها، ظَنَّها قادمة من حلم، ولكنَّ سَمْعَه المُحْتَدّ على ذاك العلو التقط الفَزَعَ... حين فتح عينيه كان قد فات الأوان، لَمَحَ تلك الكاديلاك السوداء على رأس الزقاق والقدم الصغيرة تفْلِتُ من حجابها وتغيب في المقعد الخلفي ورأس السائق الأسود في الشُماغ المرَقَّط ينحني ليُغْلَق بَعْدَها الباب.. قَدَمُ مَنْ؟ لا يعرف.. وصوتُ المُحَرِّك يبتعد...
التقطَ (الكلبُ) رائحةَ تلك الصُّوَر الدائرة بذهن معاذ، قَاطَعَه:
«وتظنها هي القتيلة؟» ما إن أفلت ذلك السؤال حتى التقط كيمياءَ النفي الحاد بجسد معاذ،

«لا أعرف.. ربما، لكن وجهَ هذه كان مُهشماً.. لم تلتقط عدستي مثل هذه البشاعة من قبل.. لعَزَّة وجهٌ مُحَمَّص من وراء حجابها ويخطف الجميع، أتعرف ريح الجنَّة الذي يبلغ المؤمنين؟ عَزَّة تذهب حيث لا يشاؤون...» لا يختلف المُحَقِّق ناصر عن عُمَّال التنظيف في الخارج، سيمضي يكشط تلك الطبقات من التكتم العفن، يُلقي بعِظَامِها لكلبه ينحتها، حتى يصل إلى الحقيقة:

«ألم ترَ شيئاً يُثير الشُّبهة.. غريباً دخيلاً.. لِصَّاً قد يكون تسلل إلى أحد البيتين؟» على جدران الاستديو سَرَتْ برودةُ الشلال، قال معاذ:

«سمعتُ ارتطاماً.. لم أنظر.. فلم يخطر ببالي أن هناك من يمكن أن يُعَرِّي جسداً ويقذفه هكذا ببساطة..»

«قلتَ إنكَ حافظٌ للقرآن..» هَزَّ معاذ رأسَه مؤكِّداً، لم يغب عنه الإنذار في تذكير المُحَقِّق.

«أنتَ لا تُساعد أحداً بكتم المعلومات، ربما كنتَ تتستَّر على قاتلٍ يسرح بينما هناك بنت بالمشرحة، قالوا إنكَ أجيرٌ لدى المُعَلِّمة عائشة... ما تقول عن ذلك؟» أفزعَ معاذ أن تتَّجه إليه أصابع الاتهام، «لا، لا تقل إنني شيطان أخرس. أنا شاب مُكافح أيها المُحَقِّق، أَوقَفَني أبي على خدمة المُعَلِّمة بعد عودتها من ألمانيا، أُحضرُ لها احتياجاتها مَرَّةً كُلَّ أسبوعٍ وأكنسُ دهليزها. قالت لي قبل الجثة بأسبوعٍ أن أَكُفَّ عن الحضور، ستترك أبوالرووس لتعيش مع قريبةٍ لها...» سأله المُحَقِّق:

«هل رأيتَها تُغادر؟» نفخ معاذ ساخراً:

«عائشة؟! ربما هي الشخص الوحيد الذي يستحيل أن يغادر. عَائشة أيها المُحَقِّق تعيش في عالمٍ ضوئيٍّ كعالمي خلف كمبيوترها، مدَّة خدمتي لها، ومن موضعي في الدهليز أَلِفتُ ذلك الصوت.. أتوقَّفُ عن الكنس حين أسمع التكَّات على لوحةِ مفاتيح كمبيوترها القديم.. أُصارحُكَ القول: أدمنتُ ذلك الصوت الرقيق يأتي من عالم بعيد عن فهمي. أحياناً

كثيراً ما تتلاحق تكَّاتُها بلا مسافاتٍ فأحبسُ أنفاسي وأُقَلِّصُ حركتي فلا تُخرجها من غيابها. . . تتلاحق أصابعُها لعالمٍ تحتجبُ فيه عائشة فأتجرأ وأصعد الدرجات، وأتجاوزُ فأسترق النظر إلى ذلك الكائن الخارق، بظَهْرِها إلى بابٍ مسروقتها، في ضوءِ الشاشة يَتَوَهَّج شَعْرُها بضوءٍ أزرق أثيري، ملفوفاً في كَعْكَةٍ مائلةٍ ودائماً إلى اليمين جِهَةَ البابِ، بقلمِ الرصاصِ يخترقُ قَلبَ الكعكةِ يُثَبِّتها لا تنفرط. . لا أتَحَرَّج. . وأنظر إلى بديع خلق الله الملفوف على تلك الرقبة. . أُتابعُ عُنُقَها المقلوبة إلى الأمام أبحث عن العجز في تلك الانحناءة التي لحقَتْها من حادث التصادم، أبعدُ ما تكون عن العجز وأقرب لمعجزة. . أحسدُها وأتحسَّرُ لو أقدر أن أجري بأصابعي على مِغْلاق عدستي بنفسِ السرعةِ لالتقاطِ عَوَالِمَ شبيهة لتلك التي أسمعها في تكات أصابعها على لوحة المفاتيح. . .» سَالَ لعابُ (الكلب) وجفَّ ريق ناصر بتلك الشفرة، ومضى معاذ:

«ها قد بسطتُ لكَ ما يدور في عقلي كشريحةِ فيلمٍ يحرقها الضوء.»

تأكد ناصرُ من حكمةِ استدراجه لمعاذ خارج أبوالرووس، يشعر كأنّ الزقاق المُخَادِع يُحَرِّض الجميعَ على تضليله. ومضى معاذ يتكشَّف له، «لكَ أن تتَّهِمني أو تفهم ضعفي أمام هذا (الكون) ولا أقول (المرأة). . هي المعجزة الأنثى في وحدتها. . وأنا لا أجرؤ على مسِّ هذا الرمز بسوء. . . تَخَيَّلْ، هي من بين كلِّ نساءِ الزقاق تنجو وتُغادر إلى الخارج! أحاول تَتَبُّع ما يُخْتَزَنُ في ذاكرتها. ما العوالم التي رأتْها وتُطْلِقُ أصابعها بتلك. .» توقف يبحث عن الوصف المناسب: «الشهوانية على المفاتيح. .» لم يسعفه ذهنُه بغير صورة عين من عيون الجنة، «أصابع عائشة سلسبيل تجري على المفاتيح، تُميِّزها عنَّا نحن الكالحين بأبوالرووس. . أتعرف آية النور، هذه الآية من سورة البقرة تسكن قلبي، عائشة هي المحظوظة في تمثالها المصبوب من الطاقة الضوئية. . أَصُفُّ أخواتي الصغيرات واحدةً فوقَ الأخرى بأجسادهن الممصوصة وبشعورهن

الملفوفة كرَفَّاصِ سلسلةٍ. . افهمْني. . اعرفْ سيرتي. . فأنا شاب عصامي. علَّمتُ نفسي التصوير وحفظتُ القرآن وأكسبُ ما أُعين به نَسلَ الإمام الذي لا يعترف بتحديدِ نَسْلٍ. .» وقف المُحَقِّق فجأة، وكمن يسير في نومه أدركَ معاذ في ذلك العالم وَعَاه وغادر. ولن يعود إليه كاحتمالٍ لفاعل.

رجع المُحَقِّق ناصر إلى مقالات يوسف على مدار عامين، قرأ مقالته عن الارتفاعات المتزامنة والخيالية في نفقات قطاعات (العقار والأراضي، والقطاع الطبي النفسي والتجميلي خاصة، وقطاع المواشي متركزاً في الإبل والتيوس) في محاولةٍ لكشف العلاقة بين تلك القطاعات! انتبه كيف قارن يوسف بالأحمر الفرقَ بين قيمة صديقه تيس الأغوات والتيوس المعروضة في سوق المواشي، حيث يبلغ متوسط ثمن التيس الفحل 160000 ريال.

نَبَشَ المُحَقِّقُ ناصر عن ذلك الولد صالح / المشهور بتيس الأغوات في جلسات تحفيظ القرآن ببيت الإمام داوود، دائرة تقسمها ستارةٌ زرقاء تفصل بين البنات والأولاد، وذلك المليح الذي يعشق التدويرةَ في الستارة حيث يتكئ مِرْفَقُ البنت سعدية، والليالي التي قضاها ينفخ النار بأبوالرووس على قدور أبيه وينفخ سخريتَهم من التيس الوَاقع في عشق كَوَارِعِ بنت، والمربوط بحبلٍ خفي قصير من مطبخ العشي لباب المسجد، بحيث لا يشرد للخط السريع ويقع بقبضة شرطة الترحيل.

نافذة لعَزَّة

16 أغسطس 2005:

إنه الصيف، تعرفين، حين يموت كل شيء حولنا، يتمدَّد أبوالرووس سمكة تتفسخ وتتآكلنا حرارة قلوبنا التي تريد أن تنفلت من ذلك العفن والركود.
مع كلِّ صيفٍ لي معكِ يا عَزَّة شِجَارٌ كبيرٌ، تطول النهاراتُ ويقصر صبري

على احتجابكِ وعلى النوافذ التي تُوصدها أُم القُرَى. بجوف الليل أُلقي بثيابي بقناعةِ أنني أُقَلِّصُ بيننا الجدران. لو أنكِ تتخففين.
أَضْجَرْنَا مُشبَّب بالتشكي فقرَّر أن يمتحننا:
«ما أقصى مخاوفكم؟ ضعوها الآن أمامي على البساط، أسحقها لكم كحشرة.»
«شرطة الترحيل..» بدأ تيس الأغوات فتقيأ خوفَه حامضاً، «عربة الترحيل بقضبانها، تَشُلُّ حركتي، أنا مُحَاصَرٌ في زقاق، وإن غادرت فأعمى بعيني على شرطة الترحيل في الثياب المدنية، على كل منعطف أتوقَّعها تنقضُّ وتحملني، إلى أين سيرحّلونني أنا المقطوع خلاصي بتربة حوش المطبخ، بلا اسم ولا صوت، أنا لم أتعلم الكلام إلا مراهقاً؟! أساموت وأحيا لا أُغادر أبوالرووس؟؟»
حان دوري وخانني الجوكر، وَجَّهتُ ذلك السؤال الكاشف إلى ذاتي فأدركتُ أنني: أنا يوسف مصدر الخوف، جسدي النحيل مسكون بعَوَج بن عَنَق العملاق من زمن نوح، أنا محبوس في زمن قديم وتنقلني مركبة فضائية، كل ما حولي آلي ورأسي جاهلي أسطوري..
ربما جسدي قديم ويحتاجُ إلى تحديثٍ سريع.
راودتْني مُبَاغتتُه بذات السؤال: وأنتَ يا مُشَبَّب ما أقصى مخاوفكَ؟ لكنني تراجعتُ، مُشَبَّب كنقطة المركز لو انحرف أو سقط انكسرت دائرتنا..
اتضح: لا خوف إلا ويمكن معالجته بعباءة امرأة.
غطَّى مُشَبَّبُ تيسَ الأغوات ورافقناه في تاكسي خليل الطيّار.
حين أقبلنا على نقطةِ التفتيش طَلَبَ منه مُشَبَّب أن يسترخي في عباءته.
اللامبالاة التي ليد الجندي حين أشارتْ لنا بالمرور على نقطةِ التفتيشِ أرسلتْ نملاً على عمودِ التيس الفقري.
حُمَّ بحقيقةِ أننا قد غادرنا حدودَ الحرم، متجهين لمدينة جدّة على ساحل البحر الأحمر، الحكايا عن عروس البحر هذه تَرَكَتْ ثقوباً في وعي شبان أبوالرووس:
«بنات جِدَّة يا لُطْف الله..» لكننا لم نرحل اليوم لطلب ذاك اللطف، اخترق بنا

مُشَبَّب عبر الطريق الدائري لمنطقة مطار جدّة القديم.
كان ضحى حين امتدَّتْ أمامنا وعلى مدى نصف كيلومتر مساحةٌ مفروشةٌ برجالٍ ونساءٍ بكلِّ الألوانِ والأجناسِ، وطَفَتْ برأسي صورةُ الحشر.
«إلى هنا يَفِرُّ كلُّ زاهدٍ في جنَّةِ النفط، في هذا العراء مَلجَأ العِمَالة بانتظار أن تلتقطها شرطةُ الترحيل. هنا خطُّ التوزيعِ السريع رجوعاً للأوطان...» عَلَّقَ مُشَـبَّب،
«البعضُ ينتظرُ لمُدَّةِ أسبوعٍ أو شـهرٍ قبل أن يحضر من يلتقطه، البعضُ يَضطَّرُ لدفعِ رشوةٍ للجندي لكي يبدأ بترحيله.» أضاف خليل الطيَّار.
«جحيمكَ جنَّةُ الآخر.» وَجَّه مُشبَّب تلك العبارة إلى تيس الأغوات الذي بادر بالسؤال:
«تقصد أنهم لا يقبضون على المتخلفين في جدّة؟»
«بل يقبضون رشوةً للتسريح ويقبضون رشوةً للترحيل خارجها.»
«انزلْ!» أشار مُشَـبَّب للتيس بمغادرة التاكسي. وخلاَّه مع المنتظرين، ووقفنا بعيداً نرقب.

بتصميمٍ أوصدَ مشرفُ الصفحة بجريدة أم القرى النافذةَ على جحيم الترحيل ذاك:
«نافذتكَ بأم القُرى، فلا تفتحها على البحر.» وقبل أن يقذف المقالة إلى سَلَّة المهملات قام بالأسود السميك بشطب هذه الجزئية:

في الساعات الأولى فَقَدَ تيسُ الأغوات حاسةَ السمع والنطق، ببصره لسيل العربات تَمْرُقُ خاطفة، وبالرطوبة تَتَحَبَّب على أرنبتي أنفه تُحَضِّر لسؤال:
«لأيِّ البلاد؟» بدون وُجْهَةٍ بلا شك سيَتَعَفَّن في الحَجْزِ. هناك في الجَمْعِ من يُكرِّر:
«الذين يطول توقيفهم يأكلون صوفَ بطانياتهم لطول التجويع!»
(يسردون حكاياهم بعربيةٍ مُعْجَمَة تفوح ببهار زنخ)
خادمة سيرلانكية لم يكف لسانُها يلوك الزوجَ العاطل الذي ظَلَّتْ لعشر

سنواتٍ تُرسل له بمُرَتّباتها لتكتشف أنه قد تزوج وأنجب بالحصيلة، وهي راحلة على جناح بُرَاقٍ لتأديبه.

تبهت أمام ذاك العملاق المصري، والذي سَلَّم قريبَه تجارةَ النفايات وعُشَّته بمرمى النفايات بين حيِّ السامر والأجواد بشرق جِدَّة، وجاء يُسَلِّم نفسَه ليُرَحَّلَ بالمَجَّان ليقضي عطلتَه بين أهله، والذي يُقسم بأن يجعل طريقَه لعينِ المياه الكبريتية بحِلْوَان ليُقَشِّر طبقةَ الجَرَبِ عن جسده، قبل أن يُلَقِّح زوجته بولدٍ، يُلحقها باستخراج (تأشيرة عُمْرَة) جديدة ويرجع لاستلام النفايات أو منجم الذهب الذي يُدِرُّ عليه خمسمائة ريال يومياً! واستفاض المصري بوصف مغامراته مع حملات قيود التحويل النقدي الدولية، والمبالغ النقدية التي يخترق بها الحدود والأسواق السوداء بأساليب جهنمية، وكيف بَنَتْ له برجاً في مصر الجديدة، ومكانته كمستشار اقتصادي لدى ملوكُ المرمى من المخالفين الأفارقة.

يُتابعه باهتمامٍ وجهُ ذلك الإفريقي الذي يُقَطِّر مع الدمع حكايةَ الأم المحتضرة، التي يُسابق عليها عزرائيل.

أما ذاك الأندونيسي فيُنافسه بعرض صور المتنافسات على قلبه: عشرات الوجوه المطلية بالجير، والمُذَنَّبة بالكحل العريض، وبالشفاه الفاقعة الحمرة، صراع شرسٍ على المراتب الأربع الأولى في طاقم الزوجات اللواتي سيتخذهن فور هبوطه بجاكرتا إمبراطوراً بحصيلةِ غُرْبَةِ العام والنصف (يظنُّ العشرةَ آلافِ ريالٍ مالَ قارون).

لا يعرف تيس الأغوات كم حكايةٍ مَضَتْ عليه هناك.

حين حَطَّ المساءُ مُسَّ بنسماتٍ مالحةٍ نَبَّهتْه لوحدته، تلاشى الجمعُ إلى حيث لا يعرف، واحتلّت المكانَ روائحُ البول البشري الممزوجة بيأس، مادةٌ نفَّاذة تطلع من وراء جذوع نخل الزينة الواشنطن، ومن زُرْقَةِ مكتبِ الخطوط السعودية المُوَاجِه، ومن آلةِ الصَّرفِ الآلي التي تتضخَّمُ بسيولتها بعين كاميرا تحرسها.

يُفَكر تيس الأغوات أن الآلة تُلاحقه بشاشتها التي تُكَرِّر (مرحباً بكم لخدمة الصرف الآلي...) الترحيل الآلي...

مع انتصاف الليل ارتخت أهدابُه على فراغٍ كبير. ما زال لم يعرف الوُجْهَةَ التي يُحدِّدها فيما لو أُلقي القبض عليه لترحيله.
في الفجر تكاثرت الأذاناتُ في الأفق، وشَعَرَ بحاجةٍ إلى تفريغ جوفه. لكن قدميه ما طاوعتاه. كل كيانه منصوب ومشدود على اللحظة التي تظهر فيها عربة الترحيل بالشُّرطيين. لحظة الخوف المنصوبة بأنشوطتها على كامل عمره، لحظتها لرُبما رَكَضَ أو لربما سَقَطَ ميتاً، المهم هو مواجهة تلك اللحظة.
لا يعرف ما إذا كان مشبَّب جاداً في تَرْكِهِ هناك، أم هو جادٌ في مُوَاصَلَة المُرَابَطَة.
مع الضُّحى أفاقَ من جديد بالعيون والحكايا تجتمع عليه، من لا مكان انبثقَ جمعُ الأمس، وفي كل لحظةٍ ينضمُّ إلى الحشدِ جسدٌ، تُقَطِّرهم المدينةُ قطرة تعبٍ وانتظارٍ وراءَ قطرة.
وتلك المرأة التي لا تكف تستحلب جالون الماء المصفرّ وتنعس وترمقه.
في مرحلةٍ من اشتدادِ الحرارة خُيِّل إليه أن ثلاثَ نساءٍ (صفراء وسوداء وبُنيَّة) يغمزنه.
مع أذان الظهر ظَهَرَتْ تلك الحافلة بقضبانٍ على نوافذها، ودبَّت الحياةُ في كُتَلِ الأجساد، سكتت الحواراتُ والغمزاتُ والشكاوى، وانجرفت الغمامة صوب الحافلة.
تسمَّرتْ عينُ تيس الأغوات على قضبان نوافذها.
بينما تدافعت أجسادٌ للركوب ودَفَعَتْها الأيدي بزِيٍّ كاكي بعيداً،
لَمَحَ الأيدي المُتَعَرِّقة تتبادلُ أوراقاً نقدية يتمُّ بناءً عليها التصريح بصعود الحافلة، حتى امتلأت وتفلطحت عجلاتها.
عندها تحرَّكتْ وعفَّرتْ في غبارها الوجوهَ.
النوبةُ التي ضَرَبَتْ جسدَ تيس الأغوات تَرَكَتْه هناك، باهتاً في جسده المتأهب لما لا يعرف، والوجوه التي بدأت تنوح لفوات فرصةِ الانعتاق.

في تلك الثانية انفتح قلبُه كمغارةٍ طال قَفْلُها، انحلَّت ألوان الخوف المُعَتَّقة

على جدرانها، واندفع فيها الأكسجين، وصار قادراً على التنفس، ما إن دخلته النار حتى استشرى شوقه لسعدية الحبشية بنت الإمام (هي الانعتاق الذي يتوق إليه منذ الآن).

حين تلفَّتَ حوله ولم يعثر على مُشَبِّب، سار بجراةٍ للطريق وفي مدينة غريبة وعلى غير هدى، بأبواق العربات تزعق حوله عَبَرَ الكوبري المؤدي إلى شارع الستين، وهناك على المُفْتَرَق لَحِقَ به تاكسي خليل والتقطه مُشَبِّب من دون تعليق.

«لو عرفتْ أمي لقلبتْ عليكما أبوالرووس، تنقعكما في كاز حَار بلا فُكاهة.» أمه أم السعد هذه التي هي نسخة طبق الأصل، في ضخامتها وملامحها، عن أبيها اللبَّان الذي تُعَلِّق صورته كسيف على رقاب من يدخل حجرتها بسمائها الحمراء الساقطة. حتى الشارب تضطر لنتفه كل صباح بالملقط بخرزته الحمراء.

«يقولون إن الذبحة الصدرية هي أحدث وسيلة لتحديد النسل للعامين 2005/ 2006.» تعليق سخيف يليق بخليل، قاطَعَه مُشَبِّب:

«ولقد أعلنتْ أُمُّكَ ـ بصفتها أُمّاً لتيس ـ الحِدَاد على قطعان الإبل التي تسمَّمتْ في وداي الدواسر، ومع مصيدة سوق الأسهم، وتسميم مئات الآلاف من خيرة النوق بأعلاف من صوامع الجنوب، بادت معها السيولة النقدية. كما ترى أمك مشغولة بالهموم الكبيرة.» كنا نتفوه بالتفاهات احتفالاً بلحظة الانتصار على الخوف تلك.

وسواس

يبدو أنني أبوالرووس الوحيد الذي يُتابع إدمانَ ناصر، صار يتردَّد على المقهى حيث يجلس لساعات يقرأ رسائل عائشة، أنا لم أحفل قط بتلك الرسائل الإلكترونية التي تحشوها المُعَلِّمة بمشاعر سمجة، لم أعبأ في تاريخي بخصمِ أنثى لأنني أعرف أن النساء خُلقن لكي يستسلمن

للواقع، واقعي المُزري. لكن ها هي كلماتها تتسلل كسرطان من رأس ناصر لرؤوسي:

من عائشة / رسالة 7:

الاحظتَ، لقد ختمت محادثتنا اليوم بمناداتك: يا سيدي..

أبداً لم أعرف لأبي اسماً، دائماً نادته أمي بيا (سِيدي)، تقولها بشحنةِ حنينٍ تجعل منه العبد ومنها السلطانة.
سِيدي
لو أن لصوتي نفس الغرغرة التي لصوت أمي، لاستحضرتكَ هذا النداء.

الليلة أخذتُ العاشقات إلى سريري... جفّ ريقي أرجفُ، للآن.
كيف أجرؤ فادسُّ هذا الدخيل بفراشي..
الترجمة الحرفية للعنوان تعودُ تستوقفني: (نساء في الحب). (في الحب) ذبابة تُغرقُ جناحَها الـمُرّ وتترك جناحَها الحلو يَتَنَفّس على السطح.
ذباب يعرجُ على سطح شاي بالحليب، وربما تغرق واحدة فلا تطلع.
أُفَكِّرُ: مَنْ يشربني؟
أشعرُ بعين أبي الميت حارقة بمؤخر رأسي. اترك البيتَ لظلامه، ودائماً بكشّاف النور أندسُّ تحت بطانيتي الثقيلة، لأُهرِّب بعض الكلمات:

(بعد الحرب العالمية الأولى بدأ لورانس حَجّه الوحشي للبحث عن مزاجٍ للحياة أكثر إشباعاً مما يمكن أن تُقَدِّمه الحضارةُ الصناعية الأوروبية. . . .)

ما زلتُ لا أحسّ بالأمان فاقرأ العاشقات من البداية للنهاية.
أسرقُ كلمةً هنا ومقطعاً هناك،
أُوَجِّهُ ضوءَ الكشاف لكلماتٍ بخطورةِ الارق من مقدمة طبعة بنجوين، والتي أشعر بها تُخاطبني:

(تكتبُ فريدا حبيبة لورانس عند موته عام 1933 :

لقد نَقَلَ لورانس في كتاباته لأخيه الإنسان كلَّ ما رآه وما شَعَرَ به وما عَرَفَه: روعةَ الحياة، والأملَ بالمزيد والمزيد من الحياة. . . تلك الهِبَة البطولية والتي لا يمكن حصرها أو قياسها.)

ينطفئ الكشّافُ، أرمي ببطانيتي وكل شيء.
من أين نأتي بالمزيد المزيد من الحياة؟ أي مزيد؟
أراجع تفاصيل حياتي بحثاً عن قطرةٍ من هذا (المزيد).

مُرْفَق:
هذه كفُّ عَمَّتي حليمة مُرْعِبٌ كم هي صغيرة،
خطوطٌ تتوازى وتتقاطع.
(الكف الجريحة) حلية ذَهَبٍ من البنصر للرسغ على هيئة مُثَلَّث، لا تملك ثمنها عمتي حليمة، لذا نَقَشَتْها بالحِنَّاء على ظاهر الكف.

ملحوظة 1:
لمَ لا تشترون مَنَاشِفَ حمراء؟؟ سألَني جنينٌ أسقطتُه في الحلم البارحة (وكل ليلة).
طوال عامين ظللتُ أُصَلِّي: أحمد يا الله، يرقد معي رقدةً واحدة ويكسر طوق كلمة الطلاق عن عنقي، دفعة واحدة للحياة يا الله: طفلاً!
ها هو أحمد الآن يفتح هذا الخط الساخن بيننا ويستجدي أن نستأنف!!
ما الذي يُغري صياداً باسترداد فريسة نسيها طوال عامين تتفسخ؟!

التوقيع: عائشة.

كلمات كتلك تتحدَّى ناصر، كلما وقف هكذا بأول الزقاق تحت نافذة عائشة المُوصَدَة بجهاز التكييف شَعَرَ بثقل يهبط على قلبه، من شغفها بهذا الذي تُسميه: (روعة الحياة) و(المزيد والمزيد) ما تُراه يكون؟!!

يتوزّع بين عائشة وعَزَّة: أيهما يُسقط على الجثة؟ يتحداه بؤسُ البيوت المتآكلة التي تُحيطه، يشعر ناصر بأنه مُراقبٌ في الوقت الذي يخترق بنظره لجسدي وغفلة رؤوسي:

يرقبهم مع هبوط الليل جالسين كما في فترينات معارض، مصفوفين في شاشات تلفزيوناتهم، يخلعون صورتَه ليغرقوا في الأحداث، يُحبطه حين يقارنونه بالمُحَقِّقين في المسلسل الأمريكي (CSI) هذا الذي بَنَى خيوط خياله العلمي على رؤوسي، يشعر ناصر كم هو صغير وجاهل مقارنة بأولئك المحققين الخياليين.

ورغم فزعه من تدفّق عائشة صوب ذلك الألماني، إلا أن ناصر كان بوسعه أن يُغْلِقَ عينيه ويحشر اسمَه هو ناصر مكان ذلك الرمز السخيف ^، ويتخيل أنها تُكاتبه، لم لا يكون هو المَعْنِيّ بذاك الطوفان؟ تاق لأن تدقَّ رأسَها برأسه، لتبدأ أفكارهما بالامتزاج:

«دَقَّ اللهُ رأسكِ على رأسه.» تأسره عبارةُ أمي حليمة تلك، والتي تُلَخِّص الانفتاح على الآخر، والذهاب إلى حدّ عجن الرأس بالرأس. .

المرشحون للنار

أوقفَ المُحَقِّقُ ناصر سيارتَه على مدخل شبكتي المتفرعة، ووقف يتلذذ بطفيلاتي تستيقظ، ، وتَوَجَّه إلى المقهى ليتسلّمه السقاةُ الباكستانيون بقوائم المُعَسّل، جلس في مقعده متأملاً في الألوان المغسولة لسماء مكة عند الشروق عكس تلك الصارخة للغروب حين يُخَيَّل إليه أن هابيل يطفو كلَّ مساءٍ على سماء الحَرَم! يكاد يلمس الصفحةَ التي تُكْشَطُ لِبَسْطِ صفحةٍ شفَّافةٍ لأقدارِ المدينة، كل صباح يصير بوسعهم إعادة الكتابة بأنفاس قابيل، أهذا ما كانت تحاوله يومياتُ يوسف؟

مُحَاسِبُ المقهى السوداني الأعزب كان قد أمضى الليلَ تحت بطانيته

راقداً على ذلك الكرسي، فتح عينيه لتوِّه بالعبق المتصاعد من بَرَّاد الشاي الذي تركه الباكستاني إلى جواره يغرق فنجانها في ماء الصينية المشطوفة بعجلة.

لم يعرف ناصر ما الرسالة التي يريد أن يُبْلِغه إياها الزقاق حين يُرَاجِعه حتى في أحلامه. قَاطَعَتْه الحركةُ المباغتةُ على باب المقهى، حين قفزت فجأة الإفريقيةُ المفترشة للأرض،

«يا الله صباح خير..» ضَحِكَ المُحَقِّقُ ناصر، رَاقَبَها وقد خلَّتْ حصيرتَها المُكَدَّسة بالبضائع الرخيصة وتلاشت عن الأنظار، لم تركض بل انشقَّت بطنُ الزقاق وابتلعتها. وفي تلك اللحظة ظَهَرَتْ تلك الشاحنة، تحملُ شِعَارَ مُرَاقَبَة الأسواقِ بأمانةِ عاصمةِ المدينةِ المقدسة، وقبل أن تقف انشقَّت أبوابُها فجأةً لينقضَّ الموظفان على البَسْطَةِ، شَرَعَا بِكَبِّ صواني اللوز وبذور البطيخ المُحَمَّص وتعفيرها بالتراب، ولصندوق الشاحنة قذفا بكلِّ أكياس الأطعمةِ المُعَبَّأة والمُغْلَقَة يدوياً بعَقْدِ فوهة الكيس. أكياس الكوجَاراتي (والتي تَتَقَطَّر في المَعَامِلِ باسم: مجموعة فيتامينات) مُنكمشة أوراقها في البلاستيك جاهزة للغلي، والحلوى (باكورة) المصبوبة من السُّكَّر في هيئةِ عصي قصيرة مُضَلَّعة، وحلوى التمر هندي، و(اللولي بوب) المُلَوَّنَة والمُقَلَّدَة في مَعَامِلَ مُرْتَجَلَة تُدَارُ من عِمَالَةٍ هاربة، والألعاب الرخيصة صنع تايوان!

حين انطلقت الشاحنةُ مُتَوَغِّلَة في جنباتي أصابتني حُمَّى من الحيوية، كانت البَسْطَاتُ العشوائية والممتدة لآخر الزقاق قد اختفت، نجحت في التواري إلى دهاليز البيوت، بينما تجمهرت القطط على أكداس المسفوح، تلعق أو تتشمم بكبرياء ما يصلح للالتهام...

في جلسته في المقهى راقب المُحَقِّق ناصر عِمَالَة المقهى تحشر إلى حمَّام الخرابة وتُقفل، وفي الوقت نفسه كانت المطابخُ تدسُّ عِمَالَتها رخيصة الأجر إلى حجراتِ الفحم. لا يرقب المُحَقِّق ناصر بقدر ما

يتماهى في تلك الحركة الدؤوبة الملحاحة في الزقاق، فَكَّرَ «لو نفخ الملك إسرافيل في البوق إيذاناً بقيام القيامة، لمضى أبوالرووس في دَسِّ بسطاته الآثمة وعِمَالَته المارقة تمهيداً لاستئناف المعصية ما بعد النفخة، ولَمَضَت دجاجتُه تنشوي في اللهب محشورة في سفافيدها وأقراص الخبز في نيران أفرانها والكبسة في قدورها الحامية والدهون تتكدَّس لما لانهاية استعداداً لاستقبال البطون المُتَأهِّبة للتكفير عن جوعها الأكبر وصَرْفِ ما اكتسبتْه طوال نهارها...» لا أُنكر، هذه الفكرة، تَمَلَّقَتْني وملأتني زهواً.

لست متأكداً كيف أتناول توقَ ناصر لتَمَلُّك حتى زقاق مثلي، والذي لطول ما تَرَدَّد عليَّ صار ينظر إلى منعطفاتي وبؤسي كامتداد لجسده هو، نعم خدعتُه لينظر إلى ذاته كواحدٍ من رؤوسي، أُلهيه بفتات أفكاري بينما أُبقيه خارج حاوية أسراري وآثامي، حتى صار ينظر إلى ذاته كمُتَستِّرٍ يعرفُ عَدَدَ المتخلفين بلا أوراق رسمية، والذين يتقاسمون إيجار عُششي ليتناوبوا المُتَعَ المُتَاحَة على فُرُشِي المُكَوَّرة والمبعوجة، ويعرفُ المُخَالَفَات المُوَافِقَة للطبيعة البشرية وتلك المُخَالِفة للشرع ولقوانين الأمانة العامة للعاصمة المُقَدَّسَة، يستطيع أن يَعُدَّ الزفرات التي ترقب بها النسوة وراء نوافذي المُسَمَّرَة مسلسلات الواقع التي تتمدد حتى تختمها حملات المصادرة والإبادة.

مع تلاشي شاحنة البلديَّة قَصَدَ المُحَقِّق ناصر الإمامَ داوود، قاده الإمامُ إلى المسجد، حين تَقَدَّمَه لفتح الباب وَجَدَها المُحَقِّق فرصة لتأمُّله: حبشي كامل الصَّبِّ محبوك الاستدارة، مِظَلَّة ثوبه الأبيض تنحدر من على كرشه لتصل إلى منتصف ساقه الغليظة وتُظَلِّل القدمين الخشنتين في الشِبْشِب الزَنُّوبة الأزرق، تَتَعَلَّق غُترته البيضاء من مسمار وهمي بمنتصف كوفيته ساقطة كشلال بين كتفيه لتنبسط كمروحة على حقويه، لحيته تقاوم لتنبت، بعض شعراتها يتجاوز البوصتين، بلا شارب، نظرته بارزة مُضَخَّمَة تفترس وتخترق من وراء سماكة زجاج نظارتيه.

تحيَّر ناصر أين يبدأ:

«يضعكم أبوالرووس في مكانة خاصة يا مولانا، وُلِدَ أولادك هنا، هل يُعيقهم أنهم لم يروا الحبشة ويحملون الجنسية الحبشية؟»

«خدمنا المسجدَ لربع قرن، ندعو الله أن يبعثنا من المجاورين لبيته. والحمد لله، لدينا أوراقُ إقامةٍ نظامية بحكم مساهمتي بالأمر بالمعروف، ويعدونني بالجنسية. بقَدَمٍ في القبر من يحتاج إلى جنسية، إن أردتها فلأولادي.»

«فما حكاية قوائم المُرَشَّحين للنار وأولئك المرشيحن للجنَّة؟» تجلَّدت نظاراتا الإمام تحفران في نقطةٍ على الجدار أمامه.

«اسأل عن صندوق شخصيات المسؤولين الكبار، صندوق أسَّسته امرأةٌ لجمع التبرعات بينما يجمع الإتاوات من أبوالرووس.» حريصاً لا يأثم بذكر اسم أم السعد وربيبها تيس الأغوات، «غَفَر الله لها، تجمع لدفع رشوة لبعض المسؤولين لإصدار بطاقة أحوالٍ شخصية وجنسية لربيبها.» جهاز التكييف القديم ـ الذي يناضل مع مروحة السقف لقشع سُحُبِ السموم عن المسجد ـ ذَكَّرَه بمكتبه، «تلك المرأة من حطب جهنم، مَنَحَها إبليسُ من بَرْقَه الخُلَّب لتسحر الناس وتُجبرهم على التبرع لصندوقها. ماذا تتوقَّع من امرأةٍ سقطتْ من فَكِّ عزرائيل، قادرةٍ على كل إثم.»

«حتى الشيخ مزاحم يتحدَّث عن المرأة التي سقطت من فك عزرائيل، ما يعني هذا؟!»

«لا تخلع قناع إبليس قبل أن تتحصَّن لمواجهة شياطينه..» وبعد صمتٍ أضاف، «بمهارتها التسويقية علَّقت صندوق المسؤولين على باب عمارة والدها، لتراقب المتبرعين، مُصَنِّفة عِبَادَ الله المسلمين من المتبرعين والممتنعين، لفئتين، فئةُ مَنْ أفئدتهم هواء وفئةُ القلوب الرحيمة.» صَمَتَ فجأة، لا يتوقَّع من رجل في زِيٍّ غربي رسمي أن يفهم

خطتَه الدفاعية، حين اعتمد حُكْمَ الراشي والمرتشي في النار، وضَمَّ المتبرعين في قائمةٍ مُرَشَّحةٍ للنار، والممتنعين في قائمة المُرَشَّحين للجَنَّة.

«لاحظنا أن المتبرعين غالباً رجال تعميهم الشهوة، بتبرعات صلبة من النقد المعدني وأحياناً بحُليٍّ من الذَّهَب.» لم يفهم ناصر شيئاً مما يرمي له الإمام، «ليس بوسعي أن أشرح لك أيّ نزواتٍ شيطانية كانوا يحشرون مع تبرعاتهم الصلبة تلك.» إصرارُ الإمام على وصف (صلب وصلبة) حَيَّرَ ناصر، لكن الإمام داوود غرق في صمتٍ عميق، وترك لمروحة السقف أن تُسَنِّن تلميحاته وتبعثرها في عتم المسجد.

الذين يلتقون عزرائيل

ليلة حالكة أخرى من لياليَّ أنا أبوالرووس، وها هو ناصر يُحَوِّم حول عمارة الجامعة العربية لكشف لُغز أم السعد وكيف سقطت من فك عزرائيل. راح وجاء في المسافة بين العمارة وفِنَاء العَشْي المُوَاجِه، كل العيون متوجِّسة على بقعة السخام على حائط الفناء، لم تُغْسَلْ أو تُكحت كسِجِلٍّ لعلو حظوظ العَشْي! لطخةٌ في ذاكرتي تُؤرِّخ للفضيحة التي اندلعت في هذه البقعة من ربع قرن. تلك الليلة أُصبتُ بعمى مؤقت، حين عبرتني كآبةٌ تمسح عطفاتي وتُسَوِّدُ قَمَرَها لتهيِّئ مسرحها لظهور مأساة. تسمَّرتْ حتى الظلال على الحوائط، وتَجَمَّعتْ أضواءُ النيون كخيمةِ مِشرحةٍ تتهيأ لتشوُّهٍ وشيك. على الأفاريز والأسطح المتآكلة توارت القطط والحَمَام تدفن رؤوسها عميقاً تحت أجنحتها ومخالبها، وتعطس للرائحة النتنة التي أرسلت الكلابَ مسعورة تعوي، مثل ذئابٍ مُجَوَّعَة تصارعت الكلاب تعض أذناب بعضها للظفر بنهشة من الكومة الملفوفة في كيس بلاستيك مقذوف تحت حائط الفناء. وكان العشي حينها صبياً مُتَدَرِّباً يُصارع للترقِّي في فناء المطبخ، ليلتها لم تكن رائحةُ الطبيخ تنضح من ثيابه هي م

أيقظه، أَقَضَّه النباحُ المسعور يُزلزلُ الحجرةَ حيث يُقيم بأعلى الحوش، على عجلٍ لَفَّ جذعَه بفوطته الخضراء وتَرَنَّح نصف نائمٍ يهبط الدرج ليستطلع ما يجري في الزقاق. صَدَمَه عفنُ جثةٍ يضرب حصاره على الفناء، بكل ما وقع تحت يديه من عِظامٍ وحجارةٍ طارد العشي الكلابَ ليدفعها بعيداً عن كيس البلاستيك المُلْقى على قارعة الطريق. أخيراً حين شَقَّتْ أصابعُه المرتجفة الكيسَ كان وجهاً لوجه مع ذلك الهيكل العظمي.

أعترفُ، أنا أبوالرووس المُحَصَّن بوجه الفظائع أصابني المَشْهَدُ بالغثيان، وغرقتُ في الصمت مُتَكتِّماً على ذلك السر المُهين، لم أحتمل النظر إلى السواد المُتَجَلِّط على الكتفين العريضتين، مجرد قفص صدري، مُتَوَّج بجمجمة مستطيلة تُحَدِّق في العشِّي بطقم أسنان فئران. رائحةُ التحلُّل انبعثتْ صاعقة يستحيل معها تَفَحُّص ما إذا كانت تلك الجثة حية أم ميتة، لأُنثى أم لذَكَر. رائحةٌ حارقة أعمت العَشِّي وطفر الدمع من عينيه، بينما نهشتْ كاحلَه الكلابُ طلباً لِحِصَّةٍ من ذلك القفص الصدري، لكنه حملَ الجسدَ وانطلق يعدو، أعمى أصم رَكَضَ متبوعاً بخطٍّ من العفن ونباح الكلاب والعيون المُتلصِّصة بذعر، يئس مطاردوه من الحيوان بينما استمر يركض حتى بلغ مستشفى الزاهر العام، قالوا بأن العشي رَكَضَ أميالاً يحملُ مصيرَه الحالك بين ذراعيه يبحث عن ملجأ أو نجدة، حتى أسجى حملَه الثقيل على نقَّالة المرضى الحائلة للصُّفرة بحجرة الطوارئ، وفاح كلوروفورم يُوحي بجثةٍ لم تلبث أن رُحِّلَتْ في تلك الملاءات. تقزَّزَ الأطباءُ والممرضاتُ من فكرة لمس تلك الجثة، بينما أخذ العَشِّي يجأر، «ارحموا ابن آدم، هذا إنسان.» ممزِّقاً البلاستيكَ لكشفِ رعبِ الهيكلِ العظمي المُرَقَّع باللحم المهترئ، استغرقَ فريقُ الإسعاف زمناً لتحديد ما إذا كان ذلك الهيكل لا يزال على قيد الحياة ويستحق عنايةً طبية، بينما اختطف العشي كمامةَ أُكسجينٍ وثَبَّتَها على تلك الجمجمة الفاغرة ساتراً أسنانها الفأرية، لم يكن الأكسجين وإنما الإيمان الذي ضَخَّه العشي في

عروق ذلك الهيكل هو ما أرسلَ رجفةَ نَفَسٍ بالقفص المهول، متبوعة بسعالٍ حادّ غَطّى الوجوهَ المُتَقززة بالمخاط. رشاشُ القذارةِ لم يدعْ مجالاً للفريق الطبي للتنصُّل من فحصه، من كيس البلاستيك أفرجوا عن امرأةٍ مطموسة الصدر، ببطن مُتَوَرِّمة بحُمَّى تتمركز في مُثَلَّث العَانَة، تردَّدت الممرضاتُ في تنظيف ذلك الهيكل، بانتظار أن يتآكل ذاته، وتعزَّزت رائحةُ التحلُّل مع كل مسحةٍ بالإسفنج المُغَرَّق بالكحول. إجراءاتُ الفحص الروتيني استغرقت ساعة لتُثبت أن فريق الطوارئ يعامل تلك القذارة ككائن حيٍّ. لكن، وفي اللحظة التي لمست يدُ الطبيب البطنَ هاج الهيكلُ بغضبٍ ممزقاً اليد التي تجرؤ فتدنو من ورم عانته.

احتاجوا إلى خمسة من الممرضين الفلبينيين لتثبيت الهيكل الهائج إلى السرير وغرس إبرة المُخَدِّر في الوريد! تحجُّرُ العانةِ أربكَ فريقَ الطوارئ، صدمهم المعدنُ الصلب تحت أيديهم الفاحصة.

وقف اخصاصيّو الأشعة وفريق الأطباء بذهولٍ أمام صور الأشعة المأخوذة لرحم المرأة ومهبلها،

«أهذا قرط؟! لأربعٍ وعشرين ساعة متواصلة وأنا على قدمي في حجرات الطوارئ أستقبل كوارث بلا عدد، هل يخدعني بصري فيُصَوِّر لي هذا الجنون؟»

«يا الله، أهذا عِقْد؟!!» كل من استقطبتْه الشائعةُ لإلقاء نظرةٍ على صورة الأشعة الغريبة تلك بُهِت لا يصدِّق عينيه. وحين قرَّرَ الأطباء التدخل جراحياً لَعِبَ العشي دور القريب الوحيد لتوقيع التصريح.

«مهبل مثل خزنة بنك، نَقَّبنا فيه عن حليّ من الذهب الخالص، عقود وأساور وأقراط وجنيهات مرصوفة بعناية في مهبل المرأة ورَحِمها!» الأحجيةُ استدعتْ تَدَخُّل الشرطة، وأشارت أصابعُ الاتهام إلى العَشّي، لكن التحقيقات نجحت في تعريف المرأة، «إنها أم السعد، ابنة اللبَّان الوحيدة بين إخوةٍ أربعة، ذلك الصدر المسطح كصدور الذكور، والكتفان

العريضتان، والفم الفاغر بأسنان فأرية، هي العلامات الفارقة لنسل اللبَّان. إخوتها كانوا قد أعلنوا موتها من زمن، وقاموا بالحَجْرِ على أبيهم بتهمة الجنون وحبسوه حتى أنقذه عزرائيلُ من جحودهم.» تتالت إفاداتُ الجيران.

«توقَّعنا أن هناك سجيناً في تلك الحجرة الخلفية، جُمَّةُ الشَّعْر التي كانت تُطل من وراء القضبان، حيث سجنوا أختهم لا يطعمونها غير حفناتٍ من الخبز الجاف وقشور التفاح، بينما استولوا على حِصَّتها في عمارة الجامعة العربية، الإرث الذي أثبتوا جنونَ الأب ليوقفوا تمليكه لكل من يتمكن من البناء على طابقه الأول من شبان أبوالرووس.»

«أخيراً، وبعد سنوات الأسر، اعتقدوا موتها فقذفوها لكلاب الزقاق تنهش جثتها، حيث عَثَرَ العشّي عليها.»

«تلك الحُلي هي إرثها من أمها، حرصتْ فلا تقع أيديهم عليها، وطوال سنوات سجنها لم ترضخ وتعترف بمكانها مهما جَوَّعوها.»

«كنوز نوح مدفونة بمهبل!! حبكة لا تخطر على بالٍ ومن مراهقةٍ بريئة، ولا حتى لمخرجي هوليوود.»

«وحتى لو راودت إخوتها الشكوكُ، من يجرؤ فيُنَقِّب عن كنزٍ في هكذا مخبأ؟ من يملك أن يقتحم عِفَّة شقيقته ومُبَاشَرةِ رحمَها؟ يا لها من بنت جبارة!» اجتاح أبوالرووسَ إعصارُ تلك الفضيحة، قالوا إن أم السعد سقطت من فك عزرائيل راجعة من الموت بغنائم لا تخطر على بال، وتَوَّجوها بصفتها أكبر مهبل بالزقاق. وكرشوةٍ لإسقاط التهمة رضخ الإخوةُ لتزويجها من مُنْقِذِها العشي، متنازلين لها عن الشقة بالطابق الأول بعمارة الجامعة العربية. ليعاودوا محاولة نهب تلك الحصة، مراقبين بفزعٍ كيف تُغرق أم السعد الزقاقَ بصناديق التفاح التي توزِّعها كل حَوْلٍ، تُلقي للزقاق باللب لتلهم القشور احتفالاً بصمودها البطولي، تتفاقم صلابتُها وجوعها. ولربع قرن حرصَ العشّي كلما عاودت أم السعد نوباتُ الصمت، أن يتبعها

لداخل رأسها، يعبر معها أعواماً وأعواماً من السجن بتلك الحجرة الخلفية، حيث فقدت براءتها، يجالس تلك المراهقة التي تتفتح أنوثتها في العتم والجوع، بينما تحفر بدأب في مهبلها وتخزن المعدن الصلب بلحمها الطري، بينما تَتَضَخَّم بطنها وتَتَحَجَّر في استعدادٍ لليوم الذي تفلت فيه من ذلك الأسر لتبدأ الحياة بتلك الثروة. تدمع عينا العشّي كلما تأمَّلَها:

«هذه المرأة هي الكنز الذي منحني الحياة، بذاك الخزين القاتل اشترتْ لي حوش الطبخ هذا وتُغامر بسوق الأسهم.» بحنانٍ احتضن محاولاتها التي لا تكلّ لتفجير ثورةٍ صغيرة بذاك الكنز التافه. الثمن الباهظ الذي دفعته حَجَّر رحمها بحيث صار أصلب من أن يحتوي طراوة مضغة بشرية.

«أي جنين من لحم ودم يستطيع البقاء في رحم لتخزين الذهب، لقد جلبت الفتاة الشيطانية على رأسها اللعنة.» وَظَّفتُ كل حكمة رؤوسي للسخرية من أم السعد وبلا أدنى شفقة. خفتُ أن يُؤخَذَ رحمَها مأخذ الجِدِّ فيصير قادراً على ابتلاعي، أرقبُ العشي حين يتفجَّر غضبُه في ليالٍ فيحمل حطبةً مشتعلة من أفرانه وينطلق في الزقاق، مُهَدِّداً بحرق رؤوسي، وطمس هذه الضحكة الساخرة. لكن أم السعد لم تكن بحاجة إلى النار لهزيمتي، لقد قامت بتطوير ذلك الجِنّي المفتون بالتقنية في داخلها، ظَهَرَ في هيئة حاسوبها المحمول، وبطاقة الأول نِتْ التي ربطتْ هاتفَها بالشبكة العنكبوتية، وسابقت رؤوسي المُذَكَّرة للمضاربة في الأسهم.

في زمنٍ قياسي أعلنتْ أم السعد انتصارَها في هيئةِ حُمرةِ الشفاه الفاقعة التي تفضح أساليبها الدموية، والتي احتذتْها النسوةُ في إعلانٍ صريحٍ للتمرد.

«تجد النسوة فيها مثلاً للبقاء في الصراع مع الرجل، بينما تلتهب مخيلة الرجال بمهبلها الوحشي، يجترّون وسواساً بالغرق هناك، لذا يواظبون بشهوةٍ متعاظمة على حشر تبرعاتهم من الذهب الصلب في

صندوقها الشهير، متبعين في أحلام يقظتهم تلك التبرعات تأوي إلى ذلك المهبل فلا تطلع.»

«لا يغرَّكم صدرُها الصبياني المفلطح، حرِّك نظرك للأسفل، ذلك الحوض سيكون دائماً المصدر لمتعة شيطانية.»

«ربما يُحْسَدُ زوجُها العَشِّي، لكنه وفي الغالب يدعو للشفقة، تَخَيَّل تلك المراهقة تحفر رحمَها بيديها. لم تكن بِكْرَاً، أي تيس يقبل هذا؟! كلاهما لُعِن لذلك، وها هي تَيَاسَتُه تتجسَّد له، في تَبَنِّيهما لذلك اللقيط المعروف بتيس الأغوات.»

يابس النزّاح

معاذ هو من سَرَّب لناصر قوائمَ أهل الجنة وأهل النار. بدراستها لاحظ المُحَقِّق أن يابس النزَّاح هو الوحيد الذي بقي مرذولاً خارج تلك القوائم المُتضاربة.

ركض أطفالُ أبوالرووس أمامه يدلّونه على مكان النزَّاح، حيث كان ينزح بَيّارة عمارة الجامعة العربية، ظهر له ذلك الجسد الضخم عارياً للخاصرة، في فوطته التي بلون المخلفات وتنتهي عند منتصف الساق. كان النزَّاح منشغلاً يرفع خرطوم الشفط من البيارة، يفصل التوصيلة ليربطها بطول عربة الصهريج. وقبل أن يبلغه ناصر كان النزَّاح قد قفز لقلب البيارة التي أتم شفط 90% من محتوياتها آلياً، في لمحةٍ ابتلعتْه سُحُبُ غاز الميثانين، وتردَّد ناصر، لكن الصغار أشاروا بأصابعهم متشفّين إلى قلب البيارة، «هذا بوكيمون.» أعمتْ ناصرَ سُحُبُ الميثانين، صار دمعه يهطل، كان من الصعب عليه متابعة ما يفعله الرجل بقاع البئر، والذي كان يغوص حتى الرُّكبة في المخلفات البشرية الصلبة والزواحف. حافٍ بلا حماية من قفَّازٍ أو قناعٍ، مخلوق من تلك الصهارة الكونية، يحفر

في طبقات المخلفات، ويعِدُّها لرفيقه الذي يحملها في دلاءٍ يجذبها المعاونُ بالأعلى ليُكَوِّمها على طرف الزقاق، مُوَزِّعَاً غمامةً من الصراصير التي تنتشر مذعورة مُهَاجِمَة في كل اتجاه. حقاً، لقد كان حدثاً مشهوداً، مراقبة ناصر ينسحب، أتساءل: هل شكٌّ في جدوى كل تلك التحقيقات التي يخوضها لإنقاذ زقاق يعجن ويُخَمِّر مخلفاته ليَسْكَر بالميثانين؟

لم يكن بوسع ناصر التريث بالمقهى، كان يفرُّ بوجه غيمةِ الميثانين التي غَطَّتْ جنباتي وأزاغت الأبصار وأطلقت الهلوسات. شعر بأنه متورط في محيطٍ خارج كل الأزمنة المعقولة.

حين عاودَ ناصر الظهورَ حَرَصَ أن يُبَاغتَ النزَّاحَ خارج أوقات العمل، أقبل على حجرتيه المسقوفتين بالخشب بآخر عطفاتي، لفت انتباهَه البابُ بعتبته بارتفاع نصف متر والمفتوح على الزقاق بستارة، ذَكَّرَتْه أزهارُ الستارة الخضراء على أرضية البنفسجي بثوب أُمِّ عَزَّة المحشور بنافذتها. أحسَّ بحركةِ كوثر زوجة النزَّاح من وراء الستارة التي يطوِّحها الهواء، طَرَقَ على البابِ وانتظرَ. تَجَاهَلَ ناصرُ الفراغَ مكان فراش الأم معتوقة الذي لا يزال النزَّاح يطويه في الرفِّ بجوار الحَمَّام، يعبقُ بآخر روائح الميتة، هو الذي سدَّتْ أنفَه روائحُ مُخَلَّفَات العباد. . . انزاحت الستارة عن النزَّاح ليسبقه نشاءُ مربعات فوطته الأرجوانية الجديدة، حاول ناصر تَجَاهُلَ الثقبَ بكتف فانيلته المهترئة، زمنٌ وعَرَقٌ في تلك الفانيلا، أرواحُ كافور هبَّتْ مُوْحِيَة بغُسْلِ جنازةٍ تمَّ وراء تلك الستارة، مُسَلِّمَاً قادَه النزَّاحُ مبتعداً عن الحجرة لموقف صهريجه بفوهة أبوالرووس، تأمَّلَ ناصر في خرطومه المُلَبَّس بطَبَقَةِ عَفَنٍ، جلسا على بقايا عتبة هناك مواجهين لأبوالرووس، بلا مقدمات وُجِّه الحوارَ:

«عائشة كَتَّتك، حَدَّثْني عنها.»

«عائشة مُتشرِّبة إلى هنا.» مشيراً إلى أعلى جبهته. «الكثير من أولادنا تعلَّموا القراءة والكتابة، لكن عائشة أمها وأبوها الكُتُب، كل حياتها

جرجرة لذاك الكتاب! أعني كحُرمة. الحُرمة لا تكون حُرمة إذا ما كانت أرض بيارة، تقبل تتشبع برَاجِلها. عائشة ما كانت بيارة، يعلم الله ورق، ما كانت حقيقي، ماهي تراب، وهذا ما فرَّقَ أمعاءَ ولدي شرقاً وغرباً.» خلا جواب النزَّاح من أي أثرٍ لحقدٍ أو لومٍ، «وطبعاً كانت الناجية الوحيدة في حادث أهلها.» خَفَقَ فرحٌ بصدر ناصر ألا تُمسَّ عائشة، «أتُصدِّق، كانت تنام على الكتب! بحر من الكتب مخفي تحت فراشها.» جلس الرجل جنباً إلى جنب مع ناصر غير واعٍ بهالة العَفَن الفاترة تُحَوِّطه، شيءٌ بأحشاء ناصر استجابَ لتلك الرائحة الكَمينة،

«زوجتكَ أم أحمد، كانت حاضرة حول الجثة..» تأمل النزَّاح في وجه ناصر كمن يَشْتَمُّ رائحةَ عَفَنٍ في سؤاله، كمن يُخَمِّر له تُهمة، لكنه أجاب:

«أم أحمد، حماة المُعَلِّمة، مُطَيِّبَة أرواح، حاضرة عِنْدَ كُلِّ جُثَّة، عقبال عندكَ، الجماعة (يقصد: زوجته كوثر) غَسَّالَة موتى..» صَدَمَت ناصر تلك العبارة، ظَلَّ مُحَدِّقاً في النزَّاح. كَتَمَ ضحكة من قِرَان النزَّاح بالغسَّالة، هذا ما يمكن تسميته بالاكتفاء الذاتي.. أو بالتنظيف الذاتي.. أو إعادة التدوير الذاتي.. جَرَتْ تلك المترادفات الهستيرية برأس ناصر.. فأي مدينة قد تستغني عن أصحاب الحِرَف إلا هاتين الحِرْفَتين لكيلا تغرق في أوبئتها وتَحَلُّلها الذاتي...

«ابن آدم ضعيف..» تجري عينا النزَّاح على ضفتيٌ الزقاق ببَشَرِه وحوانيته المُكَدَّسة بالأغذية وأدوات الطرب والمواد الاستهلاكية، «كُلّ ذلك آخرتُه على دَكَّة الغُسْل أو في بئر الصرف...» امتدَّتْ يد النزَّاح تُحْكِمُ تثبيتَ الخرطومِ للخَطَّاف بمؤخرة الصهريج، وبحركةٍ تلقائيةٍ مَسَحَ وَسخَ يديه بفوطته الجديدة، وتركَ غَبَرَةً على أرجوان الفخذ.

«كل هذا سماد للأرض..» مشيراً إلى جسده ككل. خُيِّلَ لناصر أن تشوهاً ما يُخاتله بجسد النزَّاح، رغم وسامته وعُرْف الشَّعْرِ الفاحم على

جبينه، مثل حَدْبَةٍ تَركَبُه لكأنه من كائناتِ العذابِ التي تظهر للميِّت في قبره لابتلائه! قَاوَمَ تلك الفكرة، وتساءل عما يَدْفَعُ رَجُلاً لتلك المهنة في عَصْرِ التقنيةِ والمجاري العمومية، وفي مدينةٍ هي العاصمة المقدسة؟ تَصَبَّبَ ناصر عَرَقَاً بينما لم تَمَسّ الحرارة النزَّاح الذي استجاب للاهتمام الرسمي بمهنته فمضى يحكي، حَدَّثَه بشكلٍ عامٍ عن المباني الحكومية التي يقوم بنزحها، وحصل منه على إحصائيةٍ بعَدَدِ المرَّات التي ينزح فيها أكبر بيوت أبوالرووس: بيت اللبَّان المعروف بعمارة الجامعة العربية، «ننزحها يوماً بعد يوم، بمعنى، مئة ريال للصهريج، ألف وخمسمائة ريالٍ للشهر، وأُعطيهم تخفيضاً بمئتي ريال، فيصير برازُهم الشهري بألف وثلاثمائة ريال. أنت تعلم، الداخل والخارج لجوف ابن آدم بفلوس...» شعر ناصر بحرج أن يَتَوَقَّع منه النزَّاح أن يُسجِّل كل تلك القذارة في ملفات التحقيق.

«نَصَحتُهم يعزلوا بيارة القبو عن بقية العمارة.. الله أمرَ بالسِّتر.. أنتَ تعلم، لن يستر ساكنته الخيّاطة التركية وزوَّارها إلا المجاري العمومية..» لم يعِ ما يرمي إليه النزَّاح بتكراره: أنت تعلم؟! من جلستهما مفترشين تلك العتبة تأمَّل في عمارة اللبَّان التي تزامنت المنازعات على ملكيتها مع اكتشاف الجثة، بنوافذ قبوها المفتوحة كعيونِ جان على الطريق، وكان طفل ينبطح أمامها على أرض الزقاق، يتلصَّص للقبو على الأشباح التي لا تزال تلعب أدوار الفتيات اللواتي جلسن تحت تلك النوافذ، بخصلاتهن المدهونة بزيت جوز الهند تتهدَّل على خرائط الطرازات والقياسات، يتلقين عن الخيّاطة التركية فنونَ بهرجة الجسد! فَكَّر النزَّاح أن جسدَه لا يتلاءم مع الكسوة، ولا حتى مع الكفن، وأنه أكمل ما يكون حين ينفرد شِبْهَ عَارٍ في الظُّلمات يَنزحُ بيَّارَة، وتَنْفَذُ إلى مسامه أرواحُ حقيقةِ الجسدِ ومخلفاته، والآن وبموتِ أُمِّه معتوقة اكتملت وحدتُه،

«ربما لن تَجِدَ لديَّ ما يضيف إلى التحقيق، انظرْ إلى أولادي،

يوسف كان مُحِقّاً حين هاجمني في جنونه، للآن كل من أنجبتُ من الذكور طار، مؤخراً مسفر وقبله أحمد البكر، تَبَنَّاهما قريبٌ ليُؤَمِّنَ لهما حياةً نظيفةً خارجَ البيّارات. . .» شَعَرَ بأنه قد أدلى بما هو خارج القضية، لكن عين المُحَقِّق ناصر لَمَعَتْ وراء الخيط الذي يُمَثِّله أحمد في القضية، فهناك ما يكفي من الشهود الذين سجَّلوا مرورَه الخاطف بالزقاق ليلة الجثة. من اليسير اتهامه بالقتل، أراد أن يسأل ما إذا كانت زوجتُه كوثر قد تَعَرَّفَتْ على كنّتها في جسد الجثة، لكنه خاف من الإجابة! قال:

«أحمد يعيش في الخارج، هجر عائشة لما يقارب العامين، في الشهرين، عمر زواجهما، يروِّجُ الزقاقُ بأنه كان يضربها، مما يُرَشِّحه للاتهام ويُرَشِّحها لأن تكون القتيلة. .» أجاب النزَّاح:

«عائشة رَوَّحَتْ مع أحمد. .» يستدرك «لا بُدَّ أن تروح معه. . زارنا قبل الجثة. . عاتبتُه وشدَّدتُ غضبي من هجره لعائشة. وَعَدَني بأن يضعَ حَدّاً لفرقتهما. . وولدي عندما يقول يفعل. .»

ما يُعَقِّد القضيةَ أن هناك غياباً أكبر من الموت، وليس المحور القتيلة بقدر ما هو التباس الهوية، هوية عَزَّة وعائشة والجثة، أمامه كتلة مؤنثة مهشمة، من العسير فَصْلُ المقتول فيها عن المختل العقلي وعن الذي صَفَقَ الأبوابَ بوجه أبو الرووس وفرَّ، أمام ناصر هذا التَّحدِّي في أن يفصل الـ DNA الروحي لتلك الكتلة، لينفي تلك الصِبْغَة الانتحارية والهشَّة عن عَزَّة، يمنحها لأيِّ بنتٍ بأبوالرووس، ويستثني عائشة أيضاً، بحيث لا يلفت الأنظار إلى تلك الجالسة بقلبه تُحَدِّثه بذاك القُرْبِ الذي لم يُعاينه مع امرأة من قبل. . بل لم يُعاينه مع بَشَر من قبل. . . .

«وعَزَّة ابنة الشيخ مُزَاحِم، أين ذهبتْ؟ هل لديكَ فكرة؟» تَابَعَ المُحَقِّق نظرةَ النزَّاح إلى حُجرة عَزَّة الخاوية وحانوت أبيها الشيخ مُزَاحِم، وكان ذَكَرُ حَمَامٍ يدور على ذاته راقصاً رقصة الحُبِّ أمام أنثاه الشاردة بين عسكر السطح، يطير من بيته الخشبي على تلك الخرابة ويرجع.

قَاطَعَ النزَّاح تفكيرَه ضاحكاً: «لا يطلبونني للنزح إلا ربما مَرَّةً أو مَرَّتين في العام.»

«أيرجع ذلك لبُخل الشيخ مُزَاحِم؟»

«لأن مُخَلَّفاتهم لا تُذْكَر! في تلك الدار بنت مدفونة في الورق ورسوم الفحم، بينما أم يوسف المرأة الخمسينية تُحيي نصفَ وقتها في الأعراس، تصبُّ الشاي وتشرب، تلك امرأة ملفوفة بأوراق الشاي والنعناع، وبأوراق ابنها يوسف! أما الشيخ فالخارج منه لا يُساوي عُشْرَ الداخل، يحيا على التمر والقهوة المُرَّة، قُصْر الكلام: نباتيون... خارج إطار عملي.» نَظَرَ ناصر إلى النزَّاح بصفته الكائن خارج الحياة، يَتَطَفَّل على طقوس الحياة، مثل عوامل التعرية أو الشيخوخة، مثل المرض الذي يَنزَحُ نِقَاط الضعفِ في العجينةِ البشرية، مثله مثل الموت الذي يكشط وجهَ الأرض ليهيئها لمواليد جُدد ولموتى جُدد.

«ألم يُساوركَ الفضولُ بشأن القتيلة؟»

«ولا حتى وَقَعَ بصري عليها.» وكساه شعورٌ بالذنب، «هذه من حُرماتنا، نغضُّ أبصارنا لأقدامنا حين يتقدَّم خيالُ حُرمة..» لَفَحَتْهما ريحُ السموم، حَرَّكَ النزَّاح يده كمن يطردها، «مع كل هذا الاختناق والسموم، ما الغريب في أن يتورَّم دمَّلٌ وينفجر بين يوم وليلة بأبوالرووس؟» وللحال تراجع، « غريب ابن آدم!» التزم ناصر الصمتَ ليسمح له بالاسترسال، «في الأعياد تتضاعف مُخَلَّفَات ابن آدم، وأنا أُضاعفُ كسبي، لا أمانع الخروج في العيد للشفط، لأنها مُخَلَّفَاتُ بَهجةٍ وإن صُبِغَتْ بالجشع...» لم يستطع المُحَقِّق مسايرته وعاد يقود الحديث لأحمد:

«ابنكَ أحمد يقولون إنه مُقَرَّب من جهاتٍ ذاتِ شأنٍ..»

«أنا مثلاً لن أُحِبَّ شَفطَ مُخَلَّفَاتِ بيتٍ يسكنه أحمد، أحمد قلبُه طافحٌ بالمساومات والصفقات، والوساطات... كل إخراجاته تفوح

برائحةٍ واحدة: خمائر أطعمةٍ لم يعرفها أبوالرووس قط! قد لا يعنيكَ الأمر لكنني بمزاج حين أختار زبائني..»

«فماذا لو احتجنا إليكَ لشفط مُخَلَّفَات مركز المباحث الجنائية؟»

ضحك النزَّاح،

«أما مركزكم فلا تلمني لو اعتذرتُ. ففي الغالب جدران بياراته مُبَطَّنَة بالنووي، والكيماوي، والمُسَلَّح..» ضحك ناصر، وعمَّ بينهما صمتٌ، تأمل النزَّاح في إنصات المُحَقِّق مُتعجِّباً، وأكمل:

«كان يجب أن تشهد موجة الوجبات السريعة، بوسعكَ أن تنزح البيارة أَلْفَ مَرَّةٍ ولا تُفارقها رائحةُ وجبةٍ سريعة، وبالذات البُرجر.» قَاطَعَه المُحَقِّق:

«ومن لديه الدافع للقتل في هذا الزقاق؟ من يمكن أن يكون القاتل؟»

أجاب النزَّاح:

«أتسمع عن الاكتئاب؟ سمعنا به مؤخراً، يخرج من بيارة عمارة اللبَّان، حين أخذتْ زوجةُ العشي أم السعد ربيبَها تيس الأغوات إلى الطبيب النفسي، قالت: مريض بالاكتئاب، وأننا يجب ألا نخجل من المرض النفسي. بعد شهرٍ وحين شفطنا البيارة كان لبَخْرِها بُخَارٌ كالعَلْقَم، تلك الحبوب المُسَكِّنَة تُعْطِي لمُخْرَجَات الأمعاءِ حموضةً، تجعل الحشرات تدوخ بلا مبيدات. حتى نحن النزَّاحين، ما إن نتنشَّق تلك المواد الكيماوية حتى تصيبنا بثقلٍ في اللسان ورجفة ورفَّاصات للوجه والأطراف..» تساءل ناصر عن سلامةِ مُخْرَجاتِ النزَّاح العقلية، تأمَّلَ النزَّاح في وجه المُحَقِّق، ثم قال فجأة:

«يبدو أنكَ رجل مُتَنَوِّر يا سعادة المُحقِّق، فبعد غيابِ يوسف فَقَدنا من يستمع إلينا.. يوسف أكبر مُتعلِّم في أبوالرووس.. يفهم لساننا ويتكلَّم عنَّا جميعاً.. هو مرآتنا، حين فقدنا صوابنا هو الذي طلع إلى مستشفى شِهار وتَلَقَّى الصعقات الكهربائية عنَّا جميعاً. صواعق للدماغ

دُغْري.» مضى النزّاح بجوعٍ للكلام، وترك له المُحَقِّق الاسترسال في شَدِّ الخيط الذي يقود إلى يوسف:

«يوسف مثلي، ينبش في أبوالرووس، تعرف؟ لأن في بعض الرؤوس نفس الذي في البطون، وينشر في الجريدة المُخَلَّفَات ويُسميها التاريخ البشري، قال لنا، وخَصَّني بحكايته عن الثورةِ التي قام بها العَسْكَرُ والعَامَّةُ بمكة في عهد الشريف محمد بن عبد الله، حين ساقوا المفتي والعلماء ووزير الإمارة للختم بإخراج الشيعة من مكة عام 1144هـ بتهمة تلطيخهم للكعبة، حيث في مذهبهم لا يتم حَجُّهم إلا إذا لَوَّث الحَاجُّ الكعبةَ. إن ما ظَنُّوه نجاسةً هو في حقيقته خضروات عُجِنَتْ بعَدْسٍ وأدهانٍ تحلَّلتْ تحت شمس مكة. . يا سيدي المُحَقِّق، ما هي المخلفات إن لم تكن ما يُسيِّل لُعَابَنا ونتدافع وندفع الغالي والرخيص لنحشي به أفواهنا لينتهي إلى أجوافنا ويخرج من فتحاتنا عاليها وسافلها؟!» اندفعَ صوبهما ابنُ النزّاح الأصغر -عمره عام - ليتَعَلَّق برُكْبَةِ أبيه، وطَبَعَ بشفتيه ولعابه الموضعَ المُتْرَب من أرجوان الفوطة، اخترق الطفلُ ناصرَ بنظرة، ثم بفانيلته المهترئة وسروال البذلة الرياضية البرتقالي رَكَضَ الطفل يَتَعَثَّر بطول الزقاق، مُتَفَادياً الدرَّاجةَ النارية الميتسوبيتشي المُحَمَّلة بأعوادِ قَصَبِ السُّكَّر في طريقها للشقِّ بين حانوتين (حيث بائع القَصَبِ يُقيمُ آلَتَه ويرصفُ الأكوابَ البلاستيكية الصفراء على رفٍّ قصيرٍ أسفل الطاولة، ويخبئ السطل الذي يشطف فيه تلك الأكواب سريعاً بعد كلِّ زبونٍ) تَجَاوَزَتْه الدرَّاجةُ وفي أذيالها الصغار حتى إذا تمهَّلت اختطفوا عودَ قَصَبٍ وركضوا به، للمحةٍ تردَّد الطفلُ أن يتبعَ عودَ القَصَبِ أو رائحةَ الدجاجة المشوية يلتهمها زبونٌ في المقهى. حين حَسَمَ أمرَه كان عاملُ المقهى يُنَظِّف الطاولةَ، وحين وَقَفَ له بين قوائمها ألقى له بجناح الدجاجة، وكَقِطٍّ تَرَاجَعَ يمضغه. راقبه النزَّاحُ بحنانٍ، ابتلعَ ريقَه. قال بعد صمت: «أحياناً أَشُكُّ في جدوى مهنةٍ كمهنتي في زمانٍ كزماننا. .»

«بسبب المجاري العمومية؟» تأمَّلَ فيه النزَّاح ثم هزَّ رأسه موافقاً.

بمُوَاجَهَةِ تلك الملامح المُفْرِطَةِ الحِيَادِ كَتَمَ ناصرُ الخاتمةَ التي خَطَرَتْ له فجأة بأن: لا حاجة إلى النزَّاح في الجَنَّة، (ينتفي مفهوم المُخَلَّفَات) في ذلك الوجود الفردوسي حيث لا شيء قابل للاستهلاك والهضم والعَفَن والتحلُّل، هل لأن الباقي هو النور؟

فساد

«لا عَفَنَ في الجَنَّة!» قالها المُحَقِّق ناصر مُوَدِّعاً.

لم يرجع المُحَقِّق ناصر إلى مكتبه، شَعَرَ بحاجةٍ شديدةٍ إلى العودة لشقته الصغيرة، حين أغلقَ البابَ وراءه أخذَ نَفَساً عميقاً وتَوَجَّه إلى الحَمَّام، خلع كاملَ ثيابه وألقاها في سَلَّة الغسيل، وجَلَسَ ليقضي حاجتَه. أطلقَ ضحكةً عالية فهو اليوم أكثر وعياً بما يخرج منه: «مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد..» لم ينسَ أن يغسل يديه بالديتول قبل أن يُباشرَ رسائلَ العاشقة، ففيها إنسانيته وفردوسه.

عائشة / رسالة 8:

الزمن هنا حفرة.

أقفُ على سريري لأبلغ النافذة المسدودة بجهاز التكييف.

ومن الثقب الطويل أنظرُ إلى الزقاق...

مثل قنفذ تُغَطِّي ظهرَه أطباقُ البث الفضائي.. هذا التوق الجماعي للإفلات..

كم نخسر حين نحيا ونموت في نفس البقعة ونفس الزقاق ونفس رائحة أنفاسنا، حين لا تختلط بلُعابِ الآخرِ؟ ذرة أوكسجين وذرتا نيتروجين (اعذرْ تحريفي للمقادير) هي ما يصنع الماء.. أنا لم أصنع مائي حتى الآن...

مُرْفَق 1: صورة.

هذه جميلة؟ مُسَمَّرة على باب حانوت الشيخ مُزَاحِم.

ثوبها لم يَتَبَدَّل، زادت فقط بُقَعُ الدُّهن على الصدر، ومالت صفرتُه للشحوب، لو قَضَمنا جميلةَ لَفَاحَ كُركمٌ. كما تراها تمسح فمها بطرف الكُمِّ. ويمتد من ركن شفتيها خيط لعاب. البنتُ يَشرُّ لعابها ويُذَوِّبُ الأرضَ تحت قدمي الشيخ مُرَاجِم.

ملحوظة:

أتسمع هذا الغناء الصاعد من دهليزي؟ هذا معاذ ابن الإمام داوود.
كل ضحى يجيء ليغسل الدهليز. أقف بمبخرة خشب العود على رأس الدرج بينما يسكب الماء والدانات.
لأيامٍ أُعيدُ حَرقَ نفس القطعة المتفحمة الغليظة، مع أنه لا يجب قَلْبُ قِطْعَة العُود لكيلا تُفَوِّح الحريق.
يختم بأن يرشّ أمام البيت ليُرقِّد الظلال كما اعتاد أبي أن يفعل.

ملحوظة 2:

حين كانت عزة طفلة كان النمل يتكاثر على قماطها، لتُغَنِّي أمي حليمة بولَها السكري.. دائماً خجلتُ أن أسأل: تُرى أي مذاق لبولي أنا؟
ما إن بلغتُ حتى صرتُ أُطيلُ المكوثَ في الحمّام، أرقبُ جسدي بذعر هذا الذي يتفجّر خارج كل سيطرة، التكوّر الفاضح لصدري، وانجراف البطن لما يلي.. الآن وحين أعترف بذلك لعَزَّة تنفجر ضاحكة، «غريب، أبداً لم يُحرجني جسدي..» مما يدفعني للدفاع، «كان يجب أن أرقب جسدي لأخفيه، كان يخجلني أن يتحوَّل إلى امرأة، وحرصتُ ألا تلحظ معلماتي وأمي عاري ذاك.» تتاملني عَزَّة كتكوينٍ شاذٍّ، أفهمُ كيف لا تُحرجها خطورةُ جسدها، هي أشبه ما تكون بتكوين فطري للإغواء، الفتنة في مادتها الخام ما قبل الوعي. وكانت تُعزِّزُ تلك الخطورة، ترتدي الصديرية الصاروخ، التي تدفع بصدرها في العيون.. تُحَوِّر أي خِرَق تلبسها بالأحزمة التي تقصم خاصرتها وتدفع تدويراتها.. وحتى بدون أحزمة، وقفتُها بِحَدِّ ذاتها تصعيد للفتنة، بيديها على خاصرتها، أشبه بإعادةِ نحتٍ للفتنة النائمة بجسدها.. هل بوسعي القول إنّ لعَرَقِها نداء؟

ملحوظة:

اما زلتَ تفوح برائحة الحطب وإكليل الجبل؟ قل لي: أي أطرافك ألعق لأعرف مزاجك اليوم؟

قل لي أي سوادكَ غير قابلٍ للمَسّ لكي أبدأ بذاك المحظور...

هناك الكثير نتلذذه بينما ينضج الشواء ونطعم الأقمار والقطط..

اما زلتَ تسير حافياً في الحديقة؟ يوماً ما، وحين أُدَلِّكُ قدميكَ، ستنظر وترى في ماء الورد وفي البلل التي تتركه قدماك على حِجْري ويديَّ كم انكَ تُشبهني..

صلاتي الآن مثل بوابة تُفتح لكي تتسلل أنتَ، مثل جلسة ثرثرة وتَحَالُم معكَ.. لكانني أترقَّب اللحظة التي أكون فيها بين يدي الله لكي أوقفكَ أمامي لِنَعرض أكثر حواراتنا حميمية... تَخَيَّلْ!

التوقيع: عائشة.

دخان تفاح

غادر المُحَقِّق ناصر المبنى الذي يسكنه، ونظر في الفراغ حوله.

لأول مرَّة يريد أن يرى المكان الذي اجترَّ عقدين من عمره. هذا حي من الأحياء التي نشأت بعد طفرة النفط في العشرين سنة الأخيرة، ورغم حداثته فلقد تآكل، وتَوَزَّعَت المباني تحت الإنشاء هنا وهناك وما بينها وحشة وعزلة، حيٌّ لا يستحق نظرةً أخرى، كل مبانيه مُتناسخة وخارجة من رأسٍ بلا مخيلة، بنوافذها الضيقة، كل صف عمودي منها محصور في إطارِ اسمنتي يمتد من أعلى البناء لأسفله، من ثلاثة لأربعة صفوف تُغَطِّي واجهةَ كل عمارة، وتغطيها تعريقاتُ الألمنيوم المُذَهَّب. الشارع أشبه بجثة تنفخ بخاراً، بلا قدم تُحييها، فقط صف من العربات على الجانبين لِرُكَّابِ أشباح لا يظهرون لعين، تختفي عربةٌ هنا وأخرى هناك وتعودُ تظهر، بينما يُغطي الغبارُ حتى زجاجهم الأمامي.

تَفَرَّغَ ناصر لأبوالرووس في محاولةٍ ليكون جزءاً من الزقاق العابق بالأشباح القديمة وصخب حركتها وحيويتها التي تتحدى روتين ربع قرنٍ من الانضباط الآلي، الموات الآلي.

يجلس ناصر في المقهى بأبوالرووس، تأخذه مَشَاهِدُ المُسلسل التلفزيوني (صاحب السعادة) المُفَضَّل لربات البيوت يُصيبهن باكتئاب مزمن. أخذ نَفَساً عميقاً من شيشته، وتلذذ بمذاق التفاح المحروق، أصبحَ مُدمناً لهذا المُعَسَّل بينما يُدير حواراً مع هذا وذاك، يتأمل في معاذ الذي يظهر كلما لَمَحَه جالساً هناك، يقترب ويجلس إلى جواره صامتاً يشاركه المراقبة، أنا أبوالرووس لم أرتح لعبث ناصر برؤوسي الشابَّة، فبعد اعترافات معاذ الأخيرة طَوَّر الاثنان تلك الثقة الهشة، يشعر ناصر بأن معاذ يتهيأ لإخباره شيئاً، لكنه يتردَّد ويلجأ للحديث عن نفسه، لا يَتَحَرَّج عن سرد خصوصيات بيته، يبدأ:

استغرقتْ صلاةُ الفجر اليوم ربعَ ساعة، تلعثم خلالها أبي الإمام في الآيات، أقفُ وراءه في الصف، تُرَاجعه أصواتُ الحَفَظَة، يتمسك بالأصوات المُرْشِدَة، يتوكأ ويقرأ، في وقفته تلك يشرد ذهني، أتخيَّلُ أخواتي البنات، يفزعن مثلي لِتَفَلُّتِ الآيات من صدر أبي.. يعود لي صوتُ فَزَعِهِ:

«سيوقفونني عن الإمامة، لو فارقني القرآن.»

«شَابَ الشَّعر يا مولانا في خدمة الولد والمسجد.» ألمحُ أصابعه تنبشُ شَعْرَ أمي الأبيض، يُبَشِّـرها:

«كل بياض شعركِ هذا زائل بأمر الله. فقط اصبري، كل هذا احْتَسِبِيه أجر الثلاث والثلاثين سنة في الجنة.»

«ثلاث وثلاثين؟!!»

«هي أفضل سنوات عمر الحيِّ، عمر عيسى عليه السلام، رُفِعَ فيها للسماء، وفيها نُبْعَثُ سُكَّاناً للجنة.»

تسبقنا أُختي ميمونة إلى تلك الطَرَقَات المبكرة على الباب لينفتح الرزق على يديها كما يقول أبي. قبل انهيار أبوالرووس تعوَّدنا من تيس الأغوات أن يكون هو المُبَكِّر لبابنا:

«من أبي العَشِّي بحوش المضبي، فَرِّغوا القِدْرَ وهاتوها.» يخيب أملُ تيس الأغوات حين تمتد يد ميمونة لتناول القِدْرَ التي يُبَكِّر بها لسعدية، خبيثٌ تيس الأغوات هذا، بطرفِ قَدَمِه يحاول دفع الباب قليلاً لاستراق النظر إلى سعدية، التي بيد تفركُ عينَها المنتفخة بالرقاد وبيدٍ تنهمكُ في تفريغ الطبق في وعاءٍ، تتجنَّب ببراعةٍ طبقات الأرز المتفحِّم بقاع القِدْر، لا تعود تُميِّز الفرق بين سواد يديها والقِدْر، تكشط من هذا وذاك، تلك العطايا الصباحية تُؤَجِّجُ في جوفها غيظاً، تحلم في غفوتها بكُتَلِ الأرز قذائف تُصَوِّبها على المحسنين الذين لا يتذكَّرونهم إلا على حافة العَفَن، حسنات قبل افتتاح يومٍ جديد من كساد طبيخ البارحة، تغفو بعينٍ وبعينٍ ترقبُ الدودَ على مسارب الزَّفَرِ في أرضية الحمَّام الإسمنتية، طالعاً ملضوماً من الحفرة بين موضع القدمين، رائحاً إلى حيث لا تعرف.

«هو الدود الذي سيأكلكم حين ترقدون في قبوركم، وحين لا تتحصَّنون بالإيمان.» تكاد سبَّابةُ أمي تبقر تلك العلقات. تدفع سعدية بالقِدْرِ ليد تيس الأغوات ولـمَّا تجف بعد، لا يُطفىء بللُها رعدتَه، تهمس:

«جزاكم الله خيراً... جعلها في ميزان حسناتكم.» أعرف تلك الابتسامة التي تميل على طرف فمها حين تتخيَّل ميزان حسناتهم يرعص بالدود، حسب دسم وتَخَمُّر العطيَّة.

سأله ناصر:

«وأبوكَ؟» يكمل معاذ:

جدول أبي الإمام محفوظ، مع الضحى يكفُّ عن استدراجِ ملائكةِ الرزقِ بالأوراد، وبعد صلاة العشاء لتكثير أمَّة محمد بالأولاد، كل عامٍ

لأبي وَلَد، يُكَاثِرُ بهم الفقرَ والعَمَى. يسخرون منه في أبوالرووس، وبطرفٍ خفيٍّ، يحسدونه على أغلبية المقرئين في نسله. لا يجيء الثقلُ من تلك الكرش، وإنما من حزنٍ يشقُّ في الجبهة، حيث يَطَّلع على عذابات البشر، تؤمن سعدية أن أبانا يحفظ كلَّ آيات العذاب وكل تعريجات الكفر ومزالقه. ويشكو:

«شعلة عيني أطفأها داءُ السُّكَّري، السُّكّر كالكُفر. هذا يذهب بالبصر وذاك ـ أجارَنا اللهُ ـ يذهب بالبصيرة.» كلما غاص في المرض خطوة ودنا من الموت خطواتٍ تَمَسَّك في قلبه برهبة العذاب وفي رأسه بالحُورِ العِينِ ومن هناك يغرف حلاوة قرآنه ليُبطن قبره.

من موقعهما يلمح ناصرُ الإمامَ يدخل المسجد. يحاول معاذ أن يتوارى فلا يلمحه أبوه متسكعاً من رواد المقهى. حين يغيب الإمام يكمل معاذ:

لا تسترخي أساريرُ أبي إلا أمام ذلك الرفِّ المُحَمَّل بالمصاحف التي يُوْقِفها المحسنون في المسجد، أبي لا يُقاوم، ببصره الشحيح يتمهَّل ساعةَ الغروبِ يَتَفَحَّصُ المصاحفَ المنذورة للمسجد، يتشمَّم أحبارَها وجلودها، يَتَحَيَّن الفرصةَ لتغييب النادر وضمِّه لمجموعة رَفِّه العامر بمختلف أحجام المصاحف. يأتي أكبر إخوتي يعقوب، المقرئ في مسجد أم الجود. بنظَّارتيه بغلظة قعر الفنجان، يتناول مصحفاً من الرفِّ يمين الباب ويجلس مُقابلاً لأبي، ويكون علينا نحن أولاداً وبناتاً إكمال شطريّ الحَلَقَة لوصل قطبيهما.

«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له.» كلما جلسنا للحفظ تتسلقنا عينُ أبي التي تعمى، تستجدينا: (حين تَتَفَلَّت قطعان القرآن لملموها لصدوركم، والحقوني بها لقبري.) يُغمض إخوتي أعينهم ويتطوَّحون بالتلاوة، تصعد من قاع أعمدتهم الفقرية مُطَوِّحَةً لأجسادهم في طريقها لألسنتهم، تلحقهم خيزرانةُ أبي:

«لا تقرأ عمياني، ما دمتَ مُنْعَمَاً عليكَ بالبصر تَتَبَّعْ الآيةَ في مصحفك.» تنصبُّ أعينُنا على المصاحف في ملاحقةٍ يائسةٍ للآيات، ثم لا تلبث أعيننا أن تذبل وتغمض مُطَوِّحة أجسادَنا في نسخةٍ مُصَغَّرةٍ عن أبي.

«تيس الأغوات كان يحضر جلسات التحفيظ في بيتكم. يقولون كان عاشقاً لسعدية؟» ضحك معاذ:

بل لمِرْفَقها. أنا أول من لاحظ هذا. أجلس واعياً بهم جميعاً، أنا لي النصيب الأكبر من خيزرانة أبي، حين كنتُ أجلسُ بآخر الحلقة، خارجاً عن انتظامها، وحين أنظرُ جهةَ البابِ، وحين تعبث أصابعي بالحصير وببقع الضوء بوسط الحلقة، وحين أتركُ حنجرتي بوسط الحلقة تَتَشَرَّب الإيقاعَ، أُدَرِّبُ صوتَي، وحين لا يبدو لأبي أنني أقرأ الآيات وإنما أطفو وأتأرجح على موسيقاها وأُمَرِّرُ حلاوتها على حنجرتي، فتلحقني لليوم خيزرانةُ أبي وزمجرتُه تلسع:

«يا ولد إلزم التجويد.»

«أنتَ تُغَنِّي يا معاذ. . . .» قاطَعه ناصر ضاحكاً وتابع معاذ:

«بل أبكي. . أتسلَّقُ التلاوةَ لمقاماتٍ على سُلَّمِ النغم، وأستنبط من قواعد التجويد آفاقاً لصوتي.» أضاءت عينا معاذ وأضاف:

أختى الكبرى ميمونة كلما ارتفع صوتُها بالتلاوة يأخذ الدمع ينتثر وفقط من عينها اليمنى، ويُباغتنا جميعاً، لا يسيل الدمعُ منحدراً من العين إلى صفحة خدِّها وإنما يتناثر بعيداً ليسقط على قمة صدرها، وعلى كتف أختي الصغرى، تقول سعدية إن هناك ملاكاً يجلس بِمِرَشِّه في عين ميمونة ويأخذ يرشُّ الدمع الحلو علينا، ما إن تسقط دمعة على يد أبي حتى ينتفخ سعادة:

«الله الله، لا تَمَسُّ النارُ عيناً ذرفت لحلاوة القرآن، عيناكِ بإذن الله يا ميمونة لن تمسَّهما نارٌ.» تحتفظ سعدية بالدمعة المرشوشة على عنقها تُرساً من النار.

تَعَجَّبَ المُحَقِّقُ ناصر من تدفق أسماء البنات بسلاسة على لسان معاذ، متجاوزاً الخطوط والعادات. تأملَ معاذ في شاشة التلفزيون أمامه، وبعد صمتٍ أكمل:

«أحياناً أتساءل: ما الحياة لأخواتي، فمثلاً، التلفزيون لهنّ عجيبة، انظرْ..» يلفت نظرَ ناصر للمثلثات السود التي تتزاحم على باب حجرة الإمام، لأخواته البنات في عباءاتهن تنسدل من الرأس للقدم، قراطيس سود تتزاحم في الشق الرفيع لاستراق نظرةٍ لتلفزيون المقهى.

«وعندما يرقدن أتمنى لو أرى ما تحت أجفانهن، لأرى كيف يُفَبْركن الأحلام بلا مُوَصِّلاتٍ للأقمارِ الصناعية؟!! أسمعهن يتهامسن:

«من ستتزوج من أولاد الزقاق، لنقرأ عليه العِدِّية؟؟»

«تيس الأغوات؟»

«اسمه صالح لا تقولي تيس الأغوات..»

«يوسف؟»

«يوسف مخطوف.»

«مُشَبَّب؟»

«أبوك يقول فاسق..»

ولإعادة يوسف إلى الزقاق تنخرطُ ميمونة في واحدةٍ وأربعين قراءة لسورة يس، لتحملها كطوفٍ ليوسف.

سأل ناصر:

«عِدِّية ياسين؟» نظر معاذُ إلى وجه ناصر كأنما فاجأته معرفةُ الضابط لهذه الطقوس الغيبية.

«تعرفها؟!» وأجابه ناصر:

«مذ كنتُ طفلاً تُرعبني العِدِّية أخافُ أن تقرأها عليَّ بنتُ غولة لتقترن بي.» فجأة لم يعد معاذ يسمعه، استدار فجأة متابعاً الشيخ النحيل في ثوب

الصوف الأزرق والشماغ المرقط بالأحمر الذي ظهر بآخر الزقاق، تابع ناصر مرمى نظرة معاذ متسائلاً:

«من هذا؟!»

«الشيخ مفلح الغطفاني، صديق مُشَبَّب.» رَمَى ناصر بورقة الخمسين ريالاً، نهض وترك معاذ مذهولاً وأسرع وراء الشيخ، تبعه عن كثب حتى انتهى إلى بستان مُشَبَّب، تَمَهَّلَ قبل أن يقتحم وراءه، حين دخل كان الشيخ منهمكاً في نبش الرفوف، وتحت الوسائد:

«عمَّ تبحث في غياب صاحب البستان؟»

بدا الحَرَجُ على وجه الشيخ: «أبحثُ عن شيء يَخُصُّني.»

«أنا الضابط ناصر القحطاني، المُكَلَّف بالتحقيق في قضيةِ قتلٍ، وصاحب هذا البستان مطلوب للاشتباه في تَوَرّطه، وجودكَ هنا كافٍ لِضَمِّكَ إلى التحقيق.»

«اسمعْ يا سيدي المُحَقِّق أنا لا دخل لي بهذا الزقاق وأهله، لقد تركتُ عند مُشَبَّب هذا حجاباً وجئتُ أستردّه؟»

«حجاب؟»

«حجابُ فِضَّةٍ قديم، على هيئةِ عُلبةٍ مجوفة يُثَبَّت عادةً في الأحزمة، ورثته عن جَدِّي، واحتجتُ إلى بيعه لأشتري لأم العيالِ خاتماً من الذَّهَب..»

سأله ناصر: «وما الذي جاء به إلى هنا؟»

لمَعَت عينُ الشيخ وأجاب بقوة شكيمة: «مُشَبَّب جامع للتحف وأراد الحصول على الحجاب، طلبَ مني تَركه لديه ليدرسه ويُفَكِّر.. أقلتَ الرَّجُل هارب؟» الدهاء والشراسة في تلك النظرة تُحَدِّث ناصرَ بأن الشيخ يُلهيه بطُعْمٍ جزئي عن الحقيقة. تَفَحَّصه المُحَقِّق ناصر، لم يكن يحمل شيئاً، فقط تلك الابتسامة الخبيثة.

«ووَجَدتَ ما تبحث عنه؟»

«أنتَ لم تترك لي فرصة. هل تسمح لي بالانصراف الآن؟»
«هات عنوانكَ نستدعيكَ عند الحاجة، وتَوَكَّلْ لحال سبيلكَ. هذا المكان مُتَحَفَّظ عليه.»

معاذ / مستقبل غيبي

ذلك الضحى التقى يوسف بمعاذ على مطالع جبل هندي، حانوت (وَلَد الهِرْمَة) كان قد أُغْلِقَ وحَلَّتْ محله عمارةٌ جديدة بواجهاتٍ زجاجيةٍ وحوافٍ رخيصةِ التشطيب، وإعلان ضخم على الواجهة (شقق للإيجار) سخر يوسف من فكرة أن تلك العمائر لن تصمد للتاريخ.

اندفعا يرتقيان في الجبل بصمتٍ.. معاذ أولاً ويوسف يتبع، لا يريد يوسف أن ينظر إلى البيوت التي خَبِرَها حين كان يمرق مراهقاً بدراجات ولد الهِرْمة.. يضع عينيه في الأرض لا تَنْفَكُّ عُقدةُ حاجبيه.. لكن الأصوات تأتي.. أطفالٌ يضحكون كالوعول، يتسلقون ويتصايحون.. روائح الطبيخ تنطلق كأذانٍ من كلِّ البيوت الصغيرة في الآن نفسه.. أصواتُ النساء... ألسنةٌ عجماء بكلماتٍ مَكيّة، النوافذ التي تُفتح وتُغلق على عجلٍ، للفت نظر الصاعدين، مطرقة بعيدة تتداخل وأصوات صحون وملاعق، مذياع يبث مسابقات في الذكاء مباشرة على الهواء.. غناء وسعال.. حجارة تتدحرج.. أحياناً تتحدَّد درجات الجبل وغالباً تغيب.. وأوقفهما صوتُ معاذ:

«وَصَلنا..» رَفَعَ يوسف عينيه إلى ذلك الباب الخشبي القديم.. النقوش على هيئة محرابٍ على كلِّ ضِلْفَة.. والمطرقة مكان شاهد المحراب، على هيئة حمامةٍ طائرة تطرق بمنقارها صَفيحةَ نحاسٍ.. فوق رأسه امتدَّ البيت العريق الشامخ على جبل هندي، بأسطحه محاذية لقاعدة أسوارِ قلعة جبل هندي المربعة، من طوابق ربما سبعة، لم يُحصها يوسف

غاب في حِجارتها الصلبة من جبل أبولهبٍ. . . فجأة انتبه يوسف لحفنة المفاتيح التي ظهرت بيد معاذ، والذي تَنَاوَلَ أكبر المفاتيح بالمقبض على هيئة محراب. . برعشةٍ أولجَ في القفل القديم مثل حفرةٍ بجسدِ الباب وفَتَحَ. . . صَرَّ البابُ مُفْرِجَاً عن نفحةِ هواءٍ بارد. اقشعرَّتْ جلودُهم برائحة الهجر وذَرَّات غبار. .

«هنا يا يوسف يرقد كنزي. .» جَفَّ ريقُ يوسف، مُتَقَدِّمَاً في ذلك الدهليز الشاسع، بنوافذ المَجْلِسَين على الجانبين، لم يجرؤ على متابعة السقف الذي بلا آخر، بآخر الدهليز وعن يمينٍ ويسار درجات هابطة لأقبيةٍ ما. وبالصدر تنفتح السلالم العريضة. . .

إلى حجرةٍ بآخرِ الدهليز لليمين قاد معاذُ يوسفَ (كما سَبق وقادته صاحبةُ هذا البيت ماري) حين اصطحبه مُشَبَّب لرؤيتها، وآمَنَ يومها بأنه قد رأى ليلة القَدْر حين أرادتْ هذه المرأة أن يعمل لديها بدلاً من الباكستاني الذي سيترك خدمتها، «خادم ببيت اللبابيدي في جبل هندي. كانت هذه حُجَّتي المُخْتَصَرَة لوالدي الإمام قبل سنوات. أَقْنَعَه الأجرُ المعروض عليَّ وسَمَحَ لي بترك دراستي الثانوية. ما عرفتُه هنا هو ما كنتُ سأظل أبحثُ عنه طوال عمري. . .» سَبَقَه معاذ إلى داخل الحجرة الصغيرة، لحق يوسف وظهرت له عارية إلا من فراش على الأرض:

«هذه كانت مُخَصَّصة لي. .» أشارَ معاذُ وأكملَ:

«لا أحد سيبحث عنكَ هنا. .» وتَرَدَّدَ في أن يضع بيد يوسف كل المفاتيح. راوده أن يحتفظ بمفتاح الباب الخارجي، ومفاتيح الطوابق، لكن عَزَّ عليه أن يُفَرِّق بين تلك المحاريب المتقاربة للمفاتيح. على مَضَضٍ وَضَعَ المفاتيح بيد يوسف. . . بحسرةٍ تأمل الحجرة المتقشفة التي كانت سكناه طوال مدَّةَ عَمَلِه في خدمةِ (ماري) زوجة المصور اللبابيدي. (الله أكبر) فجأة شقَّتْ أولُ تكبيرة لأذان الظُهر في الحجرة، حَسَمَ الصوتُ تَرَدُّدَ معاذ فعاد والتقطَ المفاتيح من يد يوسف:

«تعال، سأُريكَ ما هذا البيت..» إلى صدر الدهليز تَبِعَه يوسف مُرْتَقياً الدرجات العريضة (لا يزيد ارتفاع الدرجة الواحدة على عشر سنتمترات)، أشبه بمَزْلَق، صعدا يُسابقان الآذان لآخرِ طَابِقٍ، لكي يبدأ، مع يوسف، من هناك الجولة، كما بدأ هو معاذ جولته الأولى بهذا البيت:

تداخلت ذكريات معاذ بمشاهدات يوسف الآن، حين بَلَغَ السطح كما بلغه أول مَرَّةٍ انفتحت الدرجات على حُجرةٍ: جدرانها الثلاثة مفتوحة للفضاء بالنوافذ الخشبية المنقوشة، أما الرابع فمفتوح على السطح بأقواسٍ مُطَهَّمَة من خشب السَّاج، لم ينظر أيٌّ منهما جِهَةَ البابِ، وإنما نظرا إلى طُوَّالات الدمسق المكسوة بالغبار الآن وزرق وريش الحمام، حيث لاحت في الماضي لمعاذ تلك المرأة اللبنانية، لا كبقية نساء الزقاق المُغَلَّفَات في سوادٍ، ولا كأخواته البنات الممصوصات كأعواد القرفة، امرأة لا من الحُور العِين لكنها تخلب، تُدَخِّن السيجار الغليظ، وتنفخ الدخان في دوائر، هكذا أول ما وَقَعَتْ في بصره...

وَقَفَ معاذُ بيوسف على مَدْخَلِ السطح في تلك الظُّلَّة بينما انفجرت حولهما عشرات المآذن ترفعُ الإقامةَ لصلاةِ الظهر... بدا لكأن السطح محمولٌ على تلك النداءات، ومعاذ يريد ليوسف أن يرى (ماري)، كما رآها هو في ذلك اليوم البعيد، حين صعد به مُشَبَّب إلى سطح بيتها يقودهما الصبي الباكستاني. ومن وقفته على باب السطح خَلَبَتْ وَعيَه تضع ساقاً على ساق، كانت في الستين ربما وإن بَدَتْ في الأربعين، ولم تلتقط عينُ معاذ المُرَاهِق شارات الترهل الطفيفة حول الركبتين، كل ما التقطه هو لمعة الجورب الحرير، يُكَيِّس ساقيها كعمودين من سُكَّر الجَنَّة مكشوفين للرُّكبة. وللمحةٍ اندهش أن تتجسَّد امرأة كهذه في دائرة الحرم، وخلفه تَوَارَبَ بابُ حجرةٍ بآخر السطح، ومن خلاله بدا حبل الغسيل في ظلمة الحجرة، وأدركَ أنها صور حُمِّضَتْ تُعَلِّقها لتجف لا يعرف من أي زمن..

بأعلى الدرج وَقَفَ معاذُ بيوسف أمامَ صورةٍ مُلْتَقَطَةٍ لصاحبةِ البيت، وعَرَّفَها له كما سَبَقَ وعَرَّفَها له مُشَبِّبُ:

«ماري..» يُقدِّم معاذ البورتريه بالتبجيل الممزوج بالخجل الذي يُقَدِّم به امرأة حاضرة حية،

«زوجة سيدنا اللبابيدي، المُصَوِّر المَكِّي الأقدم. والذي بدأ بالتقاط صُوَرٍ لمكة منذ أوائل القرن العشرين، وما زال حتى توفاه الله عن عمر يناهز المئة عام، سنة 1979 حين اعتصم جهيمان بالحرم المكي، وتَرَكَ لزوجته أرشيفه الموثَّق لمكة بالصُّوَر.» لم يعرف يوسف كما لم يعرف معاذ قبله سِرَّ زيارة مُشَبِّب لتلك المرأة الخارجة عن عُرف نساء مكة، باسمها المسيحي، ذلك الدين الذي خَلَعَتْه لترافق زوجها لدائرة الحرم المُحَرَّمة على غير المسلمين، لكنها لم تلج الحرم إلا بالعدسة المُقَرِّبَة لتلك الكاميرا المنصوبة على قوائم ثلاث خلف مئذنة الحَمَّام التركي، ومن أعلى سطحهم الشاهق بمحاذاة قلعة جبل هندي. التقاها اللبابيدي الستيني في بيروت حين كانت في الخامسة عشرة ووَقَعَتْ في حُبِّه، وكان ذلك الانجذاب حتمياً بين فتاةٍ وُلِدَتْ على أصداءِ قنبلةِ هيروشيما، والمكيِّ الذي وُلِدَ مع إطلالةِ القرنِ العشرين لِيَسْبِقَ عُمْرَه مُتَنَقِّلاً مع أبيه التاجر والمُحَارِب بين الحجاز وسوريا، وتتأجَّل حياته بحربين عالميتين، احترفَ فيهما التصوير والحياة والإيمان بمهديٍّ يختمُ الحروبَ ويقلبُ الصَحارى لعدن.

للحظةٍ غاب معاذ في افتتانه العميق بتلك المرأة كما تَصَوَّرَتْ له أول مَرَّةٍ وَقَفَ هذه الوقفة. كان من المستحيل لنظرةٍ مُرَاهِقَةٍ ـ كنَظْرَةِ معاذٍ القادم من زقاق حينها ـ أن تُلِمَّ بالتناقضات وحركات النضال والتغيير والعشق التي صاغت ذلك الصنم الأنثوي، لكنه ارتعد بفطرية حين نَهَضَت ماري بحركةٍ انسيابية، فكَّرَ أنه لو التقط لها صورة فستظهر على هيئةِ قطرةِ ماءٍ سائلةٍ من قبعتها الصغيرة من الموسلين المُنَشَّى. سارت أمامهما

لتقودهما هابطة درجات بيتها القديم الشاهقة، وَلَجَت بهما إلى مجالس مُتفرِّعة من مجالس أقرب للحلم، وحجرات خلفية (مَخْلَوَانات وصُفَّات)، كلما هبطت بهما ماري طابقاً سَبَقَها الخادم فاتحاً أبوابَ مَجَالِسِه الشاهقة الأسقف بعقودها المدورة، مُتَوَّجة بمنحوتات الحَمَام تحمل المرايا على جانبي كلِّ عَقْدٍ تَنْفضُ ذاكرتَها المحدودة لتعكسَ ذاكرةَ المدينة المقدَّسة عَبْرَ مئة عامٍ، بيت شاهق بعمر ثلاثمائة عام خلا من أوائل القرن فلم يُسْكَنْ بِبَشَرٍ وإنما بصُوَر من مختلفِ الأحجام بالأبيض والأسود تُغَطِّي الجدران من الأرض لأحزمة الأشعار المُذَهَّبة والمُحَزَّمَة لسقوف المجالس، تاق معاذ لأن يُصَوِّر ليوسف ليس فقط تلك المرأة وإنما تلك المرأة في حَالَةِ حَرَكَةٍ، في فيلمٍ متحرِّك، لتقود يوسف كما سارت أمامه يومها تقوده:

في الطابق الأعلى عَبَرَ معاذ مع مُشَبَّب ـ كما يعبر بيوسف الآن ـ في صورٍ لصحنِ الطَّوَاف بالحرم، مَشَاهِدَ من كل الأزمنة لدوامة الحركة البشرية في صحن الطواف، نقاط لا نهاية لها من رؤوس غارقة في الحَجَرِ الأسود، أو ساجدة متزاحمة في الحطيم، أو متعلقة تستجير في المُلْتَزَم أو تغتسل بدلاء زمزم وصلوات التهجُّد، تتكرَّر وتتنوَّع عبر السنين إلى ما لانهاية، قيامة عَصَفَتْ بكيانه، وشعر بها في كيان يوسف الآن لرؤيته للصحن الذي ظن أنه قد ضيّعه.

في الطابق الذي يليه وقف معاذ ـ كما وَقَفَ مُشَبَّب قبله ـ على باب المجلس، مُتِيحَاً ليوسف الانفراد بصورٍ نادرة لهندسة الحَرَم منذ بدايات القرن العشرين، قبل التوسعة والإزالة، لبئر زمزم وقُبَّته، وبوابة بني شيبة، ولمقام إبراهيم الذي هو مقام الإمام الشافعي، والحطيم أو الحِجْر، ومقام الحنفي والمالكي والحنبلي. والمباني التي تُجاهد للإطلال على ذاك الصحن: قصر الحكومة أو الحميدية، وقلعة أجياد بمستوياتها الثلاثة وأبراجها الخلفية، ومكتب الوالي بمنارتيه وقبابه الثلاث.

في الطابق الذي يليه صار يوسف ـ كما صار معاذ قبله ـ مُهَيَّئاً للتماهي بمَشَاهِد لمكة وناسها السائرين بالأحياء القديمة (جبل الترك، وجبل الهندي، وحارة السليمانية من الأفغان، وزقاق المغاربة، وزقاق البخارية، ومستعمرات الأفارقة، والجاويين، والأكراد، والسند، والشام، واليمن وحضرموت)، شَبَكَةُ أَزِقَّةٍ مثل أبوالرووس غاصَّة بوجوهٍ لم يَعُدْ يوسف أو معاذ يلتقي مِثْلَها كلَّ يومٍ في طريقه، أولئك الصبيان سود وبيض وبعيون مشقوقة يلعبون حفاة، والعبيد الذين يُشَكِّلون فرقةً تلعب على الطنبور وترقص بخشاخش الأظلاف والخشب، ووجوه التجار الهنود بالجُبَبِ السودِ على الثياب البيض يساومون الضباط الأتراك بالأحزمة والسيوف المُرَصَّعَة، وإبل (الهَجَّانة) مُلَبَّسة بالأوشحة المطرَّزة بالفضة، والابتسامات الملمومة لأطفال الأشراف ـ من نسل النبي عليه السلام ـ في جُببهم القصيرة تظهر من تحتها الأحذية عالية الرقبة مُحَزَّمين بالذَّهَب والفضَّة، مُعَمَّمين بالكوافي كالطرابيش التركية مُرَصَّعَة بتنجيم اللؤلؤ. أو أطفال الوالي والأعيان الأكثر جدية في المشالح المُحَزَّمة بسيور الرصاص والخناجر المُرَصَّعَة بالجواهر الكريمة. أو أطفال بني شيبة سَدَنة الكعبة، بمسحة الجلال في الثياب المُقَصَّبَة والجُبَب المُوَرَّقة والعُقُل المُذَهَّبة. والمؤذنين الراجعين بنسبهم لابن الزبير، والتجار مع عبيدهم الشراكسة، والنسوة المتكئات في البساتين يدخِّن الشيشة، أو يعبرن الشوارعَ على عَجَلٍ في الأوشحة السادرة المقلمة بالقصب مبرقعات بالأبيض المُخَرَّم بجنيهات الذهب عند العينين. والعرائس المكيات تحت أشواط عقود اللؤلؤ، والحُجَّاج من الهند وبغداد وكابول والبحرين ومَلَقَا وباتجان وسامباس (بورنيو) وجاوة وسومطرة وزنجبار. والدروايش من بُخَارى بثيابهم القصيرة بأحزمتهم العريضة والقبعات المخروطية المُحَوَّطة بالفراء في قيظ مكة، يحملون العصي ويشخللون حلقات المفاتيح التي يفتحون بها السُّبل والأرزاق أينما ساروا. وطُلاب العلم من اليمن بطبولهم

يرقصون كلَّ الطريق للبيت الحرام لكسب الرزق لتمويل إقامتهم وتَلَقِّيهم لعلوم الدين بمكة.

بعنايةٍ وكلما غادروا طابقاً كان معاذ (يُقَلِّد حركةَ الصَّبيِّ الباكستاني الذي كان حارساً لهذا الكنز قبله) يُغَلِقُ وراءَ يوسف فلا يدع له مجالاً للرجعة للتَّمَلِّي في عَقْدِ الزمانِ الذي مَضَى مِنْ مكة (كل طابقٍ لوجه من وجوه مكة)، مستشعراً أنهما كلما ابتعدا عن الطوابق العليا استلمتْه غُربةٌ، إذ وكلما انحدرا لطابقٍ تراجعتْ روحانيةُ مكة: توسَّعَتْ الأزقةُ القديمة وقَشَعَتْ حجارتها التي ترصفها بالمياه التي تجري من خلالها لترطيب مكة، حتى إذا وصلا الطابقَ الأرضي فَقَدَتْ البيوتُ رواشنَها السَّاج بينما واصلت الخوارجُ نضالها لفتح البيوت المهجورة للسماء ليسكنها الفقراء، وبدأت سفوح الجبال تتآكل لتُفسح مجالاً للإسفلت يشقها، حتى لم يعِ يوسف ـ كما لم يع معاذُ قبله ـ ما إذا كان قد لُفِظَ للطُّرقِ التي يعرفها لمكة الحديثة أم ما زال ضالاً في صور اللبابيدي وزوجته ماري. حينها نظر معاذُ بحَدَقَةٍ مُتَوَسعةٍ إلى يوسف، في تلك النظرة أراد ليوسف أن يعرف أنه رأى، وأراده أن يرى، كيف تحوَّلَ العالم حوله إلى كادر مستطيل، يكشف الشفرة الحادة التي كَشَطَت بيوت الحَجَر القديمة وتَرَكَتْها مُعَلَّقَة بسلالم وأقدامٍ غادرت، بذكرى رواشن تَتَرَدَّد بين أن تهوي أو تأوي إلى حلم عميقٍ، بذكرى مَجَالس انشقت جلستها بحيث بَقِي مُتسمِّراً في الهواء طَرَفُ مِسْنَدٍ هنا وساق سامرٍ ربما وتهويش أوتار عودٍ نهشتْ موسيقاه الجرافاتُ وبقايا ضحكةٍ هناك. صورٌ يفترشها الإسفلت، الإسمنت، الألمنيوم، للنوافذ الضيِّقة تُزاحمها أجهزةُ تكييف.. (وقف معاذ بيوسف أمامَ حجرةٍ مدسوسة لصور اللبابيدي بالطابق الأرضي / حيث سمحت له ماري بِضَمِّ لقطاته بالأسود والأبيض لمَكَّتِه التي ظلَّ يلاحقها في الرَّمَق الأخير / صور لتلك المرحلة من عمل معاذ هنا) في وقفته كان بوسع يوسف أن يرى كيف كان معاذ يركض بين الصور، بدت صُوَرُ المجلس الأرضي تغوص بهما

لحفرةٍ، حولهما تحوَّل قلبُ مَكَّة إلى صحنٍ مرصوف بالرخام طامساً سوق الصغير وأسواق المسعى والمُدَّعَي وسوق الليل ورَحْبَةِ بابِ السلام (جنوب شرق) الذي يدخل منه الحُجَّاج إلى الحرم. لم يعد للرحبتين من وجود، صحن كقاعِ حفرةٍ كونية تتعالى حولها الأبراج الزجاجية عَاضَّة في لَحْمَةِ ما بقي من الجبال العارية. في تلك الحفرة اختفتْ وجوهُ المكيين الطالبين للعلم ولجوار الحرم، وحَلَّتْ محلها وجوهُ الباعة المرتزقة ينسلّون من كلِّ حَدْبٍ وصَوب، في حوانيت منظومة مثل حبَّات مسبحة تتلقَّى المُقْبِل على مكة من بابها المفتوح على مقبرة الشهداء وأم الدود، وبطول طلعاتها وحفائرها، انبقرتْ مجالس البيوت لتوطِّن مكعبات زجاجٍ لملابس صنع تايوان والصين وكوريا، توارت البسطات الطارئة للكوافي والثياب المصبوغة بالزعفران والمطرزة بالأصابع المكية. لتتوالى المطاعم والبقالات وبسطات كل ما يؤكل على عَجَلٍ ويُشرب، بين جبال غالونات الزمزم البلاستيكية البيضاء مكومة للبيع بأحجامٍ.

واقفاً في ذلك الدهليز البارد، أدرك يوسف ـ كما أدرك مُعاذ قبله ـ أنه يتحرَّك في وجودٍ محظور، في ملجأ مُقَدَّس، حيث مكة القديمة لملمت تاريخها وناسها وبيوتها الحجر لتلجأ هنا، لبيت اللبابيدي. وهو اللاجىء/ المُشَرَّد/ إليها.

عَرَفَ يوسف أن معاذ قد سَبَقَه إلى هذا العالَم الذي قَضَى هو عمرَه يُحاول بفوضى أن يَلُمَّه في كلمةٍ. . وها هو مُخْتَزَل هنا في الصورة.

ابراج البيت

منذ ليلة البارحة يعاني ناصر من ضيق، يشعر ليس فقط بكونه مُرَاقَبَاً وإنما بأن هناك من يُوَجِّه حركاته، كما لو بوساطة جهاز تَحَكُّمٍ عن بُعد. . يُفكِّر عنه ويقوده لنبش أحداثٍ ووجوه نسيها حتى أبوالرووس ذاته. . ليس

فقط يوميات يوسف ورسائل عائشة، وإنما يشعر ناصر بكونه محبوساً ضمن أُحجية، وهناك لاعبٌ ما يُحَرِّكه كقطعةٍ أساسيةٍ ضمن قطع الأحجية، هنا وهناك لكي يُعيد بناء أو هدم تلك القضية.

هذا الصباح قادَه لاعبُ الأُحجية لتَتَبُّع هذا الخيط الذي لم ينقطع كل خميس في نافذة أم القُرى بقلم يوسف. فلقد تحوَّل يوسف إلى شبحٍ يُباغتهم بالإطلال من زاويته بأم القرى، يُراسل صحيفته عَبْرَ مقاهي الإنترنت المنتشرة بمكة. مقالته الأخيرة كانت قد مُنِعَتْ، لكن المُحَقِّق ناصر قد تَمَكَّن من قراءتها حيث تَسَرَّبتْ إلى موقع (الساحات) الإلكتروني، مُنْتَدَى المُشَرَّدين العصاة على الشبكة العنكبوتية، بالبروكسي الخاص يشعر ناصر بتَفَوُّقٍ، فبإمكانه الاختراق إلى ما وراء جهاز مُكافحة الرسائل الاقتحامية، نظام المكافحة والجرائم المعلوماتية، وعبارة:

(الموقع غير مُتَاح.. إن كنتَ ترى أن هذه الصفحة ينبغي ألا تُحْجَب تَفَضَّلْ بالضغط هنا. لمزيدٍ من المعلومات عن خدمة الإنترنت في المملكة يمكنكَ زيارة الموقع التالي / www.internet.cov.sa). يقرأ ناصر:

(البارحة حين دخلتُ صحن الطواف بالحرم لم أجد الكعبة، للحظةٍ تلفَّتُّ حولي باحثاً عن الساحر ديفيد كوبرفيلد الذي غيَّبَ برج إيفل وتمثال الحرية، شاكاً بوجوده يخدع الطائفين بالصحن، لكني وبتحسُّس طريقي لَمَسَتْها أصابعي، مخترقة الطبقة الكثيفة من أنفاس المعتمرين بيني وبينها، وما من نسمة جبلية تقشعها! وحين انزلقتُ لشوط الطواف الأول ورفعت عيني للسماء ما كان فيها من مكان للقمر، والذي كان يُزاحم أبراج البيت ليغمزني، ويغمر الصحن بفضته. لم يكن من فضاءٍ، ليس غير الأبراج الناشبة في لحمة الجبال البركانية العارية. لا أعرف كيف تلتقط مكة أنفاسها، والتي جاء في التاريخ أنها تتنفَّس من جبالها؟ أدركتُ أن اليوم الذي تختفي فيه الكعبة ليس ببعيد، فإما أن تختنق وتخنق كل من يجرؤ على الطواف بها، أو أن المطر المعروف جارفاً بوادي إبراهيم، والذي حمل

جملاً يوماً لمنبرها، لن يلبث أن ينزلق من قمم ناطحات السحاب المحيطة بها ويحوِّلها إلى حفرةٍ / إلى غيبٍ بقلب الكون، وأن عيوننا التي كانت تسبقنا للجسد في كسوته الحرير لن تتمكن من رؤيته عن بعد، وسنحتاج إلى نظارات الأشعة تحت الحمراء للرؤية الليلية.)

قرأ المُحَقِّق ناصر التعقيبات على المقالة:

«خير أبوالشباب وِش فيك مُعَصَّب.. وبعد.. شويّ تشتم عدنان وقحطان!»

سَرَحَ المُحَقِّق ناصر بابتسامةٍ ساخرة، يحاول استحضار تلك الشخصيات الشبحية التي تُجاهد لترك بصمتها على الشبكة العنكبوتية. قدح ذهنه ليعي الخطَّة التي يطبخها لاعب الأُحجية بهذا الساحر كوبرفيلد؟

السَّنْطير

رسالة رقم 9: من عائشة:

يا ^^^،

عزة تُشعرني بالذنب، تقول كلَّ شيء بينما لا أُسَرِّبُ نَفَسَاً عنكَ، أشعر بالإثارة وبالرعب مما أفصحتُ عنه اليوم، دعني أنقل لكَ ما قالته:

أنا طفلة،

نعم وأريدُ أن ألعب، ماذا تتوقعين ممن وُلِدَتْ في علبة، لترضع كآبةَ النُّفَاس من صدر أمها؟

مشبب ليس فاسقاً أو وحشاً، إنه طفل مثلي.

لقد كَتَبَ يوسفُ عن مُشَبِّب وكَتَبَ حتى تجسَّد عتيقُ الأشراف مثل جنِّي في وحدتي ونفخ قلبي، صرتُ أمشي في نومي حتى انتهيتُ تلك الليلة في بستانه.

لا تضحكي، البنات يُخْطَفنَ في كل القصص التي يروونها لنا صغاراً.

برأيكِ لماذا؟

لأن بنات أبوالرووس يُولَدن في عُلَبٍ، لا يفكّها إلا السحر ليقفن ويلتقطن نَفَسَاً على أعتاب بيوتهن..

في مراتٍ كاد يُفتضح مشيي في نومي، حينها أرى الخوف في جِمَال هائجة، جِمَالٍ سود حقيقية مندفعة نحوي تسد الزقاق، لكنني لا أُغمض عيني ولا أحتمي، أندفع مباشرة للقلب بين قوائمها الطويلة وفي لحظةِ الاصطدام تتلاشى، تتقطّر عَرَقاً على صدغي ودماً بحلقي، دائماً يتعاظم القطيع وتنضم إليه البيوت فتتهاوى لمروري وأعرف أنه في يومٍ ستهرسني بلارحمة.

أعضُّ على ملوحة الدم والعرق حتى أدفع بابَ البستان بكامل ذراعيّ، وبمجرد خلعي لحذائي ودفني لقدمي في الرمل يتفتّح داخلي كوردة، حتى رائحتي تتبدل، بطول ظهري وبين ثديي تَتَفَجَّر لذعة.. لا أعرف كيف أُسَمِّيها لكِ، يقول مشبب (روح ماء الولادة). ككل الرجال مُشَبَّب ساذج، فمن أين له أن يعرف تلك الرائحة؟! أنا، أشعرُ بتفاعلاتها الكيميائية، تستمر حتى في نومي ولأيام، تُرَكِّبُ شَعْرَ الجِنِّ مع عطر الفُلِّ.

أتعرفين زهر اللقاح القطني الرهيف، أن امسكني أحد تحرّلتُ إلى هباء..

أدورُ حول نفسي في ذلك البستان، بينما يضحك مشبب. لن تعرفي يا عائشة عَزَّة التي اكتشفتُها في ذلك البستان، أطرافي أطول وأطرى، وضحكتي أوسع وعيني، عزة التي شقَّت العُلبة عينها تعرف الغُنجَ والكلام الذي لم يخطر في كتابٍ من كُتُبكِ التي تُخَوِّفني.

في البستان دائماً كانت هناك أشياءُ صغيرة، لكأنما تعرفكِ منذ الولادة حتى لتشعرين أن بوسعكِ أن تذهبي معها عكس الزمن. كلما زُرتُه ليلاً أجدُ لديه تُحفةً تستحِقُّ الوقوف، مَرَّة كانت هناك آلة سنطير من البصرة، مُطَعَّمَة بالأصداف، بالحوامل الدقيقة للأوتار، التي تُعطي النغمةَ الأثقل صوتاً، فترسلها لأبعد مدى، مُفْرِدَة وتراً لكلِّ نغمة، حين جرَّبتُ العزفَ بالمطرقتين، طلعت سجّاحاته ورنينه مِنْ بُعْدِ الأشواقِ التي لا أجرؤ على مواجهتها.

وفي مَرَّةٍ دَخَلَتُ لأجد الديوان مُبَعثراً بكُتُبٍ قديمة، وكان مُشبَّب منهمكاً في تصنيفها، بين الرفوف والصناديق تحت مصطباته، كان يُخفي الأجملَ

والاكثرَ عتاقةً ويُظْهِر الأكثرَ عادية. ميل مُشَبَّب للإخفاء يُجَنِّنني، أسخرُ منه ولا يعبأ. فلليالٍ ظَلَّ ذلك الحجاب الذي لَمَحتُه مدسوساً في الصندوق أسفلَ مِسْنَدِه، استرقتُ النظرَ إليه كان بحجم نصفِ قَمَرٍ من الفضة الخالصة، منقوشة في مَعِينَاتٍ متداخلة برموزٍ على هيئةِ تمائم تُذَكِّرني بإسورة أمي حليمة الوحيدة، والتي لم تلبسها قط وتُعلِّقها على فراشها، وتفخر بأنها الهديَّة الوحيدة من زوجها، صاغها يهودُ اليمن لتمثل القمر الذي تُوْلَدُ به بنات النبي سليمان مطبوعاً على كفوفهن.

لم نتوقف بذلك الحجاب إذ ومع الربيع اكتسحتْنا فوضى القباقيب الخشبية: تلك المُطَهَّمة بالأصداف وباللؤلؤ أو المُلَبَّسة بالأقمشة الهندية المُقَصَّبَة، وتلك التي من خشب الصندل عطرة، تلبسها سيدات مكة في الحمامات والأسطح، تُطرقِع أينما سرن. ليلة وصولها أزحنا السجادةَ العجمية لترقص بي ومُشَبَّب على أرض الديوان العارية (جَرَّبنا كلَّ رقصات النقر)، حتى الفجر تَسَلَّل بنقراتٍ بالغة الخفة، وتَنَبَّهتُ فجأة للوقت الذي سَرَقَنا ليفضحني.. (كل ما يأتي إلى بستان مُشَبَّب يرحل إلى الحلم، لكأنه محطة من محطات الأحلام المركزية).

وَمضات تذهب وتجيء. ولم أسأل، ولم يُسعفني بجوابٍ، عمَّن يأتي بتلك البقايا ويذهب. وفي مَرَّاتٍ كانت تسترعيني فُرُشٌ مبسوطة بتربة البستان، لا تزل مُعَفَّرة بأجسادٍ لم تلبث أن غادرت، وفوق طاقتي تَخَيُّل ذاك البستان في جوف الليل حين يكتمل اللاجئون لتربته، بانتظار طلوع الصباح ليسرحوا لأرزاقٍ تتجاوز مُخيِّلتي. في فجرٍ سأختبئُ في يَاقةِ أحدهم لأرى أين يذهبون.

من سِحرٍ تنبت تلك الوجوه وتتلاشى، فقط وجهي ومشبب مُسَمَّرين هناك.

لو أنكِ يا عائشة ترينه: من الخارج يبدو البستان محدوداً بسورٍ وزمن، من الداخل يذهب السور والزمان، ويُضَيِّع للوراء وللأمام. يبدو لي مثل قطعة فضاءٍ ساقطةٍ من السماء، وكنتُ أعرف أن لعبي يجب أن ينتهي حيث تبدأ تلك الأحراش، خطوة أبعد ولا يعود اللعب لعباً.. ولم أجرؤ بعد على عبوره وحدي، لا بدّ أن يقف لي مُشبَّب على أول الممرات، أو يرافقني لبقعةٍ

ويرجع بي، يُرجعني ودائماً في الوقت المناسب لابلغ بيتنا قبل أن يُدركني الفجر. وكانت دائماً هناك تلك الرائحة. ربما أشبه بدم أضحيةٍ، ضَحَّاها رَجُلٌ قديم على أرضٍ قديمةٍ لا تزال بذاك البستان. صرخة ليس بوسعي التقاطها بعد.

الليلة جئتُ البستان على غير تَوَقُّعٍ، لاجد ذلك **الضيف**، والذي بدا خطيراً بالحرس الذين وقفوا بانتظاره على فوهة الزقاق، ركضتُ بخفة لكنهم لمحوني وتأهبوا، تلقّاني مُشَبَّب باضطراب، خبّأني على طرف البستان لريثما يُوَدِّعُ ضيفَه للطريق.

بانتظار رجعته جرؤتُ فتقدمتُ نحو ممرٍّ يقود شمال شرق، بآخره أجمة من نبتٍ بري جاف، في نقطةٍ صَدَّتني يدٌ انبسطت على كامل وجهي، شعرتُ باليد وإن لم أرها، لكنني لم أقاوم، استرقتُ النظرَ إلى الفَرجة بين الأغصان، لتُقابلني ثلاثة أجساد بيضاء تَتحَلّق عارية في حوار، شعرتُ بحيوية تُهدِّدني في تلك الوقفة، خفتُ أن أتقدم خطوة أو أتأخر لكيلا ينتبهوا لوجودي.. شهقتُ فزعاً حين لمست شفاه مُشَبَّب ذيل ضفيرتي..

أتظنينني أُبالغ؟ لقد شعرتُ بالشفة حارقة على ذيل ضفيرة ورائحة حريق.. وقادني مُشَبَّب راجعة. حين بلغنا الديوان أجلسني على كرسي لويس الرابع عشر الذي انتقاه لي من مزاد قديم، لا يُحَرِّكه من موقعه بالحوش مُوَاجِهَاً للديوان. عندها فقط استجاب لفضولي: «يا لمخيّلتك الجامحة، ما رأيته ليس إلا ثلاثة تيجان أعمدة، هي نفسها الأعمدة التي كانت منسيّة بأروقة الحَرَم بعد إزالتها من مقام الحنفية وبئر زمزم! تلاشت فجأة وفقدنا كل أثر يقود إليها، حتى جاءني بها صديق من أصحاب النفوذ.» وأضاف لتهدئة شكوكي، «أكملها **العمود** الذي كان قائماً على بئر زمزم بقنديلٍ يُنَوِّر المَطَاف لدهر، ذاكرة هذا العمود حيَّة بوجوه مؤمنين وإيمان لا تخطر لبَشَرٍ على بال..»

تَخَيُّلُ لَمْسي لتلك التيجان يقشعِّرني بلذَّةٍ لا أجرؤ على تفسيرها. أنتِ يا عائشة طليقة في الكتب ورؤوس المؤلفين.. أما أنا، فعالمي هو هذه الحجرة الضيقة، بجدرانها الأربعة لا تعكس إلا وجهي، في حجرتي افتقدُ مثل هذه

المواجهات مع أشياء صغيرة، مع النزوات الصغيرة والضحكات..
ولاتُذكِّرني بالنوافذ، نافذتي مُسَمَّرة، وعبوري في ورق يوسف مُفْتَعل...
أتعرفين ما أحتاج؟ رمية حَجَرٍ، حجر يجْبِرُ الطيرَ في صدري على القفز في الهواء.
في كل زيارة للبستان يتعزَّز شوقي للذهاب أبعد.
قد تضحكين، لكنني أتوق لضرع بين شفتيَّ، للرضاعة من ضرع الماعز مباشرة، هذا الذي عاشه يوسف حين يئسوا من فطامه، ولم تُفلح معه تركيباتُ الصبّار والفلفل الحراق على ثدي حليمة، أطلقتْه أمُّه إلى بستان مُشَبَّب يرضع مع صغار الماعز!
برأيك، كيف هو مذاق الروث وزغبِ الحيوان مخلوطة بالحليب الحار بالنبض؟
يجلس مُشَبَّب مُفترشاً الرملَ تحت قدميَّ ليعزف الدانات اليمنية، وبيننا يطفو منديل الصمت شفافاً في الهواء، لا يكاد يلمس الأرض، كلما أوشكَ أن يقعَ نَفَحَتْه نسمةُ ليلٍ..
«ها... تأخذها يا مُشَبَّب؟ حبيبتكَ، لتلفزيون الواقع، لفاشن أكاديمي؟»
أشاكسه كلما صحا فيَّ ذلك التوق للمسة:
«ما مكانكِ إلا وسط ملكات الجمال، وحين يفتحون الباب لظهور مس ساودي آرابيا، يكون لنا معكِ كلام، غداً تُفْرِجِين عن الغنج المكنوز.»
«كل الكون عندكَ يا مُشَبَّب كنوز ومفاتيح!»
عندها يقوم، يَصرفُ كُلَّ آلاته الخشبية ويبدأ العزفَ على الوتر الحي بقدمي، حين يبلغ كاحلي تنبعث أجسادٌ من جسدي، ويَنْهَدُ مُشَبَّب، ويسقطُ في نوبةٍ من نوبات (الخلع) كما يُسمِّيها، نوبات (الخشوع) التي يخلع فيها جلدَه ويكشفُ كلَّ عَصبٍ فيه لأرواحِ الطَّرَبِ.
«قدمُكِ هي الكنوز ومفاتيحها..» أشعرُ بقلبه يتفطَّر على قدمي، وأُحْرَجُ وأبتلع ضحكتي، لِمَ لا نضحك حين يتعبَّدنا رجلٌ؟! وبالكاد أعي همسَه:
«قد يحلم الرجال بتقبيل شفتيك لكني لا أحلم إلا بهذه القدم، وهكذا على شفتي وتغسل وجهي.» وارتعد خوفاً من الله، أن يسخطني للنشوة التي

تَستَخْفي في يأسه، هذا الذي لا يجرؤ عشقُه على تجاوز قدمي. وينتفضُ واقفاً ليتأمّلني بنظرة الضياع تلك. ويَرُجُّني خوفٌ مما يمكن أن أفعله به.

لم يكن ناصر هو الذي ينتقي من رسائل عائشة وإنما لاعب الأحجية، يقرأها عليه بصوتٍ مسموع ليُوَرِّطه في إحباطاته، سَجَّلَ المُحَقِّق ناصر في أوراقه هذا المُشَبَّب كمُتْهَم، كخصم، وقَرَّرَ أن يُطارده في رسائل عائشة ليعرف ما إذا كانت هي أيضاً قد خَضَعَتْ لسحره؟

هَالَه تآمرُ النساء لقصم ظهر الرجل، أخذ ينبش عن المزيد من تلك الإثارة التي تؤجج غضبه، عن لمسة البغاء تلك. تركه لاعبُ الأحجية في لوحةٍ خانقةٍ لا يشفيه إلا أن يقذف بعَزَّة وعائشة مهشمتين عاريتين على طرف الطريق:

ملحوظة:

بجسدي كشفتَ لي عن نَهْرٍ ذَكَرٍ يانج yang ونهرٍ أنثى ين yin، وماء النهر مثل شريط تسجيل، تنكتب فيه ندوب كل ما عشتُه من إحباطات وأفراح منذ الطفولة، بينما لحظات الحزن تترك تراكماتها التي تسد مجراه وتُعيق جريانه..

كل جسدي التهبَ لِتَلَقّي أصابعكَ على ظهري العاري، مفاتيح الطاقة التي عَزَفتَها على عمودي الفقري: بنقرةٍ على عظمة القَطَن وأُخرى بفقرات الظهر لفقرة العنق السابعة لحفرة قاع الدماغ.. ألاحقُ فضاءً يتصاعد على ظهري يتبع نقراتكَ، وفجأة ينشقُّ مَجرى النهر، يجري بأكسجين يتمدَّد فسيحاً بإيقاع من قاع عمودي لقاع جمجمتي، عندها تَتَنَهَّد: «أوه، أجل أجل خُذي نَفَساً عميقاً وأطلقيه، أطلقي الدولفين المحبوس بعمودك الفقري..»

أطلقتَ حواسي لتقبض أول ما تقبض عليكَ،

وفجأةً صرتُ أشم، لأول مرة في أعوام تدخلني رائحة، رائحتكَ،

ليستعبدني الآن فتورُ الصنوبر على رسغكَ.

يا لتَلاعُبكَ بالينّ واليانج بجسدي، ترفع إيقاع اليانج فتحوِّلني إلى كرة نار،

وترجع فترفع الينّ لتُحَوِّلني إلى كُرَةِ ماءٍ! أي توازنٍ هذا الذي يمكن أن ابلغُه على يديك؟!
أعرف الآن معنى أن أُوْلَدَ في الخريف، قلتَ: «من ذروة مَدِّ الأنوثة.»

التوقيع: عائشة.

بُرْدَة البوصيري

صحا ناصر فجأة مسكوناً بقصيدةٍ مخلوطة بزمزم مبخَّر بالمصطكا، كان قد تَعَلَّمَها في المرحلة الثانوية ولم تستوقفه، لكنها تبعث تلك الرائحة بيوميات يوسف، وتدفعه لتتبُّعها في نافذته لعَزَّة:

ساصحبكِ يا عزة إلى جلسةِ استحضارِ (المصطفى طه) التي يُقيمها مُشبِّب في 12 من شهر مُحَرَّم كل عام..
المكان بستان مُشَبِّب. الزمان: بالأمس.
دخلتُ مع أذانات الحرم التسعة، وللحال تغطَّت الأرض بسجاجيد الصلاة، انقلبت أرضُ الديوان والبستان لصفوف محاريب، وصارت الجباه تنغمس في بيوت ربِّها.
أجنحة الملائكة ليست من ريش بقدر ما هي همهمة دافئة.
بختام الصلاة انعقدت دائرة المُوْلِد، وتَوَزَّعَ المريدون وطاف مُشَبِّب بذراعه منظومة بالمسابح حتى الكتف، وبعضها ألفية، تطلع من صندوقها المُطَعَّم بالعاج مُعَطَّرة بالعنبر والعَرَق.
يحتفظ مُشَبِّب بمسبحته التي لا يحيد عنها في كل مولد، من عَظْمِ حَيٍّ، كلما دوَّر خرزاتها بين سبابته وإبهامه وَسْوَسَتْ حياةُ العَظْمِ بأسرار الآخرة.
تناولتُ أنا مسبحتي بعيون القطط الكهرمان. وتَحَسَّسَ تيسُ الأغوات خرزات خشب العود التي يستحضر فيها انتماءه للنار. أعرفُ أنكِ ستختارين لو حضرتِ خشبَ الأبنوس كما يفعل معاذ.

اتَّخَذَ مُشَبِّبُ مَجْلِسَه لليمين، يبدأ منه الهلال الذي يُشَكِّله الحضور، بينما وَقَفتُ مع معاذ وتيس الأغوات على باب الديوان متماهيين بأغصان الخَرُّوبة وبظلال المتطوعين المُكَلَّفين بالطواف بطاسات الزمزم، التي تتأهَّب للنفث فيها من أرواح البُرْدَة والذِكْرِ.

أنتِ يا عزة كنتِ ستقفين إلى جواري مفتوحة للديوان من جهة ولما وراءه، حيث انهمك المتطوعون يوقدون حُفَرَ النار لتسخين الدفوف الضخمة، وانغلقت الدائرة ببياض غُترٍ وثياب، وتكاثفت الأنفاس، وبدأت تغيب عن وعينا تلك الوسائد الـمُذَهَّبَة وحليات السقف الخشبية وبقايا التيجان.

(يا أيها النبي والكوكب الدُرِّي

أنتَ إمام الحضرة سلطانها الغيبي)

«صلُّوا على مَنْ غيابه حضور.»

«اللهم صلِّ وسَلِّمْ وبَارِكْ على محمد.» ترتجُّ الأصوات، تتلاحق الأصابعُ في الفضاء بآلاف الآلاف من الصلوات والتسليمات المباركة على محمد.

تُهسهس الخرزات، وتُهمهم الأرواح، وتُحلِّق بين السبَّابة والإبهام، تَتَدَوَّر في مِحْرَابِ الحَضْرَةِ.

تلمحين الأيدي ترتفع بمحصولها من الصلوات: «ألف، عشرة آلاف، مائة ألف...» خمسمائة ألف صلاة وسلام يتلقَّفها شيخُ المَوْلِد حتى ينطوي الزمن، تهبُّ الأجسادُ وقوفاً، تُقفل الأيدي دائرةَ الطاقة فتتشابك مُكَوِّنة حقلاً كبيراً:

«مرحباً يا نور عيني

مرحباً جد الحسين

يا رسول سلام عليك

يا حبيب سلام عليكَ» حلقة تَلفُّ على الحضرة التي مَثَلَتْ، وتنخرط الأنفاسُ مع تسبيح الدفوف تُرَحِّب في رهبةٍ بالمصطفى الذي حضر:

«كأن بالنار ما بالماء مِنْ بَلَلٍ　　　حزناً وبالماء ما بالنار من ضرم

والجِنُّ تهتفُ والأنوارُ ساطعة　　　والحَقُّ يَظهرُ من مَعْنَى ومن كَلِمِ.»

إلى أن ينفجرَ صوتٌ جَمعيٌّ مُكْتوٍ بالوَجدِ يستنجد: (مَدَدْ).

(مَدَدْ) وأصيرُ أضربُ الهواءَ، تَتلَبَّسني بُردة البوصيري (مَدَدْ) وأعلو عن الأرض. يدخل وجهي في فيضٍ بارد، يُعيدني صوتُ مُشَبِّب يهمس في أذني:

«يوسف، يوسف صلِّ على النبي.» مُلقياً على وجهي بزمزم الطاسة المُشَبَّع بأنفاث البُردة فأُفيق.

«الشاب روحه خفيفة.» تصل إلى أنفي روائحُ سمنٍ وحليبٍ مختلطة بروائح بخورِ العود والمصطكا. أفتحُ عيني على ثلاثة آلافِ زوجٍ من الأيدي على صحون الأرز العربي المعجون بالحليب والسمن البلدي.

جلود مُبَقَّعَة وبثآليل وجلود شفافة.

أيدٍ أرقبها تترطَّب بالدَّسَم تَتَنَوَّع تحت أظافرها شحومُ التعب، تتجاور وتتساوى في عجن الأرز مع أيدٍ مطلية الأظافر مُلمعة للتو بالمُرَطِّبَات.

أيدٍ تَتَوَزَّعها المَشَارِبُ في النهار، لكننا الآن أقرباء في الوَجْدِ والشوق والأطايب.

تركتُ مُشَبِّب وقد ارتختْ أركانُ فمه وَجْدَاً، ثوب الموالد المطرز يتعلق فاتراً بذُهنٍ يقول إنه طاب بمجاورة قطعةٍ من ثوب الكعبة.

أُقفلُ ورائي بابَ البستان.. وراءه مُشَبِّب، لا أعرف ما الذي عاد إليه.

حياته الخاصة سراً مُقْفَلاً، يُتيحُ لي أحياناً الإطلال عليه..

أحملُكِ يا عَزَّة كنفثة من تلك البُرْدَة، مرة سمعتُ مُشَبِّب يشطح فيؤكد: «اليتم هو موت القصيدة. العراء هو تَهَلْهُل القصيدةِ بالهَجْرِ ».

يقولون إن البوصيري كان مشلولاً، وحَلم بالمصطفى وغنَّاه تلك القصيدة، فألقى عليه المصطفي ببردته فأفاق من نومه وقد شُفِي. أُلقي عليكِ يا عَزَّة هذه البُردة، تُغطيكِ بسواد أطيابها وتُحَزِّمكِ لأطوفَ بكِ، أغسلكِ وأُحْرِمُكِ وأُحِلُّكِ كشربةٍ مالحة من زمزم. حتى إذا تَحَلَّلنا قَطَّرت من أبياتها على لسانكِ العسل، ودَاخَلتُكِ خباءها في حجرتكِ العارية من الظلال.

أرهقتْ ناصر محاولاتُ يوسف تلك، يكاد المُحَقِّق ناصر يجزم بأن يوسف لا يعبأ بعَزَّة بقدر ما يعتبرها روحاً من أرواح الأحرف التي يُخْضِعها

لسلطانه، يَفْرُطُها في تواريخ مكة ويعود يُنَضِّدها في قصيدة، يُطَوِّعها لوسواسه، فلما خَرَجَتْ عن طوعه مَرَّ بقلمه وبتشطيباتٍ شرسةٍ حَذَفَها من الزقاق، لِمَ لا؟

من عائشة / رسالة 11:

(هذه الرواية، التي يَعدُّها لورانس أفضل ما كَتَبَ، هي عن الحياة والتعقيدات العاطفية للأختين جودرون وأورسولا: تقع أورسولا في حُبِّ بيركن، الذي هو صورة طبق الأصل للمُؤلِّف لورانس. بينما تخوض جودرون تجربة شيطانية ومأساوية مع جيرالد. هذه الصدامات في الأفكار، والعاطفة، والمعتقدات، تُلخص الحب في المجتمع الحديث.)

يا الله كم صرتُ وقحة!

أقرأ العاشقات على الدرجات أمام باب الزقاق، لكأنما بانتظار دخلة أبي.

جودرون تضعني في مزاجٍ مُصَادِم،

اكتشفتُ الآن أنني أردتُ دائماً أن أكون (عادية)، أورسولا لا جودرون الثائرة.

عِشْقُ هاته النسوة يفوق طاقتي على الفهم، والحياة! يفوق ما عرفتُه حتى الآن كزوجة ومُطَلَّقة. ربما وجودكَ فيَّ يستطيع أن يرتقي لهذه الصراعات.

الليلة تُباغتني جودرون في الصفحة العاشرة: (إذا قفز الواحد فوق الحافة فمن الحتمي أن يهبط في مكان ما.)

ماذا لو أن علينا أن نقفز الآن لإحْدَاثِ تغييرٍ، ولتفكيكِ رؤوسِ أبوالرووس وإعادةِ تركيب مُوَصِّلاتها، كدُفعةٍ أولى لتبديل أقدار أرضنا؟؟

لو ألقيتُ بنفسي من هنا لبون لانتهيتُ هنا! جوازُ سفري مُؤَقَّتٌ لسَفْرَةٍ واحدةٍ، ويحتاج إلى مَحْرَمٍ أو وليِّ أمرٍ لتجديده. خالصةً من أي قَرَابةٍ للذكور لن أُجْهِدَ نفسي بالبحث عن تلك المعجزة، إذ ستُوقفني في المطارِ ورقةٌ: (وَرَقَة المَحْرَم: أسمحُ بسفرها وأتعهد بعودتها). هذه الورقة تُثيرُ كلَّ السلاطنة والصولجانات في عروق الرجال، جَرِّبْ أن تطلبها من أب أو زوج

أو أخ. ستعرف معنى أن تنغلق السماوات. وبدونها، لا يعود القفز من خياراتي.
هل الكلمات مُعَدَّة للطرح بعد الاستعمال؟ إلامَ تنتهي الكلمة بعد قراءتها؟
الكلمات منها السام وغير السام،
مذاق ريقي يتغيَّر بعد قراءة بعض الكلمات. لون جلدي يتبدل، أميل للزرقة الآن، مسمومة بالغضب وهذه الرغبات، التي تتصاعد كلما علكتُ الكلمات السامة..
أحياناً أقتحمُ على كلماتٍ بآخر الكتاب:

(يندفع هوليداي يقرأ من رسالة بيركن عن اتحاد الظلمة وجحافل الفساد: هناك مرحلة في تاريخ كل شعب تتفوق فيها رغبتُه في الدمار على كلِّ رغبةٍ أخرى. عند الفرد، فإن هذه الرغبة هي في مطلقها رغبة في دمار الذات، هي رجعة للأصل عبر الدمار والفساد.) العاشقات ص 432.

ماذا لو أن أرواحَ الموتى تندمج في أرواحنا وتفضح أفكارنا، هل ستُسَمِّم رغبةُ الدمار الآن أبي؟

ملحوظة:
أغلقتُ كومبيوتري، أطفأتُ كل الأضواء بمسروقتي، فعَمَّ ظلام دامس.
أغمضتُ عينيَّ للحظات وأعدتُ فتحتهما: اكتشفتُ في الظلمة ممرات وتكدسات للنور.
راودني أن جلسة القبر ستكون هكذا: حين يُغلقون عليكَ وتتيقن حواسك ألا منفذ للأنوار الاصطناعية، عندها سينبع النور من جوف الظلمة... وستخترق عينك لما وراء.
الظلمة مسكونة!
التوقيع: عائشة.

تَجَاهَلَ المُحَقِّق ناصر حديثَها عن (القفز) و(الدمار)، طوال تلك

الليلة استعادَ عائشة وحديثها عن (الاندماج في أرواح الموتى)، شعر لكأنما لاعب الأحجية ـ الذي يحرِّكه ضِمنَ القِطَعِ ـ يقرأه بوساطة رسائل عائشة، يفضح دخيلته، وها هو يفضح خَاتِمَةَ حواره ذلك الصباح مع النزَّاح، إلى الآن لا يُصدِّق كيف انساقَ للتصريح بأوهامه، حين باغته النزَّاح بالسؤال،

«زوجتكَ، أم أحمد..» لم يتجرأ فينطق اسمَ الزوجة كوثر، «كَتَبَ يوسفُ أنها تقرأ حرارةَ الروح؟» تَوَقَّف سؤالُه عند ذلك الحَدِّ... وحين قَابَلَه الفراغُ بعين النزَّاح، أكملَ،

«أنا، تواجدتُ لعقدين من الزمان في مواقع الجرائم والجثث، أفهم ما يمكن أن تقوله امرأةٌ تقرأ حرارةَ روحِ الميِّتِ في الهواء...» استمرَّتْ عينُ النزَّاح فارغةً تنتظرُ أن يَقْلِبَ المُحَقِّق جَوفَه فيها، لم يسبق لناصر أن نَطَقَ بتلك التُرَّهَات لأحد، «في غالب الجرائم نَصِلُ بَعْدَ تَعَفُّنِ الجثة، لكن في الحالات التي نَبْلُغ فيها مَوَاقعَ المداهمات، حيث يتخبَّط القتيلُ ليموت بين يديكَ، بوسعكَ أن ترسمَ فقاعةَ الروحِ في الهواء أمامكَ، وأحياناً يكون المُصَابُ بسبيله لِقَولِ كلمةٍ في أُذنكَ لكن تخرج روحه عِوَضَاً عن الكلمة، أتعرف كيف تكون حينها؟ مثل حفنةٍ من حرارةٍ تخترقُ إلى دماغكَ، وللحظةٍ تشعر بأن كينونةً أخرى سَرَتْ فيكَ، وأنكَ لحظتها تحيا بعمرين، بروحين، للمحةٍ خاطفةٍ قبل أن تنسرب منك تلك الكينونة وتصعد الروح...»

الامبراطورة الحمارة

دَخَلتْ عليه التركية في هجمةِ ألوانٍ: أحمر أصفر وبياضها الفاقع، بلطخة الأزرق لظلال الأجفان. شَقُّ ثوبِها الأحمر يُظْهِرُ ياقوتةً بحجم بيضة حَمَامة راقدة بين ثدييها العظيمين، تسقط طرحتها في دخولها لتكشف

القرطين الواصلين للكتفين، أعادت تثبيت الطرحة لتُغَطِّي شعرها الأصفر القصير، والمنحوت ليُبرز الأذنين، وينهال مثل لُمَّةٍ أَسَدٍ على جبهتها المُلَمَّعَة بنثارِ إكليلٍ خفيف. في تلك البهرجة لم يلتفت المُحَقِّق ناصر للجُبَّة التي استعاضت بها عن العباءة والمشغولة بالترتر الأخضر وسط توريقات حمراء على الحواف. ناصر ولاعبُ الأحجية كانا واعيين بحرارةٍ تكتسح نفخةَ اسرافيل في المكتب الضيّق، خصلاتُ شعرها النارية رَعَصَتْ في الكلمات التي تبادلاها، تسري بحَلْقِه، سَعَلَ ويَادرَها بالسؤال بلا مقدمات:

«أنتِ الإمبراطورة؟» ولم يُكمل. . اقتحمت بضحكتها المُغْجَمَة:

«الإمبراطورة الحمارة أنا.» ارتجَّ ناصر. «الإمبراطورة الحمارة سفَّاحة، ظَهَرَت الكتابةُ على جدار قبوي بعد ظهور الجثة. حَدَستُ أن فيها اتهاماً يُحاول به عفاريت الزقاق تلطيخ خطوط الموضة المنطلقة من قبوي. أنا التركية ـ امبراطورة الموضة ـ أقسمتُ أن أُكَفِّرَ ما اقْتَرَفَه قومي آل عثمان بحق النساء بهذي البلاد. أقشعُ العَزْلَ وأمسح سوادَ القُنَع وأردمُ خيام الجَامَات، وتحتها بقع النسيان في اللفَّات الكثيبة من كُرَتٍ وسراويل وفوط جاوية، أنا دَخَلتُ على أبوالرووس بالفرح، دخلتُ بالعصري والصرعات، ورجالها يقولون: طلعت التركية بأسنمة البُخْت.» أرخت عليه تلك النظرة الملول المُثقلة بالنداء وأكملتْ: «لا أُنكرُ أن عائشة وثوبها كانا نقطة انطلاقتي بأبوالرووس، وقبلها كانت انطلاقتي بمكة: على يدي كانت أول عروس تخلع الشُرعة الحجازية. لولاي لبقي أبوالرووس في قرنه الحادي عشر، بالعرائس يختنقن تحت وسادات الثياب التقليدية المُثقلة بعقود الفاكهة والهيل المُغَرَّق في الفضة، شُرعة غليظة بمَغَالِق لا تُنافس هذا العصر الخفيف. .» صمتت لتسمح لكلماتها بتعبئة الحجرة، ثم أكملت بغمزة:

«وعزَّة؟ الخِرَق التي وَاصلتُها بها وجَرجرتُها من بيت العنكبوت الذي

نصبه والدها. ما أدراني أين انتهت بها؟! لكم هو جاحد أبوالرووس، جاحد جاحد مهما أوقدنا له أصابعنا العشرين شمعاً..»

مهر البنات

حَاصرَها ناصرُ بسؤال مباشر:

«حَدِّثيني عن الثوب..» رفعت التركيةُ رأسَها، أمالَ الإغواءُ ابتسامتَها ورفعتْ حاجبها الموشوم عميقاً في الجِلْد حتى قارب خط شعر الرأس، وفَحَّتْ مستفسرة: «ثوب؟!! أُبَشِّرُكَ: الثوب طلع لفوق فوق..» وارتجَّت بضحكتها، لم يلمح ناصر إشارتها فلقد كان مذهولاً بانفلات السؤال.

«ثوب عُرس المُعَلِّمة عائشة، قالوا خَرَجَ بتصميمك ومن تحت إبرتكِ..» رفعتْ رأسَها بفخرٍ وشَخَرَتْ: «انتقتْ معي لعُرسها ذلك الطراز، الذي جسَّدَ لها كلَّ ما قرأته في البلاطات الفرنسية والروسية، بالوردتين المعلَّقتين على الكتفين، وقفازَيْ التفتا الواصلين للمرفقين بدانتيل، والصدر المُطَرَّز باللؤلؤ. وتَكَتَّمنا على تفاصيل الثوب لكي يصير للبنت (طَلْعَة) فنوني وبراعتي تَكَفَّلَت بإخراج تلك التُّحفة. قَطَعَتْ عائشة لمشغلي في موكبٍ بين والديها تحت أعين الزقاق لتجربة القياس الأولى، واضطررتُ لإغلاق مشغلي بوجه الزبائن، وإخلائه لتلك الاحتفالية، وفَصَلتُها عن والدَيها وانفردتُ بها في حجرة القياس، أغلقتُ البابَ وقدتُها لتلك المِنَصَّة المدوَّرة، بحجم دوَّار فاكهة، لا يزيد قُطْرها على المتر وترتفع ذراعاً عن الأرض، خَطَّطتُ لأرفعها عن الأرض كفاكهة على طبق، ثم بدأتُ فخلعتُ عنها ثوبها الرمادي المقفول المُصْمَت: تَعَمَّدتُ أن أحفر في وعيها أنّي أُقَشِّرها، أني أشقُّ عنها شرنقتها/ قباحتها/ قُفلها وأُحَوِّلها إلى خوخة مشقوقة..» قالتها التركية بشهوةٍ حرَّضتْ بُقعةَ رطوبة بسقف الحجرة الشديدة الجفاف، أكملت، «كنتُ

أُعِدُّها للتقديم لقرين، أعرفُ ما أُحرِّض وما أترك تحت الرماد ليستوي بهداوة ويُنْبَش بأناةٍ. واضطربت البنتُ وأنا أحملُ كلَّ تلك الكشاكش والحراشف والطبقات وأسكبها بكلِّ حفيفها وشراستها كنَفَقٍ بلا مَخْرَج وأُسدلها بخِفَّةِ غيمةٍ على جسدها المُرتعش بأول نفحةِ حياةٍ.. حَرَصتُ على احتكاك الدانتيل بحسيَّةٍ تُوقِظُ ثديها الذي كان في طور التَّبَرعُم، تركتُ التفتا تلعق ساقيها، والجيبون بطبقات القطن والشَّرَك المُغَرَّق في النشا يقرص مؤخرتها وحرير فخذيها.. بالسَّتْرِ والكَشْفِ بالفَرَاغ والحَشْد كنتُ أُصَوِّب الرغبةَ حين تنحطُّ عليها، وأعيد سَبْكَ قالبها ليتلقَّى يحبس وينفث عينَ القرين ورغبته..» صمتت التركية بخُبثٍ ترقبُ ناصر. أعادتْه ضحكتُها من غيبته وراء تلك الفاكهة المُحَرَّمَة، تَتَلَذَّذ هذه التركية بتقديمها له مكشوفة على دُوَّار. انتبه إلى أنها تنتقي كلماتها وتصقلها بعنفٍ ثم تصبُّها في أذنيه تصفر ببخار يُلَبِّس الجِنيَّة التي تسكنه. رَفَعَ إليها ناصر عينيه، فثَبَّتتْ عيناها فيهما بوقاحة. عرف أنها تفتح له خَطَّاً مُبَاشِراً وتدعوه أن يَتَقَدَّم. لكنها وفي تلك اللحظة من المعرفة اختارت أن تتركه مُعَلَّقَاً هناك وتعود لخياطتها:

«حين اندفع البابُ عضَّ على طرحة عائشة المنثورة بورد التُلِّ وحبات اللؤلؤ، وانزاحت كاشفة الكتفين العاريتين ووجه والدها المُعَلِّم. قفزَ المُعَلِّمُ واقفاً مذهولاً أمام تلك الكوكبة من بياضِ الثلج تُطَوِّق ابنتَه وتُخرج جسدَها العلوي من تلافيفها كزنبقة. بمُوَاجَهَتِها بدا المُعَلِّم قصيراً ضئيلاً، ويتقافز بحيويةِ الأقزام السبعة، صَعَقَتْه أُنوثتُها، تنبجس، تَتَحَدَّد، وتَتَدَوَّر.. ضَحِكْتُ، فهذه لعبتي! سمعتُه ينطقُ بما لا يرى:

«أين اللمعة؟؟» «أين المزيد؟؟» ولا أعرفُ هل قَصَدَ المزيدَ من الجسد أم المزيد من الثياب؟ كلماتُه اختصرتْ ما أعرفه عن أبوالرووس.. أنا وراء الحماسة، أنا المُحَفِّزَة لتلك الرغبة لاختراق الجِلْدِ والغطاء (لما تحت) للمجروح، ولما (فوق) وإنْ على جناح غراب.

هَتَف المُعَلِّمُ المسكين: «أين الفصوص؟ أين اللمعة؟»

سألتُه: «تريدُ حبّات كريستال؟ نُرَصِّعه.» ارتفع جشعُه:

«حبات فقط؟!» وبَرَّرَ لي، أو كان يَتَمَظْهَر: «تعرفين يا أختي التركية، العريس أحمد ابن النزَّاح مُرَافِق شخصيّات ذات وزن، دَفَعَ أكبر مهرٍ في الزقاق، ونريدُ أن نكون في المستوى.» أعطانا تعليماتٍ وخَرَجَ. ترك عائشة مُوحِشة، جَرَّدَها بتعليماته من قفازاتها، رَكَّبَ لثوبها صدراً وكتفين وكُمَّين قادرةً على حمل الكريستال الذي كَسَفَ بوقاحته نجومَ حظها، سقطت واحدة وراء الأخرى، وطَقَّ عنقها.

خَرَجَتْ عائشة على النساء يوم زفافها بـ (الصلاة والسلام عليك) مطّت النساءُ رقابهن حسداً وراء بَرْقِ الكريستال. مسكينة البنت. هَجَرَها عريسُها بعد شهرين. وحَمَّلَني الزقاقُ وِزْرَ ذلك الزواج عن بُعد، وإثم موت أهلها من التصادم.. وَصَموا ثوبَ العرس بالنحس!! كلما وَقَعَ بلاءٌ بشرقكم الأوسط عَلَّقوا ذنوبهم على رقبتي، أنا وآل عثمان. حين غطينا نساءكم بالجَامَة والقُنَعة صحتم: ابتليتمونا بالطاعون الأسود. وحين نكشفهن تصيحون: ابتليتمونا بالحسد! على الأقل نحن تركنا للجَامَة ثقوباً على الوجه.. وجاء طوفان صحرائكم فلَحَمَ الثقوب.»

أضافت التركية: «أنا خارج هذه المؤسسة.» غَمَزَتْه.. لم يشأ ناصر أن تُوقعه تلك الغمزة بشَرَكٍ آخر..

تلك الليلة نبش رسائل عائشة عن ذاك الثوب:

يا ^

أفرجتُ عن الثوب، ولليلة كاملة مضيتُ أكشطُ سُترةَ الكريستال عن رهافة الدانتيل، وفتقتُ الكُمَّين، شعرتُ يا ^ بالنشوة حين وقفتُ أمام المرآة بكتفيّ عاريين، صعدتُ للسطح، وقفتُ على برميل صغير يُمَثِّل تلك المنصة الأولى، وتركتُ لليل مكة أن يتناوب والدانتيل على لعق جذعي. ارتديتُه على الجلد،

ورفعت بذراعيّ الخفيفتين عالياً في السماء متأهبةً للطيران واقفة كما في نومي.

التوقيع: عاشة.

غشاء مطّاطي

يا ديفيد،
طَفَتْ برأسي تلك الجملة التي قرأتُها في نافذة يوسف بأُمّ القُرَى: «كيف نَضَت الكعبةُ أولَ ثوبٍ خَلَعَه عليها المَلِك تُبَّع الحميري، والذي كسا البيتَ المسوح والأنطاع فانتفض البيت فزالت تلك الثياب عنه، وفعل ذلك حين كساه الخَصَفَ، فلما كساه الماء والوصائل قَبِلَها، والوصائل من ثياب أهل اليمن المُوَصَّلَة.»
صَدِّقْني هناك ثياب للعذاب.
أستحضرُ المعطفَ الذي ظهر به أبي فجأة في حجرة نومي ثاني صباح عرسي، وكان الجوّ خانقاً ولا يُبَرِّر ارتداءه لذاك المعطف على الثوب الذي تَجَعَّد ولم يخلعه منذ احتفال البارحة. كنتُ لا أزالُ راقدة حيث تَرَكَني أحمدُ لا قوة لي على طي ساقي، سمعتُ البابَ حين غادرني مع انتصاف الليل غاضباً، وحين رَجِعَ مع الفجر قبل ساعةٍ من ظهور أبي، هذه التفاصيل انحفرت بذاكرتي في محاولةٍ لتفسير مَشْهَدٍ ظَلَّ عالِقاً برأسي لا أجرؤ على مواجهة تلك السكين التي خبأها. أذْكُرُ، دَخَلَ أبي من دون أن يطرق، واستند بجسده إلى الضلفة، واقفاً بين قرارين، وبدا لكأنه يُحاصرُ أحمدَ في تلك الحجرة المسروقة، وفي سريرنا الطافح في الحجرة. ومن دون أن ينبس بكلمة بَسَطَ تلك الورقة، وفَهمتُ، عرفتُها، أذْكُرُ كيف كان الدم معقوداً بوجه أبي، ويُضفي على الحجرة من ظلاله الدموية تلك كانت ذبحته الصدرية الثانية. الذبحة الأولى كانت حين ظَهَرَ وجهه بلون الكبدة النيئة، وكان ساقطاً على طاسة الدم الطالع لتَوِّه حارّاً من بين ساقيّ، حينها كنتُ

في الثانية عشرة، أشرفتُ على بلوغي من بوابة العُسر، ولثلاثة أيامٍ متواصلة احتبسَ دم طمثي الأول، نَبَتَتْ بين ساقيَّ عُنبةٌ معقودةٌ بدم وحُمّى. جاء حُكْمُ الطبيب الذي ظَهَرَ في بيتنا برفقة تلك الممرضة حاسماً كمِشْرَطِه (كما ترى يا ديفيد لي تاريخ عريق مع المَشَارط)، وفي تلك الحجرة ذاتها أرقدوني، وأغلقوا عليَّ، وكنتُ واعية بعيونٍ صغيرة لامعة، فضولية، تَتَضَبَّبُ حين انغرست تلك الإبرة بوريدي، وبدأ العالم يتراجع، وصوتٌ يأمرني بأن أشدَّ، وأنا أشدُّ، ووالدتي تُبَاعِدُ بين ساقيَّ، وضربة ذلك المشرط البارد التي فجرت العالم في فقاعة حمراء بين ساقيَّ!

في الثانية عشرة، وحين أفقتُ لم يكن ثمة غير الطاسة التي شَهِدَتْ عليها جارتُنا حليمة. والدم المحبوس لأيامٍ في رحمي يسيل حَرّاقاً،

بذلك قدَّم أبي الورقةَ لأحمد المغدور، والذي نَظَرَ إليها بوجهٍ خالٍ من أي استجابة،

«شهادة طبية مختومة ومُوَقَّعة..» حوار من طرف واحد. عندها فقط لَمَحَتُ السكينَ في مخبأها بجيبٍ صَدرِ معطف أبي الداخلي، ماذا تفعل السكينَ بصباح عرسي؟!! ارتياحٌ شاع في الحجرة من استسلام أحمد الكُلِّي للصمت... الآن وحين أسترجعُ تلك السكين - بجيب رَجُلِ الشعارات الصغير الذي هو أبي - وتلك الشهادة المختومة، أراها منصوبة للآن حَدّاً فاصلاً بين حياةٍ وموتٍ، لم يكن أحمد واعياً بأن مُجَرَّد نظرةٍ، أو سخريةٍ، أو لمحة تشكيك بتلك الشهادة كافية لعبور أحدنا لذلك الخط.

لم يحفل أبي بتلك الشهادة، فأمي هي التي نَبَشَتْها ذاك الصباح ودسَّتْها في جيبه، هو دسَّ سكيناً! أحمد أو الطبيب أو الممرضة أو أنا، من منّا المُسْتَهْدَف بالطعنة التي جَبُنَ أبي عن تسديدها في اللحظة الأخيرة؟

«البكارات المطاطية» بِدْعَةٌ أنا أول من أدخلها إلى أبوالرووس وبالكاد ابتلعها أحمد، وصبَّ أبي غضبه على مفهوم شهر العسل: «يأخذها بعيد ويتدبَّر فيها؟! لا وألف لا.» ذاك كابوسه.

وللآن لا يزال دم طمثي يحرق بين ساقيَّ وساقيه.

التوقيع: عائشة.

ملحوظة:

ضربة المشرط، الشرخ بين الساقين ارسل الدم لانفي، وما زلتُ للآن أجد مذاقه في حلقي، كل ذلك للنفاذ من بوابة مطاطية. لكن كان هناك المزيد، بوابات مخاتلة لا ينفذ فيها مشرط ولا طبيب.. أحمد فشل، لتأتي أنتَ فاتحاً بعد عامين.

بنت البقجة وزمن الديناصور

تكاثرت التلميحات حول الألاعيب التنكرية التي يمارسها خليل في عربته الأجرة. وحرص ناصر على تجاهله إذ لا تزال المقابلة الوحيدة بينه وبين خليل تُزعجه، لكن لاعبَ الأحجية ظلَّ يؤجِّجُ شَكَّه في اضطراب تلك الشخصية، أيضاً الكلب البوليسي داخله لا يدع له تجاهل أن خليل قادر على معاودة الانتحار بعد انتحاره الوظيفي، ماذا بعد الخمسين؟ مُنْعَطَف في حياة الرجل تبدأ عنده المحاسبات، والتحرُّق لقبض ما فات، كيف يُحاصر رجلاً على ذروة العمر وممتلئ بالغضب والتحدي؟

لكن العثور على خليل لم يعد ممكناً في الزقاق، ربما لأن ماضي خليل جاء من خارج أبوالرووس، ومع القضايا والصراع لإخلاء عمارة اللبَّان المعروفة بـ الجامعة العربية لم يعد لخليل الطيار من عنوان، فاجأ أبوالرووس ذات ليلة: ترك زوجته رمزية على باب والدها النزَّاح وتلاشى، حين يئس ناصر من العثور عليه أرشدتْه حليمة:

«ما لكم إلا يُسريَّة. اسألوها تدلّكم. أخت خليل تسكن رباط ولايا الحاج السلجدار، الطيار معروف، مهما غاب وأينما غطس لا بدَّ يرجع ليُسريَّة. يودُّها وتودُّه.»

لم يخطر لخليل أن أضطرَّه أنا أبوالرووس للتوغل لهذا العمق من

شبكة المنافي التي تتآكل أطرافي. حَمَلَ ناصر معه مُعلَّبات أغذية وأكياس أرز صغيرة، ترك سيارته بمدخلي قرب المقهى وتَوَغَّلَ وراء الصغار يدلونه، تسابقوا يتعاركون ويتنافسون حتى مع ظلالهم على الجدران المتهالكة مُهيجين أكبر غمامة من الغبار، بينما يتبعهم ناصر بحيادٍ لخارطة تتجاوز سلطته، ولجوا به في زقاق داخل زقاق، تحت أبنية متآكلة خاف أن تهوي على رأسه، حتى وقفوا وجهاً لوجه مع ذلك البيت بعمر مئة عام! قرأ مكتوباً أعلى بابه (وَقْفُ الحَاجِّ محمد السلحدار)، بمرحٍ رَجَمَ الصغارُ الحارسَ اليمني الراقد على مصطبة يمين الباب، حاول ناصر محادثته ليكتشف أن الرجل مخبول، بفرحٍ فتح الحارس فمه على اتساعه، ليكشف لناصر فكاً متفحِّماً بالسوس وقد تآكلت لثته وبلا لسان، كَرَّر الحارس حركتَه الاستعراضية مصدراً بعبعةً عميقة، فخوراً بضحكات الصغار.. فهمَ الرجلُ لُغةَ العطايا بيد ناصر، تَقَدَّمه إلى الباب، طَرَق مُصْدِراً أصوات وهمهمة، جاوبتْها من الداخل ثلاث تصفيقات مُلعلعة.. وامرأة تسأل: «صحافة؟ ولاّ جمعية؟» من دون أن يرفع رأسه أجاب ناصر:

«جئتُ من طرف خليل الطيار بأرزاق لأخته يسرية.» انشقَّ الباب، اندفعتْ رائحةُ الرطوبة، وتورات النساء وراء الأبواب، يُنصتن بوحشةِ أهل الكهف، بأعينهن على ما يحمل. بينما تقدمت تلك المرأة الطويلة بكتفين عريضتين، ملفوفة بشرشف صلاتها الأزرق بزهر أبيض، تُمَرِّرُ طَرَفَه ليستر فمها فلا تظهر غير العينين تدرسانه بين خطوةٍ وأخرى، وينزاح الشرشف ليظهر نثرات بياض شعرها الملفوف بعناية في منديل أخضر، باغتته بتلك التحية الرشيقة، بالإبهام لاصقاً براحة الكف وثلاثة أصابعها تكنس الهواء في مصافحةٍ عن بُعد بينما الخنصر مُعَلَّق في الهواء رشيق، قادتْه إلى حجرتها، لأول الأبواب التي تتوزَّع جانبيِّ الممر المعتم بالطابق الأول.

سأل: «هل زاركِ خليل مؤخراً؟»

سألته بتَوَجُّس: «صحافة؟» طمأنها: «لا.» بدا أنها لم تسمع، وربما لم تنتظر الإجابة، بَرَّرتْ سؤالها: «لأنه ممنوع التحدُّث للصحافة.» وأضافت: «خليل قال أن هناك قضية له في الطائف، سيذهب لإنجازها.»

تَعَجَّب ناصر: «الطائف؟!» تَرَكتْ بينهما فرجةَ الباب، دَفَعَتْ له كُرْسِيّاً ليجلس في الممر أمام حجرتها، بينما جلست هي على مقعدٍ مُطَهَّم مُحَاذٍ للباب بالداخل، صارت أمامه، بدأت يُسرية الحوار، شفتاها ترعصان كيرقة في حجاب شرشفها، وكلما سألها سؤالاً انسالت ذكرياتها المُعَتَّقة. للمحة خُيِّل لناصر أن المُتَحَدِّث ليس يُسرية بل لاعب الأُحجية، يفتح له رؤوس النسوة، ليقوده في مخازن ذاكرتهن التي تتآكل مع ذاك الرباط وتتهدَّم مع أجسادهن المنسية.. أذهلتْ ناصر حميميةُ وحِدَّةُ تلك الذاكرة التافهة قياساً بتغيُّرات الخارج، البطيئة قياساً بتسارعه. والتفاصيل، وتفاصيل التفاصيل، وهو ينصت، افتتحت بالقول:

خليل مسكون بديناصور بالأسود والأبيض، سيخبرك بأدق التفاصيل كيف كان يأخذه أبونا عبر مِسْيَال الشهداء الجنوبية بالطائف، لدار السينما التي كان في الستينات يحضر عروضَها مع جَدِّه وأصدقائه، يا حسرة هو فيلمَ وحيد كان يتكرَّر هناك عن الديناصور الذي يدوس المدن بقدميه العملاقتين، من يُصَدِّق أن أبانا قادرٌ في الستينات على شراء تذكرةٍ سينما، والجلوس في صفوف المقاعد مع بَشَرٍ يتفرجون على حكاية؟! هذه رفاهية مستحيلة الآن حتى في جدَّة بلد التطوير، أو في الخُبَر والظهران بلاد البترول. أبونا كان حريقة فلوس، ولا مضخات البترول، ضخَّ خليل لأرقى معاهد الطيران بأمريكا.. يكرر أننا يجب أن نُرَكِّب أجنحة ونطير ونتبوَّل على الحُفاة العُراة رُعاة الشَاة بالدستور الذي كان في الحجاز أيام الأشراف.. كلام قاده ليهاجر إلى مصر وينكسر ويقطع مصروفنا. أبونا خَلاصُه مقطوع بالنيل، تَقَاعَدَ وطَارَ. أنا تركتُ لهم الدنيا، وصار خليل يقول للشر اِجْتَرْ.. خليل تَزَلزلَ في حياته زلزلتين، الرجعة من أمريكا

والطرد من الخطوط، الله يستر على الثالثة.. رَجْعَتُه عبر الإطلنطي إلى مكة كانت أشبه بالتعليق على صراط بين جنة ونار، سمكة أخرجوها من الماء لتتخَبَّط في زقاقٍ مخنوق، ولم ينقذه غير السينما، كان خليل كأسد في قفص يقطع الطريق من مكة لجدَّة لحضور عروض السينما في القنصلية البريطانية، وكانت الدعوات تأتيه من ابن آخر سلاطنة حضرموت اللاجئ إلى جدَّة مع عائلته، التقاه خليل بمطار هيثرو في أحد توقفاته في طريقه لفلوريدا، ونشأت بينهما صداقة قبل أن ينتقل للإقامة بلندن نهائياً، وبرحيلِ ابن السلطان أُغْلِقَتْ تلك السينما بوجه خليل، مع كل الأنشطة الموسيقية والمعارض الفنية التي أقفلتها بوجوههم السفاراتُ مع نغمة تهديد الجاليات الأجنبية.

يسقط الشرشف عن الوجه ليُسفر عن الشفتين القاتمتين، تسعل يُسريَّة، وبأناقة قديمة تُرَوِّح الهواء حول فمها وتُتْبِعُ بثلاث خبطات خفيفة على الصدر العامر، وتُكمل بفم سافر، تعلك كل كلمة بلذةٍ:

يُصَنِّف خليل نفسَه بأنه من جيلٍ: أخذوه للبحرِ وأرجعوه عطشان، الجيل الذي فرَّ إلى السينما الأميركية ليمحو الصورة المطبوعة برأسه في السينما المصرية عن تحية كاريوكا أم سامية جمال؟ نسيتُ.. وهي تسقي الباشا ذلك الشراب الأصفر من حذائها الصقيل بينما يحبو حولها ككلب. يشعر خليل بأنه قد خَضَعَ ـ كما يقول ـ للتحوّل إلى المسخ الذي هو مزيج ذلك الباشا والكلب والوحش الأخضر، ليؤكد لنا أنه من عجينةٍ غير عجينة البَشَرِ البُسَطاء، وأنه خليطٌ مُحَدَّثٌ من أبطال السينما ورواد الفضاء، وأنه يليق بدنيا من الخيال العلمي، جرَّدوه يا حسرة من رخصته الفضائية وسرَّحوه يمسح شوارع مكة بتاكسي. يقول لي إنه في الطائرة دائماً يصير قطرة ليل شديدة السكون، سابحة وشفافة، يبحث داخله عن الفتاة التي أوقعتْه ـ بعد ثلاثين عاماً من الحُريَّة ـ في غرامها.. أقول له: يا خليل أنتَ لم تلمح غير خيال عباءتها! يقول: ولَحَسَتْ عقلي!.. هو الذي غزا

وسبى مراقص فلوريدا ولوس أنجلوس وبرأسه شريط من ليالي أبو نواس والدراويش الحشاشين. أفرطَ في كلِّ شيء، حتى في أحلام يقظته التي محورها تلك الموية من تحت تبن: عَزَّة الجاهلة التي تبلغ نصف عمره.. فلسفة خليل لا أول لها ولا آخر، يبحث عن امرأة بلا رائحة ويظنها عزة، يظنها من غير الصنف الذي جَرَّبَه في طيرانه، أكثر ما يُرعبه من المرأة الانفتاح على الغارب، ينجرف وينقلب جوفُه قرفاً، يصبح عنيفاً يقول إنه الديناصور يصحو ويدوس بلا شفقة. أذْكُرُ تلك الليلةَ، بعد أول عرضٍ لفيلم الديناصور، تَلَبَّسَ خليل الديناصور الذي اقتناه أبونا حين كان خليل في التاسعة: ظهيرة اليوم التالي خرج من بيتنا في القَرَارة ليُفاجأ بالبائع التايلندي، والذي بَسَطَ بَسْطَة البطيخ على عتبتنا، للمحة كان خليل يُدَحرج حبَّات البطيخ، ويقذفها بطول طلعة القَرَارَة لتتفجَّر كالقنابل. صراخ التايلندي بَعَثَ أُمَّنا من وراء روشنها، بصَفَقَةٍ حاسمةٍ ألجمتْنا، ربطتنا بحبل التهديد المتين: «يصحى أبوكم ويشوف فعايلكم!»

تضحك يسرية، وتُخبئ ضحكتها خلف يدها:

الديناصورُ ينقلب فجأة إلى فأرٍ مشلولٍ بالركن بانتظار الباكورة؟! حتى فاق أبونا في مجلسه وهبط علينا، وحرَّرنا بالضرب، شروخ طازجة وجاهزة للتمليح بأكتافنا وأقدامنا ومؤخراتنا. علامات تلك الباكورة هي اللغة الوحيدة بيننا وبين أبي. (خنزير في جنزير) هو ردّ خليل البليغ على قسوة أبينا نوري. لغة متوارثة من عهد الحكم العثماني بمكة، انتقلت لجَدّنا عتيق ثم سليمان ومنه لأبينا نوري لتنتهي لخليل (الواحد منهم يوقف على العتبة ينشِّف الرَّقَبة) رُسُلُ عذاب.

بعد المقاطَعَة والتعذيب ينفرج مزاجهما، ويصحبه أبونا في خرجاتٍ للبحث عن عمِّه إسماعيل، والذي لا ولم ولن نعرفه أبداً.

خليل رَضيّ، ما قَطَعَني أبداً، إلى هنا يجيء كل خميس، ليَصُبَّ قلبَه بين يدي. أنا وهو كنا شحمة على نار... وننقلب يا نار كوني برداً في

تلك اللحظات من العقاب. تتقارب أجسادُنا بشروخِ تلك العصا.

خليل انعجن بالقسوة، حتى حُبّه قسوة، في هذا العمر أراد أن يحبسني (حار بارد) لكن أنا وبعد الحريق زهدتُ هذه الدنيا الجديدة، ما لي عليها جَلَد، قلتُ أركع وأسجد وأخدم أخواتي. أرعى المُسِنَّات والمريضات، وأغلق أعينهن على الشهَادة.. عارفة طريقي: هنا مع أخواتي مقطوعات الحيلة، هنا سبع وعشرين امرأة بين ظلامين، ظلام الماء الأزرق بأعينهن وظلام هذه الغُرَف التي لم يُغادرنها ربما منذ ثلاثين أو خمسين سنة.

انصبَّتْ عينُ يُسريَّة إلى جوف المُحَقِّق ناصر، كمن ينتظر حُكْماً، ولم تلبث أن استرخت بابتسامة العارف: «وأنتَ ما حكايتكَ؟»

أجاب ناصر بحرج وبسرعة: «ليس لي حكاية..» لكنه وَجَدَ نفسه يُضيف: «أنا أيضاً تُحَرِّكني أحلامٌ كابوسية حول امرأة.» احتاجَ أن يُعيد تلك العبارة كترجيع صدى، لكن المرأة لم تكن تسمع، صماء، لكنها فهمت من ملامحه:

«هي نفسها؟!!»

«لا، رفيقتها.» مَسَحَتْه بنظرةِ عَجَبٍ، لم تلبث أن استحالت إلى شفقة،

«يعني هِيَّ هِيَّ.» وعادت إلى ذكرياتها:

أنا وخليل وَجَدنا الخلاصَ من قسوة نوري في بيت جَدِّنا لأُمِّنا والمُشرف على مقبرة المعلاة. راقبنا كلَّ جنائز مكة. نتبارى في تمييز الموتى: نُمَيِّزُ جنائز الشيوخ بغطائها المُحَايد عن جنائز الشُّبَّان بغطائها الأخضر، وجنائز الأطفال بغطائها المزركش، والأقفاص على جنائز النساء، والتي حَدَّثنا جَدُّنا عنها.

(هذه الأقفاص تقليدٌ شاع من عهد فاطمة بنت النبي عليه السلام، كانت أول من غُطِّي نَعشُها بهذه الصفَة من النساء في الإسلام، دَلَّتْها عليه

أسماء بنت عميس، قالت: «ألا أُريك شيئاً رأيتُه بأرض الحبشة؟» فدَعَتْ بجرائد رطبة، فحَنَتْها ثم طَرَحَتْ عليها ثوباً، مثل هودج العروس.) نتخيَّل فاطمة بنت النبي التي لم تأذن لأحد بالدخول على جثتها، حتى خرجت للبقيع في هودج عروس، يُخيفني خليل، يقول: أتصوَّركِ عروساً ساكنة لأقفاص جنائز النساء. ها أنا عزباء، لا تزوجت ولا دخلتُ دنيا، وانتظر هنا في قفص خروج جنازتي، الموت ألِفَني وألِفْتُه مِنْ ذلك العمر.

من نافذة ببيت جَدِّي كنا أنا وخليل نشاهد القبوري اليمني، وكيف يأكلُ بيدٍ قُرْصَ التميس وحزمةَ الكُرَّاث وباليد الأخرى يُلَمْلِم من قبرٍ طازجٍ عِظَامَ الميت الذي مَضَى على دفنه شهر ليدفنها في القبر الجماعي البعيد، نعرف قبر العظام ذاك الذي تتعارف فيه كل جماجم مكة، وفي البرد تُطقطق أسنانها، وتُقَوِّي قلبينا، نرقبُ حين يشتد القيظ، فيخرج القبوري في فوطته الحمراء وكوفيته البيضاء الخفيفة، حافي القدمين يسير على التُّربة الحارقة المعجونة بالموت، يجتاز الحوطات، وتحت وقد الشمس يرشُّ القبورَ، ويُبَرِّد الموتى، ويقف على القبر المنبوش حديثاً ليسكر بالعَفَن القوي.

ما بين الموت والقسوة أمضينا طفولتَنا رواحاً ورجعةً في مهرجان أقدم أسواق الحرم، وعَرَفَنا كلُّ تُجَّار (سوق الليل) والمُدَّعَى بصفتنا (حفيدا شيخ المعلاة الوحداوي) المُشَجِّع رقم واحد لفريق كرة القدم (الوحدة).

خليل كان يتجوَّل ببيت جَدِّنا في زِيِّ الوِحْدَة الأحمر الأبيض، يُنافسني في ذاك السباق الأبدي على فخر جَدِّنا، لكن جَدِّي كان يُسميني (وجه البُقجة) يتباهى بي، يأخذ بيدي مخترقاً المسعى للأسواق المتلاحقة: يبدأ بدار أبي سفيان بموضع القبانية الصحيَّة التركية بالمَسْعَى، ليعبر بي زقاق البيض حيث أقفاص الحيوانات الأليفة، والمشغولات اليدوية، نقف للتأمل في تلك الأرانب بعيونها القرمزية، لحَرَاج سوق

الليل، فزقاق الصاغة، ثمّ ينعطف شرقاً لسوق الغزة. أشبه بنزهة في تُحف النجّارين والخرّاطين، وعن الجانبين تستقبلنا التحياتُ:

«يِحْفَظْ يِحْفَظ يا شيخ!» يرتفع صوتُ بافقيه تاجر الحرير، ويلحقه صوت الفضل تاجر العطور، ليُجيبهم جَدّي: «لنا ولكم! »

يَتَضَخَّم صوتُ جَدّي، تتسع عيناي بفخر. يتجه بي شمالاً إلى سوق المُدَّعى:

«تبارك الله.» يُحَيِّيني الشيخُ الوَزَّان، حيث المَغَالِق الكبيرة المتخصصة في المواد الغذائية والعطارة ودكاكين النُّقَليَّة والقمَّاشين:

«يا الله يا كريم، تَنَكَة ذَهَب وبنت الحلال..»

أطلقت يُسرية تنهيدة: يرحم أيام زمان عشناها نغمس اللُّبَة في الملح ونشبع. هذه الذكريات هي التي أعيش عليها هنا وأُشاركها أخواتي. تُسَرّي عنّا.. لا نريد تلفزيوناً ننام على نوره، فقط لمبة صغيرة صفراء لا ينقطع تيار كهربتها في المساء...

تلمع عيناها لذكرى ضوءٍ أصفر قادم من بعيد:

في الثاني عشر من ربيع الأول يأخذنا جَدُّنا في طواف يبدأ بموضع ولادة المصطفى بدار بن يوسف، بمقَدمة شِعْب علي بآخر سوق الليل على قدم سفح أبي قبيس، حيث يُصَوِّر لنا المشاعل والشموع والفوانيس التي تجتمع هناك بعد صلاة المغرب، يقف بنا ويحفر في ذاكرتنا: تحت مكتبة الكُردي هذه وفي هذا التراب بقعة مولد حبيبنا محمد، احْفَظَا وعَلِّمَا: يقرص بيدٍ أُذني وبيدٍ أُذن خليل ويُكَرِّرها قبل أن يَتَحَرَّك بنا، وينتهي بنا إلى سوق العجائب،الجُودَرِيَّة: سوق الحذائين، حيث تَجَمُّع القَطَّانين صانعي اللُّحف الملونة، نقف لساعات نرقب وَتَرَ عَزفِ القطن، والخَرَّازين وهم يصنعون الأحذية والمصنوعات الجلدية، وينتهي بنا إلى سوق المَعْلا حيث باعة الحبوب، ثم حلقات الخضار والبرسيم والفحم والحطب، لينتهي بحَرَاجِ العصرِ كلَّ جُمْعَةٍ، هناك تُعرض تُحَفٌ من أثاث

البيوت المستعمل. وفي جُمعةٍ اشترى لي هذا المقعد المُلَبَّس بالصَّدَف السوري، الذي أنقذتُه من الحريق ونسيتُ أمي، وصَمَّمتُ أن يرافقني إلى هنا... وكنتُ أجلسُ عليه بانتظاره ليصطحبني في تلك الجولة.

تأمَّلها ناصر وقد أخرجته من موقع مُحَقِّق إلى موقع شاهد.. ثم تمتم يسألها: «ألا تفتقدين كل ذلك؟» ولم تسمع ولم تُجب، طلبت يسرية منه أن ينتظر وقامت، غابت في الحجرة ورجعت ببقجة، وَسَّدَتْ تلك البقجة إلى حِجْرها، وسَكَنتْ، استرخت راحتاها كحمامةٍ على البقجة من ساتان قديم، بعينها لا تُفارق تكويرتها قالت:

في هذه البقجة كل ما يَعزّ عليَّ.. شوفْ وكَحِّلْ عينك!

حين رَفَعَتْ يدها عن البقجة ظَهَرَ ذلك التطريز: تَرَكَّنَتْ البقجة بشجيرات ورد، مدكوكة من كل لون في مَرَاكن، المراكن مقلوبة قاعدتها لركن البقجة بينما شجرتها ساقطة باتجاه المركز، في ذلك المركز بقلب المساحة البيضاء للبقجة تقفُ امرأةٌ بتنورةٍ عصرية مبسوطة الذيل، وأصابع عامرة بالخواتم، شَعرُها فاحم، مُجَعَّد كبطلات السينما المصرية القديمة، وشفتاها مرفوعتان بحمرة قانية، وتحمل بيدها باقة ورد، في حركةِ انطلاقٍ تَخطو قدماها في حذاءٍ أسود بكعبٍ عالٍ، في خطوةٍ جانبية لامرأة تقطع لتخرج ولتُقَدِّم تلك الباقة الخضراء.. لمن؟.. مَنْ هذا الذي تَتَوَجَّه إليه؟ غُرَزٌ في جِلْدِ ناصر مثل حباحب، لاسمٍ وحيد، خَرَجَتْ أحرفُه مُتَراكبة لتُعلن عن صاحبها من صفحة النسيج..

أخرجتْ يسرية من البقجة جناحاً ذهبياً مبسوطاً حول دائرة، قالت: دبوس الجيب شَارَة طياري الخطوط السعودية. وهذه قُبَّعته تحمل نفس الشَّارة، تَرَكَها خليل معي، ولم يَتَفَقَّدها منذ الطرد المشؤوم.

يُقاطعهما طرقٌ على الجدار ويسأل صوتٌ أبحُّ: «يا أختي هذا مندوب من الجمعية الخيرية؟ اسأليهم ليه أخَّروا المبولة، قَصَّيتْ ظهور أخواتي يشيلوني طول الليل للحَمَّام.» تدق يسرية مجاوبة، ويأتي صوت

آمنة: «وُلِدنا في صندوق وسنموت في قطعة قماش. . نَوِّرونا هنا. . ادفعوا عنا فاتورة الكهرباء. . فاتورة الكهرباء يا مسلمين.»

«خير إن شاء الله. . .» هبَّ ناصر واعداً لا يعرف بِمَاذا. وللحال لَمَحَ ستارة تتحَرّك وأطَلَّ منها وجه رابية:

«ثلاثين عاماً ما غَادرتُ فيها غرفتي. . زُرنا. . يا ابن الحلال لا تِقْطَعنا. . لكن حَاشَا لله لا تصَوِّر، ولا حتى الستارة. .»

(عليكَ العودة إلى هناك يا ناصر، لن يكلِّفك الأمر شيئاً) انصرف ناصر مُخاطباً نفسَه. يَتَذَكَّر ما قرأه عن أحد المحسنين في الشبكة: (ربع دجاجة، حفنة أرز، حَبَّة سمبوسك، 4 تمرات، زجاجة ماء، عبوة صغيرة لَبَن. بمبلغ 300 ريال لعدد 27 نزيلة، اتفاقية مع أحد المطاعم، يجعل سعر الوجبة 6 ريالات، يا بلاش.)

(عليكَ أن تعود زائراً لمَرَّةٍ واحدةٍ في الشهر ومُحْسِناً مَرَّة في العام يا ناصر، لن يُكلِّفك ذلك شيئاً.)

***

من عائشة / رسالة 10:

يدهشني صراعك مع تلك المرأة التي هي زوجتك للبلوغ بها ما لم تبلغه مع رجل من قبل..

ذلك السعي الحثيث المدمر في نفق اللاإشباع، مررتما فيه بكل وسائل التحفيز الممكنة من الكتب المتخصصة لاختصاصيِّي العلاقات الزوجية للأفلام الخلاعية، لأعوام أربعة انتهيتما فيها إلى دمار كامل لمعنوياتك كرجل فحل..

من رؤيتي الآن، لربما تلك الرحلة. كانت الجحيم الذي صاغ ما أنت عليه الآن..

لا أعرف السحر الذي تمارسه، لكنك تجعلني أُحَلِّق، يد على المركز.. هذا هو الطيران.. جسدُ المرأة عين إعصار في غفوة، أتعرف أين يكمن مُحَرِّكه؟ في الانتشار على الكون، وبقدر ما ينتشر منفتحاً بقدر ما يُحَلِّق..

أعلى وأعلى شاحذاً لسان ذلك البرق، لينبثق من أطراف الأجنحة ضارباً للمحور،
اقرب ما يكون لنزع الموت، تصفيق أجنحةٍ بين الأضلع والجوف وفي الساقين..
تنفتح عين الإعصار لتمتص العالم وتطلب المزيد،
جسد الرجل لا يزيد عن قاذف، بينما جسد المرأة شافط للكون!
لما بعد ساعة كانت هناك عضلة لا تزال تختلج بساقي..
هل أبدو لكَ كمبتدئة؟ بوسعي المضي للأبد في الشرح..
والأكثر من ذلك أنني أشعرُ بشجرة البَرق لا تزال ضاربة في كل ما يُحيطني...
عائشة

ملحوظة 1:
هل تذكر ذلك الصباح حين التقينا بالصدفة في المكتبة العامة، صَدَمَتْكَ رؤيتي، لكنكَ تلكأتَ لتقرأ البحث على شاشة كمبيوتري، عن ذلك النجم الميت الذي اكتشفه أحد الهواة بالصدفة، بهالة خضراء تحيطه، وبثقب في القلب..
عينك لم تكف تذهب إلى الباب بقلق، عرفتُ أنك على موعد مع إحداهن، لكم أشفقتُ عليكَ، وسعيتُ لتخفيف قلقكَ، قلتُ:
«هناك بقعُ سواد في الفضاء تستهدف النجوم غير المكتملة..» ضحكتَ لقولي غامزاً: «وبَعَثَه للحياة هاوٍ مثلي؟!».

ملحوظة 2:
أذكر الآن أغنية أمي مع أمي حليمة عن مَنْشَأ الإنسان: «واختلط موية بموية..» تضحكان: «لكم كنا سُذَّجاً حين نُغَنِّي هذه الأغنية علناً ونحن صغار..»

التوقيع: عائشة.

يَتَحَيَّنُ معاذُ أوقات فراغه ليذهب إلى يوسف. رغم علمه بأنه قد يُثير الانتباه، إلا أنه بدا عاجزاً عن الابتعاد عن ذلك الكنز الذي سَلَّمه مفاتيحه طائعاً، شاعراً بالحرمان، يتحسَّر أن سُلِبَ منه ذاك العالم.

لحظةَ خطا معاذ في دهليز اللبابيدي شعر بالتغير العميق الذي طرأ على روح البيت.. لكأنما البيت يتآمر مع يوسف، يُدخله إلى مَوَاقِع لم يدخلها معاذ ويريه من الصور ما لم يره.

ردُّ فعلِ معاذ الأوليّ أن يركل يوسف خارج البيت.. كتم غضبَه وفَكَّرَ في أن يحبس يوسف في حجرة الدهليز ويستردَّ مفاتيح الطوابق العليا..

ثم تَدَخَّلَ حافظُ القرآن فيه ليشمل يوسفَ بإحسانه.. غيرةٌ حارقة تتملَّكه: «ما الذي يُمَيِّز يوسف مما يجعل البيت يؤثره عليه؟» تَجَنَّبَ يوسفُ نظرةَ معاذ المُتهِّمَة مخفياً شعوراً عميقاً بالذنب، ففي الأيام التي بقي فيها وحيداً بذاك البيت سقط في وحدة قاحلة.. مما دفعه للتسلل إلى ذلك المجلس العامر بالوجوه، كان بحاجة مُلِحَّة إلى التواجد بين تلك الملامح المكيَّة، هناك وجوه لا بُدَّ أنه يعرفها ووجوه تعرفه بلا شك وقادرة على توطينه.. وجهٌ منها ربما كفيل بأن يمنحه مكاناً، كمركز لمنظومةِ المَشَاهد المكسورة حوله، والإزالات الكاملة لمعالم المكان العريق. حَدَّق في كلِّ صورةٍ لم يترك جداراً لم يستنطق صُوَرَه، ينبش عن خيوطٍ تُحْكِم نَسَبَه لمكة، أو لأبوالرووس، يطَّلع على أحداثٍ فاتته في حينها قادته لهذا التشريد. لكن وطوال الوقت كان يعي تماماً أن ذلك لن يروق لمعاذ، لكن البيت بدا كمن يستدرجه، كمن يرغب لذاكرته أن تُنبش وتُعاش من جديد..

حَفَرَ معاذُ بوجه يوسف، العين التي تتجنَّب النظر في عينيه تقلقه.

هل كان يوسف يستعمل عين التاريخ لرؤية مكة المخفية هناك؟ بينما هو معاذ يستعمل عين الفن، نفس العين التي كانت للّبابيدي؟ عين الفن شافية خالقة بينما عين التاريخ تحفر الندوب. لِمَ سَمَحَ لتلك العين العاديَّة بالولوج إلى كنزهما؟ وبلا وعي سارع معاذ يسابقه لأكبر الندوب بذاك العالم، قال:

«من على هذا السطح طَوَّحَتُ بدفتر ذنوبي..» وانتظر ليرى وَقْعَ كلماته على يوسف، لكن يوسف ليس أباه المحموم بدفاتر الذنوب، أكمل:

«مستجيباً للفخر الذي ملأ صدري حين عيَّنتْني ماري لحمل مفاتيح تلك الطوابق، وكانت ماري قد حَذَّرَتْني من دخولها بغير تكليفٍ منها..» تأمَّلَ في المنفضة بيده، بينما التزم يوسف الصمت، مدركاً في صوت معاذ نبرةَ التأنيب على جرأته بالاقتحام للمجلس:

«بهذه المنفضة من ريشِ طاووسٍ كنتُ أنفضُ الغبارَ عن الزمن المكي، وأُعدِّلُ الصُّوَر، وأُنَظِّفُ أحواضَ التحميض، وأستبدلُ مصباحَ هذا الضوء الأحمر..» حاول إشعاله، المرة تلو المرة فلم يُفلح، تَعَمَّقَتْ شفقةُ يوسف قال:

«لا بدّ أنهم قد قطعوا التيار عن هذا البيت منذ زمنٍ..» صَمَتَ معاذُ مُتَجَوِّلاً أمامه، لم يجد الكلمات التي يصف فيها ليوسف هذا الجزء من دخيلته، هذا الوجه من وجوهه الذي عثر عليه في هذا البيت،

«أتعرف الآية 260 من سورة البقرة، التي يطلب فيها عيسى من الله: أرني كيف تُحيي الموتى.. حين يأمره الله: فخذ أربعة من الطير فصُرَّهن إليك ثم اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهن جزءاً ثم ادعُهن يأتينك سعيا؟ حين ناداها بإيمانٍ فجاءت الأشلاء تسعى؟ أنا كنت هذا الطير، أشلائي مبعثرة على جبال مكة وفيكم أنتم شبان أبوالرووس، وجاء هذا البيت، وهذه الكاميرا، جَمَّعتْ أشلائي لأطير كاملاً..» جاهد ليُفْحِم يوسفَ وليُقَوِّض

تماهيه بالبيت، «مثل لعبة البحث عن الكنز.. نحن.. أعني.. حقيقةُ الواحد مِنَّا، مبعثرة بين كهوف وجبال وصحارى، في مواقع وبَشَرٍ بطول الأرض. ونحن.. أعني المحظوظ مِنَّا هو الذي يعثر على حِصَّةٍ تلو الحِصَّة من ذلك الكنز.. أنا عثرتُ على حِصَّةٍ ضخمة من كنزي في هذا البيت، فيما سمحتْ لي ماري باكتشافه هنا من خلال عدسة التصوير.. وحِصَّة أخرى عثرتُ عليها في حفظي للقرآن.. لا.. القرآن هو القوة أو الإيمان الذي ناديتُ به تلك الأجزاء فجاءتني سعياً وأكملتْني..» بعد صمتٍ أضاف، «أنتَ لم ترني قَطّ يا يوسف، لقد كنتُ مثل ظِلٍّ لكم جميعاً أنتم شبان أبوالرووس اللامعين. كنتُ شريحة نيجاتيف لصورتكم، مجرد شريحة ترسمون عليها بطولاتكم.. بينما هنا، اكتشفتُ أنني مَعَاذ بالأبيض والأسود، وليس مجرد معاذ المُبَرمَج لحفظكم. أنا مُظَهِّرٌ لهذا العالم، أنا استمرارية لهذا العالم، طوال الوقت كان بانتظار عدستي وضوئي الكاشف، وصبري كفنان. ماري ببصيرتها المُدَرَّبَة رأتْ كلَّ ذلك فيَّ. فاجأتني بكاميرا المحترفين هذه، وقالت: لكَ! الكاميرا التي جاءت كقطعة مفقودة مني، قطعة لم أتوقعها من قبل رَجِعَتْ إلى جسدي لتكمله... لطول تجوالي بين الطوابق تَقَمَّصَني اللبابيدي، عَزَلَني.. وتفرَّغت لي فعَلَّمَتْني استعمالها، صوت انغلاق العدسة ارتعد له كامل جسدي.. أتعرف؟ وأنا أكبر كان جسدي يشعر بالكاميرا المفقودة، يشعر بفراغ توأم لجسدي، حتى تجسَّد ذلك الفراغ في عضو حقيقي هو هذه الآلة الصغيرة، الحساسة للنور.. عَلَّمتْني ماري كيف أرى وما أرى، بينما علَّمني القرآن كيف أرى النور في الظلال، وعلَّمتْني ماري كيف أمسكُ وأُجسِّدُ ذلك النور. طِرتُ بكاميرتي إلى خارج تلك القلعة.. نبضي يتسارع، أُحَدِّثُ نفسي بأنني: سأبدأ من حيث بدأ اللبابيدي.. سأقبضُ على جمالٍ مُوَازٍ، مُنَافِسٍ، يُثبت جدارتي... لأول لقطةٍ وبتلك الكاميرا بين يدي أدركتُ الفرق فوراً، صَفَعَتْني حقيقةٌ آلمتْني: عدسةُ اللبابيدي

للبناء وعدستي ستكون للهدم.. كاميرتي عَرَفَتْ في بحثها حجمَ التحولات التي طرأتْ ليس فقط على جسد المدينة وإنما على روحها، التي عَدَلَتْ عن استحضار المهدي وتجسيده إلى ممارساتٍ تُحَضِّرُ روحَ الدَّابَّة التي ستضرب بذيلها الأرضَ وتدفنها حية... رَفَّتْ عيني آلاف المرات في الدقيقة الواحدة وهي تتبع انغلاقَ مِصْرَاعَي عين الكاميرا السريع وراء رواشن تنهار، مرايا تخرج مسرعة من شظايا بيتٍ، أقواس تركع في مجلسٍ مبقور، انغلاق بوابات بديعة لآخرِ مَرَّةٍ وراءَ قِطَعٍ تَحملُ بصمات حرَفيي العالم القديم، قطعٌ جصيَّة وخشبية تتبارى بالبديع تُقْذَفُ بخجلٍ بآياتها وأبياتها إلى أحواشٍ مهجورة، تنتظر البعث تحت الغبار بين نارين: عين مُنْتَهِزٍ يمتلكها بوضع اليد، أو نَخْر يتآكل عَرَقها ودمها.

للآن أشعرُ بعين ماري ترقبني بصمتٍ وأسى، أرادتْني أن أُعايِنَ، وأن أُعاني وأُدرك زحفَ الرمال القادمة من الجهل والخوف، ماضية تُبيدُ وتردمُ، وتقترب أيضاً من قلب ماري. التي لم تشأ أن تُقارب عوالم كاميرتي، فعَلَّمَتْني كنتيجةٍ حتميةٍ تحميضها وتظهيرها.. فأعلنتْ بذلك تَطَهُّرها وبراءتها. وللحال ظَهَرَت بين عوالم اللبابيدي كائناتي الميئوس منها.. منسيّة.. سريعة.. مُرْتَجَلَة... ومعها سَقطتُ ببطء... أرعبني أن أبدأ بالموت.. فهجرتُ الكاميرا لأيامٍ لم تُعَلِّق فيها ماري.. ودَخَلَتْ في الصمت...»

يذكر معاذ ليوسف كيف صحا ووَجَدَ نفسَه مُتَوَسِّداً حَجَرَ الرَحَى على أرض المطبخ بسطح اللبابيدي، وكيف داخلتْه ثورةٌ: إما أن يكتسح بالخَارِج للداخل فيكون نبضاً في مَنْظومته أو يُخْرِج ذلك النبض لنبض الشارع الحديث، يَصِلَه به.. قَرَّرَ أن يبدأ بالأخير.

حين وَقَفَ ليختار من تلك العوالم المُتجسِّدة بالأبيض والأسود لم يجرؤ.. كل ما استطاعه أن يلفَّ في قطعةِ إحرامٍ مَطْويَّة لسفرٍ مجموعةً من وجوه حُجَّاج الثلاثينات وينطلق بها.

لم يكن يمشي بقدر ما حملتْه تلك الأجساد القديمة والتي ظَلَّتْ تحجُّ على أقدامها من آخر الأرض، انتابتْه بُطولةُ أن يُفْرِج عن تلك الكائنات لتستأنف حياتَها الروحية بمكة، لم يعرف أين يبدأ بإطلاقها، قادتْه قدماه إلى المُعلِّم بالمدرسة الابتدائية حيث تَلَقَّى أولاد أبوالرووس تعليمهم، خَطَرَ له أن تلك الصور لا بدَّ أن تُعْرَض لكلِّ التلاميذ تدخل في تجويد الخطِّ الذي يكتبونه والقراءات التي يمضون إليها، تكبر معهم.

حين رَفَعَ المُعَلِّمُ رأسه من تَأَمُّلِ حَفْنَةِ الصُوَرِ قال:

«كل هذه البَشر والحجر والشجر، ستُسأل فيها. هل تستطيع نفخ الروح فيها يوم الحساب؟» كان المُعَلِّم يقرأ قراءةَ شاهدِ عيانٍ ليوم القيامة، وتقاطعت برأس معاذ كل الخطوط الحمراء على رقاب الحيوانات بكُتُبِ العلوم والمُطَالَعة. وتَخَيَّلها تزحف على رقاب أولئك السادة والحُجَّاج التي خرجت تركض. أدرك معاذ أنه لن ينتظر إلى يوم القيامة، اختطفَ حفنة الصور وتَلاشَى إلى قلعته، لا حياة أخرى لتلك الوجوه.

بعد ذلك الاعتراف الطويل لم يعد بوسع معاذ الابتعاد، يُلِحُّ معاذ ليسرع إلى يوسف ببيت اللبابيدي، يحكي له، يخشى إن كَفَّ عن الحكاية أن يصير البيتُ ليوسف. تنقلاته تلك لم تلبث أن استرعتْ انتباهَ المُحَقِّق ناصر، مُسْتَغِلاً الإغلاق لساعة الغداء أسرع معاذ إلى حافلة النقل الجماعي، إلى مَطَالِع جبل هندي تَبعَه ناصر، وتحت تلك العمارة بإعلاناتها شقق للإيجار لَمَحَه يلتقي شاباً طويلاً، ذلك الخيال الرفيع ذَكَّرَ ناصرَ بشبحٍ في يوميات يوسف، زادت ضرباتُ قلبه كمن سيلتقي غريماً، صَفَقَ باب سيارته على عجل واندفع صوبهما، خُطاهُ المُتَعَجِّلَة استرعتْ انتباهَهما فحَثَّا الخُطى، فيما توجّه معاذُ صَوبَ ناصر قاطعاً عليه الطريق..

«من هذا الذي كان معكَ؟» بهدوء وَاجَه معاذُ تلك اللهجة المُتَّهِمَة،

«مَنْ؟!»

«هذا الذي كنتَ تُحادثه. .» حين التفت ناصر لم يكن للشاب من أثر، لم يعرفْ أيَّ سبيلٍ سَلَك، ابتلعه الجبل.

«رَجُلٌ يسأل عن فندق السلام.» أُسْقِطَ في يد ناصر،

«ما الذي تفعله هنا؟» أشار معاذ إلى كيس التسوق في يده،

«أشتري التمرَ السُّكَّري لأبي الإمام.» ظلَّت تلك النظرة المُصْمَتَة في عين معاذ تحفر بقلب ناصر طويلاً بعد تَلاَشي معاذ. أنفُه البوليسي التقط رائحةَ طريدةٍ طَالَ بحثُه عنها، حرارةٌ في صدغيه تُؤَكِّد شكوكَه، تحت وقد الظهيرة قضى ناصر يَتَجَوَّل في الجبل، يتأمَّل في البيوت والوجوه، يدخل الدهاليز المُشْرَعة والخرائب، كان يبحث عن الخيال الطويل، يعرف أن بُغيتَه بمكانٍ ما في تلك المتاهة.

ذلك المساء، ناضل معاذ للرجعة، كان من الحيوي أن يُثبت ليوسف وللبيت أن ليس بوسعهما التخلص منه وإن تضافرا مع قوى معادية كناصر هذا الذي يسد عليه الطريق لكنزه.

استقرَّ الجبلُ وانغلق عليهما بيتُ اللبابيدي، مُقَطِّباً جلسَ معاذ على السطح تحت مئذنة الحمَّام التركي ليرقب يوسف والبيت، أراد أن تحتويه هدأة الغروب بالأسطح كما اعتاد. في صمته الطويل هاجمَ معاذ الألمُ القديم، فجأة لم يعد بحاجة إلى الغيرة ولا إلى الاستحواذ ولا إلى المزيد من التعب، حكى ليوسف أهمَّ أسراره بعد أن صلَّيا العشاء على تلك الأسطح، قال وهو لا يزال متجهاً للقِبْلَة:

يوم اكتشفنا جثةَ أبوالرووس، التجأتُ هنا، وجدتُ ماري جالسة جلستها، تضع ساقاً على ساق، ومُرَكَّنة بوسائد الدمسق برأسها تميل على وردة الألماس أعلى ثديها الأيسر، مثل قمرٍ ساقط على وردة، بالقبعة الموسلين تَتَشَبَّث بخصلاتها المُكَفَّتة في ضفيرة بالأبيض والأسود، عدستي كانت لا تزال مهزوزة من جثة أبوالرووس، فجلستُ على الأرض أمامها أرتعش، حين انقضى وقتٌ ربما ساعات أو أيام ولم تُجِبْ رَفَعتُ عيني،

تَبَيَّنتُ أني أواجه فَقداً جديداً هنا. . أدركتُ أنني أمام موتة قرنٍ من الزمان، ولا أجرؤ على مد يدي إليها!

للآن لا أعرف هل قتلتُها أنا؟ دخلتُ عليها بجرثومة الموت، اقتحمتُ، ودَمَّرَت عالَمَها؟

ذاك المساء بَدَتْ سماء مكة مثل صفحة مرآة مُفَرَّغةً من اللون لا تعكس ناسَها، تَشَظَّتْ مثل طُرُق في السماء خارجة داخلة للحرم مثل نحل حول خلية، لم يعد يبين الداخل مِن الخارج. دخلتُ زَمنَها أدركتُ أنها أرادت أن تُتْرَك حيث هي، مُشْرِفَة على الحَرَم الذي أمضتْ نصفَ قرنٍ في تصويره، لكنني خفتُ أن أُجْرِم بحقِّ جثمانها، جَرَرتُ مقعدَها كما هو، إلى حجرةِ التحميض تلك بآخر السطح، قرأتُ عليها سُورة المُلْك وأغلقتُ البابَ. . . جمعتُ صوري الدخيلة الآثمة، هبطتُ السلالم، أغلقتُ بابَ اللبابيدي على الرؤوس المُهَدَّدَة بالقَطْعِ، دَفَنْتُ حزمةَ المفاتيح بمحاريبها المُتَرَاكبة في أعلى درج مئذنة أبوالرووس، لَملمتُ عليها أذانات وقيامة وقرآن أبي، ولم أُخرجها قَطّ. حتى احتجتَ أ: ـَ يا يوسف إلى مأوى. . . أقفلتُ على نفسي صبيّاً للولي صاحب استديو الحداثة في حَارَة الباب. موتهما المُتَزَامن نهاية عظيمة، «ألا تظن ذلك؟»

ارتعد الهواء حولهما، أربكتْ يوسفَ حرارةُ تلك الرغبة في الحصول على موافقته، على إعجابه. . أَيُعْقَل أن تكون لمعاذ يد في. . . قَطَعَ تيار تلك الفكرة. . .تَجَاهَلَها:

«أُدركُ صعوبةَ أن تأتي هنا. .»

«ليس كصعوبة الذهاب إلى هناك.»

«هل عثروا على مفتاح الكعبة؟» أراد تصريف ذلك الحزن.

«لا، لكنهم يصبّون واحداً في تركيا، يقولون سيكون جاهزاً في موسم الحجِّ، مع طقس غسل الكعبة للإحرام. .»

مانيكان

لَفَتَ المُحَقِّقَ ناصر ما جاء في نافذة يوسف عن هذا الذي يسمّونه تيس الأغوات، الشخصية التي تمارس ذبح الخراف كطقس يومي، أن يتأكَّد مما وَرَدَ في نافذة يوسف التي يمكن أن تكون دليلاً يُبَرِّر غيابه عن الزقاق لحظةَ وقوعِ الجريمة:

اشكُّ في كونكِ ستعرفينني حين أناديك بهذا الصوت: يا عَزَّة!

فقدتُ أهم وجوهي في المرآة، فقدتُ تيس الأغوات.

لن يراني أحد كما رآني تيس الأغوات، كلُّ نظرةٍ يلقيها صوبي تقول: أنتَ موجود، ومواطن، ومنتمٍ، ومُؤَرِّخ.

امسكوه يُهَرِّب ذبائح غير نظامية إلى مطابخ أبوالرووس!!!

احتفالية صور وألقاب بجريدة أم القرى يا عَزَّة، للأبطال الذين قاموا بالمداهمة هذا الفجر من البلدية وإدارة الوافدين بجوازات العاصمة المقدَّسة، مستهدفين المسالخ العشوائية.

اقرا بصوتٍ مسموع عند نافذتكِ بينما يُطقطق إصبع الفحم بين أصابعكِ، أما زالت جذوعكِ فارَّة من مجزرة، هل صَدَّرتِها بختم البيطري؟ لا أستطيع الكفَّ عن القراءة والإعادة:

(تمَّ ضبطُ 140 طناً من اللحوم الفاسدة المهيأة للتوزيع للاستهلاك البشري، وضبط عِمَالَةٍ تقوم بذبح إناث الجِمَال وكذلك الأغنام.... وتَمَّ التأكيد على أهمية الذبح النظامي للإناث بختم الأطباء البيطريين... واتفقت تقاريرُ الخبراء على خطورة العبث والاستخفاف بالحيوان المريض، عرضوا أكثر من 200 مَرَضٍ مُشْتَرَكٍ بين الإنسان والحيوان، ليس أخطرها الحمى المالطية وحمى الوادي المتصدع والحمى الفحمية، والجمرة الخبيثة، والسل، وداء الكلب السعار والدودة الشريطية، تنتقل للذابح من ملامسة الأنثى المذبوحة، ومنها للآخرين..)

معظمها هنا الآن تُتعايش مع أهلِ أبوالرووس بسلام، وتُشاطرهم فيروساتها.

كما ترين يا عَزَّة، بشهادة تقرير الخبراء، فتيس الأغوات ناقل لما لا يقل عن مائتي وباء..

والأدهى، أنهم يكذبون، يُرَوِّجون أن تيس الأغوات قد سَرَقَ صندوقه (صندوق المسؤولين الكبار) وبَدَّدَ في التهريب كلَّ التبرعات المُعَدَّة لتوثيقه.

«ألا تتفقين معي؟ هي حبكة عفنة، هذا التزامن في إصدار قرارات هيئة سوق المال مع حملات الكشف عن المفاعلات الإيرانية....»

يسخر أبوالرووس ويروِّج بأن مهبل أم السعد قد ابتلع ربيبَها، بينما، بلا شك وَصَلَكِ يا عَزَّة دخان الحريق. حين بلغه النبأ قام العشي بحرق أرشيفه، وخرجت أم السعد سافرة بلا حمرتها الفاقعة، أُصيبت بانهيارٍ عصبي. أوقف عربة أجرة على الخط السريع وغادر بها أبوالرووس..

كانت الشمس عمودية مع الشكوك على رأس المُحَقِّق ناصر حين غادر مقر شرطة الترحيل بحي أم الجود (كَتَبَ ملحوظةً عن حِيلَةِ خَلْعِ المُسَمَّيَات تلك، أبوالرووس لدرب النور، وأم الدود لأم الجود في عمليات تجميلٍ للتاريخ. يُدْرِكُ ناصر أنه لو أطال البقاء في تلك البقعة ـ بين دوائر التزوير والترحيل والجوزارت والجنسية ـ لبدأ الدودُ ينخر في عظامه من المَقْتَلَةِ العظيمةِ التي تَمَّتْ في هذه البقعة).

قاد سيارتَه على غير هُدى وبرأسه تلك الوجوه المُتَعَرِّقة في زِيِّها الكاكي وقوائم الترحيل اللانهائية، والتي لم يعثر فيها لاسم صالح تيس الأغوات على أثر، وما لم يُقَدِّم ذلك الشاب نفسَه باسم مُستعارٍ فإن تيس الأغوات قد أفلتَ بعد القبض عليه، دَفَعَ رشوةً ربما أو أغرى جندياً برعونته وجماله أو ربما وببساطةٍ أسعَفَه الحظُّ بالفرار. تَوَقَّف المُحَقِّق ناصر عند ذلك اللقب (تيس الأغوات)، أيمكن أن تُدلي باسمٍ كهذا لأيِّ

مُحَقِّقٍ أو جهةٍ رسمية؟ (ما هيئة الأوراق الرسمية والمُعَامَلَة السارية في ملفات وزارة الداخلية) التي تَقَدَّم بها العشّي وزوجته ووَثَّقها، وتَقَاضى الرشوةَ لمُتَابَعَتها الوسيطُ أحمد الابن البكر للنزَّاح زوج عائشة؟! مهما استعان بأصدقاءٍ في حواسيب الأحوال المدنية والجوازات ووزارة الداخلية، لم يعثرْ ناصر على أثرٍ لما يُسمى بمعاملة تجنيس (تيس الأغوات)، أو (التركي) أو (صالح) أو (النخْوَلي) أو (مرمرة)، كل تلك الألقاب التي تَحَرَّكَ وعاش بها ذلك التركي المليح في أبوالرووس، والذي اجتمعت الإفاداتُ على أنه المُرَشَّح، لبياضه وفتنته، لتلقيح بنات أبوالرووس!

سَجَّلَ ناصر ملحوظة: «لا يزال تيس الأغوات محل شُبهة، ومُرَشَّحاً لأن يكون القاتل.»

قاد سيارته إلى أبوالرووس، اختار المُحَقِّق ناصر تلك النافذة الخلفية لمطبخ العشي ليتسلَّل إلى حُجرة الحطب، ومنها إلى الحوش البارد، بطبقات الزَفَر المُحَنَّطَة على الجدران والقدور الصامتة في الكوانين، وحُفر خرفان المَنْدِي المسكونة بالقطط، لكأنما صَمَتَ المطبخُ من دهرٍ وليس مؤخراً مع انهيار أم السعد الشهير، الانهيار الذي بَرَّره جمهورها بالزقاق، «أي عقل يحتمل ضربة ثلاثية كهذه: القبض على تيس الأغوات، والانهيار في سوق الأسهم، وخسارتها لإرثها في عمارة الجامعة العربية؟!»

«أم السعد قامت من الموت لكن ربيبها هو نقطة الانهيار..»

لم يعد في الحوش ما يستدعي الانتباه، غير أشلاء الصحف المطمورة في الحُفَر مَرْتَعاً للقطط ورَشْحِ آبار الصرف الطافحة، مَدَّ يده إلى كومة رمادٍ مُسْتَخْلِصاً عنواناً بالخط العريض عن (برج الميل)، مثل رمح أو قلمٍ عملاق مغروس في تربة البحر الأحمر، بارتفاع 1600 متر في سماء مدينة جدة وبتكلفة خمسين مليار ريال، بالتعاقد مع شركة بِكْتِل... حوله كانت بقايا عناوين يدفعها الهواء أمامه من وإلى الحوش (استنفار) (انهيار

سوق الأسهم) (صمتٌ عالمي أمام ضحايا. . .) (قيادة المرأة بين الضغوط الخارجية والتشدد الدا. . .) (من 30% لـ 50% ارتفاع أسعار السلع الغذائية: الحليب، السكر، الأرز. . .) (سعر برميل البترول يَتَخَطّى سقفَ المئة دولار. . .) (3 مليارات تكلفة توسعة الحرم المكي باتجاه الـ. . .) مُجَرَّد أشلاء، لا تعني شيئاً، يُكْمِلُ بها الهواء أرشيف ذاكرته الخاصة. فجأة استرعت قيعانُ حُفر النار انتباهَ ناصر، تقرفص لأقرب حفرة، ومد يده يتفحص قاعها، ملمس التربة غريب، ليست بالتربة وإنما مادة سميكة، لَدَغَ ناصر ملمسُ البلاستيك المكسو بالشعر الحي، مثل جِلْدٍ نصف بلاستيك ونصف حيوان يكسو قاع الحفرة، وكان من الصعب على ناصر تخمين العوامل التي شكّلت تلك المادة.

آثَرَ المُحَقِّق ناصر ألا ينبش ذاكرة العشي، جاء للتحقُّق من أن أحداً، وبالذات تيس الأغوات، لم يجد طريقَه راجعاً للاختباء بهذا الحوش. كان بوسعه الوقوف لساعاتٍ حائراً أمام سُخَام تلك الذاكرة.

وَاصَلَ المُحَقِّق ناصر طريقَه إلى الحُجرة العلوية حيث خُلوة تيس الأغوات في يوميات يوسف، الباب الموصد صَدَّ تقدمه، وَاصَلَ دَفْعه بكتفيه، لينشق الباب فجأة ويدفعه للداخل، اندفع ناصر ليقع في أجساد نساءٍ مُقَطَّعة الأوصال، أجساد مُتَخَشِّبة مَضَى على موتها دهرٌ، ولا تزال ترفل في ثيابِ سهرةٍ من الدانتيل والتُلِّ والساتان، مُطَرَّزَة بالخَرَز وحَبَّات الكريستال ومُسَيَّرَة بأحزمةِ المخمل وسُجُف الحرير. أي مسعور ابتكر تلك المجزرة المتأهبة للخروج في سهرة؟! للمحة أعمى ناصر صداعٌ، حين اعتادت حواسُه تلك الصدمة اكتشف أنه مُحَاط بجيش من دُمَى الفلين بالحجم البشري، من المانيكانات، تَسَمَّرَ ناصر شاخصاً لتلك التشكيلات البديعة لنسوةٍ لم يخطرن له على بال. ما الذي يمكن أن تُضيفه تلك المانيكانات إلى التحقيق؟ ما الذي يمكن لأبوالرووس أن يعرفه من وسواسِ شابٍ لم يحمل هويةً حتى تَلاشى كأن لم يكن.

ذلك المساء اكتشف ناصر في يوميات يوسف صفحاتٍ عن تلك المانيكانات:

2 مارس 2004:
حين حَرَّرَه مُشَبَّبُ من خوفه من شرطة الترحيل، عَاشَ تيسُ الأغوات انقلاباً وجودياً: انطلقَ ليتوه على هواه في مكة، لم يعد يسرق الخرجات ولا يمرق بعينه مسلوبة لعربات الترحيل، اكتشف جسدُه مذاقاً للحُريَّة مثل حَبْةِ فلفلٍ أسود يُفَجِّرها بين أسنانه وشفتيه، مثل عودِ قرفةٍ أو مسمارِ قرنفلٍ يمضع عطرَه الحَرَّاق!
صرتُ صغيراً ككاتب قياساً لتيس الأغوات الذي يشعر بمكة كما لم أشعر بها قط. أكثر ما يُحييه أن يترك جسدَه خارج مَحَليَّة أبوالرووس لعالميةِ الأسواق خارجه، تمضغه بزحمة حركتها، أدرك أنه مفتونٌ بِتَرْكِ جَسَدِه لعجينةِ البَشَرِ تتلاطم به وتحمله، لا يرفع عينه لوجهٍ، أدركَ أنه ملبوس بأجزاء من الأجساد، لا تضحكي يا عَزَّة، هو صبي المطبخ (المُتَلَذِّذ بذبح الذبائح وسلخها وتكفيتها للأفران، أو تقطيعها لقدور الغموس) مُدَرَّبَة حواسُه على التقطيع والتَلَذُّذ بـ(الجزئية) و(المَقْطَع) من الجسد، حين تقع عينُه على ساقٍ، أو مؤخرةٍ، أو مُجَرَّد ظَهْرٍ بَشَري، يشعرُ بأن ساقَه تستجيبُ للساق، ومؤخرته تنحشر في المؤخرات، وظَهره يَتَمَاهَى في لاوعي الظهور البشرية! وأنه مُجَرَّد جزيئيات جاهزة للانضمام للجسد الذي يَدَّعيها.

مع هبوط الليل استسلم جسدُ ناصر لرائحة الزفر تعجن حوله أجسادَ المانيكانات، ولقد وجدتُها فرصة أنا أبوالرووس للتسلل إلى تلك الحجرة، جلستُ لناصر على عتبتها، أفحُّ بأذنيه مقولة يوسف «أنا تيس الأغوات. راس من بقية الرؤوس ينفتح لكِ لتمشي على خشبته..» أكمل ناصر القراءة:

11 مارس 2004:
حتى كان مساء تلك الجمعة، كان يعبر على غير هدى في أسواق الغَزَّة، حين

غَشِيَ بَصرُه بزَخْم الأنوارِ الصناعية في تلك الواجهة الزجاجية، لقد مَرَّ عشراتِ المرَّات بهذه الواجهة، وأبداً لم يرها كما يراها الآن ككوكبٍ بِسُكَّانٍ، وَقَفَ تيس الأغوات ليكتشف بأن الثمانية وعشرين عاماً من عمره كانت عبارة عن موسوعةٍ ضخمةٍ بسوادٍ من الغلاف للغلاف، مكتوب على غلافها: موسوعة النساء المُصَوَّرَة! وكلما فَتَحَ صفحةً بحثاً عن (×) طلعت له لطخة سوداء، عن صورة (×): سوداء، عن × × × ×: سوداء. . . طوال مراهقته، وكلما راوده حلمُ يقظةٍ بذراعٍ مؤنثة أو ساق أو كتف. . طلع له سواد. كان يجلس لساعات في محاولة لتحضير نعومة وتُسابقه الموسوعةُ فتُعدمها بلطخة سواد. .

ثم بدأ التنويع مع المَدِّ السوفيتي وتَصَاعُد حركات الجهاد، وفاضت الموسوعة لتشمل (× × × × و× × × و× × طبقات سواد فوق طبقات وموصولات تتصل بموصولات تجتاح العالم. . . مرجع تيس الأغوات المؤنث لم يتجاوز مُرَبِّيَته أم السعد: الكتفان العريضتان، والصدر المفلطح، والحوض الضيِّق، وإن زاد تيس الأغوات اجتهاده أضافَ ذلك المِرْفَق الرقيق لسعدية المُغَلَّف بِسِتَارٍ. . .

والآن، وبلا مقدمات، سَقَطَتْ هاته النسوة من السماء أمامه، سافرات مبَهْرجاتٍ ومحفوظات في الواجهة الزجاجية. وَقَفَ تيس الأغوات غائباً لساعاتٍ، شربت موسوعتُه من تلك الأنثى في الموسلين التُفَّاحي، بفتحة التَلِّ المثلثة ما بين الثديين الرقيقين، وبالتوريق الزهري الشفَّاف صاعداً من الثدي الأيسر لأعلى الكتف، تاركاً مَطْلَعَ الثدي والكتف اليمنى عارية، والحرير الرُمَّاني على صحن تلك البطن الضامرة، والشيفون هادراً كشلالٍ في شقٍّ مِنْ مُنْحَدَرِ الخصر جارياً بين الفخذين أو شاقّاً المضيق بين مُرْتَفَعَي المؤخرة. . عَصَرَ وَجَعُ الرغبةِ كليتيه بينما وَقَفَ مثل وَتَدٍ مُغَمَّسٍ في إثم تلك الطبقة الشفافة الذائبة من حَدِّ السُرَّة لمطالع الثديين، وتقطيرات التطريز هابطة لتمس أصابع القدمين الصغيرتين، وتسري في ذيلٍ طويلٍ يتبعه لمنامه. مرَّتْ عَرَبَةُ جَرٍّ مُحَمَّلَة بِلَفَّاتِ القماش ودَفَعَتْه بلا مبالاة ليخرج جسده عن طوعه ويتدفق، لم يقم من سقطته، مَالَ هناك ناظراً إلى ذاك الصدر الرقيق، يعصرُ كاملَ جِذعِه عن آخر قطرةٍ من مائه الذي لم يكف يَتَدَفَّق موجة تعقب موجة. عَرَفَ لحظتها أن جسدَ المرأة هو الأسرار التي لا نجرؤ فنُفْصِح عنها، هو نيَّةُ الحَرَكَةِ قَبْلَ أن تأتيها يده، وأنه لو مَضَى هكذا ينظر إليها لاخترق جسدُه في الصُّلْبِ وعَبَرَ المسافات برغبته، وهنا

يبرُّ تغليف موسوعته بالسواد.

مَرَّ ولدٌ أفغاني يبيع عقودَ الفُلّ، ودَلَّى ذاك العِقْد قريباً من أنفه، أفاق، تأمّل فيه الصبيُّ بمعرفةٍ، مُتَتَبِّعَاً مَسْقَطَ عينيه لتلك الفترينة. بوجنتين حمراوين ابتسم الأفغاني بفهم وغاب بذيلِ فُلٍّ رفيع يتبعه في ممرات السوق الغاصة بالأنوار، وأججت كآبةُ الياسمين حاجة التيس للمَسّ.

في اليوم التالي، حين تجرأ تيس الأغوات وَوَلَجَ حانوت الأقمشة داهمتْه نوباتٌ، أيقن أنه قد استشهد وبُعث في ذلك الفردوس محوَّطاً بالحور، أجساد بشقوقٍ مثل آهةٍ بالكاد تَنْهَد. محتملاً ركلات الحارس الباكستاني في زِيِّه الأزرق الذي قذفه للطريق. وتلاشى من حوش أبيه، وكشطَ عن جلده طبقة الزفر. لم يكن قد ذاقَ لُقمةً في أيام، تائهاً في حوانيت الأقمشة: جَنَّة السيلاني والباجري وبِنْ صِدِّيق، يعرف أنه سيشيخ بينما نسوتُه في هذا الحرملك لا تَمَسُّهن شيخوخةٌ ولا حُجُب! بعدها صارت مَعَارِضَ الأقمشة غايته، وفاقتْ لذَّةُ اقتحامها كلَّ لذةِ الانتصارات على الشياطين التي تُلاحق أحلامه، ففي تلك الحرائر كان التجسيد للخُضرة التي ستعمُّ الجزيرة والأنهار والنعام السارح مع الليل والحور التي سيُحارب ليُطلقها من جحيمها، فنحن أولاد الزقاق حين نحلم لا نحلم بقصص العَرَّابات وإنما بحرب المهدي الذي يهبط الأرض ويحيل الجزيرة لفردوس، نحلم بالموت لنبعثَ الحورَ في أنهار الجزيرة.

كل ما أراده تيس الأغوات أن ينساه الكلامُ والكونُ مع تلك المرأة، رافضاً حتى محاولات يوسف لإرجاعه للحوش، ومحاولاته لفلسفة الحور وتوثيقهن بالتواريخ كعادته: رَبَطَها لتيسُ الأغوات بتاريخه الحديث والذي أطلَقَا عليه: النكهة التي غابت عن المدينة طوالَ سنواتِ وِحْدَةِ الخِطَابِ الديني للتماهي مع الحركات الجهادية في البوسنة وأفغانستان، رَسَم له يوسف خارطةَ انحسار الاحتياطي الروحي والاقتصادي العربي في الثمانينات والتسعينات وعلى أعتاب المدِّ الموسوعي الفضائي، وما بين حربَي الخليج، ومطاردة الموسوعات المُصَوَّرة والحسيَّة في الواقع اليومي. أثناءها كان حُرَّاس الموسوعات يميلون للتجريد، على أبواب المَنَافِذ البريَّة والبحرية والرؤوس جَلَسَ مُرَاقِبٌ مُجْتَهِد للمطبوعات بالحبر الصيني ليطمس كلَّ ما يتجسَّد ويتجرَّد من الإناث في الإعلانات وحتى في تصميمات الثياب! وخُسِفَتْ الأرضُ بالعَدَد النادر من

المانيكانات بحوانيت المدن الخارجة على القانون كالخُبَر وجدَّة، وتَمَّ التَخَلص منها في مَحَارق سِرِّية. لَخَّص يوسف نظريته في:

«لقد خرج المارد من القمم! هي حداثة الحريم» تَتَبَّع يوسف خارطةَ الرسم البياني للانفتاح:

«ومع دعاوى الألفية الثالثة للديموقراطية العاصفة من الغرب، وَجَدنا أنفسنا على رأس موجةِ انفتاحِ الموسوعات النسائية: ـ المرأة في انتخابات الغرفة التجارية، المرأة في الثقافة والإعلان ونقابة الصحافيين والوفود الرسمية، المرأة في السياسة والوزارة والتعليم والتطوير، المرأة تترأس مكاتب حقوق الإنسان ـ هجمة هذه المانيكانات التي تجتاح مدننا الكُبرى.»

مُحَوِّماً على معارض الأقمشة صُدِم تيس الأغوات للدور الذي يلعبه ذلك الرقيع اللبناني: صورةٌ هزيلة لمُصَمِّم أزياء، توظِّفه أكبرُ معارض الأقمشة في أسواق الغزة والستين والعوالي بثلاثمائة دولار للساعة، مقابل أن يبعث الحياة في أطراف الفلين، يتلاعب بالأقمشة ليُوقظ شياطين فتنتها.

لأيام ظَلَّ تيسُ الأغوات يرقب، ليكتشف أن اللبناني يظهر دائماً في ساعة الإغلَاق. صَدَمَتْه الحفاوة التي يتلقاه بها أصحاب المحلات، يسلِّمونه مفاتيح مخازنهم، يكومون حوله أجساد الحور، يُغلقون عليه ويمضون. الوقوف خارج تلك الأبواب المغلقة كان الجحيم الحقيقي، لليالٍ وقف تيس الأغوات تنهبه خيالاتُ ما يجري في الداخل بين الرقيع وحوره، غيرةٌ عمياء أحالت الماءَ لعلقمٍ في حلقه. صار يتحرَّك مسلولاً، يلاحق المُصَمِّم اللبناني، يرصدُ أدقَّ حركاتِه ويُحصي الثواني التي يقضيها في خلوته بأكبر المعارض، حيث تقيم أرق الحوريات وأكثرهن فتنة. تحرقه حاجةٌ للانتقام، كم من ليلةٍ راوده الاتصال بمكتب هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليحرِّضهم على الاقتحام وفضح تلك الخلوة.

تلك الليلة انتهزَ التَوقُّف لصلاة العشاء ليتسلل إلى مخزن معرض السيلاني الكبير، اختبأ منتظراً بصبرٍ حين استؤنف البيع بعد الصلاة، محتملاً الاختناق بين لَفَّات الأقمشة وكراتين التخزين، مُتهيئاً في كل لحظةٍ لانكشاف أمره مع دخول صبيان المحل المُتكرِّر للمخزن طلباً لمَدَد الأقمشة. أخيراً، وفي تمام

الثانية عشرة، موعد الإغلاق، أكفهرَّ وجهُه لسماع ذاك الترحيب الحار، عرف أن غريمه اللبناني قد حضر:

«رجاءً حبيبي، احرص على قفل كل الأبواب، خَلِّنا في ساعة خير، لا نريد مشاكل مع الهيئة، فلن يعجبهم عُري هذه الأجساد وخلوتكَ بها..» بتلك العبارة أغلقَ مشرفُ المحل أضواءَ المخازن وغادر.

في مخبئه بين الأقمشة شعر تيس الأغوات بعُري كامل في مواجهة خصمه، لكنه كان عاجزاً عن الإعلان عن وجوده أو حتى رفع رأسه لمراقبة ما يجري، أو القفز مُهَاجِمَاً كما انتوى. مرَّت الدقائق كدهور، بدا لتيس الأغوات أنه سيموت في مخبئه ذاك ويجدون جثته مع الصباح منتفخةً بين أكداس الأقمشة المستوردة. لكن، وحين تصاعدت الحرارةُ في المعرض، أدرك أن ما يتوقعه يقع، وأعماه غضبٌ، مرتجفاً حَبَا باتجاه المعرض، منجذباً لبقعة الضوء البنفسجي، حيث يقف المصمم اللبناني مواجهاً للأنثى الشقراء، من بقعة المراقبة الدونية كان بوسع تيس الأغوات أن يشعر بأنفاسها الرقيقة تتسارع حين انحنى اللبناني، برِقَّةٍ تَمَسُّ ثدييها خصلةُ شعره الملمعة والمصبوغة بالأشقر، يُعالج شروالها الحرير ليفك حزامه، ويُتْبِع بالزرين من اللؤلؤ، لمحةٌ من سروال داخلي لاحت، وشريط من الجسد المحفور بتلك السُّرَّة الكاملة التدوير، قفز قلبُ تيس الأغوات إلى حلقه، وتَقَصَّف حلقه بظمأ لم يعرف له مثيلاً من قبل، بينما تَمَهَّل اللبناني، متأملاً في الخاصرة البضة، ثم وبلمحةٍ قَبَضَها بيدٍ بين الساقين وبيدٍ خلف الكتفين رَفَعَها عن الأرض، تلك القبضة جَمَّدَت الدم في عروق تيس الأغوات، تَحَوَّلَ وجهُه وكاملُ جسده إلى شظايا زجاجٍ قاتمةِ الحمرة، مشلولاً جَاهَدَ لكيلا ينكبَّ بوجهه للأرض متمسِّكاً بلفَّات الأقمشة التي تهاوت في انهيارٍ صاخب، بينما اللبناني مسحوراً لم يرفع بصره ليستطلع ما يجري! حَمَلَ تلك الحورية ليُسجيها على طاولة العرض المنخفضة والمُنعَّمة بطبقات الأقمشة الزاهية، استلقى الجسدُ منفتحاً يرجف للّمسة القادمة. بعنفٍ كامن أرخى اللبناني الشروال، كاشفاً الفخذين، رفَّ الشروال في الهواء ليهوي كغيمة حرير ساخن، بحاجة وحشية دفع اللبناني بركبته اليسرى بين فخذيها، دفعة أخرى وانفصمت الساق اليسرى لتهوي مرتطمة بتيس الأغوات. انبثق شيطانٌ بجسده، حيث غاصت أصابع الحورية بمعدته. للمحة استسلم تيس

الأغوات لتلك اللذة الغائرة، ثم لم يلبث أن تقدَّم بلا نَفَس مخترقاً لبقعة الضوء البنفسجي، حيث لم يعد أيٌّ مِنَ الخصمين حقيقياً. .

في صراعه مع الجسد لم يبدُ اللبناني متفاجئاً، نَظَرَ إلى تيس الأغوات كما ينظر إلى مانيكان آخر أحمر، متقبِّلاً اليدَ التي مدَّها لمساعدته. بصمتٍ وتنسيق راحا يعملان، جَرَّداها من ثيابها، قطعةً وراء قطعة، مستسلمين للعُري المُرَحِّب، بجسد تيس الأغوات لا يجرؤ على الالتحام، فقط بأطراف الأصابع، تلتهب حين يغوص في كتف أو ذراع، بجسده يَتَصَلَّب مُتحوِّلاً إليمكانيان حقيقي. عندها، وفقط، تَنَبَّه تيس الأغوات للجرح الغائر حول العين اليسرى للأنثى، مثل وشم عذاب يُحيط بِمَحْجَر العين ليجري ضارباً العنق وتماماً أسفل الأذن اليسرى. تَاقَ لسانُ تيس الأغوات للعق ذاك الجرح ليشفى، جرح آخر قديم انبثق على الخاصرة التي سرت ذراعاه تُحوِّطها بالساتان، نفس شفرة العذاب تقصم الجسد إلى نصفين، تَذَكَّرَ تيسُ الأغوات الأندونيسية زوج مساعد أبيه الطباخ، والتي استضافت كل رغبات أبوالرووس السرية، بعبارتها الشهيرة: «هذا. .» مشيرة من رأسها للخاصرة: «الربي. .» «وهذا. .» من خاصرتها للأسفل: «الحُبِّي.» قاومَ تيسُ الأغوات محاولات اللبناني لتثبيت الساق المنفصمة، تاق ليحمل تلك الساق ويركض فارّاً. وحين وَاجَهَه اللبناني، قابضاً بيدٍ بين فخذيه، وبيدٍ خلف كتفيه، وحمله من على الأرض وألقاه خارج المحل، لم يَتَنَفَّس تيس الأغوات، مرتطماً بالرصيف، بل ولساعاتٍ لم ينهض من سقطته على أرض السوق، مُسْتَنزَفاً تاركاً الأنثى الأولى التي مسَّها بين يدي مُنَافِسِه، يلف حول عنقها وخاصرتها بالقرمزي الخشن، مُعَزِّزاً صرخة الحسيَّة بين الجينز العصري والحرير المُنمنم على البطن.

منذ تلك الليلة جعل تيس الأغوات من ذلك اللبناني الرقيع شغلَه الشاغل، يقف خارج الأبواب التي يغلقونها عليه يعوي، يتخيله خلف تلك الأبواب ينضو عنهنّ الثياب ويُعِيدُ كسوتهن بفتنةٍ أشد، يعرف أين يمسّ، وأين يستر ويُعرِّي ليؤجِّجُ حواس تيس الأغوات. عشقٌ يتحدَّى رغبات تيس الأغوات البدائية، صار يتقدُ بحقد لإبادة غريمه المُلَمَّع بالكريمات ومساحيق التجميل، وكان شَعْرُ تيس الأغوات يطول كلما راقب ذيل الحصان يتراقص على كتفي ذلك اللبناني، الذي يقضي حلاقُ الوسيم ساعةَ عَصْرَ كلِّ جُمعةٍ يُمَشِّطه ويُمَلِّسه بحرارة مُجَفِّف

الشَّعْر، ويطويه في ذيلِ حصان في قبعةٍ بشعار NY كلما وَلَجَ الأسواق الشعبية.
مدفوعاً بيأسٍ عميق خَطَّطَ تيسُ الأغوات لهجوم يوم السبت ذاك. استغرقه أسبوعاً لينسِّق بين عبور منافسه ومرور عربة الـ GMC الخاصة بهيئة الأمر، تراقص السراب على شارع الرصيفة من وقد شمسِ الثانية ظهراً، حين اندفعت عصابة صبيان أبوالرووس بقيادة التيس فجأة لتعترض اللبناني، وانطلق المسكين يركض، تقوده حجارةُ المطاردين، لينبثق في شارع الرصيفة العام وبالضبط لحظة مرور GMC الهيئة يتصيد شبان المدارس الثانوية في انصرافهم. اللبناني لم يتريث ليعي ما يحدث ولا ما الذي يدفع أولئك الشياطين لرجمه، ولا حتى كيف انشقَّت الأرض ولفظته وجهاً لوجه مع ذلك الجيمس الرمادي. . والشرطي والثلاثة شيوخ بلحى الذين ترجلوا لإحاطته، أمروه بخلع قبعته الـ NY.

راقب تيسُ الأغوات بتشفٍّ حين أرسلَ ذيلُ الحصان برقاً من الغضب في عيون صياديه، باحتقارٍ أركعوه على رصيف شارع الستين ـ في وَقْدِ شمسِ الثانية ظهراً وزحمةِ انصرافِ الموظفين وطَلَبة المدارس ـ حلقوا شَعْرَ رأسه وكرامته (على الصفر) عِبْرَةً لمن يعتبر. يقولون إن الحلاق البشتوني الذي استقدمته الهيئةُ لغاراتها كان مُتَخَصِّصاً في جَزِّ فرو الخرفان بحلَقَةٍ للغَنَم. لكن المُصَمِّم اللبناني وَاصَلَ جولاته بكبرياء يول براينر.
الشهر الذي انقضى أفقد تيس الأغوات كل صبرٍ وعقل، ولم يحتج إلى الكثير من الشجاعة ولا التخطيط للقيام بخطوته العمياء تلك: وَجَدَ نفسَه لافّاً ذراعيه برعشةٍ حول جذع معشوقته وساقيها (الخوف والعشق يا تيس الأغوات يُفقدكَ صوابكَ، أصابعك مشلولة، باردة كسمكة ميتة في ثلاجة حافظة!) غطَّاها بموسلينها الخمري بهدوء، ووَاصَلَ الهرب بها بين أزقة الغَزَّة الضيقة، للمَسْعَى، ومنه لحافلة النقل الجماعي المتأهبة للانطلاق، لم يُصدِّق مدى السهولة التي استطاع أن يختطف بها ذلك (الجسد)، حتى انتهى إلى حجرته أعلى المطبخ، كانت صلاة العشاء قد انقضت بمسجد أبوالرووس حين حطَّها هناك، وانحطَّ راقداً تحت قدميها الخرافيتين. أطلق زفرةً عميقة: «عَبَقُ قَدَمٍ ما وَطِئَتْ الترابَ قَطّ، قَدَمٌ بِكْرٌ. لم ينفك لحام أصابعها بعد.»
اعتكفَ بجسده في سماءٍ سابعة، ولأيامٍ قاوم تيسُ الأغوات الرغبةَ في الخوض

في ذلك الموسلين الخمري، والنفاذ من طبقاته إلى حقيقتها الباهرة، لأيام جفَّ ريقُه ولم يظهر في حوش المطبخ، ولم يُجِبْ على نداءات مُرَبِّيه العشّي وهَجَرَ وجبةَ الغداء مع مربيته أم السعد. حين انهارت مقاومته وركع على ركبتيه للأرض بين قدميها كانت أطرافه مثلجة، وبرعدةٍ رَفَعَ طرفَ الثوب وباغتتْه صلابةُ قاعدةِ الخشب مكان القدمين، وعمود المعدن البارد مكان ساقيها وفخذيها، هَبَطَ مُعَدّل السُّكّر في دمه، بينما اندفع الدوي إلى صدغيه، بأسنانه نَهَشَ الفصين عن الكتفين، ومَزَّق الموسلين الخمري، فتَعَرَّى له جذع الأنثى من كمال مختوم لم يُشَقَّ بمبضع ولا رغبة، شَعَرَ بهول الإقبال على أنثى قبل التجسيد، هي قالب الأنوثة، هي الجسد قَبْلَ أن يهبط ويتفتّح ويَتَمَطّى في أطراف!

محموماً تَجَنَّب تيس الأغوات معرض السيلاني قاصداً مُنَافِسَه الأكبر، محلات (بن صِدِّيق) الضخمة، وتحت عينَيّ الحارس انحنى لقدمي الأنثى الأقرب للباب، مطمئناً لرقتهما، كاشفاً للساقين وجَفَّ ريقه لسبكتهما، بلا تَرَدُّدٍ حَمَلَ تلك الأنثى، لفَّ ذراعها اليسرى حول كتفيه وغادر، رَشَفَ الحارسُ رشفةً أخرى من فنجان شايه بآخر المحل ولم يتدخل، فتلك جرأة لا يأتيها إلا مَالِك.

ركضَ تيس الأغوات بعماء، حرقة الساتان الناري على لسانه، لجسده كامل الزمام يركض بغنيمته صوب أبوالرووس، أصم لصوت البوق وللكوابح التي زعقت، حين انفجرت فيه تلك الصفرة أفاق من غشيته، قوى خارقة قفزت بجسده لطرف الطريق بينما انعجن الموسلين الأصفر بحوريته تحت إطار عربة الأجرة، لطمتْه تلك القهقهة الساخرة، لكنه لم يرفع بصره، ركع يَشدُّ ويشدُّ ليستخلص الجذع الأنثوي من تحت الإطار بلا جدوى، وانفجر الأحمرُ برأسه، بكلتا قبضتيه ورأسه صار يضربُ بابَ عربة الأجرة، تَرَجَّلَ خليل مُمسكاً بتلابيب تيس الأغوات، دافعاً بجسده إلى معدن العربة المُلتهب، حاصراً جسده للمعدن بينما أطبق عليه بضخامته، يسخر من تفاصيل ذلك التركي المليح،

«أأريكَ المرأة المحبوسة في جسدكَ الدمية هذا؟» بينما مضى تيس الأغوات يلطم ويركل بهيستيريا، وخليل يتلذذ بذاك العنف، ثم لم يلبث أن ألقاه لجانب الطريق، ركب عربته وتأخر بها متراً للوراء،

«عندما كنتُ مَلِكَاً مُتَوَّجاً في السماء، كنتُ أعرف بالضبط ما يحتاج إليه هذا

البلد، استغللتُ علاقاتي في الخطوط لتهريب دُمى مثلك للخيّاطات والمَشَاغِل..» تَلذَّذ خليلُ بلعن غريمه الشاب، «دمية أو اثنتان في كل مرة، مُفككة ومصفوفة في حقيبة ثيابي، لأعيد تركيبها فور مغادرتي للجمرك، أرخص المانيكانات في الخارج لا تُقَدَّر بثمنٍ هنا في الداخل.. ربما عليك أن تُجَرِّب أفغانستان، ربما تساوي هناك ثروة..» كان ثوب تيس الأغوات قد تمزَّقَ في الصراع، نَفَضَاه وحَبَا لتجميع أشلاء الحوريَّة في طياته، وسار به مبتعداً بلا نظرةٍ للوراء، حيث جلس خليل خلف مقود عربته، ساخراً يرقب تدويرات الجسد المليح يبتعد في سرواله الأبيض الطويل، تُطَيِّره ريحُ السموم بِمِزَق الساتان الأصفر..

وحيداً في حجرته وَاجَهَ تيسُ الأغوات الكمالَ المخيف للفخذين والرُّكْبَتين! أعمى عن الهشيم في الجذع. لم يخطر له قط أن بوسع قلبه أن يذوب على ركبتين والصمت ما بينهما.

حينها، اكتشفَ أنه وَاقِعٌ تحت هيمنةِ نسوةٍ مضمومة الأصابع والشفاه والـ... نساء بلا مَوْلِج! ومهما حاول تيس الأغوات لم يلن الفلين لريقه ولا استجاب لأصابعه، حين رفع عينيه لأول مرة متوسلاً عينيها، ما كان ثمة أثر لعين، ولا لرأس..

«لعنة الله على الديموقراطية الأميركية، العاجزة عن منح الحوريات بنوافذ العرض رؤوسهن وأطرافهن المقطوعة.. ديموقراطية أذرع وسيقان الفلين، غير قادرة على الإطباق على خصر وعنق الرَّجُل، وترجيع ضَمَّةِ الدب فيه..»

تَحَوَّلَ إلى مُدمنٍ على تلك الأجساد، لا يتوب عن خطفها أينما عثر عليها، واستنزفَه تضاربُ مشاعره تجاه حورياته، بجِلْدها لا يعرق ولا يَنِزُّ، حتى يتركه خواء، لينهض بقَرَفٍ كُلَّ صَبَاحٍ، ليُعَلِّق آمالَه بالخلاص على يد سعدية ابنة الإمام داوود، (سعدية المُقَرطسَة في سوادٍ من الرأس لأصابع القدمين، والتي لم تُبرمجها أصابعُ مصمم أزياء ولا مَشَاهِدُ الحُبِّ في الشاشات)، كانت سعدية هي بَقَرَته، وبقلبها آية الكرسي الذي سيتمدَّد عليه ويُعْشَق كما لم يُعْشَق رَجُلٌ من قبله، أقسَمَ تيسُ الأغوات بينه وبين نفسه أن يكون المُتَلَقِّي لعشق هذه النارة الصغيرة، وأن يستسلم لها قلباً وقالباً، ستعوضه عن كل هذا الرفض الذي تقابله به الحوريات اللواتي تزدحم بهن حجرته.

من وقفته على الباب تأمل ناصر في الذراع الرقيقة، بالكف المبسوطة والسبابة تُشير إليه في الضوء الساقط من النافذة الضيقة، حركةٌ رقيقة لإصبع المانيكان تدعوه للتقدم صوبها، أغلق ناصر عينيه وملأ حواسَه مذاقُ دم. . . هو بلا شك دم تيس الأغوات، قَاوَمَ ناصرُ ذاك الانجذاب لتيس الأغوات الذي تخيَّلَه في جسد المانيكان، جسد أقرب للأنوثة. .

ديسكفري

من عائشة / رسالة 11:

بفيضِ ريشٍ وصوصوةٍ ينقرُ ذاك الطير جهازَ التكييف ليبني عُشّاً، أهو الربيع؟ أسألُ بصوتٍ عالٍ، ولا يُجيب، يغيبُ ويرجع، مثلكَ:

كل أَحَدٍ، مذ تَعَلَّم ظهري بضربات المشارط، والقُطَب التي مثل خطو غرابٍ، يشعرُ قلبي بأنه متروك على ذاك المقعد تحت النافذة بانتظار، ويزهدُ حتى في محاورتي.

وتُطِلُّ،

تُلْقِي عليَّ بذاك المعطف الثقيل، بعبق الصنوبر!!

بكل امتشاقكَ تركع أمامي، تُصلِحُ مَوْقِعَ قدمي على دواستيِّ الكرسي،

تُلامس شَفَتُكَ ركبتي في خطفة.

تنتصب بِقفزةٍ، تعود خلفي تدفع بالمقعد.

كل الحوانيت مُغْلَقة على تلك الدروب الضيقة المرصوفة.

حتى نصل النهر.

في الساحة القروية الصغيرة بين البسطات الصغيرة، تَرَكتَ عجلات المَقْعَد تدور على هواها. اكتشفتُ أن العجلات أكثر جرأة وفضولاً من القدمين.

والعجوز التي تغزل الجوارب في الكشك، وذلك الأحمر الذي أهديتَني إياه.

لم يُدَلِّلني أحدُ قبلكَ.

لِمَ يفوتنا: أن نُدَلَّل ونتدلل بمن نُحب؟!

التوقيع: عائشة.

مُرْفَق:
صورة سَمَاوَر العمة حليمة (رَوَتْ بشايه نصفَ دائرة الحرم)
أيضاً صورة طبلتها.
العمة حليمة تُكَرِّر لي لازمتها:
«انا شُوْرِي في كُوْرِي، رحمة الله على سجَّاني.»
«هذه طبلة مُوَقَّعَة لي عليها ديسكفري»
ديسكفري يا ^ هي بيونسيه ابوالرووس، تتربَّع بكامل فرقتها بآلاتها الحديثة على قلب عمتي حليمة:
«يا حِلِيلَها ويا غَنْدَرَتها ويا شبابها، أبوفروة بقشرتها، مُوَلَّعَة.»
تَتَغَنَّى بأوصاف ديسكفري وتُلاحقها في الأفراح مع غاويات الوَنَاسَة.

ملحوظة 1:
الوجبة الأولى أنفردُ فيها برَجُلٍ غريبٍ وشجرِ طَلْقٍ، تجعلني أطوي جذعي عليَّ الآن شوقاً.
ملحوظة 2:
عَشِقَتْ عَزَّة السوار الذي اخترناه لها انا وأنتَ، يومها تَعَجَّبتَ يا ^ من سذاجتي حين طلبتُ نَقشَه بالحرف الأول لاسمينا (A&A) عزَّة وعائشة. لم اشعر بحاجةٍ إلى التبرير ومع ذلك قلتُ لكَ يومها: A واحدة تكفي، لأنني حين أحلم خارج أبوالرووس اكون عزَّة التي حين تحلم تَصِيرُني.
التوقيع: عائشة.

إعتاق

اكتشف يوسفُ المَخْلَوان، الفراغ الصغير وراء مجلس الطابق الثالث، والذي كَرَّسَه اللبابيدي لصور أكبر تَجَمُّعٍ للوَرَّاقين وكُتُبِيَّة مكة، بين باب السلام الكبير والصغير على يسار الصاعد من الحرم للمسعى

حيث تنتشر مشيخات الكُتبية والمُجَلِّدين وباعةُ الكحل والعطارين وَرَثَةَ اللوباتي الشهير بالقرن التاسع، كل متعلقات التنوير للقرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، نهر من الكتب ممزوجة بالعطور ينبثق من الحرم ليمتد يسار المسعى.

لليمين وعلى جدار المخلوان قرأ يوسف العبارة المحفورة: (سوق العطّارين روح الكتب وروح الدهون... عُشّاقُ الكتب يؤمنون أن كلمات الكتب هي التي أعطت عطورَ العطّارين شذاها، بينما شيوخُ العِطَارة يؤمنون بأن العطور هي التي عطّرتْ كلمات الكتب بسحرها.. وفي النهاية فإنها الروح البشرية محلولة في الهواء..)

قضى يوسف لياليَ يتأمل في تلك الصورة، متمشياً بين يقظةٍ وحلم من رباط السدرة (الموقوف لطلبة العلم) ليسير في منظومة تلك المكتبات الصغيرة بلا عدد (فدا والباز ومرزا)، بالأقواس العربية القديمة على أبوابها، وأجوافها الصغيرة المعتمة، برجالات مكة جالسة على أبوابها مُحَوَّطة بصفوف المخطوطات، وقف متأملاً صورةً بالأبيض والأسود لمؤسس المكتبات فدا بن آدم الكشميري (المُعمّر لمئة عام وعلى قدميه من تراب اسطنبول ومصر والهند من رحلاته وراء الكتب وطباعتها)، ما إن نطق بأول عنوانٍ خطر له ناقصاً (فتح القريب على أبي شجاع) حتى رمى له حفيده الشيخ عبد الصمد بمَقْعَدةٍ صغيرة من القطن ليفترش بها بلاط الرَّحْبَة، لريثما يُتِمُّ جولته على جيرانه ليحضر له كتاب (فتح القريب المجيب على التقريب للشيخ أبي عبد الله الشافعي)، مُقبلاً لا يساوم في السعر بلازمته (كلام واحد ما ينقص أبداً)! تداخل الزمن ليَتَمَهَّل يوسف لحضور جلسة المكتبة بعد صلاة المغرب، حين أحاطت يوسفَ أعذبُ التلاوات من الشيوخ قاروت وباحيدرة وقاري وجمبي وآشي ميرداد والأربعين، كلما سكتت قراءةٌ في الغروب لحقتها قراءةٌ، فما إن تَمَّت صلاةُ العشاء حتى صدحت المكتبة بالمنشدين: جاوة وأبوخشبة وبخاري

يحيون الليلة بأناشيدهم ومِجَسَّاتهم. مَرَّ يوسف بالمكتبات مكتبةً مكتبة، وبالخطاطين من تدريب الشيخ محمد الفارسي وتلميذه الكتبي الذين يُطَوِّحون الخطَّ العربي على أنغام التلاوات، وقف يوسف بفضول ليقرأ كلَّ الإعلانات المُعَلَّقة بالجدران، قرأ اللوحات الحائلة اللون على أقواس البوابات، عن (مصاحف وكتب دينية، مؤلفات أدبية عربية)، شَهِدَ الخصومة التي تُفضُّ بين تُجَّار سُوَيقَة بمكتبة الثقافة للشيخ محمد صالح جمال، نَفَذَ في الواجهة الضيقة لمكتبة عبد الكريم بن الباز ابن شيخ الكتبية، التي صارت مِرْكَازاً للفكر بإدارة الشيخ عبد الله العرابي، متوغِّلاً لعمقها الغاص بالشبان المسحورين للمبارزة الشعرية القائمة بين الزمخشري والسباعي وعبد الجبار.

بالكتب في الخلفية اتّجه يوسف إلى الرحبة حيث حلقات السمار والحكواتية يسردون مغامرات أبو زيد الهلالي. وعن يساره ظلت تَهُبُّ خُطبُ (المدرسة الصولتية كل خميس) وأنفاس المدارس القديمة وبيوت كبار علماء مكة المشتغلين بالتدريس والإمامة والخطبة بالمسجد الحرام، تأمّل يوسف في صكوك التمليك والتأجير التي تمنحُ رُكْنَ حانوتٍ لكتبي وطَرَفَه لآخر وآخر، في تَزَاحُمٍ للكتبية للظفر بشرف إحياء الكتاب.

حين أغلقت الحوانيت مع تقدم الليل وقف يوسف وحيداً، يعبُّ النسمات الليلية المُحَمَّلَة بالأحبار والورق القديم والعطور وأصداء القراءات التي لا تسكت، في شبكة تلك الحوانيت وَقَفَ يوسفُ مواجهاً لصنم هُبل المهول، والذي كان مطروحاً هناك، ضمنَ أصنام كانت ساكنة للمَطَاف من عصور الجاهلية وأُخْرِجَ منذ تحطيمه في الجاهلّية، الصور التي التقطها اللبابيدي جاءت من زوايا تُوَضِّح هولَ ذلك الصنم، الذي يستلقي برأسه وعينيه وأنفه مدسوسة أسفل تلك المكتبة، ممدوداً بجسده من صخرٍ عظيمٍ أكتع (حيث انتزعت ذراعه التي كانت من ذهب وتَمَّ صبُّها في حليات وجنيهات للتداول)، بينما بقيت جثته العظيمة للداخلين للحرم يدوسونها

أو ينفضون نعالهم عليها تحقيراً، حتى اختفى عند التوسعة ذات ليلةٍ فجأة!

في الضوء الشحيح للمخلوان، توقَّفَ يوسف بإعلانات الكتب، وذلك الإعلان الطريف، (عَبَّاس كَرَارَة بمكة بالمَسْعَى: مستعد لخلع الأسنان بدون ألم وتركيبِ الأسنان العَظم بأنواعها، وتركيب الأسنان الذَّهَب من عيار الجِّنيه بأسعار متهاودة.)

مُقيماً من جديد في صور اللبابيدي رأى يوسف الخطر الذي فَتَحَه على عَزَّة:

كان يوسف في الخامسة عشرة حين جَرجر عَزَّة لحانوت الشيخ عبد الرزاق بليلة، لا يزيد على أربعة أمتارٍ مُرَبَّعة مغزولة بعبق الكتب، حياهم الرجلُ المهيب في ثوبه الأبيض وعمامته من الشاش الأبيض، ولم يرفع عينيه عن الرِّقِّ القديم يقرأ في مُجَلَّد عجائب المخلوقات من جِلدة الجَمَل المُطَهَّم بالذهب.

بدا الشيخ قادماً من أزمنة بلا آخر، بظهره للرَّفِّ حيث تُسانده المخطوطات القديمة، لتفسير الأحلام لابن سيرين، والحيوان للجاحظ والروح لابن القيِّم الجوزية، وطوق الحمامة لابن حزم، جنباً إلى جنب مع الرقاق بخط يد المتصوفة الكبار السهروردي ومواقف النفري وفتوحات ابن عربي المكيَّة.

عَالَمُ عبد الرزاق بليلة مثل مَرَاتب، يَتَرَقَّاها طالب العلم، فحين يأتيه من الحرم مُحَمَّلاً بالأذكار، يعبر من خلال المخطوطات العربية، مُتمكِّناً من نتاج علوم الباطن لشتات علوم الظاهر. حين يُطيل يوسف الوقفة أمام المتصوفة، مستسلماً لذاك العمق تحاول عَزَّة أن تُفلت من يده، فيتخفَّف ليُرافقها في المجلات الكرتونية.

تَرَبَّصَ يوسف حتى غاب الشيخ مُتَّجِهاً لأداء صلاة العصر بالحَرم

ليُغري عَزَّة للهبوط معه للمخزن الخلفي والمخفي بين بيوت الهَجْلَة، حيث يكمن العَقلُ العصري، يأخذها في رحلةٍ للتعرُّف على القَارَّات الرابضة برؤوس الرجال من بلاطات الأباطرة لبؤساء هيجو التي عَرَّبَها الشاعر حافظ إبراهيم. ينفذ بعَزَّة بين الرفَّين عن يمينٍ: رأس المال لماركس، ونقد العقل الخالص والعقل العَمَلي ونَقد ملكة الحُكم لعمانوئيل كانط، وموسوعة العلوم الفلسفية لهيجل واتحاد الروح بالمادة، ومثاليته القائمة على تَوَلُّد الجديد من تفاعل النقيضين، ودون كيشوت وحربه لطواحين الهواء لسيرفانتس، بصفتها بؤرة للثوارت الكبرى المُحَوِّلَة لمَسَار البشرية. وعن يسارٍ حيث الحروب العالمية: في لمن تُقرع الأجراس لهمينغواي، والحرب والسلام لتولستوي، وقصة مدينتين لديكنز، والأم لمكسيم غوركي. إلى نثارِ الزوابع الفكرية التي صاغت البشرية من آسيا لأوروبا لأميركا، من إلياذة وأوديسة هوميروس نبي اليونان من ترجمة البستاني، والغصن الذهبي لفريزر، وذباب سارتر والجنس الثالث لسيمون دوبوفوار، وسوفوكليس لجوته، ومزرعة حيوانات جورج أورويل، لنثارٍ من نتاج رامبو، ومالارميه، وموباسان، وفيكو، وتشيكوف، وتورجينيف، وألكساندر دوماس، وشكسبير، ووليم فوكنر، وإدجار آلان بو، والدوس هكسلي، وجاك بريفيرا، وبلزاك، وكامو، وانتهاءً بـ كولن ويلسون في المنتمي واللامنتمي.

تسعل عَزَّة بصفرة أوراق العقل البشري، ويُلهيها يوسفُ بقصص البنات الساذجة، مُغَيِّرات العالَم المحدود: ثمبلينا التي بحجم عقلة إصبعٍ يستدرجها خلْدٌ في جُحْرٍ، ورابونزيل بشعرها الطويل الذي تُدَلِّيه لحبيبها من سجنها بالبرج، وأليس في بلاد العجائب وقطرة دمعها التي أغرقت عالم الباطن، وسندريللا وعَرَّابتها التي حَوَّلت الحشرات إلى فرسان والأسمال إلى مجوهرات وحرائر لتفر من سخام مطبخها...

في صمتِ بيتِ اللبابيدي تَحَوَّل يوسف إلى روح موحشة، غائبة عن

الزمان والمكان ضالة في عالم من الأبيض والأسود، حيث اندمج ماضي مكة بحاضرها على تلك الجدران، لم يعد من حَدٍّ بين مشاهد الصور وتلك التي يراها عبر نوافذ البيت، لم يبق من رابط للواقع غير اليوميات التي أدمن الضابط ناصر قراءتها، كما أدمن يوسفُ تلك الصور، تماهى يوسف بناصر في ذلك الإدمان.

قرأ ناصر:

6 يونيه 1995:

«لقد صدمني يا عزّة شغفُكِ بالمجلات الكرتونية، وبالذات بالعدد 135 من الوطواط، التي يلتقي فيها الوطواط بالمرأة الوطواطة.. لقد ذبحتْني الغيرةُ من وسواسك بذلك الكائن... والآن أُدركُ أن هجماته الخاطفة كانت دليلك في رسم كل تلك الجذوع الهاربة بلوحاتك..»

عائشة كانت منافستي التي لا تُهْزَم، على مدى عقدين من الزمان سَرَقَني ذلك الصراع الخفي مع عائشة (وربما لم تكن واعية به)، كانت تُوَظِّف إخوتها كرسل يسابقونني لمكتبات دار السلام يقتنون لها الكتب، وينبشون عن عناوين لم تخطر لي ببال، ويُهَرِّبونها في أكياس التسوق تحت أنف أبيهم المُعَلِّم الذي يُحَظِّر النملَ الأبيض الذي تأتي به الكُتُبُ للرؤوس..

عائشة بِنَظَرٍ ضعيفٍ قَضَتْ شَمعَتُه تقرأ في الفراش بعد أن يرقد كل أهلها. هكذا دائماً تخيَّلتُها تقرأ في بيتهم من إسمنت مُسَلَّح (كَقِدْرِ الضغط) بينما أنا على سطحنا الطيني، أُسابقُها على نور البلدية، ألتهمُ كتاباً كاملاً في الليلة! وفي الوقت الذي تَتَخَفَّى هي عن أبيها وأمها، أقرأ وأعشقُ المكتوب أنا اليتيم عَلَناً، لأن أمي حليمة آمنت أن جنِّيَّتي من ورق، ولأن قريتي الكتب كانت تشغلني عن الركض وراء التدخين وشرب الصمغ والتلصُّص على النساء كما يفعل من هم في عمري.

أكبر خسائري لعائشة كانت: (الزمن الضائع) لمارسيل بروست، والذي لا أعرف بأي معجزةٍ وَقَعَتْ نسختُه الوحيدة بيدِ عائشة تلك. مُنَافِسَتي على هذا الضائع الذي سيبقى مثل ثقبِ مفتاحٍ بقلبي يُسَرِّبُ أزمنتي، أحياناً يُخَيَّل إليَّ أنني لو حصلتُ حينها على نسختي من (الزمن الضائع) لتبدَّلتْ حياتي كاملة، ولما خانني ما خانني.

***

من على قمم بيت اللبابيدي أدرك يوسف تأثير عائشة المدمّر على حياته، وأن عائشة وليست عَزَّة هي التي خانته.. هذه التي أسقطها من يومياته، بل وكرهها، يدرك الآن ما الذي سلبتْه إياه.

يُراود يوسف أن يتسلَّل إلى حجرة عائشة الآن باحثاً عن الزمن المفقود لبروست، يرتعشُ للفكرة، لكنه على ثقة أنها من الجرأة والخبث بحيث أخذتْ (ذلك الزمن) معها.

يتأمل الرجلَ الوطواط، يتساءل ما إذا كان ذلك الوطواط قد سَرَقَ عَزَّة؟ تُرَى هل يُذَكِّرها به هو يوسف أم بمخلوقٍ ليلي يقتحمُ العتمَ والموانعَ بالرادارات؟

يتحوَّل يوسفُ إلى بقايا خَفَّاش يتخبَّطُ في بقاياها، يفهمُ لأول مَرَّةٍ مَغزى الخطوط الحمراء التي رَسَمها في مراهقته تحت مقولة (كانط) بأن: (البحث في المكان والزمان ذاتهما، ينتهي إلى أنهما لامتناهيان ومتناهيان معاً، والبحث في المادة من حيث هي، ينتهي إلى أنها منقسمة إلى غير نهاية، ومنقسمة إلى نهايةٍ في آنٍ واحد. والبحث في الإرادة ينتهي إلى أنها مُسَيَّرَة وأنها حُرَّة معاً...) يناديها من أسطح اللبابيدي:

«أنتِ يا عَزَّة كل تلك التناقضات: النهاية والانقسام لما لانهاية لما يتجاوز الظاهر. وعليَّ ألا أيأسَ من وجودكِ، والنبش عنكِ حتى في الموت.. فموتكِ يعني موتي..»

لكم يشتاق يوسف إلى كتابة يومياته لإحياء عَزَّة، لكنه يدرك أن الزمن المكتوب ذاك صار من الماضي الذي لا مكان له الآن. . .

خطٌّ دائري

بمراجعة جداول المسافرين على الخطوط السعودية ليومي الخميس والجمعة اكتشف المُحَقِّق ناصر أن زوج عائشة (أحمد) قد استقلَّ الطائرةَ المتجهة إلى الدار البيضاء فجر الجثة، ظهور أحمد المفاجئ وانسحابه يُرَشِّح عائشة للموت، لكنه خشي تتبع ذلك الخيط.

لساعاتٍ انحصرَ المُحَقِّق ناصر بسيارته في نَزْلَةِ حَارَة الباب المؤدية للحرم، بين صفوفٍ أربعة للسيارات تئنُّ مُحرِّكاتُها مُرْسِلَة عَوَادمها في حَرِّ مكة وتتنافس مع حافلات النقل الجماعي، وشاحنات البضائع والثلاجات المُوَرِّدة للأغذية والخِرفان، وحافلات شركات السياحة الدينية، والتي يدوس سائقوها على دواسة البنزين ويندفعون في الزحام لإرهاب السيارات الصغيرة التي تنحشر في أضيق الفراغات للفرار من حركة المرور المشلولة.

في مثل هذه المواسم ـ وخاصة في موسم العُمْرَة بشهر رمضان ـ تصير البطولة للحافلات التي تبدو كوحوش خرافية برؤوس الحجاج الصغيرة ملضومة في زجاج نوافذها القاتم، تشق طريقها في بحورٍ من البَشَر، لذا يُخلي أهلُ مكة قلبَ مدينتهم للمعتمرين، ويتنقلون عَبْرَ الخَطِّ الدائري المُطَوِّق لدائرة الحرم للوصول لأيِّ نقطةٍ على أطرافِ الحزامِ الأول والثاني (المُطَوِّقين لذاك القلب بشرايين التجارة المُتَفَرِّعة منهما في كلِّ اتجاهٍ).

تَرَكَ المُحَقِّقُ ناصر مُحَرِّكَ سيارته دائراً وقفز إلى محلات أبو نار الحلواني، اشترى حلواه المشهورة (اللَّدْو)، من عجينة الحُمُّص الصفراء وحبات الزبيب ونكهة حَبِّ الهال، وحَشَرَ الكُرات الست بحجم كُرة الغولف في قرص الخبز الطويل تحت أعين البائع المُتعجبة، يُحِبُّ أن

يُفطرَ ويتعشَّى على تلك الحلوى، رغم أن داء السُّكَّري يَتَهَدَّده كمعظم أبناء الطفرة. عاد فجلس إلى مقود سيارته مُتَلَذِّذاً بقضم ذلك الساندويتش الدسم، وَجَدَ ناصر نفسه عالقاً في تلك البقعة، بينما حافلةٌ أمامهم تسدُّ الدربَ لتُفرغ شحنةً من المعتمرين القادمين بَرّاً من المدن الأخرى (الذين تُحجَز سياراتُهم الخاصة بمواقف مُحَدَّدة على أبواب مكة، ويُشْحَنون في حافلات النقل الجماعي لتفريغهم أمام المسجد الحرام، وإرجاعهم إلى مواقف سيارتهم بعد فراغهم من أداء فريضة العمرة). تأمَّل المُحَقِّق ناصر في بحر الأكتاف العارية للرجال، ووجوه النساء المكشوفة والتي تقتضي أضحية فيما لو مَسَّها حِجَابٌ، تَعَجَّبَ من سفور وجه المرأة للطقس الديني، وهو نفسه جزءٌ من ذلك الحَجْبِ والتناقض، اكتشف أن قلبه لا يخفق وريقه لا يجف ويتصلَّب جذعه لرؤية إناث الحجيج، وأنه ينظر إلى تلك الوجوه بصفتها جنساً ثالثاً لا ينتمي للأنوثة والذكورة، بينما يكفي طَرَفُ وجهِ امرأةٍ مَحَلِّية ليُسَمِّره مشلولاً! لحظتها تَقَلَّص جوفه بحُلِم أن يلقى عائشة أو عزَّة بصحن الطواف سافرة، وأن يدوس الرخام الذي تمسُّه قدماها! فقد شهيتَه فجأة، لفَّ نِصْفَ القُرص في القرطاس وتركه على المقعد المجاور. أمامه كان نهر السيارات مُحَاصَرَاً بصفوف الحوانيت على الجانبين: بقالة الحاج للنور، واحة النور، تميس النور، شاورما النور، عصيرات النور، تموينات حراء، مشروبات السلام (تأتي كلمتي حراء والسلام لتكسرا تكرار تلك الأسطوانة المشروخة في اليافطات)... لتستأنفه إعلاناتُ المطوفين، ومَكاتبهم المُشْرَعَة بالأنوار تتصدَّرها صُوَرُ الحرمين وخادم الحرمين، تمسُّ رؤوسَ الجالسين على المقاعد الطويلة المغطاة بالإسفنج لاستقبال القادمين، وبينها لمَحَ ناصر جريدةَ (أم القُرى) على حَامل الصُحفِ أمام المكتبة الصغيرة التي تُكَدِّسُ على بسطتها المصاحفَ وكُتُبَ السيرة، مرة أخرى فَتَحَ باب سيارته مُتَرَجِّلاً لدفع الريالات الثلاثة ثمن النسخة وخَطْفِ الصحيفة والعودة إلى مقوده بينما

حركة المرور مشلولة. في الصفحات الداخلية بَحَثَ عن نافذة يوسف، وباغتته تحت عنوان (إطلالة على المعلاة)، قرأ:

يقومون بتعلية مقبرة المعلاة، وتحويلها إلى طوابق.
وكانصارٍ للفن الحديث والفن المفاهيمي، نحلم بأن تصير برجاً، في غمضة عينٍ.
وقريباً سنعبر بموتنا للحداثة أو لما بعد الحداثة.
وحين يجيء المُتَعَهِّد الأكثر ابتكاراً: سيقوم ببناء أدوارٍ عُلْيَا بقيعان زجاجية، فنرقد هناك ونتأمل كيف يتحلَّل رفاقنا الأحدث موتاً.
صرتُ أخافُ القيام بنزهتي الصباحية في المعلاة.
(نحن في مكة نتخصَّص في السياحة الدينية ومهمتنا تسفير الأموات، تعرفُ ذلك الجثثُ التي أخرجوها من مقبرة الشبيكة التي نَقَضَتْها شركةُ التوسعة، وهجَّرتْ موتاها لتُسَكِّن مكانها الأبراج وفنادق الدرجة الأولى ومواقف السيارات.
جثثٌ طوالٌ تتمدَّدُ سيقانُها خارج الشاحنات العملاقة، ولا تزال. نراها في الهواء أمامنا بطول المسيال، راكبة نزولاً مع مجاري السيول لبركة ماجن، ومن هناك لا نعرف أين دفنوها).

تَحَرَّكَ سيلُ السيارات واندفعت درَّاجةٌ نارية مُخْتَرِقَة براكبها بين الفسحات الضيقة نافخةً عَوادِمَها بوجه ناصر الذي سارع إلى إغلاق زجاج سيارته وأدار جهازَ التكييف ساخراً من حاجته إلى هواءٍ حيٍّ غير مُحَنَّط. تأمَّل في صلعة الراكب الخلفي المحلوقة لِتَوِّها تلمع وثياب إحرامه المتطايرة باندفاع الدرَّاجة قياساً بخوذة السائق وبذلته الرياضية، أغاظته رعونةُ الدرَّاجات النارية التي صارت في السنوات الأخيرة وسيلةً للنقل تُعَوِّض عن سيارات الأجرة في الزحام (الرد بخمسين ريالاً) والحوادث بلا عدد، زاغت عين ناصر عن السطر، حين رجع للقراءة، وَقَعَتْ عينُه على كلمةِ الثورة:

(ربما الأموات هم الأوْلَى بتكوينِ جَبْهَةٍ مُعَارَضة، لأن للموت في مكة جبهة، ولقبور مكة تاريخ في الخروج على الإتاوات، وأشهرها ثورةُ القبوري، حين بُويع السلطان محمد الخامس (محمد رشاد) وظفر الاتحاديون، وأُقِرَّ الدستورُ في مكة والحجاز، عام 1326 هـ، وبَادَرَ رجالُ الدستور من العثمانيين فأقَرُّوا ضريبةً خاصة على دفن الموتى، وقَدْرُها خمسة ريالات، لتُصْرَف على إصلاح القبور. واستحضروا شيخَ القبوريين ليبلغوه استيفاء الضريبة من أصحاب الموتى، فاستنكر الشيخُ أمرَ الضريبة، وخرج من دار الحكومة صائحاً صيحته الشهيرة (يا سُكَّان المعلاة ارفعوا رؤوسكم وقوموا، الموت اليوم ببلاش وغداً بضريبة!) وهيَّجَتْ صيحتُه المَشَاعِرَ، وكان أهلُ الحجاز لم يتواطنوا بعد على مبادئ الدستوريين ولم يقتنعوا بثورتهم على الخليفة، وصاح صائحهم بالجهاد، في سبيل الله، فاستجاب الشبابُ من جميع الحارات، وخرجوا بأسلحتهم، يُنادون بالثورة على الأتراك، فاشتبكوا مع الجند في عِدَّة مواقع من الأسواق، وقُتِلَ وجُرِحَ من الفريقين عددٌ غير كبير، ثم استطاع الأتراك بمساعدة بعض الأشراف إخمادَ الفتنة بعد ساعات من نشوبها. وقد اتُّهِمَ أمير مكة الشريف علي بن عبد الله باشا بالدعوة إلى الثورة ومساعدتها. فعُزِلَ وعُيِّنَ الشريف حسين بن علي، وكان من أشد المحافظين، ولا يعترف بمبادئ الدستور التي تُخَوِّل عامةَ الشعبِ شيئاً من حقوق الحكم، مما لا يتفق مع التقاليد التي وَرِثَها والتي تفصل بين الحاكم والمحكوم.)

انفرج الاختناقُ المروري أخيراً، وقَاطَعَه فوجٌ من الحجيج وراء صبي مُطَوِّفهم يقودهم بين الزحام عابرين للحرم، يلاحقهم طفلٌ أفغاني بكيس بضائعه يبيعهم سجاجيد بحجم الكف مزخرفة بصورة براقة لصحن الطواف والكعبة. نَفَذَ المُحَقِّق ناصر بسيارته يميناً صوب الحفائر، لم تكن له وُجْهَةٌ مُعَيَّنة، منذ أن تَوَلَّى هذه القضية صَحَتْ بقلبه مكَّةُ (التي هَجَرَ مَسْقَطَ رأسه الطائف لسكناها)، أكثر من ليلة مرَّت عليه وهو يقود هكذا على غير هُدى، وفقط للاطمئنان أن مَكَّتَه هناك لا تزال، لم تُطَيِّرها الملائكةُ

وتُخفيها عن الأنظار لعنةً لأهلها.

ما إن احتواه شارع المنصور حتى أحاطته الوجوه السود اللامعة، شَعَرَ بالأمان في ولوجه لذلك الزقاق الضيق، المعروف باسم (السيد الشنقيطي)، شعر بالدرويش المعروف يظهر من لا مكان، يطوف بالزقاق أو يجلس على أفاريز المسجد، ليتدخل بإحلال معجزة ويختفي. أوقف ناصر عربته بمواجهة مسجد الشنقيطي الصغير وتَرَجَّل، مشى ناظراً حوله لا يعرف عمَّ يبحث. يمشي في ذلك الزقاق بحثاً عن كارثة تستدرج الشنقيطي للظهور من مخبئه الغيبي، شَعَرَ ناصر بالترقُّب في الهواء لِطَلَّةِ الشنقيطي لإعادة كراماته، كما حدث في حكايةَ الأب الذي انعجنت يد طفله حين أغلق بابَ سيارته عليها، وبين العويل ظَهَرَ الشنقيطي وقرأ ونَفَثَ على اليد فرجعت سليمة، أو حكاية صاحب الدرَّاجة النارية التي تهشَّمت ساقُه تحت العربة التي صدمته، ليظهر الشنقيطي ويقرأ وينفث فتلملمت الجروح وجُبِرَ العظم وقام الشاب ليجرجر حطام دراجته لأقرب ورشة! يُفَكِّر ناصر أن الشنقيطي يصلح لبرامج الفضائيات المشغولة بقراءة الطالع والتداوي بالأسحار وعمليات تحويل الأوز القبيح إلى بجعات بعمليات تجميل خرافية.

تلفَّتَ ناصر حوله مُتَتَبِّعاً عينَ لاعب الأحجية التي ترصده وتُوَجِّه تحقيقاته، تأمل حوله فلم يعثر على أي أثرٍ للمجد الذي نَبَشَه يوسف لشارع المنصور هذا، والذي كانوا يسمّونه في ماضي مكة (الأقحوانة)، حيث تَتَوَّجَ في النصف الأول من القرن العشرين بصفته شارعَ عروضِ الموضة (مثل حدائق الهايدبارك بلندن والسنترال بارك بنيويورك والشانزلزيه بباريس)، يقصده أهلُ مكَّة عصرَ كلِّ يومٍ للنزهة، ويتنافسون في التأنق والتألق بالأردية والأكسية الزاهية اللامعة كقوس قزح والتي تكسف زينة الحُكَّام الأتراك.

عَبْرَ الزقاق قَامَ رجلٌ أسود، لافتاً نظرَ ناصر للأريكة الحمراء

المبقورة، وزير الماء، ورفوف الفورمايكا المشققة، والتي تحمل في رفوفها الثلاثة بقايا خبز جاف وعلب مفتوحة لأغذية محفوظة نصف مأكولة، حجرة معيشة على تراب الطريق. تقدَّم منه الرجل بذراعين ممدودتين للمصافحة، سَلَّم ناصر يده لتلك الراحة، والتي اكتشف متأخراً نعومتها وغرقت يد ناصر في طين يعجز عن استخلاصها منه. أَحكمَ الرجلُ راحتَه على راحة ناصر مُحَدِّقاً في عينيه،

«الحريم، تأتي بالسكاكين.. بعضُنا يقرأ طَرَفَها الحاد.. أنتَ ستفعل.. لكن تَمَهَّلْ فلا تقرأ بقلبكَ.. نحن لا يد لنا فيها.. الحريم بلوى الحريم..» وخلّاه وتلاشى في الزقاق.

تضاعفَ شعورُ ناصر بالضيق، كان على يقينٍ من أنه سَبَقَ ورأى ذلك الوجه، لكن لا يذكر أين.. أراد أن يتبع الرجل ليعرف، لكن تلك الكلمات الغامضة وقفتْ سَدَّاً في طريقه.

قادَ ناصرُ عربته ساخراً من الموقف برُمَّتِه، حين وصل شارع الرصيفة رجعت كلمة السكاكين تحفر برأسه، ونبشت نافذة قديمة ليوسف منشورة على شبكة الإنترنت عن السكاكين:

20 يونيه 2000:

حلَّتْ الثمانينات المكية بامرأةٍ هَاتَفَتْ مكتبَ الإمارة بمكة، تُبَلِّغ عن ظاهرةٍ طريفة: قالت: «أنا مَكيَّة بنت مَكيٍّ، ولاحظتُ وزوجي اختفاء السكاكين من الأسواق. واستفسرنا لنكتشف الغياب المُتَعَاقِبَ للسواطير، والأدوات الحادة، وأن هناك إقبالاً منقطع النظير على شرائها من العمالة الأفريقية!» ذلك التعليق الذي أثار سخريةَ موظفي الإمارة فجَّرَ حدثاً كان يجري بصمتٍ مميت تحت السطح، اكتشف نائبُ الأمير أن وكيلَه (با عالي) ضَالِعٌ في قضيةِ إخلاءٍ باسمه للأرض الممتدة بالرصيفة والمملوكة لعائلة القبوجي التي عَجِزَتْ عن إخلائها من شبكة المقيمين الطفيليين بها،

فتآمرت مع الوكيل (با عالي) لاستخدام قوّات الأمن العام لطرد الطفيليين بالقوة، ومُحَاصَرَة الأزِقَّة المُتَمَرِّدَة، وتمّ ذلك بسريّة فلم تعلم به أحياءُ مكة، بينما استعان المقاومون بذلك السلاح الأبيض والحجارة ليُوقعوا الضحايا في صفوف الجند قبل أن تتقلّص عمليات التطهير حين صدر الأمر باحتواء الأزمة، وزحفتْ الفخامةُ على الرصيفة، وسقطت حظوظ (باعالي) الوكيل.

«الحريم!» ضحك ناصر ساخراً، مسترجعاً الرسالة المحفوظة بأرشيف رئيسه، منذ عشرين عام، من مَوْجَةِ منشورات النُضْحِ التي اجتاحتْ مركزَهم، ومراكز الأمن ومراكز بحوث الحج والجامعات ودار الإمارة والديوان الملكي باقتراح مُذَيَّل بـ (الدكتورة فريدة فاعلة خير)، يقول منشور التطهير الاقتصادي: (لمواجهة مشكلة جيوش العمَالَة غير النظامية المُتخلِّفة من مواسم الحج نقترح على المسؤولين ما يلي: تخصيص معسكراتٍ بقلب الصحاري: معسكرٌ للنساء بصحراء النفود، وآخر للرجال بصحراء الربع الخالي، يُرَحَّل إليهما كلُّ من يُقْبَض عليه بلا أوراق رسمية، فإذا احتجّت دولُ العالم المُتَحَضِّر كما هو مُتَوَقَّع، فعلى المُعْتَرِض فَتْحَ حدوده لتَلَقِّي تلك الجحافل، وإلا خصّصنا من ميزانيتنا ما يُنفق عليها حتى نهاية آجالها، والتي نحن على ثقة أنها لن تتكاثر، باعتماد سياسة العزل وتعميم صورة المُعَسْكَرَين على خطوط الاحلام التي تجذب أهلَ الأرض لأرهاق ميزانيتنا المتآكلة...)

ضحكَ ناصر من شراسة المخيلة الأنثوية، تمدَّدت برأسه مَشَاهِدُ الفيلم السينمائي الذي سيُخرجه شخصياً بعنوان: (دُول ترانزستور). وتقوم حبكةُ الفيلم على عالمٍ تحكمه النساء، واحدة تُحْكِم الرقابة على سوق السكاكين وتتطلَّب جوازات عبورٍ لمشتريها، والأخرى تُعَمِّر الصحاري بوحدة الجنس البشري!

بانتظار أن تتبدَّل إشارة المرور للأخضر، ومن لا مكان وبلا إنذار،

طَفَتْ برأسه صورة لمُشَبَّب بالأبيض والأسود، يذكرها مُعَلَّقة على الجدار يمين ديوانه، الصورة طِبْقَ الأصل لوجه الدرويش الشنقيطي، تحوَّلت إشارة المرور إلى الأخضر، زعقتْ فراملُ عربة ناصر، حين قامت بدورة كاملة راجعة لبستان أبوالرووس.

ركض إلى البستان مُهَيَّجاً في طريقه القطط والكلاب، صافقاً باب البستان، مندفعاً عَبْرَ الفِناء. على الجدار يمين الديوان قابله ذلك الأثر، مستطيل من الطلاء الأصفر الأغمق درجة من صفرة الجدار حوله، مكان الصورة التي انْتُزِعَتْ. شعر ناصر بالخديعة، اندفع راجعاً إلى شارع المنصور، حجرة المعيشة على تراب الطريق اختفت أيضاً، كل أجهزة الإنذار زعقت بالأحمر في رأس ناصر، هناك من يعبث به. الدرويش الذي صافحه لم يكن إلا مُشَبَّب، شعر ناصر بغبائه، كيف فَوَّت فرصة التحَفُّظ على تلك الصورة الوحيدة لغريمه!

مُتحفِّزاً رجع ناصر إلى مكتبه، ينبش عن قضية سبق ومرت عليه عن المدعو الدرويش الشنقيطي. في الملف جاء وصف العبد الذي فرَّ من الاعتقال حين حوصر يُهَرِّب الحشيش لابنة شخصية مرموقة، الشيخ خالد الصبيخان. تلاشى الشنقيطي وذُكِرَ في التقرير أنه يملك قوى سحرية أخفته عن أعين مطارديه!

ربط ناصر ذلك بما قرأه في إحدى رسائل عائشة:

من عائشة / رسالة 18:

يا ^:

تسألني: أيتملككِ الشعور بالذنب؟ هل يسبب لك ما بيننا فصاماً؟ أعني، بالقياس لما نشأتِ عليه؟

أردتَ أن تعرف ما إذا كنتُ مُهَدَّدَة، أو ما إذا كنتَ مُهَدَّداً، بشكل أو بآخر (من أبوالرووس) ولقد أكدتُ لكَ ألا شيء يُهدِّدكَ سواي أنا. التركيبة التي هي (أنا)..

يا ^،

(تُفَكِّر جودرون: «من المُسَلّي أن يأخذ الإنسان دوراً في الحياة البوهيمية الألمانية.. لا أخدع نفسي بالاعتقاد أنني سأجد إكسير الحياة في دريسدن، لكنني سأهرب من الناس الذين لهم بيوتهم الخاصة، وأطفالهم الخاصّون، ومعارفهم الخاصّون، وكل ذاك الخاص... سأكون بين الناس الذين لا يملكون الأشياء، وليس لهم بيت ولا خلفية من الخدم، والذين ليس لهم موقف ومكانة اجتماعية ودرجات علمية ودائرة من الأصدقاء.. يا إلهي، هذه العجلات ضمن العجلات من الناس، تجعل رأس الواحد منا يتكتك مثل ساعة، بجنون الروتين الآلي واللامعنى. لكم أكره الحياة؟ لكم أكرهها! لكم أكره الجيرالديين الذين لا يملكون غير ذلك يقدمونه لي.»
التفكير في التتابع الآلي لليوم يتبع اليوم، اليوم وراء اليوم لما لانهاية، كان أحد الأشياء التي تجعل قلب جودرون يخفق بما يقارب الجنون.
لم يكن بوسع جيرالد إنقاذها من ذلك، هو، وجسده، وحركاته، وحياته هي نفس التكتكة، نفس ارتعاش العقرب في دورانه على صفحة الساعة. ارتعاشاً ميكانيكياً مرعباً للأمام على وجه الساعات. ما كانت قبلاته؟ عناقاته؟ تستطيع أن تسمع تكّاتها: تيك تاك تيك تاك.
ما كانت ستندهش فيما لو أفاقت ذات صباح على شعرها وقد شاب، كانت غالباً ما تشعر به يشيب تحت وطأة أفكارها غير المحتملة وأحاسيسها. ورغم ذلك ها هو شعرها بُنّياً للأبد، وها هي تقف كرمز للعافية.
ربما عافيتها التي لا تخمد هي التي كشفتها هكذا للحقيقة. لو كانت مريضة لكان لها أوهامها وأخيلتها. لكن، وبما هي عليه لم تدع لنفسها مجالاً للهرب، سيكون عليها أن ترى دائماً وتعرف دائماً ولا تهرب أبداً.) العاشقات ص 522.

تضعني جودرون في هذا المزاج العكر.. لا أحتمل هذا الفراغ الذي تفتحه جودرون لرجالها وفي رجالها.
ولَكَمْ ضحكتُ في سرّي لسذاجتكَ! لو أنك تعلم ممَّ هي مجبولة أجساد بنات أبوالرووس، عجينة الكذابات الصغيرة، الحَفْرُ بالكذبات والحَفْرُ اليومي

لإحداثِ انفراجٍ في طبقاتٍ فوق طبقات من إنذارات حظر التجول وحظر الوجود، للنفاذ إلى الحياة بخفة...

عائشة

ملحوظة 1:

«أنا مُعَلَّقَة على طلقة.»

«وأنا على طلقتين.»

«وأنا على ثلاث..»

«وأنا على أربع ونبحثُ عن فتوى.»

«وأنا على خمس، استنفذنا الشيوخَ والفَتَاوى، يبحث لنا عن مُحلِّل، ونرجِّع العَدَّاد على الزيرو.»

«وأنتِ يا عائشة، واقفة على كام؟»

أنا منبوذة خارج هذا السُلَّم الموسيقى للطلاق...

التوقيع: عائشة.

استدراك:

عَزَّة مضطربة، هناك إشاعة بالقبض على مُشَبِّب يُهَرِّبُ حشيشاً لبنت شخصيّة لامعة..

ملحوظة 2:

إليك الحكاية كما رواها مُشَبِّب لعَزَّة:

دنا مُشَبِّب من بوابة القصر الكبير، تأمل في السور الرهيب يمتد لما لايقل عن الثمانية أمتار في الهواء، راقبه الحارسُ من نافذته بحجرة الحراسة يمين البوابة، يعرف أن السيدة الصغيرة تَتَوقَّع قدومه، أعطتْ أوامرَها بتسلُّم الطرد الذي يحمله. رؤية الاسم على الطرد جعلتْه يمد يده أتوماتيكياً لتسلُّمه، فوراً أدرك مُشَبِّب الفخ في النظرة المتفادية على وجه الحارس، وحتى قبل أن تنفرج البوابة وتندفع عربة الشرطة ورجالها صوبه، دفعوه

بعنفٍ للعربة، بسرعة تصويرية بطيئة تابع مُشَبِّب الطرد ينتقل من يد ليد، من دون أن يعبأ أحد بالنظر إلى محتوياته. في نفس البقعة رُكل حتى غاب عن الوعي، حين أفاق كان مرمياً على الطريق بين مكة وجدة، حيث تحامل على نفسه للعودة والاختباء بأقبية بستانه لما يزيد على الشهر، ولم يعبأ أيٌّ من مُهَاجميه بمطاردته، حيث الكسور بأضلعه كانت مجرد درس لتهشيم ما شهده في ذلك القصر.

«لكن لماذا؟ ما الذي حملك على مجازفة كهذه؟» مُتحسِّسة الضمادةَ الشعبية لأضلعه المكسورة.

«لو رأيتِ تلك البنت.. لم تتجاوز الرابعة والعشرين، وببساطة.. لا تحيا.. تعاني ظروفاً تفوق في قسوتها ظروف سجناء غوانتانامو، ابنة امبراطور مال دولي ومع ذلك لا تملك منفذاً لهاتف متنقل. حتى الخدم يتمتعون بهذا الحق، بينما هذه البنت تخضع للمراقبة وتشهد حياتها تتسرَّب من بين يديها.» لم تجرؤ عَزَّة على التساؤل: أهو مجرد هاتف نقال يُهَرَّب في ذلك الطرد؟

«أيمكن أن أسأل: كيف عرفتَ فتاة مغامرات سينمائية كهذه؟»

«والدها أحد زبائني، أُزَوِّده بِفِرَقٍ رقصٍ شعبيةٍ أصيلة كلما رَتَّب سهرة فولكور لضيوفه الأجانب.» رمقته عَزَّة ساخرة: «وقدمتَ نفس الخدمة للابنة؟!»

غيرتها أسعدته،

«بدأ كل ذلك حين أرسلَ الأب في طلبي، شرح لي أن ابنته تعاني اكتئاباً حادّاً، دفعها لأكثر من محاولة انتحار خلال السنوات العشر الماضية. ولقد فشل في علاجها خيرةُ الأطباء النفسيين، وإن سمعتي كمُعَالِج بالقرآن قد بلغتْه، ويريد مساعدتي. دائماً أحرص على تَجَنُّب مثل تلك الأوساط السلطوية، لكن رفضي لم يُجدِ وحددوا لي موعداً لمُعاينة البنت.»

لا مظهر للحياة حول ذلك السور البالغ للسماء، فقط كُوَّة المراقبة يمين البوابة، حين عرض تصريح المرور اختفى الرأس المُرَقَّط بالشماغ الأحمر للحظات، ثم انفتح بابٌ صغير يمين البوابة وابتلعه. مذهولاً استسلم مُشَبِّب

لسكرتير القصر الذي استقبله، وأقلّه لعربته، وقاد به عَبْرَ سورٍ وراءَ سورٍ محيطة بالقصر الداخلي، حتى اخترق إلى مجمع الفيلات الحديثة بقلب حديقة النخل المترامية. بدا المشهد حوله مثل لوحة اصطناعية من الخضرة الحادة، وما من مخلوق يتحرَّك في تلك اللوحة سواه هو وسكرتير القصر، غُرابان يشقان الخضرة البلاستيكية للمشهد، صوب ما أسماه فيلا البنات.

تُرك مُشَبَّب وحيداً في الثلاثمائة متر مُرَبَّع التي هي صالة الاستقبال، والتي كانت لوحة أخرى من الخواء الفاخر، خادمة فلبينية انبثقت بغتة في زِيِّها الأبيض المُقَلَّم بالأزرق:

«Anything to drink Sir?»

«ماء من فضلك.» غَطَس صوت مُشَبَّب في خواء المكان. الصينية المُزَيَّنة بزهر الأوركيد، وكأس الكريستال تُرِكَ لم يُمَسّ مواجهاً لمُشَبَّب بينما تضخمت الدقائق في دهر. لما يُقارب الساعة تُرِك هناك مُوَاجِهاً لطاولة القهوة العريضة محملة بأصناف الأطايب، المعمول والفطائر وأكداس الشوكولاتة السويسرية والمكسرات المُلَبَّسة بالنكهات، مُتَوَقِّعَاً في أي لحظة أن ينبثق من يطرده من هناك وقد رفضتْه البنت. الأثاث كان تحفة فنية من الحرير الخالص، حتى الجدران مكسوة بحرير ذهبي باهت، ومُحنَّطة ببرودة التكييف المركزي في لوحة فخامة.

التقطت حواسُه الانفراجةَ الرقيقة للباب الذهبي بآخر المجلس، وولجت فتاة حافية القدمين، تغوص في زهر حرير السجاد العجمي متقدمة صوبه، لم يرفع مُشَبَّب بصره حشمة، لكن الفتاة واصلت التقدم، دنت قريباً من حيث يجلس حتى وقعت قدماها في مرمى بصره، كان بوسعه أن يرى انعكاس زرقة حرير السجاد على بلرر القدمين، بشرة من وهج أزرق وأحمر.

«أنتَ واحد منهم؟ الخونة الذين لا يحترمون تقاليد المهنة؟» ولم ينبس بكلمة. بعُنفٍ داست على قدمه في مداسها، «قالوا إنك ساحر؟ أتظنني طفلة تنبهر بالسحر؟ هذه الحياة لعبة مكسورة..»

«لا سحر غير قواكِ الروحية تُعَزِّزها تلاوتي، بوسعكِ تجربة قراءة القرآن وحدكِ للوصول للسلام النفسي.» حاسة سادسة لمُشَبَّب التقطت الاضطراب

في الهواء، انبثقت آذان في الخواء حولهما، فجأة شَعَرَ بأنه مُرَاقَبٌ، وسخر من ذاك الوسواس.

«ستقول جرِّبي سورة البقرة.. أخواتي يعاملنني كبقرة مجنونة غير صالحة حتى لإعادة التدوير.. لعشر سنوات لم أر شارعاً، فقط شوارع ألعاب الفيديو وشاشة التلفزيون. أمي تركت لبلد الساعات والشوكولاته والحسابات السرية! أتعرف كيف يستعملون الدمى التي تُوَجَّه عن بُعد لقيادة الإبل في السباقات؟ أنا الجَمَل الوحيد، وأخواتي الدُمى على ظهري يسقنني، وبيد أمي **الريموت كونترول**.» انتاب مُشَبَّب ضيق من الإنصات لتلك الوسوسة القهرية.

«وحين لم أستجب للريموت رَوَّضنني بالمُغَيِّبات، حقيبة طافحة بكل ما لا يخطر لك على بال. حتى إذا أدمنتها انسحبت الحقيبة لترويضي بالألم. والآن جئن بكَ لتسخطني؟»

ما إن بلغ مُشَبَّب بستانه حتى لحقه الرسول:

«إياكَ والرجعة للقصر. استُغني عن خدماتك..»

لقد تم رصدي بالكاميرات وخضعت التسجيلات للمراقبة، وصدر الحكم بعدم صلاحيتي.

«أليس بوسعك عمل أي شيء؟»

«لا، وخصوصاً في التهديد الذي أرسله الأب بحرقي حيّاً بتهمة السحر! قالوا: اشكر أن تركناك تُفْلِت بسلام رغم جرأتكَ في كسر الأمر ومحاولتكَ تهريب ذلك الطرد التافه..»

جهيمان

صباح الثلاثاء موعد إجازة معاذ الأسبوعية من عمله بمَعْمَل التصوير، مَرَّ معاذ على بيت اللبابيدي، أخذ طُرقاً خلفية طويلة حَريصاً على ألا يتبعه أحد، حين فتح له يوسف سَبَقَتْه رائحةُ خُبز الشُّريك (المعجون من دقيق

القمح والحُمّص والمُطَيَّب ببُهار الشَّمَر)، اشتراه من فرن المُعَلِّم شَلْضُوم الذي يخبزها بهذه النكهة القديمة.

هذه المَرَّة، حين دَعَا يوسفَ للصعود، تَجَاوَزَ ظِلَّة السطح الأول مُرْتَقياً للسطح الأعلى، وكانت الأسطح مُتراكبة تخرج واحدة فوق الأخرى، بلغ به أعلاها، وقال:

«بوسعك أن تنام هنا في ليالي القيظ.» شَعَرَ يوسف بأن معاذاً يَتَعَالى هنا ويَتَفَوَّق عليه، كمَالِكٍ مُطْلَقٍ لهذه العوالم، ولم تَفتْه نبرة مَنْ يَتَكَرَّم عليه بتلك الهِبَاتِ، كمن يسمح له بالتجوال في مملكته والقطف من بساتين تلك الصور. لكن فجأة لمح معاذ المعدن المتدلي بسيرٍ من عنق يوسف.

«يا إبليس..» بلا لحظة تفكير قفز معاذ مهاجماً يوسف، الذي أُخِذَ على غرَّة، فهوى تحت ثقل مهاجمه، واضطر للدفاع، تدحرج الجسدان على تلك القمة العارية، لم يكن يُسمع غير اللهاث واللطمات التي يصدها يوسف، أخيراً حين تمكن من التغلب على معاذ وتثبيت جسده بين ساقيه، قال:

«هل جُننتَ؟! ما الذي تفعله؟!» وجاوبته بَصْقَةُ معاذ التي انتثرت في المسافة بين وجهيهما، يخنقه الغضب فيرى قابيل في وجه يوسف.

«لقد جرؤتَ على أخذ المفتاح... هذه مفاتيحي.. ليس لك الحق..» صار يوسف واعياً بالمفتاح حول عنقه.

«هذا؟!! لكنه لا يتطابق مع أي من الأبواب، هو أكبر من كل المغالق..»

«وجَرَّبتَها جميعاً..» اختنق معاذ بغيظه..

«هذا المفتاح كان صدئاً، مقبضه بهيئة محاريب ثلاثة ذكَّرَني بمفتاح رأيتُه يوماً في مخطوطة لدى مشبب عن الكعبة. أردتُ التحقُّق مما إذا كان هذا يمتّ بصلة إلى ذلك المفتاح بالصورة؟ لهذا استخلصتُه لكي أطابقه

حين تسنح لي الفرصة للتسلل إلى بستان مشبب..»

«ليس لك الحق في صقله، لقد كان تحفة وأنتَ مَحَوْتَ سنوات من العِتَق عن معدنه، لقد محوت زمناً، بينما أنا.. أنا لم أجرؤ حتى على تصويره.. لقد سَلَبْتَني حتى هذا...»

«لا تكنْ مأساوياً، نِيَّتي إرجاعه لتأريخه، عذراً إن منحتُ نفسي الحق.. لكنني ظننتُ أنني قد أُذنتُ لهذا البيت لهدفٍ.. تعرف أنني ومشبب نجمع كل أصناف المفاتيح التي تم استخلاصها من أقدم بيوت مكة وبالذات من جوف بئر زمزم.. باعتقادنا أنه حين يحين الوقت فستفتح لنا هذه المفاتيح بعض الإجابات التي نسعى وراءها..»

لقد أخفى يوسف حقيقةَ ما يراوده، بأن قَدَر ذلك المفتاح الوصول إليه، ما إن لَمَسَه لأول مرة حتى عرفتْه يدُه، شَعَرَ بأنه مفتاحه..

دَفَعَ معاذُ ثقلَ يوسف عن جسده، وزحف بعيداً، تكوّم على أرض السطح العارية يرقب مكة في الأسفل بتقطيبة كبيرة، متجنباً النظر إلى يوسف. لم يقم أي منهما بأية محاولة لتسليم وتسلُّم المفتاح، هو قَدَر بَلَغَ غاياته..

لكسر حتمية الموقف تحرَّك معاذ هابطاً للمطبخ بالسطح الخلفي، وأخذ زجاجة النسكافيه التي شَكَّلت احتفاليتَه الصباحية أول دخوله لذلك العالم. يكيل الآن ليوسف (كما كانت تتركه ماري زوجة اللبابيدي كل صباح يكيل) الحليب المُجَفَّف لكوب القهوة النسكافيه، ورجع بالكوبين يتصاعد منهما العبق اللذيذ للطيرمة. جلسا على حافة سور الطيرمة من خشب الساج المضفور، يحتسيان النسكافيه، ويُغَمِّسان فيها قِطَع الشُّريك المعجونة بالسمن والشَّمر والكمون والحبة السوداء، يضرسان حبَّات الكمون ويُغَرِّقانها بالقهوة، بصمتٍ كثيف تشاركا حميمية تلك الوجبة من وجبات الهدنة.

كان معاذ يرقب يوسف كما كان يرقب ماري في وقفتها الأبدية، بظِلٍّ

مَنَارة الحمَّام التركي، وراء عدستها تتلصَّص على الحرم، ويُكَرِّر آخرَ ما قالته له حين نادته للإطلال للمرة الأولى من وراء تلك العدسة:

«هذه ليست دعوة إلى البيت، هي دعوة إلى عالم يموت، إلى قيامة..» قالها مُرَاقِباً وَقْعَ كلماته على وجه يوسف كما راقبتْ ماري وقعَ كلماتها على وجهه..

يشعر بماري تتأمل فيه باستغراقٍ، ترى فيه ما لا يراه، كمن تنظر في بلورة سحرية، ترى به للمستقبل، تقول له: «حافظ القرآن يعي ما هاهنا؟»، تمدُّ يدها ليناولها يده، تفتحها كورقةٍ ستكتب عليها شهادتها أو وَصيَّتها الأخيرة، تدسُّ بيمناها كومةَ تلك المفاتيح الطويلة ـ برؤوسها الشبكية المُقَبَّبة على شكل محاريب متداخلة ـ عميقاً في راحة يمناه، لتُطبق يسراه على ذاك الكنز: «أنتَ الأقرب لهذه الصور..» تُطلقه بتلك الحركة المُؤتَمِنَة، ويعرف حينها ما عليه والآن. يفتح حواسَه عن آخرها ليتنشق الغبار العَالِق هنا من الماضي، كان التنظيفُ غياباً وراءَ الحركةِ المُبَاغِتَةِ لتلك الوجوه.

«آخر ما صَوَّر اللبابيدي من هذه العدسة ساحةَ المسجد الحرام حين أوصد جهيمانُ أبوابَها بانقضاءِ صلاةِ فجرِ الأول من شهر مُحَرَّم للعام الهجري 1400، 1979 م، مُعْتَصِمَاً بالمسجد الحرام، ومانعاً صلوات الجماعة. لدينا صور نادرة للجنائز التي هَرَّبَ بها جهيمان أسلحتَه للحَرَم..» لا يعرف معاذ متى بدأت الكلام ومتى أنهتْه، «تحت أقفاص جنائز النساء تسلَّلتْ ذخيرةٌ كاملة إلى خلوات الحرم، وأكياس تمرٍ كمؤونة للمتمردين في اعتصامهم ببيت الله..» هبط يوسف مع معاذ يقودهما شبح ماري، وتبعاها إلى دَرَجَاتٍ قصيرة تقود من وراء المطبخ بالسطح إلى حجرة مخفية، حيث أقامت ماري شهادتَها لهجمة جهيمان، تكاثرت حولهما صُوَرُ الأسلحة المنتشرة مع التمر والجثث المُتَعفِّنة في صحن

الكعبة، تَخَبَّطَ صوتُها العميق مُوحِشاً في صوت معاذ كما الآن وهو يرَجِّعُ كلماتِها ليوسف، لا يعرف يوسفُ أهو تَوَجُّسُه الذي يحكي أم رَجْعُ صوتها حين شرحت يومها لمعاذ:

«كنا نُصَوِّر ما ظنناه دخول القرن الهجري الجديد والمُتَوَقَّع فيه ظهور المهدي حين فاجأنا صوتُ الطلقات والحَمَام يطير مذعوراً حول منائر الحرم. . . سقط اللبابيدي ميتاً بالرصاصة الأولى التي انطلقت في الصحن، محظوظاً لم يشهد ما تَلَى، لم يكن اللبابيدي مُصَوِّراً وإنما عابداً مُتَنَسِّكاً، يحشد في صُوَرِه روحَ مكة كمن يستحضر الأسماء العظمى في حبات مسبحة، ظَلَّتْ عدستُه تسعى وراء طُلاب الجوار والعلم والسدنة من بني شيبة، وكان يَتَتَبَّع ظهورَ المهدي من تلك الوجوه! لقد عاشرتُ اللبابيدي الذي قَلْبُه موصول بمكة، يُصَوِّر كمن يضخُّ دَمَه، شرايينه تجري ببيت الله، فحين اخترق الرصاص ذلك القلب سقط اللبابيدي، في أول يوم لاقتحام الحرم. ولم نتمكَّن من تشييعِ جثته كأهل مكة من بيت الله، ولا عَبَرَتْ جنازتُه بابَ الجنائز من الحَرَم، ولا قَطَعَتْ عَبْرَ المسعى لسقيفة المُدَّعَى وسوق الليل لِيَتَرَحَّم عليه أهلها. مَضَى فلم يكسر شكيمته إيذاءُ المُعَارضين ولا السجن الذي تعرَّض له كلما قُبِضَ عليه يُصَوِّر لقطاتٍ مسروقةٍ لجبلِ الرحمة بعرفات وصحن الحرم، لأن في التصوير سَلْباً للروح، كما أدانوه بالتعدّي على المقدس، وقالوا نَفَاه الحَرَمُ عقاباً لجرأته، فجَاءَ دَفْنُه كلعنةٍ، من دون أن تُصلِّي عليه الجماعة أو تحتويه مَغْلَاتها، حيث اضطررنا مع حظر التجوال واستحكامِ خَطَرِ القَنَّاصةِ من المنائر لدفنه خلف هذا البيت بقمَّة جبل هندي، ذاك كان يوم قيامةٍ يَحِلُّ على الجزيرة العربية.» كان صوتُها لا يزال هناك حولهما، بينما في الضوء الشحيح حدَّقتْ إليهما الصُّوَرُ، أمامهما كان صحن الحرم ملطخاً بالدم والجثث، ومن باب أجياد وإبراهيم وباب الوداع والجنائز وباب الملك عبد العزيز المُضَاف بالتوسعة انسابت الشاحنات مُحَمَّلة بالجثث المُكَدَّسة بلا تمييز:

«هنا جُثَثُ ما بَقِيَ من العُصَاة.. التقطتْها ماري زوجة شيخنا اللبابيدي كفاتحةٍ للدمارِ أو يوم القيامة الذي هَبَطَ علينا في هذا القرن عِوَضاً عن المهدي.»

في زحفٍ عظيمٍ تَحَرَّكَت الأعين، وخرجتْ من الصُّوَر، من أركان البيت ومن تلك العدسة مُضَبَّبة بفزع: (وَحْدوه) تُوَدِّع جنائزَ تَتَوَافد الآن وفي الغد..

ام كلثوم (الآهات)

حين جلس ناصر إلى حانوت الشيخ مُزَاحِم بدا مثل زائدةٍ دودية، يتأمَّله الزقاقُ بضِيقٍ، ويَتَجَاهَله الشيخُ مُزَاحِم الذي بدا مسلوباً، ولم تمتد يده حتى لصينية قهوته، لتفتح الفنجان المكفي للترحيب بناصر، أو تعيد ملء فنجانه المُتَحَطِّب ببقايا حثلٍ جاف. مرارة بحلق الشيخ من تلك الخلطة التي ينزعُ روحَها كلَّ صباحٍ عاملُ المقهى الذي أَجَّرَه ليُجَهِّز قهوته بعد غياب عَزَّة، يُفْسِدُ مزاجَ القهوة بمزاجه السريع حين يُهملها لتغلي. لم يُضَيِّف الشيخُ المُحَقِّقَ برشفة، ولا امتدَّت يده إلى طبق التمر نصف المأكول، بينما حامتْ ذبابةٌ مُصْدِرَة أزيزاً صاخباً على كومة النَّوَى المقذوف بركن الحانوت، ذبابة تئز على كل حياته. يوماً وراء يوم، منذ اكتشاف الجثة، ظَلَّ الشيخ مزاحم يجلس في حانوته مواجهاً للفراغ الذي تركتْه عَزَّة، فراغٌ كاملٌ بقلبه. لا ألم حبٌّ ولا افتقادٍ لعَزَّة، جالساً هناك لم يذكر زمناً افتقد فيه عَزَّة أو تَرَكَها تنسج خيطاً لتَتَعَلَّق بقلبه. أمضى حياتَه ينساها، وهي، انغلقت على ذاتها ودفعته إلى حافة قلبها ليسقط ويتعفَّن وحيداً في حانوته. تماماً كأمِّها، لقد كره اللقمة التي تطبخها له، تعبر المخازن لتتركها للباب الذي يقود للحانوت، تمتد يدها عَبْرَ فرجة الباب مثل ثعبان طري، لتدفع بالصينية أمامه على بُعد قدم من مقعده الأبدي،

كما لو كانت تُطعم قِطّاً ضالاً، بفارق بسيط، هو أن اللقمة التي تدفعها إلى حلقه تقطر برفضٍ بارد، وبصمتٍ ثقيل يسقط ليسد بصخوره معدته وأمعاءه. نسخة طبق الأصل عن أمها التي ماتت بحُمَّى نفاسها وفقط لتغيظه، «هذا ما تفعله بكَ المرأة حين تفتح لها قلبك، تمد خطمها وتشرب دمك. .» لذا حَرصَ فتركَ بينه وبين عَزَّة مسافة.

«مذ دخلنا بأذيال ابن سعود، ودانت لجيشه مكة وتبعها كامل الحجاز وأقام مملكة الحجاز ونَجد، لم نخرج عن طوعه إلا لشيطانِ المذياع والآن التلفزيون ودشوش الفضائيات. .» نطق ليملأ الفراغَ الذي أغلقتْه عليه جلسةُ ناصر.

«أين هي ابنتكَ؟ هل قتلت عَزَّة؟ ومن تتهم بقتلها؟ هل انتحرت عَزَّة بسبب قسوتكَ؟» كانت هذه هي الأسئلة التي أعَدَّها المُحَقِّق ناصر للشيخ مُزَاحِم، يأخذ منه الشيخ مُزَاحِم الزمام ويُعاجله بالسؤال:

«هل عثرتم على الشيطان؟ إبليس يُلقي بلحم زبانيته العفن في زقاقنا. اختاروا الزقاق الذي تُطِلُّ عليه مخازني لضرب تجارتي، للانتقام مني، يريدون إلحاق الأذى بي وبابنتي، لأنني الوحيد الذي يُحارب فسادَهم، إبليس نفسه يركب ظهورنا ويسوقنا كالسائمة من هذا الإعلام ووسائله وزبانيته.»

يُزبد الشيخ مُزَاحِم ويحاول ناصر أن يتبعه لزمنٍ يبتعد عن واقع هذه الجريمة، يُنْصِتُ للشيخ مُزَاحِم يسردُ صحيفةَ سوابق إبليس كما عاصره:

«لإبليس وجوه كثيرة والعياذ بالله، وأهمها المذياع الرجيم الذي اقتحم هذا الشَّرّ علينا في الستينات مع خُطَبِ جَمَال عبد الناصر، تسلَّل مُتخفِّياً لبيوت زبانتيه من شُرُفات مكة، مُتَوغِّلاً لغابات النخيل بين الأبطح والحجون إلى وادي الزاهر وبساتين المسفلة وسفوح الجبال المُطِلَّة على بِرْكَة ماجن. ثم، وحين بدأ أبوالرووس انطلق مع الجن تُغَنِّي من ذلك الصندوق ببستان الأشراف، الذي ملَّكوه لجد مُشَبَّب المجذوب علي بو

الذي اتخذه الشريفُ عون لإذلال أهل الحجاز. لا تسلني عن تاريخه، اسأل أذيالَه أمثال يوسف هداه الله وأصلحه، حارس التاريخ هذا. ماذا سيخبرك عن العِرْق الخسيس هذا؟ والد مُشَبَّب صنيعة الأشراف كان شيطاناً فاسقاً يُقيم شهرياً حفلات لتلك الجِنيَّة التي أَسَرَتْ كل رجالات مكة: أم كلثوم، حين تُذاع حفلتها الشهرية حَيَّةً على الهواء من إذاعة القاهرة والعياذ بالله تنقلب أحوال الرجال، يعربدون بآهاتها. ما شهدتُه منها وَقْعَة واحدة وكنتُ فتيّاً، بعد انقضاء موسم الحج، وجيوب ذلك الخبيث طافحة بعوائد خدمة الحجيج، ومن دون اعتبارٍ للأشهر الحُرُم، دعا لحفلةِ شهرِ مُحَرَّم الأعيانَ وأشرعَ بابَ بستانه للعابرين من الدراويش والمساكين والمسافرين في بيوت اللِّبن حول البستان. تلك الليلة تَقَاطَرَ الغيورون أمثالي مع وجهاء مكة مع انقضاء صلاة العشاء، انعزلنا نحن الغيورين جانباً، نرقبُ ونتحيَّن اللحظةَ المناسبة لتسقط على المحتفلين السماء. وبدأت مظاهر البَذخ والانحلال وضيافة السُّمِّ المدسوس في أطايب البقلاوة والطُّرُمْبَة واللاقوم المعجون بالفستق وبتلات الورد المُغَرَّقة بالعسل! وتغلي قلوبنا لمرأى الديوان يَغُصُّ بالسديريات الحجازية والكوافي المُصَنْدَقة، حين تصلنا حركة ديوان النسوة الآثمة وهن يُجرجرن أذيالهن وراء حجابٍ فاصل ينتظرن الطرب! ويبدأ المذياع الكبير يَرْتَجُّ بالآهات والغناء وتَسَمَّرت الآذانُ والقلوبُ لالتقاط الشياطين في ذلك الصوت. أذكُرُها تلك الليلة، كنا نستغفر لاضطراب نَفَق النور الصاعد من سقف الكعبة للبيت المعمور بالسماء. حين صاحتْ دُرَّةُ الشريف الخضراء بتحذيرها المُفضَّل: (بلا بَكَش، بلا بَكَش!) وانكسفت لهَبَّتنا الأتاريك على باب البستان واندفع في اضطرابها شيوخُنا بلحاهم المخضَّبة، وارتعدَ هواءُ الليل بعباءاتنا السود على ثيابهم القصيرة، وغُتَرهم المُرَقَّطة بالأحمر، شقّوا الباب مندفعين للمذياع المنصوب على حافة الديوان، ولم يُمْهَل شيوخُنا أولئك المتوسدين للسجاجيد العجمية للنهوض، ولا الشُّبَّان

المفترشين لتربة البستان، وطالت الآهةُ الطالعة من صدر أم كلثوم حين تَلَقَّتْ ذلك الحجر، تدافعت اللحى واشتبكت بالعصي الغليظة لرجال الحَوَاري راقصي المزمار، عُصي رفيعة تركت علامتها على الأكتاف وشَجَّتْ جبهةَ أكثر مِنْ طفلٍ ومنهم مُشَبَّب هذا، الذي لم يجرؤ مع رفاقه حتى على الاندفاع في البكاء، وختموا غزوتهم بإسكات المذياع بذلك الحجر الضخم. وفجأة انقلبت الغزوة، قاد المقاومة اللبَّانُ الجَدُّ.»

سكت الشيخ مُزَاحِم، مُترقِّباً وَقْعَ كلماته في نفس المُحَقِّق، وسأله:

«أأنت متابع معي لضلالهم؟ هل أنتَ مهتم؟» هَزَّ ناصر رأسه، أكمل:

«لم يلحقنا خير من هذا اللبَّان. . هو قرنٌ من آخر قرون الشياطين. اللَّبَّان تاريخٌ من العصيان، كان معروفاً بـ (ابن الحلوب) لجسامته، وبقدر ما كان جسيماً وبطيئاً كان توأمه ضئيلاً مشتعلاً حتى عُرِفَ بـ (ولد الليل)، كان لا يرقد ولا ينتابه تعب، ويقوم حوش اللبان على كتفيه، يحلب البقر قبل طلوع النور ويكشط القشدة ويعبئ زبادي الفخَّار ليُصَبِّح بها الزقاق قبل أن يُفيق! لم تُعْرَف حقيقته حتى داهمه المُتديِّنة في قبو حوش البقر مع انتصاف ليلة الاثنين، حيث كان يتعاطى ورفاقه التدخين، بَاغَتَهم المُتَدَيِّنة عُزَّلاً، حطَّموا على رؤوسهم القبو، وجرجروهم مكبلين إلى ساحة باب الوداع، جَلَدوا المدخنين وأثخنوا فيهم العُصي، وسارع المقبلون لصلاة الفجر لتضميد جروح النازفين، بينما حملوا القتلى إلى قاعة (الشِفَا)، بقلب مكة من ناحية المسجد الحرام من الجهة الشامية، حيث تنتشر حوانيت العطارين وباعة العقاقير الطبية القديمة، وهبطوا بالإصابات الخطرة للقبَّانية التركية بموضع دار أبي سفيان التي اشتراها من خديجة بنت خويلد، حيث رأى اللَّبان (ابن الحلوب) جثمانَ توأمه (ولد الليل)، فتأجج في قلبه الغضب غَفَرَ الله لهما.» سكت مُزَاحِم متتبعاً كلماته في صمت حانوته، مضى زمن لم يتكلم حتى نسي صوته،

«ابن الحلوب هو الذي قاد الغزوة المضادة في سهرة أم كلثوم بالبستان. أفاق من آهات أم كلثوم التي كانت تؤجج بصدره جمرَ فِرَاقِ (ولد الليل) استرجع (ابن الحلوب) لعنات المتديِّنة ـ التي رافقت جنازة توأمه حين تشييعها ـ وهاجت في صدره الشياطين، بقفزةٍ واحدة تَلَبَّسه ليلُ توأمه الميت، انقشعت بلادتُه فامتشق شومتَه وضَرَبَ وأثخنَ بلا استثناء في المهاجمين للبستان ومذياعه، حين استجمع السادةُ وعبيدهم قواهم ونظَّموا صفوفهم خلفه تراجعت اللحى والغتر المرقطة، وبدأتْ الأجسادُ تُطَوِّق المهاجمين على باب البستان، حتى استسلم المهاجمون فقيّدوهم وعصبوا أعينهم، وجرجروهم إلى حفرةٍ بطريقِ ميقاتِ العمرة حيث انهالوا عليهم بالضرب، وفي العتم نتفوا لحاهم وتركوهم في تلك الحفرة..»

«ما علاقة ابن الحلوب ببيت اللَّبَان في الزقاق؟»

«هو جَدُّهم الأول. ترك لابنه الوحيد حظيرة أبقار ومَقْطَع خمر، باع الابن والد أم السعد الحظيرة، ليبني من خيرها هذا البيت المعروف بعمارة الجامعة العربية. هذا مال شيطان..»

«ثمن الحظيرة؟»

«قلتُ لك كان في الحظيرة مقطع الخمر، وكان اللبان يظهر كل فجر، يحمل في يمينه ثلاث جِرَار من اللبن وفي يساره ثلاث جِرَارٍ من الخمر، يسقي من يطلب هذا ومن يطلب ذاك.. يبالغون في حكاية كيف فارق هذا الخبيث عالمنا..» تناثر رذاذُ كلمات الشيخ مزاحم، «أيهمك سماع هلوسة زبانية الشيطان؟»

«نعم، نعم..» بدا ناصر مدفوعاً في تلك الذاكرة القديمة، لم يكن هو مَنْ يسعى وراءها، كانت تلك الذاكرة تحتلُّه، شريحة ذاكرة إضافية أُوصلت لرأسه رغماً عنه.

«البعض يقول إن أولاده حَجَروا عليه بتهمة الجنون، وكان يفر منهم وينطلق في أبوالرووس، لقد أمسكه شيوخُ الهيئة متلبساً يبيع المنكر،

فحملوه مخفوراً لرئيسهم، وكان شيخنا يقف مُوَاجِهاً للكعبة، والتفت يوبخه: ألا تستحي، كيف تواجه ربك بهذا المُنْكَر؟ فأجابه اللبان: أتريد أن ترى كيف أواجه ربي؟ فدعا بماء وتوضأ وصلَّى ركعتين وسجد ولم يقم، وحين حرّكوه وجدوه ميتاً. . الموت في السجدة أيها المحقق أقصر طريق للجنة! كما ترى يُضفون على أنفسهم صفةَ الدروشة ليفعلوا ما يحلوا لهم، ويدَّعون أنهم أهل جنة.»

«أم السعد هي حفيدة ذلك الدرويش اللبان؟»

«العياذ بالله، في دهليز عمارة الجامعة العربية يحتفظ أبوها بمقطع الخمر، ذكرى.» ونفخ ساخراً، «هذا الفجور هو الذي نزل بلعنته على نسل اللبان، ليتناحر أبناؤه على تَرْكَةِ أبيهم، انقلبوا عليه وعلى أختهم تلك التي فضحتهم ورجعت من فم عزرائيل لتنافح الرجال بلا حياء. الذي خَبُثَ لا يخرج إلا خبثاً. .»

«ماذا عن عائشة، قالوا إنها صديقة ابنتكَ المُقَرَّبة؟» قَدَحَت عينُ الشيخ مُزَاحِم تُجاهد من بين سُحُب الماء الأزرق.

«سَتَرَ الله علينا، سوسة في طحين. . لعنة شؤم، تُفسد عقول الصغار قبل الكبار. . حَرصتُ على ألا تُخالط ابنتي، زواجها جَرٌّ عليها وعلينا، بثوب عُرسها الكريستال. .» انتفض المُحَقِّق ناصر أراد المزيد عن الثوب، قال الشيخ:

«اسأل التركية. .» غَرَبت الشمس ورُفِعَ الأذان لصلاة المغرب، قام الشيخ للوضوء:

«تُرافقنا للمسجد؟»

«سألحق بكم. .» ها قد وَصَلَ إلى الثوب. وسيصل إلى ذاك الجسد الذي ستدبُّ إليه الحياة فور ملامسته له. . تأخر الوقت، مرَّ على بيت اللبَّان، سَلَّم الخصي استدعاءً للتركية غداً صباحاً. قرأ على جدار قبوها كتابة رديئة بدهان أحمر: الإمبراطورة الحمارة سَفَّاحة!

تلك الليلة تضاربت في رأس المُحَقِّق ناصر تلك التواريخ، مَزَّق رأسه صداعٌ نصفي، بآليةٍ فَتَحَ دولاب ثيابه كما يفعل كل مساء: أخرج الكُمَّ الآثم ومَدَّده طولياً على سريره، دفن رأسه في رائحتها وغفا.

في الحلم كانت مقالة يوسف عن المجذوب التاريخي (علي بَوْ) بانتظاره بكابوسها:

6 أكتوبر 2005:

جاء في تاريخ مكة: « أن (الشريف عبدالله بن محمد بن عون 1299ـ 1323هـ) قد عَمد إلى رجلٍ من المجاذيب يسمّونه (علي بَو) كان يذرع الشوارع بجسمه العاري فجعله من جلسائه، بعد أن أمر بتنظيفه وتعليمه ارتداء الأثواب الفخمة التي تؤهله لصدور المجالس. واتخذه أنيساً، وأَمَرَ عِليةَ القومِ وعظماءهم بتقبيل يده، وأحَلَّه مكان الصدارة منهم. وأراد أن يُشيد للمجذوب قصراً فخماً فابتاع له بعض الدور القريبة من المسجد في القُشَاشِيَّة، وهي أهم شوارع مكة وأهله أكثر أهل مكة تأنقاً حتى أن الباشا يتخَيَّر أحسن ثيابه لملاقاتهم، وأجبر أصحابها على الإخلاء، ثم هدمها وبنى القصر مكانها. وعمد إلى قطعةٍ أمام القصر مكتظة بالبيوت فحكم على أصحابها بإخلائها، ونَقَدَهم ثمنها، ثم أمر بهدمها ليجعل منها حديقة يُمتِّع المجذوب بصره فيها. وأراد أن يتوسَّع في الهدم حتى ينتهي إلى الغَزَّة، ليجعلَ المسافةَ بين قصرِ الإمارةِ وقصرِ المجذوبِ خاليةً لا يعترضها عند النظر فيها شيء بين القصرين. وسواء كان الهَدْمُ لإقامةِ حديقةٍ أو نُزُلٍ للحُجَّاجِ تنفيذاً لرغبة الخليفة عبد الحميد فإن الارض ظَلَّتْ خالية حتى نهاية عهد الشريف عون، حين غَزَتْها البيوتُ الصغيرة والحوانيت. ويميلُ البعضُ للاعتقادِ أن الشريف عون كان يُجَالِس السُّذَّجَ لِيَتَّقي غضبَ السلطان عبد الحميد، الذي يُشكك في المستنيرين من عُمَّاله وموظفيه، والبعضُ يذهب إلى أن الشريف عون ذاته كان ساذجاً، وأن تصرفاته في إدارةِ الحُكم تدلُّ على سذاجةٍ مُطْلَقَةٍ... ويحكون عن الفيل الذي أهداه له أحدُ عُظماء الهند، فكان الفيل ينطلق في شوارع مكة بصحبة مروِّضه ويُصَيِّف في الطائف إذا

صَيِّف الأمير عون. أي أن مكة اعتادت الدراويش والفيلة في دائرة حرمها...»

من عائشة / رسالة 19:

الجهل ليس في الرأس وإنما في اليد، ومُوَصِّلاتها للحواس، والقلب.

أفظعُ الموت موتُ اليد.

تحت ثيابي كنتُ مجرد لعبة أتوماتيكية بلا بطارية، الأسلاك الموصلة للحواس والقلب مقطوعة.

أحسد عَزَّة بنت الشيخ مُزَاحِم كما أراها الآن بجلاء: عَزَّة حين تلمح سربَ نحل لا تجري بعيداً وإنما تنفتح للهجمة بضحكة، وتخرج وقد تعزَّزتْ مناعتُها. بتهورٍ أحياناً وببراءةٍ حيناً. أحزنُ عليها. بينما ودائماً لكي لا يهاجمني الحزن على نفسي.

ذَرَّةٌ من تهورها لربما كانت كفيلة بفتح بيتٍ لي ولأحمد بكازابلانكا.

بينما في الشهر الثاني لزواجنا أعطاني أحمد ظهره، وقذف بتلك الكلمة من على كتفه: أنتِ طالق.

كتمتُ تلك اللطمة، لن يحتمل قلب أبي الصغير سكتة ثالثة، تشرنقتُ على تلك الكلمة، وظَنَّني أبوالرووس مهجورة، ولم يخطر له على بال أن عروس الكريستال الأسطورية انتهت بطلقة.

فما الذي يدفع أحمد الآن ليُلِحَّ لمراجعتي؟ أهي رائحتكَ فيَّ؟

لم يكن قد سجل طلاقي، ربما نسي وجودي أصلاً. وحين أُجْبِرَ على مرافقتي بالطائرة لبون طفا وجهه أمامي لمرة واحدة، ثم فَرَّ وتركني لسلسلة العمليات اللانهائية.، خاف أن يحبسه حوضي المهشم.

والآن، في أي لحظةٍ يرن جرس الهاتف ليُلِح: ما لكِ سواي!

هل لحُبِّنا رائحة؟ ما الذي أثارَه؟

هل تَذْكُرُ وداعنا الأخير بحجرة المستشفى ببون؟ مررتُ بأهدابي عليكَ، بذقني وأنفي؟ بكل ملامحي تتبعتُ البياض الناصع لصحنكَ، أتعرف عبق اللحم الحي؟ لا يزال يملأ حواسي حتى الآن؟

في فراشي الآن يسترجع أنفي الملمس، وأطراف أهدابي، يُجَسِّدكَ حقيقة.
لم تستقطب أحمدَ رائحتي وإنما رائحتُكَ، بطارية تَمَّ توصيل قطبيها، سَرَت الطاقة وبُعِثَ الضوءُ الذي تتهاوى إليه الحشرات..

مرفق:
^ تطلبُ مني المزيد من صوري القديمة .....

صورة من الشهر الأول، أو الشهر الوحيد من زواجي، هل تستطيع أن تتبع حبكةَ الأفلام النفسية، تلك التي تتمزّق فيها الشخصيات تحت الجِلْدِ، بلا مسدسات ولا دماء ولا أوبئة؟

التوقيع: عائشة.

بنك معلومات

(أنهى مصنعُ الغربية للأغذية ـ المُتَفَرِّعة عن الإيلاف القابضة ـ صفقةَ شراء أرضٍ تبلغ مساحتها 50 ألف متر مربع على الحدود الجنوبية لمكة المكرمة، وقال مدير تطوير الأعمال في المصنع سالم المريطي: إن شراء الأرض جاء تنفيذاً للخطة الاستراتيجية للمصنع، إذ من المُزْمَع إقامة أحدث مُجَمَّع صناعي للأغذية في المنطقة، يحتوي على 6 مصانع متكاملة إضافة إلى المستودعات المركزية. ووُقِّعَتْ العقودُ اللازمة للتوَسُّعِ لشراءِ خطوط الإنتاج اللازمة، والتي ستُؤَمِّنُ الحاجةَ المتزايدة للأغذية خاصة في مواسم العمرة والحج والأعداد المتصاعدة للحُجَّاج كل عام.)

تسمَّرَ يوسف أمام شاشة الحاسوب، رائحة مجاري فاترة تُحيط بصف الحواسيب حوله، ككل صباحٍ، يُغادر بيتَ اللبابيدي مُتَخَفِّياً، ليقصدَ أقربَ مقهى إنترنت يقع في طريقه. دفع الخمسة ريالات أجرة الساعتين وجلس

لآخر حواسيب الدهليز الضيِّق، أي دهليز أو رُكن بحانوت بحاسوبين أو ثلاثة كافية لإنشاء مقهى إلكتروني يَدُرُّ دخلاً لِمُخْتَرِعه.

يومٌ آخر يمرُّ ولا بريد من مُشَبَّب! يكتب يوسف اسم (شركة الإيلاف القابضة) ويعطي أمراً بالبحث، يبحث في موقع الشركة الإلكتروني وفي الصُّحف المحليَّة وفي المنتديات الإلكترونية عن مشاريعها المُتَوَسِّعة كالأخطبوط: مصانع إسمنت وبلاستيك ومياه معبأة وسجاجيد وتعبئة لحوم الأضاحي، ومجمعات سكنية لذوي الدخل المحدود وغير المحدود.

حقلُ الطاقة الكثيف حول جسد يوسف لَفَتَ نظرَ العاملِ الباكستاني، بابتسامةٍ وضعَ إلى جواره كوبَ الشاي الترحيبي بصفته زبوناً جديداً. في محاولةٍ لتهدئة إيقاعه شرع يوسف في كتابة مقالته، كان قد أفاق ذلك الصباح بصور مشوشة برأسه، لا يعرف أهي بقايا كابوس أم واقع سيُفرض بأبوالرووس، توقف ليتأمل مهزلة كلمات مقالته الافتتاحية مقارنة بالدمار الذي يشهده من أسطح اللبابيدي:

اهبط اللهُ لآدم ملائكته بحجارةٍ خُضر من دُرَرِ الجَـنَّة، فكان أول من عَلَّمَ حرفة البناء في مكة الملائكة، فبَنَت الملائكةُ وعَلَّمَتْ آدمَ البناء فبنى معها ثم طاف.

طبول تدوي برأسه تُرَجِّعُ الكلمات التي تجترّه في كل مقالاته:

وكانت الأرضُ حينها سَكَناً للشياطين والوحش، وقامت الملائكةُ واقفة أمام الحرم بظهورها لبيت الله ووجوهها للقفر خارجه، تمنع الشياطين والوحش من ولوجه، وكان محظوراً على حواء ولوج الحرم، فإذا أراد آدم أن يُلِمَّ بالولد خَرَجَ إليها، فجَامَعَها ورجع للدُّرَّة المجوفة بحجم خيمةٍ أهبطها الله لسكناه، ولعزائه عن مفارقة الجَنَّة، ورُفِعَتْ بموته.

بَحَثَ عن كلماتٍ تُحَيِّد كابوسَ البارحة وخيال هذا الخصم الذي

يَتعَقَّبُهم: رجالُ أعمالٍ بلا وجوه. . في مَشَالِح شَفَّافة مُقَصَّبَة تلتقي رجالاً في ستراتٍ أنيقةٍ سوداء وربطاتِ عُنقٍ صاخبة. . جماعات وفرادى. . لكن بلا أسماء. . وجوه ونجوم من الخمسين ولاية للواحدة والخمسين وللثانية والخمسين . . . يُضيفُ: امرأةً على كعبٍ عالٍ وبعمليةِ شَدٍّ للوجه تَترَشَّح لحُكْمِ العَالَم.

صار يوسف أكثر كلاحة، الكُمُونُ ببيت اللبابيدي جَعَلَ خطوه أثقل، يُجرجر كاملَ البيت وراءه. (كنتُ يوماً أمشي عَبْرَ زقاقنا مع مُشَبَّب، قال لي لم ألحظ هذه الحجارة. حين نظرتُ رأيتُ وجوهاً كوجوه الصُّوَرِ في هذا البيت، وجوه بَشَرٍ استحالتْ من الضَّنَك إلى حِجَارَة.) شَطَبَ تلك الأسطر.

أقلع عن إتمام مقالته، يعرف أنها ستُحْجَب، أو ربما حرَّضتْ جمهوراً ما، أو مفتاحاً لسِرِّ اختفاء عَزَّة.

في تصفّحه لمقالاته القديمة استوقفته تلك الأسطر:

22 يناير 2003:

ليلة البارحة حين فتحتُ عيني بصحن الطواف (ولا أعتقدُ إنه حلم) سارعتُ فاندسستُ مع عُمَّال البناء لما وراء السواتر الخشبية التي أُقيمت مؤخراً حول الكعبة، وطوال الليل لم نكف نحفر بحثاً عن تلك الدُّرر الخُضر في أساس الكعبة، حين انكشفت تلك الزمردة بحجم بيتٍ سقطتُ مَغشياً عليّ، وفي وعيي كان العمالُ يحفرون لِقَلْعِها، تمهيداً لرميها في البحر، كلما دقُّوا إسفيناً ضَرَبَ بَرْقُها وارتجَّتْ مكة، من سقطتي ناضلتُ لسؤال ذلك العامل: ما الذي يدفعه لنقض آخر آثارِ الجَنَّةِ على أرضنا؟!

في البدء أهبط اللهُ بيتَه لسُكنى آدم، ثم عاش إسماعيل في الكعبة، وجَعَلَ الجزءَ غير المسقوف منها زرباً لغنمه، وبدأت رحلة اغترابنا عن الألوهة حين سقنا غنم إسماعيل خارج الحطيم وأغلقنا بوجوهنا الكعبة...

أزعجَ يوسفَ خواءُ تلك الكلمات بمواجهة التهديد الذي يشعر به في الهواء حوله ولا يَتَوَصَّل لترجمته.

مع الظهيرة انبعثَ يوسف في أبوالرووس.. مُتَخفِّياً يقصد بستان مُشَبَّب.. توسَّطت الشمسُ السماء، وتجاوزت الحرارة ال 49 درجة مئوية وبعثرت الزقاقَ في غمامةِ سراب، تَمَاهَى يوسفُ مع تيار العمال المتدفق سعياً وراء وجبة الغذاء.. موجةٌ تبدأ عقب صلاة الظهر لتنحسر في الثانية والنصف، يتبقع فيها الزقاقُ بأكياس النايلون المضمخة بالزفر وقطع الدجاج بالأرز، الوجبة الأبدية.

تقدَّمَ يوسف حذراً من العين التي تتبعه، لكنه كان واثقاً من أن ناصر لن يتوقَّعَ ظهورَه بأبوالرووس هكذا في وضح النهار..

نَفَذَ يوسف من فتحة خلفية في سور البستان، إلى بسطة الدرج المطل على الديوان.. انحطَّ على تلك الدرجات الطينية عاجزاً عن الحركة، وسمح لليأس بإغراقه، جلس هناك غير عابئ بما يمكن أن يقع له بعدها.. شعر بانقطاع آخر الحبال التي يمكن أن يتمسك بها.. قطةٌ مُشَرَّدة ظهرت من لا مكان، بعينها اليمنى مقتلعة تنزُّ بالصديد، باليسرى الصحيحة حدجته بنظرةٍ اخترقت إلى قلبه. في جلسته فَقَدَ يوسف حسَّه بالزمن مسترجعاً آخرَ مَرَّةٍ جَلَسَ فيها هناك يرقب مشبب يستيقظ:

لا يقوم مُشَبَّب من كومة التراب الذي يَتَوَسَّده عارياً كميت، مثل منحوتة فحمٍ على أرض البستان. في رقدته كلَّ صباح يدفن رأسه في الحريرة الخضراء المقتطعة من كسوة قبر المصطفى عليه السلام، يتنشقُ عطورَ ثلاثة أرباع قرن من هدأةِ نَومةِ المصطفى.. تُسْكِرُه الشمسُ فيرفعُ إبهامَه الأيسر ويداعب وَتَرَ الربابة، ومن جسده تطلع تأوهات، غناء غَنَّتْه له امرأةٌ في ماضٍ ما عاد يذكر تفاصيله، لكن ما زال يحمله في ذاك الغناء، يَتَنَـقَّل بحملٍ ثقيلٍ من الأرواح، بعض الأوتار لا تعرف غير حمل الآهات،

«يا ربِّي، سَبَكتَني من جذعٍ جَاوَرَ الخَلْقَ وقَاسَى البُعْدَ، عبدكَ المستغني إلا عن صوتك، المستوحش إلا لتراجيعكَ في الأجساد، يا إلهي، تركتُ ورائي، ما حَزَمتُ وحَمَلتُ إلا أصداءكَ.» يمضي مُشَبَّب في مناجاة النغمة المخفية، حتى تنزلق بقعةُ الشمس لتمسك بحشيشة رأسه، عندها يعرف أنها التاسعة صباحاً أوان ستر عُريه.

يضع جُبَّتَه الإفريقية والمفضضة في تقليماتٍ للأبيض ليطوف بالبستان، يتهيأ لطقس اليوم: يُراجع حَنيَات الأقواس المسبوكة بأيدٍ قديمة، وأشجار الفسيفساء وطيورها، ونقوش الأخشاب المتآكلة على بقايا السقوف، يتلمَّس أيدي الصُّنَّاع وطين البنّائين تعجن الحجارة البركانية بالطين وتسبك الدفء على تلك الأسوار بعسكرها العريق، مثل ثعبان يسري ويَمَسّ ببطنه تُربةَ البستان، يشعر تحت قدميه بأقبيةٍ عامرة بدهونِ طيبها وتاريخها، يراجع في الهواء خيالات المسافرين الذين مروا ببستانه البارحة، وذلك البنغالي الذي ترك له شريحةً من الحجر بطول رجل، قال إنه أحد ألواح شيث بن آدم التسعين، والحاوية على أقدار وحكمة البشرية من بدايتها لخاتمتها..

«سُكَّر نَبَات، ونرجس وزعتر بري، وزنجبيل...» يتقرفص إلى موقده يُحَضِّر مساحيقه السرية،

«لتطييب النَّفَس في الصدر، وتوسيع مسارب الهواء، حين يجد الهواء بجوفك الفضاء الواسع ينطق ويَتَجَلَّى، يستنبط الوحي على طبل حجابك الحاجز.» يشرب تلك الخلطة ويشعر بالشبع، يترك الفنجان على قاعدة لوحة الفسيفساء، ويُحَوِّم طيرٌ يرشف آخر قطراته. يتجه إلى الباب الوحيد الموصد يسار الديوان، يُديرُ المفتاحَ القديم بقفلها وتُزاحمه الشمسُ على العتبة، يلج مُشَبَّب إلى الحمَّام، مرة وحيدة سمح مشبب ليوسف بالولوج إلى جوف حمَّامه الغامض الذي يتلصَّص عليه فضولُ شباب أبوالرووس وصغارهم. صُعِقَ يوسف بتلك التُّحفة: حمَّام بديع. أرضياته

فخّار كأنّه طالع لتوه من الفرن بألوان النار، الجدران من الفسيفساء الزرقاء لا تزيد على ارتفاع هامته، من ذلك الحد تتقشّف الجدران لطوب العار وسقف إسمنت يعكس كلاحته التركواز المُضْمَر في الأزرق. كان مُشَبَّب هو مَنْ أحيا من دمارٍ ذاك الحمَّام التركي، هو مَنْ خَلَطَ الإسمنت ونَظَمَ ونَضَّدَ تلك البلاطات، مُوَزِّعاً إيقاعَ الفخار وفْقاً لدرجاتِ تَشَـرُّبه للنار، وشقَّ فيها تمديدات المياه مُكَوِّناً حوضَ استحمامٍ عريض.

يوصدُ مشَـبَّب البابَ بوجه الشمس ويُلقي بجُبَّته على العتبة، ويتَقَدَّم طقسه اليومي مُتَجَنِّباً النظرَ أعلى من هامته، يقلَعُ بلاطةً يمينَ الداخلِ ويستخلصُ سجائرَه الملفوفة من عُشبٍ أصفر يُحمحم، متناولاً وقيدته ينساقُ للحوض بقلب المكان، يغوص جسدُه في الماء الطافح فحمةً تَطِـشُّ بماء، تلتهم لمسامَها الماءُ طاردةً فقاعاتَ الزعتر والزنجبيل وحلاوة السُّكَّر، ويرقد هناك، يُوقِدُ على العشب ويُجْرِي لأطرافه الخدرَ.

جِرَار الفَخَّار على جوانب الحوض مصفوفة، مُعَمَّرَة بطمي بئر زمزم، وبنبات الحَرَم البريِّ.

تسري يداه تُغَرِّفان من آنيةِ الفَخَّار وتُرَقِّدان إلى جواره للماء.

يتَوَقَّف الزمنُ بتلك الرقدة بينما يغيب مُشَبَّب في سُحب دخانه يُنصتُ، ليحكي لمريديه حكاية انبعاثه من قاع بئر زمزم:

«لَمَسْتُ كما يَلْمسُ المُستَيقِظ الحيّ، وعَرَجتُ كما يعرج النائم لما قبل ما يزيد على الربع قرن عام 1979/ 1980، حين هبطتُ للبئر في ثياب الغوص، متناوباً مع الغواصين الذين هبطوا زمزمَ لتعميقِ مجراها، هَبَطتُها لتعميقها بصدري.

وكنتُ أهبطُ في ما روى ياقوت الحموي في معجم البلدان: من رأس البير إلى أسفلها ستين ذراعاً، نصفها في جبلٍ منقور.

وكنتُ أتعجّل لبلوغ قعرها حيث الثلاث عيون، عينٌ صوبَ ركن الكعبة، وعينٌ صوب أبي قبيس والصفا، وثالثة صوب المروة.

يا الله، حين جَرَفَني البُخارُ، وتلك الرائحة، رائحةُ أول الموت وأول الجحيم وأول الجنة وأول آمين.

حين، شَهْقَتُها أو شَهقَتي، قَشَعَتْ بذلةَ الغوص وحشرتْ جسدي لشقٍّ أعنفِ تلك العيون المُحَاذي للحجر الأسود، كاشفاً صفحتي لتلك المصبات العنيفة.

حين كان الغواصان ينزحان لا من البئر وإنما من صدري،

حين حَمَلا من قطع الفَخَّار والمفاتيح والحديد والطمي ورَفَعَا،

حين كانت بقاياي آخرَ ما رَفَعَ (محمد) المصري أوالباكستاني (بن لطيف وحميد ويونس وشوقي). . .

حين بصحنِ الحَرَمِ أفقتُ بحزنٍ كحزنِ آدم الذي أبكى الملائكةَ، يجري جروفاً بصدري إلى الآن.»

***

من عائشة / رسالة 20

يا ^^^^،

قطة مدعوسة بإسفلت، هي أنا، تحت وطأة وحدتي هذا الصباح.

إن لم تمتد يدك إليّ عبر الشاشة، عبر الهواء فسـا.....

امسحْ كلّ ما قلتُه الآن...

من زقاق أبوالرووس لبون، دفعةً واحدة. (من السما للعمى) على قول عمتي حليمة.

وجدتُ عائشة صغيرة على نقّالة تحت تأثير مُخَدِّر قوي، وفجأة بين تلك الوجوه الأوروبية البيضاء الـمُحْمَرّة، واللغة، ليس لغة اللسان فقط، وإنما لغة الأجساد كانت مُغْلَقَةً بوجهي.

تعرف^ أنني قد دَخَلتُ سلسلةَ العملياتِ الجراحية (رَبِّي كما خَلَقْتَني)، بذاك القميص لأسفل الرُّكبَة وبشِعَارِ المستشفى على القلب، والمشقوق من الخلف من الأعلى للأسفل، وبلا أخت أو أم تستر مؤخرتي حين أُعطيهم ظهرَي، وتلك الممرضة التي تُسجِّل القياسات الأخيرة لوزني (لتحديد جرعة البنج).

عرباً وعجماً، تتشارك الأجسادُ مُخْتَلَفَ أنواعِ القُطَبِ الجراحية، وابتكارات الشقوق الطولية والعرضية والميكروسكوبية، والإشعاعات المُسَكِّنة والمُحَرِّضة والفاتكة بالأورام، أكثر من وجهٍ خليجي وأفريقي وآسيوي مصبوب في الجبائر، حجراتُ الانتظار مكتظة بوجوه الأقارب، تقرأ كُتباً لتمضية آلام مرضاها، أو بسماعات (الآي بود) تتسلل حشرتُها للأُذن وتصمّ أصواتَ العالم، أو تتبادل بسكويتاً وقهوةً سريعةً مصبوبة من الآلات. كونٌ من الوجوه يبرق بينما نقَّالَتي تُغادر إلى حجرة العلميات، بلا وجه يُلاحقها بخوفٍ أو بصلاةٍ أو حتى برجفةِ شفةٍ.

أمرُّ كشبحٍ، مريضٌ (لا أحد)، وتتلقَّاني الـمَصَاعِدُ، تلك الساكتة في منعطفٍ أو في انفراجةٍ للممرات بغتة، بعبارةٍ تحذيرٍ واحدة تتكرر (ربما تقول: كبسولات مخصصة للأرجعة)، مَصَاعِد بحجم الحُجْرَةِ التي نرقد فيها بأبوالرووس، لكن من معدنٍ تنزلقُ عنه المشاعر، معدن مصقول بآلامٍ لم يعرفها البَشَر بَعْدُ، ومهما تَوَجَّعتُ تَفَوَّقَتْ عليَّ، وبجرسٍ واحد حاسم يرن ويلفظني للمجهول التالي، أشعرُ بأن المصاعد لا تتوقَّعُ رجعتي من حجرة العلميات أو العناية الفائقة (ولا تتمهل لتحزن!).

كم مضى عليَّ في مستشفاكم؟ لوسألتَني لقلتُ: اليوم الأول كان أبدية. الشهور الثلاثة التي تلت استردَّتْ إيقاعَ التقويم، الأشهر الستة بعدها كانت لمحة. (لمحة، اللمحة عُمْرٌ) بكَ.

الآن أسترجعُها.

رُزنامات التقويم الزمني اختراعٌ مُضَلِّل.

لكي لا نقيس الزمنَ بمكيالِ القلب. (بمكيال الوجود).

التقسيم للسنة والشهر والأسبوع واليوم والساعة، تطويل لفراغٍ. أو تقصير لأبدية.

دائماً كان أحمد مُرَافِقاً لشخصيةٍ ما ذات شأنٍ ونزوات، قبل منصبه الأخير كان مُرَافِقاً لمليونيرٍ خليجي في القاهرة لسنواتٍ، وشَابَ شَعْرُه في كَتْمِهِ لأسرارِه.

من الذي كان على الهاتف البارحة يبكي؟!

في ضباب الروفيناك انزلق أحمد، وحَفَرَ خوفُه بمسروقتي: (صديقي المُلْحَق سَقَطَ ميتاً وحيداً في مطبخه، لأيامٍ، قبل أن يعثروا عليه بالصُدفة.
عديني أن تكوني على فراش مرضي وموتي.
يا عائشة هل تفهمين؟ الحياة هنا، لا بل النساء خارج زقاقنا، يريدونكَ عَفِيّاً قوياً ببطاقاتِ اعتمادٍ سارية.)
تحت دشّ الصباح فاحَ صابونُ أمي بالصبّار، وعاودني صوتُه: «أنتِ كفني!»، ولم ألحق بالدمعة التي كَوَتْ ثديي الأيسر.
في ملوحة الماء الخفيفة قَطَعتُ على نفسي وعداً، بألا ألتقي المرضَ أو الشيخوخة أبداً، لا في أبوالرووس ولا خارجه.
عائشة.

ملحوظة:
ارغبتي قولكَ: «كانت لدينا مَدْجَنَة، وحين تموت فيها دجاجة لا نلحظها في بحر الدجاج، نعرف بموتها من العفونة التي تزكم المزرعة، لا تعرفين كم هي قبيحة رائحة دجاجة ميتة، وكان عليَّ أن ألتقط ذلك العفن يرعص بالديدان بيدي المجردة، وبلامبالاة لأظفر بإعجاب أمي. في تلك اللحظات، تبدو المسافة لانهائية بين المدجنة والغابة، فألجأ وسِرّاً لتعطيل حاسة الشم والحِسّ بيدي.» وتضيف: « الآن أنا لا أشم، غالباً.» كيف أترك هذه الرائحة ورائي وأنتَ لا تشم؟!

دخلة

يسوق خليل بلا تَوَقُّف، كلُّ مَنْ يركب معه يهبط بمعدة مقلوبة، يُدرك أن هذا الرجل يهرب من ظِلِّه، أينما تَوَقَّفَ يُدركه ظِلُّ رمزية المُعَلَّق بجسده كجَرَب، تُسرع أمامه تلك السيارة محفوفة بمَوْكِب تصرخُ زماميرُه، السيارة مربوطة بباقات التُلّ والورد الأبيض، مُظَلَّلَة النَوافذ، أَفْلَتَ من ركن زجاجها الخلفي طَرَفُ طرحة العروس البيضاء تُرَفرف في الهواء، فَكَّر

خليل هو لم يَمْنَح رمزية ولا حتى مثل هذا الموكب! لم يأتها بفرحة غير فرحة طقس (الخمشة) حين وبلامقدمات طاردتها قريباتُها كحيوانٍ مذعور، وألقين عليها تلك الملاءة، وقرطسنها مثل ضحية وحملنها ليلقينها وراء ستارة نُصِبَتْ خصيصاً لحجبها، لمدة أسبوع معفاة من الخدمة بينما يعلفنها لتسمن وينجلي لونها. . خليل لم يلمح حتى ذلك التنوير الطفيف لملامحها. تَزَوَّجَها في ليلةٍ بلا قمر، وبلا تنوير، غير دم الخروف الذي ذبحوه وجمعوا عليه الجيران. . . جاءته في قُفَّةٍ وبلا تَعَب. . يقرصه الشعورُ بالذَّنب، يتدفَّق برأسه شريط تلك الليلة: ليلة دخوله على رمزية أفاق هو الطيار غارقاً في مائه، في العتم نظر إلى الجسد الملفوف في ثوب العرس الرخيص، والطرحة التي لا تزال عالقة برأسها مفكوكة الطرف متدلية بدبوس التثبيت مُهْمَل على وجنتها كجرح، تأمَّل في الرائحة حولهما، لجسدها رائحة أرض مُسَمَّدة تؤججها نداوةُ الليل، انطوى على خيال عزة وغطَّ في النوم يشخر. في الحلم ليلة دخلته تبع عَزَّة حتى أسندها إلى جدار، ولم تعبأ بسقوط عباءتها لكنها تشبَّثَتْ ببرقعها، كان يُدَاخِلُ كائناً بلا وجه، ولا يستطيع التَّكَهُّن بملامحه، فقط ملامح عَزَّة كآخر ما رآها حين كانت في الثامنة! وخاف أن تُطفئ ملامحُ الطفلة رغبتَه وبنفادِ صبرٍ حَلَّ ضفيرتها التي انسدلتْ ماءً أسود، غاص فيه وأفاق مذعوراً متجعداً كجسد منقوعٍ. . . سارع خليل لإخفاء معالم ذلك الماء ورمي ملابسه الداخلية للخرابة خلفهم، لكن السماد الراقد إلى جواره بدأ يفور ببخار، ورائحة مثل نشوق حار وأسال دمعه وأنفَه، تذَكَّر فجأة أنه تزوجها نكاية في ذاته، مثل كَيَّةٍ على قلبه المفلوج بعَزَّة. حين انحنى على رمزية انشقَّتْ عيناها بذعرٍ مُهَيِّج، ولم يعد بيديه الزمام، حتى نسي جسدُه كيف رَفَضَها ليلة البارحة حين أغلقوا عليهما هذه الحجرة. فجأة لم يعد هو خليل حامل شهادة الطيران المُوَقَّفَة والفاقدة المفعول، كان مُجَرَّد عبد من عبيد ألف ليلة تستعرضُ الملكةُ الشريرةُ فحولتَه أمام جسد قرينها الذي

سَحَرتْ نصفَه السفلي إلى حَجَرٍ. بجوفه عَدَمٌ يأكل الأخضر واليابس يقابله جوعُها وتنجرف الحجرة البسيطة، بالسرير الخشبي الضيق المُزَيَّن بدانتيل رخيص تَمَزَّقَ طرفُه الآن، وتلك الوسائد المحشوة بالقطن كالحجارة تحت رقبتها التي انعقفت عليه. حين تدحرجا للأرض أكلتْ مرفقيها السجادةُ من صوفٍ أفغاني من حدود تُركمان، وطفحت بقعتان من الدم، وأصيبت السجادةُ بالشَّرَه فتركتْ عَضَّتها على كتفيها، وأطراف حوضها، بينما أَجْرَتْ من ركبتيه الدم وملأ الحجرة حشرجة.

في لمحةِ قرفٍ كان خليل قد انتزع نفسه من رمزية وارتطمَ يلهث على الباب، ولَذَعَ عُريَه الملمسُ الزيتي لدهانه الأزرق الصقيل، قَرَفٌ مُوَجَّهٌ تِجَاهَ ذَاتِه، أن يستسلم بجسده لامرأةٍ بينما رأسه في امرأةٍ أخرى، مُبْتلاً اندسَّ بثوبه القديم مُتَجَنِّباً ثوبَ العرس بياقته المُقَوَّاة بالنشاء والمُزَنَّرَة بخيوط قصب، كانت تركيةُ القبو قد خاطته له مُقَلِّدة طُرُزَ جُبَبٍ مُقَصَّبَة ورثها جَدّها عن الولاة العثمانيين معروضة في قبوها، قدَّمت التركيةُ له التقليدَ هديَّةَ عُرسٍ. أيدي تلك التركية على أبوالرووس، في هدايا صغيرةٍ ووَصفاتٍ للجَمَال تفتحُ لها أبوابَ الزقاق المغلقة تُعطي وتستلم البناتَ بقبوها تُعَلِّمهن التطريز.

بلا نظرةٍ إلى حُمْرَةِ الجسد على نقوش سجادة الصوف اندفع خليل خارجاً، هابطاً عمارة اللبَّان هذه الموقوفة بانتظار البَتِّ في دعوى الورثة، حدَّثَ نفسه: «زواجُكَ هذا صفعة لكَ، بدءاً من العروس رمزية، مروراً بهذا الأثاث الرخيص، الذي سيُقْذَفُ للزقاق حين ينتزع الورثةُ الذكور منك وبقية السُّكَّان الملكيات التي سَجَّلَها لنا اللبَّان الميت. . . .» وعضَّ لسانَه مُحجماً عن التَّرَحُّم على رَجُلٍ فَرَّخَ ورَبَّى مثل هذه الغربان الأربعة التي تُنَازِعهم حَسَنَةَ أبيهم الميت.

تَخَطَّى الطابقَ الأول، حَرِصَ ألا يُصدر ضجةً تُوقظُ أم السعد ابنة اللّبَّان وزوجها العشّي. برهبةٍ مَرَقَ في الدهليز حيث قبو التركية بمقصَّاتها

تجري في أجساد النسوة وتخلق الدمى وتُخفي العيوب. حَدَّثَ نفسَه:

«كل مهارة الخَصِيّ والتركية في القص والتفصيل والحشو والتبطين لن تُخفي بشاعة رمزية كما تَرَكَتُها الآن في بقعتها اللزجة.» وكأنما سَمَّى جِنّاً فطلع، انبثقت التركيةُ من عتم القبو وسدَّت عليه الطريق، ولَعقتْه خصلاتها المصبوغة بالبرتقالي الطائش،

«كم مَرَّة تخذلني وتردّ دعوتي؟ فَجْرُ عرسِكَ.. دَعْنا نقرأ لكَ قهوتكَ..» بوجهها شيطانٌ خَانَه معه الكلام، أكملتْ تقرأ أفكاره: «وبوجهكَ تتلاعب الشياطين، لا عجب إن هَبَطَت الرسالاتُ بمكة وفي غَارٍ، اسألوني: شُبَّان سُرَّة وادي إبراهيم نارُ جهنَّم الحمراء.» حَاوَلَ تَجَاوُزها عبثاً، ونَفَثَتْ بوجهه سُمَّها، لحركته غشاوةٌ وخَدَرٌ، وكانت تقوده للوراء، صوب قبوها، حيث انشق الباب ليبتلعهما وتلاشى خادمُها الخَصِيّ خلف الحاجز يرقب،

«كل أوتاركَ مشدودة وبنفخةٍ تنقطع...» صوتُها عجينةٌ مُبَرَّدة، مثل شريحة اللحم النيء التي كان رفاقه في أميركا يُكَمِّدون بها عينه المتورمة من جولات الملاكمة التي كاد يحترفها حُبّاً في الألم. دائماً نقطةُ جذبهِ (الألمُ). وربما يعشق العذاب في استحالة عَزَّة! بعذابٍ مُدَوِّخٍ أطبقتْ العجينةُ على جِلْدِه المُتَوَرِّم من رمزية، وتمتصُّ الكدمات والتجلطات الدموية، للحظةٍ غَابَ الوجودُ وخُيِّلَ إليه أن كلَّ جروحه الباطنة طَفَت لتلك العجينة وامتصتْها. خُيِّلَ إليه أن بوسع العجينة أن تُطبق على أنفاسه ويُسلم الروح من دون أن يعي جسدُه الاستلاب، من دون أن يبدأ التحلُّل، سيظَلّ جسدُه حَيّاً لدهور بعد مفارقة روحه، وسيتحنَّط كأجمل الفراعنة في تلك العجينة، حين تطوَّحَتْ به لم يعتنِ حتى برفع أهدابه ليتفحص مواطئ قدميه، تركها تدور به، لم يعِ أنه يرقص إلا حين سَرَت البهجةُ صاعدةً عمودَه الفقري، كان يرقص بالجوع الذي غزا به مَرَاقِصَ ميامي! وحين خَلَّتْه على الأرض شَعَرَ فجأةً بحاجةٍ إلى غطاء، مَدَّ يده إلى

صَفُّ مَشَاجب الثياب فوق رأسه، جَرَّ من الثياب المُخَاطة لتوها بلا اعتناءٍ وخَلَعَ على جسده، وَقَعَ بيده الأَرَقّ والأنعم، الحرائر والكشاكش والهفهفة، حين قام انزلق في الهواء بالحرير، لم يَعُدْ بحاجةٍ إلى بَذْلِ أيِّ جُهدٍ للقيام بحركةٍ، استسلم جسدُه لإرادة الحرير، شَعَرَ أنه وطوال لهاثه وراء الأب والمحبوبة المستحيلة والطيران وشوارع مكة مُحَمَّلاً بأغرابٍ على غير هدى لم يكن يلهث إلا لهذه اللدونة، لهذا الجسد الذي بلا عناءٍ، والذي لا يذهب للأشياء بقدر ما تأتي إليه، صارت المرآة أمامه. . .
الوجه الذي في المرآةِ أيقظَه بصدمةٍ، تلك الأنثى العارية في الحرير لها وجهه، وخلفها ضحكةُ تركيةٍ تفوحُ باللاقوم وحلوى السرايا والسلوى، كظهرِ عَقْرَبٍ مُحَمَّلٍ بصغاره سَرَت عليه، بذعرٍ مَزَّقَ ثيابَها من على جسده وانفلتَ، عَثَرَ على ثيابه كآثارِ إثمٍ في كلِّ مكانٍ بمَدْخَلِ القبو، حين انبعث للطريق كان ثوبه مقلوباً، والقلمُ المشبوك بجيبه يغور بقفصه الصدري، تَذَكَّر إخلاصَه للألم. بوسط أبوالرووس خَلَعَ ثوبَه ليقلبه ويعيد ارتداءه وبلا حرجٍ من العيون.

من الزقاق ألقى بنظرةٍ حانقة على عمارة اللَبَّان وراءه، تَسَلَّقَ بسخطه من قبو التركية للطابق الثالث حيث بَنَىَ من أحلامه لعَزَّة وأَسْكَنَ رمزية، حاول الْتِمَاس شيءٍ من محبةٍ لرمزية، شيءٍ من قَبول،

«هناك لمحة غير منظورة، تُفْتَضَح في جسد رمزية، شيء لا يسكت ولا يشبع ولا يتأنَّق، شيطان سُفلي ومُقَاوِم للترفُّع، جسّد وضيع الرغبات، لا بشهوة ولكن بقبولٍ وإفراطٍ لحَدِّ القَرَف!»

(سَبخَةُ الكائنات) أسعفَه ذلك الوصف الدقيق،

«رمزية بئر يَاخُور، وكفيلة بأن تجعل جسدي يتفطَّر بالثآليل والقروح والصديد فيما لو سَلَّمَ لها. ماذا نتوقع حين نُنَاسب نزَّاحاً؟!»

تلك الليلة وقف خليل وجهاً لوجه مع الإذلال في اكتشافه لقرانه مع الألم، اعترفَ بأنه قد تَلذَّذ بالتركية البارجة التي تتلقَّى طلقات

المدافع وألسنة الحريق ولا تغرق، تتلقّى الألم وتُرسله بنفس اللذة. هناك إيقاع يبدأ من أطراف خليل وينتهي بسطوح التركية، بلمحةٍ تطفو كدمة هنا وأخرى هناك، مثل أنوار خُضر تُرافق توقيعاته، وأطاشت صوابه وزادتْ باللذة التي وجدها في ثياب الحرير بقبو التركية، حركتُه فيها تجسيدٌ لأنوثةٍ لا تلبث أن تنقلب إلى غولٍ يفتك بطبقات شحم التركية الناصع.

اخترقَ خليل مثل خفَّاش في أبوالرووس، بَصَقَ عن يساره وتَجَنَّبَ عربةَ الأجرة خارج الزقاق التي يَكِدُّ عليها ليل نهار، سار على قدميه مُلَملماً جفافَ الزقاقَ على رطوبته، يُدركُ أنه وفي كلِّ خطوةٍ يقطعها في تلك الليلة هي الابتعاد عن ذاته، ضاعت ملامحه الوسيمة، ها هي تتساقط وخطوطها تنحدر وتَتَرَهَّل وتنحسر مثل هذه البيوت حوله، قلبُه يرتجف مثل أكداس القمامة هنا وهناك، ملأتْ هذه المُخَلَّفَات قلبَه بالشقاء، خَاطَبَتْه:

«ماذا يا خليل، تَتَكَبَّر؟ لا أحد أكبر من أبوالرووس، أنتَ القوي الآن، القادر، فماذا بعد عَقْدٍ من الزمان؟ لنا آجالنا ولكم آجالكم، اقرأ تاريخ انتهاء الصلاحية المطبوع بمؤخر عنقكَ، أنتم أيها البَشَر زبالة، تصمد ستين عاماً لسبعين لتسعين لمئة ساعياً على قدمين وبالنهاية تخور الساق وترميكم هنا، إلى جوارنا تتكوَّم ويلعنُ رائحتَكَ كلُّ من يَعْبُر.. لن تجد عربةَ زبالةٍ تحملكَ.. عربات البلديَّة لا تلج إلى مثل هذه الأزقة.. برُخَصِ طيرانٍ أو برُخصَةِ قيادةٍ، كم ستصمد شُعلة بصركَ؟ انظرْ صلعتَكَ التي تَتَقَدَّم وسواد شعركَ الذي يتقهقهر، وعروق يدكَ التي بَرَزَتْ، ناركَ التي كانت تجري بالباطن صارت تجري على السطح الآن وقريباً تُفارقكَ.. ويدكَ التي ترجف بالعنف والعشق الآن سترجف بالخَوَر والسُّكَّري وتفوح ببولكَ وسيقرف كل من يعتني بوضع لقمة في كفِّكَ.. لا، لا تجفلْ.. لا تترك مثل هذه النهايات تستوقفكَ، لكن كنْ رؤوفاً

الآن وأنتَ تدوس وتطحن البَشَر واللذات، ارأفْ قليلاً، لَعَلَّ قَطرةً من رأفتكَ تُسعفك حين تُرْمَى هنا. . »

حين بَلَغَ خليلُ آخرَ الزقاق كان المقهى قد أطفأ أنواره إلا تلك الخافتة على سقيفة السُّقَاة الباكستانيين والسريلانكيين، والذين يُؤَجِّرون أركانَها للعِمَالَة الهاربة، ويتبادلون صُوَرَ الجنس المُهَرَّبة ويعاشرونها ويُشبعون شياطينهم فيما بينهم حتى يقاطعهم أذانُ الفجر. حَيّاه المُحَاسِب السوداني ساهراً ينبشِ أوراقه وراء تلك الطاولة المستطيلة. انساق خليل لتحيته ذاهلاً. انحطَّ على ذاك الكرسي المنسي على حَافة، بقَدَمٍ في المقهى وأخرى في الطريق، في جلسته بدا تجسيداً للانسلاب: بذراعيه مسترخيتين في حِجره، براحتيه مستلقيتين واحدتهما على الأخرى، وبانحناءةٍ طفيفة لرأسه للأمام، بنَظَرِه ساهماً لبقعةٍ بموضعِ السجود. . أمامه كان المسجد، يعرف من دون أن ينظر إلى ساعته أن الفجر على حواف مكة وسيغيب وتبدأ الأذانات تتداخل (الصلاةُ خيرٌ من النوم)، وبعد قليل يُضاء المصباح المُتَدَلِّي من سلكه العاري على باب المسجد، ويظهر شبح الإمام داوود خلف حديد النافذتين، واقفاً أمام المحراب المُعَلَّم بسهم يَصْعَدُ الجدارَ، ليرفع أذان الفجر وصلوات القاصدين مع الإمام. نَظَرَ خليل إلى السماء،

«لا تَقْطَعْني!» قالها كلمةً وارتعد لأُخته يُسرية تَتَقَمَّصُه، بصوت وَلِيَّةٍ مقطوعة تلطم. . زَفَرَ: « أقتلْني بحادث، يا الله، اسحقْني في الحديد فلا تبقي مني لقمة تتعفَّن، لكن لا ترمني من قوتي وبصري. . . المَبْقور والمَبْطون شهيدٌ، ابقرْني شهيداً. . وقبل أن تقتلني اقتلْها: تلك. . . . . »

«الله أكبر. » أمَّنَ صوتُ أذانٍ بعيد على دعوته. التي تَلَقَّفَتْها أولُ ملائكة الفجر. ارتعدتْ روحُه، تَذَكَّرَ أنه لم يغتسل، أحْجَمَ عن دخول المسجد، خوفاً من أن تلفَّ الملائكةُ دعوتَه في خرقةٍ سوداء وتلطمه بها فيسقط ميتاً أمام طلائع الزاحفين بوضوئهم إلى المسجد.

من عائشة / رسالة 21:

(«انظروا.» قالتها الكونتيسة بالإيطالية، «ليس رَجُلاً، إنه حرباء، هو مخلوق التغير.») العاشقات ص 103.

حرباء بيركن في ثيابي.

أتعرف معجزة ان ينبثق ذلك الواحد في الكلمات الخاتمة لصلاتك؟

رؤيتك على شاشتي هذا الصباح، ظهورك من غير توقع هكذا، لطرف كتفي الأيسر حين التفتُ، وتماماً حين همستُ أُسَلِّم على الملاك رقيب الرابض هناك، هذا الملاك المتخصص في تسجيل الذنوب، والذي هو التجسيد للإبداع، والمُهيأ دائماً لمحو صفحات وصفحات وإعطائنا فرصة لتجديد الكتابة..

هذا ما تحفِّزه فيّ، زخة الطاقة التي صحوتُ بها ـ لتدليك جسدي المعطوب ـ وانصبَّتْ في رسالتي هذه إليكَ..

في الأيام الأخيرة لم أعد واثقة ما إذا كنتُ أُصلِّي أم أكتب... اندغمَ الكلُّ في ركنٍ أسكنُه فيكَ.

التوقيع: عائشة.

ملحوظة:

قلتَ: «لكنني لا أريد لك أن تفتقدي الاستيقاظ مع أبوالرووس، أو مع الله، والآن، هل صرنا أربعة أم أربعين، نستيقظ في سرير واحد؟»

أتدركُ طرافة الميلودراما التي تَمَّت على خشبة مسرحك؟

لذاك المشهد دخلتَ أنتَ الرجُل الغربي كفردٍ، كمَالِكٍ لجسدكَ، لقد قمتَ بخطوةٍ شخصيةٍ مَحْضَة، في لعبة بحثٍ مرحةٍ عن الكنز!

بينما وكلما رفعتُ عيني التقتْ عيونَ أبي وأمي وإخوتي وأبوالرووس تُحَدِّق في كل حركة آتيها، في كل دلال.. كل لمسةٍ من يدك وقعتْ على جسد ذاك الجمهور!

أرايتَ؟ أين أعثر على كلماتٍ تشرح كل ذلك؟ لم آتِكَ فرداً قط.. كنتُ ورقة بيضاء مشفرة بعيون أبوالرووس، وكنتَ الفيل يدوس تلك الورقة..

أسلمتُكَ ما ليس لي.. أذهلني حجمُ التهريب في كل لمحةٍ آتيها..

ومهما أطبقتَ بذراعيك لتستخلصني، كنتَ تطفح بثلاثة أجسادي: جسدٌ مُجَوَّع مُعَطَّش. وجسدٌ مُشَفَّر بسنوات المحظور والمحظور والمُبَاح..

وجسدٌ جِدُّ صغير، ويصغر ويُعتم، أمام الله، رغم طلاقي القديم والعقد الشفهي الذي عقدناه أنتَ وأنا في حديقة ذلك الصباح أمام محطة القطار.

حاول أن تراني كما كنتُ في تلك الحجرة: بينما تتخبطكَ أمواج، كنتُ اتخبَّط، في محاولةٍ لانتشالِ جسدٍ واحدٍ يُخلص لكَ، وهم يتراكبون ويتلاطمون على عُري كتفيّ..

الا تُذهلك أنتَ أيضاً عفوية أدائي أمام ذلك الجمهور غير المتعاطف؟

وجود ضوئي

دخَلَ معاذ المسجد، صَلَّى وأطالَ، غادر المُصلّون إلا هو وأبوه الإمام ينظر إليه بفخرٍ، يَتَوَغَّل معاذ في جلسة الاستغفار مُتَتَبِّعاً ذيولَ الإثم الذي يُثقله، يستغفرُ مئةَ مرَّةٍ وألف بِعَدَدِ الصُّوَر التي التقطها والملامح التي اختلسها، يستحضرُ الملائكةَ التي هجرتْه لتجاوزاته الخاصة، وآخرها تلك المفاتيح التي ألقاها على كتف يوسف ووَرَّطَه. يستغفر ويمحو لكن يحتفظ بذلك الكتاب الذي اختلسه من مكتبة مُشَبَّب ذَنباً لا يَمَّحي، ولا يستطيع إعادته أو التخلي عنه، مُصَمِّمٌ يتجوَّل بهذا الكتاب حتى إلى أحلامه ويَتَصَفَّحه في الاستديو أو هناك ببيت اللبابيدي بجبل هندي، الذي هجرته الملائكةُ منذ دهورٍ لفرط ما يجتمع فيه من الصُّوَر. وَجَدَ معاذ أن الأحلام هي المكان الوحيد الذي يُمارس فيه خصوصية، هي المكان الذي ينفرد فيه بأشيائه الحميمة حتى لو كانت آثمة، كرغباته التي تتجسد على اللقطات التي يسرقها من غُرَرِ البنات وسيقانهن، وهذا الكتاب الذي يَتَكَدَّس فيه المصورون الأوائل. يأخذونه معهم، لمَطْلَع الستينات من القرن التاسع

عشر إلى نهاية الخمسينات من القرن العشرين، يقف معهم على صُوَرٍ نادرة التقطوها للحجاز ومكة، يلتقي بالرحالة محمد صادق ميرزا وأولاده في صُوَرِ الوقوفِ بعرفات، ويُطلعه سنوك هورغرونيه (عبد الغفار) على صورٍ للحج من عام 1889. وينفرد بإبراهيم رفعت الذي التقط صوراً نادرة لمكة والمدينة، وكليمو وهالاجيان في مستهل القرن العشرين الميلادي، ولورانس عام 1916، جون فيلبي في الربع الأول من القرن العشرين، يشهد في صُوَرِه الحُجَّاج أولَ هبوطهم من السفن إلى ميناء جدة. وينتقل مع دي غاوري، ريندل وثيسيغر إلى الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين الميلادي، ينصهر في أحلامه معهم.. تَتَحَرَّك سلسلة جيناته الوراثية لتصعد سلالمَ جيناتهم، تَتَرَنَّى في عبقرياتهم تندمج فيها، يصحو ليكتشف أنه (مثل النعجة دوللي) مُستنسخ منهم، لا أكثر ولا أقل.

«يا معاذ..» ينتزعه نداءُ أبيه من استغفاره:

«بَارَكَ اللهُ فيكَ، التُّركيَّةُ الخَيّاطة، جَزَاها اللهُ عَنَّا، أرسلتْ لنا هذا الخروف نَذَرَتْه للصَّدَقة، نَذبحه ونُوَزِّعه بمعرفتنا..» طَوَى معاذ سجَّادَته، لاحَقَه صوتُ الإمام: «لا تنسَ يا معاذ احتفظ لنا بالرأس والكِرْشَة.. وخُذْ الفروة أيضاً..» على مَضَضٍ يُجيب معاذ بالإيجاب، ويُضيف:

«وإن كنتُ سأتأخر عن عملي.» خَرَجَ معاذُ مصحوباً بدعوات الإمام، تَرَكَ صوتَه مُعَلَّقَاً وراءه: «أنا أكره الذبح.»

كلما أحسَّ الإمامُ بضعفِ معاذ أوكل إليه بمَهَامٍ كتلك تُقَوِّي قلبَه. يُفَكِّر معاذ: «سأتحوَّل إلى نباتي فأنا أكره اللحم.» فخبرته عن اللحم مُلَبَّسة بالشحم والعروق وتلك الشُّغَاف مثل رغوةِ نَزْعٍ، في عطايا الصَّدَقَات التي نشأ عليها واحتفلوا بها في الأعياد: «تَكَبَّرتَ يا معاذ على ذلك اللحم الذي بَنَى عظامك؟!» خاف أن يغضب الله من جحوده للنعمة، فَكَّر «الجنة موصوفة بالفواكه في القرآن، حين يُذْكَر اللحم فغالباً ما يكون لسمك أو طير.. حسناً، هناك ذِكْرٌ للأنعام.. لكن...» تجاهل

تلك الإشارة للماشية. حَلَّ رباط خروف التُّركية المُوْثَق لبابهم، والذي سيَعْبُرُ به ضعفَه وآثامه. الخروف الذي ستُضحِّيه التُّركية كبير، يُجَسِّدُ كلَّ الغموض والرغبات التي تتصاعد من قبوها، يُجَسِّد حتى رغباته هو وآثامه، لم يُطق النظر في عينيه المبللتين بالدمع، لم يُطق النظر إلى ذاك اللسان الذي لا يزال يلعق، وأضراسه التي تطحن، لا يعرف من قال: «كان يجب أن يكفوا عن سقيه الماء تلك الليلة، لكي تتهيأ عروقه للفتح.»

خَطَرَتْ لمعاذ فكرة، قاد الخروف إلى البقعة التي سقَطتْ فيها الجثة بين البيتين، التراب جاف، لا أثر لما كان، مُسْتَقبِلاً القِبْلَة أرقدَ الخروفَ مقلوباً على جنبه، رَبَضَ على صدره، ممسكاً بالسكين الضخمة وللحال راجعتْه آخرُ مَرَّةٍ قَوَّى فيها قلبه: حين أجلس أبوه بعد انقضاء صلاة العشاء ليلة الجمعة مع السياف العبسي، وكان العبسي يحضر للمسجد بانتظام، وينظر إليه المصلون من أبوالرووس باحترامٍ، بتواضعٍ عَرَّفَه العبْسي بمنصبه:

«مُنَفِّذُ قَصَاصٍ في المنطقة الغربية مكة وجدة والطائف.» وقدم له العبسي الشابَ الرقيق الذي برفقته قائلاً:

«ابني مشاري، أَعَزُّ ما في دنيتي، يَرِث عني بعون الله، دَرَّبتُه بنجاحٍ بعد الموافقة عليه واختباره.» اضطربَ معاذ، وابتعد الإمام مع العبسي تاركاً لمعاذ التعارف ومشاري، سَأَلَه معاذُ بعَجَبٍ:

«تقصُّ الرقاب؟! قَاطِعُ رِقَابٍ؟!»

«أبي يفصل الرأسَ عن الجسد بقلبٍ رقيق مُرْهَف، هذا ما رافقتُ أبي لأتعلمه.. شهدتُ عمليات قِصَاصٍ لا تُحصى، راقبتُ مكانَ وضع السيف، ليفصلَ الرأسَ بضربةٍ. والمهم اختبار قوة التحمل وثبات القلب.»

«أنتَ متزوج؟»

«الحمد لله عريس جديد..»

«وما رأي عروسكَ؟»

«تزوجتْني كعسكري، لكن حين أخبرتُها بطموحي لم تعارض، طلبت مني التروِّي للتفكير. وحين قَرَّرتُ وَافَقَتْ..»

«ألا تخافكَ؟»

«لا، هي تعرفُ أنني أُنفِّذُ شَرْعَ الله، أنا كأبي في البيت رقيقاً ولا نخافه لا قبل التنفيذ ولا بعده.. يخرج للقِصَاص على وضوءٍ وطَهَارَةٍ، كأنه ذاهب للمسجد.. في ثوبٍ مغسولٍ وغترةٍ وعِقَالٍ.. آخر مَرَّة قَطَعَ سبعة رؤوس في سبع ثوانٍ، كل رأسٍ بضربةٍ بلا حاجةٍ لتكرار الضربة...»

«ألا تعاوده الكوابيس؟»

«لا، لأنه مؤمن إيماناً قوياً.»

«وعلى أي رؤوس يكون التدريب؟»

«نتدرب نظرياً، وحين ننفِّذ ففي الساحة، غداً أقوم بأول مهمة قصاص، وبوسعكَ الحضور لتشهد..» لولا الإمام داوود لفَرَّ معاذ من تلك الدعوة،

«غداً تستعمل سيفاً حقيقياً؟!»

«إن شاء الله تَصرف لي الحكومةُ واحداً، عادةً هو سيف ثمين يبلغ ثمنه عشرين ألف ريال. ونُعَقِّمه أنا وإخوتي حين يرجع به أبي بعد كل عملية قصاص.»

يَتَذَكَّر معاذ أنه في صباح اليوم التالي كان وأبوه الإمام قد بَكَّرا بالوقوف أمام الحرم بساحة باب الملك عبد العزيز، شِهِدَا قَفْلَ الشرطة للطُّرق المؤدية للساحة أمام السيارات للتنفيذ، لم يعِ معاذ الحشود التي أغلقت عليهم الحلقة، فقط ذلك الرجل المُحَوَّط بالعسكر، لم يعرف من أين هَبَط، كان الرجل غليظاً في ثوبٍ أبيض، حاسر الرأس حَلِيقَه، من موقعه خُيِّلَ لمعاذ أن الرجل بلا حاجبين ولا أجفان ولا أهداب ولا شارب.. يعرف معاذ أن ذلك المحكوم هو أحد الإرهابيين الستة

والثلاثين، صُوَرُ القبض عليه ملأت الصحف، إلا أن خطورته قد مُسِخَت الآن، بدا مثل قطرةٍ صقيلة مُكَثَّفَةٍ من فضولهم جميعاً. .

ظَهَرَ العَبسي مُرَافِقاً للمحكوم، وللحال انشغل مشاري بتكتيفه وعصب عينيه. المشهد من الهول بحيث لم يَعِ معاذُ كلمةً من بيان الحكم الذي تلاه قائدُ المهمة في الساحة. اقشعرَّتْ الجلودُ حول معاذ حين بدأ مشاري بتلقينه الشهادة ثلاث مرات والمحكوم يستجيب، بينما أبوه العَبسي حاضراً يرقب بوَجَلٍ أن يفشل مشاري في أول مهمة له، متأهباً للتَّدَخُّل فيما لو خانت مشاري عزيمتُه وعَجِزَ عن التنفيذ. لوهلةٍ شَعَرَ معاذ بأن مشاري مشدود الأعصاب، بسبب الجماهير الغفيرة، تَذَكَّرَ عبارتَه البارحة حين قال: (عزمُ أبي كبيرٌ يَفوقُ عَدَد المتجمهرين بالساحة!) وبنفس اللحظة رَنَّت تلك العبارة برأس مشاري، لإشارةِ التنفيذ من قائد المهمة تَمَاسَكَ، مُوَاجِهاً للقِبْلة أَرْكَعَ المحكوم على ركبتيه، لم تكن وضعية صلاةٍ، بين السجود والقيام. . لمعةُ السيف هي التي شَقَّتْ المَشْهَد. . انبثقت مثل آهةٍ من صدور الجميع، همزةٌ واحدة لمؤَخَّرِ عُنقِ المَحْكوم. . ارتدَّ الرأسُ على إثرها للخلف، نصلُ شمسٍ هَوَى على قوسِ العنق فانفصل الرأس. . لفرط خَفَّتِها لم تُتِح الضربةُ للدم فيسيل. . ظَلَّ الجسدُ راكعاً متكاملاً قوياً، بينما أكمل مشاري دورتَه بالسيف يمسحه بخرقة من جيبه. في خلفية الصورة كانت عينُ معاذ ترى، تُخَلِّد العبسي مسحوراً يُحلِّق مع الرأس بينما رَسَمَتْ في الهواء قوساً وحَطَّتْ قريباً. . سَمِعَ سقطتَها تحت قدميه. .

جفل معاذ حين استدارت له عينُ الخروف، وسَمِعَ فيها نفس السقطة. . « بسم الله الرحمن الرحيم. . » أجرى السكين، وجرى نفس الدم القديم، لا من العنق المقطوعة وإنما من بقعة التراب تحت قدميه. . . ترك معاذ الخروف مذبوحاً هناك وبدأ يركض. . (قطعاً هو أقلّ عزماً من

مشاري). «معاذ خِرِع. . خِرِع خِرِع. .» تتردَّد سخريةُ أولاد الزقاق وراءه حتى اختفى في تشعبات أبوالرووس.

تلك الظهيرة أكمل أخوه يعقوب السلخ، وانتقى القِطَعَ المطلوبة للإمام.

من عائشة / رسالة 22:

(« لا..» قالت أورسولا، «الحُبُّ قليل جداً وإنساني.. أؤمن بشيء غير إنساني... عاطفة لا إنسانية في ضخامتها وما الحُبّ إلا جزء منها.. أؤمن أن ما يجب أن نبلغه يأتي من المجهول فينا، وهو قطعاً أكثر من الحُبّ.. هي عاطفة ليست مجرد إنسانية..» تأملتها جودرون بمزيج من حُبٍّ واحتقار، «حسناً، أنا لم أتجاوز الحُبّ بعد..»

ولمعت برأس أورسولا فكرة: «هذا لأنك لم تُحِبِّي أبداً، لذا لم تتجاوزي الحُبَّ بَعد..» العاشقات ص 493)

أتساءل ما إذا كنتُ جودرون، لكنني أجد أوروسولا أيضاً فيّ..

يا لقسوتك العفوية، حين تقطعني هكذا لليلة أو أكثر..

أعرف أنكَ تُطارد ضحيةً جديدة على طاولة التدليك، لكن ما لا أحتمله هو اعتمادي عليكَ، وإثقالك بمشاعر تتقلَّب كل لحظة، أشعرُ بكَ مسحوقاً بمشاعري، وأحياناً أشفقُ عليكَ...

لكنكَ تحتملني، إلا إذا كان هناك جسد جديد على طاولتك.. لقد كنتَ واضحاً منذ البداية، بل لقد بدوتَ كشهيدٍ حين قلتَ: «مهتمي في الحياة تخفيف الأجساد المعطوبة، إسعافها بشيءٍ من لذة وسط الألم..» لكن ولربما تُسعفُ جسداً بلذة تُؤجِّلُ بقيةَ العَلَقَات المتشبثة بجسدكَ..

أنا عَلَقَة ليومين متتاليين، أتشرَّبُ بسلامِ القسوةَ التي تقطعني بها، أعرف أنكَ لن تتركني مؤجلة طويلاً.. وسترجع إليّ، قلت يومها «أنتِ قنبلة لذة..» ولكن ليس من مصلحتك تشغيلها عن بُعد...

قنبلة لذة؟! أهي التي تُفجِّرها بوجهي بحضوركَ وغيابكَ هكذا بلا إنذار..

أتذكُرُ عَزَّةَ، حين كانت في الخامسة، حين بدأت تمشي في نومها، أو تتظاهر

بالنوم في حال اكتُشف أمرها، كانت تعبر الزقاقَ لبيتنا ببابه الموارب، تصعد الدرج، تعبر الفُرش الستة المبسوطة على الأرض لنوم إخوتي، ومباشرةً لفراشي. كنتُ أشعرُ بجلستها متقرفصة صغيرة عند رأسي النائم تهمس: «عائشة، أكره النوم.» وبعينٍ مغمضة كنتُ أرفعُ لها طَرفَ الغطاء لتدخل، وحين تستقر تحت الغطاء لا تندفع فيّ، بل تمسني بخِفَّةٍ في نقاط حيوية، ترسم بجسدها هلالاً يترك فضاءٍ بيننا، جبهتها على شفتي، ويدها اليُسرى غائرة بإبطي، وأطراف أصابع قدميها بباطن فخذيّ.. نتماس في ثلاث نقاط ونغرق في النوم، تشعر بقلبك ينسرب لطفلة تهجر النوم لتلقاك.. في مرحلةٍ، اعتقدتُ أن بوسعي أن آخذكَ طفلاً بغطائي، لكنكَ كسرتَ مَحَاورَ الطفلة داخلي.

عائشة

المَخْمَل

صمتٌ قديم يُقيم ببيت اللبابيدي، يشعر به يوسف في الحجرات والمساحات الضيقة والمفتوحة بقلب المَجَالِس وخلف المرايا التي على جوانب الأقواس. يجلس يوسف وحيداً في ذلك الصمت، ترمقه عيونُ الصُّوَرِ، في الصمت تصير تأتيه حياته من زوايا لم يسبق أن لَمحها في ماضيه. . كلُّ ما أفلتَ منه جاء ليُجالسه ببيت اللبابيدي.

في تلك الليلة، كان غافياً على أرض المجلس العارية والمُحَوَّطة بصور أهل مكة، حين أفاق بمنتصف الليل فجأة، أفاق مقذوفاً في حلمٍ سَبَقَ أن رآه ليلة الجثة بينما كان ينعس على سطحهم بأبوالرووس.

ليلتها كان يوسف جالساً على سطحهم يرقب الزقاق، وبحِجْرِه كتاب (المملكة في عيون أوائل المصورين لوليان فيسي وجيليان غرانت)، كان معاذ قد جاءه به مفتوحاً على تلك الصورة لمُصَوِّرٍ مجهول في مِلَفٍّ

بذكرى الحرب العالمية الأولى. هيّج دائرةً من الخطر حين قال: «يجب أن ترى بنفسكَ، أنا أخاف الله، فلا أفضح أسرار الناس..» وتلاشى.

تَوَغَّلَ الليلُ على يوسف متأملاً في تلك الصورة، ولا يَتَوَصَّل للسر الذي حَرَّضَه معاذ على رؤيته. الصورةُ كانت عن وصول المَحْمَل قادماً من مصر وطوافه بشوارع مكة، احتفالاً بالهبات التي تُشَكِّلُ بعثاً حولياً للحجاز الفقير. بنظرةٍ إلى الزقاق ونظرةٍ إلى الصورة، كان يوسف يغفو ويصحو، في مرحلةٍ دَخَلَت الصورةُ والزقاقُ في حلمه.. صار يحلمهما معاً كواحد، للحظةٍ كان المَحْمَل يخترق أبوالرووس، يَتَقَدَّمه العسكرُ الحامي للموكب بسيوفهم مشيرة للأرض، وأمامه المحتفلون من مُشَرَّدي أبوالرووس مختلطين برجالات مكة وأعيانها خلف الشريف بأغطية الرأس المزخرفة، وتلك البيضاء للعلماء، وتلك المُحَوَّطَة بِعِقَالٍ للبدو والأعراب... والنسوة في العباءات السود واليَشْمَك الأبيض يغطي الفم ويترك العين والجبهة للعيان... وهذه الشجرة الوحيدة تتكرَّر.. وحولهم طبول العسكر. وطلعت النسوةُ يتلصصن على الموكب من وراء الرواشن والشقوق. قفز قلبُ يوسف حين لمح أولئك الرجال على السطح يسار الصورة، يكاد يلوِّح له الرَّجُل الواقف متوارياً بالمئذنة على ذات السطح بثوبه العربي الأبيض، بينما توراى الرجل الآخر بالسور لكيلا يراه يوسف، معاذ كان يتلصَّص مع الرجلين من خلف منارة.. بيوت أبوالرووس بدت مُرَقَّعَة.. أجزاء منها تفضح الثراء القديم، وأجزاء مُرَقَّعَة بآجُرٍّ عصري مجدور وإسمنت أو بخشب وطين.. خليط عَوَارِض ورُقَع، والمحمل يشقُّ بينها متجهاً إلى بُستان مُشَبَّب حيث سيربض الجَمَل..

اقترب يوسف بجلاءٍ شديدٍ من الهودج المزخرف المحمول على ظهر جَمَل وفيه كسوة الكعبة المشرفة. بدا مثل قفصٍ من تلك التي يضعونها على نعوش النساء لإخفاء مَفاتنهن في الموت.. راح يوسف يُخَمِّن: مَنْ تحت ذلك القفص؟ صوتٌ داخله كان يقول: (عَزَّة).. وصوتٌ يقول

(عائشة).. وآخر يقول: يُسرية، سلمى، ميمونة، سعدية.. لا يستقر على اسم.. وهاجسٌ يُوحي إليه بأن يفكَّ الرموزَ وتطريز الذهب في كسوة وحلية الهودج.. حين بلغوا بستان مُشَبَّب بدأ الرجال يُهْبِطون الهيكلَ الحاوي للكسوة.. وكان يوسف يَتَوَقَّع أن تُسفر البنت المدسوسة هناك.. لكن الرجال كانوا يحملون ـ ليس النسيج ـ وإنما الكتابات: كلمة كلمة، ويسبكون بها البستان تحفة أبوالرووس.. الكتابات المُقَصَّبَة بالذهب والفضة رَصَفوها خطوطاً على البستان.. ثم وبحركةٍ خاطفة كانت بنتٌ بسوادٍ طويل تمرقُ من الهيكل المُعَرَّى من الكتابات للبستان.. خَفَقَ قلبُ يوسف، قلبُه قال يعرفها... في تلك اللحظة تَبَدَّلَ الزمر والطبل وتلاشى الأشراف والحاكم والمحتفلون كأن لم يكن، واشتعلت نارٌ كبيرة.. كان أهل أبوالرووس يوقدونها.. قالوا لتذويب الذهب والفضة في كسوة البستان للإنفاق على الزقاق.. كانت النار تضطرم وتتصاعد أدخنتها، والجدران تذوب بحرارة النار والبنت تذوب، حين اجتمعت صهارتها في حفرة، نَهَضَ من الصهارة عملاقٌ وضَرَبَ الزقاقَ بذنبه فانقلب...

حين أفاق يوسفُ كانت سكتةٌ على أبوالرووس، لم تلبث أن شَقَّتْها صيحةُ اكتشاف الجثة..

وحيداً في بيت اللبابيدي يراجع يوسف لوحةَ المَحْمَل تلك.. يبسطها أمامه، لليالٍ وأيامٍ يتأمل في التفاصيل، يُفَتِّشُ وجوهَ الرجال عن وجهِ الذي بدأ الانسحاب، كان ضمن المحتفلين وجهٌ رآه.. كان من الأعيان.. يُحيط به أتباعٌ.. ظَهَرَ في ثوبٍ من تصميمٍ حديث.. ملامحه سَبَقَ أن رآها.. مع سائقه ومعاونه... كل تلك الوجوه تحرَّكت حقيقةً في الزقاق في الشهر الذي سبق اكتشاف الجُثَّة.. يبحث عن وسيلةٍ لتكبير الصورة، لقراءة تلك الملامح، ليعثر بينها على ذلك الرجل، وكشف هويته.. يعرف أنه لو سَمَّى ذلك الوجه لَكَشَفَ هويةَ القاتل.. أو هوية الخاطف.. أو البنت.. يُبَطِّئ الصُورَةَ ليلمح البنت حين تشق أستار

المَحْمَل لتتسلل إلى البستان. . أو إلى خارج الزقاق في صهارة المارد. .

يُدرك يوسفُ أنه، في اللاوعي، هناك امرأة تتسلّل فارّة من الزقاق. . من هي؟ عزة أم عائشة أم ابنة فلان أو أخت زعطان أم امرأة ضاق بها الزقاق؟ يُنَقِّل بصرَه من صورةِ المَحْمَل لصورةِ الواقع في ذاكرته، في أحداث تلك الليلة المطبوعة في لاوعيه، رغم غفوته كان يرى، كان واعياً بتلك الحركة الخاطفة لـ (الجسد) الذي سقط ولـ (الآخر) الذي انفلتَ في نهاية ذلك الجسد. .

من عائشة / رسالة 23:

لقد غرقتُ لأسود سواد النوم البارحة، وفاتتني صلاة الفجر، استيقاظي هذا الصباح كخلع روح.

لو كان الموت كهذا السواد المُحيي، فهو رحلة أتوق إليها..اعتماداً على ما جاء في القرآن من أن: النوم موتة صُغرى.

هل تتساءل: متى ستيأس وتكف عن مكاتبتي؟

كلمة واحدة منك تكسر أحلك أفكاري.

(من الأفضل الصراع مع الذات بدلاً من الصراع مع الكون) يقول لورانس في آخر العاشقات.

تَخيَّلْ نفسَكَ بقناة بث محلية وحيدة، لينقطع ذلك الإرسال فجأة وتجد نفسك موصولاً لقنوات الاتصال الحديثة، ولعالم اليوم؟ ذاك كان موت أبي.

كلما تأمّلتُ في قنوات عَزَّة أشفقتُ علينا نحن الاثنتين.

مذاقٌ حامض لخميرة خبزنا هذا الصباح، أتظن عزة تخترع كل تلك القنوات؟ تقول إن العالم أبواب، أكثر من أن تعبرها.. «فقط اغمضي عينيك ودوري، واندفعي في دورانكِ مِنْ بابٍ لباب.. المهم ألا يُطبِق عليكِ بابٌ..» تلك حكمتها الذهبية.

صُوْرَتُكَ واقفاً في مطبخك، جَوَّعَتْني، اذكرُ كيف مزَّقتُ أكياسَ المشتروات

التي حملتّها ذاك الأحد، ولم أعرف ما أصنع بالكُرّاث في مطبخك العصري.
يوماً ما سأطهو لكَ (العيش باللحم). صعب هذا الطبق ولَكمْ أكلَ من نهارات أمي.
لا تندهش من كمية الكُرّاث، هذا الأخضر الذي يُحمِّي الدم! أتعرفه؟ من فصيلة البصل الأخضر. لقد فَصَدَتْ جَدّاتُنا جِدَّتَه بمفروم اللحم والطحينة وبروده العجين.
أنظرُ للوراء، أجد الكُرّاث بطفولتي في صورٍ مُثيرة غامضة، محورُها الحمّالون اليمنيون الذين يقوم على صلابة أجسادهم زقاق أبوالرووس. ظهورهم هي الشاهد على دخيلة بيوتنا، شَهِدَتْ أثاثَنا يتنقل بين طوابق هذا البيت، مَرّاتٍ للحَجّ وأخيرة حين استقرَّ معي للأبد في هذه المسروقة، ظهورهم نصف المنتصبة تحت الأثاث الثقيل الملفوف بحبال غليظة! جُبَبهم القصيرة لا يخلعونها حتى للنوم، وجلستهم محتمين من الشمس على طرف الزقاق يمضغون أقراص الخبز الأبيض المُدَوَّرة بحزْمَةٍ كاملةٍ من الكُرّاث للواحد منهم.
يُغيظُ أبي ظهورُ ذلك اليمني القويّ البنية بالزقاق الضيق، وجلوسه مستنداً بظهره إلى الطوب الأحمر العاري، تصلني هنا وبوضوح رائحةُ فانيلته البيضاء المُبَقَّعة بملوحة الكراث، أرقب مئزره القائم ينفرط وتتبدَّل خضرته كعباد شمس وتزحف تحتها الزواحف، كلما مرَّت امرأة نَعَقَتْ كغرابٍ وارتطمت.
(يَمَني قَامَ، خَرَقَ الشام، يبغاله غُش بريال ونُص.)
انتظر أغنيةَ الصغار تلك، يُغنونها بأعلى أصواتهم، فتشقُّ ابتسامةً على تَجَهُّمِ النوافذ المُتحفِّزة للفتح.
لا أجرؤ على لفظ الكلمات مثلهم عارية لِصلْبِ حقيقتها.
مثل تلك الكلمات تنشب بحلقي وتُرسل نافورةَ دماءٍ لراسي، لأنها لا تتسطَّح في صوتٍ ذَرِبٍ، إنما تُباغتُني الكلماتُ بأجسادٍ أجدُها على لساني.
الآن لم يعد أبوالرووس يُغنِّيها في وضح النهار. لم تَعُدْ بكلماتٍ، لربما خرج ماردُها.

لو كان اليمني حيّاً لبعثتُ بصورته، تناقلوا انه سُخِطَ في حزْمَةٍ وأكلتْها غربانُ النساء في تشعبات أبوالرووس المُغلقة.
بكل هذه القراءات والاحلام: كبرنا نحن البنات على أن العالم يقوم على الحُبّ الذي يُنقذ البنت من الخنق... لأُدرك الآن أنه يقوم على الجنس والطعام.
وأنا الأخيرة في هذا السباق... استغرقني ثلاثين عاماً لبلوغ ذروتي الأولى..
فتحتان في الجسد انبنى عليهما العالَم...
البقية حواشي تموت في الالتحام الأول...
عائشة

ملحوظة:
يا ^
(« أتحبني؟» تسأل أورسولا.
«كثيراً.» أجابها بيركن بهدوء. وتَعلّقَتْ به أقرب.
«فقط كثيراً.»
«كثيراً كثيراً.»
«وهل يجعلكَ ذلك حزيناً؟ كوني كلّ شيء بالنسبة لكَ؟» سألتْ بتوقٍ كئيب.
احتضَنَها إليه أقرب، وقَبّلَها قائلاً، بصوتٍ بالكاد يُسمع،
«لا، لكنه يشعرني كما لو كنت شحاذاً. أشعر بأنني فقير.» صمتتْ، تنظر إلى النجوم الآن، ثم قَبّلَتْه،
«لا تكن شحاذاً.» تَوَسّلَتْه بتوقها الممزوج بالكآبة، « لا يُشينكَ أن تحبني.»
«المُشين أن أكون فقيراً، أليس كذلك؟»
«فيمَ هذه الحتمية؟» أحاطها بذراعيه،
«ما كان بوسعي احتمال هذا المكان البارد واللانهائي لولا وجودكِ معي. كان سيسحق جوهر حياتي.») (العاشقات ص5 49).

ذلك الحوار، كلما قرأتُه قال لي شيئاً جديداً:
أهذا ما كان ينقصني: الاستجداء؟!

وقبل الاستجداء: **الفقر** (الشعور بالجوع بما يكفي لمد اليد)؟؟
فقط (الآخر) هو الذي بوسعه أن يُحَوِّلكَ شحاذاً.
لأن فقركَ إذا تحوّل إلى وسواسٍ يطرده، ويُجَوِّعَكَ.

ملحوظة 2:

فجأة اضطرب حاسوبي،
لا تتساءل ما الذي دفعني لتحميل هذا البرنامج الطارئ على الشبكة.
هذه البرامج تَتَفَنَّن في اختبار فضولنا وتهوّرنا، مرة تفتحنا لعالم يجعل لضغطة الزر فعل السحر، وفي أحيان تنسف كامل الذاكرة، تماماً كالعلاقات البشرية.
لساعاتٍ صرتُ في غيبوبة، وأُفكِّرُ، بدون حاسوب صرنا لا نحيا، لأننا ننعزل عن حقيقتنا الضوئية...
ها أنا معطلة بينما تُخلخل تلك الشحنة من الإشارات ذاكرتي. بالمحاولة وإعادة المحاولة توصّلتُ إلى هذه الخدمة الحاسوبية، تتبع الخطوات التالية:
(كلُّ البرامج)،
(مساعدات ثانوية أو مكملات)،
(أدوات النظام)
(إحياء النظام أو ترميمه)
(ترميم زمن الحاسوب، أو **الرجوع** بساعة الحاسوب لزمن أبكر)، لتجد نفسكَ أمام روزنامة زمنية، تختار التنقل فيها للوراء يوماً أو شهراً، بضغطة زر تَمْحي حُقبةً من عمر حاسوبك، ويرجع أياماً للوراء، للنقطة التي كان فيها صحيحاً فتياً.
أنظر إلى رأسي أبحث عن الفيروس الذي ضرب تلك الخدمة؟
أفكر أي أزمنتي أحيا من جديد، وأيها أمحو للعودة لما وراء؟
ربما أبدأ بطمس اسمي،
عائشة
لربما للاسم: حياة.
التوقيع: عائشة.

ملحوظة 3:

1) تقولُ احببتَ الصُّوَرَ الضوئية التي أُرفقها لكَ. يُدهشني أن تخرج من ثقل طينها وعتمتها وتتخفّف لكَ (تصير فناً يليق بمتحف).

2) صورة لأم السعد؟ لا يوجد!

مُرْفَق 2:

حميد العَشّي هذا حوشه، ورفوف صُحفه.

مُرْفَق 3:

هذا خروف مُكتّف ومُسقّط لحفرة النار، لا يخلو حوش المضبي من وليمة تُجَهَّز للقادرين خارج أبوالرووس.. تصلنا روائحهم.

وانتَ لا تشم.

التوقيع: عائشة.

تلك الليلة ظَهَرَ ناصر على مدخلي أنا أبوالرووس، وتنفَّس تلك الكلمات كقَسَم:

«أنا لم أُخْلَقْ لهذا الفقر. . لن أسمحَ بأن يُلقي أبوالرووس بسخامه على خارطة حياتي لا الآن ولا في شيخوختي.» لكنني أستدرجه ويتورَّط أبعد، الجيوبُ السوداء تحت عينيه ووجهُه الممصوصُ تقول بأنه لم ينم في دهر، لا يفوتني شيء، راقبتُه يَتَسَلَّل للمَرَّةِ الثانية إلى بيت عائشة، أعرفُ أنه يبحث هذه المرة عن (العاشقات)، كان من الحيوي أن يعثر على ذلك الجورب الأحمر، أي صورة ستُمَثِّل عائشة، أي لمحةٍ من أحلامها. . . ما إن خطا في الدهليز حتى صدمتْه الرائحةُ، صارت للبيت رائحةُ قميصه الداخلي، بدا لناصر أنه رجل يمشي في وسواسه الخاص. . تَلَمَّسَ طريقَه في العتم الذي تلبد على الدرج صاعداً. . . كل أبواب ذلك البيت مُشرعة، لم يُغلق منها باب، إلا باب المسروقة، عَرَفَها محشورة بين طابقين، عَالَجَ القفلَ، اضطَّرَ لكسره للدخول، خطا الخطوة الأولى

وغامت الدنيا في عينيه، أمامه كان سريرها كبارجة، قَاوَمَ رغبةً جارفة في الارتماء على تلك المساحة المسكونة بجسدها، بعذاباتها، بذاك الجِنّي الألماني الذي يبني بوحدتها. . .

«عائشة هي الشيطان بعينه. . . وأنتَ يا ناصر تحسب نفسكَ شيخاً مبروكاً. . وستُخْرِج منها الجِنّي! تخرجه من عينها فتُعميها؟ أم من إصبع قدمها فتُقعدها؟ ما العضو الذي ستشقه لخروجه وعقابها؟»

لم يجرؤ على التقدُّم، أمامه كان غطاء السرير من الساتان بلون الخزامى، بنفسجي فاتح، مُكَوَّماً معصوراً كجسدٍ في الحُبّ. . جال ببصره في المكان، يبحث عن (العاشقات)، أينما نَظَرَ فاحتْ رائحةُ الخزامى تُجرجره، تَقَدَّمَ، نَبَشَ الأدراجَ، تحت التسريحة. . . الأركان، لم يجرؤ فيمس السرير ولا ذلك الغطاء المُتَكَوِّم، ما كان ثمة من أثرٍ للعاشقات. . . كل شيء في ذلك البيت ممطوط كما لو غَادَرَه أصحابُه ببطءٍ، وبانتظار رجعتهم، إلا هذه المسروقة بَدَتْ مُسْتَنْزَفَة، وقد كفّتْ عن انتظارِ عاشقاتٍ غادرن من زمنٍ. . . أتممن الغَرَقَ في الحُبّ، لعالمٍ لا قَرَار له، لقاعِ قاعِ أحشاءِ ناصر. . أغلق البابَ وراءه بهدوء وغادر.

حتماً سيختار. . شفتيها. . ونزولاً. . معاكساً لجريان الألماني فيها. هالته تلك الفكرة.

جميلة

بين أوراق يوسف وعائشة يشعر ناصر بأنه يتحرَّك في مكة وهمية غير تلك التي تعوّد أن يحرسها. تلك الليلة استوقفتْه من يوسف أوراق معنونة بـ: مهزلة سِرِّ أسرارِ الشيخ مُزاحم:

1 يناير 2005:

جميلة المدكوكة في عباءتها السوداء المشقوقة بطول الجسد ولا تستر

شيئاً. طرحة جميلة من اليمن لذا تستلقي بلا مبالاة على كتفيها تاركة تلك الضفائر مكشوفة. لطَلَّتها يقفز قلبُ الشيخ مُزَاحِم ويسد حنجرته. جميلة اليقطينة مُكَوَّرة، وكل ما فيها ينضح بالسمن البرِّي، وفي حوضها تغورُ عينُه اليمنى الناجية بالكاد من الماء الأزرق.

«يا هلا ويا غلا بوجهٍ قَدْ حَلا، يا حصى الحجاز ويا تُرابها رَحْبٌ بزين المُكَلاّ..»

«أبغي جالاكسي.» يَرِنُّ صوتُها ببئر الشيخ مُزَاحِم، يَهزُّ رأسَه،

«شيخُكِ مُزَاحِم وحانوتُه وحلواه على هواكِ وأمركِ، الأصناف بلا عدد من الحلاوة بعود، لليمونية، لشوكولاتة مارس بالكراميل والكِيتْ كَاتْ وبُونْتي بجوز الهند، طلبكِ سلطان الطلبات: جالاكسي.» فكَّر أنه على أكتاف العِمَالَة اليمنية تقوم الحِرَف ولحُسن الحظ فإن شهيتهم للحياة تدفعهم للتناسل.

تقترب جميلة بعينيها مسمَّرتين على قضيب الجالاكسي ملفوفاً في قصديره الكحلي، يُنِعِّسها زَنَخُ الكاكاو. يمدُّ يدَه بالحلوى إليها حريصاً أن يلمس أطراف أصابعها. تجحظ عين الشيخ مُزَاحِم ويتكَدَّر ماؤها الأزرق. لا نَشوق ولا قَات ولا مَحْلَب يُضاهي عبوره المسافة المتكهربة بينه وبين البضاضة.

من أول طبخ الأنوثة، تَشقُّ الرائحةُ النفاذة لآخر إبهام قدمه اليمنى، وفي تلك الرائحة تبرق البدويةُ بائعة الفحم التي دسَّته في ثوبها حين كان في السابعة، حين تعرَّضتْ قبيلتَه لغزوةٍ من الغزوات المألوفة في الصحراء. تُطَرِّز بنات القبيلة ثيابَهن منذ الطفولة ليعرسن فيها ولا يخلعنها حتى الممات، ثيابٌ تكتنزُ كلَّ لحظات العشق والموت التي مررن بها.. كل ذلك أمسكَه في ثوب بائعة الفحم فانتصب بحجم جبل طويق، وقذف بطوفان، من على تلك القمة كان بوسعه فَلْح وريِّ بستانٍ بمائه.

الآن نفس الجبل يهيج كلما مرَّت جميلة ابنة الخامسة عشرة، تُعيد له أنين الدلو في البئر الذي وَلَّى من زمنٍ، ومعه الحلم بوريثٍ ذَكَر! لنظرة جميلة سكينة عين بقرة، يُدْرِكُ ما يغيب من وجه جميلة؟ يغيب: (القرف). يغيبُ (التحدِّي)، في عين جميلة استردَّ الشيخ مزاحم ما سلبته إياه أم عَزَّة.

«ناصر، يا ولدي..» صوتُ أمه على الهاتف قَاطعَ نَخر عبارة العاشقات برأسه: (من الأفضل الصراع مع الذات بدلاً من الصراع مع الكون)، حوله انتصف الليل، «لقد عثرتُ لكَ على عروس.. مال وجمال ونسب..» وهدرت رؤوس أبوالرووس ساخرة بجمجمته،

«أوه يا أمي، عدنا لهذا؟!!»

«تدفن نفسكَ في العمل، الذي سيقطع نسلكَ، ويُفَوِّت فرصتَكَ في وريثٍ يحمل اسمكَ.» تململ ناصر، يومياتُ يوسف تفترشُ سريرَه، وتُسَرِّب عَرَقَ عَزَّة لأغطيته، لم يعد يغمض له جفن في ذلك العَرَق، فَكَّر أن الرجعة لأساليب والدته مستحيلة، : يُجاهد للتركيز في الذي تقوله،

«بنت يتيمة، وعمومتها على الموضة، سيسمحون لك برؤيتها رؤية شرعية. فرِّحْ قلبي قبل أن أموت..»

«أطال الله لنا في عمركِ يا أمي، الوقت متأخر، سأهاتفك غداً للتفاهم..»

«يا ولدي لا تَدْخُلْ قبركَ حطبة جافة..»

كلماتها حطَّتْ بحُلْكَتها على الحجرة، وضع سماعة الهاتف. أغلق ناصر عينيه وأبطأ تنفسه، فَارًّا بوعيه لتلك البقعة بالركن القَصِّي بصدره حيث لا يمكن لقتلٍ أو بؤسٍ أن يزحف، في ذلك العمق كان قد خبأ خيال تلك البنت التي لم يجرؤ قط على نَبْشِ طَرَفِ طرحتها، وظَلَّتْ خلال مراهقته ونضجه مُتَكَوِّمَة في عباءتها التي تُغَطِّيها من رأسها لقدميها. لكنها خفيفة مرحة مثل ظِلٍّ. الآن امتدَّتْ أصابعُه محمومة لكتلة السواد التي خبأها كل سنوات مراهقته، قَشَعَ طبقات وطبقات من السواد، لما لا نهاية، وحين وصل إلى لُبِّ الكتلة لم يعثر على حَشْدِ النسوة اللواتي جَمَعَ سوادَهن من سيارات خاطفة حوله، ولا من نوافذ جاراته البنات في

الطائف، واللواتي وكلما رَفَعَ عينيه لنافذةٍ من نوافذ إحداهن عَلَّقَتْ له نعالاً مقلوباً، من مرايا النِّعَال في دربهم المُتْرَب عَثَرَ ناصر على وجهه هو، مُوحشاً، بانتظار وجهٍ أنثوي يسكنه.

في علبة ذكرياته لم يعثر إلا على شعرة طويلة ودبوس شَعْرٍ تُزَيِّنه تفاحةٌ صغيرة حمراء بحجم نحلة تُحَوِّطها فصوصٌ صغيرة، يذكر كيف لمح ذلك الدبوس على طاولة ببيت صديقه، وكيف ضَخَّ الدم في صدغيه حين اختطفه ليدسه إلى جيب صدره، والرعدة التي لم تُفارق ذراعه لأيام، تفاحة على قلبه، تلك التفاحة كانت بنتاً كاملة ونجحت في مخاتلته لسنوات وسنوات، ما سَمَّى فيها خيالَ صاحبة التفاحة، سنوات تألُّقِه كان متمحوراً حول تلك التفاحة، والشَعْرَة الطويلة، ملفوفة في المخمل ومُرَقَّدَة في صندوقٍ طويلٍ كغمدِ سيفٍ مُرَصَّعٍ بالحجارةِ الكريمة، يفتحه رجال مهيبون بلحى فاحمة وعيون تبرق ويصوغون من سواد تلك الشعرة صراط أقدارهم!

مَشَاهِد تُلازمه ويفهمها من فيلم من بطولة المُغنية البدوية (سميرة توفيق)، ما كان اسمه: (أميرة بنت العرب)؟ ربما، حين وَقَعَ الأميرُ الوسيمُ في غرام تلك الشعرة الطويلة السوداء والتي عَثَرَ عليها في الصحراء الكبيرة، وسَاقَتْه ليخرج من قبيلته ومُلْكه هائماً في البلاد باحثاً عن صاحبة الشعرة!

فَكَّرَ ناصر أن كلَّ أبناء جيله كانوا (أمير العرب) ذاك، وقادرين على عشق شعرةٍ بلا اسم، لأن الاسم هو المرأة (هو الشرف، هو الذات)، ومُجَرَّد اسمٍ قد يقتلهم عشقاً. يَذكرُ رحلاتَ أمه للبحث عن عروسٍ لأخيه الأكبر، كلُّ الأسرة ساهمت في تلك الهجمات التي تُنظمها على بيوتٍ تبلغها أخبارُ بناتها، يذكر تلك الإفريقية (الحاجة حوًّا) التي كانت تدخل البيوت لتُعِين في غسلِ الثياب وكيِّها، يذكر أنها كانت ترجع بأوصافٍ (بنت المُخَرِّج ضفيرتها جذع نخلة للكاحل، بنت العسيري ملفوفة كغصن

بان وصدرها رُمّان بلدي، والزهرانية عيناها ذابلتان ذبّاحة، والغامدية مرجرجة كزئبق يا حظ طاويها) تُسرِّبُ الملامحَ المُحَرَّمَة. وفي تلك المَرَّة رَجعتْ وفقط باسم، نَفَخَت الاسمَ كمن يَنْفثُ روحاً بروح أخيه: (سلمى)، وهوى! يذّكر الزوبعة التي أثارها أخوه بذاك الاسم: كما أبونا آدم الذي أخرجنا من نفحة الأسماء بظهره، أقام أخوه على الاسم سلمى (صنماً) من أبدع صدور ممثلات السينما وأفدح تنهدات أم كلثوم وخطيفات مسرحيات فيروز، وسَاقَ مَهرَها عشرين ألف ريال ورَشْرَش ذَهَب ومَرَشَّاتِ وَرْدٍ ومِسْكٍ وعنبر وطقم زينة بظلال للعين فاقعة الزرقة وحمرة للخدود والشفاه دموية، وأثث ذلك الديوان الفخم ببساتين قَرْوَة بالطائف، حيث يعمل مُشرفاً على بساتين البوقرية، حتى التقى عفريته (سلمى) ليلة العرس، وسقط في الوحشة!

يذكر ناصر أن أخاه قد أصابته من ذلك العرس لوثة. سَحَبَ قُرْعَتَه من الأسماءِ ثلاث مراتٍ وفي كلِّ مَرَّةٍ خَرَجَ في ديوانه (العفريت)، أو مجرد امرأة (بلا ملح) كما يصفهن، حتى استقر على الرابعة: خادمته الفلبينية! وفي كلِّ مَرَّة كان ناصر يحيا على الفُتَات الذي يلتقطه من الأسماء والصفات الواقعة من أحلام أخيه (كما يستولي عليه الآن الفتاتُ من بقايا ديفيد في رسائل عائشة) التي قشعتْ كلَّ أوهام مراهقته واحتلَّتْه بنساءٍ مثل عائشة، القادرة بالكلمات على الاختراق، والرغبة وتوصيلها..

« أنتَ يا ناصر سرقتَ ذراعاً تتعبَّدها من ذلك اللحم المباح..»

ناحت كلابٌ في البعيد، فَكَّر المُحَقِّق ناصر أن على البلدية أن ترجع لصيد الكلاب بمسحوق الزجاج تدسُّه في اللحم، لترجع جثثُ الكلاب التي كانت تملأ الأفق بالعفونة. غاص ناصر بيده لصدره، مُتحسِّساً قلبَه الذي لم يُواجهه من قبل، أخرجه في الهواء، واكتشف من تلك الشروخ التي تُغطيه أن بجوفه فراغاً مثل قفص، لعاشقةٍ كعائشة أو لطيرٍ كعَزَّة، وأن قلبه ما زال يدق وقادراً على أن يُحب قدمي عَزَّة الحافيتين على الدرجات المؤدية

للسطح، وحين تسترق الخطو في نومها خارجة لمُشبَّب، وحين تدسُّ أصابعَ قدميها في رمل بستانه، وحتى حين يخشع مُشَبَّب ليُلثم أطراف تلك الأصابع، أدركَ ناصر أن كلَّ أولئك الذين مرُّوا بها قد تركوا بقلبه شروخاً تتنفس منها، علَّموه كيف يَتَفَوَّق عليهم في مغازلتها، وأنه لو عَثَرَ على أيٍّ منهما ووقعت في قفصه فلن يرحمها، سيُجَوِّعها لتأكل من لحمه الحي، ويستجوب ويعصر كيانها كأنثى، وأنه سيبدأ بتمزيق كل تلك الأوراق التي حاصرها بها يوسف والألماني، وسيغسل ضفائرَها بيديه، ويمسح بماء الكادي من وراء أُذنيها كلَّ ما قيل على لسانها، ويُسند أذنيه إلى شفتيها ليكسر صيامها، هذه التي تصفها يومياتُ يوسف كصائمة عن الكلام.

«لكنها يا ناصر بقَدْرِ نِصفِ عمركَ، أنتَ الصائم عن النساء، وتقع في حبائل قتيلة!.»

نافذة لعَزَّة

2 ديسمبر 2005:

من كاليفورنيا يوناتيد ستيت أوف أميركا دَخَلَتْ أبوالرووس درَّاجةٌ نارية...

لا بُدَّ سمعتِ هديرَ موتورها.

سجِّلي يا عَزَّة مواصفاتها:

الموديل: YAMAHA مستورد 2006.

اللون أحمر فيرنيه.

الرخصة: Florida

01/06143234

94624B

صاحبها: مُشَبِّب عتيق آل نائب.

لأمر: الشيخ خالد الصبيخان، بموجب إحياء جلسات طرب.

فَرِحَ بها مُشَـبَّب كطفل، يقول سيقطع بها داخل مكة، وخارج أبوالرووس.

لم يصدق المُحَقِّق ناصر عينيه حين رأى ذلك الاسم (خالد الصبيخان)! أحاطه بدوائر حمراء، وأكمل القراءة:

مُشـبِّب هذا منصة لإطلاق الصواريخ، نَقَلَني من العصر اليدوي لعصر الزيت حين أورثني درّاجتَه النارية..
«الحياة بنزين احرقْه أو يحرقكَ.» تستجيبُ يدي للفكرة تضخُّ دفعةً من البنزين لـمُحَرِّك الدرّاجة النارية، أشقُّ كسهمٍ صاخبٍ في الطريق الدائري المحيط بمكة، راجعاً من حي إجياد للستين، قاصداً لقلب التجمعات البشرية حيث أعرضُ شعارَ ستار بَك. لا تسخري مني يا عَزَّة أنا غير قابل للمسخ وإن حملتُ ذلك الشعار المشكوك فيه على ظهر قميصي الأخضر. مندوباً لشركة الإعلان التي استأجرتْني بضَمَان عملي على دراجة مُشَبِّب.
أُلقي بالشِعَار خلف ظهري، لن نُبَدِّد بنزيناً بالنظر للخلف، أما أنتِ فمعي، يُشير إليكِ عَدَّادُ السرعة (إتجاه عَزَّة)، أنتِ وجهتي التي سعيتُ (ساذجاً) بدراستي للتاريخ لوصولها.
نعم، هذه الدراجة الناريَّة هي أنا الحقيقي.
نافذاً في أنفاقٍ تفتحُ على أنفاقٍ مشقوقةٍ بمكة،
أبدأ بالأبراج تُحَوِّطني بزجاجها وحديدها، أخترق في صلب، لكن وبالضغطة القصوى على دواسة البنزين سرعان ما تبدأ الأبراج بالتَّنَسُّلِ والتَّقَشُّر عن جلد المدينة لتُسفر عن اللبِّ الغائب.
يا عَزَّة احرقي كلَّ صبركِ، ونَافحيني في هذا التسارع،
ألا تشعرين بخفقتي لأول مَرَّة مذ وُلِدتُ؟ لا ينقصني إلا أن أَمَسَّكِ في هذا الهواء المنجرف حولي لأتبدد بكِ.

من عائشة / رسالة 24:

يا ^،
أرسمتَني حقاً من الذاكرة؟!!!!
حتى مرآتي لم تخبرني بهذا الوجه.

والشفتان، يا الله، فضيحة. وأنفي الذي يأنفني.
لا تجعل وجهي بهذه الانفتاح. عندها لن تعرف ملامحي أين تختبئ منكَ.
بوسعي قراءة أصفر التفاتةٍ لكَ في الصور التي تبعثها، صرتُ أقرأ رائحةَ مزاجكَ.
لكَ رائحتي الآن.
لا تحتاج أن تنطق، مثل بيركن، لا يحتاج أن يعترف بحسيِّته المفرطة، بسواده، يكفي أن يَنْفَذَ بتلك النظرة العميقة لفزع أورسولا لأعي (بحاسةٍ جديدة بجوفي) ما سيقول، وكيف سيَنْقُضُ المَشْهَدَ.
أعتقد أن مهمَّتَكَ، كما بيركن، ليس العشق والارتباط بأورسولا وإنما اختبار ما هو قادر عليه، من الانمحاء في الآخر، الذي لن يفهمه بالكلمات وإنما باللمسة، التي يحرص ألا يستعجلها أو يحرقها الجنس، لا، الجنس يلتهم حفناتٍ من الباطن، ويَتَجَنَّب تلك المواطن المشتاقة لتقول، لا يُعبِّر عنها تماماً أو يتركها تعبِّر عن ذاتها، وإنما المَسُّ، القطفات التي مثل فراش على حواف الحواف حيث لا يخطر لك أن يختبئ عَصَب.
قد يستسلم بيركن للرغبة، قد يكون بكامله رغبة، وتَجْرِفُ، لكن تظلُّ تلك (اللارغبة)، ذاك الجوع للتَّوَحُّد الـمُتَجَاوِز للحسيَّة، يظلُّ مثل فراشةٍ رقيقةٍ تَرِفُّ على طرف روحه، بلا وعي، وبلا نظرةٍ للوراء تَمَسُّها، تفرك جناحيها بخفة، وتترك على الروح بقايا من زغب جناحيها، وتحمل من حبوب الطلع صبغة.

مُرْفَق 1:
جميلة مغطاة من الرأس للقدم في شرشفٍ أحمر، الرجلان حولها: عن اليسار أبوها. عن اليمين: المأذون.
التقطها معاذ. لم أُطْلِعْ عليها عَزَّة. خفتُ.

مرفق 2:
بعد تَرَدُّدٍ بعثتُ لكَ بصورةٍ كُلية للعجوز معتوقة أم النزَّاح.
كما ترى الفراش كسفينة نوح، يحمل كلَّ حياةٍ معتوقة: الخِرَقُ المتكوِّمة

طولياً تحتلُّ نصفَ الفراش (زَاحَمَتْها حتى اعْوَجَّ هيكلُها) تُخفي كسرات خُبزٍ للمجاعات التي ستأتي، يظهر طرفها، وتُخفي كيس نايلون بقلم حاجبيها ومكحلتها الفضة المنقوشة بالـمِرْوَد يُوَلِّدُ بكتيريا من زمن نوح. وتحت قدميها بقايا ثياب الزوج الذي غاب، مُعَتَّقَة بدهون ذبائح، وتحت الوسادة التي تكسرُ عُنقَها طبقُ نحاسٍ من أيام عرسها، وحذاء من جلد الإبل تَقَطَّعتْ سيورُه، ومسبحة من خشب الصندل هدية النزَّاح من مدينة الحبيب المصطفى... وعن يسارها كيس لُبان بنكهة الفراولة يَنْخَره الزَّنَخ، وخلفه علبة أسطوانية لبقايا برنقل بالشَّطة والجبنة... ولا أعرف ماذا أيضاً. لكنها متأهبة ما إن ينفخ عزرائيلُ بوقه حتى تُبْحِر.

مَعَاذ، ابن الإمام داوود، وعشوائياً اختلسَ لها هذه الصورة. يقول يلمُّ أزهارَ ثوبها الشالكي، بالزهرة الفوشيا العملاقة على صدرها، وتلك البرتقالية والحمراء مسكوبة في حوضها.

أُفكِّرُ: بمَ تحلم هذه المرأة التسعينية؟ على العتبة الأخيرة للحياة كيف تبدو لنا الأحلام؟ أتعتني بنا؟ أترى لنا مَشَاهِدَ إضافية؟ أتُبَدِّل الحياةُ مَوَاقعَها فتصير للأمام لا للخلف ولا للآن، أَنُفَكِّرُ أن جَمَالَنا لا يزال بانتظارنا وراء تلك العتبة؟ في أي عُمْرٍ تنسحب أجسادُنا وتَكُفُّ عن الحلم؟ متى تبدأ أعيننا النظر لما وراء تلك العتبة؟

يَتَوَسَّع مَفْرَقُ شَعْر معتوقة ولا تغزوه ولا شعرة سوداء، إرادةُ الحياة تكمن في شَعْر المرأة، لا تموت تلك التي تُرَطِّبه كلَّ صباحٍ بزيت جوز الهند وتَضفره في جديلتين تلفهما حول رأسها كتاج.

ملحوظة 1:

أول ما أفقتُ بعد الحادث بَدَتْ لي كل الحياة (لحظة)، وفَاتَتْني. لأن أطرافي لم تُجاوبني، ولأن مرآةً لم تُواجهني.

لأيامٍ تَجَنَّبتُ النظرَ في عيونهم، كنتُ في يقينٍ أنني في مكانٍ آخر، وتَنْتظرُني حياةٌ أُخرى، لا تموت.

حين كانت الممرضة تُعَرِّي طَرَفاً لتغسله بمنشفتها الساخنة بالمُعَقِّمات، لم

أعبأ بستره، لأن جسدي الذي يخجل هناك، في نقطةٍ فوق الرؤوس، وينظر إلى نقطةٍ أبعد، مهما مددتُ عنقي لم أبلغ تلك النقطة التي تجيء بعد الموت.

من قال لم أمت؟ للآن كلما أغمضتُ عيني رُفِعَتْ لتلك النقطة التي فوق الألم، وفوق البَشَر.

من قال: ماتوا؟

أخضعوني لعلاجٍ نفسي، تَبَرَّعَ ذاك الطبيب الذي يتحدَّث العربية بلكنة مصرية أن يؤهلني لحمل يُتمي.

أكَّدَ أن مُضَادات الاكتئاب كفيلة بأن تُهْبِط روحي من الفراغ، وتجعلها تتجرَّع موتهم كل صباح وقبل النوم كعصير قَصَب.

عيني تُزعجه. بيننا زجاج نظارتيه، وإطارهما الغليظ الأخضر، يجعل كلَّ نظراته مُؤَطَّرَة.

أسلمتُه وفقط تلك الفقاعة من رأسي. ينقعها ويُنَشِّيها ويكويها ويطويها ليرى إن كانت لا تزال تتجعَّد، ليُعيد صقلها بمهدئاته.

بينما الخَزْنَة المركزية براسي لا تزال في الهواء لا يُفجرها ديناميت، وتَتَرَفَّع عن كلِّ تلك الأسئلة التي تُحاول أن تخترقَ أرقامَ قُفلها السرِّي.

«تشعرين بفقد؟» « تريدين التعبير عن ألمكِ؟» هل يُضيف موتاك للتسخين الحراري للغلاف الجوي؟

تتكوم أسئلتُه مثل صفحة الأبراج الصينية، أو اختبارات الشخصية، في المجلات النسائية.

اجتزتُ كلَّ تلك الاختبارات بدون تسليم رقمٍ من أرقام الخَزْنَة.

فور عودتي من بون دسستُ الخزنةَ تحت سريري. وتَجَنَّبتُ الحُجرةَ في الطابق العلوي التي لا يزالون ينامون فيها،

بجوف الليل أسمعُ أحلامهم،

مرة أيقظني أحدُهم من كابوسٍ،

ومَرَّة وَقَفَ أبي على الباب، يرقبني في نومي، قال:

«لا تَنْسَي ضعي حارس الليل!» يعرف بهذا القالب البلاستيكي الذي أُحكِمُه حول أسناني العليا ليمنعها من الطحن والصرير طوال الليل.

ملحوظة 2:

عزة تنام بساقيها مشرعتين على الأقصى...

أجدُ ذلك مُرْبِكاً..

هل تحلم بامرأة كهذه في فراشك ؟

ملحوظة 3:

أذكرُ الليالي الأولى بعد أن هجرني أحمد،

تلك الليلة، وفي جوف نومي شعرتُ بأبي يقف على باب مسروقتي ويرقب نومي، مرة بمنتصف الليل ورجع مرة مع الفجر،

ليجدني لم أُبدِّل رقدتي:

منبسطة على ظهري في وضعية صلاة، بضفيرتيَّ عن يمين وشمال، لم تتعكَّر رقدتها على صدري لساعاتٍ،

هَزَّني بعنف خوفاً من أن أكون مت.

هل تظنُّ عزةَ امتصَّتْ كلَّ حيوياتي لتُحقِّق تلك الانفتاحة؟

أتسمع أغنية محمد عبده من المقهى؟ «حُطِّني في آخر مداي..»

أرتعد للمدى الذي فَتَحتَه فيَّ..

التوقيع: عائشة.

اعتذار لعَزَّة

6 أبريل 2006:

كم مضى على الياماها لم تنم؟؟

تلك الليلة كانت (ياماها) هي التي انعطفت بخِفَّةٍ مُتفادية الحافلةَ التي خرجت عن مسارها فجأة، ردُّ الفعلِ السريعُ للدَّرَّاجة هو ما أحبطَ هجمةَ الحافلة التي لم تنجح إلا في لعق الصدَّام الخلفي، لكن تلك اللعقة كانت كفيلة بانزلاق (ياماها) بطول طلعة الشامية. الأنوار التي اندفعت صوبي لم

تترك لي فرصة الشعور بنهش الإسفلت لساقيّ.
كل وعيي انصبَّ على تآكل الحديد ونزف البنزين، حين تحوَّلت الأنوارُ إلى نورٍ قوي مُسَلَّطٍ على رأسي أفقتُ لأجد نفسي في حجرة العمليات، ثم في عنبر المرضى الطويل كحافلة.
«تحت التجريب وغير مُلْحَق ببرامج التأمين التي نُوَفِّرها لموظفينا» بذلك تَنَصَّلتْ شركةُ الإعلان لأرقد للعلاج المجاني في مستشفى النور.
رُكبتي انفرطتْ، واضطروا لنظم غضاريفها داخل طاستها..
لا تبكي يا عَزَّة.
نقلتْ لي أمي حليمة قماشتَكِ التي اختلط فيها الفحم بالطباشير، وفي بللها كَلِمَتُكِ بالأمر: ابْقَ حيّاً...
ونقلتْ قولكِ: لا أمل.
واعتزالكِ.
أتشعرين حقاً بالغضب؟
أتذكرين يوم كنا نحاول تخليص تلك الجِراء السوداء من سطح تلك الخَرَابَة؟ حين سقط بنا جدارها، وكُسِرَت رجلي، بينما وقعتِ كقطَّةٍ بتلك الخدوش على الساقين.. يومها انهلتِ عليَّ بالضرب حين رجعوا بي في جبيرةِ الخشب.
وقاطعتِني لأيام.
فعرفتُ أنكِ نَظْرَةٌ لا تحطُّ إلا لتطير. (تبترين العضو العاطب).
تخلعين كلَّ ما يُثقل حركتكِ.
هذه المرَّة بدَّلوا لي ركبتي المهشمة بركبة معدن، دَفع مُشبِّب ثمنها عشرين ألف، لإتمام الجراحة المجانية. لا أفهم لماذا يستثمر في نحسي بهذا التصميم! ولماذا لم ينفخ طلاسمه على ركبتي لتنبني؟
يبدو أنني سأُطيلُ الرقدةَ هنا، حتى تستنفذين غضبكِ.
أَعِدُكِ بألا أكون ثقيلاً، وأن أستأنف نظريةَ الاختراق فور خروجي من المستشفى (كما ترين أُعاود التحوّل تدريجياً إلى معدن: ابتداءً بالرُّكبة.)
هأنذا أتخلص من أطرافي كالأجساد التي ترسمينها، لأفر من إطار اللوحة.

معظم نسوة مكة تتآكل غضاريف ركهبن من جلسة غاندي متربعات على الأرض، وكلهن يستبدلن ركبهن بأخرى معدنية، الجنس المؤنث يُسَابق للتحوُّل إلى حديد.. مثلي، أتراني أُبدِّل جنسي أنا أيضاً؟ دعيني أهذي.. لا تغضبي...

سَجَّل المُحَقِّق ناصر: (يوسف يعرج).

من عائشة / رسالة 25:

(يقول بيركن: «لابأس بالموت.»

«ومع ذلك لا تريد أن تموت.» قالتها أورسولا مُتَحَدِّية.

استمر صامتاً لفترة، ثم قال بصوت أرعبها بانقلابه،

«أريد أن أنتهي من الموت، من إجراءات الموت.»

«ولِمْ تفعل بعد؟» سألته بتوتر. سارا معاً بصمت تحت الأشجار، ثم قال ببطء كما لوكان خائفاً:

«هناك حياة تنتمي للموت، وهناك حياة ليست هي الموت. الواحد منا تَعِبَ من الحياة التي تنتمي للموت، وهي نوع الحياة التي نحياها. الله العَالِم إن كانت انتهت. أريد الحُبَّ الذي مثل النوم، مثل أن تولد من جديد، هَشّاً كطفلٍ وُلِدَ للتو في هذا العالم.»

«لِمَ على الحُبِّ أن يكون كالنوم؟» سألتْ بحزنٍ.

«لا أعرف. ربما ليكون مثل الموت. أريد فعلاً أن أموت من هذه الحياة ـ لما هو أكثر من الحياة ذاتها.») العاشقات ص 208.

يا ^،

بمزاج الموت أقرأ جريمةَ العاشقات على السطح مكشوفات للسماء، يلتقط أبوالرووس رائحةَ المرأةِ في حالة حُبٍّ، وهذا الزغب على مؤخر عنق أورسولا، يقف توقاً، وعلى لسان ذاك العازف الذي فَتَحَ فمَه ليُغني.

بقراءتي العلنية أعرفُ أنني أتحدَّى ليس فقط والدي وإنما كل رؤوس أبوالرووس.. بما فيها رأسي..

لقد تَربّى فينا الخوف من عالم الخارج.. قد لا تُصدِّق أن المرأة التي عالجتَها ودعوتَها لم تتواجدْ ورَجُلاً غريباً في غرفة واحدة قط، ولم تَسِرْ في طريقٍ وحدها، ولم تنفرد بذاتها قط، لم تغادر فقاعة الخوف لتعرف ما هي قادرة عليه..

أكبر مخاوفي أن أفيق بلا عنوان.. وأن أركب ولا انتهي لأبوالرووس..

انتَ أول (عنوانٍ خارج العنوان) أتوقُ إليه.

لذا كان من المستحيل أن أموت في بون، رغم بلوغي حافة الموت أكثر من مرة حين كَفَّت رئتاي عن العمل...

سيظل الانتقالُ يرتبط بذاكرتي بمُكَعَّبٍ أصفر محشو بسواد، أبوسعكَ تخمين ما هذا المكعب؟ (المكان: معهد إعداد المُعَلِّمَات خارج أبوالرووس. الزمان: 1985.)

أضعُ المكعبَ أمامَكَ، واحذرْ: ما هو؟

يُغْلِقُ الحارسُ بابَ معهدنا بسلسلةٍ وقُفْلٍ، وخلف الباب،

نحن بنات المعهد ماعز غارقة في الحَرِّ وروائح البلوغ.

وعلى عجلٍ نستَعِدُّ:

بأسود ثقيل: عباءة.

وأسود شَفَّاف: طرحة! نرتدي عباءاتنا، ونُرخي على وجوهنا الطُّرَحَ، طبقة، اثنتان، ثلاث، أربع.. نتفاخر بتحطيم الرقم القياسي لعدد الطبقات بدون أن نتعثَّر.

نحتشد وننعجن، لا يفصل بين العباءة والأخرى شعرة، وتُخْتَصَرُ كميةُ الهواء المندفع لرئاتنا.

ينشَقّ البابُ، ويكُبُّنا: لا نلوي على شيء،

لا تعرف أين انتهتْ عباءتُكَ وحَلَّتْ طَرْحَةُ رفيقتكَ، محمولاً بين البابين (الحافلة والمعهد)، ما يبينُ منك في الحافلة يُشَهِّرُ بكَ غداً في طوابير الصباح.

على باب الحافلة تحتاج أن تكون بهلواناً على رأس الهجمة لتظفر بمقعد.

الأنفاس ممنوع، الكلام ممنوع، ضحكات لا يوجد = نقل تعليم البنات.
الأغلبية وقوفاً،
جالساً تحتملُ الأجسادَ تنحشرُ أمامك بَدلاً عن قدميك، يطقطق حديدُ الهيكل.
تستحيل الحافلةُ لكتلةٍ سوادٍ، ببياضٍ وحيدٍ: ثوب السائق.
والأحمر: قلمُ المراقبة، تُعد قوائم بالمكشوفات (أو المُتكشفات).
لم أذكر قط أن سَقَطَتْ عن رأسي عباءة!
اسمي لا يَرِد إلا في طوابير الصباح، البند: التدافع، والكلام.
لا أعرفُ كيف بوسع أي مُرَاقِبَةٍ أن تتبعَ النظرةَ وَقَعَتْ أم لم تقع على (جنسٍ آخر)، وبمنتهى السهولة.
نَقْلٌ مَجّاني يمسح شوارعَ مكة والطالبات.
إلى أن تُقْبِل على أبوالرووس وتبدأ كتلة السواد بالتقلص.
أنت لا تعرف أولادَ أبوالرووس. كل ظهيرة لا يَمَلّون، يقفون على فوهة الزقاق بانتظار الحافلة.
انظرْ: هذه النقرة على قِمّةِ أنفي أَحْدَثَها حَجَرٌ قَذَفَه صغيرٌ صَوبَ كتلتنا بلا تمييز.
لا يأمل أن تهبط عليه بحورية، ولكن، وربما، وفقط، للمس وجهٍ من تلك الكتلة، وجه كلِّ البنات.
وإنْ بحجرٍ.

ملحوظة 1:
تخيَّلْ النقلةَ التي تَمّتْ لي:(من أربع طبقاتٍ للطرحةِ لقميصٍ مستشفاكم ببون).

ملحوظة 2:
أسجِّلتَ بأنني الأقرب لأورسولا؟ فما الذي تفعله جواربُ جودرون على ساقي؟!!

مُرْفَقَات سِرية:
صورة لمثلثات سوداء (بنات الإمام داوود يتدافعن على بابهن لاستراق نظرة لتلفزيون المقهى)

مرفق:
صوتُ قُمرية (بنغمةٍ منعزلةٍ، بينما تضطرب الطيور بانشقاق النور المُبَاغِت).
اخترقتْ لوسادتي فرحة هذه القمرية فبكيتُ.
عقب صلاة الفجر أتركُ للطيور أن تُسَبِّح على جسدي،
صوت الشفاء الذي يغوص عميقاً بالدماغ.

التوقيع: عائشة.

لَفَتَ نظرَ المُحَقِّق ناصر الموتُ (كولادة جديدة) في ذلك المَقْطَع من العاشقات. يُحلِّل ناصر مَقَاطِعَ الموت التي تنتقيها عائشة لرسائلها، وتلك الجذوع المقطوعة التي تتكاثر في يوميات يوسف، تَسَاءَلَ أي نوعٍ من الشذوذ الذي يَتَلَبَّس يوسف؟ استرجع المُحَقِّق ناصر عبارةَ يوسف في يومياته، والتي تَكَرَّرت في عددٍ من الصفحات كصرخةِ استغاثةٍ:

12 ديسمبر 2005:
أعرفُ النساءَ في الكتب، وتعرفني النساءُ في الأحلام، أَبلُغُ معهنَّ ذُرى لم يعرفها جسدي في اليقظة، لأنني جبان، ولأنني أحرص على أن أكون في الأبيض لا أخرج ولا أخلطه بسواد.
وكل صباحٍ أُفيقُ من كل خيالات النساء بذعرٍ: أنني شاذ، لا أتلذَّذُ بامرأةٍ ما لم أكتبها، لا أتلذذ بذاتي ما لم أكتبها! لا تلذُّ لي أُم القُرَى إلا في نافذة بجريدة تُعْدَمُ يوماً بيومٍ.

ذاك اليوم شعر ناصر بيوسف يستحوذ عليه بسوداوية ما يجري

برؤوس النساء مثل عَزَّة وعائشة، رؤوس مُبَطَّنَة بعباءةٍ أشد قتامة. بشكلٍ أو بآخر تَهَيأ لمأساةٍ.

نصف قمر حنَّاء

لا أدَّعي ـ أنا أبوالرووس العَلَقَة الصحراوية ـ بكوني غير معتاد على الخمس وأربعين وخمسين درجة حرارة مئوية، القيظ حشيشتي المُفَضَّلَة، لكن، من يُصَدِّق أن حواسي الخرافية قد بدأت تخونني مؤخراً؟ أعبُّ الزفرَ والعَرَق وأغمض عيني بقوة لأغفو ويزعجني طنينُ فضول ناصر هذا، يقف على طرف الطريق يتحاور وحليمة على سطحها ترقب كل نزاواتي وتُحرجني. عَبْرَ فرجة الباب ناولتْه دَلَّةَ قهوتها العربية والفنجان على هيئة زنبقة، وحفنةَ التمر التي دسَّتها براحته،

«يا الله، لم أذق مثل هذه القهوة مذ هجرتْنا عَمَّتي عطرة..» تَوَسَّعت ابتسامةُ عينيها، تُرَكِّبُ المقاديرَ وتجتهد وفقط لتتلقَّى مثل هذه التنهيدة كلما تَلَذَّذَ بقهوتها غريبٌ. يُطِلُّ وجه حليمة مُحَوَّطاً بشيلة طرحتها التي تتصالب على صدرها، تترك مفرقها مكشوفاً وتُعَزِّز ضحكة عينيها. وجه ندي يُسالم الدنيا، لا يتغضن بالقلق الذي يتصاعد مؤخراً، بتوقّع أن يدخل عليها الشيخ مزاحم بأمر الإخلاء.. نصفُ قمر الحِنَّاء على راحتها يروح ويجيء مع كلِّ كلمةٍ تُعزِّزها بتلويحة. يُساور ناصرَ الشَكُّ فيما إذا كانت تلتقي يوسف خلسة؟! مشمولاً بأمومة ذلك الوجه في وقفته بالطريق يَتَسمَّع ناصر لحليمة متلقطاً أي خيط يقود إلى يوسف،

«أبي القادم من واحات القصيم، تَحَضَّرَ فكان يجلس في دَكَّةٍ بالزقاق، في فوطته المُقَلَّمَة، كأهل جاوة المقيمين بمكة، وحتى لهجته صارت مكية...» بأسنان صغيرة التهمت نصفَ تمرة، واحتفظت بالنصف بقلب راحتها، رَمَت بنَوَاةِ تمرتها الغرابَ على طرف الزير، طار ورجع

على كتف عسكر الحجر يرقبها، تُلَمِّع سماور شايها بمسحوق فَخَّار وتلمع غشاواتي في ذلك المسحوق، وتنساب من ضحكتها الحكايات،

«هذا البيت كان يعود لأبي وبَاعَه لمزاحم حين ضرب القحط بساتيننا بوادي فاطمة. . القروش لأبي بِرُخص التراب، استعمل المال والبيت لبناء رجال جاءوه معدمين. . أبي آوى ذلك اليمني الذي دخل علينا من عَدَن حاجًّاً، ووَظَّفَه في تجارة التمر الذي كان يقطفه من بساتين وادي فاطمة، وآجَرَه بأن زَوَّجَني إياه كما فعل يعقوب بموسى، مسحوراً لا بأمانته وإنما بدعواه. . قال: ينتسب لعائلة مكية. .» وأشارت بيدها لفوق، «احتفظوا باسمها سراً حتى يثبتونه.» من جلسته الأبدية بحانوته أنصتَ الشيخ مُزاحم للحوار، يتدخل حيناً ويتراجع فلا يُسفر عن خصومته لتلك الحكاية، قال:

«لا مكي ولايحزنون، زوجها، حمانا الله، من نسل سليمان وبلقيس، رَبَّاه خُدَّامُهما من الجِنّ بأرض اليمن السعيدة تلك. . ولقد حلت به لعنة جرأته على هبوط مكة ومحاولة الانتساب لخُدَّامها. .» لم تعبأ حليمة بالسخرية منتشية بحكايتها،

«أنا أخذتُ اليمني المليح عشقاً وما هَمَّتني أنسابه، وَلَّعَتْني الكهرباء يُرَجِّفها بقلبي بكل نظرة. لكن ما تهنينا، لاحقه المُسنّون بأبوالرووس ساخرين من دعاواه، قالوا إنه قد مَرَّ عبر التاريخ يهود ونصارى وكَفَرة متظاهرين بالإسلام للتجسس على بيت الله، لكنهم لعنوا وبُدِّدوا لجرأتهم تلك.» نَفَخ الشيخ مزاحم ساخراً:

«النساء بأحلام عصافير!!»

«لكن أبي تَبَنَّى هذا اليمني، وقَدَّمَه للقرشي وابن نائب الحرم، من حفظة الأنساب بمكة، واللذان عَرَّفَا فيه الدم العريق والملامح، وأبدى الاثنان استعدادهما للشهادة على نسبه، وخصوصاً حين سمعا رواية زوجي عن وَحْمَة القمر على كفّ أمه.» بلوعةٍ تأملت في نصف قمر الحنّاء على راحة يديها، والذي يتحدَّى كل منطقية الزقاق وتواريخه، «قال يُذكِّره نقش

الحناء هذا بالقمر على راحة أمه.» عارضةً راحتَها لناصر، متجاهلةً نفخةَ سخرية مزاحم، «ما فَهِمتُه أن زوجي كان مُتحدِّراً من خُدَّام مكة المنقطعين لخدمتها، والذين رحلوا لليمن وراء المفتاح.»

«أي مفتاح؟!»

«جاء برسمٍ لأقدم مفاتيح الكعبة، يقولون إنه قد سُرق في تاريخ مكة على يد حاجّ فارسي فر به إلى اليمن، ليرحل بحثاً عنه عبر التاريخ أخلصُ خُدَّام مكة ومنهم آل شيبة، حيث سَرَقَهم اليمنُ السعيد فتزوجوا وأنجبوا، ولم يرجعوا.»

«لكن، لماذا ذاك المفتاح بالذات؟!»

«أنا لم أفهم حقيقة كل ذلك، لكنهم آمنوا بأنه المفتاح الأعظم، يعلم الله، الموصوف في كتب بني شيبة بأنه الفاتح لكل باب.. ولا تسألني كيف: خلال التاريخ تغيَّرت أبواب الكعبة، لكن ذلك المفتاح كان المُبَارَك ليفتحها جميعاً! وعلى الفور عَرَفَ المؤرخون ذلك المفتاح في الرسم الذي وَرِثَه زوجي عن جَدِّه الذي وَرِثَه أباً عن جَدٍّ عن الجدِّ الأكبر لآل شيبة!»

«لكن ما علاقة زوجكِ اليمني بذاك المفتاح.»

«كانت رسالة تَوَارَثَها خُدَّامُ مكة، يُكَرِّسون أولادهم للعثور على المفتاح المفقود وإرجاعه لمكة. أخبرني زوجي بأن والده من الخُدَّام، أوصاه بالعودة لمكة، حيث يُثبت نسبه ويرحل وراء المفتاح، هذا المفتاح الذي يؤمنون بأنه قد وصل إلى الأندلس، زيَّفَه أو حمله رَحَّالة أندلسي قديم، كان قد رحل بطول الأرض من الأندلس لقرية سليمان باليمن، وهناك كانت الزلزلة التي دمَّرت القرية كاملة ولم تترك غير أبوابها، حَمَلَ الرحَّالة كل تلك الأبواب ورحل بها راجعاً للأندلس، ويقولون بتقليده لأختام سليمان المنقوشة على أقفالها تَوَصَّل الرحَّالة للمفتاح الذي يفتحها جميعاً، والذي هو صورة طبق الأصل عن المفتاح الأعظم.» تنحنح الشيخ مزاحم،

«رأس المرأة طافح بأوهام زوجها، هؤلاء اليُمَنى يجلبون معهم ساعة سليمان، مع الغروب يمضغون القات ويهلوسون بالمفتاح الذي يفتح كل الأبواب بما في ذلك الأبواب بين الجن والإِنس. .» أعترفُ، يُسلّيني تخبطُهم في دوائر هكذا، ويهيجون الحر في زوايا رؤوسي المُهْمَلَة،

«زوجي لم يهبط مكة ليغرس جذوره ويُقيم، زوجي جاء بوسواس المفتاح الذي حفره أبوه في رأسه، وجعل العثورَ عليه غاية لنسله من بعده. لكن زوجي قُتِلَ فجأة قبل ظهوره أمام القاضي لتحقيق نَسَبِه. وفي نفس اليوم رَكَل يوسف ببطني مُعْلِنَاً وجودَه، سمَّيتُه يوسف على اسم أبيه، أشدّه بحِبال الولد للحياة!»

«بِمَن تشتبهين بقتله؟ أبوالرووس؟»

«ادَّعوا بأنهم قد شهدوا جثتَه تأكلها الكلابُ السَّعْرَانة، لكن موته لم يثبت لنا، لم نعثر له على جثة نبكيها أو ندفنها. .» شاعت الحسرة بصوتها.

«لكنكِ تعتقدين أنه ما زال حياً؟» بعد تَرَدُّدٍ اضطرَّت لمصارحته،

«لكن في أرض الله الواسعة، لم أشعر به ميتاً قط. . الرجال الممسوسون لا يموتون، يبتلعهم مَسُّهم. .» الاستنكار في عين ناصر دَفَعَها للاسترسال،

«في الليلة التي اختفى فيها كنا نتشارك نفس الفراش. . صحوتُ على أحلك ظلمة، وكانت إشاعات تروج عن سفن قراصنة بُرتغال يجوبون البحر الأحمر، ورأى زوجي في ذلك إشارة له بضرورة رحيله وراء المفتاح، مُتَعَلِّقاً بالإشاعات عن رجال اختطفهم القراصنة للعمل على تلك السفينة. .» سَعَل الشيخُ مزاحم، نَثَرَ حولَهم دائرةً من رذاذ الهال والقهوة الحامضة،

«تعرف يا سيدي المحقق، أوهام أهل مكة من صلابة جبالها، يؤلفون الأهوال من غزو أسطول البرتغال لشواطئ مكة وجدة سنة

948هـ. . البرتغال جاءوا بـ 85 سفينة حربية، وهبطوا بميناء أبو الدوائر قريباً من جدة، وتَصَدَّى لهم الشريفُ محمد أبو نَمَا، خيرة بني بركات، حشد أهل مكة والقبائل المحيطة وردَّ الأسطول. . منذ تلك الحادثة وكلما اختفى لأهل مكة شاب قالوا اختطفته سفنُ البرتغال وشَحَنَته للأندلس، من الصعب عليهم تصديق أن في نسلهم شياطين تهجرُ جِوَارَ الحرم.»

صَحَتْ بقلب حليمة لوعة، هيَّجتْ المَشْهَد الذي تَمَّ قبل ثمانية وعشرين عاماً:

أيقظتْها الحركةُ المفاجئة في العتم، بَلَغَتْها حرارةُ جسد زوجها اللصيق، غاصاً في نوم عميق، أرادت تنبيهه لكن الخوف شلَّ حركتها، ظلَّت مستلقية على ظَهرها بعينيها مشرعتين في العتم ترقب الأشباح السوداء تملأ الحجرة حولها، وتقترب من فراشهما، وبحركةٍ خاطفة أطبقت على زوجها، أيد بلا عددٍ سَدَّتْ فمَه ودفعتْه في كيس وحملته كصُرَّة خارجاً. . . غرقت حليمة أعمق وأعمق في ذلك الكابوس حتى الفجر حين شَقَّتْ صرختُها الفجرَ وجَمَعَت الزقاق. . أيد بلا عدد امتدَّت لتهدئتها، وأيد كَبَحَتْها حين انفلتت للطريق تريد اللحاق بالكيس. . طلع النهار على وجوه تحيطها بشفقتها، وسرت الإشاعات شامتة بأن الملائكة قد مَزَّقت اليمني وأطعمته للكلاب عقاباً على جرأته في طلب مفتاح الكعبة. . تلك الليلة اختفى حتى رسم مفتاح الكعبة ولم يُعْثَر له على أثرٍ بعدها. .

صمتت حليمة فجأة مُرَاقِبة شاشةَ التلفزيون في المقهى بالأسفل تعرض فيديو كليب أغنية عبد المجيد عبد الله. . للمحة أغرتني سكتتُها، كدتُ أنطقُ أنا أبوالرووس وأسرد حقيقةَ ما كان تلك الليلة، لكنني تماسكتُ فلا أُسَهِّل على ناصر تجميع هلاهيل قضيته.

«لكن ما النسب الذي ادَّعاه زوجك؟!» انبعث سؤال ناصر أقرب للسخرية منه للفضول.

«أُصارحكَ، أنا لم أفهم أيَ لعنة جلبها زوجي على رأسه، أصابني رعبُ أن تلحق تلك اللعنة بولدي يوسف، تركتُ النسبَ الذي ادَّعاه زوجي مدفوناً، أذكرُ أن أبي كان يحلو له مناداة زوجي بـ الحُجُبيّ. فأعطيتُ يوسف ذلك اللقب، وحين احتاج إلى لقبٍ لتوقيع نافذته بأُم القُرى اختار الأغرب: يوسف بن عَنَق. نسبةً للعملاق التاريخي عَوَج بن عَنَق.»

تثرثر النساء فيُفقدنني صوابي، أشعر برأسي يتشظّى لشرائح فوضى، هبط الليل على أطرافي المهجورة، ولكي أُخرس حليمة جثمتُ على البيوت بكآبة أشد كثافة. راقبت حليمةُ ناصر يغادر تلك الكابة بعد أن طاف طوافه المعتاد حول بستان مُشَبَّب، انتزعت جسدَها من جلسة المُرَاقِب الأبدي وتحرَّكتْ لتشرع بطقس الخروج لجولة صبٍّ بأعراس الخميس..

كالعادة عَلَّقَتْ مرآتها على باب الحجرة لِتَتَنَوَّر بمصباح البلدية وتتزيَّن، كانت أهدابها اليسرى ترمش بينما تُمَرِّر مرود الكحل حين وفجأة شَعَرَتْ في العتم بالعين ترقبها، لم تجرؤ على الاستدارة، للحظةٍ رَوَادَها أن دورَها قد حان لتلحق بالقتيلة، وأن القاتل الخفي قد جاء في طلبها، تَجَمَّدَ الكحلُ في مآقيها، كشريطٍ سينمائي راجعتْ طقوسَ الموت: كانت قد اغتسلت ذلك العصر ورائحة صابون (أبوعَجَلَة) تفوح في شعرها المضفور في كعكةٍ بمؤخر عنقها، ولقد توضأت قبل أن تحشر جسدَها في ذلك الزيِّ الذي أرسلَه مُنَظِّمُ الحفل لكسوتها لتتواءم مع طاقمِ فريقِ الخدمة (ساتراً من العنق للقدمين، وبجناحين أبيضين من الخصر للركبتين)، فكَّرَتْ أن ليس عليها أن تقلق بهاجس الطهارة، فهي على أتمِّ الاستعداد للموت، فقط لو أن هذا الذي يَتَرَبَّصها من العتم بآخر السطح قد تَرَكَ لها فسحةً لتُصَلِّي ركعات العِشَاء الأربع وتزيد اثنتين للنَّفْلِ، لو أنه انقضَّ عليها في سجودها، رغم أن فكرة موتها كالبهيمة منبطحة على سجادة صلاتها

ستفضح كل تدويراتها لعيون الشرطة التي ستعثر على جثتها، ومع ذلك يَظَلُّ الموت في السجود أقصر طريقٍ للجنة... «يا الله حُسْنَ الختام!» الآن فقط أدركتْ حليمةُ الحكمةَ وراءَ دعوة جَدَّاتها تلك. للمحةٍ رَاوَدَ حليمة أن تتوب، لكن، وفي تلك الشعرة بين الموت والحياة لم تعرف عمَّ تتوب؟ فجأة طفا برأسها خيال (زائر العتم)، الذي كان يظهر في ليالي أبوالرووس قبل الجثة..

دفعت حليمة بذلك الخبال وركَّزت على لسانها، اللسان باب سِرِّي ينفتح تحت قدم العبد فيهوي به لقاع قاع جهنم، عبارة حَفَرَتْها جَدَّتُها برأسها. كان من المستحيل أن تتوب عن كل كلمة ساخرة أطلقتها. وبدلاً عن ذلك استرجعت كيسَ الأحذية بكعوبها الشاهقة التي رجعتْ به ذاك المساء عطيَّة المرأةِ، بالعربة التي بثمنها يمكن أن تشتري زقاقاً كاملاً كأبوالرووس،

«أدع يا خالة لخالد بن نورة.» انحنت المرأةُ هامسة على بسطة حليمة على أبواب سوق أبو داوود، حيث جلست تبيع حلوى النتف من السُّكَّر المحروق، وأشارت فتقدم سائقُها بهذا الكيس لحليمة.

ضاعت قدم حليمة الصغيرة في مقاس الـ 39 ذاك، لكنها لم تيأس مَلأتْ فراغَ كل حذاء بحشوةِ قطنٍ، تعتلي وتتبختر كطاووس للأعراس وتُعير بكَرَمٍ لبنات الزقاق.

لم تعرف من يُثْقِل روحها بتلك الأفكار العقيمة في لحظاتٍ هي أَمَسُّ ما تكون فيها للتركيز في أمر بسيط، في جملةٍ واحدة هي (الشَّهَادة).. وفجأة ومن العتم ظَهَرَ لها ذلك الشاب،

«أشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.» انفجرتْ الشهادةُ من الحوصلة بحنجرة حليمة حين مَيَّزَتْ صوتَ معاذ،

«أفزَعتَني، الله يجازيك!» ومن دون أن يُجيبها لفتت نظرها كثافةُ أهدابه، بَادَرَها:

«أمي حليمة يوسف في مكان آمن، ووَصَّاني عليكِ. .»

«ألف حمد وشكر. . عنده أكله وشُرْبه، كيف صحته؟ وكهرباء دماغه، هاجدة؟ هل ينام؟» اعتاد الزقاقُ قلقَ حليمة على نوم يوسف وكهربائه.

«ورُكْبَتُه الحديد، يدفئها؟ خذْ له زمزم مقروء، واعطْه هذه. .» مدَّتْ ثلاثة من أصابعها بين ثدييها وأخرجت نقوداً ملفوفة دَسَّتْها بيده. لَمَح هيئتها فقال يُشاكسها:

«الله يا أُمي حليمة أجنحة وكعب عالٍ!!»

«لزوم الصنعة. .»

«أعيرني واحدة أتبرقع وآتي معكِ مُعاوناً. .»

«غير مسموح دخول الأولاد. .»

«أذهبُ معكِ صبيّاً يحمل الأغراض. وفقط أنظر من الباب.»

«أنتَ ترفع الأذان وتُقيم الإقامةَ وتحفظ ثلاثة أرباع القرآن وتلقط الكحل من العين، وتريد أن تُبصبص على البنات؟!»

«للباب فقط، غرضي الفرجة على فنادق الثمانية نجوم من الداخل، ودِّي النظر إلى سماء مكة من ناطحات سحابها، ولكِ مني وعد، عيني تحت قدمي لا أرفعها إلا للسماء. .»

«الزقاق أصبح مَلْطَمْ موج، وغرَّبَنا، حتى أنتم يا أولاد إمام المسجد، لا أنتم كما أنتم ولا حالكم حال.» ركَّزَ صفاءَ عينيه وعَلَّقهما في طرف كحلتها مُتَوَسِّلاً، للمحةٍ بَدَتْ له تلك المرأة تجسيداً للحزن، بتلك العين المحفورة كقبرٍ للزوج والابن وكامل الزقاق، بوسعه أن يرقد ليموت بتلك العين وتلتئم عليه، على حافة صدرها يتراجع الحزن، ربما لوصَوَّرَ ذلك الثدي العظيم لَظَفِرَ بصورةٍ للجَنَّة الموعودة بأنهار اللبن والعسل. أَرْخَتْ البرقعَ على وجهها لم تسمح ولم تمنع، أما هو فتبعها بصمتٍ، اخترقا الزقاق بين أصوات الكلاب الضالة ولعلعة أغاني الفيديو كليب.

هو بالليل وسوداه وهي بحذاءٍ بِكَعْبٍ وبَكْلَة مُفَضَّصة مائلة للجانب، وَلَجَا لعربة خليل. سَبَقَتْها للمقعد الخلفي رائحةُ صابون زيت الزيتون. بشكلٍ آليٍّ أدار خليل مُحرِّكَ العربة مخترقاً في ليل مكة، مبتسماً بخبثٍ يبحثُ عن عبارةٍ يشرخ بها وجودَ معاذ:

«ها... جاء العُرس على كيفكَ؟» أطلقتْ حليمةُ السؤالَ الذي يكبر بأبوالرووس مذ حَضَرَتْ عُرسَه ورمزيه ابنة النزَّاح. صَدَمَه سؤالُها، يُفكِّر خليل: هذه المرأة هي رمز الاستمرار، لا تُعيقُ طقوسَ الحياةِ جثةٌ أو غياب ابنٍ أو حبيب، ها هي في كعبٍ عالٍ تستعلي وتتكحَّل خارجة للأعراس وتسأله عن عروسه!

«والله يا عمتي...» تُحذِّره بضحكتها المألوفة:

«هاااا، لا تولول..» يضحك،

«مذ قاضونا على عِمَارة الجامعة العربية لم تقع عيني على رمزية، أرسلتُها إلى بيت أبيها النزَّاح، وسكنتُ هذا التاكسي.» لصوته مزيج ارتياحٍ وحسرة بينما قَطَعَ بهما حي الزاهر:

«يا خليل لا تتركها كالبيت الوَقْف؟! لا يلعنك الله بذنبها..»

«جسدي مسحوب في فراغٍ وروحي في فضاء ثان؟ وأرجوكِ يا عَمَّتي حليمة، لا تُصَدِّعينا بسيناريو اللعن هذا، أنا رجل لا يُقْهَر.. لقد قهرتُ حتى السرطان، الأطباء في الولايات المتحدة رأوا فيَّ معجزة، كانوا قد يئسوا وقد نهش معدتي، وتفاقمت جلسات العلاج الكيماوي..» تأمَّل خليل في المرآة الأمامية شَعْرَ رأسه الذي تحوَّل إلى قش بعد المعالجة، «صَمَّمتُ على ترك عزرائيل ورائي. قاومتُه باللبن والثوم مُتمسِّكاً بالحياة كبرغوث بظهر ثور. شربتُ جَرَادل من ذلك الخليط، وفي صباحٍ أفقتُ من نومي وقد فَرَّ السرطان، تلك كانت معجزتي. إرادة الحياة تُحَوِّل حتى عصا موسى أو اللبن إلى معجزة. لكنها لا تُفلح الآن، حين تستشري عَزَّة فيَّ، مهما تَمَدَّدت رمزية كبئر ثوم، تحرق خلاياي الحميدة والخبيثة..»

كَسَت المرارةُ وجهَ خليل، الكل يعرف أن العلاج الكيماوي قد سلبَ خليلَ خصوبته، ولقد فاجأهم ببطولة سينمائية حين صارح النزّاح يوم خطبته لرمزية:

«لابنتكَ الخَيَار، إن أرادت الولد فمن الإجحاف ربطها برجل مثلي. لقد سلبني الأطباءُ هذا الخيار، وكان بوسعهم تجميد عيِّنة من حيواناتي المنوية قبل إخضاعي للعلاج الكيماوي، لمنحي فرصة الإنجاب مستقبلاً. لكنهم أخضعوني للعلاج من دون توعيتي بآثاره الجانبية..» اشتعل حشيشُ خصلاته بوهج الشمس ومنحَه لمحة طفولة، وهشاشة تستثير الحنان، كانت معجزة حين بدأ شعره ينمو بعد العلاج الكيماوي، وبدأ خليل يعامل خصلاته كطفل حي، يُدَلِّلها بالأدهان ويُدَلِّكها بالمينوكسديل ليلياً، ويحرص ما استطاع فلا يخنقها بغترة ولا شماغ، يُنفق بسخاء على هشيم القَصَب الفاحم ذاك أكثر مما يُنفق على جسده كاملاً. الجسد الذي خانه مرَّة ووَطَّن ديناصور السرطان. يومها، وواقفاً للزقاق يتسمَّع، مُوَاجِهاً لحجرة النزّاح، مضى خليل يشرح بالتفصيل فشل أطبائه في تجميد حيواناته المنوية، تفاصيل علمية واجهها النزّاح بنظرةٍ ذَكَّرَتْه بنظرةِ بقرةٍ تشربُ بسلامٍ من حفرة طين، وفاجأه مُسَالِمَاً:

«أنا أدرى بابنتي، من نحن لنفرّ من قضاء الله؟! من يدري، هل سمعتَ بالهندية التي حَمَلت في السبعين من عمرها؟ حين يشاء المولى، يسري الحليب في ضرع الحَجَر..» ذاك الإيمان الأعمى تحدّى خليل، ودفعه لمعاقبة الأب والابنة بأن أتم الزواج! ليلة عرسهما نَخَسَه ذاتُ الشيطان، كانت تتقدم بحتمية، اعترض بذارعه بابَ حجرة نومها، ليوقفها في الخارج،

«كما تدخلين إلى هذه الحجرة معي ستخرجين منها، ولقبركِ بلا ولد، حطبة جافة، كل ما ستُقدمينه في هذه الحجرة لا لغاية، لفراغ.. مجرد لعبة أتَلَهّى بها..» وجَرَّح أُذنيه غباءُ كلماته.

«على الله.» تنفسَّتْها سعديةُ، وفاحت بعفنٍ خفيف. تتحدَّاه بترجيعِ أسطوانة أبيها الإيمانية،

«لا تركل النعمة، أبلغْ قرارها ثم استجزْ وقُلْ: قطران.» لم يشعر بالارتياح لنخر أسئلة حليمة، وفي محاولة لتشتيتها أشار إلى كومة الأبراج البيضاء التي لاحت عن يمين،

«هذه أبراج السيف، أربعة وأربعون برجاً، مُتَكَتِّلَة كمراكب فضائية مشتعلة بالأنوار، منتصبة مكان قمم جبل الدابة وقلعته.» وأكمل معاذ:

«وسواسُ يوسف هذا الجبل، الذي خَرَجَت الجيادُ من صخره أول الزمان ومنه ستظهر الدابة في آخر الزمان، تضرب بذيلها الأرض فتقوم القيامة، يكتب لا يزال كيف راحت قلعة الحجر بعمر قرنٍ والتي محاها التطوير رغم اعتراضات تركيا وتحريضها لمنظمة اليونسكو وهيئات حماية الآثار التاريخية.»

انقضَّ خليلُ كمن لَدَغَه عقربٌ:

«أنتَ ترى يوسف يا ابن.. الإمام؟؟» تَجَاهَلَ معاذُ السؤالَ والشتيمةَ، وبفوقية:

«ألا تُتابع زاويته؟! كَتَبَ أنهم يَعِدون بتركيبها على جبلٍ أبعد، بسراديبها وممرَّاتها السِّرِّية، وصناديق الذخيرة العثمانية الموصدة بسلاسل الحديد والأقفال العملاقة، والأسلحة والمَدَافع الصدئة التي تتكاثر فيها الجرذان ولم تُطلق نيرانها لما يزيد على الثلاثة أرباع قرن..» أطال خليلُ التحديقَ في معاذٍ مُغتاظاً لتلك المراوغة، يبحث عن مدخلٍ لمهاجمته، قال فجأة،

«هل معه عَزة؟؟» نَخَسَ اتهامُه حليمةَ فانفجرتْ:

«حسبي الله على شيطانك يا خليل.. خلِّينا في ساعة خير.. وفُكَّنا من وَسَاوِسِكَ..» نَظَرَتْ حليمةُ إلى معاذ، تريد أن تخترق رأسه لتعرف،

إذ لم يخطر لها من قبل هذا الاحتمال. قَطَعَ معاذُ التَّوَجُّسَ المُخيِّم على رؤوسهم، وأكمل ببرود:

«الأميرة ترقد في ذلك الصندوق الطويل من خشب الصندل في رأس القلعة.. أخبروا أنها لا تزال تغمز وتجدل شَعْرَها بكافورٍ ووَرْدٍ...»

هتفت حليمة: «الكافور عَقَم..»

«لا، الكافور مِزَاجُ عين من عيون الجَنَّة.. والأميرة بانتظار الباشا التركي الذي دسَّها هناك لريثما يُخْضِع أباها الشريف..»

قالت حليمة: «الإنسان مذ كان حَفْنَةً بِظَهْرِ أبينا آدم مُخَيَّر، إما أن يبحث في قلاع الأتراك أو في بروج السماسرة أو الحَمَام..» تساءل خليل ما إذا كانت تُلَمِّح لما يفعله في قبو التركية، تكمل حليمة:

«هذا بَطَر.. بنات حواء كلهن في النهاية سواء، ما لك إلا الغريقة بالليل والحنينة بالنهار...» وأضافت: «أما ما في داخل الصناديق فالله العليم..»

استدار خليل برأسه إلى معاذ مُلَمِّحاً لاستفزازه:

«أما زلت تنبش القبور؟ ها.. هل اعترفت العظام تحت ضوء فلاشك؟»

ووَاجَهه معاذُ بتحدٍّ: «قالت إن المُخَلَّفَات البشرية كثرت وما لها إلا الغربان. قالت إننا أصبحنا أكبر مستوطنة للغربان على وجه الأرض.»

قَاطَعَتْ حليمةُ التوترَ بين الرجلين: «المُحَقِّق شكوكه عامرة، يرمح في الزقاق يترصَّد حتى خيالَه، تعرفان: إنه يبحث عنكما.» نَدِمَتْ فور أن نَطَقَت بتلك العبارة، أشفقت على خليل من أن تُحصر فيه الشكوك، وتُعَمِّق قتامة الكتابة على جبينه، إذ لا يمكن أن تَتَخَيَّل أيّاً منهما ضالعاً في تلك الجثة. فسارعت كمن يعتذر: «زمن عجائب الدنيا السبع والألفين، والقتل الآن على كلِّ شاشةٍ وللتسلية، والرجال في المقاهي تحرق المُعَسَّل والليالي لتتفرَّج.»

نظرةُ الضيق في وجه خليل تعمَّقت، أينما اتجه لاحقوه بتلك العبارة (المُحَقِّق يبحث عنكَ).

سادَ صمتٌ كئيب داخل عربة الأجرة، سَرَحَ كلٌّ منهم وراء مخاوفه الخاصة، لم يبدُ الليل بهذه الكثافة، سَرَحَ معاذُ وراء المعاني التي تحبل بالمعاني وراء الكلام، يشعر بها مثل عسل ثقيل على شفتيه.

في صمتٍ صَعَدَ خليل بهما طلعةَ الحفائر، شَعَرَ بفراغٍ في داخله مثل هذا الفراغ المُخَيِّم لليمين على جبل عُمَر المقصوص عارياً من بيوته، تنهشُ الأفكارُ بأحشائه السوداء مكشوفة للسماء، بالجَرّافات الصفراء الفسفورية رابضة بانتظار الصباح، بانتظار هبوط الأطباق الطائرة بأبراجها تُناطح الفضاء.

سألت حليمة: «يا كافي، لا نغيبُ عن مكة يوماً إلا ويختفي جبلٌ، أين البيوت التي خَبِرْنَاها على جبلِ عمر؟»

«مَسَحَ كآبتَها التطويرُ، ومكانها أرض المليار هذه ال ground billion . . يقولون ستحتضن جبالُ مكة أعلى أبراج العالم.»

«أعلى من مآذن الحرم؟!» لاحقت عدسةُ معاذ مكةَ في عين حليمة،

«التطوير هنا رهيب يا عمتي، مليارات تُصَبُّ مع كل طلعة شمس هنا، الشركات العملاقة هي دولة كونية خارجة عن قوانين الدول، آخرها عقد بثلاثة مليارات دولار لشركة الإيلاف القابضة لاستثمار جبل هنا وآخر هناك. ولا مانهاتن بنيويورك، وهذه الأنوار تتعلَّق في هذا الوادي الإبراهيمي ليبرق كشجرة كريسماس. صدِّقيني لو خرج أبوالرووس في نزهةٍ بمكة سيظنُّ أنه بُعِثَ بنيويورك.»

«يا كافي البَلا، أين عاصمة بوووش من العاصمة المقدسة؟ لُف بنا لف.» انعطفَ خليل بعربته يميناً صوب حي المسفلة وشارع إبراهيم الخليل، في طريقه للنفق المؤدي للقصر الملكي.

«هذه هي العولمة!» ثم أكمل ساخراً،

«أنا حامل رُخَصَ طيران من أمريكا يا عمتي حليمة، ومع ذلك أُصَاهِرُ نزَّاحاً ومربوط لرباط ولايا وأسرح على تاكسي. وعشمي في شركات الطيران الخاصة سما وعَمَا وناس ما تشوف ناس!»

«الله يحْسِنْ خاتمتنا على الإيمان!» سارع ينعطف يساراً للنفق المؤدي لإجياد. فكَّرَ معاذ أنه لو التقطَ صورةً لجمجمة خليل الطيار فسيظهر مُتَضخِّماً، خليل سيظل يؤمن أنه (كثير) على الزقاق، وأن التقنية اللازمة لتشغيل كمبيوتر من كمبيوترات طائرة من الأسطول التجاري تفوق وزن أدمغة أبوالرووس مجتمعة، ثقل رهيب للتقنية ينوء به خليل في زقاق أُميّ لا يقرأ ولا يعي قوة النيوترون ولا الذرة... الزقاق يَصِفُ خليل بـ(السَّوَّاق): «يَضْرِبَ الأرضَ يَخْرِقَ السماءَ: سَوَّاق.»

«الليلة تُحييها ديسكفري أو قماري الحفائر؟» بَاغَتَ حليمةَ بالسؤال في محاولةٍ لطردِ الأشباح.

أجابته ضاحكة: «الليلة ليلة أكابر، فندق الصولجان بأعالي الأبراج، عرسُ سكرتير الشيخ الصبيخان..»

«الشيخ الصبيخان رئيس مجلس إدارة شركة الإيلاف القابضة على ثلاثة أرباع مكة، تملك أخطبوط شركاتِ استثمارٍ ونزع المِلْكيات في الحزام الأول والثاني حول المسجد الحرام..» التقطَ معاذُ اسمَ الشيخ الصبيخان مطمئناً لكونه في الوجهة الصحيحة.

«استقدموا أحلام البحرانية بفرقتها خصيصاً.»

«ويطلبون صبَّابةَ شاي دَقَّة قديمة مثلكِ يا عمتي؟!!»

«يا زين الوطني مع المُسْتَورَد، عمتك حليمة هي المُنَسِّقة يا ولد، طباخين وقهوجية وسُقاة من فنادق ثمانية نجوم وأنا بينهم الفلكلور.» أوقف خليل التاكسي أمام بوابة الفندق ببرج بَرَكَة. غادرت حليمةُ عربةَ خليل وخَطَتْ بعباءتها المنحسرة عن الزيِّ الذي فصَّلوه لها كطاووس، لَحِقَ بها معاذ، عَـبَّتْ نَفَسَاً عميقاً قبل أن تدخل في المصعد وتسمح للحارس في

زِيِّه الرسمي بالأحمر والأبيض بضغط الزِّرّ والانفراد بهما في ذلك الفراغ الضيق. تأمل معاذُ لامبالاةَ عاملِ المصعد، جدران المصعد المُذَهَّبَة كَشَطَتْ عن وجهه مرارةَ خليل وتركت لذَهَبِ الحياة يلتمع على صفحة خَدِّه الأسود. يعرف معاذ أنهما يصعدان لسماواتٍ لا يبلغها أمثالُه حتى بالموت، أجنحة ضمن أجنحة مفتوحة على صحن المُصلِّين بالحرم، بأسعار تبدأ من الخمسة عشر مليوناً للخمسين للمئة. حتى وصلا القاعة بأعالي البرج.

اجتازت حليمةُ لما وراء الساتر على المدخل، وبعينيها صَدَّتْ تَقَدُّم معاذ. خلف هذا الحاجز عوالم مُحَرَّمَة على معاذ. يُفَكِّر: أن بوسعه الاحتفاظ بعباءة أخته (كالمغاتير) واختراق ذلك الحد، لولا خوفه من سخط حليمة.. وقف كالواقف على أبواب الجنان.. رَقص وموسيقى وأصباغ وحسان.

لا يطاوعه قلبه بالمغادرة. على مدخل القاعة كانت تتوافد المدعوات، يتلكأ معاذ، يتجاهل تَحفُّزَ الحارسة في عباءتها، يتراجع قليلاً إلى موضع يرقب الداخلات، يتوافدن على رؤوسهن أسنام الجِمَال، يلمعن كدُمَى كريستال.

تأمَّلَ في النساء، لم يكن يبحث عن وجهٍ بِقَدْرِ ما كان يبحث عن لغةٍ للجسد يحفظها، اللغة التي يقرأ بها الذكورُ أجسادَ الإناث تحت العباءات، بوسعه أن يعرف سعدية بين ألف عباءة، ويعرف عَزَّة حين تنفلت في سوادها. لم يُخبر أحداً بتلك الفلتات، يحفظ حركةَ خنصرها الذي ترفعه حين ترسم كشوكةِ عقربٍ في الهواء وتُهيمن على المكان. يُقَاطِع مرورها الخاطف في الليل، يتلو خيالَها الذي يطلع من رأسه أكثر مما من بيت الشيخ مُزَاحِم. اختفاؤها سيظلُّ انكساراً في وتر الزقاق، ومن ذلك الانكسار يبقى ليُخمِّن أين يمكن أن تكون؟ في بلايين نقاط الانتظار والشوق ما بين المشرحة والدنيا الواسعة. رجع بذاكرته لفجر ظهور الجثة، وتلك العربة الكاديلاك السوداء لمُوَظَّفة الضَمَان. كم من سوادٍ

بعجلاتٍ وَقَفَ على فوهة أبوالرووس ذلك الفجر؟

غَرِقَ معاذُ في وقفته تلك في الطبولَ والزجاج المُلَوَّن والمجوهرات، من أين يأتي كل هذا البهاء؟! حتى (بستان مُشَبَّب) تُحفة أبوالرووس تُكْسَف أمام هذه التُحف. أين تُخبئ مكةُ هاته الكاسيات العاريات، نسوة لسن من الواقع، إنهنّ من نسج الخيال الضوئي والخيال العلمي وحكايا الجَدَّات: « صَبٌّ أم خِلْقَةُ ربٍّ؟!» هكذا انذهلت الحكاية القديمة أمام جمال الأنثى.

لا يعرف معاذ من أين طلعت تلك المرأة، انفلتت من وراء الحاجز عكس حركة النساء، رَفَعَتْ طَرَفَ طرحتها تحجب فمها. استدارت، لتلك الحركة المُتعجلة سَقَطَ شلالُ شَعْرها على كاملِ صفحةِ الخَدِّ، أعادت له ذكرى حَمَامَة تلوي رَقَبَتَها على رَقَبةِ وليفها. فجأة لم تعد المرأة هناك، اختبأت في تلك الذكرى التي أثارتها برأسه لتتلاشى، لَكَزَه الحارسُ الواقف أمام المصعد فاستدار ليُغادر صوب المصاعد، حين لمح تلك القدم الصغيرة بحذائها العالي تختفي وراء الباب الصغير بآخر الممر، بلا تفكير اندفع نحو الباب، كل ما فيه مشدود لذلك الحذاء بفصِّ الكريستال، حين فَتَحَه لم يقابله غيرُ الصمت، تَقَدَّم في الممر القصير الذي يقود لبابٍ آخر، فَتَحَ ووَلَجَ، ليستقبله صمتُ تلك الصالة، تَبِعَ مَصدَرَ النور الخافت فكان أمام المصعد المُبَطَّن بالساتان الأحمر، وتلك الرائحة الفاترة التي لا يحضره اسمها، حين خطا فيها امتصَّت الحمرةُ الصقيلة خطوتَه، وأطبقتْ عليه، حين اندفع للأعلى انحشرت روحَه لحلقه وصارت تنبض في صدغيه، كلُّ دمه تَدَفَّقَ لذلك الانفراج المباغت، ما إن انفتح باب المصعد حتى صَرَعَه عَبَقُ زهرة (الأوركيد) المتوسطة لذاك البهو، مُكَعَّبُ ثلجٍ امتصَّ حيوياته، للنبض الخافت حوله خُيِّل إليه أنه يمشي لا في المكانَ وإنما في جوفِ تلك المرأة، والتي جرجرته لينتهي في ذاك الجناح الخاص، شاحباً يرتعد تَقَدَّم في الممر المنتهي بواجهةِ زجاج تُطِلُّ على

صفوف الطائفين بساحة الحرم، الباب الذي ظَنَّه مَخْرَجاً جانبياً فَتَحه على ذاك المكتب العريض، وهناك تَوَسَّعَتْ عدستُه على تلك الطاولة، وبجوار مرَشَّات العود، لكأنه بانتظار، ذلك الحجاب من الفضة، مثل عُلْبَةٍ مُجَوَّفَةٍ بهيئةِ نصفِ قمرٍ منقوشٍ بمَعِينَاتٍ دقيقة، يعرف تماماً ذلك الحجاب، كَلَّفَه مُشَبَّب يوماً بإيداعه بخزانة 27 من خزائن الودائع قُرْبَ الحرم!

تَعَجَّب معاذ من وصول الحجاب لذاك البرج، وربما - وكما خَمَّنَ مُشَبَّب - هو محور مؤامرة ما! وربما كان تقليداً للحجاب الأصلي، لكن معاذ وَقَفَ مسلوباً له، كما سُلِبَ أول مَرَّةٍ وَقَعَ بصرُه عليه! بحركةٍ انتحاريةٍ اختطفَ الحجابَ وطارَ، تَخَبَّطَ في المداخل والممرات حتى احتواه المصعد، هَبَطَ ببطءِ الأدوارَ المتلاحقة، انفتح بابُ المصعد، استقبلتْه قاعةُ الاستقبال بالبرج غارقة في صمتٍ مُثْلَجٍ بالتكييف المركزي، انطلق مُطبقاً يده على نصف قمر.

ضياع الحزن

تلك الليلة - وفي صمت بيت اللبابيدي - وَقَفَ يوسفُ طويلاً أمام صورة غار ثور، في تلك الصورة كان يرى حياته، واليوم الذي بلغ فيه الثامنة عشرة من عمره، والرحلة التي قام بها لهذا الغار، حيث اختفى الرسول عليه السلام في هجرته للمدينة من مطارديه من مشركي مكة. .

خَرَجَ يوسفُ إلى غار ثور لكي يُخْضِعَ نَسَبَه للاختبار الأقدم في مكة: (أن يصعد لهذا الغار ويلج في هذا الشق الضيق، فإن ضاق عليه كان ابن سفاحٍ وإن انتهى للغار تأَصَّلَ نَسَبُه.)، لم تدفعه تَحَدِّياتُ خليل المتكرِّرة والتشكيك بنسبه، وإنما دفعتْه حاجةٌ ذاتية للحصول على قبول مكة، لتقديم حقيقته إلى هذه المدينة كمن يقدِّم أوراقَ اعتماده، يطرح لها ذاته بلا شهود، غير تيس الأغوات الذي رَافَقَه كظِلٍّ.

طلع القمرُ عليهما وهما يتقدمان في جبل ثور، حتى جاءا الغار، تَرَاجَعَ تيس الأغوات وترك ليوسف أن يتقدَّم لاختباره وحيداً، شعر يوسف كما بمواجهة موتٍ، بدا الشقُّ أضيق من أن يسمحَ بولوجِ جسدٍ بشري. . حَبَسَ يوسفُ أنفاسَه وبدفعةٍ قوية لجمجمته في الصخر اضطربَ كاملَ الجبل، وجاشتْ حيوانيتُه وتجسَّدَتْ أنوثتُها في ذاك المخاض، وانعجن جسدُ يوسف بالقمر الذي التمَّ حوله ثخيناً، بينما تَلَقَّتْه دواماتُ ذاك الشق، أغمض عينه مُرَكِّزاً حيوياته لتدفع أعمق، وفي لولبةٍ خارجةٍ عن إرادة جسده انزلق فكان في ذاك الرحِم الحيواني. حين ولج تيس الأغوات من الباب الواسع للغار رأى أمامه لحمة يوسف عارية، وقد تساقطت ثيابه عنه، وبدا مثل عَلَقَةٍ وُلِدَتْ عكسياً لترجع للرحم. لم يتأكد نسبُ يوسف للأب فقط وإنما لذلك الجبل ولذلك الحرم وللرسالة التي آواها ولله الذي تَجَسَّدَ في أضعف كائناته، حيث ما كان ثمة فراغ للضعف ولا للعدوان ولا للحزن. انسحب تيس الأغوات لم يَنْبس بكلمةٍ.

بعد حينٍ، التقطت حواسُ يوسف حركةَ النبات خلفه، بذاك العَبَق البريِّ، انساق لها مغادراً، وَقَفَ إلى جوار تيس الأغوات، كتفاً لكتفٍ مع صخور الجبل، ولجسده بلل يتسرب لكلاهما. . . فرحةٌ بمذاقٍ غريب، حطَّت على أطرافه بثقلٍ، بانتماءٍ ثقيل، أدركَ أن ثبوت النَّسَب هو ثبوتٌ لتبعاته. . . وفي الأسفل انبسطت من جبلهما مكة، ومن قلبها تطلع حزمة الأعمار.

راجعاً أدراجه إلى عمالقة مكة من زجاجٍ شَعَرَ يوسف بالهلع، تذكر قول أمه حليمة أن (من يلج غار ثور يفارقه الحزن، فلا يحزن بعدها أبداً)، سَرَتْ رعدةٌ في صخور الجبل وغمزَ القمرُ ببرد، كاشفاً ليوسف مكة عارية، وقد تجرَّدت لتوِّها من حزنها الأزلي، بواجهاتها الجبلية العظيمة متأهبة للتعرِّي، وبلا ذرة أسى، ولإسقاط ما قد يُثقل مهندسيها الجُدد من ملامحها القديمة.

حقيقة جسدية

من عائشة / رسالة 26:

(ستلمسه، بالكمال الذي لرؤوسِ أصابعِ الحقيقة الدقيقة ستلمسُ حقيقتَه، حقيقة الرِّقّةِ والنقاء والعصيان على الترجمة في أعضائه التي من سواد. كانت تَتَحَرّق لان تَلْمسَ بلا تفكيرٍ في تَمَامِ العتمة، وأن تُباغته في العتم بمَسٍّ خالصٍ لحقيقته الحَيَّة، الأعضاءَ الحميمةَ من سوادٍ كاملٍ رقيق.

وهو أيضاً انتظرَ في توقٍ سحري لا يهتز لكي تَتَعرَّفه كما تَعَرَّفَها، فلقد عرفها بسوادٍ، بكل الإشباع الذي للمعرفة المعتمة، الآن هي ستعرفه، والآن هو أيضاً سيتحرَّر...

ضَمَّها إليه، وَجَدَها، وَجَدَ الحقيقةَ الجسدية الخالصة والمرئية. مطفأة، وغير بشرية، أصابعُه على عُريِّها المحجوب كانت أصابع الصمت على الصمت، جسد الليل الغامض على جسد الليل الغامض، أنوثة الليل وذكورته، والتي لا يمكن رؤيتها بالعين، ولا تُعرف بالعقل، فقط تُعرَف كإفشاءٍ وكشفٍ ملموس لمفهوم «الآخر الحي».

هي لَـمَسَتْه، واستقبلتْ أقصى التواصل غير المنطوق لِـلَّمسَة. صمت معتم، مُضْمَر، إيجابي، هبة رائعة، ومَنَحَتْ مرة أخرى قبولاً كاملاً واستسلاماً. تَلَقَّتْ الغموض، حقيقة ذلك الذي لا يمكن معرفته، حقيقة حيوية حسية، لا يمكن توصيلها أو بَثُّها بمحتوى العقل، إذ تبقى دائماً في الخارج، جسداً حياً من العتم والصمت والسرية، الجسد الغامض والصوفي والباطني للحقيقة.

في الصباح نظر أحدهما إلى الآخر وابتسم، ثم نظر كل منهما بعيداً، يملأهما العتم والسرية. كان شيئاً رائعاً، شديد الروعة، مثل ذلك الإرث لكونٍ من الحقيقة المعتمة، انتابهما معه الخوف من أن يبدو عليهما أنهما قد تذكراه. أخفيا جيداً الذكرى والمعرفة.) العاشقات صفحة 360.

يا ^،

لوتُتَرجِم لي تلك الشحنة.

هذا التلقّي الآثم للغموض الجسدي..

هذه المعرفة الصباحية التي لا تُطاق.

لن أعود لقراءة ذاك المقطع، إلا بمعجزة، أن نلتقي ثانية.

أن يستجيب لي الغيب. يدُسُّكَ على طريقي مرة أخرى، لوقفة أخرى، ولو لـ....

أتذكر تلك الليلة ببون، التي تركتك فيها وسرتُ راجعة في العتم وحدي؟ للخطوات الأولى كنتُ خائفة.. هل تعرف معنى أن تسير امرأة مثلي – للمرة الأولى في حياتها- وحدها وفي شارع غريب؟ أي شارع؟! بكل خطوةٍ كنتُ اتوقّع أن أسقط ميتة أو أن أُهَاجَم وينفجر راسي وتتبعثر منكشفاً في عجينة دماغي.. ابوالرووس كان يمشي براسي يرقب ويتأهّب لنبش راسي لسكانه..

في نقطةٍ فوجئتُ بالظِلِّ الذي يعرجُ إلى جواري على سُور النهر.. ثم لم يعد ظلاً واحداً وإنما خمسة ظِلال تنبثق من جسدي الذي يعرج.. لوهلة ظننتُ أن بداخلي من ينبثق ليهاجمني.. عقاباً لي على الرائحة الغريبة التي لا تزال تفوح مني، وعلى الرغبة التي بدأت تتجدّد مع كلِّ خطوةٍ أخطوها بعيداً عنكَ.. ثم وفجأة رأيتُ تلك الظلال الخمسة على حقيقتها، مرحة منفلتة بالفرح حولي.. وقد عَرَفَتْ تلك الظلال ما لم أحلم بمعرفته، مُترعة لدرجة الجوع.. خوفٌ ما تَمَزَّق وأطلق هذه (الأنا) المتعددة.. وبعد، هناك المزيد من هذه (الأنا) لم يُكْتَشَف بعد.. كل نظرة من نظراتك تُفْرِجُ عن (أنا) غائبة مني.. مشيتُ، لا، مشتْ أنواتي الخمس، بلذة آثمة عائدة للمستشفى.. وبشكلٍ أو بآخر فلقد حقدتُ مع أنواتي عليكَ أن تركتَ لي مواجهة ذلك الخوف وحدي، واحتمال السير في الإثم وحدي.. لأن الإثم ليس في تركيبتك، بينما أنا: كل شحنة لذة أتلقّاها تُطْلِقُ شحنةً مُعَادِلَة من الشعور بالذنب... مما يمنح اللذة أحياناً كثافةً لا تُطاق... بكل نَفَسٍ رَشَفتُه حباً كرهتُكَ، بينما مضيتَ تسألني: «هل أنتِ بخير؟ هل ضميرك متوافق مع هذه الأفعال؟ أي ندمٍ؟؟» بينما كررتُ إجابتي: «أنا أمنحُ نفسي للحظة، لا أتخطاها للحظة التي تليها، أنا أطفومع الآن، مع الحياة.. مع العقد الذي عقدناه.» خفتُ

ان أقول بأنني أترك نفسي لله. لم أجرؤ على ترديد كلمة الله على لساني بعد أن...
اتعتقدُ بأنني ملعونة الآن؟ لا، أنتَ لا تعتقد ذلك.. لقد اقتنعتَ بكلماتي عن التسليم للحياة.. بينما داخلي كنتُ أسلم لمذاقك هذا.. الذي يُسممني الآن حتى في خشوعي.. أشعرُ بأنني قد خسرتُ شيئاً ما.. ليس التكرس وإنما الفراغ من الحياة.. أصلي الآن بتخمة حياة.. متخمة بكَ.. أيمكن أن تُسَمِّي هذا تشتتاً؟
مدينة أنا لكَ، للخفة البهيجة التي تُضفيها على صلتنا القصيرة.. كم دامت؟ ثلاثة، أربعة أشهر؟
كلما سُحِقتُ بمشاعري طيَّرتَني.. تُدَلِّك ضميري المثقل ليُحلِّق خفيفاً...
هل قلتَ بأن غولي هو قصة الهبوط من الجنة؟ ما الذي ترفضه في حقيقة ان حدثاً واحداً سَبَّبَ هبوطنا من الجنة؟! حين اكتشفَ الجسدُ مَذَاقَه، وأسرارَه صار أثقل من أن تحمله طبقاتُ السموات، وصار لزاماً ارتطامه بالأرض... لنقضي أعمارنا نبحث عن وجه ضيعناه في الفردوس وراءنا..
الآن يا ^^^ لقد جَعَلتَني أتساءلُ: هل تتلخص الحياة في الندم؟ وعن ماذا؟ عن التفاحة؟ عن السقوط للأرضي؟ عن فقد الوجه؟
لكنكَ تضحك ساخراً مني مؤكداً: «الحياة هي الفرار من التجريد!»
أتظن حياتي هنا هي التجريد؟!
هل حقاً وافقتَني على أن أقدرانا مكتوبة سلفاً، نحن كتبناها، حين أخذنا الله من ظهر آدم، وكنا ذَرّاً بقيضته وأخذ علينا العهد، يومها رَسَمَ كلٌّ مِنَّا أقدارَه وأكدَّ أن بوسعه الخوض بها للحقيقة.. ونحن على الأرض كاختبار لقدرتنا على الخوض للحقيقة..
يا لي من كاتبة غريبة الأطوار حين اخترتُ لاختباري هذه الحبكة: التمزق بين أبوالرووس وبون بالمانيا...
الآن أعتقد أنها حبكة فوق احتمالي..
طوال اليوم سرتُ مصعوقة بسُخْفِ صِلَتنا أنا وأنتَ الممتدة بين القارات.. الضحكات وانفجارات العاطفة.. كيف تصمد هذه العلاقة الضوئية مقارنةً

بحياةٍ حقيقيةٍ في صباح بمدينة مشرقة تُفيق فيها على امرأة من لحم ودم؟ أنا امرأة من أثير، تُلاعبُ بجموحٍ رجلاً صلباً مُحَاطَاً بأجساد صلبة وحياة صلبة.. كم سيصمد هذا الصدام بين الأثير والصلب؟ هل من فرصة للأبدية لكي تصمد من أثير؟؟

مُرْفَق:
صورة المسروقة، يتصدَّرها السريرُ بغطاء اللافندر، بَسَطتُه لدولفينكَ بظهري.

تَوَتَّرَ جسدُ المُحَقِّق ناصر بأصابع (الصمت على الصمت) على جسده، قَطَعَ قراءتَه وقام، كالمُنَوَّمِ مغناطيسياً ساق عربته إلى مشرحة مستشفى الزاهر، انتهى لهدوء ذاك البرد المُخَيِّم على ثلاجة الموتى والضوء البنفسجي، هي عينه تغلَّفتْ بالبنفسجي، بأصابع مرتعدة، لا مِنْ خوفٍ، وإنما بتوقٍ بحجمِ هذه الضَّبَابة التي رَافَقَتْه على الطُّرُقات وعَبْرَ ممرات المستشفى، إلى هنا، وعلى هذا الرَّفِّ الذي فَتَحَه له مُشْرِفُ المشرحة، وعلى هذا الجسد الساكت المُغَلَّف، لم يجرؤ فيكشف عن الوجه، تاقَ ليلمسَ أطرافَ أصابعها، كان على يقين من أن تلك الأصابع تحمل له رسالةً ما، بجوفه طلعت الآهة: (تَعِبتُ) أرادها أن تغوص لقاع تعبه وتمحوه، أن تطبع بصماتها على شفتيه. ما إن انزاح طَرَف الغطاء عن الكَتِفِ حتى انبعثتْ نفحةٌ لا يمكن تسميتها، حزنٌ جارفٌ اندفعَ كالعويل في المشرحة وأعماه، غمامةٌ لؤلؤيةٌ غلَّفَتْه وشَعَرَ بشَعْرِه يُطقطق ويشيب، انفلتت الغمامةُ متسربة إلى خارج المشرحة، تاركة ناصر فارغاً شديد الخِفَّة، أخيراً وبعناءٍ تَمَالَكَ ناصرُ نفسَه وكانت عينه قد تجلَّدت ككمال ذاك التمثال المسبوك أمامه، انتقل لكمال ذاك الموت، «جسد المرأة هو الموت»، تأكَّدتْ له تلك الحقيقة، بعينٍ غائمةٍ طَفَا على ذاك الصدر، على قتامة القِمَّتين، منزلقاً للأسفل لتثليث القَتَامة، على. . . تَحَجَّرَتْ مآقيه،

جفَّ ريقُه، شَعَرَ ببلوراتٍ تنطحن تحت أضراسه، تَوَقَّفَ كثيراً بتلك السكتة، بَحَثَ بجوفه عن سكتةٍ مُعَادِلَة (كل الصمت الذي ابتلعَ مَشَاعِرَه، كل الأجساد المؤنثة التي كَتَمَها منذ سنين مراهقته مُغَلَّفة في سواد العباءات) للمحةِ صار واحداً مع صمتها المطلق، انحفر مثل الجرح الذي قَتَلَها، لقاع قاعها..

لم يكن هو الذي تحرَّكَ مُغادراً، وإنما انزلق جسده في الحزن المُثَلَّج المُنبعث من صمتهما الكامل، للخارج.

لم يعرف أين يفر من حَرِّ مكة هذا الذي حَاصَرَه لإذابةِ صمتها عنه. نَخَسَه الحَرُّ:

«أنتَ مسكين، تتواطأ لتضليل ذاتكَ، كان يكفي أن تقلبها لتبحث عن أثرِ جِرَاحَةٍ. أو تأمر بالتشريح للعثور على حديدةِ الحوض. لكنها حادثة تُضاف إلى سِجِلِّك وتُثبت كم أنتَ جبان!» وَقَفَ في الطريق وحيداً، أأنا حقاً جبان، أم جَشِع؟ تريدُ أن تُذَوِّبَ حقيقتَها في كلِّ النساء، لكي لا ينقطعَ بكَ حَبْلُ العشقِ في خواءِ ربع القرن الذي مارست فيه رجولتك.

إلى حجرته كانت قد سَبَقَتْه برودةُ الموت ـ أكان موتاً أم حزناً أسطورياً ذاك الذي أفلتَ مِنْ فَتْحِ تلك الجثة؟ الأكيد أن له صوتَ أنثى، ولقد تجسَّدت في الليل لتنفث بأُذنه:

ملحوظة:

اجادٌّ انتَ في ان تُحِبَّ امراةً مثلي؟!

اتعرف كم رجلاً يجب أن تكون؟ بعَدَدِ مَرَّات الوقوع في الحب التي على طريق بنتٍ مثلي منذ أن تبلغ، بِعَدَدِ المراهقين الذين لم يطاردوني ولم تلاحقني أعينهم بلوعة، وبعدد الرجال الذين لم يسهروا بخيالي ولم يَتَرَمَّلَوا أو ينتحروا على يدي، وبعدد... اتملك هذا الحب؟ بعدد الليالي التي كان فيها قلبي يدوي لا يعرف توقاً لماذا... والليالي التي كان يجب أن أسهرها بينما

كنتُ نائمة بين إخوتي، وبعدد الدقات التي كان يجب أن يَدُقَّها قلبي ولم يأتِ وجهاً لوجه مع قَارِعٍ.. وبعَدَد كل مَشَاهِد الحب التي كنتُ على يقينٍ أنها تخصُّني في كتابٍ في فيلمٍ، أو أغنيةٍ... أتعرف كيف تُحبني هذا الحُبَّ؟ الذي مثل كمبيالات أصرفها عن كلِّ حُبٍّ مرَّ على طريقٍ بينما أنا في الطريق معجونة في المُكَعَّب الأصفر ما بين المدرسة وهذه المسروقة، أروح وأجيء، وعلى عيني عصابة كتلك التي يربطونها على عين الصقر فلا يفزع حين يرى أكثر مما يجب؟

ربما من الأسهل أن تُحِبَّ امرأة صَرَفَتْ كمبيالاتها أولاً بأول، قبل أن تصل إليكَ لتستوفيكَ غراماتِ كلِّ مَنْ مَرَّ ومن لمْ يمر...

لا تضحك مني، أعرفُ أنني قديمة، فَاتَني العصر الذي ينتحر فيه البَشَرُ حُبّاً..

هو عصر القلوب التي لا ينبت عليها الحُبّ..

التوقيع: عائشة.

ملحوظة 2:

أم جميلة اليمنية، تركتْ لي هذه الهدية، وجدتُها على سريري: هذه الملابس الداخلية منسوجة من الفُلِّ الأبيض الحَيِّ..

أهل جيزان ينسجون ملابسهم الداخلية من الفُلِّ..

لقد تجرَّدتُ من كامل ثيابي لتجربتها، وسرتُ ممسوسةً بتقصُّفِ بتلات الفُلِّ على بتلاتي، نز العطر في عروقي...

يوماً ما سأتركُ لكَ سروالاً من الفُلِّ، لتُعاني لذَّةَ هذه النُضرة العطرة، هذا النداء لأعمق وأَشَفِّ المَسِّ.. لقد تخيلتُني ملتحمة بظهرك وتتفتق البتلات لصلابتك..

لقد مضى الليل عليَّ أتقلب، عاجزة عن الغرق في النوم بالفل يتفتق وينشر عطرَه مع كل انقلاب.

في الصباح وحين ارتديتُ بنطلوني الجينز تصاعد تقصف الفل، تخيل أن تُوَاجِهَ العَالَمَ بالفُلِّ كجلدك الحميم..

مُرْفَق: صورة حجاب نصف قمر.. استرقَها معاذُ لحِليةٍ نادرةٍ وَقَعَتْ بيد مُشَبَّب. أُنظرْ نصف قمرٍ من فضّة، علبة ثقيلة من تلك الاحجبة القديمة، ببطن كبيرة تحشوها البدويات بالأوراق المطلسمة بأسحار التوليع والتنفير والخصوبة.

لأول مرّةٍ لم يَحْلِق ناصر ذقنَه، ولم يُمارس التأمُّلَ في بُقعةِ الرطوبة التي تَتَوَسَّع بسقف الحَمَّام وتماماً على مَوضع حوض الشطف، ولم تُخرجه قطراتُ النجاسة المُتسرِّبة من أفكاره.. فاجأه الخيالُ بالشَّعْرِ الأبيض المنعكس في مرآة الحَمَّام، ذاك البياض المُبَاغِت كان الدليل الوحيد على ما كاد يرتكبه بالأمس: توقه لمُضَاجَعَةِ امرأةٍ ميتة! لدهر وقفَ ناصر مُوَاجِهَاً لذاك الوجه بالمرآة، ضائعاً في حقيقته التي انكشفت له بالأمس.. شَعَرَ ناصر ببياض أجرد يستلب هواءَ مكة حوله، أهو تشوُّه في المدينة أم بجوفه هو؟

فجأة، ومن فراغٍ تام، انفرجتْ ذاكرتُه عن ذلك الوجه، وجه العجوز الذي دَلَّه عليه معاذ وتبعه إلى بستان مُشَبَّب يبحث عن حجاب فِضَّة!

محا ناصر البياض بمرآته وهَبَّ إلى لوحةِ إعلاناته، وَجَدَ الاسم ورقم الهاتف، سَرَقَت عينَه بطاقةٌ أُخرى بنفس الاسم، كيف لم ينتبه لتشاركهما نفس الاسم ونفس الهاتف! (مفلح الغطفاني وولده / باحث ومُحَقِّق/ مركز أبحاث الحَجِّ)، سَارَعَ لهاتفه يطلب الرقم، لم ينتبه لتأخر الوقت، رنَّ الهاتف طويلاً حتى ظَنَّ ناصر أنه رقمٌ ليس في الخدمة.. فجأة جاء صوتُ المرأة ثخيناً بالنعاس: «ليس موجوداً هنا.» لم ييأس المُحَقِّق، سألها: «وأين أجده؟» دَاَخَلَ المرأةَ الصحو: «مُنَوَّم بمستشفى الحرس الوطني.» حين وَضَعَ ناصر ثيابه وتهيأ للخروج انتبه للوقت.

قشرة زفت

«أقرب مستشفى للحرس الوطني بأُمِّ السَّلَم على طريق جدَّة.» وهذه المَرَّة لم ينتظر مصعد العمارة الذي يستريح دائماً في مكانٍ ما بين الطوابق، بحيث لا يعثر عليه الحارس مهما طَرَقَ على بابه بالدور الأرضي! فَكَّر ناصر أن كل شيء حوله يتهاوى على قشرة زفتٍ، زَلِقَة، ومع ذلك لا تمنع رشح الرطوبة. بلا تردُّد اندفع هابطاً السلالِمَ المعتمة والمُغطَّاة بصُفرةِ آخرِ عاصفةٍ رملية هَبَّتْ قبل أسبوع. قاد المُحَقِّق ناصر عربتَه متَّجِهاً إلى طريق جدَّة، مُختَرِقاً بعربته في واجهة (باربي) المُحَوَّطَة لمَدْخَل مكة جهة الرصِيْفَة وشارع الستين، قاد بين الكازينوهات ومدن الألعاب ومقاهي السمك الحديثة بأنوارها الكثيفة، منتهياً لتقشُّف الطريق السريع، في طريقٍ تعبر بين كثبان رمل، تنحسر هنا وهناك ليقوم جبل بركاني، تَقطع فضاءه لوحاتُ الإعلان: بطاقات اتصال سوا وموبايلي، ماليزيا، شَعَرَ بأنه يبتعد كثيراً عن أبوالرووس، وشَكَّك في أن يقوده غريب إلى أبوالرووس وخفاياه، التي صارت تعنيه أكثر من قضية كشف هوية المقتولة أو قاتلها.

«لديكم مريض باسم مفلح الغطفاني؟» بلا مبالاةٍ تَنَقَّلَتْ عينُ موظف الاستقبال بين وجه ناصر وبطاقته الرسمية. وبمراجعة حاسوبه أرشده:

«جناح المسالك البولية، عنبر رقم 7.» وأضاف بعد حين «وَقَّعَ طبيبُه المُعَالِج أوراق خروجه اليوم.»

مُتتبِّعاً اللوحات الإرشادية انتهى لباب العنبر المزدحم بأَسِرَّتِه السبعة، تنفَّس الصعداء حين لَمَحَ ذلك الجسد الضئيل بالوجه المحفور بالسنين.

«العم مفلح الغطفاني، تَذْكُر تقابلنا سابقاً..» ورَشَقَتْه أعينُ صَفِّ المرضى، ولم تُخطئه عينُ الشيخ النافذة كصقر.

«خير، حكومة؟!» من ورائه بَاغَتَه السؤالُ، استدار ليواجه الابن.

«ما زلنا نُحقق في قضية القتل التي جرت بأبوالرووس يا عم مفلح، سأدخل مباشرة في الموضوع ولن أُضيِّع وقتكم ووقتي.» احتدَّت الآذانُ حولهم، «أعرف أن الوقت غير مناسب، لكنني أريد معلومات يا عم مُفْلِح عن حجاب الفضة.» أجابه الابن بلؤم:

«ألا ترى أن الوقت غير ملائم؟»

«اعذرني لكن اسم الوالد وَرَدَ أيضاً في مقالات يوسف الحجبي، تُشير إلى حيازته لخرائط وصكوك قديمة. هل أستطيع الاطلاع عليها؟!»

تنحنح الأب ونَطَقَ أخيراً: «أرجوكَ لا تُقْحِمنا في قضايا الإجرام والإرهاب...» وقَاطَعَهما دخولُ الممرضة بتصريح الخروج والوصفة الدوائية،

«تصرفها من صيدلية المستشفى قبل مغاردتكما..» أدرك ناصر أن الرجل يفلت من بين يديه، قَطَّبَ الابنُ بتَوَجُّسٍ، ملتزماً الصمت، ماضياً في نقل والده للكرسي المُتَحَرِّك، يريد الفرار من ريبةِ الأعين حولهم، رَفَعَ كيسَ متعلقاتهما ووضعه في حِجْرِ والده، مُتبرئاً من الشُّبهة، مُدْرِكاً حساسية كلمة (الإرهاب) التي يمكن أن تتفجَّر فيهما.

«أرجوكَ يا عم مفلح، فحالتك الصحية لا تسمح باستدعائك لمركز الشرطة للتحقيق أو للشهادة.» ولم يُجاوبه غيرُ الصمت.

حين صاروا في الممر بَسَطَ المُحَقِّق ناصر الخريطةَ ذات الرسم البياني على الكيس بحِجْرِ الغطفاني: «تعرف هذه؟» تَوَقَّف كرسي مُفلح فجأة، وأجاب:

«زوَّدنا يوسفَ الحُجبي بها، كان يُعِد بحثاً عن الحصون في ريف الحجاز في نهاية العصر الجاهلي. وكل ما لدينا من حقائق سلَّمناه لعبد البستان، هذا رقم الهاتف يمكنك الاتصال لتحديد موعد.» تبعهما في ممرات المستشفى العريضة، للصيدلية ثم لمواقف السيارات ساعدهما

ناصر في الانتقال للسيارة، وقبل أن يُغلق وراءه البابَ انحنى ناصر قريباً من مفلح الغطفاني وأكّدَ له:

«اطمئنْ. أسعى لجمع معلومات، أنا لا أتّهم أحداً.» حَدَجَه مفلح الغطفاني بنظرةٍ ثاقبة ثم فاجأه بالسؤال:

«أنتَ تعمل مع الحكومة أم مع ابن الـ. . . .» لم يتبين ناصر الاسم بوضوح، اختلط بهدير المُحَرِّك الذي دار في نفس اللحظة. . تحرَّكت السيارة. . وَقَفَ ناصر جامداً يحاول تقشير الأصوات عن الاسم (ابن الـ. . .) الذي نَطَقَه الغطفاني، كانت السيارة قد ابتعدت. أسرع ناصر لسيارته.

بشرودٍ أدارَ ناصر المُحَرِّكَ منطلقاً، تَجَاوَزَ بوابةَ المستشفى بحرسها حين سبقتْه سيارةُ بوليس بصفارتها تدوي في الفراغ، قاد للجسر القاطع للخط السريع، حيث المَخْرَج لمكة وآخر لجدَّة، حَشْدُ سياراتِ الشرطة بصفاراتها أخرجَه من شروده، من على الجسر لَفَتَ انتباهَه الاختناقُ المروري بالأسفل، سياراتٌ تتجمَّع بدافع الفضول، من موقفه العلوي كان بوسعه تمييز الشاحنة الضخمة، وأسفلها مسحوقة كعجينة تلك السيارة الزرقاء، تَسَارَع نبضُه قبل أن تتشكَّل المعلومة برأسه،

«سيارة الغطفاني. . .» قَادَ عَكْسَ الخط بطول الجسر، راجعاً للمَخْرَج باتجاه مدينة جدة، أوقف سيارتَه وسار على قدميه، مخترقاً في الزحام، حتى قَارَبَ العربة، لم يكن من أثرٍ لحياةٍ في عجينة المعدن، وكيس المُتَعلِّقات والأدوية الساقط تحت قدميه. . . بسائق الشاحنة لم يصبه أذى ذاهلاً على طرف الطريق.

وتوسَّعَ البياضُ على جمجمة ناصر، ها هو الموت أو الحزن الذي أفلتَه بالأمس من المشرحة يتكثَّف على أطراف هذه القضية، يزحف ببرودته من أطراف أصابع عائشة.

دوّار

كان ناصر يبحث عن خيوط تقود لمفلح الغطفاني بيوميات يوسف حين عثر على تلك الكلمة الكبيرة المجنونة:

5 يونيه 2006:

اليوم متُّ.

بلا مُقَدِّمات صُعِقَ الزقاقُ وغطَّته عاصفةٌ رملية حين حَمَلَ الشيخُ مُزَاحِم عَزَّة فجأةً لبستان مُشَبِّب، أتمّوا عَقْدَ قِرَانها عليه هناك!!! بينما الملائكة تحثوا علينا التراب، وغادر المأذون مع الشيخ مُزَاحِم والشاهدين.

اللعنة على هذه المذكرات.. وهذا الزقاق..

التوقيع: يوسف.

***

من عائشة / عاجل:

يا الله، ما ينتظر عَزَّة في تُحفة بستان مُشَـبِّب!! سلَّمَها أبوها لعتيق الأشراف حين اطلع على أرباحه الخرافية في سوق الأسهم..

تَبِعَتْ عزَّة الشيخَ مُزَاحِم من دون أن يطرف لها جفن.

أو لعل عينيها كانتا أكبر،

كما قلتَ لي يومها: «لا تشذبي حواجبك، لئلا تكبر عينكِ وتبتلعني.»

من دون تشذيب، ورغم قتامة حاجبيها، كانت عين عَزَّة بوسع عيوننا جميعاً.

ويوسف يعرج مجنوناً بطول أبوالرووس...

التوقيع: عائشة.

قنبلةٌ تفجَّرَتْ برأس ناصر، لا يُصدِّق: حُمِلَتْ عَزَّة زوجةً لمُشَبِّب؟! لِمَ لَمْ يُخبره أحدٌ في الزقاق بهذا الحدث؟! حدثٌ بهذا الحجم لماذا يتواطأ الزقاقُ على إخفائه والتكتُّم عليه: حليمة، مزاحم، معاذ، وخليل لا

أحد وَضَعَه له في (جُمْلَةٍ بسيطةٍ واضحة): (مُزاحم وَافَقَ على تزويج عزة من عتيق الأشراف!) و(سِرّاً. .) خبأوا له هذا الانقلاب في الأوراق وتركوه يزحف إليه كل هذه المدة. . في وقتٍ مُدَبَّرٍ له؟

انتابَ ناصرَ خوفٌ مُبَاغِت، بلا شك هناك تغيُّر طرأ عليه، وما كان عليه إلا أن يُعيد النظرَ في القضية لتسقط الأقنعة أمام عينيه اللتين تستحيلان لبياض. ولم يكن مستعداً للُعبة سقوط الأقنعة تلك.

طَفَحَ حلقُ ناصر بمرارة، شَعَرَ بخيانةٍ شخصيةٍ له في زواج عزة. . ولَهَثَ بين الرسائل واليوميات لكشف حقيقة هذه النَّقلَة:

8 يونيه 2006:

تقولين: « يُغطِّيني،

لا بالكلمات، وإنما بعباءتي.»

ولا أسمعكِ:

صعوداً ومن تحت قدميكِ،

يرفُّ حريرُ العباءة، يَمَسُّ صحنكِ،

يُرجِّفُ نفرةَ صدركِ، انفراجةَ شفتيكِ.

حتى يسترخي الحريرُ على ما انحلَّ

من ضفائركِ.

إبليس في عُريِّه هو مُشَـبِّب، حين يُرَقِّد حريرَ العباءة، على عُريِّكِ ليلبسكِ.

لحظةَ تَغَطِّي وَجهُكِ غَاضَ كلُّ حبري وهذا الصوت الذي يجلدني.

ملعونة أنتِ يا عَزَّة. سأتوقف عن كتابتكِ. مُوتي بسلامٍ من وجهكِ لقدميكِ.

لا رحمة الله عليكِ.

التوقيع: يوسف.

***

تلاحقت كلمات يوسف غاضبة:

9 يونيه 2006:

تكذبُ هذه التافهة كخردلة وتقول:

(في الفجر وبين ذراعيه أيقظتْني حرقتُكَ يا يوسف حادَّة،
لو أركضُ ناعسةً لعَتَبَةِ حُجرتي، لمذياعنا القديم، لتوقظني قصاصةٌ بانتظاري هناك،
بخطِّكَ القديم، أقلتَ: من خط زيد بن ثابت؟!!!
أنتَ مخبول، وترفعُ عنَّا القلمَ.
لو أنكَ يا يوسف تكتبُ لي رقدتي هذه، بين يديه،
«أقرأها وأُعيدُ. لأحياها..» من خطوطكَ، التي كبرتُ على شطحها، وعاشتْ لي أكثرَ ما عشتُ.
«مَنْ قالَ: لا مذاق للأشياء ما لم يكتبها ريقُكَ؟!!!» ها هي مُحَرِّكاتي تدور بكلماتكَ المضطربة والجياشة، وشفتاي تُتمتمان بلذَّة القراءة لكَ.
لحظة الفجر، وبين ذراعيه، أدركتُ أنكَ كنتَ يا يوسف تكتبُني أكثر مما تكتب العالَمَ ونَفْسَكَ، كنتُ أنا الصفحة التي تُخربشُ عليها ذاتَكَ، تُسَوِّد وتُبيِّض المحاولات والفشل وإعادة الاختراق.
حِبْرُكَ أنا وخربشات.
مهما حَاوَلتُ يا يوسف فمُشَبَّب لا يُكْتَبُ، وهذه الليلة أكبر مني، كان الأحرى بكَ أنتَ كتابتَها. لوأنكَ تكتبني لأشعر بلذَّتي..)
أُحاصرُ كذبَها بالأقواس.

التوقيع: يوسف أو عَزَّة.

***

ثم ظهرت تلك الكلمات العملاقة مطموسة :

12 يونيه 2006:
الليلة الرابعة:
أكتبُها أو لا أكتب؟؟
أحتارُ.
أكف عن الكتابة لتموتَ في نومها.
التوقيع: يوسف.

زَخَّةٌ من المشاعر الساذجة أزعجت ناصر، أراد أن يعرف أيَّ جريمةٍ طُبِخَتْ في هذا الزواج الكارثي، لم يجد ناصر بُدّاً من اللهاث بين عائشة ويوسف اللذين سقطا في اكتئاب، شعر ناصر بأن سقوط عزة تزامن مع انهيار معنويات عائشة في رسائلها، عَزَّة قامتْ بقفزةٍ تجاه مشبب بينما عائشة كانت تُدَبِّر لنهاية باردة..

تَحَالُف عَزَّة مع مشبب كان نقطة الانكسار في هذه القضية، وأي محقق محترف كان سيُشكك في براعة ناصر في وصوله المتأخر لتلك النقطة. صار ناصر يقرأ اليوميات والرسائل كنَصٍّ واحد متتابع، وتَعَثَّرَ بتلك الصفحة من اليوميات بخطٍّ غريب:

15 يونيه 2006:

كحَجَرٍ ساقطٍ،

ما كان فيها وإنما في البئر.

في رقدته بين مَصَبَّاتها الثلاثة،

وهو يشرب لا كالحَمَام ولا كالقطط ولا كالدواب فقط وإنما أيضاً كنبات،

وكحجرٍ بكمال مَدَاخِله، بقشرته وقلبه معاً.

يشربُ مُلوحةً على مَذَاقِ معدنٍ، للكاحل وأعلى، مَنْ ذا الذي لا يستطيع أن يكون في مكانين في ذات الآن؟

مُتَوَّج بالملوحة ومُحَجَّل،

حين انْوَجَدَ في طميها سَقَطَتْ كلُّ الجِرار بحمَّامه، ليُصَبّ طميها في هذه اللحمة الكونية.

بهذا المركز البركاني.

صارت الكرة الأرضية مالحة معدنية متمركزة على حوضه،

كلما أراد النفاذ إلى مركزها،

ردَّه من جسده انهيارٌ، (يا الله كيف اجتمعتا عليه: الرغبة وانهياراتها!!)

لم يبق بأبوالرووس من لم يحتفل بالخبر: شيطان البستان عَنين..

أموتُ أنا ويحيا (هو) في ذات العُبِّ.

حيث كلما ارتوى مات.

ليس لأبوالرووس من يُسلِّيه،

يتسلّى بلحية الشيخ مُزَاحِم هذه التي رصدوها في عربة المرسيدس، التي حملتْه من أول الزقاق في مشاوير مشبوهة، ليقف في مَكاتب رجالٍ يكشفون له حسابات بنكية له ولصهره عتيق الأشراف، ويُلوِّحون له بالحلول والمَخَارِج، لقاءات حاسمة قصيرة، انتهت بفسخ العقد العنين الذي عَقَدَه في خرابة البستان بين ابنته ومُشَبِّب. وصَدَّروا له وثيقةً مُصَدَّقة بذلك.

حتى العقود تَتَفَسَّخ: عقود النكاح وعقود الملكية وعقود البيع والتأجير والعقد الفريد، عقدك.

التوقيع: يوسف.

من عائشة / رسالة 27:

(يُفَكِّر بيركن أنه: إذا فشل الإنسان في التطوّر والتغيُّر إبداعياً فسيكون بوسع القوى الخالقة أن تستغني عنه كما استغنت عن الديناصورات ووحوش الماستدون فتركتها للانقراض. وستستبدله القوى الخالقة والأبدية بكائنٍ أبدع وأجدر بالحياة. ستستبدل الجنسَ البشري بجنسٍ أرقى وأجمل. منذ الأزل جاءت الأجناس على أنواعها وبادت، والقوى الخالقة لا تُسْتَنْفَد، سيظل بوسعها جلب معجزاتٍ للأرض، بتركيباتٍ جسدية جديدة وبوعي جديد، وبوحدات علائقية جديدة..... النبض الكامل سيظل للأبد يخفق بكائنٍ لا يُوْصَف، وبمخلوقاتٍ خرافيةٍ لم تُولَد بعد.) العاشقات ص 538.

أليس عجيباً أن أفشل في التطور ويُسْتَبْدَل إخوتي!

يكتب الصينيون كلمة (أزمة) من كلمتين: خطر، وفرصة. لتعني أن الأزمة = خطرٌ حاملٌ بفرصةٍ لمقاومته، لقاحٍ لتحفيز الأجسام الخارقة المضادة في الجسد الواحد. هذا التيار، أنتَ.

^ اكتبُكَ بكلمتين، بضمَّةٍ تُحطِّم ضلعي الأيسر كما حدث ذاك المطر، حين تحطَّم ضلعي بضمتك أنت المُعَالِج ولم أُبدِ أي لمحةٍ من ألم...
طاقة تُؤهلني لكل شيء، أي شيء، حتى الموت.
الآن حتى صوتي تغيَّر بمُسَكِّنَات الألم، يتورَّم وجهي، حتى أنفاسي ليست لها رائحة أنفاسي..

ملحوظة 1:
الآن فقط أعلنتْ مُكَبِّراتُ الصوت من المسجد المُقَابِل النداءَ لصلاة الخسوف.. يُصَلّون حتى ينجلي وجه القمر... «هو الذي خلق الموتَ والحياةَ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً..» يتلو الإمام داوود.. يعتقدون بأن ذنوبَنا تُسَوِّد وجهَ القمر، وأن صلوات توبتنا تجلوه..
أي صلاة قادرة على جلاء وجهي؟!

ملحوظة 2:
أكثر من مرة ساعدتَ في إصلاح كمبيوتري (كمهندس مُسَاعِدٍ عن بُعد) بالأمس فقط رجوتَني: «اضغطي على زر **الموافقة**، لفتح ملفاتكِ لي، قلبك وروحك، ودعيني أعاين ما أنتِ ومن أين تجيئين، وورق حائطك، والبشر الذين يشكلون بُنيتكِ..»
وارتعدتُ، بَدَتْ ضغطة الزر تلك كتمزيقِ الحِجَابِ عن وجه أبوالرووس..
يوسف جُنَّ بسبب عزة، وهاجم المصلّين بمسجد أبوالرووس، ضربوه بشراسة وحُمِلَ لمستشفى شِهَار بالطائف، لأسبوعين حلَّ على أبوالرووس صمتُ قبور، لا يُصَدِّق أنه قد أرسلَ إلى مستشفى الأمراض العقلية الصوتَ الوحيد الذي يكتب أحلامه: يوسف.
أخيراً كان العشّي هو الذي امتلك الجراةَ ليذهب إلى شِهَار ويُفرج عنه.
نحن نادراً ما نرى يوسف الآن، أتسمع خطواته تعرج على سطحهم؟
إنه يمزق كل أوراقه، الزقاق تحت نافذتي تُغطِّيه مِزَقُ كلماته، غضبه وهويته. كل فجر يصحو أبوالرووس على كومة مسودات مقالاته، مذكراته،

صوره الشخصية التي التقطها معاذ، بطاقة أحواله وتعريفه، شهادة البكالوريوس المختومة من أم القُرى.

أخيراً لم يعد هناك ما يمزقه،

عندها انفلتَ في أبوالرووس، يجمعُ الخُبزَ المُتَفَحِّم، من البيوت ومرمى النفايات وبقايا الأفران وأفنية المطابخ، يرجع بها لسطحهم وينصبها هناك لتشكيل كائن مهول، له رائحة حريق نفاذة، يَتَجَنَّبه حتى الحَمام، يسخرُ أهلُ الزقاق بقولهم: ذاك أبوالرووس تحرقه ذنوبنا، بنوافير عقوله الطافحة، وسمَّاه: « الذي لا يُؤكَل، ولا يُحرق..»

تسميةٌ أثارت فضولي، من على سطحي تلصَّصتُ، رؤيته تحت الشمس ارسلتْ في جسدي قشعريرة، مثل لمسة الموت وتَنِزُّ بمُخٍّ أصفر لحياةٍ كانت.

يعتقد معاذ أن ذلك هو الشيطان الرجيم بعينه، حيث نَصَبَه يوسفُ على سطحهم لمراقبتهم في الروحة والذهاب.

في يوسف خواء، أعتقدُ بأنه قد نَصَبَ نفسَه، أعادَ تشكيل ما بقي من دماغه بعد صعقات الكهرباء التي أخضعوه لها، وذات يوم قام بسحقه إلى غبار وترك لريح السموم أن تذروه في وجوهنا.

ما سيُمزق بعد؟

يُمَزِّقُ عَزَّة، قَاطَعَها، لم يكتب لها كلمة رغم رجعتها المهزومة تحت سقف الشيخ مزاحم. لا أحد يعرف كيف أُجبِرَ مُشَبَّب على طلاقها، اعتصمَ يوسفُ بحجرة تيس الأغوات المهجورة أعلى مطبخ العشي، يعلم الله ما يفعله هناك، فَقَدَ أبوالرووس توازنه تماماً، بلا كلماتٍ يوسف تضيع عَزَّة.

التوقيع: عائشة.

خطوط اليد بدأت تتبدَّل في يوميات يوسف، وتَخَبَّط ناصر في تحديد ما إذا كان هناك من يدسّ ليوسف يومياته، هناك ما يُثير رَيبتَه في تلك الصفحات من خَطِّ النسخ الفخم، والمُسْتَعْمَل عادة في نسخ

المخطوطات القديمة مُزَيَّناً بتنقيطٍ ذهبي وتعريقات. للمحةٍ شَكٌّ في أنه خَطٌّ قرآني، ومكتوب بيد معاذ، الذي حلف دافعاً تلك التهمة:

«يلعب يوسف دورَ الحكواتي، يَتَقَمَّص شخصياتنا ليفضحنا لأنفسنا..» هل بوسع ناصر أن يتخيَّل أن زقاقاً مثلي له خَطٌّ؟ القضية أنني.. رغم تناولي لجنون يوسف بفكاهة إلا أنه لم يستغفلني، لقد ضَرَبَني جنونُه كجلطةٍ دماغية، بُقعةُ شَيبٍ نَبَتَتْ فجأة في كلِّ رؤوسي، ولولا العَشّي مُنْقِذ المسوخ هذا لتركتُه يَتَعَفَّن بمستشفى المجاذيب شِهار. لذا تفرَّغتُ ومنذ رجعته لمراقبة أدقّ تحركاته، انظروا إليه: الخندق المحفور بين حاجبيه، يُعَكِّر لامبالاتي وحِسِّي الفكاهي. ربما أفقدُ شغفي بالحياة تدريجيّاً لكن مكري يُفْحِم ويستحكم، ولن أُمَكِّنه من خداعي.

اقتحمَ شعاعُ القمر خلال العارضة المخلوعة في نافذة الحجرة التي كانت لتيس الأغوات أعلى فناء المطبخ، بقعةٌ من حليب القمر عَمَّقت الظلالَ على وجوه البنات السماوية، عيونهن مائلة في عشق تتأمّل في الجسد المُعْتِم المتكئ على الفراش الذي يحتلُّ الفراغ الضيِّقَ بامتداد الحائط وراء الباب. لليالٍ لم يغمض ليوسف جفن، كعابد يُجهد ذهنَه للاختراق لقراءة نظراتهن المسلوبة. يصوم على ماء زمزم وخمس تمرات يومية، يُهَرِّبها له معاذ من صَدَقة المسجد. وطوال اعتكافه ظَلَّ يوسف واعياً بنظرات معاذ المُؤلِّهة، تحرسه من خلال الباب الموارب، يحرص فلا يدفع الباب ويدخل. لليالٍ جلسا على العتبة الصغيرة كلٌّ على ضِلفةٍ للباب، كصورةٍ وشريحة نيجاتيف، شاب في الداخل وظله الأسود في الخارج، يستندان بظهريهما إلى نفس الباب، يلتقطان حرارة واحدهما للآخر من خلال الخشب المتآكل، أحدهما يراقب والآخر يلعب مسرحيات مابعد حداثية لجمهور البنات..

يتشارك يوسفُ ومعاذُ الجوعَ ويَشُفّان، يضعان نصب أعينهما أن المؤمنين الأوائل خاضوا حروبهم الكبرى وانتصروا صائمين على تمرة.

حتى قلب يوسف تَخَافَتَ في حضرة تلك النسوة، يؤجج ضوءُ القمر رائحةَ الفراش تحت يوسف، مزيج دماء وزفر أطعمة رخيصة. هَجَرَ يوسفُ كُتبَه واشتغلَ صبياً في المطابخ المجاورة قبل أن يستسلم للاكتئاب مُعتكفاً بتلك الحُجرة، هو نفسه يفوح برائحةِ طبخٍ، مُستغرقاً في سَكْرَةِ اكتشافه لذلك العالم ليعبأ بالشعور بالذنب لانتحاله لشخصية صديقه تيس الأغوات وغزوه لحرملك البلاستيك والفلين. إنه يقلب الأدوار في شبكة بؤسي. معاذ هذا دائماً يقلب بؤبؤ عيني ضدي، للنظر داخل رؤوسي، يفضح ما لم أسمح لرأس من رؤوسي فيطّلع عليه. معاذ كان أول من لَمَحَ تَلَبُّس تيس الأغوات ليوسف، حين قاطع الصلاة بالمسجد، وواجهه الإمام داوود بآية الكرسي التي تدحر الشياطين، ذلك الفجر سأل الإمام الشيطان المُتَلَبِّس ليوسف ليُعرف عن نفسه:

«أي شيطان أنتَ، ما اسمكَ؟» وجاوبه صوتٌ شيطاني بصدر يوسف،

«أنا صالح...»

«صالح بن مَنْ؟»

«صالح للغاية..» الإجابة جاءت مُحْبِطَة، إذ ليس لدى الإمام ولا الشيوخ مَرَاجِعُ لشياطين بلا تواريخ انتهاءٍ للصلاحية، وماهي قادرة عليه شياطينُ أبديةُ الصلاحيَّةِ كتلك، ولا كيف يمكن مقاومتها!

كان قد انتصف الليلُ حين يئس ناصر من الركض بين تضليلات أبوالرووس وهلوسة اليوميات وفصام رسائل عائشة الإلكترونية.. أقدارُهم، لا بل خياراتُهم الحياتية تُشَكِّلُ إهانةً لرَجُلٍ مُحَافِظٍ مثله.. لم يسمع قَطّ بمهنةِ (المنسّق الموسيقي) التي يحلم أولاد أبوالرووس باحترافها، وحين بحث عنها أدرك أنها مهنة رجل يقوم بالتلاعب بأجساد النساء بواسطة الموسيقى.. هي أقرب ما تكون للتحريض على البغاء،

شَعَرَ ناصر بسخرية العين التي ظَلَّت ومنذ بداية هذه القضية تتلاعب به وتُوَجِّه حركاته.. دَفَعَ كُمَّ ثوب عائشة بعيداً تحت وسادته. تَبَعْثَرَ غضبُ ناصر، قام ينبش في خزانة ثيابه لا عن شيء بعينه وإنما على دليلِ انتماءٍ، ما الذي يعرفه عن هذا العالم حوله؟ نَبَشَ كلَّ الأشياء الصغيرة التي كان يحملها منذ طفولته، عن ذلك الحزام الجلد المُطَهَّم بالرصاص وبطرفه جِرَاب خنجر، رائحة الجِلْد مثل رائحة جَدَّتِه مِنْ روائح ولائم الليالي السابقة. حين نظر في خزانة ثيابه لم يكن من أثرٍ لناصر الذي كان مثل أبيه يخطف الكحل من العين، فقط تلك البذلات الرسمية، ستة سبعة ثمانية عشرة أطقم، بعدد سنوات خدمته، طقمان للعام الواحد... نَشَرَها على أرض الحجرة، بدأت الأطقم نحيلة مثل أشباح مَجَاعَة، ثم توسَّعتْ. الآن صار لا بدّ من اعتبار هذه الكرش الصغيرة الآخذة بالامتلاء، صارت الأكتاف تتهدَّل على كتفيه، لكأنها لا تخصُّه.. أنفق على التنظيف الجاف لتلك الأزياء الرسمية ما لم يُنفقه على جسده هذا.. هذه الثياب هي السيد في تلك الحجرة، وهو عبدُها.. بَدَتْ أرض الحجرة حوله مثل مقبرة لجنود، لأربعين رَجُلاً في رَجُلٍ واحد...

تلك الليلة بَدَتْ الحجرة أكبر بنافذتها المفتوحة بلا مبالاة على مقبرة الداخل بجثته تزداد شحوباً، نام بعمقٍ وسط جلبة العربات في الأسفل. لا يعرف كم ليلة مرَّت عليه في مقبرته تلك، كان قد فَقَدَ حواسه. واعياً وفقط بجفن عائشة مُطْبِقَاً عليه بصمته، على كامل جسده، ومضى زمن، لا يعرف كم أشرقت الشمس وكم غربت.

حين انتشلته من بين جفنيها رائحةُ الشواء في الشقة المقابلة نَبَّهَتْه لفراغ جوفه، لا يعرف متى كانت آخر وَجْبَةٍ تَنَاوَلَها،

«تعوي برأسكَ ذئاب هذا الجوع، فتهذي.» قَامَ يجرجر قدميه، وقف ذاهلاً أمام الثلاجة، منذ زيارته للمشرحة ما عاد يحتمل الوقوف بثلاجة ولا لقمة تدخل جوفه. برعدةٍ تَنَاوَل عُلبةَ المَعْمُول بالتمر يمين الموقد، بلا

وعيٍ دفع بالحبَّات المحشوة واحدة وراء الأخرى إلى فراغ جوفه، ضُخَّ السُّكَّر لدماغه مُحرضاً مراكز اليقظة. من خلال غشاوة عينيه ونافذته، لم يكن بوسعه تحديد الوقت، ليلاً أم فجراً كئيباً، أخرجَ ما بقي من دزينة زجاجات عطره دانهيل (التي اشتراها قبل عام بتخفيضٍ من صديق يُتاجر بحقيبة بضائع يُهَرِّبها في سفراته بصفة شخصية) قام بسكب الزجاجات الخمس في حَمّامه وأجرى الماء، أغلق الباب لريثما تنمَّحي غيمة العَرَق الزنخ.

***

من عائشة / رسالة خارج الترقيم:

لا تبحث ^ عن الرسالة الواحدة ما قبل أو ما بعد المائة لأننا لا يجب أن نكتبها بعد، سنتركها لما بعد سكوتنا عن الكلام، لكي تظل كلماتُها تتخيَّلنا، وتنتظرنا وتَتَوَقَّعنا على طَرَفِ كلِّ تنهيدةٍ، وتقول ما لم نستطع قوله بأيِّ لغة.

وأيضاً قَفَزتُ الرسائلَ العقودَ، تركناها للغيب، لأننا لن نستهلك كل شيء، نترك شيئاً للسِّرِّ، فالمهم فيما نتبادله ليس البحث عن الحُريَّة ولا الحُبّ وإنما اللغز، ننحني له بلا وعي ولا ترجمة ولا تفكير، ولا نسمح لوعينا بفَضِّه، لنظل متعلقين بحبل دهشته التي يمكن أن تنشقَّ عن أي شيءٍ، أن تطلق كوابحه وندخل، وهناك أجد هذا الحلم الذي يؤرقني بكَ، يُجالس حلمكَ، ويتبادل معه هذه الحزن المشحون بنا.

أجمل الحزن هذا القمر.

أجمل القمر أنتَ.

انتهزتَ غفلةَ الممرضة لتهمس لي: « هذا سِرّنا..» لا بد لنا من سِرٍّ. من حزنٍ محمومٍ، لنظل مُعَلَّقين معاً.

«زوّجيني نفسكِ..»

«زوجتُكَ نفسي..» حريصة أن تبلغ كلماتي الشاهدين، واللذين أشرقتْ

ملامحُهما بابتسامة، مذهولين وحريصين لا يفوتهما أدقُّ التفاصيل، حين فاجأتُهما بالإضافة، «على أن تكون العصمة بيدي أيضاً..» لقد صَفَّقَا بسعادةٍ باعتقاد أنهما يُمَثِّلان في كوميديا ذلك الصباح المشرق..

«لتشهدا على هذا العقد أمام الله...» شَدًّا على أيدينا بحماسة، بينما صمتت ممراتُ الحديقة المشمسة، بشاهدينا يوقِّعان عقدَ زواجنا اللفظي برَخَّةٍ من العزف على الكمان عزَّزتْ تذهيب ذلك الصباح،

«هي زوجتي الثانية، الأخرى لا تزال على ذمتي وبنفس المدينة.. أنا هارون الرشيد..» قلتَها ضاحكاً لتصدمهما وتُحفز معزوفتهما الراقصة، طوال الوقت كنتَ تمارس ذلك الطقس كنكتة.. منذ البداية لم تُصَدِّق حين قلتُ لكَ أن: «الزواج قبول وإيجاب بحضور شاهدين، وإن مطلقة مثلي لا تحتاج إلى وَلِيّ..» صرختَ يومها،

«يا الله كم هي الحياة رائعة بلا أوراق.. ليصعقني الله ميتاً إن حنثت بهذا العقد الضوئي..» صرختُكَ جمعتْ أعينَ المتنزهين علينا، وأطبقتَ بذراعيك عليّ كاسراً ضلعاً أو ثلاثة مثيراً البسمات المشجعة حولنا.. أنا حَلَّقتُ على تلك البسمات، أنتَ لم تشعر بفرق، لكن جبلاً من الإثم انزاح عن كاهلي..

ملحوظة 1:

حجراً مقذوفاً في الهواء كنتُ ذلك الصباح، أرتعدُ لحتمية اللحظة التي يحين فيها ارتطامه بالأرض..

توقيع: عائشة

***

نَجَحَ يوسفُ في تحوير رؤية ناصر لمكة، صار يراها كأنثى، لقد سلبه حتى مكة التي عَرَفَها وضَحَّى عمرَه في حراستها. . وَقَعَ ناصر في شبكة العقود التي عُقِدَتْ وفُصِمَتْ في أبوالرووس، يُدوِّخه يوسفُ: «كلما عطَّشت مكة لتموت شَـرَّبَتْها امرأةٌ، هاجر وزبيدة وفاطمة. . . .» وتدور للجهة المُعَاكِسَة كلماتُ عائشة:

***

من عائشة / رسالة صفر:

أتسمع؟

مسكونة بهديل الحمام.

لا أعرف لماذا تلاحقني أحداثُ يوم رَجْعَتي من ألمانيا.

كان يوماً من العشرة الأواخر، الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً حين غادرتُ بحقيبتي الصغيرة مطار الملك عبد العزيز بمدينة جدة، على الخط السريع فوّت السائقُ المَخْرَجَ الذي يقود لمكة مما اضطره لسلوك طريق المدينة الذي يخترق جدة من شمالها للجنوب.. لنجد أنفسنا وقد عَلِقنا في ذلك الزحام الاحتفالي. الثالث والعشرين من سبتمبر من ذلك العام وافق يوم العيد الوطني بالمملكة.. ولقد استغرقنا خمسَ ساعات لقطع المدينة التي تُقْطَع عادةً في ربع ساعة. كنتُ خلالها مأخوذة بين نشوة وخوف حين ابتلع عربتنا بحرٌ من العربات، كل ما لا يخطر لكَ من العربات الفاخرة وتلك المتهالكة والمنبعجة من كل جهة، مغطاة بالعلم الأخضر بالسيف وشهادة لا إله إلا الله، وجوهٌ مطلية بالأخضر، كل أصناف الثياب والأوشحة والقبعات الخضر ترفرف على سطوح العربات ومن أجساد فتيات وصبيان، تتدلى من نوافذ العربات أو تطلع من فتحات أسقفها ترقص وتتبادل صيحات النصر، وتُغلقُ شرايين المدينة الحيوية، أو تلتف حول الدوّرات الرئيسية والأنصاب لتعقد حلقات رقص تخلط فيها جنون الهيب هوب بشموخ التراث الخليجي..

في مكة اعتدنا أن نسمع ونُكَذِّب الشائعات عن جنون جدة الوطني.

لبلد يعاني حساسية من مواكب الاحتفالات العامة، فإن هذا اليوم هو الوحيد الممكن فيه الانفتاح للشوارع باحتفال، لا بموافقة القانون وإنما بتغاضيه، حين يستغلُ الشبابُ - تحييد الشرطة الدينية خصيصاً لهذه المناسبة - لممارسة هذا الخروج، عندها تُسقط الطِرَح عن رؤوس الفتيات، وتبدأ احتفالية الشوارع..

فتحتُ نافذةَ العربة، بخوفٍ، بشعور بالتهديد وأقصى الانفلات.. بينما كان السائق يقوم باختراقات جيمس بوند سالكاً الانعطافات المباغتة لطرق

مختصرة للنجاة بنا من ذلك الطوفان.

عالم خرافي تتبارى فيه مكبراتُ الصوت من السيارات تبث الأغاني الخليجية الراقصة مع المساجد التي تصدح بأقوى مكبرات الصوت تبث آيات القرآن في صلاة التَّهَجُّد الرمضاني..

كان يجب أن تكون هنا يا ^^^ لتتذوق هذا الكوكتيل السعودي.. سَآودي شَامبين!

ملحوظة 1:

كبرنا على مقولة أمي حليمة: «الشياطين تُصَفَّد في رمضان، فأيما إثم نرتكبه في هذا الشهر هو ثمرة عبقريتنا.. نطبخُه ونُسأل عنه بلا عون من إبليس..» انفجار عَزَّة في الضحك دائماً يربك خطورةَ تلك العبارة.

أتأمل في رسائلي الإلكترونية إليك وأتساءل: «أتُراني أُعَوِّض غياب إبليس، ونكهاته؟ أم تجد أسطري مُمِلَّة؟»

لسنا في رمضان، لكن لُقمةً لا تستقر بجوفي، لا لقمة ولا قطرة ماء لأربعٍ وعشرين ساعة.. لا وزن لي الآن.. ريحٌ عصفت مع الغروب وكادت تقتلع جهاز التكييف على نافذتي..

مُجَوَّعين كما نحن الآن من السهل أن تذرونا كما تفعل بأكياس التسوق البلاستيكية الشفافة...

ملحوظة 2:

ما يحتاج لقطع هذه الصلة بيني وبينكَ؟

حاولتُ لأكثر من مَرَّة، لكنني من الهشاشة بحيث لم أقوَ على تسريحكَ وتسريحي...

بينما كان الأمر سهلاً:

مجرد خطوة في الهواء..

التوقيع: عائشة

ملحوظة 3:
هناك أمر لا أجرؤ على مصارحتكَ به...
إذا قفزتْ عَزَّة فلن تترك ما أتمسَّكُ به..

***

أية قفزة؟؟!! بهستيريا ركض ناصر في الرسائل ليلحق،

فشل جيد

مرة سحرتَني بقولكَ: «الحُبُّ هو أن نتشارك عَاديتنا.. نتلذذ بعاديتنا بلا تدخُّل من سحرٍ أو تعويذات..»
لماذا أتشكَّى، أليس هذا هو جوهر أن نحيا؟
لتعميق الألم أعيدُ الاستماع للشريط الذي منحتَني إياه، موسيقى فايا، حدَّثتُكَ يومها عن افتتاني برواية دون كيشوت، فجئتَني بهذه الموسيقى عن دون كيشوت وقلتَ إنكَ تحب المعزوفة الأخرى عن أسرار ليل حدائق الأندلس.. حدَّثتَني عن دون كيشوت وقلتَ إن (سانشوبانزا قد قضى أعواماً يخترع دون كيشوت، ويشحذه بكل الأحلام المُحَرَّمَة التي لا يجرؤ على إتيانها، وعلى المغامرات التي يطمح لخوضها، ثم أطلقه ليحياها..)
أنا وعزة أتساءل الآن: أينا دون كيشوت وأينا سانشوبانزا؟
أصارحكَ: لم يعد بوسعي الاستمرار في العيش في صندوق شاشة الكمبيوتر هذه..

ملحوظة:
قرأتُ عن جائزة معرض فرانكفورت لأغرب عنوان كتاب، فاز بها هذا العام كتابٌ بعنوان: (إذا أردت قفلة لعلاقتك، ابدأ بقدميك..)
أفكر أن عليَّ أن أبدأ بإطلاق عزة..
وأنتَ، أعرفُ أنكَ تُهبطني من سمائي رويداً رويداً... وتشعر بالذنب.. لكن أرجوكَ لا تفعل..

برؤيتي لصورتكَ الأخيرة، بالأوردة النافرة على صدغيكَ، والتعب يقطر من أنفكَ المتطاول بإفراطٍ الآن، شعرتُ بأنني كائن من خامة أخرى.. من عالم آخر.. ربما: ضوئي...
بينما أنتَ حفرة، لا ينجح عشق أو ألم في إشباع فراغها، وستمضي تبتلعنا واحدة وراء الأخرى..
الآن فقط، وفي هذه اللحظة، فاجأتني حقيقةُ أنني لم أعد أُحِبُّكَ.. بل، لم أحبكَ قط.. ولم تكن غير مُسَكِّن للألم قسرتُ جسدي لتخَيُّلِ تأثيره المُخَدِّر...
لأنتهي الآن، في مواجهةٍ لصلعتكَ المثيرة للشفقة، وانفلات مؤخرتكَ من كل سيطرة حين تنحشر في المواقف... في المرة الأولى التي دفعتَني فيها لسرير سقطتَ كدبٍّ، بالغ الثقل بوجهٍ يُشَوِّهه لهاثُكَ، غير واعٍ برعبي وبجسدي الذي جَرَّدتَه من كلِّ حِسٍّ أو وَهمٍ بعشق.. ولقد احتملتُ بهدف بلوغ نهاية النفق أين يفتح... لي هذه القدرة على العمى حين يتحوَّل جسدي إلى كتلة عيون..
فيكَ ميت.. ألا تشم رائحته؟! هناك شيء مفقود في نظرة الرجل الذي فقد فحولته.. صرَّحتَ مَرَّةً بأن فيدريكو فليني هو مَثَلُكَ الأعلى، فرغم عجزه الجنسي فلقد حاول أن يغتذي على تجليات أصدقائه الجنسية، خالقاً منها تُحفاً فنية..
أفهمُ، أنتَ لا تُصَدِّق أن هذا يحدث لكَ، فتطارد كلَّ وجهٍ جديدٍ بأمل أن تستردَّ تلك الصعقة الكهربائية، لكن ألا تفهم: تَيَّارُك مفصول...
هكذا وببساطة..
جرى التيَّار معي مَرَّةً، لكنها مُجَرَّد معجزة لن تتحقَّق كل يوم.. يومها أعلنتَني: قنبلة جنسية!
من تُراني أُحدِّث أنتَ أم أحمد؟ هذا الذي قَلَبَ كليدوسكوب راسي، تداخلت أسلاكي واقطابي، فلم أعد أعرف مَنْ؟ وماذا؟
والآن.. ما المسافة التي يمكن أن أعرجها بلا وثن أتعبَّده يصرف انتباه جسدي عن هذا الألم؟
أتساءل: أبِوسع رجل عاجز أن يقع في الحُبِّ، أبوسع قلبه أن يركل افتتاناً

ويُخطئ دَقَّة؟ وما الحُبّ؟ أهو مُجَرَّد انجذاب جنسي؟ ردة فعلٍ جسدية محضة؟ في هذه الحالة ـ ووفْقَاً لقانونكَ في الوجود ـ فأنت قد انتهيتَ!

«يندفع الشبان الأذكياء يُعميهم الجنس.. فإذا تقدَّم بهم العمر، وخانتهم فحولتهم، لجأوا للتعلُّق بالبديل الهزيل الذي يسمّونه الحسيَّة، سِينسواليتي، يُبالغون في التركيز على الحواس وحيل إشباعها..» من قال هذه العبارة؟

التوقيع: عائشة

***

30 يونية 2006:

عائشة كاتبة السيناريو هذه اللصة، كيف سمحتُ لها بكتابة الفصل الأخير..

لقد نادتْني، كنتُ ماراً ببيتها حين لمحتُ تلك اليد تشير لي من فَرْجَة الباب، جَفَّ ريقي.. لكن.. لا ليس صحيحاً أنها ذكَّرتْني بيد عزة..

رغم انزعاجي اقتربتُ غير مُصَدِّقٍ لأجد أنها عائشة، من وراء الباب خاطبتْني: «أُدخلْ، خُذْها.. هناك عقول يمكن أنت تحيا على هذه الكتب..» بالكاد مَيَّزتُ الكلمات وإلى أين تريدني أن آخذها..

اعترفُ كنتُ ارتجفُ لسماع صوتها الابحّ لأول مَرَّةٍ في حياتي، لكأنما كانت تقول: «بهذه الكتب تنجو من أبوالرووس..» الفئران هي أول من يهجر السفينة الغارقة، أردتُ أن أصدمها بسخريتي، لكنني لم أجرؤ، وعوضاً عن ذلك خطوتُ إلى داخل الدهليز الشحيح الضوء، لأجد الكراتين مصفوفة بانتظاري طافحة بالكتب.. برائحة الورق الرطب والعقول القديمة تفوح منها مُدَوِّخة.. رَاوَدَني أن استلقي بذاك الدهليز وأعبُّ منها حتى الموت..

حين رفعتُ بصري لاقبض لمحةً من عائشة، كانت قد ابتعدتْ، تَرَكَتْ بقعةً من العتم على جدار السلالم حين توارت صاعدة للأعلى.. لم تتمهَّل لترى ما إذا كنتُ ساتبع تعليماتها.. كانت تعرف نقطة ضعفي.. امرأة بلا وجه، ولن أعرف أبداً كيف تبدو..

خرجتُ أركض، استوقفتُ أول ناقلة ميتسوبيتشي صغيرة، ورجعتُ لتحميل تلك الكراتين... تردَّدتُ في تسليمها لمكتبة جامعة أم القرى، اعرف أن لجاناً

ستتشكل لتقييمها وأن معظمها سيُعدم هناك، لذا سمحتُ لنفسي بتسليم معظمها لمكتبة النادي الأدبي...

اعتراف أخير:

على الخط السريع، بين سيل العربات، أوقفتُ الميتسوبيتشي، وكالمجنون رحتُ أنبش تلك الكراتين، فتشتُها ورقة ورقة، وعنواناً عنواناً... لكنني لم أعثر على أثرٍ للزمن المفقود لمارسيل بروست...

سقطتُ مُحْبَطَاً بين الكتب، بينما تحرّكتْ الميتسوبيتشي.. إنها تسخر مني ومنا جميعاً بحبس ذلك الزمن في حجرتها..

التوقيع: يوسف.

قَفلة

«بوسعي، وبإشارةِ إصبعٍ، إغلاق القضية..» فوجئ ناصر بأن قضية أبوالرووس - ومن دون إنذارٍ - قد سُحِبَت من تحت يديه لتُنقل لإدارة مكافحة الإرهاب، وأنه قد طُلِبَ للمثول للمحاسبة، بمواجهة تلك العين الراصدة شَعَرَ ناصر بأنه غير حقيقي،

«أبوالرووس سَبَقَكَ بمراحل..» جَلَدَه الصوتُ بسخرية باردة،

«لكنني ألقيتُ القبضَ على خليل وأُفْرِجَ عنه... هناك قوى خفية تعمل ضدي، لكنك يا سيدي تملك النفوذ الذي يُواجه كل هذه التجاوزات.. صَدِّقْني نحن نُطلق مجرماً لشوارع مكة خليل هذ.....»

«خليل هذا يدعو للشفقة بديناصوره الذي يجعله هدفاً سهلاً... ركِّزْ على جيوش الهوام التي تُشَكِّل تُربة أبوالرووس.. لا تتوقَّع أن تنجح في بيئةٍ موبوءةٍ كهذه ما لم تكن نظرتكَ ميكرسكوبية..» تَجَلَّطَ الهواء في المكتب الفخم.

«لقد اخترتُكَ أنتَ بالذات لهذه القضية بناءً على خياراتكَ الحياتية،

لمدة ربعِ قَرْنٍ كنتَ أمامَ مُعادلةٍ أن (تحيا أو تَتَرَقّى في المنصب) فاخترتَ بلا تردُّد تاركاً الحياة وراءكَ بلا نظرة أسف. . . لذا تركتُ لكَ زمام هذه القضية، لكنكَ خذلتَني، وحوَّلت رَبعَ قرنٍ من تاريخك إلى مهزلة. أنتَ انكسرتَ وتركتَ للكلمات تضليلكَ. . لقد اخترتُكَ بعنايةٍ لتلميعك مثل عصا بليارد، لكنكَ أثبَتَّ أنكَ لا تزيد عن كُرَةٍ ضِمْنَ الكُرَات على الطاولة. . . لقد حوَّلتَ القضية إلى تراجيديا شخصية، انظرْ إلى شَعْركَ وقد شاب في أقل من أسبوع. .»

«فرصة أخرى. . هذا ما أرجوه منكَ. . هل من فرصة أخيرة لي؟» تَوَسَّل ناصر مستميتاً لاسترداد دور عصا البليارد. .

«التاريخ حركة موجيَّة، حركة ومقدمات. . ومن المستحيل أن تركب نفس الموجة مرتين. .» بتلذُّذٍ أنصتَ الرجلان لصدى تلك الكلمات الجوفاء، «وبالرغم من ذلك، فسأتفوَّق على نفسي كرماً، وسأوفر لكَ انطلاقة مُتقدِّمة في جولتنا الثانية مع أبوالرووس، لتكون المُتَحَكِّم باللعبة سأمنحكَ رؤيةً علوية لما كان قبل اكتشاف الجثة، سأضعُ لكَ أربع حركاتٍ فَاتِنْكَ على دائرة الاتهام التي رَسَمتَها.

تعال، ألقِ نظرة. . ركِّز انتباهك على الخطوات الأربع في الهواء تلك. .»

حركة أولى: كاديلاك

عند الغروب مع تلك الكاديلاك السوداء الفارهة التي سَدَّتْ مَدْخَلَ أبوالرووس لدراسة الأحوال الاجتماعية لعائلات الزقاق. جاشَت البيوتُ المتآكلة تُضَخِّم فقرَها للفت انتباهها، تَرَجَّلَ سائقٌ وتَبِعَتْه امرأةٌ مُدجَّجة بالسواد من قِمَّةِ الرأس للجوارب والقفازات حتى المِرْفَق، مشيا بطول الزقاق تُلاحقهما الأعينُ المُتَلَصِّصة من وراء النوافذ، حتى توقَّفا بحجرة

الشيخ مُزَاحِم، بَادَرَ سائقُها الحبشي الشيخَ مُزَاحِم بالسلام:

«يا عم، موظفة الضمان الاجتماعي تزوركم لدراسة حالتكم، غرضها جلسة مع العائلة.» تَهَلَّلَ وجهُ الشيخ، مشيراً إلى الباب: «الله يُحيِّيها.»

بخِفَّةٍ طَرَقَتْ المرأةُ البابَ، ما إن فتحت عَزَّة حتى اندفعت العباءةُ للحجرة، وامتدت اليد لتُطبق على فمها، وانقشعتْ الطرحةُ ليُسفر وجهُ الرَّجُل. عَرَفَتْه عَزَّة، كان قد اعترضَ طريقها مَرَّات. المفاجأة شَلَّتْها، شدَّها إليه. انفرطت حبَّاتُها، عميقاً في عباءته، وفاحت بدهن العود، لا تسمع ولا ترى، لم تعِ كيف شَقَّتْه وغادر.

استندتْ إلى الجدار بأطرافها تسمَّرت عيناها ذاهلتين على وجه أبيها مزاحم، لا تعرف متى دفعتْ بمظروف النقود ليده وسارعت إلى حمَّامها. حين اغتسلت فاح بمائها، وتلك العبارة التي عَلَّقها برأسها:

«خ ص أمان الزمان، معجزاتٍ ولا معجزة موسى ويوسف في بلاط فرعون. لا حاجة لأن تقرئي انظري تخطيطاته وضحكته اللامعة، وعن قريب يُؤلَّف كتاب: خ ص كاسحة البلايين.. شبكة أقمار صناعية. دعاياته وانتصاراته شرقاً وغرباً ولحدود القطبين، بالبنط العريض ومُكْتَسِحَاً للمَلاحِق الاقتصادية ومُحَطِّماً للنظريات ومُهَنْدِسَاً للعلاقات الدولية. خ ص دولة اقتصادية فوق الدول والحدود السياسية، فوق جوازات المرور والمتاريس وبصمات الأيدي والعيون. شاهديه باختصار: هدّ للجبال ونَصب لجبالٍ، نحن الخالدين نُديرُ الكونَ بأقمارنا الصناعية، جنس فوق الجنس البشري ومستعد للتزاوج بالشياطين لكي يرث الأرض وما عليها.»

في الخارج تزلزلت الأرض، تَرَاكَضَ أبوالرووس ودوَّت الصيحة:

«أبوالرووس على قناة الجزيرة.»

«حليمة وامينة، ومعتوقة، وعائشة وجميلة، مُشَبَّب وداوود ويابس النزّاح وعبد الله وصالح اليمني وأحمد وداوود وباختة ونون وما يسطرون...

وكلنا.. كلنا على الهواء.»

«أبوالرووس بجَلاجل على الشاشة ونحن مُتَلْفَزُون.»

تَسَمَّرَ زقاقُ أبوالرووس أمام صورته على قناة الجزيرة، في بطولة فيلم كارتون،

«أبوالرووس هو الخبر، أمس مجَّاني واليوم بفلوس.»

«جدلٌ حول تسجيل فيديو لا يتجاوز العشر دقائق، تناقلته مواقعُ للمعلومات عن موقع للفيديو (يوتيوب YouTube)، لصور فوتوغرافية مُوَظَّفَة ضمن حبكة فيلم كارتون، ملتقطة لحي بزقاق يُدعى أبوالرووس من أحياء مكة الفقيرة، الصور تنقل وتسخر من واقع المرأة هناك، والمستويات الكوميدية للفقر، والتجمعات المشبوهة. وأثار شريط الفيديو الكثير من ردود الأفعال، على مختلف الصُعد، ويُقَدَّرُ عددُ المترددين على الموقع لمشاهدة للفيديو الكرتوني ما يقارب الستين مليوناً حتى الآن، والحوار يثير مجدداً أخلاقية الحرية المُطْلَقَة في تَبَادُل المعلومات، وإساءتها للشخوص المُصَوَّرَة، حيث التُقِطَتْ خلسة.....»

«جَرَّسونا.»

«مَن الفاعل؟»

«مِنَّا وفينا..»

«من؟!»

«شبكة العنكبوت الله يجازيها، صرنا شخصيات دُوْلِية.» تبسَّمتْ حليمة (مُصَرِّفة دَويّ الدُّوَلية بضمم الدال وتخفيف الواو وكسر اللام بخفة)، اختلطت بأبوالرووس مشاعر الفخر والخيانة حيال تلك الفضيحة.

حركة ثانية: يأس

ساعة قبل فجر الجثة :

أدارَ المفتاحَ بقفل الباب، كان الباب هو الذي انزاح كستارٍ واحتواه

للصمت في الداخل، انسلخت عنه حقيبةُ سفره بطرف الدهليز. هي خطوة خطاها وشـلَّتْه تلك الضحكة الرائقة المُبَطَّنَة كمخملٍ بالإشباع، قشعريرةٌ غَزَتْ جسدَه من الفرح في الضحكة، اللامبالاة، العنفوان، هذه اللارجعة في الصوت لا يعرفها، لكنه صوتُها، أما الفرح؟؟! فرح من أول الموت للحياة! من يُحرِّض ضحكتها!

تَمَاهَى بالضوء الشحيح، حابساً أنفاسَه وَقَفَ بالباب الموارب للحجرة التي كانت لنومه وعائشة، عظامه تئن من جلسة ست ساعاتٍ بالطائرة، احتبس الهواءُ بصدره لمشهد تلك المسروقة التي تزيد ضيقاً، مثل معبدٍ فرعوني منقوش بيومياتِ المزارعين وآلهتهم نَجَحَ هو في نقش تاريخه على ذاك الطلاء الزيتي، والذي لا يُشْعره بأي فخرٍ، يترك ندوباً في ذاكرة الحجرة. أعمقُ محفوراته كلمة الطلاق التي، وفي غفْلةٍ منه، بسطتْ على جسدها درعاً، ليطلع لصوتها على الهاتف ذاك الرنين الـمُسَرْطِن.

تَأمَّلَ في عائشة راقدة مطمئنة لوحدتها، تُنَوِّرها شاشةُ حاسوبها، تنبسط بعرض السرير بلا غطاء، إلا من ذاك الجورب الأحمر واصلاً لركبتها، في شعلة الجورب انقادت عيناه لمُثَلَّث السواد. معه لا تَتَحَدَّد ولا تَتَجَسَّد، معه لا يعود لها سطح ولا تضاريس، تتحوَّل إلى بقعةِ حبرٍ مغسولة ألف غسل، تنكمش بين يديه وتترك له الحَفْرَ فيها لتوليد الأخيلة! الآن، على الوسائد تنطوي رقبتُها لتَدسَّ قُبْلَةً وقطرة، هذه الرقبة التي لم تَدسّه أبداً ولا يعرف حتى مذاقها أو رائحتها! دائماً رَبَطَ النساءَ بالروائح، تتجسَّد له المرأةُ من رائحةٍ، مُجَرَّد بَصَلَة كفيلة باستحضار زوجة ابن العم التي ربَّتْه، أما رائحة الكلوروكس فتُجَسِّد له أُمَّه أينما فاحتْ، الديتول يَلْصَق باليد كصدرِ أمِّه. أول زواجهما وكلما شَجَّ عائشة يُغَرِّقها بالديتول ندماً، يقول، «ارقدي على صدر أمي، ورَقِّدْيني!» يغترفُ ويشعر بالأمن، حتى النسوة اللواتي يُعزِّينه في كازابلانكا يرفلن في أجساد مصبوبة من روائح الخمج: عَرَق أو ثوم بعطر، ضخمة هي الأجساد التي ينصبها

الثومُ، تُوحي بالتسلُّط والهيمنة، تُوحي بالقتل، حين يهوي عليه صدرٌ من ثوم يُوقِنُ أنه لن يطلع إلا مستباحاً إرباً إرباً، تلك أجساد تزعق وتفضح بكلِّ لمسة! أما عائشة فهي المرأة الوحيدة التي بلا جسد، لأنه لم ينجح حتى الآن في قبض رائحتها،

«ربما الآن، وفي تَمَطِّيها بين ساتانِ الفراش ووَبَرِ الحلم، ربما تفوحُ برائحةِ حيوانٍ أو حرِّ الأطلس الجديد.» هذا الساتان بلون الخُزَامى تحرص في حضوره على طيِّه ونفيه إلى جوف خزانتها، مضى على عرسهما وطلاقهما عامان ولم يُمَسَّ، لكأن لَمْسَهُ بجسدٍ عارٍ سيترك وصمةً أو حرْقاً! مفرش الخُزَامَى الذي أخرجتْه في غيابه هو القطعة الوحيدة التي جاءت بها عائشة من خزانةِ أحلامها كمراهقة، وربما هي القطعة الوحيدة التي سَمَحَ لها بإضافتها إلى أثاثِ البيتِ وعلى مَضَضٍ. شَعَر بانجرافٍ لِـمَسِّ كلِّ تلك المحظورات، وتَرْكِ بصمتِه عليها، ولو لمرّة أخيرة،

«تُخْرِجُ عائشةُ روائحَها المدسوسة وترقدُ فيها وتحلمُ وتتغنَّج للحلم..» صعقتْه حسرةٌ لذاك المخزون، بِخِفَّةِ زاحفٍ كان على ذلك السرير المَذْبَح، لا يعرف كيف تَمَكَّنَ جسدُه من تنفيذ ذاك الدخول، لكأن ثانيةً من الزمن سالتْ كقطرةِ ماءٍ، وسَيَّلَتْه فيها، وانسفحت بطول جسد عائشة منتهكةً لذاك الساتان، في لمحةٍ كان جسدُه خليطَ ساتانٍ ووَبَرِ عائشة. التنهيدة التي شقَّت في جسدها طلعت من شفتيه، هي لمحة صيَّرَت الحجرةَ عجينةً واحدة، أدرَكَها أو أدركتْه في منطقةٍ من حلم. للمحةٍ كان جسدُه ينشج، عائداً لأصله، النشيج الذي علا شَقَّ في العجينة، وانشقَّتْ عائشة. في لمحةٍ كان خارجها خارجه، تجحظ عليه عينُ هذه المرأة بسخطٍ وببرودٍ أفدح من الموت، ورجع هو الطليق الغاصب الغائب للأبد، ولا يُحتَمَل، شقَّ صدرَه مسخُ غضبٍ وتَمَلُّك، وتَطَاوَلَ إليها، يطمسُ ذاك البرود والجورب الأحمر، بخطفةٍ كانت بين يديه وأسفله. لا يعرف متى بدأتْ يدها تضرب، لا تريد أن تعرفه ولا

تُحبه، كان لقيطاً في تلك الصفحة من لاجسد، كان مرذولاً خارج كل الكون، وحده. لا يعرف من انفلت كصاعقة، هل حَمَلَه الجسدُ أم رماه، صعدَ أم هبط.

في لمحةٍ خَلَت الدارُ عليه، إلا من تلك الشاشة الطافحة بالكلمات وذاك الكتاب الساقط بين قدميه، مفتوحاً انكبَّ الكتابُ على وجهه، على غلافه الأول امرأة وعلى غلافه الأخير رَجُل. لم تعبأ به المرأةُ ماضيةً في وقفتها، بمنديلها وجوربها الأحمر الصارخ للرُّكبة، وسواد صوف تلك الطاقية، وهي تتأبط كُرَّاسات الرسم. يُقابلها عن يسارٍ وجهُ الرجلِ بالشعر الأملس مشقوقاً على جبهته كستارة، والعين فيروز محلول بنعاس. . شَعَرَ بهما يُطبقان عليه، وتُهدِّده تلك اللحية التي من لحى شيوخ الحرم، والأبعد عن لحى الشيوخ.

بحركةٍ ختاميةٍ يائسةٍ تَناوَلَ الكتابَ وفي الصفحة لَفَتَتْه سطورٌ مُعَلَّمَة بالأخضر:

(تَأمَّلَ بيركن في المادة الباردة الخرساء لجسد جيرالد الميت. تَذَكَّرَ كيف، وذات مَرَّةٍ، قَبَضَ جيرالد على يده، وشَدَّ عليها بدفءٍ، بقبضةٍ من الحُبِّ النهائي. لثانيةٍ واحدة، وأفلته. أفلته للأبد. لو أنه أخلصَ لتلك القبضة لما كان للموت أيُّ تأثيرٍ عليه الآن. أولئك الذين يموتون، وفي غمرة موتهم يتمسكون بقدرتهم على الحب والإيمان، لا يموتون. يعيشون في أحبائهم.) ص 540.

حين غَادَرَ أحمد المسروقةَ والبيتَ وصمتَها القبوري لم يعرف زقاقُ أبوالرووس أين يواريه بحقيبة سفره، على كلِّ جدارٍ وعَطْفَةٍ طَفَتْ ملامحُها على كتفيه، تصرخ به لكي ينتبه، للجورب الأحمر الملفوف كَكُرة والمُعَلَّق على طبق الاستقبال الفضائي للمقهى، كيف وصل إلى هناك ويرقبه؟! تَجَنَّبَ بيتَ أبيه النزَّاح ومقهى الزقاق حيث لم يُفِقْ عماله بعد من

رقدتهم في الصَّنَادق خلفه ولا فَتَحَ أبوابه بعد. انتهى إلى مقهى المَهَاوي على مدخل مكة يُجرجر حقيبةَ سفره، 7/24 تفتح تلك المقاهي لاستيعاب سيول المعتمرين الأبدية، تَأَمَّلَ فيه العاملُ الباكستاني لفترةٍ لا يعرف كم طالت، فجأة تَـنَـبَّه أن عليه أن يختار شراباً، يضيف إلى سكتتها مذاقاً ورائحة،

«مُعَسَّل بالتفاح. . . لا. . . تُمْبَاك.» تَبَسَّمَ العاملُ مُتفهماً الحاجةَ لذاك التبغ القوي،

«تميس؟ فول؟ معصوب؟ شاي؟ كِبْدَة وكلاوي؟ لَنْقَطَة بالعسل أو الجبنة؟ »

«لا. .» نفخة واحدة عَبَّرَت عن الفراغ في تلك العين التي لم يغمض لها جفن. مضت ساعة وهو يرقبُ الجَمْرَ الذي خَبَا في رأس الشيشة لم يسحب منه حتى نَفَس واحد، نسي خرطوم الشيشة في يده كجثة، كجسده الذي يئن تحت عجلات عربة:

«هذه الملعونة هي الابتلاء الحقيقي لي. لها أجساد قِطَّة بسبعة أرواح.»

حركة ثالثة: فك

بعد أيامٍ من ظهور الجثة انحبكت سُحُب الشيخوخة على حانوت الشيخ مُزَاحِم من غيبة عَزَّة. وأفاق من نومه تلك الليلة على أنيابٍ تقرض، أنصتَ مُكَذِّباً، جَرجرَه القرضُ إلى الحجرة القصيَّة بآخر المخازن، فَتَحَ ليصعقه مشهدُ جميلة، رابضة هناك تقرض حفنةَ الذرة بين راحتيها، تَسمَّرتْ شاخصة لدخلته، للمحة لم يعرفها ولم يعرف من دسَّها له، ثم وفجأة تَذَكَّرَ الشيخ مُزَاحِم كيف مَلَّكوه إياها تلك الليلة:

«أحقاً عَرَستَ يا شايب بجميلة؟» استرجع ذلك الحَدَث الذي تمَّ قبل

ساعاتٍ من العثور على الجثة مُستظلة بجداره، كان أبوها حسن اليمني قد جَلَبَ مأذوناً من حيِّ الحفائر،

«لا تقلق يا شيخنا مُزَاحِم، على سُنَّةِ الله ورسوله، دَلُّوني عليه خارجاً عن القانون يَعْقِدُ لمن هم خارج الجنسيات والسجلات.»

حين رجع الأب كانت جميلة تَتَعَثَّر في إثره، دَفَعَها أمامه إلى حانوت الشيخ مُزَاحِم في عباءتها الـمُخْمَرَّة، وخلاها هناك واقفة بظهرها للطريق، بلا كلمة تَلاشَى على الدرب يدفعُ رزمةَ الخمسة آلاف في جيبه الضيّق. لم يُعِرْه الشيخُ مُزَاحِم نظرةً. كان شاخصاً لجميلة، مبهوتاً، بالكلام يتراصف بحنجرته ويكتم أشواقَه. مهما تَوَلَّعَ لم يجرؤ على ملاغاتها حتى بِنَفَس، لا يعرف كم مرَّ من دهور على جلسته مُحَدِّقاً فيها. شَعَرَ بالباب الخلفي للحانوت يتوارب وبعين جميلة تشخص للشق بفَزَعٍ، خاف لو قام لانهمرت لوعتُه وأغرقت الحانوت، أراد استجماعَ كُلِّه لهَا، للتصرف في يقطينتها لتقسيطها لخزنها لتبذيرها دُفعةً واحدة، لم يعرف أيَّ بُخْلٍ يتوسَّل لتَمَلُّـكِها! قام يعرج وتبعتْه منصاعة لإشارته، عَبَرَ بها بابَ الحانوت الخلفي للمخازن، دسَّ رغبتَه راقدة مسحوقة عقرباً تحت حجر، وأرقدَ عليها قُبَّةَ جميلة، ولم يكتفِ، كان حَرِيّاً بأن يستلقي للأبد ناظراً إليها فوقه لو لم تقاطعهم تلك الجلبة، قام وغادرها مستجيباً للإعصار في الزقاق. أغلقَ عليها مخازنه في الساعات الأولى لعُرسها.

في الأيام التي تَلَت شقَّتْ البابَ لأحواض المخازن، تأكل من خوفها، تأكل من وحدتها، سَرَت إلى أكياس التمر، بدأت بالأكياس الأقرب تركت فيها كهوفاً من حُفِرِ إصبعها.

هالَ الشيخَ مُزَاحِم أن شوقَه قد خانه لجميلة حتى أيقظه الآن قَرْضُها. من وقفته على باب المخزن تأمل فيها بعد إهمالِ أيامٍ: فاضتْ بضاضتُها فصارت تقطر دَبقَة على الأرض تقوده إليها، طبقات الشحم أسفل ذقنها انتفخت وسادةً للرأس الصغيرة، وحزام خاصرتها تَكَوَّر، أكوازُ شحم

تتراكم نافرة من الصدر والحوض مُثقِلَة ذاك الجسد القصير، فجأة انقشعتْ عينُه التي اشتاقتْها وجَوَّعته، وانشقَّتْ برأسه عينٌ جارحة تُعَرّي للعظم الطفلةَ الجائعةَ أمامه، لم يعرف من أين انبثق ذاك المسخ.

للمحةٍ صار واعياً ببياضٍ وسوادٍ جُلّه مطموس، رسوم عَزَّة بالفحم التي طَحَنَتْها في خوفها جميلة، إلا أن الأطراف التي نجت من الطمس السريع كانت كافية لتُرجِّع بذاكرته مَشْهَدَ القتيلة، وقف على الباب مشلولاً، ضربتْه حاجةٌ للحياة، للخروج عارياً بأبوالرووس يصيح بالإثم الذي لا تُجدي معه كل ثورات التوبة.

سارع الشيخ مُزَاحِم فأغلق البابَ بينه وبين تهديد ذاك القارض المُتعدِّد المنفلت في فحم عَزَّة، تراجع ليستلقي في حانوته وحيداً بائساً، وبدأ الدمع يهمي يحفرُ عظمَ وجنتيه الناتئ. لم يبكِ مذ كان طفلاً في قماط، والآن سقطتْ عنه لامبالاته، سارع ينبش عن عَزَّة تحت كل كيس، حتى تكدست الأكياس على الطريق، مُعظمُها مُنتَهي الصلاحية، وبينها الشيخ مُزَاحِم حاسر الرأس لم يُخضِّبْ لحيتَه من زمنٍ.

صار الليلُ يهبط على أبوالرووس لينفرد بالشيخ مُزَاحِم الذي تآكلت أجفانُه فما عاد ينام: «هل لَمَحَتْ جميلةَ عند عقد قراني عليها بحانوتي؟ يا ستَّار لا تجعل عَزَّة رأتْها وشردتْ؟» يحرقه انفلاتُ جُرذ جميلة في مطارح عَزَّة، «من يطيق هذا يا الله.»

بجوف الليل تَحتَدُّ حواسُه مَشَارط قاطعة بانتظار خطو عَزَّة، تحتدُّ حواسُه ولا تلقط إلا قرض جميلة لا يسكت ليل نهار، تسري وتقرض وتتكوَّر. تَنفَذُ أنيابُها إلى قطن فراشه ولقحط أحلامه تقرض، ولا يجرؤ فيقوم ليدخل عليها خوف أن تبقر بطنه وتلتهمه حيّاً. مهما أنصتَ لم يسمعها مَرَّةً تَلِجُ دورةَ المياه لطردِ بقايا ما اجترَّتْ. كل شيء يختمر داخلها ويتفتَّقُ على جلدها ببياضٍ.

«هل رأتْها عَزَّة؟ فأرةٌ شَرَّدَتْكِ يا عَزَّة»

يا نفيسة
شَرَّدَتْكِ لتنفرد بالشائب، والدكِ.»

غُلْبَة بيبسي

أفاقَ الشيخ مُزَاحِم ذاك الفجر على حبل احتماله ينقطع، قام، ولأول مَرَّةٍ في دهرٍ لم يعرج، عاقداً العزم على ختم أوجاعه. وتوضّأ وسارع فرفع أذان الفجر من المسجد، وكان الإمام داوود قد غَلَبَه النومُ.

قال في نفسه: «كلُّ حَجَرٍ التقطَ أذاني يشفعُ لي يوم القيامة.»

أَمَّـلَ الشيخ مُزَاحِم أن يُسعفه الترابُ والحجارة في مهمة يومه. شاهدوه باهت اللحية مندفعاً لداره، بحسمِ فضِّ الأقفالَ مستميتاً للمخازن، مقتحماً على الحيوان القارض، لرؤيته سقَط فكُّ جميلة بحجمِ بوابةٍ وتناثر من بين أشفارها قمحٌ مجروش وجحظت عيناها بينما قادها للحانوت، صبَّ كامل رفِّ الحلوى لها في كيس خيش وحَمَّلَها إياه: «تَوَكَّلي على الله، لبيت أهلكِ.»

عبثاً حاولت إحكام أزرار عباءتها، طار زِرٌّ وانخلع آخر، ولاحقت الأزرارَ مُصَمِّمَة على الاحتشام، هي الآن زوجة وتحمل اسم شيخ تُجَّار أبوالررووس! حشر رزمةَ النقد من فئة الخمسمائة كنعشٍ على صدرها، دَفَعَها للطريق، بعينٍ لا تزال تُلاحقُ الأزرارَ وعينٍ على تآكل حنَّاء اللحية حملت الكيسَ وسارت، فكَّرت أن عليها نقع حِنَّاء عَدَن وتجديد لحيته، ستسرق له من كيس أمها تلك الحناء التي تقطف جَدَّتُها وَرَقَها في جبال صنعاء وتُجَفِّفها وتبعثها لهم في أكياس.

رَاقَبَها تتدحرج أمامه وتتفتق عباءتها على كرة البطن وأكواز الصدر، ماضية في الانتفاخ. لا يعرف متى يلحقها بكلمة (الطلاق)، كان يجب أن يَصُرَّ لها كلمة الطلاق في ذات البقجة لِتَفُضَّها بشبقٍ مع الحلوى...

للحظةٍ فكَّرَ أن يقذفها بتلك الكلمة وتَرَدَّد خوفَ أن تنوء بثقلها وتنفجر على الطريق ويتبعثر شحمُها كعَزَّة ويُلَوِّث الدربَ أمامه ما عاش. . .

رَاقَبَها حتى تلاشت، ثم، وبذات الصمتِ، توكأ على عُكَّازه لمدخل أبوالرووس، ارتقى عربةَ النَّزْح المنتظرة، تَلَقَّاه يابس النزَّاح: «ءأنتَ واثق يا شيخ مُزَاحِم؟»

«أعاننا البصيرُ، وغَفَرَ لي.» لم يُفصِح أيهما عما هما بصدده، تحرَّكَ الصهريجُ مغادراً أبوالرووس، فجأة استرعتْه موجةُ الصغار يُلاحقون تلك الجرافات فاقعة الصفرة، التي انبثقت تهدر من أعلى الزقاق كاشطةً طَبَقَةَ الصَنَادِق والأعشاش المُفَرَّغة في طريقها مُقتَحِمة في أبوالرووس وصدر الشيخ مُزَاحِم المطبوق كقبرٍ. تمهَّل صهريجُ النزَّاح وفي المرآة راقب الرجلان الجرَّافات، تغرس خطمها في بستان مُشَبَّب، وتغوص لتبقر الأقبية المستترة. من كل صوبٍ وبِدَكَّةٍ واحدةٍ هَاجَتْ سُحبُ من طَرَبٍ وبخورٍ وورقٍ وحجارة قديمة ضربت في أبوالرووس بشَررها. ولم يلتفت الشيخ حين أخذت الجرافاتُ تطحن الفسيفساء القديمة وتدوس مجلدات الكُتُب، اختلطت صفحاتٌ بالتراب، وتَسَارع الصغار يتخاطفون من الخشب المُعَرَّق والتُحَف والآلات. وتهاوت الأقبية تحت البستان والزاخرة بمخزوناتٍ مُعَمَّرة، من الأثاث والحُليّ وشواهد البيوت وبقايا تطهيمات الخشب، كل ما قضى مُشَبَّب عمره يجمعه سُمِعَتْ له دَكَّة قَلَبَتْ جوفَ الأرض وانتزعت تُحفة أبوالرووس، الذي صار يطفو على تربةٍ هشَّة.

انتهى الشيخُ مُزَاحِم إلى مركز الشرطة، إلى تلك الحجرة، حيث حفنة من الضباط والجنود ترسم نصف حلقةٍ أمام شاشة حاسوبٍ مفتوحة على مؤشر الأسهم، في لمحةٍ أتمَّ الجندي صفقةَ بيعٍ وفي أخرى تَمَّمَ عملية شراء، بدا خبيراً في توقيت العمليات، مع كل ضربة من إصبعه على لوحة المفاتيح تتصاعد زفراتُ الارتياح:

«اسمحوا لي، الكسب قليل صحيح، لكن، أنا ماضٍ على قشر بيض، خطوة خطوة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.»

شد الضابط على كتفه بعرفان: «والله كنا في كرب، لولا نباهتكَ.»

«هذه الأسهم الصغيرة كما أسهم الشركات الوهمية، نعمة، لولاها لخربت بيوتنا، الأسهم القيادية في الحضيض، والسوق تتأرجح وتُلقينا لجهنّم، ما لك يا قحطاني، انقطعتْ أنفاسُكَ؟»

«دفعوا لي في ناقة نصف مليون ريال، ورفضتُ أن أبيع، لأرقب ناقتي تنفق أمام عيني بالعَلَف المُسَمَّم من صوامع غِلال الجنوب..»

«الأسهم والإبل ثروة المخابيل ...»

وكان الشيخ مُزَاحِم يَتَكَوَّم بجوار الباب على عُكّازه، تائهاً في بحرٍ من التردُّد والعار، دَقَّ بعصاه الأرضَ، تَنَبَّه الجندي: «خير؟»

نَفَادُ الصَبْرِ يُبطِّنُ الكلمةَ بحَذَرٍ، دخان السجائر يواكب حِدَّة الصفقات، يرسم على الشفاه ظلالاً غطيسة، أحسّ الشيخ مُزَاحِم أن الكل تمَّ تغطيسه في حبرٍ ما، فصارت الابتسامات ممطوطة، وعبق الشاي يفوح من الأفواه القرمزية ويترك في الحجرة حموضة، ما إن فَتَحَ الشيخ مُزَاحِم فمَه للجواب حتى داهمته نوبةُ سُعالٍ حادة، بعينٍ رطبة فحَّ:

«البنت التي في المشرحة، ابنتي عَزَّة.»

صَفَّحَ الشيخ مُزَاحِم قلبَه ورأسَه بالرعب الذي لولاه لما أخرجتْه جثةٌ مجهولةٌ بمشرحةٍ عن سِترِه. رعبُ العبارة التي هتكتْ سِترَ أبوالرووس وشَيَّبَتْ رؤوسه، لا يعرف من أنْشَبَها عَرَضَاً بقلبه: «الجثث المجهولة يرسلونها للكُلِّية. في مشرحةِ كُلية الطب، الطَلَبَةُ يتكئون على ثديها ويشربون البيبسي!»

حركة رابعة: اتجاه القِبْلَة

مع انتصاف تلك الليلة انقشع كلُّ السواد، تَحَرَّكَتْ في بَشَرٍ من الجنسين، وانفرطت الألوان والمفردات والأفعال وردودها.

هذه الفتاة التي تطير لأول مَرَّة تستطيع أن تُحَدِّد خطَّ رحلتها بالألوان:

أحمر: جوف السيارة التي ظَاهِرُها أسود والتقطتْها، بدءاً من نقطةِ زمنٍ لم تفتحْها بعد، تركتها وراءها كعُلبةٍ مخبأة في رفٍّ.

رخامٌ مُزَجَّج: البرج الانتقالي المُطِلَّة نوافذُه على صحن الحرم. لقطة أخيرة غادرت بها مكة.

ذهب: كل ما في الفيلا المؤقتة، التي دخلتْها في مدينة جدة. . (نقطة انتقالية)

فضَّة: لون الأدرينالين، يُضَخُّ بكميات هائلة، يعميها كلما زادت قوة ضغط مياه الجاكوزي على جسدها، مهما اغتسلت ومُخِضَتْ لم تَنْحلَّ أو تتقشر تلك الجلدة.

ثلاث نقط من الأسود: عينا الخادمة الفلبينية، تحمل عباءتها بالسواد المشقوق، من على أرض الحمَّام لتَدسَّها في حاوية النفايات، ومباشرة للكيس البلاستيكي لا تتركها تمس ولا حتى تذهيب الحافة.

خردل: مقاعد الطائرة الخاصة، برائحة جلدٍ جديد، والتي تُحَلِّق بها الآن.

كُحل: خيالُ المضيفة VIP، المُكَلَّفة بها، تشدُّ لها حزامَ المقعد، تتأكد من الوسادة خلف رقبتها، تحفر في كينونتها الجديدة، تنبش ركام الأمس (زمن ما قبل التعديل).

«رحلتنا اليوم جدَّة مَارْبيّا، بدون توقّف. نُحَلِّق عَبْرَ الجاينت سِيتِيز، والماكس سِيتِيز، والهايبر سِيتِيز، والسوبر سِيتِيز، نُحلِّق خلالها على ارتفاع

مليون قدم. في جيب المقعد لوائح للتسلية، ولوائح الوجبات السريعة أو الساخنة. وأكياس في حالة الشعور بتَوَعّك أثناء المَطَبّات. زمن الرحلة قد يطول، وعادةً يقصر... لا حاجة لربط الأحزمة.»

كعكة كبيرة: شعرها الذي طلعت به ذيلَ حصانٍ، ينفلتُ الآن، شلالاً يتمدَّد على ظهرها والمقعد.

أبيض شفاف: خيال ساعديها المضمومين باستماتةٍ على جذعها في ذاك القميص الأبيض الصقيل. لا تستجيب بنظرةٍ ولا بحركة للأعين حولها (كائنٌ يُمارسُ فِعْلَ محو ذاتي، فعلَ غيابٍ كُلّي).

زئبق بارد: تلك المرآة التي راوغت وجهَها الذي تعرفه، في تلك الفيلا على البحر الأحمر. معدنٌ مُرَاوغٌ يَتَهَرَّبُ من عينه... تلك العين التي تَعرِفها وتَذْكُرُ حقائقَها.

بُنّي مذعور: عينٌ فاجأتْها ذاك الفجر من شق الباب، نظرةُ فزعٍ حَوَّلَها إلى جسدٍ منسلخ من واقعٍ سابقٍ، يجرفها بأُميَّةٍ تَفوقُ أُميَّةَ الحرف: بلا حقيبة ثياب، بلا اسم، أو قراءة مبدئية لتاريخ ما يمكن أن يكون.

أحمر: جوربان طويلان للرُّكْبَة (نجحا في النجاةِ بذاكرتها) يتكوَّران بطبق فاكهتها الآن.

شفَّاف: زمزم لما شُرِبَ له: لمرارتها، لأدوائها، لشعرةٍ بين العينين، العين اليمنى فريسة واليسرى صياد، حولاء، يسقط كل ما يقع فيها.

ما عاد لرائحتها من أملٍ أن تقودها راجعة لما كانت قبل ذاك الفجر.

عيون حارة: في مكانٍ ما بذاكرتها.

فلاشات حارقة: لقلبٍ تركتْه تحت حجرٍ في ذاك الزقاق، قلبٍ مسحوقٍ تحت حَجَرٍ، يطمس سجلاً جنائياً، في ذاك الوجه الـمُهَشَّم، أغلقتْ عليه وجاءت قادرة على... أي شيء؟؟ كل شيء.

كَفَّتا ميزانٍ: (عين وعين)، من منهما استسلمت ومن هَوَتْ؟؟

مِسْكُ الخِتَام: سوادٌ، مرَّتْ به على الجبهة، مَحَتْ وجهَها المُبَكَّم

المكشوف للآخر الذي لا يعرف ولا يريد أن يعرف! مرَّت خلف أُذنيها، لا تريد أن تسمع رنينَ وَقْعِ المعدن داخلها، مرَّتْ كفُّها فمَحَتْ أسفلَ الذقن كمن يَتَتَبَّعُ ماء وضوءٍ، حنت رأسَها وأسندت سبابتها على شفتيها فأدركت الأمر بالصمت، بالتَّكَتُّم، وَعَت المُفَارَقَة بلُبِّ الشفة مزمومة على سِرٍّ. ارتفعت سبَّابتُها وانحنت تحت فتحتي الأنف. ألقت برأسها للوراء وتَنَهَّدَت: «حين نغادر الأجواء، كل شيءٍ قابل للطَّيِّ.»

برأسها لا تزال الساعة تشير إلى زمن الإقلاع (الثانية عشرة)، شَعَرَتْ بأن الطائرة تدفع أمامها تلك الساعة، تلك اللحظة الأولى من الثانية عشرة، مُخلِّية وراءها الزمنَ المفتوح، مَرَّت عليه الشمس فتفتَّح. . . على شاشة التلفزيون أمامها كانت اللوحة المُوَضِّحَة لاتجاه القِبْلَة: طائرة صغيرة مربوطة بخيطٍ لمُكَعَّب أسود صغير يُمَثِّل الكعبةَ، رَاقَبَتْ الطائرةَ أمامها تمخرُ غرباً مخلية الخيطَ مشدوداً بمُكَعَّبه الأسود للوراء. . يَشُدُّ المُكَعَّبُ والطائرةُ تَشُدُّ. . سَمِعَتْ الخيط ينقطع. . انفلت المُكَعَّب في الفراغ. . وطاشت الطائرة. .

هزَّاز

فَتَحَ عينيه في الصباح، أحدُهم دَهَنَ هذا الصباح الخريفي بالأصفر الفاقع، وأفلتَ ريحَ السَّموم تعوي ذاك العواء الأصفر ما بين جبال مكة وأبراجها، وجعل الشقوق على العمائر العشوائية تنز بمرارات العمال المسفوحة على كل تشطيبٍ رخيص، يعرف ناصر أنه أوان تلقيح النخل، تدفعه السموم للتساؤل: «أبقيَ في مكة نخل يلقَّح، هذه التي حَرَّمها إبراهيم عليه السلام فلا يُقطع شجرها ولا يُذبح صيدها ومن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؟»

أدار مُحَرِّكَ سيارته وتَوَجَّه للاستديو حيث يعمل معاذ، لم ينظر يميناً

ولا يساراً، عيناه غادرهما الشَّكُّ والتقصّي،

«ألديكَ صورة لعَزَّة؟» انطلق السؤال بلا مقدمات، باغتْهما معاً.

«بالطبع لا. .»

ساق ناصر في زيارةٍ أخيرةٍ لأبوالرووس، حين أقبل لم يعرفه، كمية الهجر فيه تضاعفت، المقهى هو المكان الوحيد العامر، في حواره مع السوداني المُحَاسِب شَرَحَ له:

«لم يسكت الزقاق دفعة واحدة، الفراغات في أبوالرووس جاءت مثل أسنان تسقط. . قبل أسبوع تسلَّمَ مَنْ بَقِي من الأهالي إنذاراً بالإخلاء في مدةٍ أقصاها شهر. .»

«وأنتَ؟» ابتلع ناصر ذاك الشعور بالذنب، أهو الحزن القاتل الذي أطلقه من المشرحة، يسري ببطء في مكة؟

«ما دام المقهى قائماً فأنا هنا. . . هذا ربما يستغرق وقتاً. . . أهالي أبوالرووس صاروا من أصحاب القروش، ملأوا جيبوهم من التعويضات وطاروا لخارج مكة. . .»

«والإمام داوود؟»

«انتقل إلى حُجْرَةٍ ببيت إمامِ مسجد المعلاة، لريثما يجدون له مسجداً.» شعر ناصر بأن هناك من سحب المَشْهَدَ من تحت قدميه وتَرَكَه مُعَلَّقَاً في الفراغ، تحت أنفه وبصره خلا الزقاق وفي النظرة التالية ربما لن يجده، وسيجد عِوَضَاً عنه حُفرةً كبيرة. .

«وأم يوسف، أين ذهبت؟»

«جاءتْني وقالت: ذاهبة إلى هنية!! مُبَاشَرَةً بعد انتقال الشيخ مزاحم لأقارب بالطائف. . . تَرَكَتْ رسالةً بهذا المضمون معي ليوسف لو جاء يسأل عنها. .»

«وهل تسلَّمَها يوسف؟ هل يمكن أن أراها؟»

«لا، لا أستطيع تسليمكَ إياها. . لكنها تَرَكَتْ نسخةً أخرى، قالت

إنها مربوطة في نافذةِ حجرتها بالسطح. . . » أسرع ناصر إلى بيت الشيخ مزاحم المهجور، صعد الدرجات المتآكلة التي تقود إلى سطح حليمة، لأول مرة يرى المكان بدون حضور حليمة المرح، أمامه كانت نافذة حجرتها المُطِلَّة على السطح، مربوطاً في حديدها شرشف صلاةِ حليمة، وبِرُكْنه رأى تلك العُقْدَة الكبيرة الملفوفة على الرسالة، حلَّهَا وبدأ يقرأ:

يا يوسف، لم أذهب إلى الرباط... معكَ حق.. الله يحسن لي الخاتمة على الإيمان ويؤنسني بالناس، سَاعَدَتْني تالةُ في كتابة رسالتي لكَ، جزاها الله عني، أعطتني الوقتَ رغم أن عليها أن تذاكر بجد لتحصل على مجموعٍ عالٍ لتُبتعث على حساب الحكومة للدراسة بالخارج... الحياة هنا غير الحياة بأبوالرووس.. تالة تكتب القصص مثلكَ، هي في السابعة عشرة وأنا أقول إنها تحلم، وإن على كلِّ بنتٍ أن تكتبَ أحلامها... لكي لا تفوتها أو يخلطونها لها بالنخالة..

تالة هي من اقترحتْ عليَّ العيش هنا ببيت جَدَّتِها هَنِيَّة، هَنِيَّة امرأةٌ مرحة تُحِبُّ الحياة وتسكر بزبيبة، ولقد فَرِحَتْ بي، وفي الأيام التي عِشتُها معهم رأيتُ بيتاً بلا رَجُل، إلا السائق الأندونيسي، وبنتين بلا أزواج ولا أطفال، وشغلهن مثلكَ الورق، والسفر، فَكَّرتُ أنكَ لو سافرتَ لربما عثرتَ على العالم الذي تبحثُ عنه.. يا يوسف لا تقلق، أنا سافرتُ إلى مدينة جدَّة ورأيتُ العالم، هنية تأخذني للبحر كلَّ جمعة، نأكل البليلة والآيس كريم من سيارات متنقلة، وهناك يَنصبُ الناسُ ستارةً ويعيشون فترة العطلات يُطَيِّرون طيارات بلاستيكية ويركبون الخيول الصغيرة بالأجرة، ويسبحون حتى تغرب الشمس، ويُصَلُّون على الرمل المالح... نذهب إلى معارض الهَرَم، كلُّ خلق الله يشترون ثياباً الثوب بخمسة ريالات.. لا أحد عارٍ.. الحياة سهلة هنا.. عرفنا بموسم الحج حين طَعَّمَتْني بالأمس ضد الحُمَّى الشوكيَّة والإنفلونزا... أمكَ بخير... حين تستقر أَتْرِكْ عنوانَكَ مع السوداني المُحَاسِب وسترسلُ هَنِيَّة سائقها كلَّ شهرٍ للاستفسار.. اتصل على هاتف 0559722147

أودعتكَ الله الذي لا تضيع أمانته. أوصيكَ / لا تفك العقدة الصغيرة بطرف شرشفي، هذه نَذْر لو رَجِعَتَ سالماً أن أُوَزِّع القهوة الحلوة باللوز.

شَعَرَ ناصر بالوقت يُدركه، كان قد خَسِرَ لَقَبَه (أبو وَنَّان) حين كَفَّ عن الحضور لأبوالرووس في لاندروفر العمل ولجأ لملابسه المدنية وسيارته الإنفينتي، كان يعبر في الزقاق تلك الليلة، يتأمل في البيوت المتساقطة، يبحث عما فاته في هذه الحبكة التي صار خارجها، حين اندفع صوبه ذلك الكلب، من الكلاب السلوقية، التي تزاوجت في الأحياء الشعبية وفَقَدَتْ تَميُّزها، لكن هذا الكلب بدا له جميلاً، بعنق طويلة، وذيل قصير مقطوع، حين بَلَغَه الكلبُ تَوَقَّف، وصار يشمشم، لم يكن من عادته مُداعبة كلبٍ ضال، لكن هذا الكلبَ استهواه فراح يتبعه، وراح الكلب يقوده إلى البيوت التي هُجِرَتْ في أبوالرووس، اكتشف بيوتاً كثيرة ساقطة من خارطة الناس، أخلاها مُلّاكُها وتسكنها مُؤقَّتاً عِمَالَةٌ هاربة لريثما يَتِمُّ نقضها.

قد تبدو من المصادفات لكن الكلب قاده تلك الليلة إلى تلك العمارة، يعرف أنها العمارة المعروفة (بالجامعة العربية) والتي ربح قضيَّتَها أولادُ اللبان الأربعة وطردوا منها سبع عوائل من ضمنها أختهم أم السعد وزوجها العشي. الأبناء قدَّموا الرشاوى للقُضَاة وللأطباء النفسانيين واستصدروا أحكاماً بالسفه والجنون على الأب الميت لنقض صكوكه. أما القبو، فيتغاضون عن اقتلاع التركية منه، من موقعه كان بوسعه رؤية (صندوق المسؤولين الكبار) مبقوراً ببابه الساقط، ، وَقَفَ ناصر يرقب، ورغم أن الحركة حول القبو كانت شبه ميتة، إلا أن امرأةً أو اثنتين ولجتا للقبو وخرجتا بعد ساعة. . . كان ناصر بانتظار إشارة. ربما كانت العاشرة ليلاً حين لمح ذلك الخصي بيديه الغارقتين في قفازين يُغادر الدهليز على عَجَلٍ مُغَادِراً أبوالرووس بتلك الحقيبة الجلدية السوداء الأشبه بحقائب

المحامين، تبعه الكلب لكن ناصر تركه، تَشَجَّع على الدخول للدهليز، بلا تَرَدُّدٍ اقتربَ من باب القبو، وَجَدَ البابَ مُوَارَبَاً، طَرَقَ على ضلفته وانتظرَ، زَادَ حِدَّةَ الطَّرَقَات، ثم تجرأ على التقدُّم، الخطوة الثانية التي خطاها استقبلتْها تلك الضحكة الخشنة، ولم يحتج لتخمين صاحبتها التي بَرَزَ له وجهُها من وراء الستارة، في تلك المِنَصَّة العالية: أشبه بحجرة مُقْتَطَعَة قريباً من سقف القبو، ومُحَوَّطة بالستائر، لم تهبط له التركية، ولا شجَّعتْه على التقدم، لكنه خطا باتجاهها. كانت ترقبه بتلك الضحكة الساخرة، تُخَمِّنُ الحَدَّ الذي يمكن أن يذهب إليه. لم يكن وراء ناصر ما يخسره، شَعَرَ بأنه كلبٌ تُجرجره عَظْمَةٌ. ارتقى سُلَّمَ تلك المصطبة واتسعت ضحكة التركية بَدَتْ أقرب ما تكون للَبوة، لا لكلبة (هَروشيَّة) وتنتظر منه حركةً لتَنْقَضَّ. بتكنيكِ خبيرٍ استدارت تاركة مؤخرتَها تقوده للداخل، حين صار في مدخل المصطبة كانت هي متكئة على سريرها، في دعوةٍ، اندفع الدم إلى صدغ ناصر، طوال تَرَدُّده على الزقاق لم ينتبه لهذه الدعوة المفتوحة سبيلاً لكل عابر! تَجَاهَلَ النداءَ في تلك الاسترخاءة، جاء صوتُه مثل خشبٍ يَتَقَصَّف في غمامةِ أنفاسها الثقيلة:

«أريد جواباً على سؤالٍ واحد..» رَفَعَتْ حاجبها الأيمن المرسوم بوقاحة، قالت بسخرية:

«استجواب رسمي أم غير....؟» وتركت لِجُمَّةِ الشَّعْرِ الناري السقوط على عينيها، أَلَحَّ:

«أتعرفين مكان عائشة؟» الضحكة ارتجفت لها أوصاله، هَمَسَتْ،

«وتمنحني شَرَف الإجابة! تريد أن تعرف مِنِّي أنا؟» بدا سخيفاً، حين لم يُجب، قالت بحسرة مصطنعة:

«تخاف من الحُبّ؟»

«عندكِ جوابي؟»

«لديَّ جوابُ كلُّ سائلٍ ومسؤولٍ وحاجةٍ ومُحْتَاجَة...» اضطربَ،

بينما الكلبُ فيه استجاب لوحشيتها، كان عليه أن يغمض عينيه لتتداعى الأحداث، وينتقل لموقعٍ آخر، مُخَالِف للمَوْقِع الذي انتهجه كل حياته، كان على يقين أن إغِمَاضَه لعينيه سيقطع له سنوات ضوئية، في اتجاهاتٍ لم يحلم بها من قبل، لكن ليس قبل أن يعرف إجابة السؤال الذي جاء به:

«أجيبيني.»

«أُكَرِّرُ وأنتَ عارف الإجابة!!» تلك الجملة شَقَّتْ جوفَه باليأس...

«عَزَّة ماتت، دَفَنَها أبوها بالأمس.»

«أعرف، قلْ لي شيئاً لا أعرفه!» صَمَّمَ ناصر:

«عنواناً لعائشة.»

«لا ينبش القبور غير الضباع.. لكن.. إن أمرتَ نبشناها.. طلبكَ عندي... وتاجكَ..»

كان ناصر يمشي في أبوالرووس لكنه لم يشعر أنه قد غادر القبو، كان يمشي والقبو معه وفيه، يَتَعَرَّقُ فينِزُّ جسدُه برائحته.. حواره الختامي مع التركية يَرِنُّ برأسه:

«لا سقف للتركية، لو تَسَاهَلْتَ أرحتَ واسترحتَ.. يَسِّرْها تتيسّر..»

«لن أستريح حتى أُدرك عائشةَ.»

«عندي الأحلى والأطرى والأمرح والأسرح...» تُرجرج الكلامَ وترقب استجاباته، «موسوعتي فيها كل شيء، صوت وصورة؟ ثابت ونَقَّال، مُبَاشِر وعلى الهوا، آلي ويدوي.. مَحَلِّي وأجنبي، غشيم ومُتعَلِّم، ناعم وخشن، صامت وهَزَّار، مُقْبِل ومُدْبِر... يا مسكين، أنتَ لست ملاكاً.. أنتَ من لحمٍ ودمٍ، صحيح؟» من على مِنَصَّتها لم يَعِ طلوع النهار. حين تَنَبَّه كان القبوَ عامراً بالأجساد، وتلك الكاميرا، اجتهد أن يغضَّ بصرَه عن صَفِّ البنات، يعملن على آلات الخياطة الخمس

المواجهة لنوافذ الزجاج المُثَلَّج المفتوحة على أرض الطريق. في اضطرابه ارتطم بحاجز المَشَاجِب مُحَمَّلَة بالثياب الجاهزة للتسليم، اخترقت به ذاك الحاجز لما وراء، لفضاء القبو الحقيقي، ثلاثمائة متراً مُرَبَّعاً تصدح فيها أحدث التسجيلات الموسيقية غربية وشرقية، وتَتَجَمَّع فيها النساء، يتلثمن بأشمغة الرجال ويرقصن لتلك الكاميرات المُثَبَّتَة في أركان الحجرة الأربعة:

«أُنظرْ، بنتي هذه استغَلَّتْ عَرَجَها الخفيف لابتكارِ رقصةِ هيب هوب ميكانيكية، صيحةٌ اكتسحتْنا بآلاف الرسائل من معجبين من عمر الثامنة لما شاء الله..»

حين خرج للزقاق من جديد ملأ ناصر صدرَه بالهواء الجاف، وتكثف بياضُ الماء الأزرق على قرنيته. تلك الظهيرة ما إن دخل ناصر شقته حتى أدركَ التبدُّل في إيقاعها.. سارع يطلب جرعةَ الأمان في الرسائل واليوميات... لكن يده ارتطمت تحت سريره بفراغٍ، مهما بَحَثَ لم يعثرْ على أثرٍ لقصاصةٍ. وحين سارع إلى دولاب ثيابه لم يكن من أثرٍ لِكُمِّ ثوبِ عائشة المخفي هناك... جوف الدولاب لم يُمَسَّ لكن فراغاً تَجَلَّطَ هناك. انخسفت الأرض تحت قدميه. هناك من يطمس ذاكرته بالبياض...

قُفِلَتْ القضية.

تَمَّتْ.

القسم الثاني

مدريد 2007

«نورة..» تلك الرعدة التي تصيبها كلما ناداها أحدٌ بهذا الاسم، تلك الثانية من التردُّد قبل أن تستجيب، جعلتْه يشكُّ في كونه اسمها الحقيقي! تَنَكُّرُها هذا يُعطيها نكهة، تُوقظ فيه أخيلةَ النسوة الأندلسيات المُحَمَّلات بالسِّرِّ والعشق، يحمل من وجهها حين تنتهي مدة حراسته ويُغادر، تلك المسحة من كبرياء، وميل الوجه للداخل، كمن تنظرُ إلى ذَاتَها من أعلى شُرفة، تنطوي إليها، يتعذَّر عليه مقارنتها بالشخصيات التي يَتَكَلَّف بحراستها والتي تتحرَّك أحياناً بأسماء مستعارة أو لا تُعْرَف حقيقة مناصبها أو جرائمها. في الشركة التي تُوظفه يرجع رفاقه من الحراس الشخصيين بالكثير من القصص التي تفوق الخيال، عن شخصيات زائفة تدَّعي الأهمية باستئجارِ حُرَّاسٍ شخصيين، والشخصيات التي بينها والموت شعرة نتيجة لماضٍ عريق في النضال أو الإجرام. شركة التوظيف التي انضم إليها ليعيش تعتني بانتقاء موظفيها من الأجسام العملاقة كجسمه، يبحثون في صحيفة سوابقهم بعنايةٍ، جرائم الحرب لا يمكن تَقَصِّيها، لكنهم يشترطون سِجلاً عدلياً نظيفاً، بعدها يشترطون أن يحمل أرقى شهادات الفنون القتالية وخبرة بالأسلحة النارية وحراسة المواكب ووو... هو العربي الذي جاء مُهَاجِراً بماجستير في الفلسفة من بيروت حيث لا تُطعم الشهادات خبزاً، ليجد أن المؤهلات النظرية لا مكان لها في الهجرة، وأنه (رافع المُسَجَّل كـ رافا) ضمن الملايين من العرب الذين يحتاجون إلى خلع جلودهم

ودمائهم وأسمائهم ليندمجوا في احتياجات الآخر.

حوله كان الصباح حافلاً بإشراقه وبوجوه تتكاثر في حديقة وشرفة فندق الريتز، مقاعد البامبو الأبيض المُحَوَّطة بخضرة تعزز لمعة الشمس وبهجة المكان، اختار رافا لجلسته طاولة أقرب للسلالم التي تصعد بفرعين دائريين للردهة، مُشرفاً على المساحة حول عميلته نورة، والتي جلست مُوَاجِهَة لمرافقتها تُجرِّب تنويعات الفطائر (التاباس) وتحتسي قهوة الصباح وترقب بسكينةٍ الضحكات الممتزجة بالخضرة. يتأمَّل هذه المرأة نورة كما يتأمل وجهَه كل صباح في المرآة، يتقَنَّع بقَصَّة الشَّعر للبحارة الأميركيين وبهذه اللمعة التي تُخفي حقيقة أربعين عاماً من عمره وإحباطاته، لكن الاسم نورة أكثر من مُجَرَّد حجاب، يكاد يلمح الماضي مثل ظِلٍّ يميل من أعلى الصدغ لجانب العنق ليُغطي كامل الصدر. يُخيَّل لرافا أنه ينظر إلى شخصين أحدهما في عملية سلخٍ للآخر، كمالها في لاوعيها بذاك الفصام، التمرد اللاواعي تحت السطح المستسلم. يشعر بنورة خارج الزمن، مثل مجموعة الفسيفساء الإغريقية النادرة حولها (والتي ترجع إلى مرحلة ما بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الخامس بعد الميلاد) موقوفة في هذا الفندق الأكثر فخامة في مدريد، وفي عصرٍ دخيلٍ، كأنما بانتظارِ إشارةٍ للسقوط في الماضي.

بسخرية رَمَقَ رافا الاهتمام الذي تثيره نورة في نزلاء الفندق، فَكَّرَ «للنساء العربيات جمال خرافي، تطوَّر عبر الحضارات الضاربة لملايين السنين في القِدَم، لكنهن غريبات الطراز وعريقات في ذات الوقت، وبعيدات المنال لمعظم الرجال، بينما لا يقيم ملوكهن وأمراؤهن إلا في قصص الجِنِّيات الخرافية، ولا يمكنهن العثور على أولئك الملوك والأمراء في عصرنا الحديث، وبذلك صرن جنساً ملعوناً. معظم العرب حول العالم فقدوا الهالة المميزة التي تحيطهم، فتحولوا إلى جنس عادي بل أسوأ من العادي.»

أشاحَ رافا عنها، في محاولةٍ للخلاص من هيمنتها على المشهد، للحظةٍ من تمامِ ضعفها لا يعود هو الحارس الشخصي وهي (هدف التهديد)، تصير هي (التهديد) كما حدث قبل يومين حين لم تُفق ذلك الصباح، وانسلّتْ من نومها لغيبوبة، ونقلوها إلى المستشفى لتغيب سبعين ساعة وترجع كأن لم يكن، بلا آثار جانبية وبلا خلل في الوظائف. سرَّحَها الأطباء، رجعت من موت. وها هي الآن تجلس أمامه جامحة، تتورَّد من جلسة الجاكوزي، ولا تمتُّ بِصِلَةٍ للشبح الذي حملته عربةُ الإسعاف قبل ثلاثة أيام.

بلا مقدمات نهضت نورة فسارع رافا يتبعها، مؤدياً دوره كحارس شخصي، (إكسسوار)، يُحاذيها كظِلّ، يتقدَّم أو يتأخر ليكشف أي خطرٍ مُحْتَمَلٍ مخترقاً بها في بهو الفندق، مثيراً هالة من الأهمية حول مُجَرَّد أنثى.. حتى بلغت جناحها الملكي... مَرَّر رافا بصره على أكداس الزهور التي تثير بِطَلْعِها حساسيتَها، بلا بطاقات تعريفٍ، من عاشقٍ يَتَوَاجَد بلا وجهٍ، لكنه هناك في كل نظرةٍ تُلقيها على من حولها، في الرواء الذي لشفتيها، في النهم الذي للنظرة التي لا تُدرك فتكها، هي المرأة التي توشك أن تتلاشى في النظرة التالية، رجع ببصره إليها، لإغماضتها، يكاد يحفظ استراتيجيتها تلك: تُغمض بعذوبة لتعود تتجسَّد، هي لحظة تَقَهقُر أو فرار لبقعةٍ من دخيلتها لا يمكن أن يصلها أحد، تطفو منها بنظرة الضياع تلك تلقيها على من حولها فتفضح غُربتَها... يُخيَّل لرافا أن غيبوبتها كانت فراراً من ذلك الضياع. استراحة تسرقها من أكداس الزهور التي تتواصل، ومن الخَدَم ومن أمثاله من الحرس الشخصي، الذين يضربون نطاقاً حول هذه البنت في عشريناتها والتي تحتل جناحاً بكلفة 5000 يورو بالليلة. في هذا الفندق الفخم بقلب مدريد القديمة، على بعد خطوات من أهم المتاحف كالبرادو ورينا صوفيا وثيسان، والمسارح كتياترو أسبانيول وتياترو ريال.

انتظر رافا بصبر في الممر على بعد خطوات من حجرته المتاخمة لجناحها، ليندفع فور ظهورها يتبعها في تجوالها الصباحي الطويل بمدريد على الأقدام..

كان قد بدأ العمل معها منذ شهرين. حين استدعوه انخرط في المهمة بآليةٍ بنِيَّة أن يُرضيها وقد اعتاد في مهنته تلك الخليجيين الذين يسيرون في مواكب للفت الأنظار. ما إن وقع بصره على تلك الفتاة في مقتبل العمر حتى أدرك أنه هناك لتمثيل مسرحية الأهمية تلك. يجلس في المقعد الأمامي مُرَاقِبَاً كلَّ ما يتحرَّك حول عربتها، يهبط قبل أن تقف العربة يفتح لها ويندفع ليشق بها في الشوارع والمقاهي والساحات ليحرس أهميتها. حتى كان ذلك الصباح الذي أسقط كل أقنعته حين لمح طرف تلك الابتسامة الساخرة على ركن شفتيها، حين جلست على درابزين الدرج الجانبي ليسار متحف البرادو (Museo del Prado) بعد أن اكتشفت أنه مغلق، جلستُها على الدرج جَعَلَتْها مشرفة عليه بينما تأخر خطواتٍ في تلك الساحة، عن يمينه الحركة الناشطة لطريق الباسيو برادو، وعن يساره الخضرة والصمت ونورة، استرق نظرات إليها، (ما الذي تحرسه في هذه المرأة؟ مجوهرات؟ ثورة من أي نوع؟ لا تُظْهِر شغفاً خاصاً بالمجوهرات كبقية النساء اللواتي تَوَلَّيت حراستهن للشيخ الذي يعرفونه بالإمبراطور لاتساع استثماراته الدولية)، أذهلتْه الوحدةُ التي تُحيطها، مثل غزالة صغيرة محبوسة في بلورة!

اليوم هي في مزاجٍ زَلِق (كل يومٍ هي في مزاجٍ، مثل قطرةِ زئبقٍ يصعب مسكها في حالةٍ نفسية)، يقرأها تحت الضحكةَ القصيرة، مسترخية على الدرج العاري، وفوقها جدار المتحف مثل حائط معبد، كان بوسع رافا أن يجلس، لكنه آثرَ الوقوفَ، حاسةٌ سادسةٌ جَعَلَتْه في حالةِ تَأَهُّبٍ، تَأَمَّلَ فيها أمامه، وجهها مُرَاهِق دقيق، تُمَيِّزه ضربةُ الحاجب الحادة.

وانقلب سكونها بلمحةٍ، حين باغتته بالسؤال:

«رافا، هاجرتَ وتركتَ الحرب وراءكَ، لتحرس ماذا؟ أمثالنا؟!»

لم تكن قد بَادَلَتْه كلمة قبل الآن. بدا اسمه أجنبياً حين نطقته،

«اسمي رافع. .» لم يكن اسمه فقط هو الذي تَحَوَّر خلال عقدٍ من الزمان في هذه المهنة، حين ينظر رافع إلى رافا الآن لا يكاد يعرفه، أكمل:

«لم أترك الحرب، تركتُ لبنان حين مات آخر ما يربطني بتلك البلاد.» أشاح، كان قد قال أكثر مما يجب، لو تَبَسَّطَ بالتصريح بأن موت أمه ـ التي ظل يحارب معها السرطان لأعوامٍ ـ هو ما قَطَع خيوطه لكان قد ارتكب خطأً مهنياً. ولم تتقدَّم أبعد.

بعد ذلك السؤال القصير وإجابته سَقَطَتْ مسرحية الحارس الشخصي، ضمنياً اتفقا أنها ليست بحاجةٍ إلى حراسة، صار يترك بينهما خطوتين أو ثلاثاً، يتبع ويرقب، أتاح لها أن تنساب في الأماكن والناس بحيث لا تغيب عن نظره. وحين تجلس في مقهى، كما تفعل الآن، يختار لجلسته طاولةً أبعد متأخرة للوراء، بوعيه متمحوراً على المساحة حولها،

«أيوسعكَ حراستي بجلستكَ هذه؟» انقضَّ سؤالُها من حيث لم يتوقَّع، في ارتباكه أضافت « مِمَّ تحرسني؟»

أجاب: «مِـمَّ تخافين؟» نظرتُها ارتطمت بوجهه وسقطت، ذكَّرَتْه بطيرٍ ارتطم بزجاج سيارته الأمامي ودق عنقه، سارع للاعتذار،

«اعذريني سيدتي. .» أشاحت عنه، وماتت الكلمات على شفتيه.

سألت: « ماذا تحرس عموماً في وظيفةٍ كهذه؟» لم يجد بُدّاً من الإجابة باقتضابٍ:

«الشخصيات السياسية، والأثرياء. . . والممتلكات الشخصية عموماً.»

«ورجال العصابات؟»

«أحياناً.» لأول مرَّة يجد عميلاً يسأله ساخراً (لِمَ تحرسني ومم؟) أثارت تساؤلاتُها فضولَه.

«تحرسونهم من ماذا؟»

«من ماضيهم غالباً.» لا يعرف كيف أفلتت تلك الإجابة! الابتسامةُ الساخرة تحوَّلت فجأة إلى تنهيدة شَقَّت صدرَها وأربكتْه، وتَبَدَّلَ مزاجُها، غرقت في تلك النظرة الفارغة، من لا مكان طَفَتْ برأسها فكرة أن: (المرء لا يستطيع التقاء ماضيه صُدْفَةً، والوقوف للتحية والذهاب كلٌّ في طريق، فإمّا أن يقتحم الماضي كطلقاتِ رَشَّاش أو ينفجر بكَ كحزامٍ ناسف. وإلا فعليه أن يعطيكَ ظهرَه ويمضي بلا إعلانٍ لوجوده).

«اعذريني...» بدا لكأنه سيُمْضِي الصباحَ معتذراً لأنه سمح لنفسه بالكلام. قاطعتْه بالسؤال:

«أمن شروط وظيفتكَ أن تكون مُستعدّاً للموت دفاعاً عن عميلٍ؟» أزعجه السؤالُ،

«غالباً لا يتطلَّبُ الأمر إلا مُجَرَّد الدفاع بطريقةٍ مُحْتَرِفَة.» وبعد صمت أضاف: «الشرط، ربما، الإبقاء على الحياة: حياتكَ وحياة العميل.»

«بِصَدِّ كلِّ ما يجيء؟» حين وَضَعَ مهنتَه تحت مجهرِ ذلك السؤال لم يعرف بالضبط كيف يصوغ ما يفعله حقيقةً في كلماتٍ،

«في الواقع أظن أن وجودنا حول الشخص المحروس الغرض منه إرسالُ رسالةٍ مَفَادُها أن: هذا الشخص مُحَاطٌ بمن بوسعهم الردّ على أيِّ اعتداءٍ، وهي رسالة غالباً ما تَصدُّ أيَّ هجومٍ طارئ..»

«أي أن وجودَكم هو إعلانٌ للأهمية؟»

بعد تفكيرٍ أضافَ: «ربما أيضاً لإعلان الحُظْوَة أو المِلْكِيَّة...»

النظرة المرافقة لتلكَ الكلمة (وَضَعَتْ حظوتها لدى الشيخ تحت المجهر)، لم تستجب لنظرته، تَفَادَتْها بالسؤال:

«تحرسون من الموت؟». ابتسم رافا مُجيباً:

«الرئيس الأميركي ريغان أُطْلِقَ عليه الرصاص من مسافة أربعة أمتار بين باب أكثر المباني مِنْعَة وباب سيارته المُصَفَّحة ونُخبةِ الحرسِ الشخصي. كنيدي اغْتِيلَ في موكبٍ بحراسةٍ مُشَدَّدة. السادات سقط في استعراضٍ عسكري لقواته، الحريري خُسفَ بمصفّحته الأرض وبشبكة الأقمار الصناعية تحرسه، وكذلك بنازير بوتو اغتيلتْ تحت مِظَلَّة أمريكية وبين حُرَّاسها الشخصيين.. الحراسة من الموت شعارٌ رومانتيكي.. الاغتيالات المُذْهِلَة غالباً ما تتم في أكثر المواقع مِنْعَة. ربما من المستحيل حراسة شخصٍ من الغضب والبُغض.» حين صَمَتَ هَالَه الكَمُّ الذي تفوّه به، سارع للاعتذار:

«عذراً سيدتي، هناك حدود يقتضي عملنا عدم تجاوزها، ومنها إزعاج العميل بالثرثرة.»

«تحمل ماجستير فلسفةٍ وتعمل في وظيفةٍ تقتضي الخَرَس؟!» قالتها وهي تقف. ولَحِقَ بها.

في الأيام التي تَلَت صار واعياً بدائرة الكتمان الذي يُحيطها، رغماً عنه صار يُصيخُ السمعَ حين تتحدَّث مع مُرَافِقَتِها أو مع الشيخ في زياراته الخاطفة، ويتلقَّط معلوماتٍ عمَّن يمكن أن تكون، يُنصت للتيار تحت سطح الكلمات. كلُّ نظرةٍ منها تتحدَّى، لقد راقبها طويلاً، ليعرف لماذا تحتاج إلى المراقبة، وما الذي يَتَهَدَّدها؟

***

«لنذهب اليوم إلى هذا العنوان.» وقعت عينُ رافع على الكُتَيِّب بيد نورة،

«المقبرة البريطانية؟!»

«لم لا؟» الدهشة الأقرب للرفض في عينيه زادت فضولها للزيارة.

قبل يومين كان ذلك الكتيب قد لَفَتَ نظرَها بمئذنته المُرَبَّعَة، ما إن لمحَ الشيخُ فضولَها حتى دفع به تحت كومة كُتَيِّبات الدعاية، انتهزتْ وصولَ حَلَّاقه وانسحابه فنبشت عنه ودَسَّتْه في حقيبة يدها حتى سافر.

صباحٌ يُذَكِّره بعبارة صديقته الأمريكية: (أنامل المطر الصغيرة التي تعزف على وجوهنا) أو (قبلات المطر الصغيرة على وجوهنا)، ذاك الرذاذ المحيي أضاف شجناً لدخلة المقبرة. تحت قدمَي نورة كان العشب يتفتَّق ببهجةٍ حين تسارعت خطواتها تقطع شارع جويا Goya سالكة شارع فيلازكويز Velazquez، وأمامها ظهرت المقبرة: واحة من شجر الحور والدلب والأرز والصنوبر، مُحَوَّطة بالطوب الأحمر في الزاوية بين شارعي نونيز دي بالباو Nunez de Balboa وشارع هيرموزيللا Hermosilla. تباطأت خطواتُ رافع، بينما نورة تقدَّمت كالمسحورة إلى برج الكنيسة والذي يشبه المئذنة المُرَبَّعة، بأركانها من الطوب الأحمر وأضلاعها البيضاء، والأقواس الثلاث المُتَوَّجَة لكلِّ وَاجِهَة، والزجاج المُعَشَّق على النوافذ... سبق لرافا أن سكن في شارع جويا، وكثيراً ما عبر كنيسة سانت جورج هذه متأملاً في تصميم المعماري الإسباني Teodoro de Anasagasti، وخليط المعمار الحديث والرومانيسك والانجليكاني القديم، إلا أنه لم يعتن قط بالمقبرة المُلْحَقَة حتى بدأ اهتمام الشيخ بزيارتها والآن نورة.

كان عليه أن يحث خطاه هو ومُرَافِقتها ليلحقا بنورة، لم تكن تركض وإنما كانت مُنْساقة للمكان، حين لحقا بها كانت مستندة إلى جذع الأَرز الذي بعمر أربعمائة عام، لملامحها شحوب منذر، لم يلبث أن تقنَّعَ، وكسا وجهها ذاك التعبير الرمادي... وَقَفَتْ هناك غائبة عنهما، لكأنما انسلبت روحها لأجواف تلك القبور. في شفافية المطر انبعثت الأسماء والتواريخ والوجوه المحفورة في الجرانيت تطلع من شواهد القبور حولهم

لتشاركهم تلك الوقفة. ذلك الصباح فارقت وجهَ نورة تلك النظرة المُصْمَتَة، وبَدَتْ مثل امرأةٍ تتأرجح على حافةٍ يتناوشها عالمَان. بعد ساعة حين غادرت وقفة الموت تلك تطاول ظِلٌ رمادي خلفها ومُرَافِقيها.

صباح اليوم التالي بكَّرَتْ نورة بالرجوع لتلك المقبرة، استقبلتهم باقاتُ زهور صفراء على المدخل، ومنثورة على صف القبور، موتٌ منعش أصفر يطفو تحت أقدام الشَّوَاهد،

«بوسعي اقتراح زيارة مقابر أكثر أهمية.» تشعر في نصيحته تلك برغبة لدفعها خارج المقبرة، نظرتها المُشَكِّكة دَفَعَتْه للتبرير، «ما هي إلا مقبرة للمنبوذين.»

«بمعنى؟!» استدرجتْه للشرح،

«معمارياً لا تُضاهي الكنائسَ والمقابر الأوروبية، قامت بقلب مدريد 1854 تحت رعاية القنصلية البريطانية، باتفاقٍ بين بريطانيا وأسبانيا، لتضم أولئك الذين ماتوا غرباء في مدريد، والذين رفضتْهم أوطانُهم أو تعذَّرَ إرسال رفاتهم لها، ورَفَضَتْهم المقابر المحليَّة أيضاً، لمختلف الأسباب الدينية أو الثقافية في أوروبا ما بعد الإصلاح التي نفت الذين لا ينتمون للكنيسة من الدفن في مقابرها.» النظرة التي حَدَجَتْه بها نَبَّهَتْه لحظتها لحقيقة (النبذ) في تلك المقابر.

«انظرْ شاهد القبر هذا يحمل كتابةً عربية: خَفِّف الوطء قليلاً ما أظن أديم هذه الأرض إلا من هذه الأجساد..»

«هذا بيت لأبي العلاء المعرّي..»

هكذا صارت موتةُ أولئك المنفيين لهما مثل أحجية، وصارت المقبرة مثل كتاب كلُّ شَاهِدٍ جرانيت صفحةٌ من صفحاته. في الصباحات التي قضاها رافع مع نورة اندفعا يستكشفان شواهد القبور التي تُؤرِّخ لألف عمليةِ دفنٍ من كل الأديان والجنسيات خلال المئة وخمسين عاماً الماضية، وتحمل رسائل من الحب والفقد للمنفيين من ثلاثة وأربعين جنسية. والتي

أقامت تلك الرابطة الخفيَّة بين نورة والمقبرة، بلا منطق، تشعر أن حياتها الآن تشبه تلك الرقدة.

صارت زيارةُ المقبرة طقساً يومياً، تفتتحُ نورةُ صباحاتها بالمجيء للمقبرة، تجلس كلَّ يومٍ على قبرٍ، كمن يُجَرِّب ثوباً ليختار واحداً على مقاسه، أحيانا تجلس هناك ـ كما تجلس الآن ـ ببصرها سارحاً (لمكانٍ بعيدٍ) كلما حاول الإطباق عليها جَفلت، يرقب رافع حركةَ عينها تلك التي تسرح ثم تنتفض صاحية وترجع لشواهد القبور حولها، التحوُّر الذي طرأ عليها جاء حين بدأت تسعى للتلاغي وتلك الشواهد، وتُظْهِر فضولاً لفَكِّ كتاباتها التي بكل اللغات، من اللاتينية للإنجليزية والفرنسية والأسبانية والألمانية والكراوتية والعبرية،

«ألا تشعر بحاجة هذه الأرواح المُلِحَّة إلى ترك رسالة بعد موتها، أو تحويل موتها إلى رسالة، تُرى كم تُعَبِّر هذه الجُمل القصيرة عن أحوال أصحابها ما بعد الموت؟ ألا تُدهشك هذه الحاجة لمواصلة الحديث بعد الموت؟!» بدا سؤالها مُوَجَّهاً لذاتها أكثر منه له، إجابتُه العفوية جاءت ترجمةً لذلك الشاهد من سوفوكليس على لسان أنتيجون:

"Come, Fate, a friend at need,
Come with all speed!
Come, my best friend,
And speed my end!
Away, away!
Let me not look upon another day!" Antigone

(تعال أيها القدر، أسعفْ صديقاً في حاجة،
تعال خاطفاً يا أفضل أصدقائي، وعَجِّلْ بنهايتي، بعيداً بعيداً، ولا تترك لي إلقاء نظرةٍ على يومٍ آخر.)

تسمَّرت نورة مصعوقة أمام الروح التي نَفَثَتْها تلك الكلمات في عمودها الفقري. حين دَبَّت فيها الحركة لاحقتْ عبارات سوفوكليس

المتبعثرة في أكثر من شاهد، لتُباغتها كلمات أنتيجون على ذلك القبر المنزوي:

«بعد فَنَائي سأعرف خطيئتي، فإذا كان الإثم ضمن القضاة الذين سيحاكمونني فلن أتمنى له إلا أن يقع فِي نفس الحفرة التي حَفَرَها لي.»

"when I have suffered my doom, I shall come to know my sin; but if the sin is with my judges, I could wish them no fuller measure of evil than they, on their part, mete wrongfully to me." Antigone.

برودةٌ لكلماتِ اليأس تلك، تغور لدخيلة نورة وتقرأها! لذا تَرَدَّدَ رافع قبل أن يُتَرجم لها عبارات أوديب على شاهد القبر الضيق خلفهما:

"When he discovers the truth of his actions, he is wrought with horror and self-loathing.. He now devotes himself to his own punishment. He plans to walk the earth as an outcast until the end of his days." Oedipus.

(حين اكتشفَ حقيقةَ أفعاله امتلأ بالرعب واحتقار الذات، لذا فلقد كَرَّسَ نفسَه الآن لعقاب ذاته، خَطَّطَ لكي يقطع الأرض كمنبوذٍ يرحل بلا استراحة لنهاية حياته)

ارتعد رافع أمام صمتها العميق، شعر فيها بظمأ للمزيد من تلك الرسائل المُعَذِّبَة، حاول التراجع، بينما تحوَّلت لتُواجه تلك العبارة القصيرة لزرادشت:

"What am I? and how and whence am I? and whither do I go?" Zaradisht.

«ما أنا؟ وكيف ولمتى أنا؟ وأين أنا ذاهب؟»

فور أن نطق بالترجمة أدركَ فيها تلخيصاً لمزاجها في تلك المقبرة. أشاحت ببصرها ليقع على المكتوب بالعبرية على ذلك القبر:

"A loving son and father, I am to be remembered as number 10, creating and animating matter, expressed by 0, which, alone, is of no value."

«ابنٌ مُحِبٌّ وأب، سيتذكرونني كرقم 10، خالقاً وباعثاً الحياة في المادة، ويُعَبِّر عني الصِفْر، والذي حين يقف وحيداً لا تعود له قيمة.»

طوال إقامتها بمدريد لم تكف نورة تجيء لتجلس مُحَوَّطة بحكمة زرادشت، وشِعر نيرودا وبمقولات لسوفوكليس، خلفها أبيات الشاعر بابلو نيرودا:

"Dies slowly he who avoids a passion,
who prefers the dots on the "i" to a whirlpool of emotions."
Paplo Neruda.

«يموت ببطء ذلك الذي يَتَجنَّب الشغف،
والذي يؤثر الانغلاقَ في (نقطة الأنا) على الاستسلام لدوامة العواطف.»

إلى جوار المدخل عثرتْ نورة على ذلك الشاهد المحفور بكتابةٍ عربيةٍ تقول: (شاعر عراقي، عاش يحشو لباسه للشتاء بورق الصحف العربية التي تجترُّ الهزائم. ولا يزال يحلم هنا ـ في شعلةِ رمادِ المنبوذين ـ ببلدٍ تستريح لتسترجع رمادَ أبنائها المبعثرين حتى في الموت.)

تَعَارَفت نورة بلوعة الرسائل التي يتركها غرباءُ من تخصصاتٍ تتراوح من الموسيقيين والصحافيين والمفكرين، للبسطاء والمحامين والأطباء والطباخين والكتّاب والدبلوماسيين والمعلمين والمربيات، يجمعهم أنهم قد مرُّوا بمدريد حيث داهمهم الموتُ فجأة لأسباب مختلفة.

في زياراتها المتكرِّرة، وكلما تعبت نورة، استراحت تحت شجرة حور قصيرة، وهناك بين الأعشاب عثرت على ذلك القبر المخفي، تغطيه بلاطةٌ رماديةٌ مُرَبَّعة بحجم جذع رجل، لا تقف كشاهد وإنما تستطح على سطح القبر مدفونة لا تبين بين الأعشاب، أشبه ما تكون بجذع رجل انكفأ ليغفو قليلاً فاستحال لحجر، برأسه متوسداً لجذع الحور، وبموضع القلب مُثَبَّت ذلك المفتاح العتيق بوساطة خطافين، وبجانبه كتابة تقول: (حامل المفتاح)، بينما اسم المتوفى تخفيه شبكة متكاثفة من جذور شجرة

الحور، ولم تعتنِ نورة بتتبعه.

«لا يُسْمَح الآن بالدفن في هذه المقبرة بسبب امتلائها، ليبقى هناك مكانٌ وفقط لدفن رماد الذين اختاروا حرق جثثهم بعد الموت.»

«مُرعبة فكرةُ انغلاقِ أرضٍ عن استقبال الموتى، القبور التي أعرفها تمتلئ وتفرغ مثل دلاءٍ لما لانهاية.»

«هنا يمتلك الموتى بقعةَ دفنهم.» لحظتها أدرك هو أيضاً غرابة امتلاك أرضٍ للموت.

كانت نورة تتحرَّك بأُلفةٍ بين تلك الأرواح المنفية، تتخاطب معها بحيث لا يعود للعالم الحي حولها من مكانٍ، في زياراتها تلك شَعَرَ رافع بالتبدُّل الذي طرأ على نورة، مثل باب انفتح بينها وبين تلك الكائنات، والتي أخذت بيدها للباب المُوْصَد بآخر رأسها، تُوَارِبه على عالمٍ خَلْفَه وراءها.

«كيف هو يُتم الأب؟ أنتَ تربيت يتيماً؟» ذلك الصباح تدحرج سؤالها من تَتَالِي تلك الشواهد الممتدة مثل حجارة شطرنج. وانساق لعفوية السؤال:

«وعيتُ الدنيا على ثلاثتنا: أنا وأمي وبيننا السرطان! لم يترك لي فرصة التفكير في اليُتم، أو في نفسي، بين بيتنا ومتطلبات أمي والجامعة.. متطلباتي تَلَخَّصَت في أن تكون الجرعة كافية لتخفيف زحف المرض بكبدها، حتى اضطروا لاستئصاله.» حين نظرتْ نورةُ إليه كانت كمن ينظر في مرآةٍ لترى وجهها هي حين صار الموت القهوة الصباحية، يتقاسمانها بشغف:

«ووجدتم مُتبرِّعاً؟»

«قطعة من كبدي. مُذْهِلة حقيقة أن الكبد مثل نباتٍ بوسعه أن يُنَبِّت نفسَه وينمو.»

«مثل الرغبة في الحياة، كلما قَطَعتَ رأسَها نبتت.» حولهما أنصتتْ شواهدُ القبور.

«طال مرضُها؟»

«طال قُربُنا، لم ننظر إلى تلك السنوات كسنوات مرض وإنما كسنواتِ قُرْبٍ... أنظرُ إليها كقطعةٍ من كبدي، عرفتُها كما لم أجد وقتاً لمعرفة نفسي... قطعة الكبد التي وَهَبتُها صَمَدَتْ عشر سنوات قبل أن تخذلها..» تململت المقابرُ حولهم، وطَارَ حَمَام، كان الموتى يُنصتون يُطلقون من قصصهم لهمز أولئك الأحياء، لتحفيز ذكرياتهم وحنينهم...

«أتُذَكِّركَ القبورُ بالعذاب فيها؟» حين نظر حوله رأى (الحياة) التي يحلم بأن يحياها، الأحلام التي نسيها على الطريق، الأولاد الذين لم يُنجبهم.

«ربما تُذَكِّرني بالعذاب خارجها.» إجابتُه كَشَفَتْ أمام عينيها (خارطةً) خطوطُها امتدادٌ لما يجري داخل تلك القبور وخارجها.. وإن الذين ماتوا لم ينقطعوا عن الدنيا التي عاشوها، حَمَلوا تضاريسها معهم، حشروها في قبورهم وانحشروا في يابستها ومائها، قحطها وخصوبتها... (الموت إعادةُ قراءةٍ للخارطة)، طَفَتْ تلك العبارة أمامها.

يلحظها كلما دخلت تلك المقبرة نزل عليها جناح ذاك الشجن.

«أحياناً يُخيَّل إليّ أن الموت قرار، تتخذه العين..» عبَّت من المشهد حولها: كان رذاذُ مطرٍ لم يلبث أن انقشع وانصبت الشمس مغسولة تلمع، وبعد صمتٍ أكملت: « ويتبعها القلبُ ثم كاملُ الجسد..» بحركةٍ لاواعية كانت تلفُّ خصلةً من غُرَّتها الطويلة على سَبَّابتها، تُقَرِّبها لأنفها ساهمة، مؤخراً تجدُ لشَعْرِها رائحةَ هذا العشب الراقد على سكينةٍ لا تُعَكِّرها حياةٌ... على شاهدٍ بعيد كان ذلك المُتَشَرِّد راكعاً بباقة زهور، ثم لا يلبث أن يقف لينتقل بباقته من قبرٍ لقبر، يهبها لصَفِّ الموتى المُتَطَرِّف ذاك بلا استثناء، لتمتمته إيقاعُ من يتلو شعراً، أمامه بَدَتْ القبورُ طريَّة طازجة لكأنها

من محفورات الأمس رغم انغلاق المقبرة بوجه المزيد من الدفن.. مثل العصافير التي كانت تتبارى في الغناء للموتى بدت نورة عاجزة عن الصمت:

«الآن أُفَكِّر أنها ربما رحمة لو أصيب أبي بالسرطان.. أبي كان فوق السرطان، بمفهومِ الانفجار التكاثري لخلايا أي عضوا» لم يُصَدِّق أنها قد تَفَوَّهت بتلك الكلمات، بين صمتهما وقعت من أوراق شجرة الحور، تناولتْ واحدةً وفَرَكَتْها بين سبَّابتها وإبهامها وعبَّت رحيقها، أكملت: «يُعاودني عَبَقُ ورقة الليمون التي فَرَكَتْها مربيتي خلف أُذني وإبطي فجر العيد حين بلغتُ السابعة، أرسلتْ شعري في ذيل حصانٍ طويل، وألبستْني ذاك القصب، وأرسلتْني للسلام على أبي، جلست بالركن في ذلك الفجر يتخربش جسدي بقَصَب ثوبي المُطْبِق على صدري وظهري، من ركني أرقبه بعيني بوسع الظلام المُتَكوِّم جبلاً بيني وبينه، وبلمحةٍ عرفتُ ما يتكرَّر في كوابيسي: أن أبي لا ينظر إليَّ، عينه حولي ولا تستقر عليَّ، وحين يراني يرى فيَّ الولد الذكر الذي لم يُرْزَقْه... لا يجد جَدوى للخروج بدُمية مثلي لصلاة المِشْهَد، يغفو في جلسته. وكلما غَفَا متُّ، لا يعود لي وجود. فجر ذلك العيد حملتُ الشمعة وتقدمتُ من وجه أبي، أردتُه أن يراني، لا أعرف كيف أمسكت النار بطرف لِحيته، لم أعرف ما أفعل وأفاق مذعوراً، بعينه جاحظة فيَّ لاعنة، بينما أطفأتُ النار بيدي..» على أصابعها كان رافا يبحث عن آثار لهب.. خطُّ الرأس وخطُّ القلب والحياة طُمست من تلك الكف..

«بظنّي أن أبي لم يغفر لي قط... بوجهه الشاحب المُحَوَّط باللهب ثم سخام الفحم سَكَنَ أعمق كوابيسي..» لا يعرف كم من أرواحٍ مَرَّتْ بينهما واغترفت من صدى تلك الكلمات، ببصره مُحَدِّقاً لعينيها الغائمتين في مكانٍ آخر، وتُوْغِلان إلى حيث لا يمكنه التدخُّل ولا حتى مد يده لانتشالها، كان عليها أن تكمل الدورة في قلب ذاك الاضطراب وترجع، حين رجع صوتُها اختلج صغيراً تكفي هَبَّةُ هواء لتطفئه، «للسبع سنوات

الأولى من عمري كنا نُطِلُّ عليه أنا ومربيتي من الأعلى، يعطيني أحياناً قطعةَ حلوى ويُسَجِّل ثمنَها في قوائم حساب التالف من بضائعه، وكل عيدٍ نتشارك إفطاراً احتفالياً. ألملم السُفْرَةَ العامرة بالزيتون والأجبان، وأركض للأعلى. ذلك الحَدّ من القُرْب الذي بلغناه...» جاء صوتُها من الهدأة حولهم، لكن جزءاً منها ظَلَّ يقظاً ويتجنَّب الأسماء، لكي تُطِلَّ على ذاتها القديمة كغريبٍ، أكملت:

«لا يموت الموتى بذهاب العمر وإنما بفراغ الخيوط التي تربطهم بالأحياء.»

«لو كانت الخيوط ما يربطنا بمن نُحِبُّ فبوسعي القول إن أمي كانت شبكة عنكبوت حولي تحرسني، لم تنقطع حتى بموتها.. للآن..»

«حارسٌ يحرسُه الموتى؟!» رَفَعَ بصرَه إليها، لكنها لم تكن تسخر.. سَكَّنَه تعاطفُ تلك النظرة.

أرق

«أنا لا أنام..» تلك العبارة أفلتت منها عفوياً، كَفَّتْ مُرَافِقتُها عن الحركة، بالخارج كان منتصف الليل، لم تلبثا أن رجعتا من مسبح الفندق، هناك كانت تجلس في لباس السباحة الواصل للركبة، تتصارع بعزيمةٍ مع الماء، حين تنهكها محاولات السباحة تطفو بظهرها للماء وتترك للوقت أن يصفو حولها، نادراً ما كان يشاركها بقعةَ الماءِ تلك أحدٌ في ذلك الوقت المتأخر... الجرح الغائر في رُكبتها اليُسرى يطفو على الماء بضمادته وبطبقة من النايلون العازل للماء. قبل ثلاثة أيام كانت نورة قد أفزعتْهم جميعاً حين غافلتْ حارسَها الشخصي واختفتْ من جناحها في الفندق، أفاقت مبكراً وخرجت من دون إنذار جاعلة طريقها للمقبرة البريطانية. الدقائق التي استغرقَها رافا لتخمين مكانها واللحاق بها كانت

كافية لوقوع تلك الحادثة: حين أقبلت نورة على شجرة الحور حيث القبر بشاهد المفتاح، كان المُشَرَّد الذي اعتاد التجوال بين المقابر يُوَزِّع الزهرَ البري الأصفر. منهمكاً ينهال بفأسه محطماً الشاهد، ظهور نورة المفاجئ بَاغَتَه، للحظات ظَلَّ مشلولاً في انحناءته مُحَدِّقاً بعينيها. الفراغ في عينيه جمَّدها، مما منحه الفرصة للقفز، استدار مهاجماً، دفعها بعنف لتسقط وترتطم ركبتها بالشاهد المحطم..

حين ظهر رافع استقبله الدمُ يغطي الشاهد والحشائش من الجرح الفاغر بركبتها... جلست نورة هناك مُسَمَّرَة ترقبُ بينما ركع رافع أمامها، وبرِقَّة لكن بحَزم أعاد اللحم المُتهتك ليغطي الركبة، وبلا تَردُّدٍ سارع لتمزيق قميصه الأبيض ليربطه على ركبتها في محاولةٍ يائسةٍ لكبح النزف.. الصعقة خَدَّرت الألم، ظلَّت نورة ترقب كمتفرج، الكلمات التي تفوَّهتْ بها لم تعن شيئاً لرافع:

«إنه ذلك المُشَرَّد، الذي يوزع الزهر الأصفر كل صباح..» بنظرةٍ إلى الشاهد اكتشفا أن المفتاح العتيق قد اختفى تاركاً فراغاً في الحجر الرمادي، وأن الاسم المنقوش على الشاهد قد طُمس تماماً وما بقيت منه غير أحرف (ش.. ي..)، لحسن الحظ فإن الضرر لم يتعدَّ ذلك الجرح على ركبة نورة والذي استغرق عشر غُرَزٍ لخياطته..

«لا تحملي همّاً..» سارعت المُرَافِقَة مستجيبة لخوف سيدتها من النوم، حَمَلَتْ الثيابَ التي خَلَعَتْها سيدتها لتَوِّها وراقبتها تغوص في الأغطية المُطَرَّزَة يدوياً، تترك النورَ فوق رأسها مضاءً، والنور في الفسحة بين الحجرة والحَمَّام، لم ترِ إنساناً ينام بمَسْقَط مثل تلك الأنوار، كمن يطمئن على جند حراسة، «سأُعِدُّ لكِ كوب بابونج وحمَّاماً دافئاً..»

«أريدك أن تُطِلِّي على نومي كل نصف ساعة، أخشى لو غَطَسَتْ عيني في النوم أن تجرُّني لغيبوبة، وأغرق للموت...» فاض خوفٌ بقلب المرافقة وسارعت للقول:

«أنا نومي خفيف، كالطيور، في لمحةٍ أرقدُ وفي لمحةٍ أُفيقُ، سأرقد على الأريكة الطويلة بحجرة الجلوس وأترك الباب مفتوحاً، ستجدينني دائماً هنا أطّلُ على نومكِ. .» الاستشهاد في تلك الكلمات استدرجَ نورة:

«أخاف النوم وحدي، مذ كنتُ طفلة، أدخلُ في ضلع مربيتي وذراعها حولي. كلما جَرَّني النومُ لأموت سمعتُها تُسمِّي عليَّ فأطلع. . .» طَرَدَتْ خيالاً ثم أضافت: «صرتُ دائمة النسيان. .» استرخت المُرَافقةُ لهذا الانفراج في مزاج سيِّدتها، لا يمكن أن تَدَّعي أنها قد اعتادت تلك التقلبات المزاجية، والتي تزداد حِدَّة مؤخراً، اقترحتْ:

«ما رأيكِ. . نأخذ لكِ موعداً مع الطبيب. .» لم تُجب، قَلَّصتْ المُرَافقة حركتها في المكان وغادرت. تلك الليلة مَرَّت مثل حلمٍ مُتَقَطِّعٍ، في ومضاتٍ كانت المرافقة تَشِعُّ في الحجرة على أنفاس سيدتها وتغيب، تطمئنّ أنها لا تزال حيّة.

كانت الحادية عشرة صباحاً حين أيقظتها من الأسفل جلبةُ الساكسفونات، سيل متظاهرين امتدَّ من حدائق الروتيرو وصولاً إلى متحف البرادو وقصر الكونجرس، قام المتظاهرون بتعطيل حركة السير وصبغ مياه نافورة نبتيون بالأخضر، مُطَالِبين برفع أجور عُمَّالِ البلدية، حين خَطَتْ نورة من حَمَّامها الساخن بدت مشرقة، حافية تغوص بقدميها في السجاد متلذذة بحريره المنسوج يدوياً. على الطاولة أمامها كانت صينية إفطارها، وإلى جوارها بَسَطَتْ مُرافقتُها أكياسَ قماشٍ مُطَرَّزَة:

«لقد قمتُ في الصباح بجولةٍ في قلب مدريد، بالصُّدفَة عثرتُ على هذه المرأة التركية تبيع هذه الأكياس المنسوجة يدوياً. .» نَقَرَتْها تلك النظرة ثم تراخت، رَشَفَتْ نورة قهوتَها بسكينةٍ مُشْرِفَة من النافذة على المُظَاهَرَة بالأسفل، تناولت كيساً تتفحَّصه، عينها كانت سارحة على كيسٍ مربوط ليتدلى إلى خاصرتها بميلٍ لليمين، انسابت كلماتها كمن يستأنف حديثاً قديماً:

«ابتكرتْ مُرَبِّيتي ذاك الكيس بهيئةِ حقيبةٍ صغيرة تُرْبَطُ للخصر! اقتطعتْها من قماشِ ثوبِ العيد! وأكدَّتْ مُرَبِّيتي أن لكلِّ بنتٍ بداية بكيسٍ، تصُبُّ لها الدنيا فيه الحظوظَ!» بدأ أحدُ المضربين في الأسفل بإلقاءِ خُطبةٍ عَبْرَ مكبرات الصوت مُوَجَّهة للمدينة عموماً. كان يتكلّم بأسبانية حماسية.

«مُرَبِّيتي الأكثر ضجيجاً وبهجة، ترقص وتُصَلِّي التروايح وتُغَنِّي في نَفَسٍ واحد.» تَنَاوَلَتْ كيساً مُطَرَّزاً بعيونٍ من خَرَزٍ أزرق لطرد الحَسَد، وكفوف صغيرة، «ما الذي يمكن أن تحمله بنتٌ مثلي في هذا الكيس؟!»

«بوسعي أن أحفظ فيه دبابيس شعركِ و...»

«كان أبي يُخفي تلك العُلبة المُهدَاة له، فيها خشب العود، لم نُبَخِّر بها قط، لكنني سرقتُ تلك القطعة، حَفَرَتْها الطبيعةُ على شكلِ إنسانٍ.. كانت أول ما خبأتُه في ذلك الكيس، والذي صار أيضاً يُغافلني ليترك لي كلمات مكتوبة بدبابيس شعري على جلدي، حين أغمض عيني كان يخرج من الكيس... قال إن الشَّعْرَ لا يُطيقُ أَسرَ الدبابيس، وأخذ يجدل شعري هذا الذي يستحيل التحكُّم به، ويلفُّ الضفيرةَ تاجاً على رأسي.. في الحياة التي عشتها الرجال يملكون مفاتيح الدنيا.. ورجل العود هذا كان مفتاحي السِرِّي..، أحمرُّ خجلاً في كل مرة يغمس فيها سَبَّابتَه بلعابه ليُشَذِّب شعث حاجبيَّ.» لم يعد صوتها مسموعاً، كهمس طفلة تتكلَّم في نومها.

الإمبراطور سوبر

انبثق الشيخ في الممر على غير تَوَقُّعٍ، قفز رافع من كرسيه مُحَيِّياً، بينما تَوَجَّه الشيخ إلى باب جناح نورة دفعه داخلاً بدون إنذار. شَعَرَ رافع بحَرَجٍ كمن يُقْبَض عليه مُتَلَبِّساً.. لقد اعتاد ظهور الشيخ واختفائه المفاجئ، لعشر سنوات الآن ظَلّوا يستدعونه لحراسة الشيخ كلما جاء مدريد في عمل أو متعة.

النساء اللواتي تعوَّدوا رؤيتهن برفقة الشيخ لم يستغرقن منه أكثر من أيام تُعَدُّ على أصابعِ اليد الواحدة، ودائماً كان هناك وجهٌ جديد (ينجذب لوسامة هذا الشيخ الأربعيني بإمبراطوريته المالية التي نجح في تكوينها في هذه السن المبكرة نسبياً)، لكن هذه المَرَّة ينجح وجهُ نورة الموقوف هنا في إرجاعه بعد كلِّ غيبةٍ. في اتفاقٍ ضِمْنيّ تَحَدَّدَ دورُها في تلك المعادلة: حين يظهر الشيخ لا تكاد تغادر جناحهما بالفندق، خروجها يتلاحق في غيبته كهَارِبٍ من ظِلِّه. لكن وما إن تندلع تَقَلُّباتُها حتى تنكسر الخطوط (هي من يبدأ بالكسر) ويهرع الشيخُ لمحاصرتها.

تَسمَّر رافع في الممر مُحَوِّطاً بعطر حلاقة الشيخ النفَّاذ، يرهِفُ سمعَه لاستراق كلمةٍ مما يدور وراء باب الجناح.

في الداخل ظلَّتْ نورة مسترخية على كرسيها الطويل ناظرة إليه. شيءٌ في نظرتها جَذَبَه كمغناطيس، كسمكةِ قرشٍ لقطرةِ دمٍ بقاعِ المحيط. انحطَّ على كرسيها، مُتَجَنِّباً كلَّ نقاط التماس، عدا قسوة شفتيه لبدائية شفتيها، لم يمسَّها إلا بتلك القُبْلَة، غارت بعظام رأسها تحفر واصلة لقاع هيكلها. انغلقت قبضتاها على حافتَي الكرسي مُقَاوِمَةً الالتفافَ على عنقه، حين خلاَّها لمحتْ جرحَها على شفتيه، لَعق الدم مُحَدِّقاً لجوفها:

«ما الذي تفعلينه في غيبتي؟ أتجدين ما يُسلّيك؟» السؤالُ يتجاوز لسؤالٍ أبعد، لدخيلتها، لنواياها، كان من الحيوي له أن تبقى حيث يريدها وقتما وكيفما أراد، وفقاً للشروط التي أملاها.. طعمُ ريقها، صمتُها أرسل بصوته ذاك الصيّاد، تعرف تلك النبرة التي تسبق العاصفة: «فواتيركِ تنقصها الحماسة، فكيف تَتَلَهين في غيبتي؟»

«أبداً...» لم ينجح في جرجرتها للكلام مما زاد تحفُّزَه.

«أبداً ماذا؟ ألا تشتاقين إلى؟» غالباً ما يندلع الشجار بينهما من عبارات تافهة كتلك.

«أكذب عليك؟ لا.»

«ربما تشتاقين للـ. . .» قَدَحَتْه عيناها مُنْذِرَة،

«عند حدِّك. .» وتدحرجت كُرةُ النار.

«أنتِ تضعين لي الحدود؟!!»

«هي حدودكَ أنت وضعتَها والآن تكسر. . تكسر نكسر. .»

«هيا. . دعيني أتفرج. . .»

«ستتفرج. .» الكلمة حَمَلَت الكثير من التحدي، بتهديدٍ مُبَطَّن، أطبق على عنقها:

«تُهددينني يا بنت الـ. . . .؟» زاد الضغط على عنقها بتلذذ وتحوَّلَ وجهها إلى قطعة عقيقٍ، «تُفَرِّجين عليَّ خَلَق الله؟ أهذا قصدك؟ أنتِ ز. .» بضربةٍ غير متوقعة من قبضتيها وذراعيها انفكَّتْ منه.

«كلمة ولن تَجد لي جرَّة. .» انفلتتْ من حصاره بالمقعد، وانطلقت، لحق بها إلى باب حجرة نومها، دفعها هناك على الجدار البارد الصقيل، تشنَّجَتْ أصابعه على كل بقاعها،

«والله؟!!! لا تدِلّ البديوي على بابكَ يا عذابكَ. . .» بعدها لم ينطق، الرغبة في الكسر تجاوزت الكلمات. تلك الليلة حاول رافع التغاضي عن ذلك الشجار المحتدم في الداخل. سمع الارتطام.

ناهضة للألم بالألم وللذروة بذروةٍ أعلى، حدَّقت نورة في تلك العين التي تَتَحَيَّن إيلامها، مهما خضعتْ لا يأمنها. عينُها تغوص لجوفه كأنشوطة، صارت فيه وحوله كعجينة، ولم يَلمح فيها مِنْ مُشَاعٍ لمُنَافِسٍ، ويتجاوزهما الوقت. تغوصُ وتستدرجه، للجوع الذي يلي، دائماً تسبقه ليلهث خلفها، لو بوسعه فيسبقها ولو لمَرَّةٍ وحيدةٍ لَتَرَكَها على الطريق بلا نظرةٍ للوراء. تعضُّ على وجعٍ ويجأرُ، يستنجد فيها بما يُبْغِضُ وتستنجدُ بما يُفنيها. حين يستغرق فيها هكذا تخونها لجسدها إرادةٌ خارج إرادتها، تنسخه ليستولي عليها، يصير من الصعب عليها التعالي على هذا الذي

يجمعهما، يستعبدهما، ولا يكف يُرْجِعُه، مهما هوى وتَنَقَّلَ، عَالِق معها في ذاك الشَّرَكَ الذي نَصَبَه لها بِخِفَّة. . .

كافيار

تلك الليلة، حام الشيخُ كنسرٍ على كل حركةٍ تأتيها نورة، مُتَأَهِّباً للانقضاض، أجبرَها على تناول شطيرة كافيار بشرائح الليمون من الشطائر التي لم يَمَسَّها (يحلو له أن يطلب ما تحرمه إياه قرحتُه المعويَّة، ويتركها تأكل ككلبٍ أو قِطٍّ ليرقب بتلذُّذٍ كلَّ لقمةٍ تنسرب لجوفها، يحلو له أن يدفع اللقمة لحلقها الذي ينغلق بعد كلِّ هجمةٍ من هجماته الجسدية التي تستلبها، تلبسها كقفاز وتخلعها بعنفٍ، وحين ينغلق جوفها كتُرسٍ يلجأ لاختراقه بالطعام الذي يُجبرها على تَناوله)، لم يلبث أن تَجاهَلَها حيث تكوَّمت في طرف الأريكة بينما مضى يشرب وحيداً، سَاهِمَاً كلما ابتعد عن وعيه شعرةً تَقَلَّصت المسافة بينهما، تسترجع ملمسَ بلورات الكافيار الهلامية الحمراء تَتَفَجَّر بين لسانها وسقف الحلق وتغسل مذاقَه بملوحتها البحرية. في مرحلةٍ وَسَّدَتْ رأسَه لحِجْرها لينام بطول الأريكة، سكنتْ مستسلمة للحظاتٍ لتلك اللمحة من سقوط الأقنعة والهدنة، حين ينام لا يزيد عن صبي بريء في حي شعبي، ينبت العَرَق على حواف جبهته ومن جذور الشعر، هناك بركان يستريح بجوفه، يتَقَلَّصُ جوفُها بأمومةٍ للحظةٍ وتصير أنثى خالصة بلا حاجة إلى التزين والخطر. حين انتظم تنفسُه الثقيل كان من السهل نقل رأسه إلى تلك الوسادة، وَسَّدتْه وقامت.

أغلقتْ عليها جناحها، موصدة البابَ المؤدي للصالون، والآخر المؤدي لحجرة الخدمة الصغيرة، والباب المؤدي للجاكوزي، وباب حجرتها، وباب الحَمَّام الـمُلْحَق بها، شَعَرَتْ بحاجةٍ إلى غلق كلِّ بابٍ في دائرةِ المئةِ مترٍ حولها، لتدور في ذاك الركن بنافذته، متأملة في التمثالين

المتماهيين بالأشجار في الحديقة العامة بالأسفل، يتلصصان على حركتها.
لم تكن راغبة في النوم ولا في الجلوس لا لخوفٍ وإنما لفرط التَّوَهُّج الذهني. دماغها انفتح مثل شق في القشرة الأرضية، يُسَرِّبُ مفرقعاتٍ نارية تُومض في أركان دماغها وتغيب ولا تُتَرْجَم لصورٍ منطقية. وبحركةٍ حاسمة، تجنَّبتْ فراءَ معطفها، لَفَّتْ حول رأسها الوشاح الرمادي، وتسلَّلتْ عَبْرَ حجرةِ الخدمةِ لحجرة مُرَافقتها، اندسَّتْ في معطف الوصيفة، وغادرت من حجرةٍ بآخر الممر موصولة بجناحها، من بعيد ألقت نظرةً خاطفة على حجرة رافا ببابها الموارب حتى في نومه، شعرت بالارتياح لعدم وجوده حولها هو أيضاً، لليلةٍ أرادت أن تكون وحدها ـ بكل معنى الوحدة ـ بمُوَاجَهة العالم.

في الطريق، وحين لفحتْها برودةُ الليل تأجَّج اضطرابُها، كانت تُدرك فداحة ما تفعل بخروجها وحيدة هكذا في الليل. لكنها لا تعبأ، إلا بهذه الزلزلة داخلها، والتي لا تعرف متى تُلقي بالحُمم، هي المَرَّة الأولى التي تجرؤ فتعصي هكذا. سارت صاعدة تلك الطلعة بقصر الكونجرس إلى يمينها، سالكة لليسار، مُتَوغِّلة في الأحياء الضيقة، بارات ومطاعم مغزولة في تلك الشبكة، وضحكات، ونداءاتِ غزلٍ تلاحقها، ذاك الشاب ظلَّ يدور حولها بغنائه الغجري راكعاً في حركات مسرحية، حتى جَرَّتْه صديقته مُبتعدة به. سارت نورة بنظرها للأمام، يتداخل وقعُ خطواتها مع الضحكة الصاخبة لتلك المرأة خلفها والتي لم تكفّ تضحك. تطفو منجذبة لكل ما يسري أمامها، لم تكن واعية بالخيال يتبعها مذ غادرت الفندق، توغَّلتْ نحو المزيد من تلك الأزقة ومباغتاتها، من قلب الأزقة حولها اندفع نحوها ذلك الميتادور الطويل يقودُ كلبَه الضخم وكلاهما في سوادٍ كامل. حين مَرَق بجوارها شعرتْ بلعقة اللسان الرطب على خنصر يمناها المتدلية إلى جوارها، شَهَقَتْ للملمس الحيواني الرطب، حين التفتت لم يكن للسواد من أثر. . . حارت في تلك الرطوبة (أتغسلها سبع مرات بالماء والثامنة

بالتراب؟) حَثّت خطاها تتبع نواحَ جيتارٍ وضربات أقدامٍ، يجرجرها الغناء الأندلسي الحزين، فجأة انفتحت على البلازا مايور، في الساحة المُرَبَّعَة أحاطتها الـ 237 شرفة والتسعة أبواب التي أعاد تصميمها المعماري خوان Juan de Villanueva عام 1790 بعد الحريق الكبير.

من قلب الساحة جَرَفتْها موسيقى الفلامنكو وحيوية الراقصين المتطوعين من الجمهور، حيويةٌ غَمَرَتْها بمسحةِ كآبة، نظرت حولها بذهول: في تربيعة الأروقة مقاهٍ ومطاعم غاصّة بالساهرين، وبوسط الساحة قامت تلك المنصة الخشبية، حيث راقص الفلامنكو يتخايل حول الراقصة الغجرية وتُقَلِّده دوّاماتٌ من الجمهور، مُكَبِّراتُ الصوت تصمُّ آذانَ المدينة، ويصير بوسع البشر الانطلاق في الضحك والعويل والرقص والحوارات الساخنة بأسبانيةٍ وإنجليزيةٍ وألمانيةٍ، كل اللغات هنا توقظ داخل نورة نهرَ لغاتٍ قام على ضفافه ماضيها . . .

لليمين انبثقت تلك الراقصة تتطوّح في مدخل الرواق، وشقّتْ حنجرةَ نورة بعويلٍ حاد انفجر بقلبها وأطلق جسدها للرقصة، بلُعاب الحيوان لأطراف أصابعها، حين أفاقت من الرقصة انتبهت للأعين الباسمة المُشَجِّعة حولها. تقدَّمَ منها ذلك الشاب الأمريكي مُقَلِّداً حركات الراقص، مُزَاوِجَاً بينها وبين حركات مصارع الثيران، مُنَاوِرَاً، مستجيباً لعويلِ الشجن في صوت المغني بالخلف. انتاب نورة إحساس أنها قد قطعت العالم والعلائق وفقط من أجل هذه الوقفة، وهذا الوجد الذي يُلَخِّصُ كلَّ المفقود منها. في تلك اللحظة الخاطفة تَمَاهت نورة بدماء الثيران المصبوغة بها الجدران من المصارعات التي كانت تُنَظَّم هناك في السنوات السابقة، متمدِّد على دائرةٍ كبيرةٍ حولها، «هذا الفضاء هو أنتِ . .» صوتٌ باطني يُرسل أوامره إلى خلاياها مباشرة فتستجيب، «انتشري بأطرافكِ لكل أركانه، احتلّي كلَّ زواياه، انبسطي إلى اللانهاية التي بوسع أطرافكِ أن تبلغها، بلا تحجيم. . . جسدُكِ قطرة بحجم الليل والأنوار. .»

تَنَبَّهتْ للراقص يجذبها باتجاه الزقاق، وحين أرادت التَمَلُّص أطبقتْ ذراعاه عليها، في تلك اللحظة، امتدت يد من العتم ممسكة بخناق الراقص، وقذفتْه ليسقط بلا حراك مُتَكوِّماً في الرواق، واستلمتْها اليد، جَرَّتْها بحسم، وحين نظرت إلى صاحب اليد شَهَقَتْ،
«رافع؟!!» خرج صوتُها مثل صرير، بتشويشٍ يُفَجِّرُ صداعاً نصفياً برأسها.

***

«بَذِّري نقودي على تفاهاتكِ الصغيرة والكبيرة، لكن إياكِ، إياكِ وشراء العشاق. . .» عبارة تركها الشيخُ على مرآتها حين غادر، وَقَعَتْ عيناها على رجفة يديه في تلك الكتابة.

دابّة

من قاع النوم امتدَّتْ أصابعُ وقَلَعَتْ عينَي خليل من النوم لتفتحهما في العتم، لا يفصله عن سقف القبو غير ذراع، للحظة لم يعرف خليل أين هو، وبدا ذلك السقف مُتْرَبَاً ورطباً، اجتهدتْ حواسُ خليل لتذكر متى مات، وكيف انتهى بذاك القبر، أهكذا الموت، انقطاع للتيار يرجع بعده ليجد جسدَه مدفوناً؟ لم يذكر أيّ أقدام تدبُّ مبتعدة، ليس في رأسه أي أثر لارتطام، أكدوا له أن أول ما يعيه الميتُ صوتُ أقدامِ مُشيعيه تبتعد عن قبره، حينها يُحاول الجلوس فيرتطم بسقف القبر ليُرَدَّ عليه صوتُه فيتأوه:
«آه لقد مُت. .» تلك العبارة الأزلية التي تتشاركها الكائنات. العبارةُ التي مثل بابٍ يفتحُ عليه مُجْرَيَات الموت، فبعدها لا بدّ أن يظهر مُنْكَر ونكير ويشرعان في حسابه.
إلى جواره لم يكن الثعبان الذي يتوقَّعه مثل العصاة ملفوفاً عليه، إنما تلك الأكداس اللزجة من شحم، رائحة العجين واللحم المفروم المطهي

على البخار أخرجته من قبره، وكانت التركية مستلقية إلى جواره، شَعَرَتْ بحركته فبدأت أطرافُها تلتفُّ عليه لَفَّةً وراءَ لَفَّة، للحظة بدأ يختنق، ثم انبثق ديناصورُه وشَقَّ أستارَ القبر والشحم ونَفَذَ به إلى سماواتٍ بلا آخر، في تَعَاقُبٍ إيقاعي أخذَه موجُ تلك السماوات، أعلى وأعلى وحين سقط كخرقةٍ بدأت الجدران والسقف الخفيض يرقبانه، كما تَعَوَّدت مراقبته، يمشي في أبوالرووس، يتركُ عربةَ أجرته على مسافةٍ بعيداً عن الزقاق، يأتي ماشياً، حريصاً فلا يلمحه أحد، ويلجأ لهذا القبو لكي لا تستوقفه رمزية أو العيون المبثوثة، مهما تخفَّى بالعتم واسترق الخطو يشعرُ ببيوت أبوالرووس التي تفرغ تباعاً ترقبه، لا يرقبه الزقاقُ اللعين بعيون البَشَر، وإنما بجدارنه، وأبوابه الكالحة، وقططه، وحاويات المخلفات، وجفاف الهواء، وروائح الهجر والمَجَاري، وبقايا الشجارات على كل زاوية، وتلك اللطمات التي تُوَجِّهها تلك المرأة لزوجها. يرقبه أبوالرووس بكل نَفَسٍ يأخذه، ويلومه.

أسياخُ ألم نَخَسَتْ فَكَّه لمؤخر عنقه من صفعات المُحَقِّق ناصر، ذَكَّرَتْه فجأة بصدمة باب سيارته التي أنهتْ مطاردة ناصر المُبَاغِتة له وإلقائه القبض عليه وبلا مُقَدِّمات.. بتلذُّذٍ تركت أسنانُ التُّركيَّة نهشاتها الدامية على كتفيه،

«غاضب يا نور عيني؟» تَقَلَّصَ جوفُه بقرفٍ لذاك الفحيح، ولم يتحرَّك ليوقف تلك النهشات. مُسترجعاً هزيمتَه على يد ناصر في تلك المطاردة الهزلية، بلذَّةٍ ساديَّة تَلَقَّى الصدمةَ في عموده الفقري حين تهشَّمَ معدنُ سيارته التي دُفِعَتْ للارتطام بالرُّكام في طَلْعَة القَرَارَة. مثل مجرم وضيع أجبرَه ناصرُ على التَّرَجُّل. سخر خليل ضاحكاً من أصفاد هوليود التي انصكَّتْ على رسغيه، لكن ذلك السيناريو لم يلبث أن انقلب إلى كابوس حقيقي حين بالغ ناصر في لعب حبكته البوليسية فألقاه مع المجرمين العُتاة في تلك الزنزانة القذرة وأخضعه للاستجواب اليومي

الشرس. مثل شرطي فاسد تَلَذَّذ ناصر بتعذيبه، فشل خليل في اجتياز الاختبار، وذاب مُنهاراً كبُرجَي التجارة، معترفاً بأدق تفاصيل اختطافه للركاب وتخويفهم بإلقائهم بعيداً عن وجهاتهم.

التعذيب ترك خليل مستعداً للاعتراف بأي شيء لولا تَدَخُّل هذه التركية اللعينة، لا يعرف بأي نفوذٍ سَعَتْ لإطلاق سراحه، لينتهي هنا في هذا الفراش النتن. استدار لِيَصُبَّ أيامَ عذابات السجن في جسدها الذي يُذَكِّره بكيس ملاكمة شحمي، وتَلَقَّت التركية وحشيتَه بهسيس شيطاني: «أتحفني بكل غضبكَ..» حَفَّزَتْه، بينما غَرَسَ وجهَه للوسادة بنِيَّةٍ أن يخنقَ أنفاسَه ويستريح من ذاك القرف، تلك الوسادة التي هي آخر متعلقاته، يتنقَّل بها كما تتنقل السلحفاة بصَدَفتها من مكة للولايات المتحدة ورجع بها. حين دخل بها على التركية تلك الليلة لمعت عيناها وطقطقت أسنانها كأسنانِ مصيدةٍ على فأرٍ غارقٍ في قطعةِ جُبْنٍ، (كل عظام التركية تُطقطق حين ترقص).

تحت مصطبتهما انفجرت الموسيقى الصاخبة وسكتت، وتكرَّرت التجربة، أحدهم كان يُراجع فجاجةَ مكتبته الموسيقية، لم ينظر خليل إلى ما يجري حول المصطبة وأسفلها، مُعَلَّق هو كحشرةٍ في هذا القَاطِع الخشبي مثل عُشٍّ، والذي ابتكرته التركيةُ في سقف القبو لتبسط سريرها العريض،

«لا تخف، طالما تُركيَّتك حَيَّة تسعى فلن يَمَسَّ أحدٌ ديناصور متعتها بأذى..» وبشراهةٍ قضمت شحم أذنيه وعوى في جوفها قطيع ضباع. لقد كسر فيه السجن شيئاً حيوياً، لم يُحَطِّم جسدَه وإنما شعوره بالتفوق (بكونه كائناً سماوياً لا يُمسُّ)!

ليلة غادرَ السجن كان معاذ هو من عثر عليه. من مقعده في حافلة النقل الجماعي لَمَحَ ابنُ الإمام عربةَ خليل جانحة على بُعد مسافةٍ من أبوالرووس، بَدَتْ العربة الصفراء الفاقعة لكأنما استدرجها الرملُ المحيط

بطريق العُمْرَة السريع وابتلعَ عجلاتها الأمامية. قفز معاذ قبل أن تَتَوَقَّف الحافلة، كان الليل قد انتصف، تمتم معاذُ آيَةَ الكُرسي قبل أن يتقدَّم بحذرٍ من العربة التي بدت عاجزة تُحيطها الشياطين. عن قُرب وتحت أضواء العربات المارقة على الخط السريع لَمَحَ معاذُ وجهَ خليل الرمادي مُرتطماً بعجلة القيادة. العَرَقُ على الوجه الفاقد الوعي تَفَصَّدَ حارقاً في صدغَي معاذ وأعماه، تَوَقَّف الزمنُ بخليل، وَعَى بشكلٍ غائمٍ الأيدي التي جرجرته، ودَفَعَتْه في أول عربة، وانتهت به لمستشفى الزاهر حيث أنعشوه من غيبوبته ليقف وجهاً لوجه مع ديناصوره الذي غافله وخرج عن السيطرة،

«هذه المرَّة يزحف السرطان مما وراء كِلْيَتِكَ اليُمنى..» قالها الطبيب لتخفيف وقع حقيقة «أنه مع أشرس أنواع السرطان..» ومرَّ الأسبوع بلمحةٍ ولكن بسيناريو مُضَخَّم، العملية الجراحية لاستئصال الورم مما وراء الكلية تمَّتْ بسلاسة، خرج منها خليل ساخراً بل ومُتلذذاً بالقضمة التي نَهَشَها الديناصور من جسده! الانقلاب جاء حاسماً، ففي الأيام القليلة التالية بدا لكأن الفراغ الذي أحدثته الجراحة في ظهره وعلى الخاصرة مباشرة قد حَفَرَ موطئ قَدَم للديناصور الذي بدأ يَتَوَسَّع بجوفه. الطبيب الذي وقف أمام صورة الأشعة شلَّ خليل بتلك النظرة الفارغة، نظرة عازلة للهلع الذي قد يُعديه من جسد خليل، يريد أن يحفر بوعيه من دون أن يُحَرِّضَ مَشاعرَه:

«حالتك مُحَيِّرة، هذا الانفجار الخلوي نادر الشراسة.. نارٌ في هشيم.. وربما لن يستغرق الأمر أياماً، أو شهراً على الأكثر قبل أن..» بدا الطبيب عاجزاً عن لملمة الفكرة، بدا خليل كالأصم أمام الطبيب، محبوساً في حبكة مغامرات هوليودية، حيث عليه أن يُمتع جمهوراً مرحاً، بالتصميم على أن يُسَرَّح من المستشفى ليحارب ديناصوره في شوارع مكة.

«يُسَرِّحونكَ لأي بيت؟» بدت جدرانُ المستشفى بيضاء صماء أمام توسلات معاذ، المُتَفَرِّج الوحيد المُعْتَرِض على تلك الحبكة الانتحارية، وبدا خليل يلهث للفرار من فكرة استئصال عضوٍ آخر منه، «التاكسي ليس بيتاً تتداوى فيه..» للمرة الأولى وَعَى معاذ حقيقةَ خليل، ككائن مُعَلَّق في وحدة قاتلة، لا ينتمي لأحد، وأن الحزن الذي يُحيطه لا يُطاق ويحرق.

أولى جرعات العلاج الكيماوي كانت الأشد دماراً، سحقتْ عظامَ خليل للنخاع. ورغم الهشيم، وبعد ساعةٍ كان يتحامل على قدميه مُتجاهلاً الممرضة بالمقعد المتحرِّك، مُتَرَنِّحاً بقامته الطويلة مُغَادِرَاً المستشفى.

تحت شمس مكة الحارقة أعماه سيلُ العَرَق المُتَفَصِّد على جبينه وكامل جسده، استدار فجأة لمعاذ، مُتشبِّثاً بذراعه التي تسنده، استوقفه بوَسَط الإسفلت الحارق، آخذاً برأسه بين يديه المحمومتين محتملاً وخز شعره الخشن، يضغط لطمس أحداث الأسبوع الماضي من ذاك الرأس، وقال:

«هذا الفيلم ليس للعرض بأبوالرووس، امسح من رأسكَ كونكَ قد رأيتني هنا أو هكذا..» حنى معاذُ رأسَه خاضعاً لذاك الأمر بين التوسل والتهديد، مُخفياً نظرةَ الشفقة عن أسطورة أبوالرووس وكاسح الشوارع، الذي تضاءل في وقفته على سواد الإسفلت مُفرَّغاً في لطخة شحوب جيري. تُهمين على خليل فكرةُ السِّرِّية، المرة الأولى التي اجتاحه فيها السرطان ـ حصلت بينما كان يتدرَّب على الطيران بفلوريدا ـ أخفى الأمر حتى عن أبيه. وفيما بعد وفي المرات التي أشار لإصابته سَرَدَها كفيلم مغامرات شاهده بلذة شريرة. السِّرِّية والمُخَيِّلة الخصبة كانت سلاح خليل لقهر إرادة الدمار الذاتي، بشكلٍ أو بآخر فإن السرطان بالنسبة له كان مدعاة للفخر. يراه كظاهرة إفراطٍ أو انفجار في النمو الخلوي، يلعب فيه هو دورَ المُفَاعِل النووي الذي يتحكَّم في سلسلة تلك الانفجارات الذرية، مُنتجاً تلك الطاقة الجبارة.

بمواجهة المبنى المتآكل لمستشفى الزاهر تطاول خليل بعد أن تشرّب الأشعّة التي ضُخَّت فيه لتُسَمِّم كل خلاياه. شَدَّ قامته ليظهر لمعاذ كرَجُل الستة ملايين دولار، وقد حُقِن باليورانيوم المُخَصَّب، كائن مؤهل لمقاومة فيروسات الفضاء الخارجي.

«أُقسمُ على المُصْحَف بألا أُخبر مخلوقاً بما رأيتُ.. لكن يجب أن تتبع نصيحةَ الأطباء بالبقاء في المستشفى لأسبوعٍ آخر، على الأقل الأكل هنا جيد، بينما يشرفون على علاجكَ..» مطمئناً لقَسَمَ معاذ ساقَ خليلُ عربتَه الأجرة فَارّاً من نظرة الفزع السرطانية بعينيه الغارقتين في الحزن.

حرص على أن لا تشكّ التركية بحقيقة مرضه، وهي مضت تتحدَّث عن مُجَرَّد صدمةِ ناصر لعربته،

«لا تترك لهم فيقهرونك بانبعاجٍ في حديد سيارة، في خروجك عَرِّج على أي معرضٍ للسيارات، اختر اللعبة التي تستهويك، ما دمتَ لا تضن عليَّ بلعبتي المفضَّلة..» مُغلقة قبضتَها الحديدية على جذره. «كن كريماً مع تُركيَّتكَ وستُتحفكَ بآخر صيحات الألعاب..» جَلَدَه، بنظرة اشمئزازٍ، لن يسمح لهذه الذُّجيرة بشرائه، لا لأنه ليس للبيع، فبطاقة السعر مُعَلقة برقبته، لكن المشتري (زبالة). كلما تفاخرت بصفتها الـ (تُركيَّة) رَوَادَه أن يبصق عليها ويلعن (زبالة) الكلمة التي بوسعه أن يطلقها كساطور فيفلق رأسَها!

مثل ورقةِ نشَّافٍ مُفلطحة طَبَعَتْ بشفتيها على وجهه وهي تتمتم: «يا روح التركيّة.» بغضٍّ نووي تفجَّرَ بصدره، فاق شراسة التفجر السرطاني بموضع كليته المُسْتَأصَلَة، ارتعد بلذة البغض الذي لا يُطاق، وللحال وكجهاز استشعار حسَّاس للذبذبة أوقدتْ رعدتُه رغبتَها، ارتدَّت عليه، لكن ولأول مَرَّةٍ في هجمات صيده خانه ديناصوره، ومهما بادل التركية اللطمات لم يستجب ديناصوره كعادته للعنف ولا للدم المنبجس، تَمَاوَتَ كدودة رخوة مقززة، صار خليل واعياً باللبوة التي تَلَبَّست التركية، تلطم

ديناصوره بمخالبها لتحفيزه، تواصل الاستماتة لتأجيجه، مستشعرة بشكل غائم لعجزه المُباغِت، بينما أجهدَ ذهنَه لِتَخَيُّل كلِّ عقاقير الفحولة الممكنة، مُسترجِعاً سخريتَه من إعلانات التحذير من السكتات القلبية التي تعقب تناول تلك الحبوب الزرقاء! لحظتها تاق لسكتة قلبية تنقذه من عار العجز، بمستوى ثالث من الوعي لاحق أكداسَ الشحم يخفقها بلطماته وركلاته، تعويضاً عن فشله حتى تعالت فقاقيعها.

وأخيراً، وبمعجزةٍ، تَمَكَّن من جرجرة جسده المُسْتَنْزَف خارج ركام الشحم، وبجهدٍ جبَّارٍ لملم جسده لثيابه، لينحدر باتجاه سُلَّم الخشب الذي يأخذه من خلوتها لقاعة الرقص أسفلها، لم يُلْقِ بنظرةٍ واحدة على الأجساد التي مضت ترقص. بلا مبالاة لاحقتْه عيناها بينما تعثَّر مسعوراً للطريق، أي طريق. . .

حين اندفع هواءُ الزقاق إلى رئتيه سَعَلَ سعالاً جافاً وبَصَقَ صُفرة، طَرَدَ آخرَ رائحتها. في تَرنُّحه داس ذيل تلك القطة المشردة، كشَّرت أنيابها في هسيس. . بصق على القذارة التي أحالت بياضَها إلى رمادٍ تُعَلِّمه جروح آخر معاركها مع الكلاب الضالة، وقال:

«أنا مثلك أيتها القطة، بثمانية أرواح. . . لكن أتعرفين ما السرطان؟ ليس مجرد كلب ضال يرضى بنهشة، هو ديناصور بقدمٍ عملاقة تطاردني لتدوس أرواحي واحدة بعد الأخرى. في هجمته الأولى، وبخطوةٍ واحدة سَحَقَ كل حيواناتي المنوية وأنهى فرصتي في الإنجاب، والآن يدوس الحيوان الأكبر، خليل الشيطان، فحولتي. .»

قادَ سيارتَه الأجرة بعيداً، وفي وحدة العربة تأججت كلمات التركية الأخيرة وروائحها، بأظافره كَحَتَ جِلْدَةَ وجهه التي لا تزال تحمل خدوش شفتيها، كرمها المحسوب دائماً أَجَّج أحلامه الضائعة للأبد، «بدون ديناصورك يا خليل أنتَ مجرَّد دودة بالوعات. .»

بقهرٍ داستْ قدمُه على الكوابح، أوقف سيارته بمنتصف الجسر

الدائري ليتفقَّد حجم خسائره، كل محاولات الإثارة فشلت في إحيائه، جاوبه نصفه السُّفليّ شبه مشلول، «إلى متى ستحتملك مَصَّاصة الدماء التركية بحالتك هذه؟» قاد على غير هدى حتى بَلَغَ منى، أطفأ المُحَرِّك وجلس غائصاً في ظلمة أحلك الليالي، مستقطباً جِنَّ منى لبعث ديناصوره للحياة، لم يكن في مزاجٍ يسمح له بالاعتراف بحقيقة كونه الرجل الذي يلتهم آخر فتات حياته، لو لم يبقَ له غير يومٍ واحد فسيحياه حيواناً للثمالة. . ضحك ساخراً من فكرة الثمالة، أي سُكَرٍ يأمله في الزبالة التي هي حظوظه؟! بجوفه أكداس مخلفاتٍ يحتاج أن يتخلَّص منها بالحرق، ليس فقط السرطان، وإنما إدمانه لتلك الزبالة التركية، وللحال أنَّبه صوتٌ داخلي:

«التركية هي المخلوق الوحيد الذي بوسعه أن يُقَشِّر بمخالبه الجِلْدَ الميِّت عن قلبكَ ليقرأ رغباته الشيطانية بلا تزييف. . هي الوحيدة التي وقفت نِدّاً لديناصورك رحمه الله، تصبُّ فيها ما يتجمَّع من حقدكَ، على أولئك الذين يَتَصبَّرون بانتظار المهدي. . أنتَ تنتمي لجنسٍ يُهندس ليوم القيامة، يُربِّي الحروب ليغسل الأرض بالدم النقي. . يخترعون الحبكات التطهيريَّة، التي لا تزيد عن فيلمٍ هندي، ومع ذلكِ يقهركَ أنهم لا يمنحونكَ أيَّ دورٍ ثانوي فيها.»

يقهره أن بوسعهم منح البطولة في حربهم المُتَوَقَّعة للدجَّال حتى للحجر المهمل على الطريق ليقول للمؤمن (ورائي كافر) بينما يستبعدونه! هو خليل، أرشيف كل مَشَاهِد العنف بالسينما الأميركية، بوسعه أن يُمَثِّل ويسرد الزوايا التي انطلقت منها كل رصاصة وقذيفة، والتهتُّك الذي تُحدثه في الأنسجة الحية والميتة. يقف على مدخل مكة بعربته في وحشة جبالها البركانية، ويُحَضِّر بمخيلته تركيبات القنابل المُصَنَّعة منزلياً، يدرس تركيب العبوات، يفتح لكلِّ راكبٍ منهم موسوعته ويُطلعه على أوزان القنابل الهيدروجينية، وعمق طبقات الأرض التي بوسعها أن تخترقها،

«أنا أكثركم استعداداً للقتل وفنونه، ومع ذلك تخرجون في حربكم للدجّال بدوني!!» خلال علاقتهما الغامضة فتحت التركية أذنيها على اتساعهما لأدق شكاواه، كل ذرة بُغْضٍ أطلقها فَرَّختْ في الزقاق، في عتم منى المسكون بالجن وأشباح الذبائح باغت خليلَ الشعورُ بكونه هو السرطان الذي حَفَّزَ سيناريو الخلايا المُدَمِّرة بأبوالرووس: مشهده الافتتاحي كان ظهور الجثة، وتَصَاعَد في طمس بستان مُشَبَّب الأثري، وبلغ ذروته في تشريد يوسف.. فجأة شعر بأنه يكتب ذلك السيناريو، بحبرٍ لا يظهر إلا بعد المعالجة بمادةٍ كيماوية، استرجع خليل كيف كان يجلس للتركية ويُملي سيناريواته التي تُؤرِّقه ويرقبها وهي تكتب بذاك الحبر السري، يتظاهر بأنه قد تَمَّ تجنيده لمعونتها تحت تأثير التنويم المغناطيسي، وبأن طاقمَ تمثيلٍ هوليودي قد حلَّ متخفياً بأبوالرووس لالتقاط مَشَاهِد حيَّةٍ لتغذية ذلك السيناريو بدور الأقليات العربية في حبكة الإرهاب، وهذا الفريق هو المسؤول عن شريط You Tube الذي فجَّرَ فضيحة أبوالرووس.

«تهرب أنت يا خليل الطيار من واقعك الأرضي إلى تلك الخلفية السينمائية الوهمية.»

مهما استسلم خليل لشغفه بحبكات هيوليود، وغاباتها المُقَدَّسة، تلك، يظلُّ حريصاً ـ حرصه على حياته وعربته الأجرة ووسادته الأثيرة والرماد الذي جَمَعَه من حريق أمه ـ بألا يسمح لحبر التركية السِّرِّي بتناول حبكةِ عَزَّة... ينهش قلبَه خوفٌ من أن تخضع تلك الكتابة لأحماض كيماوية لا يعرف مدى التشويهات التي يُمكن أن تُحدثها. ما إن يخطر على رأسه ذلك الكابوس حتى يُفرقع بأصابعه، ويُوقظ العميلَ المُنَوَّم مغناطيسياً ليُفيق من تلك الحبكة «التركية نفاية عثمانية»، يَقْلِبُ الطاولةَ على التركية ويكسرُ قارورةَ أحبارها، يسحبُ منها دورَ التجسُّس والدعارة، ويدفعها خارج الحبكة الأهم بقلبه.

وفي أحيان يغلبه ديناصوره ويتوق لتضحية عَزَّة هذه التي تُروِّضه كما

تُرَوِّض جيسيكا لانج «كينغ كونغ» القرد العملاق، يُراوده قَذْفُها من راحة القرد لمحرقة التركية. عندها تُقَرِّبه وتُركيِّته الموروثاتُ الشيطانية، تنصبُّ شحنتها في عروقهما، يتقارب رأساهما، وتتحوَّل خلوتهما إلى غرزة تتصاعد فيها أبخرة الشياطين، يبدوان في ذلك الفراش المُعَلَّق قريباً من سطح القبو وحلبة الرقص، على المصطبة المُعَلَّقَة على العالم، من جنس الشياطين التي تتخذ مقاعد في السماء لتسترق السمع ويتبعها شهابٌ ثاقب. يسترقان السمعَ لأقدارِ الراقصات المتورمة أو المُصابة بالأناركسيا ـ فقدان الشهية ـ بالأسفل، وتتلاعب على وجهيهما الأضواء المُبتَذَلَة لتلوين الرقصات، في تلك المؤثرات التصويرية التي تليق بنادٍ ليلي لا حَدَّ للخدع التصويرية التي يمكن أن يلعبها عقلُه المُتَمَرِّس بالسينما، كفيلم (face off)، يُوحي خليلُ لنفسه أن التركية هي خليل، يُحَمِّلها نفس وجهه ذلك الممدود طولياً، بأنفه الطولي بنفس الحجم مما بين عينيه لقاعدته، وبأذنيه راجعتين للوراء بقمتين مقصوصتين كجناحي طائرة، وفمه وعيناه الطوليّة كقمرات طائرة. يصير من السهل أن ينظر إلى وجهه الطوليّ الممصوص مُرَكَّباً على تلك العنق بطبقات الشحم، بينما وجهها الفاحش على عنقه الحامل بتفاحة آدم العملاقة، وجسده الذي كلما نفخ بَالون عَضَلَةٍ منه مَزَّقَها حَرُّ الجلسةِ الأبدية بعربة الأجرة في قيظ مكة.

متى بدَّلت التركيةُ استراتيجيتَها لتهاجمه هو خليل؟

قاد خليل عربته بعماء فاقداً للوجهة، يكاد يدوس الناس والعربات على إشارات المرور المُباغتة. وكان عليه أن يغادر تلك العربة قبل أن يوقع مجزرة في طريقه.

أخيراً رجع إلى عمارة جامعة الدول العربية وانتبه أنها جاهزة للإزالة، تسلَّل مباشرة لسطحها حريصاً ألا يلمحه الخصي، تَوَجَّه إلى مخزن السطح حيث يحفظ آلة عرض الأفلام السينمائية القديمة، جسدُه إسفنجة مُغَرَّقة بماء تشرُّ عَرَقاً. ما إن دَفَعَ الباب والجأ حتى شعر بالحضور الغريب في

المخزن، ضحكةٌ شريرة تركد وراء الصندوق حيث يخفي آلته الفريدة، إرثه الوحيد من والده. أزاح الغطاء بنفاد صبر ليُفاجأ بكومة الحطام ترمقه بسخرية، لم ينج من الدمار غير شريط فيلم الديناصور بالأسود والأبيض، تركه المعتدي لم يُمَسَّ بالمزيد من رقع الشريط اللاصق تُرَمِّم مَشَاهِدَه المتآكلة بالعرض.

انحطَّ خليل هناك يبكي كطفلٍ، ببكرة الفيلم بحِجْرِه مثل طفلٍ ميِّت، جَلَسَ هناك سامحاً للسرطان بالسريان من كليته لكبده ممزقاً مرارته ضاخًّاً صفراءها لكامل جوفه. للحظة مات موتاً عنيفاً ورجع من موته ليعاني جرعة مفرطة من الموت أشرس.

بعينين غائمتين جلس هناك يسترجع مَقَاطِعَ فيلم الديناصور المهترئة، تماماً كما اعتاد أن يعرضه ليلةً بعد ليلةٍ على ذلك السطح في سنوات إقامته بتلك العمارة، مُرَاقباً مساحات القَطْعِ المُتَكَرِّر تزحف على جسد الديناصور النادر الذي يتآكل عَرْضَاً وراء عَرْض، متوقِّعاً العرض الذي سيُفاجأ فيه بتلاشي الديناصور تحت قِطَعِ الشريطِ اللاصق، ليجرّده بالنهاية من وحشه، ويجبره على الهبوط لأبوالرووس عارياً للعظم.. أبداً لم ينجح خليل في مقاومة إدمانه لعرض هذا الديناصور الذي يَتَوَسَّع على جدار السطح، يضرب ذيلَه في السماء ويسقط على أبوالرووس.

أخيراً وحين نضب دمعه ومعين قلبه من القهر غرق خليل في النوم، يحلم بإعادة إخراج فيلم الديناصور إخراجاً حديثاً، ليأخذ هيئة الدابة التي تخرج من جبل إجياد بأذيال المسيخ الدجَّال، تضرب الأرض بذيلها فتقلب عاليها سافلها وتقوم القيامة.

أفاق خليل مع الشمس التي ملأت السطح، دَفَعَ ببكرة الفيلم لمخبئها بالصندوق مُعَزياً ذاته: «ما من آلة بوسعها عرض مثل هذا الفيلم بعد الآن، لا مزيد من التآكل والترميم بالشريط اللاصق، أخيراً صار الديناصور بمنأى عن الإبادة..»

«حجاب القمر. مواقف العربات ببرج الجوهرة....» رسالة إلكترونية من سبع كلمات أرسلتْ يوسفَ إلى مواقف ذلك البرج المُطِلّ على الحَرَم. الوحدة التي يعيشها في بيت اللبابيدي تلاعبت بقدرته على الرؤية ووعي العالم من حوله، لم يعد الواقع حوله نسيجاً بسيطاً: الأحلام والذكريات والصور والكلمات من كل الكتب التي سبق أن قرأها انعجنت لتخلق واقعاً جديداً وجعلت من يوسف خيالاً على شريحة فيلم رقيقة، كائناً يوشك على التلاشي بأي اختراق للضوء، في اكتشافه لبيت اللبابيدي ـ متنقلاً من حجرة لأخرى ـ حرص يوسف على أن يوصد الباب الذي يغادره، ملتزماً التقليد الأزلي لماري زوجة اللبيابيدي وخدامها: «حِفْظُ الصُّوَرِ من أن يَمَسَّها الخارجُ.»

تدريجياً فقد قدرته على وعي العالم حوله، استجابته للرسالة جاءت تلبية لحاجته المُلِحَّة إلى كسر حلقة الهذيان تلك.

تحت بصر الحارس عَبَرَ يوسف بوابةَ المَوَاقِف، مؤمناً بكونه شبحاً سار في المنزلق الذي تسلكه السيارات في مغادرتها للمواقف صاعداً للطابق الأول. لم يتحرَّك الحارسُ أو يلقي بنظرةٍ صوبه مما أكد خوفه من كونه يتلاشى. الطابق الأول انكشف له مرصعاً بالعربات للذروة، الحرارة خانقة وتُحَوِّل المكانَ إلى قِدْر بخار، رائحةُ التماس كهربائي ممتزجة بطلاء حديث تماهت بالعرق المُتَفَصِّد بمؤخر عنقه، تردد يوسف أي الطوابق الأربعة يقصد، وعَمَّ يبحث؟

مُتَسَمِّرَاً هناك مكشوفاً لأضواء النيون القويَّة ندم يوسف على ظهوره في تلك المواقف من دون استشارة مُشَبَّب. شعر فجأة بغابة أعمدة الإسمنت ترقبه، التعليمات والأرقام الإرشادية بدهان فسفوري أصفر أغشت بصرَه، عقلٌ خارجي زَعَقَ ليُحَدِّد له معالم العربة التي اندفعت

صوبه كلسان برق قانٍ، كما لو انبثقت من بقعة دم تحت أجفانه، حتى طاسات العجلات كانت مطلية بالأحمر القاني، سيارة حلم كبرت فجأة في اندفاعها صوبه! تَمَطَّت اللحظة لأبدية، وشعر يوسف بالثقل، كل أدوات البقاء تجمَّدتْ فيه، استسلم جسدُه ودماغُه، بكل عضلة فيه انفتحت لتوطين الصدمة، تَخَدَّر جسده بالصدمة قبل أن يتلقَّاها، كل عظمة فيه ذاقت لذة السحق لفتات، في تلك اللمحة من حمرة ذاق يوسف لذة الموت، وبلا وعي استعذبها.

الارتطام المُصِمُّ الذي تلا أيقظَه، كَرَدَّة فعلٍ متأخرة قفز يوسف، لم يعرف لأي اتجاه، ووَقَعَ بمواجهة عربة جمع الزبالة الزرقاء تلك. شريحة الحمرة انعجنت تحت صدامه الأمامي، لم يتوقف يوسف ببقعة الأحمر التي توسعت راسمة قنوات رفيعة رطبة تحت زرقة عربة الزبالة، كان واعياً باليد التي جذبتْه بقوة، ودفعتْه إلى مقعدها الأمامي. في لاوعيه كان واثقاً من أن تلك العربة الحمراء كانت عازمة على تهشيم جسده ما لم تعترضها عربةُ الزبالة هذه التي انبثقت من لا مكان وسحقتْها.

عرفَ أنه يركب عربة الزبالة من رائحة العفن الخفيفة التي غلَّفتْه، وبدأت تُخَدِّر حواسه. استرخى كمن يتلملم في قبر ويتحلَّل بسلامٍ وسِريَّة، حيث لا يمكن لما هو أسوأ أن يَمَسَّه.

انتبه لكونه محشوراً بين رجلين، القصير الذي وراء المقود والطويل الذي أنقذه. المُنْقِذ كان نحيلاً طويلاً كفَزَّاعة، متلثماً بشماغٍ مُرَقَّطٍ بالأحمر. لحظة اقتحمت عربةُ الزبالة بوابةَ المواقف مندفعة في الطريق تَلَمَّستْ يدُ يوسف طريقَها لمقبض الباب. يدٌ من حديد أطبقتْ على يده بينما استدار له وجهُ الفَزَّاعة. كلاهما كان منقطع الأنفاس، وانبجس العرق بين كتفيهما وتحت إبطيهما، وبلغت يوسفَ تلك الرائحة المُمَيَّزَة من ماض حميم، العينان اللتان حدَّقتا فيه من وراء الشماغ كانتا بلون الرماد، بينما وبحركةٍ قصدية بطيئة أسفر الفزاعة عن وجهه وشَهَقَ يوسف:

«تيس الأغوات!!» ولم تلن ملامح الرجل، «ظننتُ أنهم قد رَحَّلوكَ أو قذفوا بكَ في سجن ما لتتعفن..»

«أجل، أليس مكتوباً لنا جميعاً أن نتعفن في هذا الجحيم الدنيوي؟»

«ماذا تعني؟ لكلماتك وقع....» أراد أن يقول (كوميدي) لكن شيئاً في رماد عين تيس الأغوات أوقفه.

«قُلْها. لقد كنتُ دائماً المُهَرِّج..»

«ما الذي تفعله في عربة جمع الزبالة هذه؟ وهذا الذي حدث قبل قليل.. أكان حقيقياً؟!»

«إذا كنتَ أنتَ حقيقياً..» بتلك العين من رماد مسحه تيس الأغوات ساخراً من رأسه لقدميه، وتجاهل يوسف التحدي، أكملَ،

«هل رجعت لأبوالرووس؟ لم يعد آمناً، لم تعد الأمور كما كانت عليه قبل القبض عليكَ، أسمعتَ، عَزَّة ربما قُتِلَت....»

«ومتى كانت حَيَّة؟! متى كان أي مِنَّا...؟ المرأة حشرة، بينما الموت لنا نحن الرجال بطولة، لتحرير أرواحنا.. ما هذا التخريف؟!!»

شعر يوسف بالتهديد في تلك الكلمات الدخيلة،

«سأهبط هنا، رجاءً.»

«لا، لأنكَ ستأتي معي.»

«إلى أين؟!!»

«سترى.. لا بد أن ترى..» صفعتْهما هبَّةٌ من ريح السَّموم فتحوَّل وجهاهما إلى الصُّفرة. أراد يوسف إغلاق النافذة، لكنه لم يجرؤ على الحركة، لأول مرة انتابه الخوف من صديق طفولته.

«لا بد أن أعرف إلى أين تقودني؟» فضح صوتُه تَوَجُّسَه.

«تَذَكَّرْ، لقد أنقذتُ حياتكَ لتوّي..» كل كلمة ينطقها غريبة، لا تشبه بساطة تيس الأغوات الذي عرفه منذ الطفولة.

«ما الذي حدث لكَ؟!» زاغت عينُ تيس الأغوات بين يوسف

والسائق الذي يلتزم الصمت ويرقب، كمن يتوقَّع نجدة. توقفت عينا يوسف بأصابع تيس الأغوات، والوسخ المحشو تحت كل أُظفر، حتى أصابعه لا تشبه تيس الأغوات الذي من مرمر صقيل ويتحدَّى بأناقته شظف أبوالرووس. تململ تيسُ الأغوات تحت نظرات يوسف الفاحصة، وسارع ليصرف انتباهه،

«استعدْ لعبور نقطة التفتيش..» ولم يجد يوسف فرصة للرد أو الفهم، «والآن احنِ رأسَكَ..» وبلا إنذار دَفَعَ رأسَه في ذاك الكيس الأسود، وأطبقت يدان وقدمان من فولاذ على جسده لتبقيه محشوراً تحت المقعد..

بدا لكأن تلك العربة ماضية للأبد، مع كلّ تَوَقُّفٍ شَعَرَ يوسف بالفولاذ يسحقُ جسدَه أبعد تحت المقعد، كانت عقوبة تُوَقِّعُ عليه أكثر من كونها ضرورة لإخفائه. أخيراً وحين توقفت العربة سارعوا يجرجرونه بعصبية ويدفعونه ليمشي، شعر يوسف بالأرض تحت قدميه رخوة رطبة، وأعمته رائحةُ العفن، كان واثقاً من كونه يمشي على زبالة، عندها أزيح السواد عن وجهه ليُطل وجه تيس الأغوات الساخر،

«مرحباً بك في مملكتي، والآن، اتبعني..» وقاده عبر شبكة أنفاق وأقبية لم يعد يوسف يعرف ما إذا كانت تخترق في أرضٍ أم سماء، يكاد يضل لولا رائحةُ طين جوف الأرض التي ظلت تقودهما ببوصلتها، يعرف يوسف تلك الرطوبة التي تُحَوِّط حاويات نفايات المطابخ بأبوالرووس. أنبأته حواسُه بأن تلك الأنفاق ليست عميقة الغور، وإنما تجري تحت طبقةٍ رقيقةٍ من التربة (مثل ماء وجه المدينة).

أخيراً دَفَعَ تيسُ الأغوات تلك الحصيرة وشقَّ طريقَه للسطح، نَفَذَا عبر طبقاتٍ من الخِرَق والخضار والأطعمة المُتَحلِّلة والأوعية البلاستيكية وزجاجات المشروبات المعدنية والأدوات الكهربائية وأكداس عظيمة من خُرْدَةِ الهواتفِ النقالة. تلال على مدِّ البصر من تلك النفايات في عراءٍ على

تخوم ذلك العمران، أحياءٌ سكنية تُحَوِّطُ مَرْمَى النفايات بما يشبه بيوت الدُّمى، لم يعد مُهِمّاً ما إذا كانا في مكة أم خارجها فلقد بدا ليوسف كأنه قد حَلَّ بمرمى نفاياتٍ كوني!

حولهما ظَهَرَتْ وجوهٌ بَشَرِيَّة تُطِلُّ من وراء أكوام صناديق ومن خلال أستار منصوبة بعشوائية بين أكداس زبالة، أو أبواب من صفائح معدنية مدفونة في الأرض تحرس وراءها الخواء.

بنظرةٍ قال له تيس الأغوات: « هنا وجدتُ الملجأ. » وفاحت من أسنانِه نفسُ العفونة.

انطبقت رئتا يوسف حين قاده تيسُ الأغوات إلى تلك الحفر العظيمة التي تُشَكِّل أفراناً عظيمة. كان ملوك المرمى الأفارقة يوقدون نيراهم ويُلقون إليها بالإطارات البلاستيكية أو الألمنيوم، لتُطْلِقَ عَمَالِقَةَ الدخان عالياً في السماء، فجأة مَيَّزَتْ عينُ يوسف تلك الأسراب من الأطفال المعفرين يركضون كطيور رماد بين الأدخنة يضحكون ويسعلون ويُغَذّون الحُفَر، وكانت نسوةٌ بلون تلال النفايات يغصن بأطراف تلك الحفر، ويستخلصن من الصهارة مقتنيات وأطعمة، ويركضن بها إلى عششهن المدفونة في التلال الفوّاحة.

قاده تيسُ الأغوات مباشرة إلى تلك الحفرة البركانية، تلالٌ من المخلفات تَحَلَّقتْ لترسم مثل حجرة لقاءاتٍ، حيث استقبلتْهما مجموعةٌ من خمسة رجال. عفونتُهم لا تُقَارَن ببشاعة جلودهم التي كانت من رمادٍ مُتَحَجِّرٍ يتشقَّق، بوسع يوسف أن يشعر بشظاياها عن بُعد. حين دنا صارت العفونة لا تُطاق، «ها هو أخيراً. .» وأطبق عليه اثنان منهما، شدّا ذراعيه لوراء ظهره دافعين برأسه للأمام وشلاّ حركته، ومهما قاوم للإفلات لم ينجح في كسر طوقهما.

«ما الذي يحدث؟» صبَّ يوسف غضبه على تيس الأغوات. هنا تَقَدَّم الرجل القصير بلحية كثة ليحجب بجسده الرؤية عن يوسف،

«غير مسموح توجيه الأسئلة، أنتَ هنا في محاكمة..» جالت عين يوسف بغباءٍ بين الوجوه المُعَفَّرة، «والآن، أين المفتاح؟» استغرق وقتاً لترجمة تلك الكلمات بعربية معجمة، بدا أن زمام تلك الوقفة بيد ذلك الأثيوبي بلحيته الشعثاء، الركلةُ المُبَاغِتة حطَّمتْ ضلعاً من أضلاع يوسف، صرخة ألمه دفعتْ تيسَ الأغوات للقفز متدخلاً،

«لقد اتفقنا أن تتركوا لي هذه المهمة. لقد نجحتُ في إحضاره إلى هنا، وأنا من سينبش الإجابة من جثته العفنة..» قالها دافِعاً الأثيوبي بعيداً عن يوسف،

«يوسف، سَلِّمْني المفتاح.» سلسلةٌ من عربات الزبالة وصلت المرمى وأخذت تُلقي بحمولتها الطازجة، مستقطبةً أسرابَ الأطفال المَهلهلين، والذين انقضّوا من لا مكان، ومن كلِّ تَلٍّ وكومة، ليغوصوا في الحصاد الجديد يستخلصون تُحَفَه وأطايبَه ويتقاتلون مع النسوة المُجَوَّعات واللواتي بَدَوْنَ حديثات حلولٍ بالمكان. راقب يوسف من كابوسه، وتمتم:

«أي مفتاح؟!»

«نعرفُ أنكَ أنتَ من تَعَارَكَ مع السارق في الحرم، لا يحق لكَ الاحتفاظ بالمفتاح ولا حتى البقاء في دائرة الحرم..»

«ما الذي تعنيه بقولك: لا يحق لي؟!» وتدخّل الأثيوبي بالإجابة،

«أنت نجس، صحفي يقدّس الأوثان، وإحياء مكة الجاهلية بأصنام حجارتها لا مكة الإسلام.. أنتَ تُصَلِّي للحجارة والجدران..» وقف بينهما تيس الأغوات،

«أسترك لي استجوابه أم أغادر؟ هو رجلي.. أنا من استدرجه.»

«هو لكَ، لكن أسكته، أرِحْنا من أنين الحريم هذا..» مستديراً ليوسف بحقد، «أنتَ تعرف جيداً من أنتَ، ومن هو أبوك.. كفرة مُحَرَّمة عليكم دائرة حرمنا..» بدا على يوسف الذهول التام، وعَاجَلَه تيسُ الأغوات،

«فقط سَلِّمْنا مفتاح الكعبة، هو بيتُ رَبِّنا، مسجدنا الحرام..»

«مسجدكم؟» ودوَّت مطارق برأس يوسف..

«ونحن عبيده الخالصون من الدنيا..» قالها بقناعةٍ الرجلُ الثالث الذي كان يلتزم الصمت طوال الوقت، «أنت يا ولد نجس في بيت الله والمفتاح في يدك ينجس..»

«المفتاح يا يوسف..» مثل أسطوانة مشروخة كَرَّرَ تيس الأغوات، «إن لم تتعاون معنا فسيقتلك إخوتي في الله.. عنادك يخرج الأمور من يدي.»

«لكَ إخوة الآن؟!» أحرج السؤالُ تيسَ الأغوات،

«سَلِّمْني المفتاح وسأخذكَ لأقرب طريقٍ سريع..»

«صدِّقْني لم أتمكن من الوصول إليه.. ليس بحوزتي..» وانفجر القائد الأثيوبي،

«أيها الكاذب الكافر، لقد قرأنا كل مقالاتك، كيف تجرؤ فتقول بأن الله في قلوبنا وفي كل لقمة بينما جَلَّ جلاله في سماواته..» بدا الرجل مقتنعاً بجهله، واندفع متجاوزاً تيس الأغوات مُوَجِّهاً ركلةً أخرى لجوف يوسف. وكان الردّ عليه على الفور لطمة من تيس الأغوات، استدار الرجلان واحدهما على الآخر للعراك، في تلك اللحظة سُمِعَتْ قرقعةُ قدورٍ وصِنَاجٍ واجتاحت المكانَ زوبعةٌ، للمحقِ تلاشت الأجسادُ البشرية، ذابت في أكوام النفايات أو في الأرض وابتلعت السماءُ أسرابَ الصغار، وكان تيس الأغوات يطير بيوسف في تلك الجبال البركانية المحيطة بالمَرمَى. قوى غير بشرية كانت تُجرجر جسد يوسف المعطوب عبر تلال النفايات، يتجرح وتلحقه الخدوش والحجارة، تُخَدِّره العفونة، جسده غير حقيقي، العزلة التي عاناها في بيت اللبابيدي زادت في شفافيته، وتلك الروائح النَفَّاذة كانت كفيلة بتمزيق أطرافه، أراد وفقط أن يُترك ليموت هناك. قَبَضَ على يد تيس الأغوات يستوقفه، ليفهم ما الذي

يجري، لكنه كان مُجَرَّد مِزَقٍ والهسيس الذي انطلق من صدره،

«اتركني هنا، سأجد طريقي..» وَاصَلَ تيسُ الأغوات جرجرته لكي لا يكفّ عن الركض.

«أنتَ لا تعرف حتى أين أنتَ.. لم تعد في مكة ولم يعد مسموحاً لكَ الرجوع إليها.. أنت في جدَّة..»

«لماذا؟»

اضطر تيس الأغوات للتوقف: «يوسف، تعرف أجدادكَ، مكة لا بُدَّ أن تنفي أناساً مثلك..»

«مثلي؟»

«أنا وأنتَ نعرف، لقد كنتُ معكَ حين صعدنا لغار ثور لتُبْثت نسبكَ لذاك الأب اليمني..»

«لكنني لا أفهم، كيف يجعلني نسبي لأبي خبثاً؟!»

«أنا لم أعد التركي الساذج من مرمر، أنا مُقاتل في جيش المهدي الذي أهدر دمكَ..» انفجر يوسفُ ضاحكاً لتُخرسه صفعةُ تيس الأغوات،

«لا أُصدّق أن بوسعكَ أن تكون بهذا العنف..» بدا يوسف مثل امرأة تستعطف أمام مرمر تيس الأغوات المتحجر،

«لن تُصَدِّق لأي مدى يمكن أن أذهب في سبيل حربنا القادمة..»

«أي حرب؟!» جرجره تيس الأغوات لمعاودة الركض:

«أعلم أنها دوريات البوليس تُهاجم المرمى، لو قبضوا عليكَ هنا لتعفَّنتَ في سجونهم.. هذا الإنذار ليس نكتة، والآن اركض بكل قواك..»

ركض يوسف بكل ذرة رعب في جسده، ولم يعرف كم ركض ولا إلى أين. لكن وحين تَوَقَّف به تيس الأغوات أدرك أنه على قمة جبل بركاني، بينما في الأسفل بدت عربات البوليس التي اقتحمت المَرْمَى مثل عُلَبِ كبريت، تنبش عن أي وجهٍ تُلقي عليه القبض من العمالة غير النظامية التي تتخذ المرمى مأوى.

على القِمَّة، وحول يوسف كان سُكَّانُ المرمى يحتفلون بنجاتهم من الغارة بالأسفل، يلتهمون ما أخرجوه من طيات ثيابهم من فواكه نصف مهترئة، تقضم الأسنانُ حولها، وتقترب لحافة العفن وقد تتخطاه، عندها صار يوسف واعياً بالخراب الماثل الذي انبنى منه جسده، كطفل يتيم استقطب هذا الجسد الصدقات من الثياب والأطعمة غير المرغوبة.. هنا فقط استدار تيس الأغوات ليجيب تساؤله:

«أردتَ أن تعرف لم أنا هنا؟ كما ترى فإن عالمنا يغرق في مخلفاتكم، فإن لم نوقفكم فستلتهمون العالم..» الخواء في عينيه أفزعَ يوسفَ الذي علّق:

«مخلفاتنا؟ أأنت جاد في ما تقول؟ ألا تسمع نفسكَ... أنت تحمل اسم تيس الأغوات صديق طفولتي، عدا ذلك فلا شيء فيكَ يُشبهه.. من أنتَ؟» تَجَنَّبَ تيسُ الأغوات نظرتَه، وقفا وجهاً لوجه وسط بحر وجوهٍ جحيمية، لا وجه فيها يعبأ بيوسف، القادةُ الآخرون توزَّعوا كلٌّ إلى الجبل الذي نجح في الفرار إليه.

«عندي أوامر بالقضاء عليكَ. حياتكَ لا تُساوي كيس زبالة ما لم تَدلُّنا على المفتاح..»

«لكنه ليس بحوزتي.»

«هناك أناس، أصحاب نفوذ يلاحقونكَ.. لقد تسللوا إلى بريدك الإلكتروني لنصب ذلك الفخ لك.. لقد رأيتَ السيارةَ الحمراء، يريدون مسحك عن وجه الأرض.. دمك مهدور على يدي أو أيديهم، بفارق أنهم لن يمنحوك ثانية للتنفس..»

«وأنتَ، هل سمتنحني هذه الثانية؟» بدا التَردُّد على تيس الأغوات، «هل هؤلاء هم إخوتكَ الآن؟!» مشيراً إلى الوجوه المهترئة حولهما.

«هذا جيش المهدي، وقريباً سيستولي على العالم..» لم يجرؤ يوسف فيعترض تلك الأسطوانة المشروخة، وحيث يقف بدا جند

المداهمة وعربات البوليس بالأسفل لا تزيد عن دُمى تذوب في غمام غربان تنعق.

صفيرٌ انفجر بجمجمة يوسف فجأة، زلزلة ذَكَّرته بالجرافات تبقر أبوالرووس، بشكل غائم لمح خطًّ الدم ينبجس بطول صدغ تيس الأغوات، أدرك أنهما يتعرضان لهجوم قبل أن يقع فاقداً للوعي.

افتتح ناصرُ صباحَه بهذا الخبر، وملأه الذعر:

(من جانبه أوضح المُتَحَدِّث الرسمي بشرطة جدَّة العقيد / المعِيْض أن الشرطة نفذَّتْ عدداً من الحملات على المرمى شرق مدينة جدة، تم خلالها القبض على أعداد كبيرة من المتخلفين. . وأشار إلى أن وعورة الطُّرَق بالموقع، وسرعة تَخَفِّي المخالفين تسبَّبت في فرار أعداد بسيطة منهم، مؤكداً أن تواجدهم لن يستمر طويلاً. . وأوضح المهندس أمين جِدَّة أن الأمانة بصدد الانتهاء من تنفيذ المرمى الجديد بمساحة أربعة ملايين ونصف مليون مترٍ مربَّع وبتكلفة 30 مليوناً، وأضاف أنه سيتم قريباً تشغيل المرمى الجديد الذي رُوعي في تصميمه الأسس والمواصفات العالية المُعْتَمَدَة للمحافظة على البيئة)

المفتاحُ بشَرْبَة

أفاق يوسف على باب إبراهيم من أبواب الحرم. بعين زائغة تأمّل في صفوف المصلّين، ذاكرته فراغ، لا يعرف كيف انتهى حيث هو بباب الحرم، وما إذا كانت الساعات التي عاشها في مَرْمَى النفايات مُجَرَّد كابوس؟ غاب بصره بقمم المنائر حيث يندفع الحَمَام كنوافير غَمَامٍ مع كل تكبيرةٍ وركعة. استوقفه فجأة أن تختلط اللحظات الحاسمة في حياته بالأحلام والكوابيس!

صعقه الألم حين جرّب النهوض، الضلع المكسور جاء كدليل على المعجزة التي اختطفته من الموت. «يريدونك ميتاً. .» تَرَجَّعَ الصدى في خواء جسده مُحَرِّضاً قدميه على الإسراع، مترنحاً يركض ويتعثر تَلَمَّس طريقَه راجعاً إلى بيت اللبابيدي. وفي طريقه وكلما عَبَرَ حاويةَ نفايةٍ لَمَحَ المتاريس والخنادق المخفية وأنفاق الفرار، يعرف أن حاويات النفايات ما هي إلا أبراج مراقبة لجند المهدي القادمين من معسكر تيس الأغوات لافتتاح حربهم الختامية ضد المسيخ الدجال الأعور، والذي هو آخذ في التشكُّل لينبعث من أحشاء المدينة ومطابخها.

ما جرى في المرمى بدأ يتسلل إلى نوم يوسف المضطرب، ليلةً وراء ليلة كان يُفيق وحيداً في الليل يصرخ طالباً النجدة، بينما يحمل فَكَّ تيس الأغوات بين يديه، وبالدمِ ينبجس من طعنة السكين التي تجري تحت بصره من الصدغ إلى الأُذن إلى وريد العنق الذي يتدفق صابغاً صدرَ يوسف بالأحمر اللزج. . . في تمام اليقظة كان يوسف لا يزال يشعر بلزوجة ذلك الدم على عنقه وبين يديه. دم كثيف يستغرق زمناً ليجف في ظلمة تلك الوحشة التي تُطبق عليه. يعرف يقيناً أن تيس الأغوات قد تلقَّى طعنةً في ذلك المرمى، محاولاته للاقتناع بكون الطعنة مُجَرَّد كابوسٍ لم يُخَفِّف حِدَّةَ الرعب من رؤية ذلك الوجه يُشْرَخ، هوشرخٌ لبقعةٍ من النقاء ظَلَّتْ تعكسُ كمالاً خفيّاً بذات يوسف، الكمال الذي ارتفع فوق كل مَسٍّ باختفاء تيس الأغوات.

إلحاحُ ذلك الكابوس زاد حساسية يوسف للخارج وهشاشته أمامه. تدريجياً فَقَدَ الوجهَ الذي يقوده في ذلك الملجأ، شعر بغمامة لؤلؤية غريبة تجوب الأسطح وتبحثُ بإلحاحٍ عن منفذ للمجالس، وكان على يقين من أن ضوء الخارج ذاك كفيل بتعرية وجهه من ملامحه. لذا وتدريجياً ما عاد يوسف يظهر في أسطح اللبابيدي، ينقطع كل يومٍ لمجلس في البيت، ينفذ

ويُغلق على نفسه جيداً، يسد كل الشقوق حول الرواشن، ويسكن في شبه بيات بالصور المعلقة على الجدران.

خَضَعَ وجودَه بذاك البيت للتَّحَوُّر حين أطال الانقطاع للمجلس الأعلى، حيث تتجمَّع رجالاتُ مكة، لليالٍ لم يغمض له جفن، يبحث وبإلحاحٍ عن وجهٍ من بين تلك الوجوه يُحَدِّد له ملامحه هو، كهرباءُ دماغه تصاعدتِ تُطقطق حوله مُنْذِرة بانفجار، صار يخاف لمس محيطه لكي لا يتفحم. وتَعَزَّزتْ هيئتُه غير الإنسانية، انتهى ظِلاًّ أو شريحة فيلم حسَّاسة لتلك الصور، كفيلة بالاحتراق والتلاشي مع أيّ زَخَّةٍ تتسرب من ضوء الخارج.

في اليوم السابع لتلاشيه لمح يوسف رجلاً يخرج من الصورة رقم 64 بالمجلس، رجلاً حيّاً يتجسَّد من شريحة الفيلم الذي هو يوسف، بسحنةٍ سمراء ولحيةٍ تُغَطِّي ثُلثَ وجهِه وأنفٍ عريضٍ وعينٍ نافذة تَرَكَّزَتْ على وجه يوسف تَتَفَحَّصُ ملامحَه باهتمام. للحظةٍ خُيِّل ليوسفُ أنه ينظر إلى وجهه في المرآة، كان الرجل يحمل نفس ملامحه، ربما بفارق أنه يرتدي نظارات، في هيئةِ عَالِمٍ مُسَافِرٍ من مائة عام، عمامتُه تَلْتَفُّ بيضاء في موجاتٍ مُوَارَبَة للأعلى، مُعَزِّزَة للتموجات المُعَاكِسة لتطريزات الجُبَّة المُوَارَبَة للأسفل. وبرقت في عتم المجلس توريقاتُ الثوب العريضة من ذهبٍ يقطر نزولاً لحافة إبهام قدم الرجل اليسرى، مُحَرِّضَة لحركاتٍ باطنية تَتَوَارَى تحت الجُبَّة السوداء، وتَجَسَّد الإبهامُ حَامِلُ المفتاح لافتاً الانتباه يَتَوَسَّط المَشهد، حاول يوسف رسم تخطيطاتٍ سريعة لذلك المفتاح، الذي أخذ يَتَوَهَّج ويُعميه.

انتبه فجأة للكتابة المنسيَّة على الجدار، أسفل إطار الصورة الذي فرغ بخروج الرجل: (عبد الواحد، سادن للكعبة من عائلة الشيبي، والذي سُرِقَ في عهده المفتاح الأعظم للكعبة.)

تَتَبَّعَ يوسفُ اتجاهَ الإصبع، يُشير إلى الصفحة المُقَابِلَة حيث يتصوَّر

طفلان من آل شَيبة يَتَوَشَّح أحدُهما بالقَصَب. تَنَقَّلَتْ عينا يوسف في وجه الطفلين، وبادلاه النظرةَ بالنظرة، أغمضَ عينيه وحين فتحَهما لَمَحَ الغمزةَ في وجه الولد الأيمن، كلما رَفَّتْ عينا يوسف غَمَزَه الولدُ عن اليمين مُشيراً برأسه جِهَةَ الباب. لم يملك يوسف إلا أن يستدير ويخطو باتجاه الباب، في مرايا المجلس عن يمين ويسار الباب لَمَحَ يوسفُ صورتَه تُنَوِّرها لمعةُ القصبِ خلفه، أدرك أن الطفل بالقصب يتسلل ليسكنه، خلعه عنه وقَفَزَ خارجاً.

في لحظةِ التَّجَلِّي تلك نَسي يوسف أن ينظر إلى وجهِ الطفل الأيسر، للمحوِ أدرك أنها بنتٌ تجلس ترتدي القَصَبَ وأنها هي التي دفعتْ الولدَ لتحاول أن تتمكَّنَ منه وتسكنه، ولم يلتفت ليسمعَ ما تُريد أن تقول!

دَفَعَ البابَ ليمحو ما حملتْه له تلك اللحظة، ونسي إغلاقه وراءه.. واستدار إلى المجلس الذي يلي، وجَلَسَ مُحتضناً قرآنه حتى سكن واطمأن. حين اعتادَ الظلامَ خَرَجَتْ رجالاتُ ذلك المجلس، بدأوا يتنقلون بين الصُّوَرِ، يدخلون ويخرجون ويتبادلون المَوَاقِعَ، يبادرونه بالسلام، يسمعُ دبيبَ سُكَّانِ الطوابق العليا والمجالس حوله، يَصْفِقون الأبوابَ، يسمع حفيفَهم وراء الصُّوَرِ وهم يُجْرون مياهَ الوضوء مع أول إشارات الفجر.

لدهرٍ أقام يوسف في صيامٍ، يعتاش على بضع تمراتٍ وحفناتٍ من زمزم، يتركها له معاذ على أعتابِ البيت. حتى زاد نحوله وصار قادراً هو أيضا على الدخول إليهم وإدارة الحوارات. لأول مرة في حياته لم يعد يخاف أن يَجُنّ، خَلَعَ الكابوسَ الذي رافقه طوال حياته من أن يخذله عقله ويصيبه بالجنون. وتصاغرتْ عيناه لشُقَّين رفيعين يصلان بين عالم اليقظة والأحلام، ونسيتا عادةَ النوم، لكنه لم يعبأ بالنوم، ولم يعد يُصارع ليظفر بقِسْطٍ من الراحة لجسده والذي تَخَفَّف من حاجاته البشرية. صار كتلة من التيقظ بشكل لا يُضَاهَى، مستشعراً تَيَقُّظَ البيت المخيف حوله، صاعقاً

الأبوابَ يُشرعها على الغارب، مما مَكّنَه من الصعود للمجلس العلوي، للعثور على المرأة التي لَمَحَها مَرَّةً وأذهلتْه.

ما إن فتح يوسفُ بابَ المجلس حتى شعر بالغيمة اللؤلؤية تسبقه منسربة للداخل، يعرف رائحتها لا يذكر أين. شعر يوسف بفداحة دخول تلك الغيمة، ووقف مسلوباً بوسط المجلس يرقب، بينما طافت الغيمةُ بالصّوَر القديمة بالأبيض والأسود. كلما عَبَرَتْ صورةً ساقتْ سوادَها أمامها، تاركة صَفَّ الصُّوَرِ يمينَ البابِ شرائحَ من بياضٍ كامل..

حين وصلت الغيمةُ إلى الصورة رقم (5) ساقتْ أمامها المرأةَ التي جاء يوسف يطلبها، أخرجتْها من الصورة لتتجسَّد أمام يوسف، لخروجها تَلَوَّنَ الجدارُ خلفَه بحريرٍ أخضر. يتصدَّر البابَ أعلاه رَسمٌ أحمر، أشارت إليه فقرأ: (إن أول بيت وضع للناس للذي ببَكَّة). استدارتْ للرجل الذي ساقتْه الغيمةُ خارجَ الصورة ليتبعها، وعَرَّفَتْه ليوسف: «أبي حُليل الخزاعي..» دخل الخزاعي وبيده مفتاح البيت الشريف ومدّه إليها:

«خذي صُوني هذا المفتاح، أنت وريثتي حُبَّى.»

«لا أقدر على السدانة، فأنا قائمة على قلب قُصَيّ.»

«تتنازلين عن مفتاحها لابن غبشان؟!» أدركَ يوسفُ أنه يحيا ذلك المشهد التاريخي الذي سِيقَ خارج الصورة.

«لكنه سكير..»

«يبيعه مقابل زقِّ خمرٍ فيشتريه زوجك قُصَيّ الأهل للسيادة، ليتنقل من سيِّدٍ لسَيِّد...» التفتت حُبَّى ليوسف، مُحَوِّطة عُنقَه بذراعيها، بِخِفَّةٍ مَرَّتْ براحتها على حبل وريده، هبوطاً لتنبسط على المفتاح المُعَلَّق لصدره، شَعَرَ يوسف بالمرأة تتعلق طالبة النجاة فيه، همستْ: «القلب هومفتاح الكُلّ..» شحنةٌ صاعقة سرتْ من دماغ يوسف لقلبه حين غَرَّقَتْ مفتاحها لمفتاحه، وعَاجَلَه صوتُ الأب الأجشُّ يلكزه:

«وأنتَ ماذا تنتظر؟» تلجلج يوسف. فلم يُمهله:

«انزلْ هناك، انقضْ مكتبة الكردي بمُقَدمة شِعْبِ علي، بِقَدَمِ سَفْحِ أبي قُبيس، وتحتها انبشْ أكوامَ الرمل والأتربة التي سَتَرَت البيتَ المربّع: استخرجْ الداخل: النوافذ العشر، الأسطوانة عليها العقدان وتحتها المحراب، والحفرة، وبقلب الحفرة جسدُ الرخامة الخضراء: علامة مَوْضِع وِلادة حبيبنا المُصطفى! استخرجْ طَوقَ الفِضَّة. طَوْقَ الفِضَّة: المُعَلِّم لمَوْضِعِ الولادة، نقطة الولادات! هذا إرثُكَ.. أفهمتَ؟»

في تلك اللحظة كانت الغمامةُ قد أكملتْ طوافَها بالمجلس، مُحِيلَة صُوَرَه لبياض كامل، وبلغت حُبَّى وأباها، تَشرَّبتْ ألوانهما وبدَّدتهما إلى هواء.. وتَخَبَّطَ في رأس يوسف نعيبُ غراب، تحوَّل سوادُه الفاحم إلى بياض حين انفلتَ شبحه في المجلس يُوَبِّخه:

«ماذا تنتظر؟»

«إشارة، رسالة..»

«الرسالات في كلِّ شيءٍ حولكَ، حتى في دمكَ أو في المفتاح حول عنقكَ..»

«لكن نظري يَتَضَعَّف، ينقسم، كيف أثق ببصيرتي المُضَبَّبة بطول الاعتكاف؟!»

«فقط اغلقْ عينيك ودع الدنيا تأتيك وتترجمكَ وتُحدد ملامحك.. اختر أي كتابٍ لتعثر على إشارتكَ..»

امتدَّت يدُ يوسف عشوائياً فالتقطت كتاباً فكان حياة الحيوان للجاحظ، وجاءه الأمرُ:

«وافتتحْ بأيِّ اسمٍ.» بلا عناءٍ انفتح الكتابُ على فصلٍ طويل، قرأ:

«غراب!»

«لعبد المطلب؟» قَلَّب يوسفُ الصفحات يقرأ ما الغراب لجَدِّ النبي:

«زمزم.»

«ولقابيل؟» لم يعد يوسف يقرأ من كتاب الحيوان وإنما مما حَفِظَه:

«قبراً لهابيل.»

«وللكعبة؟»

«ذا السويقتين، أفحج الساقين أزرق العينين أفطس الأنف كبير البطن وأصحابه ينقضونها حَجَراً حَجَراً ويتناولونها حتى يرموا بها إلى البحر.»

تَمَلَّى يوسفُ: «الجاحظ. الغراب. الكون. مكة. الكعبة.....»

«ها أنتَ أدركتَ سِرَّ أفلاك الكلمة وطاقة الإحياء فيها، المفتاحُ الأعظم في كلمةٍ أوليَّةٍ تفتحُ الأكوان. فلا تقف بالأقفال والحدود. استجمعْ إرادتكَ واخرجْ.»

امتَثَلَ يوسفُ للأمرِ الباطني فقام يتبع، يبرق كَمَا قَبْله بَرَقَ الغراب من بابٍ لبابٍ لحجرةٍ واحدةٍ لرخامةِ الخُضْرَةِ، لخاتمِ الفِضَّة، عميقاً لقاع برقها، يغمس ويغتسل كما يغتسل الذين يتهيأون حوله للإحرام للحج، يتوضأ ويبثق مُحْرِماً بالنور الصاعق. يتماهى وإحرام الصُّوَرِ الكاملة البياض في المجالس، يتماهى وحجَّاجها الأزليين، ينفذ من بيت اللبابيدي لفيض الحجيج..

كان ذلك اليوم السابع من شهر ذي الحجة، قبل يومين من وَقْفَةِ الحجيج بجبل الرحمة بعرفات حيث التقى آدم حواء أول هبوطهما من الجنة. وفي مروره بالمسجد الحرام وَقَعَ يوسف بعين ذلك الإعصار، كان الجنود يدفعون الجموعَ بعيداً عن الحرم، بينما الفزعُ يمسخُ الوجوهَ،

«لعنةٌ حلَّتْ بنا.. بيت الله لا يفتح.. الكعبة تنغلق عنَّا..» اكتشفوا ذلك حين جاء أميرُ مكة مع الزوَّار الرسميين لغسل جوف الكعبة وإحرامها كالعادة يوم السابع من ذي الحجة.. انتشرَ الجندُ بمقام بني شيبة وبين الأروقة يطلبون الشيخ عبد الله الشيبي لفتح الكعبة، لكنهم ما عثروا على أثر للرجل الأربعيني ولا على المفتاح، لا في الحرم ولا في بيته.. وللحال استشرتْ إشاعةُ النارِ التي سرتْ تباعاً ببيوت آل شيبة في العام الأخير وذهبت بهم.. كل المحاولات للفتح بالمفتاح الحديث فشلت،

أمام باب الوداع تبارى شيوخُ المقرئين ينبشون عن آيةٍ تقشعُ اللعنةَ، ويُذَكِّرهم ذلك الأعمى:

«باب الكعبة لا يفتح إلا لشيبي، وكل مكة تعرف القصة في التاريخ، حين أصابتْ جائحةُ الكوليرا آل شيبة وأوشكوا على الانقراض، ولم يبق منهم غير رضيع في أقمطته، وحين عجز أميرُ مكة عن فتح الكعبة، اضطروا لإحضار الرضيع الشيبي، حَمَلَه الأميرُ واضعاً المفتاح في كفه الصغيرة مديراً المفتاح في القفل وانفتحت الكعبة..»

«والآن، ألا يجدون ولا حتى الرُّضَّع؟!»

انجرفَ يوسفُ مع بحر الحجيج مُنْحَلاً بين خليط البشر إلى عرفات، لم يجد الحُجَّاجُ بُدّاً من إتمام شعائرهم. واكفهرَّت سماءُ يوم الوقفة لا بالغمام الذي تتأهبُ فيه الملائكة لحمل دعوة الواقفين، وإنما برعب اللعنة التي تُحَوّم على الرؤوس وتُهَدِّد بخسف الأرض من تحت أقدامهم...

فاض يوسفُ مع الفائضين صوب مِنَى، حيث كانت الشياطينُ مُصَفَّدَة في جمراتها الثلاث، كل شيطان مُحَوَّطٌ بدائرة، مُحَوَّطين بتلك المزالق مابعد الحداثية، ممراتٌ عملاقة من ثمانية طوابق، تحمل سيول الحجيج بمَسَارَاتٍ مُتحرِّكة وسلالم كهربائية: 3 ملايين حَاجٍّ لذاك العام ×7 حصوات لقذف كل شيطان قبل الغروب ×3 شياطين × 3 أيام = 189 مليون حصاة، تَنْصَبُّ على إبليسَ من الطوابق الثمانية للتركيب المعماري الحديث. لم تكن حصوات تلك التي تُمْطِرُ إبليسَ وإنما نتفاً من اللحم الحي، يقتطعها البَشَرُ من أجسادهم وآثامها ليقذفوها إلى جسد إبليس الذي يتعاظم، وَقَفَ يوسفُ بمِحْوَرِ الأيدي لتقتطع من جسده وتَرْجُم، حتى انتهى مغسولاً بذلك المطر مُتَخفِّفاً من كل عوائقه. للمحة صار يوسف واحداً مع الشياطين المرجومة وآثام الحُجَّاج وأحلامهم، مُلَخِّصاً للأرض المُقَدَّسة حوله بجغرافيتها وأزمنتها.

مع حلول رابع أيام التشريق كان يوسفُ بالغ الخِفَّة، وحَمَلَتْه جموعُ الحجيج راجعة به إلى مكة، بَلَغَ المسجد الحرام مع الليل، تقوده مئذنةُ بابِ السلام (رابع المنائر الأقدم بالحرم).

انفتح جسدُ يوسف من الصفاء بذاكرة تبدأ بالماضي وتنتهي بالحاضر، وتَحرَّرت حواسُه للتنقل بلا عناء وتجسيد ذاك الماضي إلى جوار الحاضر بحيث يتحرَّك فيهما معاً. لم يَعْبر المَدْخَلَ الحديث الرخامي، وإنما البوابةَ القديمة المغروسة بذهنه من قراءاته ومن صور اللبابيدي والخرائط التي جَمَّعَها مُشَبَّب من ذاكرة المعمرين بالقياسات التفصيلية: قام له بابُ السلام في أبوابٍ ثلاثة كبيرة، كل واحد منها خمسة أمتار على شكل عقود يتوسَّط بينها ساريتان عريضتان بمساحة مترين لكل واحدة، تعلوها نداءات بارزة بخط النسخ وسط دوائر (الله، محمد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي، سعد، سعيد، عبد الرحمن بن عوف، أبوعبيدة، طلحة، الزبير، حسن، حسين، رضوان الله عليهم أجمعين)، يختار يوسفُ أن يَعْبُرَ تلك «الخوخة» في الباب الصغير المنقور بوسط الباب الكبير مُقَلِّداً القادمين إلى المسجد عندما كانت تُغلق الأبواب ليلاً، رأى جَدَّه كما رأى أباه كما يرى نفسَه الآن، كل فجرٍ يجلس بموضع الحصوة بين الرحبتين الحجرية والرخامية، بين حلقات علماء التلاوات من الأندونسيين والمصريين والسوريين والمغاربة يفتح كتاب الأزرقي ليقرأ ويحفظ وينسخ.

ذلك الفجر كان هناك من يُلاحق يوسف عن كثب ليكشف مكانه في بحر الحجيج، وكان عليه أن يحثَّ خُطَاه في تاريخ مكة ليخترق بحيث لا يعود بوسع مطارده نبشه من تلك الصفحات، الشوق الطاغي لصفحةٍ من الأزرقي يرقدُ فيها ولا يصحو ألجأه لدَرَجِ منارةِ بابِ السلام، بين الزحام فاض كتابُ الأزرقي بين يديه وغاب، ولأكثر من مَرَّةٍ كاد الكتاب ينجرف

في تلك الأجساد التي استسلمت لِحِسٍّ غامض لتسلبه إياه، الصفحة التي انفتحت انشقَّتْ بِفِعْلِ المُدَافعة والزحام، وكان قد قرأها من قبل ـ كبقيةِ صفحاتِ الملجدات الثلاثة ـ ألف ألف قراءة حتى انحفرت برأسه، ومع ذلك بدت له في تلك القراءة الأخيرة ـ الخاطفة التي في مدٍّ وجَزْرٍ ـ كما لو كانت القراءة الأولى: حين كشفت له تلك تسميةُ المؤرخين والفقهاء لباب السلام هذا بـ: «باب بني شيبة» لأنه يقع مُقَابِلاً لباب بني شيبة في الجهة الشرقية منه، الذي يُمَثِّلُ حدودَ الحرم الشريف في عصر النبوة!

وقف يوسفُ ضائعاً يبحث عن قطعة الأحجية التي تربط بين آل شيبة والمفتاح ونهر الكُتُبِيَّة، وهو يوسف بين النهر والمفتاح، في تلك اللحظة ـ من تمام الشوق ولوعة المُفَارِق ـ أدرك يوسف أنه وبكل القراءات التي خَاضَتْه، وبكل البحور التي جَرَفَتْه عشقاً لمكة، كان مُقَدَّراً له أن يقف تلك الوقفة، ببوابة السلام، التي قامت كمرآة تعكس على وجهِ الطَالِبِ للتعريف ملامحَ آخر حملة المفتاح من آل شيبة. وإن توقه ذاك والشبه الغريب الذي يحمله للسدنة هو ما يدفع غريمَه لمطاردته، لخلعه من أحجية المدينة وتركيب أحجية حديثة، مع ذلك الإدراك عَصَفَ بيوسف حزنٌ قديم كَشَطَ عن جسده لاحُزْنَ المدينة المقدسة، انحطَّت كتفاه، أدرك جوهر الغياب.

تلك الضحكة الأنثوية الناعمة انتشلتْ يوسفَ من ذلك الحس بالفقد، مَيَّزَتْ حواسُ يوسف تلك الرِّقَّة.. ناظراً حوله فوجيء يوسف بالأصنام العتيقة تسري حول باب السلام، ورَفَعَ هُبَلُ رأسَه من تحت عتبة المكتبة، حيث ظَلَّ مدفوناً لقرون، ليُحَدِّق بعينيه، بينما نَفَضَ جسدُه المهول غبارَ الزمن والكتب قائماً ببطء ليلحقه، هزَّ يوسفَ الخوفُ وضربتْ صاعقةٌ بدماغه، وأخذ يركض. فجأة ارتطم بذينيك الجسدين الملتحمين، أنثى وذَكَر في عناقٍ حميم، عرف يوسف تلك اللدونة لجسد

المرأة في فِعْلِ الحُبِّ، صُوَرُ اللبابيدي عَرَّفَتْه بأنه يواجه أساف ونائلة، العاشقين اللذين مارسا الحب في الكعبة فمُسِخا إلى حجر. . لظهور يوسف انفصلتْ لدونةُ الأنثى عن صلابة الذكر وسار الجسد الأنثوي مبتعداً. . . عميقاً بوعي يوسف محفورة تلك الخطوات الرقيقة الخاطفة المبتعدة. . جَاهَدَ لينظر في الحاضر، لكن الحاضر والماضي امتزجا في تيارِ رؤيته الراهنة، حيث ما عاد ثمة فرق ما إذا كانت النسوة في الحُبِّ قد مُسِخن إلى حجر أم أن الحجارة قد مُسِخَت إلى نسوةٍ في الحُبِّ. . اندفعَ جسدُه راكضاً وراء تلك الأنثى نائلة، وبكل خطوةٍ يخطوها كان على قناعة بأنه يتبع مانيكاناً من مسروقات تيس الأغوات. لكن توقاً عميقاً يُحَدِّثه بأن تلك ما هي إلا عَزَّة. . تَحَرَّكَ بِخِفَّةِ الليلِ إلى صحن الحرم، عابراً حلقات المتهجدين، بينما الأمامُ يؤم المصلين لصلاة استغاثة، لاستمطارِ مفتاحٍ يُؤْذِنهم لبيت الله ويرفع اللعنة المحوّمة في الهواء. . كان الجند قد نصبوا نطاقاً حول الكعبة مانعين المُصلِّين من الاقتراب، السُلَّم المُتَحَرِّك كان لا يزال حيث خلاه الأميرُ يوم فشل في غسل الكعبة، مُتَعَلِّقاً بيأسٍ إلى باب الكعبة المُوْصَد. . خُيِّل ليوسف أن السُلَّم يُعْتِمُ ويتحوَّل إلى جسدِ هُبل بذراعه المقطوعة ويدفع بجذعه المهول إلى جسد الكعبة. . في خلفية الصلاة كان جندي يحكي لرفيقه تجربتَه الأولى في غسل الكعبة:

«قالوا لنا سترافقون أمير مكة في غسْلِه الكعبة للحَجِّ، أنا بدأتُ عملي حديثاً بالأمن الخاص، ليلتها لم أنم محموماً بفكرة أن أشهد غسل تكوينٍ مُقَدَّسٍ بذاك القرب، حينها اكتشفتُ أن الحجارة مثلنا تنزع ثيابها وتهبط الماءَ لتغتسل وتَتَطَيَّب. . انهمكتُ ورفاقي نتوضأ لمباشرة الغُسْل. تنطبع بذاكرتي تفاصيل ذلك السُّلَّم تغطيه آثار أقدام من طِيب، انفجر الصباح وصحن الحرم بالدهون العطرية من أجود عطور العود والصندل والعنبر

التي جاء بها خُدَّام الحرم في سطول، سقطتُ في شلال عطر أثري، في منتصف تلك الصعدة بدأتُ أترَنَّح، بدأ المَطَافُ يدور حولي وحَمَلتْني العطورُ وجَرَفَني ذلك التجويف المقدس، معتم جوفُ الكعبة كباطن العين! يرى مباشرةً لرَبِّ البيت، سمعتُ تلك التنهيدة (أنت ببيته، أنت قادم لتغسل أعتابه) لو لم تدفعني تلك اليد إلى جوف البئر عن يمين الداخل لكنتُ هويتُ مُهَشَّمَاً إلى الصحن، ظلَّ جسدي يهوي في طِيبٍ بلا آخر، حتى تَلَقَّفَني قرنا الغزالة من ذَهَبٍ يشقان في صدري، ليرفعاني هناك بلا حراك، حين ارتقى الأميرُ بابتسامته الطيبة فتح البابَ على مصراعيه، وسكبنا الدلاء العامرة بالماء والطِّيب، وحين غادر الأمير، قال لنا رئيسُنا (والآن، صَلّوا!) جاء الأمرُ مُباغِتَاً كمن يفكُّ عِقَالَ شاهين ويرسله في الهواء. أرخيتُ كُمَّي بذلتي الرسمية، ورفعتُ راحتيَّ لجانبي أُذنيَّ لأُكَبِّر للصلاة، تعلَّقتْ يداي هناك بينما درتُ، لم أعرف إلى أين اتجه، لأول مَرَّة لا أعرف لأيِّ قِبْلَةٍ أُصلِّي (حين حللتُ بقلب القِبْلَة)، لَحَظَ رئيسي تلجلجي، «صلُّوا في أيِّ اتجاهٍ!» كَبَّرَتُ حيث أنا وصلَّيتُ للأمام، ركعتين، ثم انقلبتُ فصلَّيتُ للخلف ركعتين، ثم لليمين ركعتين، ولليسار، جَمَعتُ جِهَات القِبْلَة لقلبي وإليه صلّيت.»

بخفة الليل، وبلا مقاطعة للصلاة أو إثارة لانتباه الجند، انسلَّ الحضورُ الأنثوي يرتقي السُّلَّم، مُحَرِّضاً يوسفَ وراءه ليتبع، ومرة أخرى ارتعد بهاجسٍ أنهما يرتقيان ظَهْرَ هُبل. دفع يوسف خوفَه ذاك وتبع بينما غَام الصحن بالبخور.. تحت أنظار الجند المصعوقة وَجَدَ يوسف نفسَه

على السُّلَّم. قوةٌ تفوقُ إرادتَه ترتقي به، لكأنما صَعَدَها من قبل مرات ومرات، ولكأنما هي صَعْدَة محفورة بجيناته.. في بلوغه للقمة اجتمعتْ عليه الأعينُ من طيرِ السماءِ وبَشَرِ الأسفل.. من الأسفل بدا للحُجَّاج اليائسين كبُراق، كنقطة سوادٍ تدنو من الباب المُذَهَّب بالآيات.. تلاشت الأنثى، ووجد يوسفُ نفسه مواجهاً للباب حالك السواد والتوق، منجرفاً فيه، ووَعَى المصلّون بالأسفلِ رجفةَ السواد، وجاشت أجسادُهم للأعلى... للمحةٍ ما وَعَى يوسفُ ما الذي يفعله هناك في الأعلى.. أن يميل للباب يبتهل لله أن يجلو عجزَه.. لكن نقطة السواد جاشت وأحاطت بينما وَجَدَ المفتاحُ المُعَلَّق لجسد يوسف طريقَه إلى ضَبَّة الباب.. غَارَ من تلقائه ودَارَ.. شعر يوسف بالباب يلين ويجرفه إلى أعمق.. لم يكن المفتاح وإنما لمسة العجز المُطْلَق والرجاء المُطْلَق التي فتحت جسدَ المعجزات ذاك ليجرفه إلى أعماقه، للمحةٍ كان تام البلل والعماء.. بينما كان ذلك الحضور الشرير يجتمعُ في الأسفل ليُجَسِّد هُبل في السُّلَّم، الذي اندفع متراجعاً عن الباب، مُمَزِّقاً المفتاح عن قفله، قاصماً الجسدَ عن كعبته.. شَعَرَ يوسف بالانسلاخ عن الكعبة، للمحةٍ عَرَفَ معنى الموت: كل كيانه يُمْتَصُّ، بينما أخيلة من حياةٍ كونيةٍ تنزف على جدران دماغه، تلمح مبتعدة وتتلاشى كبرق، وكان عاجزاً عن التشبث بأي شيء أو الانحناء للأمام ليُعيد إيلاج جسده المنتصب للضبَّة المُقَدَّسة.. كان جسده يتحوَّل إلى جرح طويل، والمفتاح خائر بجرحه..

جاشت الجموعُ بالأسفل، وانبعثت منائرُ باب السلام للحياة فجأة، من شرفاتها هَطَلَتْ تراحيمُ الثُّلث الأخير من الليل، «سبحان الله الرحمن والصلاة والسلام على نبينا محمد يا غفور يا رحيم...» بأصوات المؤذنين القدامى، يرفعون دعوات الرحمة والغفران بين حجارة مكة.

انبعث الجنودُ بصوت التمزق ودورة المفتاح في القفل حين أوشكت

الكعبة أن تفتح، اندفعوا لا للقبض على المُتَسَلِّل وإنما للتماهي بالباب ليجدوا أنفسَهم يركضون وراء السُلَّم المندفع كقذيفةٍ بيوسف أعلاه، جاءت الحركة خاطفة بحيث لم يعِ يوسف الخطرَ الذي يتهدَّده ولا هويَّة خاطِفِه الذي دفع بالسُّلَّم عبر صفوف المصلّين بالصحن صوب الأروقة، شعر يوسف كأنه يُحَلِّق في عذوبة التراحيم، وتَوَزَّعتْ الجندُ للحاق بالسُّلَّم أو للتمهّل لرؤية ما إذا كانت الكعبة قد فتحت ليسترقوا نظرةً إلى جوفها..

حين تخطى السُّلَّمُ بوابةَ السلام لَفَحَ يوسفَ عُري الليل خارج الحرم، وحوله كانت أصواتٌ تصرخُ به أن يُفيق، وأن يقفز ليفرَّ من خَاطِفِه... صار يوسف واعياً بحضور قديمٍ في الهواء، فجأة تجسَّد شهودُ بابِ السلام المعروفون في ماضي مكة يتسلقون جبلَ أبي قبيس وراء قاضي قضاة الشافعية للتبليغ بولادةِ أَهِلَّةِ الصوم والعيدين. كل أعياد مكة جاءت على أيدي أولئك الرجال.. وكانوا يمدون أيديهم ليوسف الذي تَمَسَّكَ بها قافزاً للزحام. أحسّ أنه والمفتاح والباب وآل شيبة ونهر الكتب والصلوات ليسوا إلا حبكة طالعة من رؤوس شهود باب السلام أولئك.. والذين كانوا يحلمون حلم كائنٍ أعلى منهم، كائن مُطلَق، بل إن مكة نفسها جالسة تحلم ذاتها برؤوسهم..

تحرَّك يوسف في ذلك الحلم، يعرف أين يعثر على مُشَبَّب، كان قد حَذَّره من البحث عنه ما لم يُصبح متهيئاً للنقلة الأخيرة. تَعَلَّق بشاحنةٍ مُحَمَّلَة بخيامٍ هابطةٍ من وقفة عَرَفَات ومِنَى، اندسَّ في أجساد الخيام حتى بلغ مستودعَ اللبني للخيام بطريق جدَّة (قال مُشَبَّب أن مَعَارِفَ آووه هناك كحارسٍ مُؤَقَّت)، حين وقف أمام ذلك المبنى فاحت رائحةٌ يعرفها، لم ينظر إلى الجسد الذي انشقَّ عنه ذلك الباب الصغير المورابِ بانتظاره، قفز من الشاحنة واندسَّ فيه، وبدا على الحارس أنه لم يلمحه، حوله بدا على المستودع وأكوام الخيام تعبُ القَادِمِ من تَنَقُّل طويل، وبسبيله للتقاعد.

تَنَقَّلَ يوسف في بحرٍ من الخيام، بينما انهمكَ العُمَّال في تفريغ شاحنات راجعةٍ بالخيام حارَّة لا تزال بروائح البشر الذين أتمّوا حَجَّهم.

حطَّ الليل وتَوَغَّل وسكتت الحركة في المستودع عندها لَمَحَ في الركن مُشَبَّبَ على كومةٍ خيوط الخيام بعمر قرنٍ وربع القرن من تُحف عائلة اللبني التي اشتهرت بتلك الحِرْفَة في مكة: يخيطها الجَدُّ القديم من الخيط الأبيض والأسود، مُوَقَّعة باسمه: أحمد عبد الله لبني. وأضاف أحفادُه لركن الكتابة تاريخ حياة الجَدِّ (1307–1382).

حين أسلم يوسف جسدَه لتلك الكومة متكئاً إلى جوار مُشَبَّب، نسي تنافسهما وخلافاتهما، جريا نَفَسَاً واحداً مع الأنفس التي تسري تحتهما، ثلاثة أرباع القرن من عمر الرجل وأعمار الحجيج مدغومة في تلك الغُرَز.

أمامهما امتدَّتْ أكوامُ أعمارِ الأبناء والأحفاد ابتداءً من عبد الرحيم 1350ـ 1411 والذي تَغَيَّرَ على يديه نوعُ خياطة الخيام فصار يخيطها بالخيط الأبيض والخيط الأزرق، ومكتوبة باسمه..

تليها أعمار خياطين استقدمهم عبد الرحيم عام 1400 للخياطة من نيجيريا، حولهما كانت رحلة الخيام والخيوط كرحلة أهل مكة، من قلب مكة بالشامية، مُهَجَّرَة لأحياءٍ كالشِشَّة وحوض البقر لتنتهي إلى الطريق المغادرة لمكة. مثله ومُشَبَّب حين لحقا بتلك الشاحنة المُغَادِرَة للمدينة المنورة، وركبا إلى جوار السائق، على أن يلحق بهما معاذ بالحجاب.

وراءهما بدأ المستودع يصغر ويصغر حتى غاب، وتلاشت بقعة الأزرق والأسود والأبيض مع الخيوط والتواريخ. في صحيفة اليوم التالي كان الإعلان (يُعلن ورثةُ اللبني أنهم قد باعوا مستودع الخيام الآيل لهم، وختموا مهنةَ تأجير الخيام لِمَكَاتب الطِوَافة، ولمن يرغب... وخُتِمَ صكُّ البيعِ بختمِ كتابةِ عَدْلٍ، ذُيِّلَ بالتواريخ: عام 1428.)

وهل تَرَكَ لنا عقيل من ظِلّ

الخبر الذي فاتَ يوسفَ ذلك الصباح ـ الذي غادر فيه مكة ـ جاء بعنوانٍ عريض بالصفحة الأخيرة بجريدة أم القرى بتاريخ 1/1/ 2008: (قامت شركة الإيلاف القابضة الدولية للتطوير العقاري، بناءً على استراتيجيتها التطويرية بالتعاقد مع استشاريين أكِفّاء وعالميين لتصميم مشروعٍ مُتعدِّدِ الأغراض في الطريق للعُمْرَة بمَوْقِعِ دربِ النور، المعروف قديماً بأبوالرووس، وباشرت فعلياً إجراءات التخطيط والتصميم والذي يشمل إقامة برجَين يحتوي الأول على مكاتب للشركات ورجال الأعمال بمساحة تصل 123 ألف مترٍ مربعٍ، وفندق خمس نجوم بمساحة 30 ألف مترٍ مربعٍ، ويحتوي على شقق سكنية فاخرة بمساحة 77 ألف مترٍ مربعٍ ويقع بين البرجين مُجَمَّع تجاري راق بمساحة 36 ألف مترٍ مربعٍ، ومبانٍ لمواقف السيارات تتسع لحوالى أربعة آلاف سيارة، ولقرب المشروع من المنطقة المركزية والتجارية والتاريخية فإن ذلك يُعطي زخماً استراتيجياً للمشروع لاحتوائه على سمات تصميمية مميزة، بتكلفة مليارَي ريال يُفتتح عام 2011، من ضمن الشركات المنفذة شركة الإيلاف القابضة بالتعاون مع شركة .M. Z. Ltd الاستشارية العالمية الناهضة بالتصميم، مع الاستشاري الدولي G. P. Ma.).

لاحَقَ المُحَقِّقُ ناصر الخبرَ في مَوَاقِعِ الحوار والمُدَوَّنات على الشبكة العنكبوتية، حيث تضاربت الآراءُ المؤيِّدة والمُضَادة حول الارتفاع الخيالي في أسعار أراضي شمال وشمال غرب الحرم: من ثلاثين ألف ريال إلى مئة ألف ريال للمتر المُرَبَّع، وهو ارتفاع ناجم عن إعلانِ قرارِ توسعةِ الحرم باتجاه الشمال. . . مما سيدفع بالعمران والمَرَافِقِ شمالاً باتجاه جبل الشهيد وعُمْرَة التنعيم، وبهذا استفادت شركاتُ الإيلاف القابضة بموجب ملكيتها لمعظم أراضي تلك المنطقة. . . والتي قامت بناءً عليه بالإفراج

عن مشاريع خُطَّتِها الخمسية الـ. . . .

مستغرقاً بأبوالرووس لم يتوقف ناصر بالطوفان الذي اجتاح الحرم وإشاعة انقراض آل شيبة. قرأ ناصر التعليقات المُذَيِّلَة للخبر:

● اتجاه توسعة الحرم إصبع معجزات أينما أَشَارَ جَعَلَ مِتْرَ التُّرَاب المُرَبَّع أثمن من متر الألماس المُكَعَّب (ويا بخت من يتنبأ بالاتجاه قبل الإعلان الرسمي).

● هناك أكثر من 300 أثر تاريخي تمَّ طمسها بمكة. والذي قام بالطمس ليس السُّلطة وإنما جهة ثالثة، وذلك بعد عهد الملك عبد العزيز رحمه الله مباشرة.

● كان العرب يهدمون كل بيت يتطاول على الكعبة، وقُصَيّ قام بذلك. ويهدمون كل بيت تَرَبَّع، ونحن لاس فيجاس في مكة نتطاول ونتربَّع.

فجأة توقف ناصر عن القراءة، على كرسيه مواجهاً للشاشة في ذلك الصباح وبلا إنذارٍ امتصَّه فراغٌ عظيم، وشَعَرَ بالتغير المفاجئ لإيقاع المدينة، حاسة سابعة التقطتْ خروجَ يوسف، لكأن مغادرة يوسف في تلك اللحظة لدائرة الحرم قد امتصَّتْ الحيويات حوله، كان مشدوداً كما لبقعةٍ شمسية في الكون محورها حركة يوسف. . هو نفسه مجذوباً ليلحق، لم يُكمل ناصر قراءة بقية التعليقات سارع يُغادر لكي لا يُضيِّع المزيد من الوقت.

لحظةَ غادر كان هناك من يقرأ خبراً عن (إزالة البيوت بجبل هندي. . ومحوه من الوجود مع إطلالة عام 2011 كحَدٍّ أقصى. .)

خَاضَ معاذُ في جبل هندي، حاملاً تلك الأمانة، ذلك العبء، بعد حصوله على الحجاب انتظر طويلاً أن تبلغه تعليمات مُشَبَّب، مُعلِّلاً الصمت بأن زحام الثلاثة ملايين حَاجٌّ قد أثقلَ إيقاعَ مكة.. وكان بانتظار أن تخلع مكة جلدة البشر تلك لكي يتفرَّغ مُشَبَّب لمهمته.. لكن الشكوك تضخَّمت برأسه حين سَرَتْ إشاعةُ انقراض آل شيبة وما تناقله الناسُ من محاولة الاقتحام للكعبة...

ذلك الصباح أفاقَ معاذُ على سكتةٍ لمكة استدعتْ بمخيلته السكتةَ التي تسبق نفخ إسرافيل في البوق لقيام القيامة. تجمَّد في فراشه المبسوط على الأرض بركن الاستديو بانتظار أن تنفخ النفخة وينبعث مَنْ في القبور، حين طال انتظاره قام مسلوباً لذاك الحس بقيامةٍ في الهواء. جعل معاذ طريقه للمسجد الحرام، ليتحقَّق مما آل إليه باب الكعبة، طاف متلكئاً تحت الباب الذي يعلو فوق الرؤوس، يتوقَّع أن ينشقَّ في أية لحظة رافضاً الانغلاق مُفْسِحَاً للطائفين جوفَ الكعبة.. كانت الإشاعات تتأكد من (التكة) التي سُمِعَتْ لدورة المفتاح في القُفل، وأن الباب كان يُسْلِم لذلك الشاب الغريب الذي غافل الجندَ وارتقى السُّلَّمَ المنصوب.. أراد معاذ أن يقترب ليتحقَّق ما إذا كانت هناك فرجة في الباب لكن الجند أحكموا نطاقهم على الكعبة مُحَظِّرين على أيٍّ كان الاقتراب.. حِسٌّ باللعن كان لا يزال مُحَوِّماً في الهواء..

صاعداً لجبل هندي استحضرَ معاذُ اللقطةَ الأخيرة التي التقطها لمكة التي انغلقت بوجهها كعبتُها، لقطة محترقة من بياض أجرد. يُفَكِّر معاذ أن اللقطات التي التقطها في احترافه للتصوير يمكن أن تُخْتَزَلَ في هذه اللقطة التي يصعد فيها جبل هندي لآخر مَرَّة. شَدَّ على الكيس بيده وصعد، عينُه تذهب للقطاتٍ لأبوابِ بيوتٍ مُعَلَّمَة بـ (×) حمراء: علامة عدم الصلاحية

للسُّكنى، وبيوت مخلوعة الأبواب. يُطِلُّ من ذاك البيت كلبٌ هزيل يرمقه بشحوب، وعلى تلك الخرابة بقايا بيت حَمَام ما زال يهدل من الاتجاهات الأربعة، متى يَهْجُرُ الحَمَامُ؟! بدا لمعاذ أنه قد غاب دهوراً عن هذه الطلعة، وثلاجة الماء المخلوعة، وتحتها ماسورة مكسورة ينز منها الماء، وتشرب من حفنته سبعُ قططٍ صغيرةٍ ترقبُ أُمُّها معاذاً عن كثب، دمية ملفوفة في منشفة حمراء جرباء مُرَقَّدَة على تلك العتبة. فوقها بلا نوافذ مفتوحة تَتَزَيَّن أسقف مجلسٍ بشريط كتابة زرقاء مُنَقَّطَة بتذهيب، من موقعه على الطريق بوسعه التقاط شبه كلمةٍ، يُفَسِّرُ فيها شطرَ بيتِ أبوالعلاء (خفف الوطء. . .) وتتآكل بقية الكلمات بالرطوبة. . .

سَبَقَتْه يدُه فطَرَقَت بابَ اللبابيدي، الصمتُ الذي تَمَدَّدَ رغم تكرار الطَّرَقَات شدَّ قبضةً باردةً على قلبِ معاذ، عندها انقشع عن عينيه فرأى تلك العلامة (للإزالة) مكتوبة بدهانٍ أحمر بطول الجدار، تتكرر الكلمة بطول الواجهة (زال) وتتمطَّط وتتقاطع (لا) (ازا) (لة) تاؤها المربوطة لمنتصف نافذة المجلس السفلي. وقف معاذُ أمام الكلمة وتكرارها، ولم ينجح معناها في الاختراق إلى صدغيه. . تسمَّر معاذ غائباً لم ينتبه إلا حين أحسَّ بتلك اليد تُوضع على كتفه.

«وأخيراً. .» وتساقطت الكلماتُ بمعانيها ووجه ناصر ونظرة الظفر في عينيه، تهاوت حجارتُها على رأس معاذ. حين امتدَّت يد ناصر للكيس في يده لم يتشبَّث به، تَحَسَّسَ ناصرُ الجسمَ الصلب وجفَّ ريقه، حدسُه حَدَّثَه بأنهم حين قالوا له (لا قضية) فلقد اكتملت القضية، وحين اتهموه بالوصول للاحل فلقد سقط في (الحِل)، لم يُمنحْ معاذاً فرصةً، كان قد أسفر عن الحجاب. . . في وهج الصباح زاغت عيناهما عليه، بحجم نصف قمر. . . ومن الفضة الخالصة المنقوشة بإعجازٍ حِرَفيي يهود اليمن. . . انتبه لجمود معاذ، تَلَفَّتَ ناصر حوله، واعياً بالعين التي ترقبه. . . .

«جئتَ به ليوسف؟» لم يكن سؤالاً لذا ما اجتهد معاذ للإنكار ولا التأكيد، ظَلَّ مُفَرغاً من إرادة الحركة أو الكلام، نطق أخيراً: «هذا غرضٌ شخصيّ.»

حَذَّرَه ناصر: «لا تراوغ يا معاذ، أنا أعرف مفلح الغطفاني، وهو أخبرني.. قُلْ لي أين يوسف الآن..» استجداءٌ مع أمرٍ بالانصياع، «وأعرفُ أن يوسف بانتظار هذا الحجاب..» بدا معاذ فاقداً للتوازن، وبعد تفكير قال:

«قضيتنا لا تتصادم مع قانون، ولا تتقاطع مع مصالح الشرطة.»

أجابه ناصر: «ولا أنا من الشرطة الآن.. أنا مُحَقِّق خاص.. ولديّ فكرة عن قضيتكم..»

مدَّ معاذ يده بسرعة للحجاب قائلاً: «والآن، هل تسمح لي..»

كان ناصر متيقظاً لحركته، حَدَجَه بتحذيرٍ مُتَمَسِّكاً بما في يده، ابتسم معاذ، وبادره ناصر: «تعرف أني سأتبعكَ..»

قاطعهما ذلك الارتطام الحاد، نظرا برعب إلى الأعلى، ريحٌ مضت تصفق صفوف النوافذ في الروشن، غار قلبُ معاذ بكآبةٍ قاحلة حوَّلتْ سوادَ بشرته إلى رماد. هي المرَّة الأولى تنفتح نافذة بذاك البيت، أدرك أنه قد فقد فردوسه الأرضي، ذهبت مفاتيحُه وتركتْه منبوذاً في مكة التي تتحوَّل إلى شريحة فيلم بِمَصَبِّ الكشَّافات الحارقة. انحطَّت كتفاه، مستسلماً لإلحاح ناصر:

«بغياب يوسف يجب نقله لمُشَبَّب.» وتبع صمتٌ أنصت فيه الرجلان للجرافات البعيدة تبقر أحشاء الجبل، تحجَّرت عينا معاذ على الحجاب بيد ناصر، قاطع ذلك الدوي المخنوق مُضيفاً على مضض:

«المسجد النبوي بالمدينة المنورة، حيث الطوق الذي ينفتح به هذا الحجاب.» بذلك استدار معاذ منسحباً، راقبه ناصر خفيفاً كماعزٍ جبلي، ينحدر بين الأجراف...

وحيداً وقف ناصر مع ذاك الحجاب، مع كتلة الغموض التي وقعت بين يديه. فجأة اقشعَرَّ ناصر، حين فكَّرَ في فَتْحِه ـ ولأول مرة في تاريخه ومهنته التي لا تعرف الخوف ـ استشعرَ قلبُه ملمسَ قبضةِ الموت مما يمكن أن ينقضَّ عليه من ذاك الحجاب. . . فَارَقَه الأمان، شَعَرَ بعدو يرقبه للانقضاض، كلُّ ما حوله يتهدَّده هناك. دَسَّ الحجابَ في صدره طاوياً ذراعيه عليه، وسار راجعاً إلى سيارته الأنفينتي. أمام السيارة تَسَمَّرَ للحظات. لم يعرف أين يتجه لكي لا ينقلب هذا الوجود الحلمي إلى كابوس، كان يغمض عينيه ليجدِ نفسَه في حَدَثٍ آخر، حوله كانت مكة تزدحم كبالون، أينما اتجهت سيارته حاصرته الحافلاتُ العملاقة والشاحنات وعربات الدفع الرباعي الضخمة، وطلقات الدراجات النارية السريعة المندفعة لصدره وجوانب عربته وفي المرايا الثلاث، حين أدار عربته باتجاه طريق جدَّة عرف أن لا رجعة له. قاد ناصرُ سيارتَه حتى أول مقهى على الخط السريع، مقهى المهاوي. نفس العامل الباكستاني راقبه حين جلس، وحوله انحلَّ الزمن في تلك الدرجة من الرمادي القاتم. لم يكن بوسعه أن يُفَرِّق ما إذا كان في ليلٍ أو نهار، وما إذا كان يَتَحَرَّك في زمنه الداخلي أو في زمن المقهى والمدينة. لم يعد في جوفه الحَدّ الذي يمنع الموجودات حوله من الذوبان في تلك البقعة من زمنٍ غائم، ومن الانجراف للزمن الجاري بجوفه، للمحةٍ صار مقعد المقهى من جسده، والأرض تُهَدِّدُ بالزحف عليه وتذويبه في تلك الخلطة.

أوقفَ سيارتَه على طرف الخط السريع، وفي العتم تَحَسَّسَ حجابَ الفضة. . تَجَسَّدَ أمام ناظريه: عُلبة نصف دائرية، مُجَوَّفَة، بسطحٍ علوي مشغول، مُنزلق. استجاب ذلك السطح لأصابعه فانزلق كاشفاً عن بطانةٍ داخلية من مَخْمَلٍ أحمر، تنحشر في رطوبتها أوراقٌ مَطويَّة حَالَ لونُها للأصفر متآكلة الأطراف بهباب أسود. . أشعلَ مصباح السيارة الداخلي، وتَأَمَّلَ في ورق الرِّقِّ الحائل في الداخل. . . بعنايةٍ أخرج الرِّقاق حريصاً لا

تتمزَّق، وتشابكت أطرافها المطوية المنخورة بالعث، كان حريصاً على فكِّ تشابكها فلا تُضيِّع أي حرف. . . وفي الضوء الخافت مَيَّزَ المخطوط.

تضاربتْ مَشَاعِرُه، قذف بشتيمةٍ للحافلة التي زعق زمورُها وكوابحُها عَبْرَ الحاجز الشبكي الفاصل للخط الخارج عن الداخل لمكة، كادت تدهس تلك الـ GMC الزرقاء المبعَّجة على الأطراف، وتوقفت بغتة على بُعد نصف كيلومتر، ليبدأ من جوفها الزحف، انتاب ناصر إحساس أنه مُسْتَهْدَفٌ، وعليه أن يتحرك. انطلقَ وراءه إنذارُ عربة بوليس انشقَّتْ عنها الطريقُ فجأة، وسَارَعَ يُدير مُحَرِّكَه، لكن مُكَبِّرَ الصوت أوقفَه: «اركنْ يا إنفينتي. .»

تشنجَّتْ أصابعُ قدمه الحافية على دوَّاسة البنزين، لكن، بدا الرمل عدوانياً حوله وأينما نَظَرَ، أعاد أوراقَ الرِّقِّ وأغلق الحجاب ودسَّه تحت طيات ثيابه واستعدَّ.

«من فضلكَ، رخصة القيادة واستمارة السيارة.» لم يجد بُدَّاً من الانصياع.

«الضابط ناصر؟! عُذراً. . أنا من شعبة أمن الطُّرُق. . تحتاج إلى مساعدة؟» الضحكة كانت أكبر من المُتَوَقَّع، أطَلَّ بها الوجهُ الأسمر المحشور في نافذة عربته، انضم ناصر للضحكة: «لا، مشكور. . توقفتُ لمراجعة بعض الأوراق.»

خطواتها

كانت الرابعة فجراً تقريباً حين أفاقت على تلك العين تُحدِّق بوجهها، مثل دُمية كانت مُعَلَّقَة من أطراف أصابع يديها وقدميها بخيوطٍ إلى أركانِ الحجرة الأربعة، بينما راحت أيدٍ وجاءت تكسوها الحرير وتخلع عليها الجواهر، مثل مانيكان أو صنم قديم، تتمسح الأيدي وتدهن أطرافها

بالأطياب، ثم شعرت بالسكب على قدميها، سيل قمح ولبن، كل قطرة على عريها تنهب خلاياها.. كانت تتأرجح في الهواء ولم يكن من شيء تتمسَّكُ به لقطع الخيوط وللنجاة من ذلك المَسِّ الذي لا يُطاق، لوهلةٍ تركتْ جسدَها لذاك النهب، ولوهلةٍ تَلَخَّصَ نومها في حركة التأرجح تلك، لا شيء بوسعه أن يرسيها ولا حتى الموت.. ولأول مرة فَارَقَها خوفُها من النوم وحيدة لكيلا ينفرد بها الموت.. بشكل أو بآخر صارت غير قابلة للموت..

بحركةٍ خاطفةٍ قَفَزَتْ نورةُ من فراشها مُمَزِّقَةً كلَّ الخيوط.. في تلك الفورة ارتدت بنطالها الجينز وتلك الكنزة الضيقة، النقرات على النافذة دَفَعَتْها لتناول معطف المطر، ما إن ظهرت في حجرة الجلوس حتى هبَّت وصيفتها: «صباح الخير مدام..» وسارعتْ تُهَاتِفُ حارسَها رافع، الذي انبثق كشبحٍ يفتح لنورة باب المصعد، (أنت حارس لي أم عليَّ؟) دَفَعَت الاستفزازَ إلى حَافةِ رأسها ليسقط من هناك..

حين أطلَّت في قاعة البهو لاحقتْها عينُ موظف الاستقبال، موظفو الليل دائماً أقل خبرة. فهم من المتدربين أو طلاب الهجرة، يسدّون فراغاً في الليل. غادرَت الفندقَ يتبعها ظِلُّها في بدلته الكاملة، كانت قد قرَّرت التقاط صور للأماكن التي تتحرَّك فيها، أن تقبض على الحياة التي تتعرَّف إليها في المدينة، وتستدرجها بعيداً عن وحدةٍ قديمة تعرفها.

في الحديقة يسار الفندق وقفت تنتظر، أرادت أن تجلس منسيَّةً على كرسي مُطِلَّة على الشارع والحياة التي تستيقظ ببطء، يكفي الجلوس على مقعدٍ في طريقٍ ليوقظ فيها ذاك الزخم من الحُريَّة. الكرسيان المتاحان يحتلُّهما اثنان من المتشردين في أكياس النوم المتربة والمُبَقَّعَة بكلِّ أصنافِ المُخَلَّفَات ويَغُطَّان في نومٍ عميق، لا يبين غير وجهيهما مفتوحين للسماء التي تُمْطِرُ برِقَّةٍ. سِرْبٌ من الحَمَام المُطَوَّق الأسود طار وتناثر حين اندفعت إلى قلبه على ممر الحديقة، وعاد ليحط. رَقَصَ السربُ يُغطِّسُ

مناقيرَه في الحبوب رافعاً ذيوله في الهواء كسهامٍ، حين دخلت الذيولُ في كادر الصورة التي تأهَّبت نورة لالتقاطها حَوَّطَتْها قراءةٌ قديمة، في ومضاتٍ كان من المستحيل على نورة أن تفصل بين الصور التي تلتقطها وتلك التي تطفو برأسها:

(أيضاً الحَمَام المُطَوَّق في صحن الحرم،
يلف فوطة حول عنقه ليذهب للاغتسال.
حتى إذا جاء المساء،
يلف وشاحاً ويذهب إلى عرس.
كبرنا على أن هذا المُطَوَّق الرمادي والذي يطير في دوائر على الكعبة: مُقَدَّسٌ.
نرقب رقصاته للحُبِّ، وصراعه على أنثى وذرقه على رؤوسنا والأسطح جالباً للرزق.
لأننا حين كنا صغاراً أقنعونا بأن: هذا حمام بيت الله. من كل الأرض لا يحيا ويخدم إلا في حرم مكة.
لا تؤذوه.
بالأمس رأيتُ هذا المطوَّق في أفلام هوليود في كل مكان.
أهو الحمام يُهاجر ويشيع، أم هي بيوت الله في كل مكان؟
حوت يونس وموسى وبقرته الصفراء بلونها الفاقع، كبش إسماعيل، ناقة صالح، كلب أصحاب الكهف، ذئب إخوة يوسف، جياد سليمان، وغنم داوود ويعقوب، القردة والخنازير،
كلها حيوانات تسكن الكتب المُقَدَّسة، فما ضَرَّ لو حشرتُنا جميعاً في هذه الكلمات، وحشرتُ الكلمات في كتابٍ، والكتابَ للحياة؟!)

تنتهزُ شوارعُ مدريد وحدةَ نورة فتجرفها لتستجيب لتلك الدروب التي بلا آخر وبحياة هادرة لا تَتَوَقَّف لأحد! ككل الصباحات التي سبقت تهرع إلى لطريق قبل أن تدخل جوفَها لُقمة، بل وقبل أن تغسل وجهها، تترك

لبرودة الصباح أن تزيح بقايا النعاس عن وجهها. تمشي نورة أكثر مما تَتَنَفَّس، تُسابق بخطوها الأنفاسَ بصدرها، لكأنما سيُسْرَق العَالَمُ من تحت قدميها في الخطوة التالية.

كانت الخامسة فجراً حين عثرت نورة بقلب مدريد القديمة على *Chocolateriã* San Ginés أحد أهم المقاهي المشهورة بتقديم ال con churros الشوكولاتة الإسبانية الساخنة بأصابع المعجنات..

بخفة راقية اندفع الساقي الشاب يقودهم إلى طاولة بالركن البعيد، متأملاً نورة بإعجاب. بنظرة آمرة أشارت لرافع بأن يشاركها طاولتها، واضطر للامتثال مدركاً حاجتها لاستخدامه كدرع. راقب كيف جلست نورة هناك واعية بخيالها معكوساً يتضعَّف على المرايا المحيطة. رجع الساقي بصينية من المقبلات وأصناف الشوكولاتة الملفوفة بورق ملوّن بهيج، تركها على الطاولة وغادر غامزاً نورة تحبُّباً..

انتظرت نورة متجنّبة النظر إلى خيالها المخلوط بالزحام، حين ظهر الساقي من جديد بسط راحتية بتلذذ واضح على رخام الطاولة، منحنياً بإغراء صوب نورة.

«لا توجد لدينا قوائم طلبات، فقط هذا..» من جيب بنطلونه الخلفي أخرج كرتاً صقيلاً يحوي صورة الشوكولاتة con churros التي يتخصصون في صنعها، «الشوكولاتة وأصابع العجين المقلية زوجان لا يفترقان، تغمسين واحدهما في الآخر، وتحصلين على لذة إسبانية لا تحصل إلا مرة في العمر.. هاه.. أترغبين في التجربة؟ الفرسان الإسبان مثلي يُطعمونها لحبيباتهم للإفطار.. ها؟ لا تدعيها تفوتك، مرة في العمر..» مضى في المغازلة محرضاً ابتسامة نورة للتوسع..

أخيراً جاءت الشوكولاتة، في وعاء أشبه بطاسة حساء من الفخار، مزينة على الحافة بقطرات شوكولاتة، المزيج الثخين بحلاوة مدوزنة دفع

شحنةً بهيجة بجسد نورة، ترك حروقه على لسانها ـ حين صَمَّمَتْ على رشفه من الطاسة ـ ولطخات أعلى شفتيها. . أخيراً أخذت تغمس الأصابع المقلية في السائل وتقضم بلذة واضحة، بينما جلس رافع يحتسي قهوتَه بصمت. .

حين نهضت مُغادرة وقف رافع يدفع الحساب، هو دائماً يدفع على متطلباتها الصغيرة والكبيرة. فكر رافع «هذه المرأة مدفوعة الحساب. . تنتقي ما تريد، وهم يُتَمِّمون الصفقات ويحملون، وتتجسَّد طلباتُها مُرَتَّبة مصفوفة في جناحها بالفندق أو في حقائبها المستعدة دائماً للرحيل.» بدت كمن ملَّ التسوق، نادراً ما تتوقف لاقتناء شيء، تقف أحياناً لشراء المثلجات، وغالباً بنهكة فاكهة الشغف passion fruit، كلما التهمتها لَمَحَتْ برأسها تلك العبارة القديمة:

(لكِ شامبو الأعشاب هذا، بالبابونج والصبَّار و«زهرة الآلام».

Passion flower

هكذا، ارتاحَ الـمُوَرِّدون لترجمةِ «زهرةِ الشَّغَفِ» بالآلام!!)

يتبع رافا نورة في محاولاتها للاختراق للحياة حولها، منزلقة في المَشَاهِد الطارئة، تتماهى بالناس والجماعات التي تبدو سعيدة ومنهمكة في حبكاتٍ خاصة: طلاب الرحلة المدرسية يدورون ويركضون ويصرخون دفعةً واحدة، بينما ذاك الطفل النحيل يُخربش أشجاره على ورقةٍ وحيداً على مَقعَدِ مَدْخَلِ متحف البرادو، يُوقظُ بأصابعها توقاً لفراغِ الورقة والجدران. وتلك الجماعة من ستة أشخاصٍ: ثلاثة ذكور وثلاث نسوة ممتلئات وملفوفات الرؤوس بحجابٍ تُطرقع قبلاتهن على وجه العريس في بذلته الصباحية الفضفاضة، بينما تُطَيِّرُ الريحُ طَرحةَ العروس القصيرة والمُرْتَجَلَة كنافورة على الرأس. تجري وراء عين نورة طرحتان وعروسان فيبدأ قلبها بالخفقان. نورة وحيدة على الطريق ترقب بينما رافع

يرقبها، عرباتٌ ودرّاجاتٌ نارية تَمرقُ خاطفةً بلا خصوصية ولا تتوقف ولا تلتفت للوراء. لا تُطيق نورة الالتفات للوراء.. تُقاوم الصداع.. رغبة محمومة في أن تغطس في الحياة، في عميق تيارها، ولا تنجح إلا في الطفو على سطح الأمواج اللانهائية لتلك المدينة التي لا تتمهَّل لتعرفها، لتظل نورة طافية كفلينةٍ وتُلاحقها، لأنها حين ترجع إلى مدينتها (التي تملك الوقت/ أو التي تُجَمِّد الوقت) ستنتهي في حالةٍ وَقْفٍ كتلك البيوت الموقوفة للولايا (pause) (on hold)، لا تعرف إلى متى.. تطرد نورة مُفرَدَات (اليأس) تلك وتتوغَّل.

المُتَكَرِّر في حبكتها: (المغادرة)، يُنَقِّلها شيخُها من بقعةِ سخونةٍ إلى بقعةِ انتظارٍ مثلجة، وبعد انسحابه المؤقت دائماً ترجع إلى فندقها، إلى فراغٍ، ثم من جديد تخرج على العالم، تشتري أوراقاً، وتجلس لساعاتٍ في تلك المقبرة تحاول أن تكتب (علاقتها الغريبة تلك بالقلم والأوراق!!)، أن تنسخ شيئاً مفهوماً مما يدور بها أو دار حولها. يشعر رافع بتعثُّر الكلمات التي تتحوَّل فجأة إلى خطوطٍ بطول الصفحات. يُفَكِّر: إن كان يحرسها من ماضيها فإنه يفشل فشلاً ذريعاً في مثل تلك اللحظات. حين تغيب لخارج نطاق راداره، بنفس السكينة التي للابتسامة الطافية على الدنيا.

وذات صباح اكتشف أنها عسراء، سمح لنفسه بالاقتراب، على بعد ثلاثة أمتارٍ تأمَّلَ في الرسوم التخطيطية،

«أنتِ بارعة في هذا حقاً ... ترسمين كمن يحفر أثراً، كما كتابة برايل، بعين مغمضة بوسع الأصابع تَتَبُّع خطوطك...» نظرتْ إليه بلا مبالاة،

«هناك فعاليات ثقافية كثيرة بمدريد، إن أردتِ أن تبدأي بالمجموعة المهمة للفن الحديث بمتحف Reina Sophia.» لم تستجب. يدها تروح وتجيء على الورقة بسرعةٍ تُحَبِّرُ كلمات تتحوَّل إلى أجساد، تتكلَّم في

تلك الأوراق، ولم تكفّ يُسراها عن ملاحقة الكلمات:

(فقط حين تضطرب تعرق يدها اليسرى، فهي عسراء، تطلع خطوطها من اقصر طُرق القلب.
بدأتْ تخليق بنت بذراعين مفتوحتين، وضفيرة طائرة، ولكن بقدمين صغيرتين مغروستين للأرض.
حين دارت اليد، والتفّتْ، وصارت تحضن.. ادركتُ بحرجٍ أن حبيبتي حاضت.
فتحرّرت قدم حبيبتي من جاذبيةِ الأرض لجاذبية الجسد المقابل.
وصارت تسري رغبةً لجسدٍ لا نراه.....)

أحدهم نسي تلك الكلمات برأسها، وحين سكتت اكتشفت نورة وحدتَها التامة، وأنها قد أمضت الشطر الأكبر من وجودها تتظاهر بكونها خرساء، لأشهر لا تنطق بكلمة، أكان ذلك تظاهراً أم خرساً للقلب؟! في مقبرة المنبوذين تلك كان بوسعها أن تقف خارج ذاتها، لكي تنظر داخل الرأس الذي تحمله منسياً. . لتلك الكلمات المصفوفة بعناية ولما لانهاية على جدار جمجمتها، كلمة واحدة صغيرة لو سَحَبَتْها لانهارت الصفوف. . في قاع تلك الرفوف عَثَرَتْ على غضب، مثل شظايا زجاج محشورة بين أرشيف كلماتها. . في علاقتها مع أبيها كان الغضب هو الشرارة الوحيدة التي تقدح اهتمامه وتجعله يراها. . . وفي يوم أفاقت لتجد أن وجهها الصغير قد كفَّ عن إغضابه، لذا بادرت فدفعت جسدها خارج طفولته، في الفجر وحيدة حَرَّرتْ هرمونات الأنوثة، وسَمَحَتْ لوجهها أن ينضج وتتكوَّر شفتاه وترمي عيناه بشرر. بَلَغَتْ بليلةٍ، بقفزةٍ واحدةٍ من قاع الطفولة إلى قِمَّةِ الأنوثة. بأملٍ أن يستيقظ ليشعر بتهديد تلك الأنوثة ويستأنف غضبه منها ورؤيته لها.

بلا تفكيرٍ مُسَبَّقٍ انجرفت نورة لمحل الحلاق الأنيق، بقَصاته ما بعد

الحداثية تُزَيِّن الواجهةَ لا فرق بين قَصَّات الجنسين، أشارت لرأسٍ حليق، وحرَّرت خصلاتها من ضفيرتها، وشَهَقَ مُصفِّف الشَعَر: «نو سنيورا..» وأدارها لتُوَاجِه المرآة، شارحاً لها بسيل عباراتٍ أسبانيةٍ افتتانه بذاك الشلال، وفداحةَ تضحيته، مُرَبِّتاً على نهايات أطرافه برقة، طائفاً حولها يتأملها كتحفة، وفي المرآة أزاحت تلك الخصلة لتواجهه بإصرارٍ.

أخيراً خَتَم المفاوضات بتنهيدةٍ طويلة، وتَنَاوَل المقص، وبحسم نحاتٍ يُجَسِّدُ خيالاً برأسه ضَرَبَ خطّاً صاعداً من مؤخر العنق إلى قِمَّة الرأس. وتَهَاوَت خصلات شعرها كستارة، وسَارَعَتْ عَامِلَةُ التنظيف بجمعه وترقيده على الطاولة كجثمانٍ. برأس نورة عبارة واحدة:

«لينغلق باب الرجعة.» حَفَرَتْها بجبهة تلك المرأة التي واجهتْها في المرآة، بقَصَّتها الفرنسية شبه محلوقة من الخلف، بخصلاتٍ منسدلة طويلة على الوجنة اليسرى لأسفل الذقن. في الخارج راح رافع أمام باب صالون الحلاقة وانتابته خِفَّة.

نَزِقَة وبأقرب للهستيريا انطلقتْ أمامَه تُطَيِّرها غُرَّتُها، طلبت منه أن يأخذها إلى متحف رينا صوفيا (Reina Sofia)، أخفى رافع فَرَحَه لاستجابتها لاقتراحه ذاك مسترقاً نظرات إلى التغريب الجذري في هيئتها.

أول عمل فني قَابَلَها في دخولها هو ذلك الرواق المُشَيَّد: أنصاف أعمدةٍ ترسم رواقاً مثل نَفَق، يخترقه شخصٌ في زيٍّ كهنوتي أسود بين الراهب والمهرج. قبض عليه الفنان وهو يمشي بعجالة.

«انظروا إلى عينيه.» قالها الشابُّ بالإنجليزية محتضناً رفيقتَه بحركةٍ مسرحية، للوهلة الأولى ذَكَّرَتاها بعينٍ تعرفها جيداً وتُغَيِّب عنها الاسم، وكان رافع يتبعها كظِلٍّ، واستسلمت لعينيِّ الراهب اللتين تخترقان إلى عالمٍ وإلى كائناتٍ غير الكائنات المعروفة. للحظة فقدت هويتها وصارت هناكَ حيث ينظر.

«هذا الفنان معروف...» انتشلتْها تلك العبارة بلغةٍ عربية، حين

استدارت بهدوء لمحت المُصَوِّرَ بكاميرته، وصديقته،

«يختفي لأشهر في الشرق الأقصى، في القرى الفقيرة والمنسية، وفي الجبال، ويظهر بعينين تقولان كل شيء، تقولان الحقائقَ المخفية عنَّا نحن البَشَر العاديين. بنظرةٍ واحدةٍ في تينك العينين ترى الغائب في تركيبتك والعالم.» في محاولةٍ يائسةٍ لاسترجاعِ النظرة، اندسَّت نورة بين أعمدة الرواق، مخترقة تمشي إلى الراهب المُهَرِّج، مُحَدِّقة بعينه، حين تَدَخَّلَ حارسُ المتحف بلباقة:

«رجاء سيدتي ممنوع المشي في مُجَسَّم العمل الفني..»

لم يكن بوسعها الاستمرار، مَرَّت مروراً خاطفاً بالأدوار العليا، كريح تمسح تلك الرؤى الفنية، وتختزنها، رأسها فراغ، وكان عليها أن تبني مرجعيةً ثقافية، من جبال المعرفة حولها وتأخذ حفنات مخطوفة من سياقاتها، كانت تبني صرحاً هشاً وغالباً بلا أسماء مُبدعيه لا خصائص ولا تواريخ، مثل هذا العمل الذي استقبلها. ليس في خبرتها أن تقرأ أو تسترجع اسمَ الفنان وتاريخَ الإنتاج والحركة المنتمي إليها، فقط تتأمل، تَتَشَرَّب روحَ العمل خارج سياقاته. هي ذاتها كانت فارَّة من السياق، بثقافةٍ هشَّة. قبل مغادرتها توقَّفت نورة بمكتبة المتحف واقتنت كتاب (فيتامين ب للفن) الذي تردَّد رافع طويلاً قبل أن يقترح عليها تصفُّحه. حين تصفَّحت الكتابَ سريعاً زاد شعورها بالخِفَّة أمام كَمٍّ الأسماءِ والتيارات الفنية، خارطة المعرفة ونقض المعرفة تلك مقارنة بالصفحة الوحيدة المُمَزَّقة والتي تُلَخِّصُ مَعَارِفَها، والتي تلف وتدور وتجترُّ زقاقاً معزولاً وراء الأحجبة، ومشغولاً بالتحجيب، ونسوةً يخذلهن الصَّبْرُ. كحركةٍ دفاعية استحضرت نورة بقلبها خارطتها الروحية الشاسعة، والموصولة بالتواريخ المغرقة في العراقة، لكن لا يمكنها الإفصاح عنها أو تحويلها إلى عُمْلَةٍ للتبادل الإنساني.

تلك الليلة ـ وحيدة في فراشها ـ التقطت نورة ذلك الصوت

الخافت، صوتاً بِسُرعةِ فَتْحِ عدسةٍ وانغلاقها، يأتي من طرف الوسادة. حين تَلَفَّتَتْ حولها في الحلم لم تَرَ أحداً، وكانت تلك الخطوات الخفيفة تتسارع صوبها، خطوات خفيفة من ريحٍ تُهَدِّدُ، فسارعت نورة بالركض، تلاحقها الخطوات. بدا العالم مثل ستائر مسرحٍ وخلفيات ورقية بمناظر تُصَوِّر مَشَاهِدَ تعرفها، لكنها لا تتمهَّل لتتأملها وتنضم لنمنمة تفاصيلها، كان جسدها يندفعُ بسرعةٍ قذيفةٍ تخترق في تلك الخلفيات وتتركها مِزَقاً خلفها، كلما أرادت التشبُّث بشيءٍ من ذلك الأثاث أو الصُّوَر تَسَارَعَت الخطوات خلفها، وتضخَّم الرعب بقلب نورة، حين هدَّدت رئتاها بالانفجار، توقفت لالتقاط نفسٍ، نَظَرَتْ للوراء فلَمَحَتْ صاحبَ تلك الخطوات، شاب رقيق ببشرة داكنة، في تناقض صريح مع نصاعة حذائه الرياضي وابتسامته الساطعة. لم يُحَدِّثها، ما إن لَمَحَتْه حتى تَجَمَّدَ المَشْهَد بالخلفيات التي فَقَدَتْ أهميتها، وبنورة خيالاً ساقطاً عليها، اقتربَ ليُقْعِي تحت قدميها، مُوَجِّهاً كاميرته وابتسامته إلى كمالها، التقط الصورة وعاود الركض، خُيِّلَ إليها أنه يقطع الأرض على قدميه راجعاً إلى بلاده البعيدة...

مع الصباح أفاقت بفراغ في الصدر في موضع اللقطة التي اختطفَها الولدُ المصور.

بين حرمين

نسي ناصر متى نام آخر مرة، يسوق ويحلم بعينيه مفتوحتين، يسمع صوتاً يسخر: «أنتَ مُدْمِن أوسمة؟» كان يمر بنقطة بَحْرَة حين فاجأه زحفٌ عظيم من لفَّاتِ ورق الحَمَّام، تَذَكَّرَ الترقيةَ الأهم في عمله والتي جاءت من بَحْرَة هذه القرية على خط مكة/جدة القديم، التحقيقات التي لاحقها انبثقت من إشاعةٍ عن مصنعِ الكفَرَة للتدوير في بَحْرَة، عصابةٌ تجمعُ

الكتبَ المدرسية والصحف المحلية، وتعيد تصنيعها كورق للحَمَّام، يُسَبِّب السرطان.

«ترقدُ على دمي.» صوتُ عائشة ينفث إلى صدره مباشرة، أفاق مذعوراً ليجد سيارته تعبر بين شهداء بدر، «أنا رقدتُ في هذه البقعة بانتظار سيارة الإسعاف. لم أكن أشعر بألم. كنتُ أنظرُ إلى عظام حوضي المخلوع وقد شقَّتْ لحمي وبرزتْ لتجلس إلى جواري وانتظرتُ لساعاتٍ، هناك جسدٌ خفيف ينشقُّ من أجسادنا، يظهرُ لإنقاذنا وقت الحوادث، يُلملم أشلاءنا ويجلس بها بعيداً عن الألم، يختار أبعد نقطة عن الألم ليجلس بنا، جالسني طوال تلك الليلة، وكنا ننظر إلى نقطة الألم الواقفة تنتظر، حتى أقبلتْ صفاراتُ إنذار الإسعاف، وسلَّمَني للمُمَرِّض، وغَرَسَ الإبرةَ بوريدي، فاندفع الألم، للمحة قبل أن أفقد الوعي. سمعتُ عَظْمَ حوضي يتهشم، لم أعدْ أُفَرِّق بين إصابتينا.»

«أأنتِ التي ماتت؟»

ضغطت قدمه على دواسة البنزين، مندفعاً بجسده وحلمه ليتلقَّى جوابَها، لكنه أفاق، برأسه بقايا جواب: «الموت ليس صعباً. الحياة هي السؤال الأكبر والأصعب.»

وامتدَّ سوادُ الطريق أمامه، يَتَحَسَّس الحجابَ على صدره مُقَاوِمَاً الحرقة لإخراجه، مؤجلاً قراءة أوراقه لحين يبلغ مأمناً. تمسك بنافذة يوسف: (احلام مكة حين تُثْقَل بالدنيا تُهاجر للمدينة، أوردَ الازرقي من عجيب خواص حرمها أن الذئب يتبع الظبي فإذا دخل الحرم كفَّ عنه!)

بعدها امتدَّ الطريقُ للمدينة خالياً إلا من بعض السيارات التي تسير بأكثر من السرعة المسموح بها، رغم الإبل التي تسرح في الكثبان على الجانبين، يهمزها عزرائيل فتخترق السياج السلكي الرفيع، تعبر الطريق لترتطم بالعربات وتخطف أرواح الركاب.

لم يعرف كيف بلغ المدينة ولا أين أوقفَ سيارتَه، وَجَدَ نفسَه أمام الحرم النبوي، تلكأ خارج مدخل الحَرَم في مرمى نظر الداخل والخارج، يَتَفَحَّص الوجوهَ يبحث عن يوسف أو مُشَبَّب، تَذَكَّرَ أنه لا يعرف أيّاً منهما. . لكنه كان متأكداً من أنهما سيجدانه، طالما معه الحجاب، أو لو كانا على اتصال بمعاذ، ارتجفت ركبتاه تحته وتَقَدَّمَ، وكانت صلاة العشاء قائمة، والمصلّون في جلسة التشهّد الأخير. انتظرَ حتى لحظةِ الصمتِ التام التي أعقبت التسليمة الأخيرة، ليلج إلى الحرم، عابراً من باب جبريل، تاركاً دَكَّةَ الأغوات من الخصيان المنذورين وراءه. أسندَ ظَهرَه إلى أسطوانة التوبة وخارت قواه، وغفا. في إغفاءته بَلَغَه صوتُ الأغا من حُرَّاس المسجد يشرح للزائر المصري:

«أسطوانة التوبة، عُرفت في التاريخ حين رَبَطَ أبو لبابة نفسَه إليها ندماً على ما أفشاه لبني قُريظة من نبأ غزوة الرسول، حتى كاد لا يسمع وكاد بَصَرُه يذهب، وكانت ابنته تَحِلُّ رباطَه أوقات الصلوات ولقضاءِ الحاجة، ثم يعود فتردُّه في الرباط، وحَلَفَ لا يَحِلّ نفسَه حتى يحلَّ وِثاقه رسولُ الله، وحَلَّه بعد أن نزلتْ توبته في القرآن الكريم، وكان الرسول يَتَلَقَّى عند تلك الأسطوانة الضعفاء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد يؤمنهم ويُحَدِّثهم.» لم يعرف ناصر ما إذا كان ذلك صوت الأغا أم رسالة مُوَجَّهة إليه. فَتَح عينيه، تأمل ناصر في الخطوط البيضاء التي تفصل النساء عن الرجال، مثل تلك الخطوط الجيرية تمتد من قلبه هو إلى قلوب القاصدين للروضة، بين منبره عليه السلام وقبره. لم يجرؤ على القيام للقبر، مِنْ مَوْضِعِه لَهَجَ بصلاةٍ صغيرة: (يا الله، وإنني وإن كنتُ قد اخترتُ أن أختبرَ حتى الشر لحين أبلغُكَ، فإنني وفي هذه الوقفة بروضتك، أعيد إليك ذلك الاختيار، أنا مُسَيَّرٌ ومنذ هذه اللحظة. . .).

استرخى لفراغه من الاختيار بجسد أسطوانة التوبة، مستشعراً كاملَ جسدِه شفيفاً متماهياً بالأرض المغزولة تحته بأجساد الصحابة، حتى صار

واعياً بقدم سيدنا عمر رضي الله عنه تتجسَّد في التربة أمامه، (تماماً كما خرجت في زمان واضطروا لإعادة دفنها)، أدرك أن الموتى مدفونون لا في التُّرَبِ وإنما في الغيب حوله، وأن بوسعه أن ينظر إليهم ويتملَّى في حَصَانَة أجسادهم من الانحلال في العذاب، شعر بأنه جزء من ذلك الكيان النوري الموصول بعصورٍ آتية ومنبعثة من عصورٍ سحيقة مروراً بأول الهجرة وصولاً إلى آخر المطاف، وبسبيله لبعث، من تلك الفورة وبيد محمومةٍ أفرجَ عن أوراق الرِّقّ من حجابها وبدأ يقرأ:

وصية سارة لابنها مارد، شيخ قبائل صبخا: خُبِّرَتْ سنة ستمائة وستة وعشرين للميلاد:

كان قد مضى على خروجنا من خيبر يومان، لزمنا فيها الصمت، كانت لنا رائحة ذئاب الصحاري، وكنتُ منغمرة في عباءتي من وبر الإبل التي تُخفي الأنثى وتحفظ جسدي رطباً بطبقةٍ من عَرَق. تتسلّط الشمس الحارقة بنا مخترقين شمالاً في وادي الحمض، متجنّبين لطُرق القوافل، بقلوبنا على عذوبة المياه والنخيل التي تُعطِّي لخيبر لَقَبَها كريفٍ للحجاز. لا يزال مذاق أبيكَ في فمي، حين خلّاني أرحل، قال: «أرض كنعان مبسوطة للجنين بجوفكِ، أما خيبر ففي أقدارنا سقوطها، وتشريدنا نحن النسل المختار من ذرية إبراهيم، لأن في سيرة موسى العصا، والتحوّلات اللانهائية والتخفي في الأقوام والأديان، قبل الاستقرار الأبدي.» ذلك الرجل الذي تاق لأن يكون أباك حمّلني مسؤوليةً جسيمة: (أقدارَ اليهود وعودتهم لأرض كنعان الموعودة في جزيرة العرب)

أوكلَ إليّ أن أضعكَ في قبيلة منيعة لتكمل معجزة التحوّل حيث

لا يمكن اقتلاعكَ! ومن أجل هذا الهدف كان عليَّ أن أمضي للأمام بلا نظرةٍ للوراء، وبكل خطوة أخلع هويتي وديانتي وأبي كعب وزوجي النضر وأهلي، وأستبدل عذوبةَ مياه يثرب بمرارة الآبار التي نقف عليها، أعبر في ذاك الرمل الأبدي، صوب واحات نجد ووادي بني حنيفة، وقبيلة المعروفين بالشموس. بأمل أن تحتويني بمِنْعَتِها وبأقدراها التي قرأها عرّافونا محتومة بوراثتها آخر الزمان للجزيرة وركوبها لجواد التاريخ وإمساكها بأعنة الكثير من الأمم، أينما ضربت بحافره انبثق الذهب، موقداً النيران في بلاد لا تبلغها شمس! لمسافةٍ من الطريق كنتُ أنظرُ أمامي وتمتد غمامة: جيادٌ سود تُغَطّي الأفق، وأنا أضرب في قفرها، لكي أبلغ فأضعكَ على عُرف الجواد القائد.

أدرك ناصرُ أهميةَ ما يحمله في هذا الورق القديم. . لم يكن من المُفترض أن يفتح ويقرأ، لكنه لن يكون الحمار يحمل أسفاراً. . منذ الآن لا بُدَّ أن ينظر مَوَاضعَ قَدَمه ومع مَنْ. وهذه الأحرف التي تُبالغ في تآكلها وغُثّها تشابكها وجلائها، لم يعد الفرق واضحاً ما إذا كان يقرأ ما يقرأه في الرّقّ أم في الأنفاس المحتبسة بصدره أم للطيور البيضاء المُضْمَرَة في سماءِ المسجد، والتي خرجت من حريقه في الماضي وأطفأت نارَ الصاعقة قبل أن تصل إلى الحجرة الشريفة! لكن هذه النكهة للكلمات، وللرّقّ القديم، جرجرتْه ليمضي في القراءة، مُسْتَطلعاً اللحظةَ التي تنكسر فيها الوصيَّة، هذا المُؤَلِّف المُسْتَتِر والذي يُعطي لكلِّ الوجوه حوله نكهةً تُذَكِّره بالكاهنة (طُرَيفة) التي تَنَبَّأتْ بانهيارِ سَدِّ مأرب وقادتْ أُمَمَ العَرَب لتُوزِّعهم في حزَم: حزمة للدم المهراق والولادة بالرافدين، وحزمة للورق والتأليف لمجرى النيل، وحزمة للحَجَر والتعمير مع الملائكة بمكة، وحزمة للطِيب والنخل بيثرب، وحزمة للهوى والقصيد بالشام. . .

الوقت يتجاوز منتصف الليل، تتعالى صراخات دمار وفزعٍ من على سطح عمارة الجامعة العربية، مَشَاهِد الدم تُغَطِّي شاشة التلفزيون وتهطل للأسطح المحيطة، قريباً يندلع أذان الفجر في ضباب مَشَاهد العنف اللانهائية التي يحتويها فيلمُ سمك القرش (Jaws) مقترباً من نهايته.

اقشعر معاذُ لفكرة أن تهبط ملائكة الفجر للصلاة وتشهد كل ذلك العنف، لكن وفي اللحظة التي أُبيد فيها القرش وانحسرت المَشَاهِد ليعم السواد شاشة التلفزيون نهض لفوره يُبَدِّل شريط الـ DVD بآخر، وَاجَهَ خليلُ الصورةَ الجانبية لوجهه المنعكس في سواد الشاشة، بشعره الذي يدعو للشفقة، شَعْرٌ خفيفٌ مُنْحَسِر، يتحوَّل إلى زغب ويقاوم باستبسالٍ جرعات العلاج الكيماوي. رفع خليل يده بشبكة عروقها الخضراء النافرة والمُشَرَّبة بالعَرَق لتحية تلك الحفنة من الجُند المناضل..

مَشَاهِد فيلم مهمة مستحيلة (Mission Impossible 2) طمستْ صورتَه من على الشاشة، ومَرَّة أخرى ومكشوفة للسماء تعالت أصواتُ الرشَّاشات وتناثرت الجثث لتخوضها ملائكةُ الفجر.. ذاك كان الفيلم العاشر يشاهده مع خليل في الساعات الخمس عشرة الماضية. من جلسته أعلى السلالم، بظهره لجدار الطوب العاري والمحموم بريح السَّموم، تأمل معاذ في المنظر الجانبي لوجه خليل، يزداد طولاً ونحولاً كمقدمة طائرة متأهبة للإقلاع بأقل مقاومة للهواء. خليل كان يتخذ جلسته الأزلية على فراش الإسفنج المبسوط على أرض السطح العارية، مواجهاً لشاشة التلفزيون في نهاية السطح. مضى أسبوعان على آخر جرعة كيماوية تَلَقَّاها خليل، كان الأطباء قد أوقفوا المعالجة وأرسلوه بلا مبالاة وببساطة ليموت.

«لا نستطيع تجاهل تَدَنِّي مستوى كريات الدم البيضاء في دمه، جسده

لم يعد يحتمل المعالجة، هذه الجرعة تقتله أكثر مما تنفعه..» ذاك كان تلخيصهم لحقيقة أن (لا شيء يجدي..) وأضافوا: «ضيق التنفس الذي تُعانيه ليس فقط نتيجة لمُضاعَفَاتٍ تُحدثها الجرعةُ الكيماوية، لكن السرطان اقتحم إلى رئتيكَ ويتقدَّم صوب قلبك الذي لا نُخفي عليك صار في حالةٍ حرجة...» أقرب لوصف ساحة معركة، تتقدَّمُ فيها جحافلُ السرطان من قلبه، وبلا أحد يَتدخَّل للإعداد لهجومٍ مُضاد،

«كيف ترسل إنساناً ليموت وحيداً؟»

تُلِحُّ تلك الفكرة برأس معاذ، أي قرآن يمكن أن يُرافقه في وحدته، أراد لخليل أن يرافق سورة المُلْك ولم يجرؤ على اقتراحها، صار يجلس عن بعد ويقرأها وينفث بينما خليل يستغرق في الدم، شُهُبُ سُورة المُلْك تتصارع مع الانفجارات والمؤثرات الصوتية الهوليودية المُضَخَّمَة، يتعثَّر معاذ ويُعاود القراءة، يتأمله خليل، يلمح رجفة شفتيه في التلاوة، ويطمئنه:

«ليس أفدح من أن تلد طفلاً وتُرسله للحياة.. أول أنفاسه هي العد التنازلي الذي سينتهي لا محالة بموته.» ها هو السرطان الذي سد الفراغ الذي تركتْه خسارةُ معاذ لبيت اللبابيدي يدفعه خارج المَشْهَد، وكان قد شَكَّلَ جبهةً مع خليل حتى صار بوسع السرطان أن يكمل زحفه من كليتي خليل إلى كليتيه، ببسالة المجاهدين الأوائل أهملَ التصويرَ ليتفرَّغ لهذه الحرب، وحتى حين استسلم خليل وملَّ مراجعة المستشفى ـ ثلاث مرات أسبوعياً: مرة لحقنة العلاج الكيماوي ومرتين للأمصال المُساندة ـ تدرب معاذ على حقنه بالجرعات المُساندة تحت الجلد.

حين يتجاوز الألمُ طاقةَ خليل على الاحتمال يستلقي مُتَصلِّباً على تلك الإسفنجة مُحَدِّقاً في شاشة التلفزيون إلى مَشَاهد تتالى من العنف المُخَدِّر. تغرق سورة الملك بحزن ثقيل لقلب معاذ، يلهج ويسترق النظر إلى خليل، ينحل مع كل ثانية حيث لا تستقر لقمة بجوفه، حركاته ثقيلة

متعثرة نتيجة لجرعات السموم الكيماوية التي استقرَّت لتفتَّ في مفاصله وعضلاته، لكن خياله العلمي يتعزَّز، يلتفت إليه مبتسماً، لينقل له الغثيان والمتعة في فيلم المغامرات الذي تتلاحق حبكته على شاشة جسده،

«تخيَّل رمزية معنا الآن.» دائماً يرجع إلى رمزية، إلى إيمانها، ففي أسبوع زواجهما القصير لم تيأس قط، تنفتح له كسمادٍ قادرٍ على إحْدَاثِ معجزةٍ تُحيي الميت من حيواناته المنوية لتخصيبها. وربما ذاك ما خَوَّفَه: قدرتُها على تحدِّي دماره الذاتي. الدمار الذي بدأ بموته الأول حين كان في العشرين، حين وَجَدَ نفسَه في مواجهة سوائل الخيال العلمي 5FU أو MVAC أو CMV وأسلحة حرب النجوم العجيبة تُقَطِّر وتُغرس أو تُضخُّ أجسامها الغريبة في دمه لتحتله لساعات أو لأيام أو أشهر، لتُتِمَّ مسخه وقتل حيوانات الحياة فيه.. وها هو الآن وقد قارب الخمسين، تغادره تلك المخلوقات الغازية وترحل بسفنها الفضائية وقد فقدتْ اهتمامَها به، لا تجد فيه ما يستحق الغزو والتدمير.

«أين ينتهي الواحدُ منا حين يَتخَلَّى عنه العلمُ الحديث؟» السؤال الذي وَجَّهَه لمعاذ كَرَّرَ عتاباً موجعاً بصدر خليل، يبدو هذا العلم الحديث كإلهٍ عصري يهجره ويحرمه من معجزاته. لا يكفّ السيناريو برأس خليل يتحوَّر، «قالوا: اذهبْ لتموت. بينما يقول إيمانُ رمزية: انتظر وسترى هؤلاء الأطباء يتساقطون موتى قبل أن يتمكَّن السرطان من الاختراق إلى قلبك. وأُضيفُ: أنتَ خبير سرطنة.. حتى الموت لا يطيقُ سُكناكَ.» يلتحم معاذُ بقناعة خليل في النجاة، يختار كل آيات المعجزات ليتحصَّن بالأمل في معجزةٍ تحطُّ على سطح عمارة الجامعة العربية لتحل بخليل، يتشبَّثُ ابنُ الإمام مستميتاً بخليل بصفته آخر أبطال فردوسه المفقود، يتسلَّل كلَّ يوم صاعداً سلالم العمارة الجامعة ليجلس جلسته تلك، بعين يرقب مجريات فيلم الفيديو، وبعين يرقبُ أنفاسَ خليل، خوف أن تسكت في غفلة منه ويخترق السرطان أضلاعه ويأخذ يتعفَّن منسياً في حَرِّ ذاك

السطح. احتملَ خليلُ معاذَ لأنه جلب معه تلك الابتسامة الساطعة، وتلك النظرة المُخَادِعة للحياة، وذلك الإيمان بالصورة كبديل للواقع. تَشَارَكَا ذلك الإيمان الآثم بالصُّورةِ كوسيلةٍ للبعث.

أحياناً يسكن خليل لساعاتٍ تتمدَّد فيها الثواني لدهور يُوَجِّه خلالها كاملَ حواسه للوجع ويتابع زحفَ السرطان الحثيث، واللحظات الحاسمة التي يُحَقِّق فيها اختراقاً لعضوٍ، عابراً من الكلية إلى الكبد ومنه إلى المعدة واجتياحه الحاسم لحجابه الحاجز، يشعر بهشاشة رئتيه أمام الزحف، وبالإمدادت المُتضخمة على قاعدة قصبته الهوائية، ويترقَّبُ بحماسة مفاجأةَ السقوط الختامي لقلبه.. في مثل تلك اللحظات يعمى خليل ويُصَمُّ ويفقد قدرته على التركيز، شحوبٌ محمومٌ يزحف تحت جلده ويقطع إمدادات الحياة، في مثل تلك اللحظات لا يعود يخترق لخليل شيء غير السخرية من رمزية وأفلام العنف والمغامرات. بسذاجةٍ أدرك معاذ أن كمالَ خليل في العنف، فصار يُحَرِّضه بتلك الأفلام، يحضر كل صباحٍ يتسلَّم المئتي ريال ويرجع مساءً بدزينة أشرطة الفيديو خمسة عشر ريالاً للشريط، أحدث وأقدم الإصدارات لا فرق،

X-Men: The Last Stand, The Bourne Ultimatum, 300, Spider-Man 3, Pirates of the Caribbean: At World's End or dead man chest, Transformers, Miami Vice, Poseidon, Blood Rayne Attack Force, Underworld: Evolution, Second in Command, The Guardian, Road House 2, Living & Dying, Cut Off, Snakes on a Plane, The Detonator, The Fast and the Furious: Tokyo Drift, Hellboy: Sword of Storms, Fearless, Bon Cop, Bad Cop, Undisputed 2, Connors' War, Machine, Lord of the Ring, Ocean 11, 12, 13, Matrix 1 & 2

مع الوقت لم تعد للعناوين أو للممثلين أهمية، شروق الشمس يعقبه غروب وعتم بينما عينا خليل شاخصتان لشاشة البلازما 45 بوصة، لم يكن خليل يعي تَبَدُّلَ فيلمٍ مكان آخر، المهم أن يستمر مشهد الصراع وطحن

العدو داخلَه بكلِّ حركةٍ بطولةٍ أو استشهاد، كانوا يستشهدون عنه في تلك الأفلام التي تحوَّلت إلى شريط واحدٍ بلا نهاية، البطولة فيه لخلايا جسد خليل. . . يجلس ابنُ القرارة مع ابن الإمام الإثيوبي ويلتهمان المَشَاهِدَ كرقائق البطاطس، يُمَلِّحها معاذ بآيات لا ينسى أن يتلوها، بينما يُمَدِّدان حياةَ خليل بين لحظةِ حربٍ وأخرى، يِتَخَفَّف فيها فِعْل الحياة والموت للُعبةٍ على شاشة. كان معاذ يرى خليلَ يموتُ وفي مقاومته للمرض وحيداً بطولة تفوق كل بطولات هوليود، ينتابه احترامٌ عميق لوحدة ذلك المُصَارِع، ينتابه في لحظات أنه يُسامر رجلاً ميتاً، وينهبه رعبُ مقولة أبيه: «أننا سنُبعث على ما مُتنا عليه. . . وسنحيا في قبورنا تلك اللحظات الأخيرة لنا في الحياة، تتكرر ليوم البعث. .» وأن خليل سيُساكن في قبره وسيُبعث هكذا متفرجاً على السينما الأميركية! هل هو قَدَرٌ أسوأ من أن يُبْعَثَ يقودُ عربتَه الأجرة في ريح السَّموم؟ لذا فلقد انبَهر ذلك الفجر، حين كان في طريقه لرفع الأذان واستوقفه الصمتُ المُطبق من سطح خليل، اندفع معاذ يركض باتجاه عمارة الجامعة العربية، يقفز الدرجات بعماء وبرأسه فكرة وحيدة: بأن خليل قد غَافَلَه ومات. بلغ السطح يلهث حين فاجأه ذلك الخيال الراكع عارياً للسماء، هزيلاً تبرز عظام كتفيه بينما تلمع جبهته المتوسعة بمواجهة للأرض. طفر الدمع من عيني معاذ، أهو خليل يصلي لأول مرة؟! لم يتمهل معاذ ليتأكد، استدار راكضاً مستجمعاً قلبه على أمنية: أن يهبط عزرائيل لحظتها ويقبض روح خليل في ذلك الركوع، أن يُسَجِّله في صلاة، مهما كان غرض تلك الركعة. بتلك الدعوة أطلق معاذ نداءه (حي على الصلاة).

في مراحل المرض الأولى لم ينقطع خليل عن قيادة عربته الأجرة عدا يوم الأربعاء موعد الجرعة الكيماوية، عندها كان يوقف عربته بعيداً عن أبوالرووس ويجد طريقه إلى سطح الجامعة العربية، حيث يستلقي هناك يعرق ويتقيأ أحشاءه بينما يتحول لونه إلى الأزرق المعدني. وفي

اليوم التالي ينهض خليل بإرادة خارقة ليقود عربته، وأحياناً يتلذذ بمجرد المرور أمام الزبائن ولا يتوقف مثيراً غيظهم.

منذ أسبوعين أو ثلاثة استأنف خليل قيادة عربته من جديد عقب صدور حكم الأطباء بإعدامه. هيكلٌ عظمي منحوت في فراغ ثوبه العريض، لا يجد السرطانُ منه ما يأكله؟

«هل قرَّر أن يموت وراء المقود؟» تعزَّزتْ مخاوفُ معاذ حين فشل في العثور عليه. الأكيد أن خليل قد قرَّر الخروج لمواجهة السرطان، بِجِلْدٍ أصفر مشدود على هيكلٍ عظمي يفوحُ بالثوم تأمَّلَ في المدينة بعينٍ جديدة، عين ميت.

كل صباح يتردَّد خليل في مُفْتَرَقِ الطُّرُقِ بين الحُجون لليسار أو الزاهر لليمين، لكن يديه تلفَّان مِقْوَدَ العربة ليظهر على الموعد مع هذا الغريب الذي يظهر له لليوم العاشر، أمام مقبرة الشهداء، بنفس الثياب البيضاء والسديري الرمادي.

ليلة البارحة فاحتْ نفسُ رائحة القهوة من الجروح التي تركتْها التركيةُ على جسده العنين. لقد أخفى عنها مرضه لكن عجزه يفضحة ويقودها لتستوحش بما يفوق السرطان، لم يعد يشفيها إلا نهش كبده، شَهَقَ في فراغ العربة، حين انغرست عينُ الراكب بموضع النهشة بعضلة الساعد الأيمن،

«لقد أشبعتْ جوعَها منكَ، وعافتكَ، ككل مَنْ حولكَ.» هذا الرجل الذي تسلط عليه لأيامٍ يطلب منه أن يأخذه إلى عناوين ليكتشف أنها قد زالت عن خارطة مكةَ، واليوم ها هو يركب ولا يعطي عنواناً، يتركه يتخبَّط ويُكَرِّر:

«هذا كابوس، أنت يا خليل تحلم، ستُفيق بعد قليل، في المنعطف

التالي، على إشارةِ المرور الحمراء التالية، ستُفيقُ ويتبدَّد هذا الهذيان، وذلك الميت بلحيته الصفراء في المقعد خلفكَ. . .» حَاوَلَ أن يسترخي وراء مقوده، أن يسوق أفكارَه لتستسلم لما يجري في عربته، بمعرفةٍ عميقةٍ أنه سيُفيق بزعقةٍ للكوابح، وفي ذلك الوضع الكابوسي تداعت الكوابيس التي تنهبه منذ ظهور الجثة بأبوالرووس، والمُحَقِّق ناصر، حتى المُحَقِّق ناصر صار يأتيه في الأحلام ويُخْضِعه لنفس السخرية والسؤال المُكَرَّر،

«أنتَ يا خليل أكلتَ صدرَ دجاجة، أولئك الذين يأكلون صدر الطير لا يكتمون سِرَّاً، كل ما يدخل صدورهم يشيع في الهواء، ما الذي أفشيتَه عن أبوالرووس ومكة؟» ويستجوبه بآلَةِ التعذيب تلك، التي مثل عقرب ساعة يفلته بقلبه ويترك له أن يدور بعقربيه ويمزق حوافه، وكلما أفاق مُختنقاً بعَرَقِه في فراش التركية تَقَوَّس حاجباها بضجرٍ، حتى قفزا ليلةَ البارحة في الهواء خارج جبهتها، (ذلك الحاجب في الهواء قال إنها قد فَقَدَتْ حيوانيتها وانكشف سحرها، وبدأت ملامحها تتداعى، فتحوَّلت تحت بصره إلى رُكامِ شمطاءٍ تتحلَّل في قبر شحم، وإنه سيدفع ثمن تعريتها.)

«والأختام، لِمَنْ أهديتَ الأختام؟.» مسمارُ كلمةِ (الأختام) ضَرَبَ عجلاته الأمامية، لتنحرف العربة بذلك العنف، بينما صوتٌ في رأسه يُحذِّره: «مهما كان، إياكَ وأن تدوس على الكوابح، ستطير العربة بكَ من على الكوبري.» وببرودِ الطَّيّار الآلي في آخر اختبارات الطيران، أحكَمَ ناصرُ قبضتَه على المقود ليُجبرَ كتلةَ المعدن حوله على المضي في خَطٍّ مستقيم، الأمر الذي نجح في استواء عربته على الطريق، بقي أن يختار هذا الراكب وُجْهَةً،

«تَوَقَّفْ بأي بقعةٍ، وشُمَّها، فتعرف، معظم تربة مكة مقابر، حتى المَطَاف، بين حجر إسماعيل ومقام إبراهيم وبئر زمزم قبر تسعة وتسعين نبياً جاءوا مكة حُجَّاجاً فقُبروا هناك، وعذارى إسماعيل، وقمم الخُنْدُمة

حيث السبعون نبياً مدفونون، لا تُصَدِّق أنه من الممكن ترحيل مقبرة، الأرض تتشبَّع بالموت، خُذْ حفنةً من تربة الشُّبيكة والشُّهداء وشُمَّها، ستعرف رائحةَ أجدادكَ، الموت في مكة وصولٌ وغاية. لا أرض ولا سماء تنسى، شُمَّ جُثَّتكَ وستجد رائحة جَدِّكَ بن عتيق الحضرمي. هو سَرَقَ الأختامَ واعتبرتَها أنتَ إرثك الشخصي، تتصرف بها كما تشاء.» عبثاً أراد أن يتبرأ من التصرف بالأختام. هذه المَرَّة لم يرتجف المقود لذاك الاسم، كان الجَدُّ عقيل الحضرمي يُشاركهما فراغ العربة، عارياً مدفوناً في حجارةِ الرَّجْمِ، بيده قابضة على جَنْبِيَّة مخترقة لقلبه. في تلك العربة المندفعة تَجَرَّدَ خليل من لقب (الطيار) الذي منحه إياه أبوالرووس ورجع لنسبه بن الحضرمي:

«كلاكما انتحر، هو بخنجرٍ هدية وأنتَ بهدية الأختام.» تحوَّل خليل إلى صنمٍ يَتَلَقَّى ذلك النبش لقبر جَدِّه الوزير بن عتيق الحضرمي الذي هيمن بجبروته على مكة بأواخر الألفية الهجرية الأولى،

«كانت في الوسادة التي لا تفارق صندوق سيارتكَ هذه، كانت الشيء الوحيد الذي استخلصتَه من تِرْكَتِكَ وأختكَ، أنت لم تقتحم الحريق لإنقاذ أُمكَ وإنما اختطفتَ الوسادة بصُرَّة الأختام ونجوتَ بنفسكَ.» أدرك خليل أنه قد وَقَعَ في الفَخِّ الذي نَصَبَه له عَمُّه إسماعيل من بُعده التاريخي، لأنه كان يبحث عن آلات إسماعيل ودفاتر قصائده المُغنَّاة حين عَثَرَ على صُرَّةِ الأختام مطروحة في مِبْخَرَةِ النحاس الضخمة، ستة أختام مع تخطيطٍ لذلك المفتاح المطلي بالذهب، ما إن وقع بصرُه عليها ساكنة في تلك المبخرة العظيمة جاهز للحرق حتى أنبأه حدسٌ خَفِيٌّ بخطورتها، وبأنه يُمسكُ بحفنةٍ من قلب مكة، وبأنه المَعْنِي برقدتها هناك، كل تلك القرون من نهاية الألفية الهجرية الأولى، وأنها كانت بانتظاره، لفرط استحواذه عليها لم يرغب في توثيقها لتاريخٍ أو مَالِكٍ، بصمتٍ خاشعٍ تَنَاوَلَها، ودسَّها في حشوة وسادته، وانتقلت في حشوات الوسائد التي أسلمها رأسه

أينما ذَهَبَ، من القرارة إلى فلوريدا لتنتهي إلى أبوالرووس وتنجو من الحريق الذي ذهب بأمه لتنتهي إلى حشوة التركية،

«جَدُّكَ ابن الحضرمي الوزير في عهد الشريف حسن بن أبي نما هو أبرع من يَتَقَمَّص الأدوار، كان بوسعه أن يتقمَّصَ أيَّ قاضٍ ميِّت، باستحواذه على أختامه، وأن يجعله يُوَقِّع له من قبره ما شاء من صكوك ملكية، وصكوك ديون يسلب بها تركات المتوفين من ورثتهم... تصبح التواريخ بيد جَدِّكَ مُجَرَّد أقنعة، يُسقطها على الأوراق لتمنحها قِدَماً وعَرَاقة، أو تؤخرها لتنفي حوادثَ وَقَعَتْ، ودُيوناً أُرِّخَتْ، لجَدِّكَ القدرة على تقديم وتأخير التواريخ، قلب مكة مملوك لتلك الأختام الستة، وبأي يد وَقَعَتْ.»

البارحة فقط حين تساقطت ملامح التركية أمامه وتساقطت معها حظوظه، حين أدرك أن خاتمته أشرفتْ على يديها لجأ للوسادة، دَفَعَ برأسه إلى حشوتها طلباً لتلك الأختام التي لم تجفّ أحبارها، الخِفَّة التي للوسادة أيقظتْه من كابوس، مسعوراً بَقَرَ بطنَ الوسادة، ونَبَشَ القطنَ الرطب، الفراغ هناك أرعبه، حينها بدأ يضرب في هيكل الشحم حوله، والمُطْبِق عليه، مُدْرِكاً ذهابَ الأختام انقلب جِلْدُه ليُسفر عن حيوانٍ، المعركة التي دارت بينه وبين التركية لم تكن متكافئة بأيٍّ من الأحوال، وكان قد عَلَّق برقبتها ذراعها المكسورة، بينما لم تئن، وتركت طبعات طقم أسنانها على كامل جسده، وقد عرَّتْ سلحفاتَه من صَدَفَتِها.

«حين تَوَلَّى أبو طالب، وانفرد ابن الحضرمي في السجن، بدأ بحفر يومياته على جدرانه، كَتَبَ تفاصيلَ كُلِّ تِرْكَةٍ استولى عليها، والشهود الذين شهدوا عليها، والتواريخ التي تَقَدَّمَت على يديه وتأخرت، وأفاض في قدرته على التلاعب بالزمن، ورَبْطِهِ بصكوكه وإعطائها القِدَمَ الذي يمنحها نكهتَها ويجعلُ نَقْضَها مُستحيلاً استحالةَ نَقْضِ مُقَدِّمَةِ ابن خلدون وتاريخ الطبري، على جدار الزنزانة لم يغمض لجَدِّكَ ابن الحضرمي جفنٌ

لأسابيع، كَتَبَ وحَفَرَ تاريخه، كمن يُفْرِغُ جَوفَه من إثم، ويُحَمِّله لجدران مكة، واستفاض في حكايته مع خِضْر أفندي، الذي لفرط ما حَفَرَ تفاصيله تجسَّدَ خِضْر من قبره بمنفاه خارج مكة ليُجالسه على جدار زنزانته، ويسترجع معه الشهادة التي رَفَضَ أن يُزَوِّرَها، والغضب الذي صَبَّه ابن الحضرمي عليه، وبيوته التي استولى عليها، والأثاث الذي باعه بالمزاد قبل أن تتلاشى آخر خطوات خضر أفندي من مكة صوب منفاه. بدأ خضر فسخر من تكرار ابن الحضرمي للانتحار، ولَخَّصَ حكمتَه بأن: الانتحار هو أن تفشل في حَبْكِ القناع الذي يُسَخِّر لكَ الأمير، وأن قِنَاعَ التسخير هو أمضى من أختامِ كلِّ القُضَاةِ، وأن الختم على عينِ الأميرِ هو خَتْم سليمان المفقود! في سَطْرٍ على الجدارِ كَتَبَ خِضْرُ أفندي: لا تستعجل فإنها آتيتْكَ: دعوة مظلوم لا تُرَدُّ. وراقبا معاً خاتمته، حين أرسل الشريف أبوطالب جَنْبِيَّته هديةً لابن الحضرمي مع الرسالة التي تقول: إن إردتَ الانتحارَ فدونكَ الجَنْبِيَّة وارسلْ بروحكَ إلى جهنم! قام خضر أفندي مع ابن الحضرمي بحفر الرسالة على الحائط، وحين تناول الجنبية وَعَدَه خضر بتسجيل نهايته بحذافيرها كما يليق بأسطورة، وحين طَعَنَ نفسَه، سَجَّلَ الزاوية التي اخترق منها الخنجر من تحت ضلعه الرابع نافذاً للقلب وكيف بقي هناك يَصُدُّ النزفَ، وحين حملوه سار خِضْرَ أفندي معه كتابعٍ متفانٍ، وسَجَّلَ أوصافَ العربة بالحمار الأجرب التي جَرَّت جثته، والمياه التي لم تُسكب لغسله، والصلاة التي لم تُرْفَع على جثمانه، والبقعة التي قذفوه فيها بأم الدود، وجماهير العوام التي اجتمعت لتوديعه بالحجارة، وسَجَّلَ مَيْلَ الشمسِ على كومة الردم التي تَقَبَّبت عليه، وأبخرة اللعنات التي طَوَّقَتْه تغلي مُوَاكِبَةً لروحه، وحتى حين انفضَّ اللاعنون، بقي خضر أفندي مُتَكَرِّسَاً لا تُثنيه الغربانُ المسعورة على الكومة، وبين نعيبها وروائح التفسُّخ جَلَسَ بصبرٍ ليُسَجِّل جلسات ملائكة العذاب التي مضت لدهور تُحصي أختامه المُزَوَّرة وجيوش الأيتام الذين رماهم إلى قاع العوز، وموازين

الأراضي التي وزنوها في ميزان آثامه، ولم تُغْفَل حفنةُ ترابٍ استولى عليها، ما جعل موازينه تتضعضع، لم تكن أوزان التربة والحجر وإنما دمع وحُرقة المسلوبين الذي بدا أكثر مما تحتمله حتى الكتابات التي يُسَجِّلها خِضْرُ أفندي في تأريخه، لدهور ظَلَّ خضر افندي وفياً للتوثيق لِجَلاَّده ابن الحضرمي، حتى خطَّ الشيبُ رأسَه وسَرَى لأهدابه، آخرُ رجفةٍ ليديه كانت لا تزال تُسَجِّل صيحاتَ الألم التي تنطلق لا تزال من ذلك الردم وتشتدُّ في الثُّلثِ الأخير من كلِّ ليلةٍ، حين يهبط الله لسماء الدنيا ولا يُلقي بنظرةٍ على ذاك الردم، وحين لا يجد المدفونُ كلمةً يَتَوَسَّلها في حضرته، عُقْدَةُ لسان الحضرمي هي آخر نقطةٍ سَجَّلها خضر في ذلك التاريخ وذلك الردم قبل أن يذوب في تربة مكة، وتحفر له الملائكة مسارب لمياهها الجوفية.»
كل الصمت والسِّرِّية والريبة التي اعتادها خليل من الراكب تفجَّرتْ في تلك الحكاية.

كل الغامض في ملامح خليل هذا الصباح تجسَّد له لأول مرة، ورأى نفسَه في مرآة العربة: حين ألقى بنظرةٍ على الراكب في المرآة رأى في عينيه وجهَه هو، نسخة طبق الأصل عن جَدِّه الأول الحضرمي، لم يكن الراكب يؤلف تاريخاً وإنما يقوده لقراءة تلك المحفورات على حائط رأسه، ليكتشف أنه هو خليل الجَدّ الطالع لتوِّه من ركام الرجم، وهو يسري بإرادة تلك الجثة.

على تلك المرآة وبجلاءٍ انبسطت لخليل صفحة حياته:

ليلة وراء ليلة نزف خليل في أُذنَي تلك اللعينة كلَّ شيءٍ، كل ما يعرفه عن أبوالرووس، وعن أمه وأبيه ومكة، ونقاط الضعف، والمواقع التي يهترئ أهلُها بالفقر وجاهزة لوضع اليد، وخرائط الأوقاف التي مات مطالبوها، كل تلك الخرائط انصبَّتْ في التركية التي. . (بَاعَتْها لا يعلم لمن)، وطوال الوقت كان قد وَضَعَ الأختام في حوزتها، والتي تُمَكِّنُ من انتزاعِ معظم أوقاف وبيوت مكة من ورثتها الغافلين.

فَقَدَ خليلُ سحرَه وقدرته على إيقاع الألم في الثالثة فجراً حين قَذَفَتْ به التركية إلى الزقاق،

«لا ترجع.» دَفَعَه بها صبيُّها الخَصِيُّ ملوِّحاً بمقص الخياطة المُثَلَّم الشفرة، تاركاً خطاً مُتعرِّجاً من الصقيع على صدغه، قاذفاً بكل متعلقاته إلى الزقاق، أكداس وأكداس من أشرطة الفيديو المبقورة..

حين استرد خليل وعيَه بقي حيث هو على تربة أبوالرووس، يرقب منبطحاً في ذلك الوجود السوبرماني الذي رفعه له سرطانه، دائماً كان مرفوعاً درجةً فوقَ الزقاق، لينظر أولئك البسطاء من علٍ، وهو البطل الوحيد للمَشْهَد، بصكوك المِليكة وصكوك الديون لكل تلك الأوقاف التي رافقه إليها ذلك الراكب، وأنه وبسذاجته، وبالأختام المدسوسة بوسادته كان الأداة التي أعطتْ المصداقيةَ لكل تلك الصكوك، كان السرطان الذي أكل مكة.

احتاج خليل إلى وقتٍ ليتوازن على قدميه، بمعجزةٍ سَاقَ عربتَه، وعلى أول منعطف تاق لأن يوقف عربته ويهبط للتأكد من محتويات صندوقها الخلفي: (حفنة أفلام هوليودية ومن ضمنها بكرة الديناصور المهترئة، وثلاثة ثياب مصفرة، ووسادة مبقورة.. بلا أي حذاء وسط أدوات تَنَكُّرٍ فَاقَتْها ملامحُه تَنَكُّراً بما يدعو للشفقة..)

أحقاً يغادر بكامل متعلقاته ويسير على هذه الطريق؟ وتحت نظرة هذا الكائن الشبحي،

«هذا كابوس أليس كذلك؟» أراد أن يُوَجِّه للراكب ذلك السؤال، لكن صوته خرج في حشرجة،

«بلا شك، ماذا تَتوَقَّع، وماذا تنتظر؟»

«عليك أن تكون حذراً، أية انعطافةٍ خاطئة، أي نعاس سيرسلكَ وهذا الكون الذي تقوده للعدم...» وللحال زادتْ سرعةُ العربة، مهما

داس بمَجْمَعِ قدميه على الكوابح لم تتباطأ، انفلت في طريق العربات والحافلات المتجهة للرِصيفة، أراد أن يبلغ الخط الدائري، على تلك الكباري بوسعه بلوغ السرعة القصوى بلا احتمالٍ لخطر، صوتٌ برأسه يُلِحُّ أن يبلغ جبل الرحمة بعرفات، حيث التقت حواء آدم في هبوطهما من الجنة، لتفقدَ لُعبةُ هذا الشبح خطورتَها في طُرُقاتها الخاوية واصلة لخط الأفق، لكن السيارة استدارت لتلج إلى الطريق القديمة المُغَادِرَة مكةَ لمدينة جدَّة، مُسَاقَة لخاتمةِ تاريخ جَدِّه ابن الحضرمي، لم يقف شيء في طريقه،

«أنتَ مدسوس من أبوالرووس لمعاقبتي، أنت السرطان يتجسَّد ليعبث بي... تعرف جيداً أنني سأهزمك.. ليس بوسعك أن تقتلني لأنني وببساطة أُسابقكَ لموتي..»

حين بلغ أم الجود التي كانت تُعرف بأم الدود، انبثق شوقُه لصوت أبيه، كلمة واحدة تُنْطَق بعناية، بمحبة، انفتح شوقُه لكل الجهات ويجرفه، وفي الموقع الذي تكوَّمت حجارةُ الرجم على جثة جَدِّه، في الجزء من الثانية ظهرت تلك الناقلة، الديناصور، في نصفِ استدارةٍ بعرض الطريق وجاوبتْها زَخَّةُ دم انبجستْ على شفتي خليل في نوبة سعال، في الجزء من الثانية شَعَرَ بالسرطان يخترق إلى قلبه، ضَرَبَ بمخلبه في البُطينين معاً، وفي ذات الجزء من الثانية كان جسد خليل الطيار يُحَلِّق بمحركاته الأربعة وبطيّاره الآلي واليدوي مُخترقاً في جسد شاحنة النفط التي امتدَّتْ شاشةً تُجَسِّدُ ديناصوراً من نار، بينما وجهُ إسماعيل يملأ المرآة الأمامية، وحباله الصوتية تُغَنّي،

«أهل مكة حَمَام، وأهل المدينة قَمَاري، وأهل جدَّة غزال...»
واندلعتْ مِسَلَّةٌ من اللهب الأبيض، مخترقةً السماءَ التي امتدَّتْ ترقبُ بصمتٍ مُحَايِد.

من وراء أسطوانة التوبة وَقَفَ الأغا يرقبه، كلما حدَّق فيه شَعَرع الأغا بعلامات الزمن تزحف على وجهه هو، وجهه الصقيل، والذي ما إن خَصوه حتى لم يعد يكبر، تفريغه من الرغبات أخرجه من دائرة الزمن، تَضَخَّمَ جسدُه وبقي وجهه كطفلٍ مشحون بذاكرةٍ طفولية، كل ما دخل تلك الرأس لم يَمَّحِ ولم يتعكَّر، رأسه بقعة من الطفولة، لكن وجهَ ذلك الرجل المستند إلى أسطوانة التوبة ينعكس على صفحة وجهه، كل الوجه تحوَّل إلى تقطيبة، أشاح الأغا بوجهه، وتَحَرَّك صوب ذلك الشيخ الذي يقرأ القرآن مُطَوِّحَاً برأسه، ترك لتلك التطويحة أن تمسح التقطيبة عن وجهه.

تَعَثَّرَ ناصر بتلك المواضِع المهترئة من ورق الرِّقِّ، والمواضع التي طُمِسَ حبرها كعراقيل، وكان بوسع ناصر ـ قارئاً في حلم أم يقظة ـ أن يدرك تَبَدُّل الإيقاع الناجم عن العبارات الـمُقْتَطَعة، وكان على ناصر أن يقفز بين الأسطر بخِفَّة غزالٍ لا تسمح لها بالتلاشي تحت بصره ككثبان الرمل التي لم تكفَّ تُبَدِّل مَوَاقِعَها على ذاك الرِّقِّ:

لاحت أمامنا قمم جبل البطحاء، أشبه برؤوس غيلان في عتم الفجر، هناك تَرَكَنا الدليلُ عايف الغطفاني وتوغَّلَ بحثاً عن آثار جيوش غطفان المُتَوَقَّعِ هبوبها لنجدتنا نحن أحلافها يهود خيبر، وكان عُيينة بن حصن شيخ غطفان يستقطعنا نصف تمر خيبر مقابل حمايته لنا.

في ظِلِّ صخرةٍ حفرتُ في كومِ رملٍ لتوسيد جسدي، عسى أن أُسَكِّت الوجعَ الذي يمزق عظامي من الركوب الطويل، لكن جفني لم يغمض، بأمل أن يرجع الدليل بخبرٍ يُبَرِّرُ عودتَنا من حيث جئنا.

ورجع الدليل ليؤكد كل مخاوفنا، حدَّثنا عايف الغطفاني بأنه لم يعثر على أي أثر لنجدةٍ قادمة من جند غطفان، وأن على خيبر أن تصمد وحدها، فلا أحد ممن قابلهم على الطريق يَتَوَقَّع استمرار مقاومتها أمام ضراوة المثتي محاربٍ من المسلمين الذين يحاربون طلباً للشهادة، وسجَّلوا انتصاراتهم في بدر والخندق والهدنة التي وَقَّعوها مع قريش في الحديبية.

من جبل البطحاء اتجهنا شرقاً، تلك الالتفافة صوب الشرق كانت مثل خاتمة لتاريخٍ كاملٍ من الوجود، مثل موتٍ لبعثٍ جديد، وكان علينا بعدها أن ندخل في السر، وفي النسيان، إذ يجب ألا نترك وراءنا من أثرٍ يدل على انتمائنا لخيبر أو ليهودها، وكنا نَتَخَفّى في ثيابِ بدوِ قبيلةِ غطفان التي زوَّدَنا بها الدليل، والذي كنت أشعر بعينه تلاحقني بحَذَرٍ، أنا التي لم أعتد من الرجال غير نظرات الرغبة، وعزوتُ ذلك إلى الهيئة الزَّريَّة التي كنتُ أُسافر بها. وكان علينا السير ليلاً والرقود لسويعاتٍ معدودة وقت اشتداد الحر في الظهيرة. وخلفنا امتدّ اليقين من سقوط خيبر تحت الحصار، ولن تلبث فلول اليهود أن تُغرق هذه الصحاري حين يتم طردهم من نواحي المدينة وخيبر، يتسللون للتماهي في القبائل، وكان عليَّ تفادي حتى تلك الفلول، لكي أمنحكَ البداية في وجودٍ جديد وديانة ستسود أرض كنعان وتفيض خارجها.

أمضيتُ الليالي الأولى لفراري أدافع صور طفولتي التي أبتعدُ عنها حثيثاً، والفتاة التي حُمِلَتْ في هودج من الذهب الخالص لتُزَفَّ للفارس المُرَشَّح لتلقيح أجمل بنات خيبر وتحسين نسل يهودها، كنت أنا البنت التي ظفرت بذاك الشرف حين لَمَحَني

وأنا أسابق الرجال في تسلق النخل وقرأ في نهدة صدري ما يجمع بين الحيوان والغول والطير وبأنفي المتجه للينابيع السود الباطينة، ولقد أسرتْه قرقرةُ ينابيع الغابة السفلى التي تختزنها ضحكتي بالحبق والريحان.

على إيقاع خطو الناقة بوسعي استرجاع كل الوجوه واللحى التي خرجتْ لتحية موكب عرسي، وإغراقه بالورد المدني، لم يبق حصن إلا واستبشر بخروجي، كلما قطعتُ خطوةً تعاظم موكبي الذي يبدأ بناقة أبي كعب بن الأشرف، وينتهي بهودج خادمتي الغطفانية، مررنا بحصون وسهول بني قريظة وبني قينقاع وبني واقف الذين باركوا تزويجي من الفارس الروحي لخيبر، طوال الطريق كانت تُخامرني شكوكٌ بشأن هذا الانتقال الذي تَمَّ في حياتي وأحلامي فجأة، حيث اقتلعوني من سهولنا لإرسالي إلى خيبر، ريف الحجاز تلك البالغة النفوذ، والتي أكَّدتْ مربيتي أنني سأُعامل فيها لا كسيّدة حصن فقط وإنما كرسولة. وكنتُ أتخيل ذلك بفزع ابنة الخامسة عشرة، ولقد انتثر خوفي حين بَاغَتَنا ظهورُ ذلك الفارس الذي شَقَّ صفوفَ الموكبِ بثوبه القصير ولحيته الطويلة، مُتجهاً لهودجي، ولم يحرِّكْ رجالُنا ساكناً لإيقافه، ولقد اقتلعَني من هودجي بذراعيه القويتين، وحملني أمامه على جواده، وقطع بي الطريق إلى خيبر في لمح البصر، ولم يكفَّ خلالها قلبي عن الدوي، حتى أسجاني في فراشه، وبيننا أستار قطنٍ أبيض، وسحق الورد على عنقي، وكان ينهل من آباري عَبْرَ القطن والورد. وكانت لأنفاسه رائحة دهن وحطب، ولقد استيقظتْ في جسدي دوَّاماتٌ لاحتوائه، وكنت أنقبض وأنبسط بنفس العنف حتى وَصَلَ مني لليلِ،

وتَنَسَّلَ حَاجِزُ القطن بيننا، ولم أتأكد إلا في صباح اليوم التالي من هويته، وبكونه زوجي، الذي سعى لتخصيبي بك، لكني - وحتى لحظة ولادتك - لا زلت غير واثقة ما إذا كنتَ من صلبه أم من صلب الرمل الذي سيلتقيني على الطريق.

وكان هو من أرسلني لهذه الطريق، وكان عليَّ أن أُطيع وأرحل مع الغطفاني الذي خَدَمَ في معابد الفرس والروم وحمل من أسرار بترا ووداي الملوك ومعابدها ومقابرها الباحثة عن أبدية، وختم حياته كناسك في الرمل.

***

هنا قَطَع الخادمُ من الأغوات على ناصر القراءةَ،

«الساعة العاشرة نُغلق المسجد...» تأمَّلَ في جسد الخصي الضخم بحزامه الأخضر، والوجه الأنثوي، والصوت الرفيع ولم يفهم، اضطرَّه للإعادة:

«تَوَكَّلْ لحال سبيلكَ، الآن تُغْلَقُ أبوابُ المسجد...» طوى ناصر الرِّقَاقَ للحجاب وبعناءٍ قام، لَمَح الأغا الحسرةَ على وجه ناصر، فأشفق عليه وأضاف:

«بدءاً من الغد سيكسرون تقليدَ الإغلاق الذي دام لأربعة عَشَر قرن من الزمان، وسيتركون أبواب المسجد مفتوحة طوال الليل، خِلافَاً للعادة.» بَحَثَ في عين ناصر عن رَدَّةِ فِعْلٍ، أكملَ:

«المسجد هو بالنهاية بيتٌ للرسول، ونحن نسل الأغوات ضَحَّينا بأجسادنا لضمان هدأة هذا المقام الشريف، ولكي نترك للموتى عليهم السلام أن يناموا بسلام، حتى يرتفع أذان الفجر فتُشْرَع الأبواب للمصلين طوال النهار لما بعد صلاة العشاء.»

تَأَمَّلَ الأغا في السور الحديدي والحواجز المتكاثرة بينه وبين قبر المصطفى، تَذَكَّرَ أن جَدَّه الأول ـ على زمن الأتراك ـ كان يُسارع مع أذان الفجر، وبرهبةٍ يفتح البابَ المؤدي للقبر، على طرف الحجرة يترك ـ لوضوء المصطفى وصاحبيه ـ إبريقاً عامراً بالماء وطستاً مُلَمَّعَاً بالطِّيبِ وآياتِ سورة السَّجْدَة! تَنَهَّدَ الأغا الشاب مُسَلِّماً وتبعه ناصر مُسَلِّماً ومُصلِّياً على الراقد وصاحبيه، مستشعراً للمصطفى الذي رُدُّتْ عليه الروح ليُجيبه، كما يفعل كلما صَلَّى وسَلَّم عليه ذَاكِرٌ بأقصى الأرض، مليون ألف ألف ألف ألف رَدَّةِ روحٍ تجري في هذا القبر كل ثانية.. بما لا يدع لعين المصطفى أن تغمض بموتٍ في هذا القبر! أخفى الأغا تلك الرجفة عميقاً في تلافيف جُبَّتِه والحزام العريض، بحيث لا تَتَفَسَّر بما يأثم به في حَقِّ الحبيب المنذور لخدمة روضته الممتدة بين قبره ببيت عائشة ومنبره.

بحنينٍ تأمَّل الخصي في راحتيه، بَسَطَهما أمام عيني ناصر، مُصْفرَّتان بالطِّيب،

«تنضحان بعَرَقِ مِسْكٍ لا ينضب، كلما مسحتُ القبرَ مسحةً تَنَدَّتْ يداي، وخَفَّتْ أثقالي، كنتُ طفلاً عام 1971 حين تسلَّلتُ وراء أبي في الفجر تُطقطق أسناني بالبرد، متماهياً بالأستار أرقبُ العاملين بجوف الليل لتجديد كسوة الحُجْرَة الشريفة. ما حييتُ سيرتبط الفجرُ لديّ بطبقاتٍ من الحرير الأخضر الخالص المُبَطَّن بالقطن الثقيل، ومُتَوَّجَة بذلك الحزام الأحمر القاني، المخطوط بتطريزٍ ظاهرٍ بخيوط القطن وأسلاك الذَّهَب والفضة، آياتٌ قرآنية تشغل ربعَ مساحته. بمُجَرَّدِ النظر إليها تسمعُ آيات سورة الفتح تُتلى في الضوء الخافت للحُجْرَة الشريفة، وتلك المنسوجات الصفراء المُزَيَّنَة برمز وإشاراتٍ تدلُّ على مَوَاقِع القبور الثلاثة، كانت المرة الأولى التي أتسلَّلُ لصيقاً لباب الحجرة، ولروائح الأذكار. تَسَلَّلتُ لليالٍ مُتَعَاقِبة مع المختارين للتجديد، والذين يبدأون العَمَلَ سِرّاً مُدَّةَ الليل.»

سأل ناصر:

«يتمُّ استبدالها في السادس من شهر ذي الحجة كل عام؟» لكن الأغا الشاب كان غارقاً في ذكرياته، لم يُجبه، تَابَعَ كمن لا يسمع ولا يرى إلا ما رآه حينها:

«كان عمر الكسوة التي تناولوها خمسة وسبعين عاماً كما يدل التاريخ المنسوج عليها، لم تُستبدل طوالَ ثلاثة أرباع قرنٍ. ذلك الفجر ارتعدتُ حين نظرتُ إلى القبر الرابع الخالي. أكَّدَ أبي لاحقاً أنه سيُدفن فيه النبي عيسى عليه السلام حين هبوطه للأرض! وَقَفَ أبي رئيسُ الأغوات خاشعاً تحت الكوكب الدُّرِّي، والذي ظهر في الجدار القِبْلِي من الحُجْرَة، تجاه الرأس الشريفة، قام باستبدال مسمار الفِضَّة بقطعةٍ من الألماس بحجم بيضة الحمام، وتحته قطعة أخرى أكبر منها، كانت القطعتان مشدودتين بالذهب والفضة. أذكرُ ـ أكان ذلك في صحوةٍ أو في حلم ـ أن مُهندساً شاباً تقدَّمَ لذلك الحزام الذي كان يلفُّ المَقَامَ، طَوَى ذلك الرجل النحيل الحزامَ الأحمر العتيق المُثْقَل بالتطريزات والأطياب، ألقاه على كتفه وخرج به من الحجرة الشريفة، وتَرَكَه بأرض الروضة هناك، على بعد خطوات منِّي. وراقبتُ الرجالَ الذين اجتمعوا عليه لحمله إلى الشاحنة فما أطاقوا زحزحته لثقله. . .» زَفَرَ الأغا وألقى بنظرةٍ على وجه ناصر ثم أكمل:

«داخل الحجرة الواقفة على ترعة من ترع الجَنَّة زمنٌ غير الأزمنة، وجود للأجساد وطاقتها غير الطاقات، من يلج إلى الحجرة على تلك الترعة والحوض يتخفَّف من عجزه، ومن الصفات المُسْقَطَةِ على صفتِه الأصل، ويتحوَّل إلى مادةٍ من جنس الطِّيبِ الذي ترقد به الصلوات والتسليمات على ذلك القبر الشريف القريب الحبيب. يُرَقِّدُ أجدادي الأغوات على وسائدِ مواليدهم قِطَعَاً من تلك الكسوة، التي تنزُّ بطِيبِ الصلوات، تصل أرواحنا بروحٍ باطنيةٍ لا تموت.» تَحَرَّكَ الأغا خارجاً وتبعه ناصر مُغَلَّفاً بالصمت. يُفَكِّرُ في عرس سارة اليهودية، التي تُضاجع الزوج بستر، ولا تؤاكله ولا تتقدم عليه، محجوبة عن الأغراب، صائمة

إلا عن طعام قومها. وطفا برأسه شريطٌ طويل من المظهر النمطي للمتشددين في تاريخ الديانات: (أولئك الذين يَصِمون كل ما سِوَى معتقداتهم بالهرطقة، ويكرِّرون أنهم شعبُ الله المختار، ويعبدون الذهب وتكديس الأموال ويحترفون التجارة ويبرعون ويهيمنون على الأرزاق، بانتظار اليوم الذي يسبون فيه الشعوب ويُسَخِّرونها لخدمتهم.).

فَكَّرَ ناصرُ في الأربعة عشر قرناً التي تفصله عن ذاك الزمن. انفتحت أمامه الساحة خارج الحرم النبوي، تلكأ لعَلَّ يوسف يلحقه أو مُشَبَّب، لا يعرف كم من الوقت مضى عليه في تلك الساحات الممتدة أمام المسجد.. أحسَّ بالجوع، أمامه كانت تلك المرأة السوداء تبيع اللبنَ مُفترشة الأرضَ على طرف ساحة المسجد، تصبُّ من قَصْعَةٍ كبيرة في طاسات من الفَخَّار، كانت ترقبه، تَقَدَّمَ منها توقَّف أمامها فسارعت بملء تلك الطاسة، ودفعتْها إليه،

«بالعافية.. آخر رزق النهار، بَرَكَة المصطفى، اشربْ وبَارِكْ وسَلم عليه.»

«اللهم صلِّ وسَلِّمْ وبَارِكْ على نبينا محمد..» وأضافت: «وآله وصحبه..» شَكَرَها ناصرُ دافعاً في يدها ورقةَ المئة ريال. ارتعشتْ يدها المُطْبِقَة على الورقة. تجرّع الطاسة دُفعةً واحدة، نكهةٌ غنيَّةٌ بمذاقِ نباتِ العطرة الفاتر ملأ حواسه بنشوةٍ، حين رفع ناصر بَصَرَه وَقَعَ على ذلك الظهر المضفور، انتابته خِفَّةٌ يُوحي بها ذلك الثوب القصير، والسديري الأبيض، والمصنَّف اللاس المُضْفَرُ المُلقَى على الكتف، والحزام العريض. خيِّل لناصر أنه ينظر إلى رَجُلٍ يمشي في نومه في كتابٍ، خالياً من الهموم متجهاً للسوق، وبلا تَرَدُّدٍ تَبِعَه، تَوَغَّلَ الرَّجُلُ في سقيفةِ السوق وناصر في إثره، وحولهما كانت المحلات تُودِّعُ آخرَ زبائنها لتُغلق، والبسطات تُرخي أشرعتها على صفوف عقود السُّبَحِ والسجاجيد والملابس المستوردة. لم يكن الرجل في عجلة، ولا ناصر، لأن أية حركةٍ كفيلة

بإخراج الرجل من نومه، عن بُعْدٍ بَدَا أنهما يتمشَّيان بخيطٍ رفيعٍ يمتدُّ بينهما، يمشيان في وجودٍ مُعَادِلٍ للوجوه حولهما، عَبَرَا الرَّجُلَ الباكستاني بلحيته الجرباء، والجالس إلى تلك البسطة، يبيع المسابح والكوافي المطبوقة في كراتين ورقية، كل ثلاث كوافٍ محزومة بحبل مطاط للكرتون، وصفوف مساويك الأراك، وتلك الإفريقية، واقفة مستندة بظهرها إلى الجدار المُتَقَشِّر بالرطوبة. وأمامها عربة البيع الخشبية الضخمة، مصفوفة عليها أكياس النايلون، صفوف من الشطة الحمراء المسحوقة، وصفوف من أكياس الكركديه القاني، وصفوف أكواز (الحَبْحَبوه) المكتنزة بالبلورات الجيرية التي تذوب بحموضتها في الفم. لم تُعِرْه الإفريقيةُ نظرةً، كانت تغفو في وقفتها، ولم تكن بانتظارِ زبون، وإنما فقط تنتظر أن تمضي تلك اللحظة وتتبعها تلك الليلة وتكون قد صَمَدَتْ ليومٍ آخر، بدا مشوار الرجل الذي يتبعه يتجه لأعماقٍ من النوم بلا آخر، حين انعطف فجأة للزقاق المُجَاوِر لبائع قَصَبِ السُّكَّر، ما إن تبعه ناصر والجأ الزقاق حتى انقضَّ عليه ذاك الجسد كحَجَرٍ، سَقَطَ ناصر تحت ثقل مهاجمه، ولم تُجْدِهِ المقاومة، حين فَتَحَ عينيه كان في دهليزٍ، وأمامه الوجه الأسمر النحيل ليوسف يتأمله، بلا مقدمات تأكد أنه يواجه يوسف لا غير، وأتاه الصوتُ:

«لقد استوليتَ أيها المُحَقِّق على حجابٍ يخصُّني. . .» لحظتها قَرَّرَ ناصر ألا يسمح لأحدٍ مهما كان سَلْبَه الخاتمة وأحلامه بالتاج والسلطان. من عتم الدهليز البارد شَعَرَ ناصر بالعين ترقبه وتقرأ أفكاره، من دون أن يلتفت صار ناصر واعياً بهويَّةِ الرَّجُل الذي قاده إلى هنا، رائحة المصطكا الفاترة عزَّزتْ ظنه بكونه مُشَبَّب، أخرجَه ذلك الاسم من الغمامة التي سبح فيها لذلك الدهليز. بفزعٍ تحسَّس ناصر بين ثيابه فما عَثَرَ للحجاب من أثرٍ، هَوَى قلبه بذاك الحِسِّ بالخسارة، فجأة ألقى يوسفُ بالحجاب أمامه:

«لا تبحث بعيداً. .» بلهفةٍ تَنَاوَلَه.

«أين وصلتَ في القراءة؟» استفسرَ يوسفُ ساخراً، رافعاً الأوراق ليقرأ بصوتٍ عال.

«من السهل تَعَقُّبُكَ. . كنتُ جارَكَ بالمسجد، استغراقُكَ وهيئتُكَ كفيلة بلفت كلّ الأنظار إليكَ.»

مُوَصّلات

تَقَدَّم رافع يتبعها ووصيفتها في ذلك المطعم الصغير (كازا جاديس)، كل طابق من طوابقه الثلاثة لا يزيد عن حجرة، ومكتظة بالطاولات الصغيرة ودخان سجائر وحوارات، عن يمينٍ ويسار لاحقتْه التحيات، بينما قادها ومباشرةً إلى القبو، قبل أن يغادرا السيارة كان قد أخبرها،

«مدام ميرانو هي صاحبة فكرة هذا المطعم الرائع، تُديره لمجموعة أصدقاءِ الفن، ولها كلمة مسموعة في عالم الفن الشاب، تُنَظِّم هنا معارض للتجارب المميّزة للفنانين الناشئين، والمُتَوَقَّع تأثيرهم في الحركة الفنية الحديثة في عالمنا اليوم. . .» في الأيام الأخيرة تجرأ رافع على اقتراح مواقع تقصدها للتعرُّف على وجه مدريد الحقيقي ومنها هذا المطعم. القبو لا يزيد عن مساحة صغيرة بمحاريب على كل حائط، تفتح على مكتب صغير تُعرض فيه مجموعة متنوِّعة تُمَثِّل الحركةَ التشكيلية الناهضة، لوحات تجريدية ومنحوتات من الحجر والبرونز. . . شعرت نورة أن لا مكان لها هنا، رغم انتمائها لذاك الشتات التركيبي، هناك تَفَاهُم ضمنيّ بينها وبين ذاك التنافر (الذي يشبه المشي داخل رأسِ مُبْدِعٍ تتناوشه كهرباء الرؤى).

تقدَّمت مدام ميرانو صاحبة المطعم التسعينية النحيلة المُفْعَمَة بالحيوية بشعرها البلاتيني القصير، وقادتهم للطابق الثالث الأقل ضجيجاً. في صعودهم للسلالم الخشبية لَفَتَتْ نظرَ نورة للجدران المُزَيَّنة باللوحات الغريبة،

«ينظر الفنانون الجُدد إلى هذا المكان كمُلْتَقى للاتجاهات الجديدة، من الحيوي لأيِّ فنانٍ ناشىء التَّوَاجُد في المكان أو البؤرة المثيرة للجَدَل...» وبفخرٍ لَفَتَتْ أنظارَهم للصُّوَرِ الفوتوغرافية للشخصيات الدولية التي سبق أن تناولت وجبةً في وكرِ الفن ذاك: «هذه صورة خوان ميرو.. وبيكاسو، وراقص البالية الروسي...» الحجرة العلوية تنفتح كشُرفَةٍ بحاجز خشبي على الأسفل، اختارت لجلوسها ووصيفتها الطاولةَ الأخيرة، بينما تَوَجَّه رافع ليجلس في الركن، كانوا بحكم الجالسين على شرفة تُطِلُّ بنافذةٍ على الطريق من جهةٍ وبحاجزٍ خشبي على رواد المطعم من جهةٍ أُخرى، حين توقَّفت صاحبةُ المطعم بطاولة رافع هَمَسَ لها،

«مدام ميرانو، هذه هي السيدة التي أريتُكِ تخطيطاتها.» من موقعها أشارت السيدةُ للوحةٍ (تُمَثِّلُ تخطيطاً لجسدِ امرأةٍ لبيكاسو) مُوَجِّهَةً خِطَابَها لنورة: «رسومك تحمل تأثراً ببيكاسو..»

كادت نورة تنفجر ضاحكة، ما سيكون رد فعل هذه الراعية للفن لو سمعت أن هناك في القرن العشرين من لم يسمع ببيكاسو؟ مضت المرأة غير واعية بنظرة نورة الساخرة من ذاتها، «خطوطكِ تنقل شحنةً جياشة، أنتِ تتواصلين والعالم بتلك الخطوط.» شعرت نورة بحرجٍ تحت الأنظار التي انصبَّت عليها، وقالت: «أنتِ لم تَري إلا بضعة تخطيطات..»

«ربما، لكنها مثيرة للاهتمام، أقول ذلك ببعض الثقة حيث وُلِدتُ وقضيتُ ما يقارب القرن من الزمان الآن في معارض الفن ومحترفات الفنانين، هذا ليس رأيي أنا فقط..» اقتربت من نورة مُتكئة على طاولتها،

«لقد عرضتُ التخطيطات التي أعطاني إياها رافا على ناقدة صديقة في مؤسسة خوان ميرو، ولقد استوقفتْها، أنتِ في الرابعة والعشرين أو السادسة والعشرين؟ بوسعكِ تحقيق الكثير من حيث أنتِ... هل درستِ الفن؟» اضطربت نورة. دَاخِلَها سادَ صمتٌ. صارفاً الانتباه عنها دخل رافع في حوارٍ مع مدام ميرانو بالأسبانية. عندما أقبلَ النادلُ بالسلاطة الإيطالية

عَاوَدَ نورة مَرَحُها. من بعيد بدا أربعتهم كجماعةٍ واحدة تسهر، هتفت مدام ميرانو: «شهية طيبة.»

استسلمتْ نورة لعبق الحبق ولإيقاعِ الأعمال الفنية على الجدران وحوارات رواد المطعم بملامحهم المُتَطَرِّفَة في الخصوصية، وروائح الزعتر وزيت الزيتون الخام والخبز الطالع من فُرن الحطب والمأكولات البحرية. حين رُفعت أطباق العشاء وسرت أكواب القهوة والبابونج الذي طلبته نورة، أخرجتْ من حقيبتها ملف أوراقها، أخرجت مدام ميرانو نظارتيها وتأملت في الرسوم باهتمامٍ، تُعَلِّق ويُترجم رافع:

«خطوطُكِ ناضجة، كمن أمضى عمراً يتصارع بتلك الضربات الشرهة التي تحفر مساحة الورق. انظرْ يا رافا إلى هذا العنف، إلى الحفر هنا والحَكّ هناك، وحِدَّة الارتداد، وفجائية الحركة.. هذا شرهٌ، نَهَمٌ، رغباتٌ، تخلع حُجُبَها هناك وهنا.. الجذع البشري هنا ينبسط سماء راعدة متفجرة كما في فعل الحب...» شعر رافع بالحرج من ترجمة هذه العبارة الأخيرة لنورة. استقرَّتْ المرأة بدهشتها لوجهها. فجأة وأمامها على طرف الدرب الضيقة ظهرت الغجرية عازفة الكمان، وكانت تغطّي حمرةَ ثوبها بذاك الشال الأسود، وتعزف وترتعش عُقَدُ شالها مع قوس الكمان..

«آهه، ينجرف ليل مدريد مع الجَزْرِ والمَدِّ في الحركة الثانية لكونشيرتو الكمان لباخ.. الموسيقى كاللغة العربية شعرية لكنها محكمة القوانين، بُنية التناغم مثل الأوزان في العربية، كالأفعال الثلاثية التي تشكل جذور اللغة.. أتعرفين أن النغمات المتآلفة تتكون من ثلاث لأربع نغمات، يمكن التنويع في تركيباتها لتكوين ما لانهاية له من الجمل كالأحرف في اللغة العربية. السر الغامض في تركيبات باخ مثل ألف لام هاء، يعتقد باخ بأن في هذ المنظومة يكمن الدليل على وجود الله..»

سيناترا، بيكاسو، باخ...أسماء تنزلق وتستميت لتَتَشَبَّث وما من نتوءات تتمسَّك بها في صهريج وعيها الفارغ.

«لقد كتب باخ 48 مقدمة ولاحقة موسيقية بكل المفاتيح المايجور والماينور، وفقط ليبثت وجود تلك المفاتيح. . لقد كتب الكثير ولكل شيء وهو كمتصوِّفٍ حقيقي آمن بأن الأرقام مهمة. تنويعات جولدبيرج The Goldberg Variations كُتِبَتْ لأمير مصاب بالأرق، ولقد أراد من باخ أن يؤلف له مقطوعة يسمعها حين يتأرق ومهما سمعها وكَرَّرَها لا يُصاب بالملل. . » أدركت نورة لحظتها أن أرقَها لا ينبع من ذاكرة مثقلة وإنما مفرغة، لا من الذكريات وإنما من فراغ الذكريات، من تَصَحُّر النقطة التي جاءت منها، في فَقْدِ المكان لذاكرته ضمن مَعَارِف الكون الحَيَّة والمُمَحَّصَة بالجَدَلِ والنقض وإعادة التركيب. الفنون والعلوم والعمران العريق والموسيقى (في الحضارة المحفوظة بوجهها العريق الصقيل) التي ترتطم بالناس هنا في سيرهم بمدينةٍ كمدريد. تشعر نورة بالضياع وسط كل تلك الأسماء وإنجازاتها المجهولة لها.

قاطعتها ضحكة مدام ميرانو:

«لا عجب أن كونشيرتو باخ رقم 2 على الإف ميجور F major، قد اختير ليُسَجَّل على أسطوانة الفونوغراف الذهبية التي تحوي تسجيلات لنماذج لأصوات الأرض ولغاتها وموسيقاها لتُرْسَل للفضاء الخارجي مع مسبار الفواياجر. » خطر لنورة فكرة أن تُرسل هذه الأسطوانة إلى مسقط رأسها، هل سيُمَيِّز الناس هناك تلك الأصوات بصفتها أصواتاً أرضية؟

«هذه سوناتا بيتهوفن رقم خمسة الربيع على ال F major. الفرق بينه وبين باخ أن بيتهوفن خَرَجَ على القوانين، مع أن باخ هو من أهم المبدعين ضمن القوانين المتعارف عليها للتأليف الموسيقي في عصره.» أدركت نورة المشوار الطويل الذي عليها أن تسلكه لموسوعة الإنجاز البشري، والتي تُقبل عليها في هذا العمر المتأخر نسبياً، لتخطف منها طوبةً هنا وطوبة هناك لتعمير صهريج وعيها السحيق.

لحظتها أدركت نورة أن عازفة الكمان الغجرية عمياء، حين سقطت

منها عملة نقدية وتحسست بيديها لتعثر عليها. حزنٌ أعمى نورة.

«هل تفكِّرين في إمكانية الإعداد لمعرض؟ ليس بالضرورة هنا، ربما في بلدكِ..؟» بحركةٍ قلقة تحسَّستْ نورة بأطراف أصابعها حواف شالها متأملة في عُقد شال الغجرية، بينما أكملت مدام ميرانو التسعينية:

«أنا أيضاً جئتُ من خلفية غجرية، وترحال، وتَعلَّمتُ أن الفنون بأنواعها يمكن أن تُؤَمِّن لنا الأرض، الفن مثل كوكب يمنحنا مَوَاطَنَته ويوثقنا بأوراق خارج الدول.» شعرت نورة بنفسها عارية، إذ بقدر ما تأملت تلك المرأة في لوحاتها بقدر ما كشفت من حياتها الباطنية التي لا تجرؤ هي نفسها على مواجهتها:

«لكنني لا أملكُ المعرفة لإنتاجِ ما يوازي هذا الفن...» فاجأتها تلك الكلمة التي نطقتْها، «الفن لم يأتني عن دراسة..رسمتُ هذا...» متحسسة لخطوطها، «الحاجةِ لدفع الجدران بعيداً... لإفساحِ المكان... ولموازنة المكان..»

«ربما عبارتُكِ هذه هي أجمل ما سمعتُ عن ماهية الفن: فتح المكان على ما لاحد له من الأمكنة في الوعي الكُلِّي الخلاّق! وربما هذه الحاجة، هي نفس دوافع الشعوب البدائية والأطفال لخلق فنون تركتْ ولا تزال بصمتها على المُنْجَز البشري. بيكاسو بعد ما حقَّقه من شهرة قال: أتمنى لو أرجع لأرسم كطفل.. لا بدّ أن تقتحمي للعرض، تضعي دخيلتكِ للمتلقي يجول فيها، ويُمَحِّص لكِ أسرارها...»

«أُقَدِّرُ العرضَ الذي تطرحينه.. وسأُفكِّر فيه..» نفخت نورة الكلمتين في ركن الشال، وبحركةٍ لاواعية، عَقَدَتْ الركنَ على الوعد في عُقْدَةٍ بحجم عينِ حمامةٍ، سأل رافع بحنو:

«من أين تَعَلَّمتِ سحرَ الغجر هذا؟» تَضَوَّعَ وجهُ نورة. بَدَتْ ملامح الشخوص الثلاثة حولها طالعة من لوحة الطين والفَخَّار وراءها، مُنَوَّرَة بسحر تلك الأضواء الخافتة تجري على أوتار الكمان مختلطة بحنين أوتار

العود، التي يجرفها الليل لأغوار النفس، ومن هناك طَلَعَتْ بُحَّةُ صوتِ مُرَبِّيتها بشيلتها المعقودة الأطراف، كحلمات أرنبة، هَمْسٌ يأتي من رأس تلك المرأة وذلك الحارس الساكن في الضوء:

«عَلَّمتني مُرَبِّيتي كيف أتمنَّى وأعقدُ أمنيتي في عُقدَةٍ بطرف شيلتها، نَتَمَنَّى الأمنيات الكبيرة ونربط على كلِّ أمنيةٍ عُقْدَةً، لا نفتح العقدة حتى تتحقَّق الأمنية، فتعبر زغاريدها الأسطح. كلما كَبُرَت الأمنيةُ تَوَسَّعَ النذر وطال الآخرين.»

«لا تتركي الشيلة خاوية..» حتى تكاثرت العُقَدُ على شيلة مُرَبِّيتها، كلُّ عُقْدَةٍ فَرْحَة، بانتظارها على الطريق: تَخَرُّجها من الابتدائية، بلوغها، حفظها لسُورة المُلْكِ التي تُبعد عن نومها مِرْزَبَّات القبر، إتقانها الخياطة.

«كشالِ هذه الغجرية المعقود مئة عقدة، أتظن بمئة أُمنيةٍ وحلم؟»

«أحياناً: حلمٌ واحد يكفي.» باغَتَتْها تلك الفكرة التي نَطَقَ بها رافع، «حلم واحد؟!!» وبعد تفكيرٍ، أضافتْ، «ربما، ويفيض..» لتضيف مدام ميرانو التي قامت مستأذنة:

«السؤال: كم مساحة الفسحة التي نُوَلِّدها لِتَجَوّل المُتَلَقِّي داخل الحلم الذي نَتَفَرَّغ له ونُكَرِّس له حياتنا.»

هَبَّةُ الموسيقى هَيَّجَتْ سِربَ حَمَامٍ ليندفع بطول الزقاق، ويغيب في زقاق بعيدٍ يرقدُ بقاع ذاكرتها، ليرجع كموجٍ في ليلٍ يُنَظِّمُ إيقاعَ جسدها،

«أنا جئتُ من زقاق كهذا، وجِدَارَين...» بقي مُنصتاً، وغَابَتْ نورة:

غاب ذهنها في تلك الليلة التي صَحَتْ فيها على شهيقٍ عظيم، يَدقُّ ويسحقُ تحت نافذتها، للحظةٍ خُيِّلَ إليها أن هناك من يقتحم النافذة المُسَمَّرَة، ثم بدأ وعيها بتمييز تلك الأصوات، غريزةٌ عميقةٌ دفعتْها للتلصص من شقوق النافذة، لتُفاجأ برأس ذاك الرجل أسفل نافذتها، مُغمض العينين غائباً يضرب برأسه الجدار ويُطَوِّحه، انحفر أنفُها في فرجة النافذة حتى مَيَّزَت السوادَ بين ساقيه، كان رأسٌ في عباءةٍ، ويلتصق بلا

شفقةٍ ويلتهم، حين انحسرت اختلاجات الصَّرَع انشقَّ الرأسُ، وبانت في السواد امرأة بشفتين غارقتين، ليميل عليهما المصروع بقبلة خاطفة، وصوت أجش يهمس: «يا ملعونة...»

انشقَّت عينا المرأة بانتظار ردِّ فِعْلٍ مُعَادِلٍ في الصرع، حين بدأ الرجل يَتَحَرَّك بحذرٍ متأهباً لمُغَادَرةِ سِرِّيةِ الزقاق، رجعت عينا نورة من ذاك الوجه إلى وجه رافع.. قالت بعذوبة:

«ليل زقاقنا مسرح لا يتعب، خيال ظِلٍّ عجيب، أرقد في فراشي ليلاً وأنصتُ، أسمع ولا أرى الممثلين قط، أقدام تندلع تركض، وباقات أصوات، تقطع الزقاق من أوله لآخره في مسرحيات غاضبة أو خليعة يشجعها الشعور بسرّية العرض في ضيق ذلك الزقاق، يؤدون أدوارهم مطمئنين لسِريته بنشوةٍ واستعراضٍ. وأصوات رجالٍ تتصارع أو تتحاور بألسنةٍ ثقيلة بالسَكَر أو حادَّة بالغضب، بهمهماتٍ ولهاثٍ، تصفيق نساءٍ من نوافذ علوية لأخرى سُفلية. وفي الخلفية ضحكات قوية أو بكاء، وخطوات تلك المرأة السريعة مع الفجر ترجع بعد نوبة خدمة بالمستشفى. تصلني منها روائح عرق النهار والديتول ومواد التعقيم القوية. تُجرجر جسدَها المنهك لمستقبل مكرر بالعَرَق. لم أرها قط لكن بوسعي رسم صورة لها بقفازيها الأبيضين ترفعهما بوجه لامبالاة زقاقنا.. وبتصميم يرجع الزقاق يركض ولا يَتَوَقَّف إلا للنداء: من نساءٍ، من مآذن، من آباء، يختلط الداخل بالخارج في تركيبةٍ فريدةٍ هي خُبزنا كلّ يومٍ، ويقطع كلَّ ذلك تصفيقُ جمهور الخارج..» انتقلت نورة بنظرتها من الغجرية عَبْرَ الطريق إلى وجهِ مُرَافقتها ومنه إلى وجه حارسها رافع بخطوطه العميقة، القادمة هي أيضاً من خارطة حياةٍ عويصةٍ. وقاطعتهما مدام مورانو:

«أتحبّون الانضمام إلى حلقتنا لمناقشة فيلم المريض الإنجليزي؟» اعتذر رافع منضماً لنورة.

وفي طريقهما إلى الفندق سألته فجأة:

«أحقاً شاهدت المريض الإنجليزي؟» هز رأسه إيجاباً، ثم أضاف ساخراً: «وظننته جميلاً جداً، لكن لن أُطيق رؤيته مرة أخرى، لقد وجدتُ أنني قد عشتُ الكثيرَ من العنف في الحياة الحقيقية في حربنا الأهلية، وتلقيتُ الكثير من الصدمات، وعانيت الكثير من ضخات الأدرينالين. لدرجةِ أنني صرتُ أضطرب كثيراً كلما رأيت الآن فيلماً حزيناً أو قرأت قصيدة حزينة، أعتقد بأنني أتهلهل..»

«ربما لا تتهلهل.. وإنما تُقَدِّر قيمة الحياة بسلام..»

«أيضاً صرتُ لا أستسيغ الأسلوب الغربي في تأمل التجارب الواقعية من خلال السينما. أتعاطف مع ما قالته مدام مورانو: لقد قمنا بتطوير ازدواجية، واقع ثان. عالمنا الذهني هو انعكاس لما نراهِ من حولنا، حضارتنا هي الصَّدَفَة التي تُمَثِّلُ ذواتنا النفسية والروحية. وبدون ذلك نحن مجرد حيوانات، نسعى وراء الغذاء والجنس. نحن نطمح لوجود أرقى، لكن ليس بوسعنا إحرازه أو المحافظة عليه لاستحالة ذلك لمعظمنا. وبالنهاية فإن كل شيء ما هو إلا مجرد حلم...»

مثلث قراءة

في فراغ الدهليز اللانهائي امتدَّ بين الثلاثة دهرٌ من الرمل، طوال الوقت ظَلَّ مُشَبَّب في عتم الدهليز ساكناً، وفي مرحلةٍ جَفَّ ريقُ ناصر، وكانت عين مُشَبَّب ترفُّ، وكلما أثقلتْ ناصر شكوكُه وهَدَّدَ الكابوسُ بالسقوط من تلك الطبقة، سارع بنقل الوصية ليوسف، وهو يُنصتُ، أكملَ يوسفُ القراءةَ حيث تَعَثَّرَ ناصر:

كل شيء تبدَّلَ حين تَوَغَّلنا في قلب نجد، غادرنا الرقة التي للرمل المشبع بالنسائم الحجازية، مال مذاق الهواء للجفاف

وللقسوة ويحفر في ملامحنا، وأظن أنني فقدتُ الكثير من طراوتي. لا أعرف كم مضى علينا ونحن نصعد مترنّحين بنوقنا وراء دليلنا الغطفاني، مخترقين أضلاع الكثبان العظيمة المجتمعة من أذيال النفود، استغرقنا وقتاً لنعي الرجال الذين أحاطونا على ظهور نياقهم العملاقة بلا سروج. في وهج الشمس الحارقة كان من الصعب تمييز ما إذا كانوا رجالاً حقيقيين أم تكوينات للسراب أو للغول. كان الرجال ومطاياهم بلون الرمل لنهايات أطراف أهدابهم. كان من العسير الفرار منهم أو حتى إدراك حركتهم، كانوا يَهبّون هبوب العاصفة الرملية يجلدون ظهرك فجأة أو يعمون عينيك أو يتسللون لصدرك كخُنّاق. قاموا بتقييد أقدامنا إلى السروج، وساقونا في أذيالهم. في لحظةِ يأسٍ بدا لي الأفق صفيحة نحاس صاعدة للسماء، وتُدافعنا بشواظ نار مُذَوَّبة، حتى بلغنا قمة ذاك الحائط من نحاسٍ وانتصبت أمامنا تلك الريح فجأة تحثو علينا شيئاً أشبه بالحجارة الرملية، وصاح عايف الغطفاني مُحَذِّراً: «الجراد.»

وكان علينا أن نحمي أعيننا ووجوهنا من هجمة الجراد المعروف في البوادي يأكل الناسَ أحياء لفرط شراسته، وتواريتُ بجوف عباءتي التي رفعتُها على رأسي كخيمة، بينما استقبل العمالقةُ السرب الوحشي بلا مبالاة. لم يعتنوا بتغطية وجوههم، وكانوا يرقبون بسخرية استماتة الغطفاني في رد الجراد عن النوق التي هاجت، وفجأة لا أعرف من همز ناقتي فانطلقت، ولم يكن بوسعي التحكم في وجهتها، وكان عليَّ التشبث بسرجها، بينما دوي الجراد حولي وبجوف عباءتي،

ولم تقف الناقة إلا حين صارت غيمة الجراد وراءنا، وحين فتحتُ عيني كانت النوقُ تذبُّ آخرَ جرادةٍ عن جسدها، والعمالقة حولي ناقة لناقة، لكأنني لم أقطع بحر الجراد والرمل وإنما انحسر الرمل عني، وبدت عنق ناقتي منقورة في مواضع وما حول عينيها، أما الغطفاني فلقد ترك الجرادُ على بطن ناقته ما يشبه الوشم، «نجونا بمعجزة.»

أمامنا انبسطت واحةٌ من واحات وادي الرمة، وقد تحوَّلتْ إلى خراب، وبدت جذوع نخلها عارية وقد جرَّدها الجرادُ من تيجانها وأعذاقها، وعلى مشارف القرية استقبلتنا القبورُ المفتوحة، قبور جماعية لصغار وعجائز سقطوا ضحايا للجدري المنقول بالجراد.

من تلقائها نفرت النوق من ذاك الجحيم مُنطلقة في دائرةٍ جنوب شرق. وبدا العمالقة كمن يسوقوننا من ابتلاءٍ إلى وباء، بينما وطوال الوقت يتحرَّكون بنا في نصف دائرة، وكان الجدري يحاذينا، يطير في سرب الجراد، ويترك واحات من الموت قبل أن يتلاشى في عظمة النفود.

حثثنا السير تاركين وراءنا طيء وأسد، وساقتنا العمالقةُ كعاصفةٍ بين حنيفة وتميم طلباً للواحة غايتهم.

أطايب

كان الليل يهبط على قلب مدريد، والحركةُ تتباطأ حول متحف برادو المُقابل، أرهفَتْ نورة السمعَ كما تعودت في ليل زقاقها البعيد:

حين سمعتْ نازكُ التُّركيَّة تنبعث من شبكة الأزقة والفقر، في معطفها

الكحلي المُطَرَّز على الكُمَّين، تلفُّ رأسَها بوشاحٍ أبيض، ولا تُحَجِّب الوجهَ كنسوة الزقاق، تُسَرِّبُ على جبهتها خصلات نارية تخطف الأبصار وترتعش مع كلِّ كلمةٍ لمُرَافِقها الخَصِيّ، والذي يمشي على بعد خطوتين مُتَلَقِّطاً تعليماتها ككلبٍ مخلص. حين تعبرُ نازك صباحَ كلِّ جمعةٍ تبدأ بنات الزقاق بالتواري في الدهاليز، وتسترُ المراهقاتُ أصابعَهن عميقاً في أكمام العباءات،

«نازك تخطفُ البنات من إصبعٍ.» تلك الإشاعة جاءت من عينها الجاحظة والتي تُحَوِّم كصقرٍ على أيديِ البنات، تتفحَّصها، تختار الأنامل الأرق والأطول، وتُقَايض الأهلَ على تشغيل بناتهم، لتطريز حبكاتها على الثياب.

تلك الجمعة لم تَفِر، وَقَفَتْ البنتُ بين مراكن الريحان ترقب التركية كحمامة، وحين دَنَتْ نازك هَبَطَتْ لباب الطريق لِتَلَقُّطِ رائحتها من عطر ليالي باريس الذي يتحسَّر عليه الزقاق، وتُحَنِّطه نازك من إرث جَدِّها القديم، وتتعطَّر بقطرةٍ منه كل جمعة! لم تُمهلها نازك، بمخالب طويلة قبضتْ على يد البنت اليمنى، وراحت تتفحَّص أصابعها: «هذه أنامل، حلوى لاقوم تركي أصيل، لو أرسلتَها لي لدَرَّبتُها على الحبكات والقَصَّات والتفصيل والتلبيس والتدبيس... ولأطعمتْكَ من أصابعها الشَهد والعنبر.» نَفَذَتْ تلك العبارة بعنبرها إلى نخاع أبيها، الذي سارع صباح السبت بفَكِّ الحصار عن البنت أرسلها لمَشْغَل نازك.

مِنْ على الباب استلمتْ البنتَ روائحُ النساء، يُغالبها العَرَقُ، وعَبَقٌ لم تَتَوَصَّل إلى تحديده جَعَلَ الدم في صدغها يدوي، ولا تَمُتُّ لليالي باريس بِصِلَةٍ، لأول مَرَّةٍ وَعَتْ البنتُ كونها أنثى وبالغة.

«يا بنت.» استقبلتْها نازكُ كمن يَتَشَبَّث بطوق نجاة، وقد فاجأتها حاسرة من خصلاتها المستعارة، بشعرها الأبيض من ليف غسَّالة الموتى.

«هذه سلطنة تخلع الخصر ولا تقصُّ ظهورَ البنات.» وقادتْها لِصَفٍّ

ماكيناتِ الخياطة المُوَاجِهة للجدار كتلامذةٍ في وَقْفَةِ قِصَاص، بنت واحدة ممتلئة كانت منهمكة في الخياطة، كل ذراع بحجم رضيع، تُدوِّرُ بثأرٍ عَجَلَة الماكينة (سنجر) وتكاد تخلعها. أسلمتْها نازكُ الطَّارَةَ على هيئةِ قلبٍ وتحبس بين إطارها المزدوج قماشةَ القطن الأبيض، وقالت: « أُعَلِّمكِ غُرْزَة المنفوش، والتي تَتَقَبَّب منها وردة البنت، تلك الوردة التي ما طفت على ثوب إلا بعثتْ فيه الحياة؟»

نَطَقَت (الحياةَ) كـ (حيّاتٍ)، وبالإبرة المُدَبَّبة العين سدَّدتْ طعناتها للنسيج، وتَعَنْقَدَ زَرَدٌ أحمر مدكوك بقلب الوردة، حتى تَفَصَّد العَرَق أعلى شفتي البنت. . . ونازك تُراقبها عن كثب، حين أرادت البنتُ تَنَاوُلَ الطَّارَة لتُجَرِّب نَحَّتْها جانباً:

«دَعْكِ من عَرَق الجواري.» وقادتْها أمامها. أوقفتْها على مشاجب الثياب من كلِّ لونٍ وطرز، تناولت ذاك الشماغ ولَثَّمتْها، حتى ما بقي ظاهراً منها غير العينين، وهي في ثوبها الأسود دَفَعَتْها، للجزء المحجوب من المَشْغَل، وهناك فاجأتها الأجسادُ ترقص على دربكة الإيقاعات:

«اتركي جسدَكِ للدربكة. .»

وقادتْها بخطواتها الراقصة الثقيلة، وكماءٍ لِمَصَبٍّ انساقَ جسدُ البنت، حين بدأ العَرَقُ يَتَفَصَّد على نحرها فاحت للشماغ رائحةٌ أمسكت بخناقها، وقَلَبَتْ جوفَها برغبةٍ هوجاء، شيءٌ فيها ثارَ وغَالَبَها، وبعنفٍ انتزعتْ جسدَها من قبضتها وغادرتْ حلبةَ الرقص، لم تلحق بها نازك. أدركَت البنتُ أن التفصيل الذي يتمُّ هناك يتجاوز الثياب، وأن قَصَّاته تُحْفَر بِقَدْرِ جُرأةِ كلِّ جسدٍ من تلك الأجساد المنتقاة. بعضها لا يتجاوز الخلع وبعضها ينفتح للاستهلاك وإعادة التدوير.

«مهما كان، لن أرجع لذاك القبو.» أقسمت البنتُ.

«صنعةٌ في اليد أمانٌ، بعدي لن يَتَلَقَّف ابنتكَ سوى الجوع.» تَوَعَّدَ الأبُ، وهاج بمراجعاتِ نازك الملحاحة، وسمح لها بالانفراد بابنته في

حجرتها والوسوسة لها:

«طاوعيني، حظُّكِ فَاقَ طموحات أبرع بناتي، في عبوركِ الخاطف وَقَعَ بعُبِّكِ الصولجان، افهمي... الصولجان يا بنت!» وشَدَّتْ بكلتا يديها على ساعدها كمن يريد إفهامها ما لا يُفهم. كلما نَطَقَتْ نازك فَوَّحتْ بأنف البنت رائحةَ ذاك الشماغ، تُهَيِّجُ بجسدها ما لا تُطيق.

«نفس الرائحة التي لشعري الآن» انحطَّ كتفا نورة في حجرتها الفخمة بريتز مدريد، الآن فقط صار بوسعها الإلمام بالطوفان الذي انبثق من مرورها الخاطف على ذاك القبو، تُكَرِّر لنفسها:

«الصولجان يا بنت.. الصولجان الذي رفضتِه يا بنت في ذلك الزمان من نازك.»

في مدينةٍ لا أذان فيها، يوقظها كلَّ فجرٍ رفيفُ أجنحةِ الحمام، تعرف دخولَ وقتِ صلاةِ الفجر من تلك الزخَّة القادمة من لبِّ الصمت، حضورٌ في الفجر، ويُخْرِجها من أعمق الأحلام، تعرف أنه قادم، إذ وما إن يُدير عاشقُها مُحَرِّكَ دَرَّاجته النارية في الحوش البعيد حتى يهيج الحَمَام، يَهُبُّ مُحَلِّقَاً بطول زقاقها الضيِّق، مثل موجةٍ تخترق جذعَها مستقرة في مؤخر عنقها، تَقشعرُّ بالتَّرَقُّب.

بلوغ

حَذَّرنا الغطفاني بأننا نعبر في جهنم، حين ومن دون إنذار كانوا يسوقوننا خلال سَميم الجنوب، ريح تغرف الرمل من تحت أقدامنا وترفع فوق رؤوسنا قبوراً واصلة للسماء.

النظرة في عيني الغطفاني أخبرتني بأنه قد نجا من الأهوال ليقع

في شركي أنا. أخافني ما رأيت في عينيه،
«أينما انتهينا فسننتسبُ أنا وأنتَ كأخ وأخت..» جاء رجائي ضعيفاً لكنه أغمض عينيه مستسلماً لإرادتي. وامتدت أمامنا واحات بني حنيفة.

خيَّمنا لنرقد ليلاً ولأول مَرَّةٍ منذ انطلاقتنا، وكان لسكتة الليل وخدر الجوع والعطش واليأس تأثير قوي، لكأننا متنا في تلك الرقدة، متُّ وانتشلتني قرقرةٌ وحشية وبعبعة، لأجد العمالقة ملتفين في دائرةٍ يُمزقون لحم بعير يتناهشون أطرافه وأمعاءه الرملية. بدا لكأنهم يحيون على الرمل. حولنا فاح الرمل بمطر الأمس الخفيف، والنوق ترعى نبات الحواء الذي نبت في ليلةٍ مثل شَرَكٍ أخضر على وجه الكثبان. أدركتُ أننا قد تركنا الجوعَ وراءنا، وصرنا بقلب واحات نجد.

رقدتُ مستشعرة الهوة التي تركناها وراءنا، ولا يمسكني من التردي غير هذا الجسد المحبوك بالريح والليل للغطفاني، وكنتُ أسمع عويل الذئاب من جسدي أو من ذاك القفر المحيط وتطلب شربةً من دمه، قمتُ ذاك الفجر، وكان واقفاً بظهره لي، يربت على عنق ناقته، تلك الحركة الملحاحة، والتي أشعر بها بين أضلعي. شوقُ الصباح ويقظةُ الكون صارت في جسدي حين دنوتُ منه، بخفةٍ ضلَّلتْ كلَّ حواسه المرهفة وفراسته في قراءة الطقس ورائحة المكان فلم تُسعفه، انتفض كقطاةٍ ذبيحة حين لامسه جذعي، ومن تلقائه استسلم الجذعُ للجذع، خانتنا كلُّ فراسةٍ ورغبةٍ في الانتصار لأقوام ورسالاتٍ غيبية بعينها. وعوى ذئبٌ فبعث بصدري تحذير أُبي كعب:(تخيري أفضل

الأنساب لنا لكي نُبعث) للمحةِ هَالَني ما أنا فيه فانفككتُ عنه، وعرف عزمي فلم يتقدَّم.

رسم

تلك الليلة وما إن أوت لفراشها حتى هَوَتْ في بئرٍ سحيقةٍ تتناوشها فيها الأيدي التي تفحُّ بالبيرة والثوم.. لينتزعها رنينُ المعدن يرتطم بأرضية الرخام... وصوتُ ذلك الرجل الأجشّ، حين فتحت نورة عينيها كانت قد تجاوزت منتصف الليل، حافية غمست قدميها في برودة الرخام المنعشة، ومن خلال الباب الموارب للصالون لمحت ذلك الرجل الممتلئ، بدا لها مثل شخصية كرتونية، يطفح بالخبث والدهن ويوشك على الانفجار.. في تلك اللحظة كان ينحني لالتقاط ذلك الشيء اللامع على الأرض.. حين دقَّقت نورة النظر عرفت المفتاحَ المسروق من على الشاهد بمقبرة المنبوذين. عصف بها رعبٌ حبست أنفاسَها حريصة على ألا يلمحها، واقشعرَّتْ بفكرةٍ أنَ بوسعه أن يؤذيها، بينما مضى الرجل يقارن المفتاحَ برسمٍ في رِقٍّ قديم بيده.

«نسخة طبق الأصل، بأسنانه العريضة والمقبض على هيئة محاريب ثلاثة... لكن معكَ حق.. هو بلا شك زائف..» بأنياب صُفر قَضَمَ الرجلُ قشرةَ الذَّهَب الرقيقة ليكشف المعدن الرخيص تحتها.

«بالطبع أيها الأحمق.» الغضب البارد بوجه الشيخ أرسل رعدةً بمفاصل نورة، وإلى مخبئها وراء الباب لحقتها وحشية ذلك الوجه وسحقتها، «لستم إلا عصابة من الحمقى، تضيعون وقتي، وتجرجرونني من آخر الأرض لمشاهدة مهزلةٍ كهذه..» دَافع الرجلَ خارج الجناح وأخذ النسخة الزائفة من المفتاح والرِّقّ، حشرهما في المُغَلَّف الأبيض وحمله مغادراً.

في الصباح كانت حقائب نورة قد سَبَقَتْ للمطار والطائرة الخاصة، خلية نحل في ممرات الجناح وبهو الفندق، وكان الجميع بانتظار مغادرتهما للتحرُّك، كما هو مُخَطَّط لها بالأمس، حين دفع بابَ حجرةِ نومها لاصطحابها ارتطم بالفراغ وارتد عن الجدران! قرطاها الفضة، زجاجات دهن العود الذي يستحلبه فيها، بخّاخ الفنتولين، أشياؤها الصغيرة لا تزال هنا وهناك وعلى المنضدة بجوار السرير المُضطرب والفارغ!

بركانٌ اجتاحَ الأبوابَ وقُلِبَ الفندقُ رأساً على عَقَبٍ بحثاً عن نورة، وما كان لها من أثر.

***

خوفٌ عميق من الشيخ حَرَّضَها على الخروج متسللة ذلك الفجر، سارت حتى وصلت إلى نافورة نبتيون، وقفت بمواجهة النافورة فجأة لا تعرف إلى أين حين فاجأها رافع،

«دعيني أوصلكِ إلى حيث تشائين..» وتَرَجَّل، كان يُرَتِّب شعثَ المقعد الخلفي ليُفسح لها مكاناً بين أوراقه حين فَتَحَت البابَ الأمامي وانسلَّتْ، تردَّد قبل أن يصعد إلى جوراها، مستشعراً الحرج في ذلك القرب.

«إلى أين؟»

«أغادر مدريد، إلى أي مكان.»

«أواثقة أنتِ؟»

«إما أن تأخذني إلى هناك أو تتوقَّف لتحملني أي سيارة مغادرة.»

ساق على غير هدى، توقف على الطريق المُغادرة لمدريد جنوباً،

«أرجوكِ، دعيني أساعدكِ. مم تهربين؟» حدقت فيه طويلاً، ثم روت له ما رأت بالأمس.

«أنتَ حارسه الشخصي، لا بد أنكَ تعرف، ما حكاية هذا المفتاح

والرجل الذي كاد يقتلني؟» بعد صمت نطق:
«أُقَدِّر الثقةَ التي تضعينها فيَّ، لكن كل ما أعرفه أن الشيخ مهتم بتلك المقبرة، والآن فقط، مما رويتِه، أعتقد بأنه كان يبحث عن ذلك المفتاح.» سكتتُه أزعجتْها، اضطر للمضي، «قبل شهر من حضورك برفقته، كان الشيخ هنا، زار المقبرة ولم يعثر على بغيته، وقام أيضاً بزيارة طليطلة، لنفس الغرض على ما أعتقد.»
«لنذهب إلى طليطلة.» صدمَه طلبُها،
«صدِّقيني، لو كان هناك خطر، فمن الأسلم لك أن نسوق في الاتجاه المُعَاكِس.» العناد بعينيها دفعه للتحرك.
ساقا بصمتٍ مُطْبِق. أمامهما امتدَّ الطريقُ لطُليطلة 70 كيلومتراً جنوب مدريد، عَبَرَا خطَّ الحصون التي أقامها حُكاَّمُ الأندلس المسلمون كجبهةِ دفاعٍ بينهم ومملكة قشتالة.
«حَدِّثني عن أي شيء، الفن، الأندلس، التاريخ، الطُّرُق... أي شيء.» أكملت بخفة،
«على الأقل نحقق اقتراح مدام ميرانو، ألم تسمعها حين قالت يجب أن تري لوحة الجريكو El Greco1586 في الكنيسة بطليطلة، عن دفن كونت أورجاز The burial of the Count of Orgaz.» تحسَّس مسدسه، ضحكت، «لا تخف فليس بنِيَّتي أن أرتكب زَلَّةً من أي نوع.»
لم يستجب فأكملت:
«على العموم، ليس في واقعي الآن ما أخاف خسارته بأية زلَّة..»
استرخى، انطلقت عقدة لسانه:
«ما لا نخاف خسارته لا يستحق أن نحياه، وأنتِ صغيرة ومفعمة بالحياة، وهذا بحد ذاته معجزة تستحق خوفكِ من خسارتها.»
«الخسارة في أن أكفَّ عن البحث.. عنِّي. وأنتَ ما كان يجب أن تُقحم نفسَكَ في هذا.»

«أنا هنا لحراستكِ. .» مسحة العناد التي عقدت ما بين حاجبيه جَاوَبَتْها إشراقةُ وجهها بإبتسامةٍ غامضة، حاجة للذهاب للأقصى، إن لم يكن للتلذذ بنسمةٍ منعشة فلاختبار تصميمه على حراستها، هتفتْ:

«لذا، لننظر للأمام، لدفن الكونت.» فتحت النافذة لتتنشق أول نسائم الانطلاق، هدهدتها الموسيقى الرائقة واندفاع الهواء وانطلاقة الريف حولهما، سمحت لحياتها أن تنبسط أمامها كرسم بياني، يتعثر من نقطةٍ للانتظار لنقطة تليها من الانتظار. . عَبَرَتْ خلالها حُبَّين حقيقيين لتختار ثالثاً مثل قفزة في الفراغ. منذ طفولتها عشَّشتْ بقلبها هذه النزعة الانتحارية. . الآن لا تريد حبيباً غير ذاتها (ضَحِكَتْ لمأساويتها) ما العيب في أن تتعلَّم كيف تحب ذاتها؟ هل ما فعلته عقوبة لـ. . . من؟ لوالدها؟ لذاتها؟ لقد تعلَّمَت مبكراً أن منعطفاً واحداً قد يقود الأقدار للارجعة. . نقطة اللارجعة، التي سَمَّتْها (عُقدة الأقدار اللغم) تدوسها غافلاً و. . بوم. . هل كانت تلك هي العقدة القاطعة التي عَبَرتها في زيارتها الوحيدة لحلبة الرقص بقبو نازك التركية؟ منذ الآن ستسير بقدميها وتطحن بضروسها وتتكلم بصوتها (مهما عناه ذلك)، لو كانت لها ذرة إرادة فيجب أن تُوَظِّفها لتمنعَ رجعتَها إلى حيث كانت. . . وبنفس النَّفَس وَعَتْ أن مفهوم (الرجعة إلى حيث كانت) مجرد وهم، ليس هناك ما يُسمى رجوعاً لحالٍ كان. . لأنها وحين تقترب من المدينة التي هي مَسْقَط رأسِها، فإن مدينتها تكون قد تحرَّكتْ للأمام، بناسها وأنشطتهم وأفكارهم. لا شيء ينتظرها على حاله كما تركتْه، تماماً كما وأنها ليست ذاتها التي غادرت، إنها في المكان الذي تُؤهلها له تشكيلتُها الحديثةُ الصادمة (التي تُشبهُ جزيرةً طَفَتْ مُبَاغِتَةً تَغلي من انفجارٍ بركاني تحت المحيط)، إنها لا تملك إلا الاستمرار في الأماكن التي تُشبهها وليس بالضرورة أن تكون (أشباهُها) المدينةَ التي وُلِدَتْ فيها.

انتهبت لعين رافع ترقبها. فكرةٌ مُلِحَّةٌ برأس رافع بعرض زجاج

السيارة الأمامي، أنه الآن (في سباقٍ)، وأن مهمته ليس التحرك بنورة بعيداً عن ماضيها كما تطلب هي وإنما العكس، أن يحاول اللحاق بنقطةٍ من ماضيها على نقطةٍ من ماضي مدينة أخرى لم تعرفها من قبل مثل طُليطلة. يعرفُ أن نقطةَ الالتقاء هي: الفن، أو الألم أو الموت المحبوس في الفن، الحركة الدائمة التي تُشبهها أو هي قادرة على استيعابها ضمن عجلتها، فتسقط فيها كترسٍ لعجلةٍ، وتندغم فيها وتتحقَّق. يؤمن أن سَلامها النفسي في عثورها على ذاتها كقرصٍ ضمن آلةٍ تعرفها وتُنْتِج أحلامها وتُحَقِّقها. الغرض ليس الرجعة للماضي وإنما اللحاق به في نقطة متقدمة، (الرحيل) الأبدي من ومع واقعٍ يسلك نَفسَ وُجْهَةِ أحلامها، في عمليةِ التغيير والتغيُّر الأبدية تلك. معه يجب أن تأمن، تعرف أن ليس بوسعها الفرار أو القبض على الناس والأشياء، وإنما فقط التقاءها على محطة والمضي لتواريخ وماضويات بلا عددٍ.

حين أقبلا على طليطلة لاحت لهما رابضة من لحمةِ جبلٍ أحمر، مُحَوَّطة بالأزرق من نهر تاهو القديم Tajus (تاجة)، والذي ظَلَّ يَصدُّ عنها الغُزاة من أقدم التاريخ. يحيطها ليجعلها تبدو مثل جزيرةٍ على قِمَّةِ جبلها العظيم، مما جعل لها أهمية عظمى للأندلس عبر تاريخها. تَابَعَ رافع انبهارَ نورة قائلاً:

«طليطلة تُعْتَبر من أهم المدن في عصور أسبانيا الذهبية، وكانت جزءاً من الدولة الأموية حتى سقطت في يد ألفونس السادس ملك قشتالة وليون خلال عصر الطوائف في مايو 1085 م. ثم بلغت طليطلة في القرن السابع عشر لتكون مدينة مُقَدَّسَة قروسطية، مفتوحة، ومتسامحة وشرقية...»

«قالت مدام ميرانو إن منظمة اليونسكو قد أعلنت طليطلة موقعاً لتراث إنساني تحت رعايتها منذ عام 1986..»

«نعم، لاحتوائها على مخزون من المعالم الأثرية بصفتها عاصمة سابقة للإمبراطورية الإسبانية، ومكان لتعايش حضارات من الأديان

الثلاثة. كثير من الشخصيات المؤثرة وُلِدَتْ أو عاشت في طليطلة، مثل ألجريكو، وألفونسو العاشر المُلَقَّب بالحكيم لحُبِّه للعلم، والذي بدأت في عصره في القرن الثالث عشر حركة ترجمة لا تزال مستمرة للآن، نقلت خلالها علوم المسلمين إلى اللاتينية وساهمت في قيام عصر التنوير بأوروبا. . كانت طليطلة العاصمة الثقافية والدينية، مدينة للديانات الثلاث، تعايشت فيها المسيحية واليهودية والإسلام، بعدها تَمَّ الانفصال والتقوقع، وانتهى بنفي اليهود منها عام 1492، وفُرِض التعميد الإجباري على المُرابطين عام 1500، ولَقَّبوهم بالمسلمين الصغار Los Moriscos أو بالمُرْتَدِّين. واعتمد المسيحيون القدامى سياسة التمييز العنصري ضد المسيحيين الجُدد من أصول يهودية وإسلامية وبربرية، وشاعت نَعْرَةُ نقاءِ الدم والدين وطمس الآخر. وخصوصاً في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث طُمِسَتْ العمارة الإسلامية لتطغى الملامح القوطية، التي هي جوهرة نتاج الطراز الإسباني الفلمنكي كالموجود في دير سان خوان دولوس رياس. وطغت بعدها النزعة التحديثية الفلمنكية والإيطالية على عمارة ونحت المدينة.» ردَّدت نورة عبارة:

«المسلمين الصغار؟!»

«بقايا المرابطين، نسبة لدولة المرابطين، الدولة التي سادتْ من 1053 حتى 1147 أَسَّسها أبوبكر اللمتوني، امتدت على المغرب والأندلس، وارتكز مذهبها على الصرامة في الأخذ بتعاليم السلف.» كل ما يقوله يدق جرساً برأس نورة، يروي تاريخاً لصيقاً بها. أشار لها للبوابة المُشْرِفَة على الطريق.

«في هذا الجبل أنتِ الآن تقفين أمام محفورة من الزمن والصراعات الوجودية ـ مُتَجَسِّدة في هذا الجبل الأحمر ـ راجعة للماضي القوطي والروماني والمسيحي قبل الغزو الإسلامي في 712 م، بل ترجع بتاريخها لهرقل ليبيا، أو أول ملك لأسبانيا تيوبال Tubal، حفيد النبي نوح..»

أوقف رافع سيارتَه عند سفح الجبل، وهبط وراء نورة، قائلاً:

«لدخول المدينة على الأقدام سحرٌ لا يُضاهى، تجعلني من الغزاة الذين تسلَّقوا حجارتها ودَكُّوا حصونَها. . .تعالي. .» وجنباً إلى جنب سلكا السلالم الحجرية والممرات المباغتة للأعلى، مُتحسسين المدينةَ في نومها، بقهوة الصباح التي تفوح من جدرانها الحجرية. طارت نورة في فضفضةِ ثوبِها القطني الأبيض لكاحلها، مُنْسَابَة في الإيقاع الجبلي، تاركة لتلك الممرات الحجرية الضيقة التَّسلُّل إلى قلبها، تسري بين المصطبات لأسقفِ بيوتِ المصطبةِ التي خَلَّفَاها بالأسفل، وتنفتح فجأة على شوارع ضيقة مرصوفة بالحجر الأحمر وصاعدة إلى قمة الجبل. سارت تترنح على الحافة، وجاءها صوتُه مُحَذِّراً،

«انتبهي، هي مدينة تخطف الفنانين.» والتقطت الشمسُ الطالعة لتوها تلك الضحكة، تأمَّل فيها، بوسعها أن تطير بلمعةِ تلك الضحكة،

«تَمَاهَى ألجريكو بهذه المدينة، فعلى الرغم من أن كريت قد وَلَدَته فإن طليطلة أعطتْه وطناً وبيتاً أفضل، وصار يُنْظَرُ إليه كفنانٍ غربي في إيطاليا وأسبانيا، وكان فناناً جمعياً: نَحَّاتاً ورسَّاماً ومعمارياً. وهو أول من جسَّدَ مفهومَ الفنان الحديث المُتَعَامِل مع الفن كبحثٍ. سنقصد متحفه وبيته هنا.» كان بوسعه رؤية وجهها من زاوية جانبية، بالحاجبين الكثيفين، والأهداب الحالكة الطويلة تغور للأسفل، لكأنما تجذبها بنعاس عميق للارجعة. . بينما جاهد رافع لجذبها من تلك الهوة ووضعها في كادر تلك المدينة كمن يكتشفها في لوحةٍ من لوحاتها.

«حين جاء ألجريكو إلى هذه المدينة، دَخَلَها مثلنا، عابراً، لكنها استولتْ عليه، ومن قممها أطلقَ المُتَمَرِّد فيه، ليُلاحق الجَمَالَ شغوفاً بالحياة، مستوحشاً في وحدته واستقلاليته. وضَخَّ تلك الاستقلالية والبهجة في لوحاته. حتى موته عام 1614 جاء كرسالة إذ دَلَّت الظروف والمتعلقات التي تركها على أنه قد مات فقيراً، عاش في غرف شاسعة لكن فارغة،

مُحَاطَاً بالكتب والصُّوَر، وبتحريض المثقفين والفنانين أكثر من كونه محاطاً بالمتعلقات المادية. هذا يُوَضِّحُ تَرَاتُبِيَّة قيمه واحتياجاته، ونَمَطَاً للوجود كان فيه لا يملك المال الكافي لإشباع حلمه بالفخامة لكنه حَقَّقَها في فنه...» تكاثر وخز الحياة على أطراف أصابعها مُتحسِّسة شمس تلك الحجارة الحمراء، بكل تلك المعلومات أراد صرفها عما جاءت تبحث عنه. هتفَ:

«لكأن للمال الكلمةَ الأخيرة، حتى في الفن أو الحلم..» على تلك المصطبة المُتَرَبِّعة بين أسقف البيوت تَسَمَّرَ واخترقتْها كلماتُه. في التلافيف المعتمة لدماغها شعرت بالاتهام في تلك الجملة، بالنَّفَس الحار المحبوس فيها، أقرب لسخرية.

«حقاً؟!!» أزاحت جِديَّتَه بتلك الكلمة، كمن تمد له لسانها، وانزاحتْ بخِفَّةٍ بعيداً عن تلك النظرة، تحركت صاعدة وهو يتبعها. فاجأه ذاك الوجه المرح لنورة.

دخولهما المبكر للمدينة أفردَ كلَّ سحر شروقها خالصاً لهما ولساعاتٍ، انسكب في تلك اللحظة حول وجهها بتلك الهالة، وذاك التعجُّب.

«ستقودني للمكان الذي جاءه الشيخ؟» باغته تهديدُها المُبَطَّن.

ما إن أقبلا على ذلك المبنى الحجري الصامت حتى انبثقت تلك المرأة من بابه الخشبي، لم تدع لهما فرصة طرق الجرس، امرأة ساحرة في بياض كامل. ألقت عليهما التحيةِ بإشراقةٍ مُضَخَّمَة،

«لا تقولا بأنكما في طريقكما لمتحف الجريكو؟» ولم تدع لهما فرصة الإجابة، عاجلتْ رافع، «لكأني أعرفك، هل تقابلنا؟» خاف أن تتذكر زيارته لمدرستها هذه مع الشيخ قبل أشهر، أشار لنورة مُحَذِّراً، وسارع لمسايرة المرأة متسائلاً بأسبانية،

«هل لديكِ فكرة متى يفتح؟»

«اتبعاني. إنه في الحي اليهودي، أعرف طريقاً بديعة إلى هناك..»
وقَادتْهما كما لو كانت معهما على موعدٍ، تتقدَّمهما مترين وترجع لتتأخر لتمريرِ تعليقٍ، كدليلِ سياحي نَصَّبَتْ نفسَها دون أن يطلبا منها تلك الخدمة،
«انتبِها، هو وقت تناولي لقهوتي الصباحية، وعادةً لا أُحِبُّ لأحدٍ أن يُقاطعني، أو أن يُعَكِّر صفو هذه الساعة...» وانساقا وراء ذلك الجسد النحيل المشدود حدَّ الاختناق في بنطالٍ وقميصٍ قطني أبيض مطبوع بنقشٍ ذهبي على الصدر. بالكاد يلحقانها حين تنحدر وتصعد تلك الممرات المرصوفة والمنزلقة متأرجحة على الكعب العالي والرفيع بشكل يدعو للفزع، ولفرط خِفَّتها يُطوِّحها في تلك المنحدرات سيلُ الكلام الذي لم يكف يَتَدَفَّق من بين شفتيها المغمستين بالأحمر الفاقع، في جوعٍ للحديث، تخلط بين تاريخها الشخصي وتاريخ المدينة المُتَنَوِّع ومآثرها.
وبينما يُترجم مَرَّرَ رافع لنورة تحذيره:
«لقد قابل الشيخ هذه المرأة لكنه لم يظفر بإجابة ما يبحث عنه، لذا نحتاج أن نكسب ثقتها.» قَطَعَتْ بهما المنحدرات وصعدت مئات الدرجات لتُطلعهما على الصراعات بين الجديد والحديث، لتقف فجأة بحسرةٍ تتأمَّل وتُشير لكيف انتصر الطوبُ في مبنى البلدية ومركز الفنون، المعزولين بإسمنتٍ وسطَ تشكيلاتِ البناء الحجري! عَرَّفَتْهما الممرات السرية لقلب ذاك الجبل الدموي، مخترقة بهما حتى القمة، لم تسمح لهما بالتوقف حتى بكنيسة سانت توما، حيث لوحة ألجريكو دفن كونت أورجاز.. علّقت:
«ألجريكو هو الجسد المفعم بالحيوية، اليهودي المتخفِّي بالمسيحية، لقد لَقَّبوه بالكاتب السِّرِّي لنص سيرفانتس/ دون كيخوته، وفي نفس الوقت كان يُنظر إليه بصفته شخصية في عملٍ روائي مثل سيدي حميد بنغالي، المؤرخ العربي الذي استقى منه سيرفانتس شخصية هيدالجو أو

فارس الرزانة المفعم بالأحزان. والذي هو صورة طبق الأصل لوجه الجريكو. ولوحاته هي عما يمكن أن يحققه الفن، من تقديس للبشر، ولقد حرص على تأبين جمال المرأة في توليدو. . .» ضخَّتْ لصوتها شحنة تراجيدية:

«نحن كائنات مفعمة بالأحزان. بنحن لا أقصد النساء، وإنما المُبَشِّرين بالحياة. . . لا يحيا أصحابُ الرسالات بقدر ما ينشغلون بالتنظير والتَّخفِّي، يَتَخَفَّون عن الحياة ورغباتهم وصغائرهم. . .» تُباغتهما بنقرةٍ من الفن وأخرى من السياسة وأخرى من التراجيديا الشخصية مُتَنقِّلة للدين راجعة للمعمار.

«تَتَبَّعا معي شَوَاهِدَ العمارة الدينية المستقاة من الطراز الإسلامي في عهد المرابطين، هنا في باب المردوم، وهنا، في كنيسة كريستودولا لوز، هذا الإبداع جاء بها مَلِكُكم المرابط يوسف بن تاشفين، حين هبَّ عام 1086 لنجدة ملوك الطوائف بالأندلس، في معركة الزلاقة، لإنقاذ طليطلة وهزيمة ألفونسو السادس ملك قشتالة الذي استولى عليها. انظرا البوابات المهيبة وحليات الأسطح، تُذَكِّر بروعة العمارة في مراكش وفاس وتلمسان. .»

وبدون أن تتمهل لالتقاط أنفاسها قادتهما المرأة إلى كنيس صامويل ليفي، «بُني هذا عام 1356 كمعبد عائلي لحفظ كنوز الملك، وهو أقدم معابد توليدو. ولقد تحوَّل إلى كنيسة عام 1492 بعد نفي اليهود من المدينة ومرسوم الحمراء. . .» وقادتهما لمركز المعبد، للنافذتين المقوستين تسقط على وجوههم فسيفساء ضوء الشمس، وتوقفت بأقواس الجص الثلاثة، «هنا تعاون أجدادي اليهود وأجدادكما المسلمون لخلق أبدع الفنون الإسبانية اليهودية.» ولفتتهما للتأمل في تشكيلات الجبس المتداخلة بالنقوش العبرية والعربية والتعريقات الإسلامية واسم الله المتكرر. وتنهَّدت بحرقة،

«لولا محاولات الطمس، والتي جرت في القرن السادس عشر لمحو التاريخ الإسلامي وكل ما يُذَكِّر به فيها لرأيتما التنوّع الروحي المُضْمَرِ في المدينة. هذه مدينة تَصَارَع عليها الفنُّ، واحتفظتْ بملامح العشق الذي مَرَّ عليها، رغم غيرة عشاقها عبر التاريخ وضراوتهم في الاستحواذ عليها وطمس مُنَافسيهم..» قالتها مُحَدِّقة في أعينهما، وانفجرتْ نورة ضاحكة بمرحٍ يُضاهي خِفَّةَ تلك الساحرة.

«هو وقتُ قهوتي الصباحية.»

توسلاها التَمَهُّل لمشاركتهما كوبَ قهوةٍ، ولم تتردَّد، جلست بمواجهتهما على رصيف ذاك المقهى المؤدي لساحة زوكودوفيه Zocodover، تُعيدُ عليهما حكايتَها:

«المبنى الذي رأيتماني أخرج منه، هو مبنى أشبه بسَكَنٍ أو بمدرسة داخلية كاثوليكية، وتابعة للكنيسة، تُرَبِّي يتامى الفتيات، وتُوَفِّر لهن كلَّ احتياجاتهن المتقشفة، حتى يصرن في عمر الزواج فيغادرن لحياةٍ أخرى، أنا واحدة منهن، بفارقٍ بسيطٍ، فكلُّ حياتي انقضتْ في عتم تلك المدرسة المُتَقَشِّف، حتى كبرتُ، وكان بوسعي الخروج للزواج والانفصال عن ذلك التيار الصارم، لكنني خفتُ الخروجَ للعالم، آثرتُ أن أعمل كمُعَلِّمة في ذات المدرسة، كرسولةٍ لذاك التَقَشُّف، بأمل أن أُخَرِّج الفتيات الأكثر جرأة ويستطعن الرحيلَ لحيواتٍ خاصة، وسط الصرامة أُبشِّرُ بالرحيل كدسيسة، أنا منذورة لذاك النفاق الروحي...» نَظَرَ رافع عميقاً بعيني نورة حين قام بترجمة تلك الحكاية، وكانت المرأة مستعدة لتُمضي كاملَ النهار تشرح وتُنصت لكلماتها تُتَرجم لنورة، كانت تجد غبطة في التمدد بحكايتها بطول الوقت المتاح في تلك القمم، منتشية بسماع ذاتها تُتَرْجَم للغة الأخرى، لا تلتقط أنفاسَها، ثم وكختامٍ لقهوتها الصباحية حرصت، وبخطها الصارم، على كتابة عنوانها في المدرسة لكلٍّ منهما على حِدَة، مُرَكِّزة اهتمامَها على نورة،

«أستبعثين لي ببطاقة؟ لا أُصدِّق، ستصير لي مجموعة عن العالم الخارجي، حيث لا أجرؤ على الذهاب، آمل أن تكون بلدكِ بعيدة، لكي يأتيني صوتٌ من آخر العالم.»

«بلدي مكة... وكما مر حفيد نوح هنا، فلقد مَرَّ النبي نوح بمدينتي ليحمل أبانا آدم وأمنا حواء على سفنيته مدة الطوفان...» لأول مرة تذكر نورة على مسمعه مسقط رأسها..

«أيها الإله الرحيم..» قفزَت المرأةُ واقفة، وغادرت بلا مقدمات متوارية بأول منعطف.. حين انتهيا وحيدين أدركَ رافع أنهما قد فوتا فرصة سؤالها عما جاء يطلبه الشيخ. طلب رافع فاتورةَ الحساب بينما دخلت نورة المقهى بحثاً عن الحمام.

كانت تغسل يديها حين انبثقت المرأة بالأبيض إلى جوارها فجأة،

«هل حقاً قلتِ مدينتك مكة؟ حياتي في هذه المدينة تأتي لذروتها هذا الصباح المشرق في لقائي بكِ، ووعدكِ بمراسلتي...» دسَّت بين يديها ورقة أخرى بعنوانها:

«رجاءً اكتبي بسخاء، بترابٍ من تلك المدينة وعَرَقٍ وأحلام، وربما دسستُ بطاقاتكِ لتلميذاتي... تعرفين من الجيد لهن أن يحلمن بدنيا أخرى، وعبادات أخرى..» ابتعدت مُغَادِرَة ورجعت فجأة، «أنتِ أيضاً مُتدينة مُتخفية في زي سائحة؟! كلنا في الأسفل نعاني ثقل الديانات، ومدينة كطليطلة تستقطب المتخفين من أنحاء الأرض، هنا، وعلى هذا الارتفاع نكون أقرب لله، ولا تعود لمسمّيات الأديان من ضرورة، لأن الله بذاته قريب بلا مسمّيات، نتحرَّر من الأقنعة لنكون مساكين بسطاء بلا أيّ تطلعات. هنا نترك العالم في الأسفل ولا نعود نعبأ حتى بالحياة...» وابتعدت من دون شرحٍ أو انتظارٍ لِرَدٍّ. لم تعِ نورة شيئاً مما قالته تلك المرأة. دُهش رافع لرؤيتهما تنبثقان معاً من باب المقهى، انحنت على طاولته،

«متحف ألجريكو مغلق كل اثنين. لكن بوسعكما رؤية لوحة كونت أورجاز في الكنيسة.» ما إن قطعتْ خطوتها الأولى بعيداً عن المقهى حتى عاد وجهها ينغلق، وتستعد لدخلتها للعالم الوحيد الذي يحفظها غيباً وتحفظه.

«أنلحق بها؟» سؤالُ نورة حَمَلَ من الشَّكِّ ما شَجَّعَ رافع على صرفها عن تلك المهمة،

«أظنها امرأة مختلة، وهذا ما اكتشفَه الشيخُ.» على ذلك الارتفاع فقدتْ حكايةُ الشيخ أهميتَها، انساقت نورة للّحظة ولحاجةٍ للمغامرة بعيداً عن كل ما كان وراءها.

قَطَعَا الدربَ راجعين بطول المنعطفات الحجرية والأزقة الصاعدة دائماً، بين العمارة الرومانية والإسلامية.

تَوَقَّفَتْ فجأة أمام بيتٍ ظَهَرَ لهما كراسٍ حَرْبَةٍ تُتَوِّجُ البيوتَ الصاعدة مثل نهرٍ بين منحدرين، بيت صغير حجري وبابٍ عربي عتيق مُطَهَّم بالنحاس، وبمطرقةٍ على هيئةِ دائرةِ أبراجٍ فَلَكية،

«للبيع... الرجاء الاتصال...» قرأ رافعُ اللوحةَ المُعَلَّقة بالنافذة من خشبٍ محفور. وباغتَه رجاؤها:

«لو أُنسى هنا... لنكتب رقم الهاتف، لربما...» جَرَفَتْه الحيويةُ التي دبَّتْ فيها فجأة، سَجَّلَ الرقم: (376329).

في عبورهما مجدداً لساحة أوينتامينتو توقفت نورة بتلك المكتبة الصغيرة لتَصَفُّح كتاب عن ألجريكو، وحين فكَّرتْ في شرائه اكتشفت أنها لا تحمل نقوداً، تراجعت، لم يكن ثمة ما يمكن أن يُعكِّر بقلبها تلك الشمس.

حولهما ومن لا مكان بدأ تَدَفُّقُ السُيّاح وفلاشات كاميرات التصوير، وانساقا لتياره، وأكلا البايللا بالقواقع وحبات القمح الأسود في القمة، تشاركا طاولة بكراسٍ أربعة تحت المظلات البرتقالية الصارخة، لم تكن

المظلة تُغَطّي رأسَيهما تماماً حين بدأ رذاذٌ رقيق يتداخل وخصلاتها القصيرة ويُفوِّح بقلبها ذاك الوَجد، ثم تَدَفَّقَ المطرُ بعنفٍ للمحةٍ ثم تلاشى... طَوَت السماءُ سِجِلَّ مطرها، ووقفت ترقبهم من على حافة القمة بآخر المظلات البرتقالية.. حين فتح الكيس الورقي الصغير وقدم لها الكتاب،

«يا إلهي، ما كان يجب أن تشتريه.» قالتها بمعنى (كان يجب أن أحصل عليه) ومضت تُقَلِّبه بتملُّكٍ ولذَّة، بين صفحاته عَثَرَتْ على القصاصة برقم هاتف المنزل القديم المعروض للبيع، وبنشوةٍ دفعتْها عميقاً في خياطة الكتاب،

«لا تقلقي، سعره مضاف للفواتير.» طفت تلك العبارة بينهما بلا معنى، وبلا حاجةٍ لتفجير فقاعتها الزاهية. وكان رافع يرقبها بحَاسَّةٍ سادسة، في محاولةٍ لقراءة ردود الأفعال الصغيرة خلف تلك الابتسامة اللاواعية، وذاك التَّقَلُّب بين ثرثرةٍ بهيجةٍ وصمتٍ كثيف.

أخيراً وكتتويج ليومهما عادا أدراجهما لكنيسة سانت توما حيث لوحة دفن كونت توليدودون جونزالورويز ولورد مدينة أورجار في القرن الرابع عشر الميلادي، حين تَمَهَّلَ أمام الشباك الصغير لشراء تذكرتي الدخول شَعَرَتْ بالحرج،

«لا تقلقي، هذه عليَّ.»

في فسحةٍ مثل دهليز صغير، ولليسار، وقفا برهبةٍ وراء الحبل القائم كحاجز، بطول الجدار واصلةً للسقف أمامهما انتصبت اللوحةُ، شاهقة على القبر المفتوح، بتابوت الكونت أورجاز في حفرةٍ تحت أرضيةٍ زجاجٍ مشحونة بالأضواء الرقيقة،

«طبيعةٌ سماوية في وجوهٍ أرضية، هذه اللوحة تُجَسِّد القديسَيْن المعروفين بالإسراف والنابضين بالحياة أوجستين وستيفان، وهبوطهما من السماء لطقس دفن النبيل الميت، أحدهما عند رأسه والآخر عند قدميه، يحملانه لتوسيده القبر، كمعجزةٍ تتحقَّق للمحسنين عند موتهم، لتشجيع

مدينة أورجاز على الدفع بسخاء للكنيسة.» مضى الدليل يشرح، واقعاً تحت سطوة اللوحة.

كالمنوَّمة مغناطيسياً انسلبت نظراتها للتذهيب في أوشحة القديسين، وغام سواد رسل الموت، وفجأة تجسَّدَتْ لوحةُ بيكاسو بعنوان (تأبين) في موت صديقة كازاجيماس، والتي رأتها ذلك الصباح في متحف البرادو، انطبقت لوحة بيكاسو على لوحة دفن الكونت أورجاز، زرقة ألوان التأبين طغت على التعتيم السماوي لهبوط الملائكة لإتمام مشهد الموت، وبدلاً من جثة الكونت حلَّت جثة أخرى، لا لصديق بيكاسو كازاجيماس، وإنما لشخصٍ آخر شعرتْ نورة بأنها تعرفه عن كثب. ومكان الملائكة حلَّت أجساد نسوة عارية، وخاصة المرأتان في الجوربين الشفافين، إحداهما في جورب أسود والأخرى في جورب أحمر واصل للفخذين. واللتان بدتا منفلتتين لتوهما من ملهى، وتنظران مَشْهَدَ الموت من الأعلى. في تلك اللحظة استدارت المرأتان لتُحدقا بعين نورة، تلك التي في جورب أسود بدت مثل مرآة لملامحها، وتوقف قلب نورة عن الخفقان حين رفعت بصرها للنظر إلى وجه المرأة في الجورب الأحمر.

قرون الشيطان

«إنها القبيلة الخرافية، المعروفة بقرون الشيطان. وربما لا تزيد عن سراب يتجلَّى للخائف..» هتف الغطفاني وتمهَّلنا للتحقُّق مما أفزعنا، قمم جبال تسد الأُفق وتخترق الأفق بقرون شيطانية. هنا أخذ العمالقةُ الزمام، نخسوا مطايانا لتجمح تخترق في الصخر، عبر الممرات السِّرِّية الضيقة التي انفتحت من حيث لا نعلم، اندفعت الإبل مسعورة تكشطُ الصخرَ بجلودها وتُهدد بقذفنا لفرط هياجها.. لتبلغ دامية تلك الفسحة

وراء حائط الصخر: كون كامل مخفي وراء ذلك الحائط الشيطاني، نخيل وحيوان يرعى وبَشَر كلها بلون الرمل، يحيطون بذلك الصنم العظيم من سواد مشتعل، رجفةٌ تُكَثِّرُ قرونَ الشيطان المحيطة من رائحة اللحم الحي المحترق الفائحة من جسده. خُيِّل إلينا أنه التجسيد لأسوأ مخاوفنا ينبثق من جوف الرمل.

صفحات وصفحات مفقودة من الرق، وقفز يوسف الأسطر من بقعة حناء إلى بقعة دم، يقرأ ما وراء السطور:

حين جذبوني من الرمال، وألقوني أمام سيِّدهم كان يرقب صراعي، وتناول يدي اليمنى، متأملاً في شارة الولادة: العِرْق الضارب من سبَّابتي بطول الكف ليغوص في أوردة رسغي.
وأخذتني أعنف عاصفة رملية، في جسد شيخهم. مضت ليالٍ وأيام لم يغمض لي فيها جفن أجاوب رغبة ذلك الشيخ.. بالدم يغلي في عروقي. صيحاتي فاقت بعبعة الغطفاني الذي لم أعرف أي جحيم أخضعوه له.
«المرأة التي تحمل شارة الولادة ستحمل بالشيطان الذي يرثُ الأرض. وبه سنمضي نَدسُّ نُطَفَنا للقبائل، في شياطين معمرة تجوب الأرض تتلاقح وبقايا المنبوذين والساقطين من القوافل والسفن التي ضربتها العواصف على شواطئ القلزم وبحر الفرس.»

«أحياناً يوقظني من نومي شعورٌ عميق بالندم.. علام؟ لا أعرف.. بفكرةٍ محشورة برأسي تقول: أنتِ محاربة! أشبه بِلَوْم..» صمتت منصتة لرجع ذلك اللوم، تَدَاخُلُ لوحتيّ بيكاسو وألجريكو أربكها، «لم أُحارِبْ قط على كثير. لا على المبادئ ولا على حياةٍ أفضل ولا على وطنٍ، لم يكن أي من ذلك يعنيني، الآن أحارب من أجل نزوات تافهة.. خضتُ معركة واحدة خاسرة على: الحُبِّ.» بحركة من يديها دَفَعَتْ ذلك الحلم،

«الرجل الوحيد الذي حاربتُ ليُحبني، كان يشيخ حولي بتَسَارُعٍ مخيف، يضعف ولا يضعف قلبُه، مُوْصَدَاً مصبوباً من فولاذ، يَدُقُّ بانتظامٍ وتفوته الدقات الكبيرة التي لقلوب اللحم والدم. أبي كان يفخر بكونه من نسل مناضلين قُدّوا من صخر وحاربوا ضد ومع توحيد الجزيرة. أنا كان عليّ الصمود لصيقاً لذاك القلب الحديدي، واتخاذ قراراتي الفادحة وحدي بلا تداخلات للعواطف... أول العواطف التي أسقطتُها: الخوف.. حيث لا شيء يهم..» كانت تتهدَّج للدخول للكلمات التي من جنس الكدمات، مال سائحٌ بابتسامةٍ مُجَامِلَةٍ وترك إلى جوارهما الكتاب الذي سقط منها أمام القبر، ساهمة تركتْه بِحِجْرِها مفتوحاً على لوحة (عبادة الرعاة) المحيطين بافتتانٍ بالطفل وأمه مريم، آخر اللوحات التي أبدعها ألجريكو لتقوم شاهداً على قبره في كنيسة سانت دومينجوإل إنتيجيو، وبصوتٍ أقرب للهمس انسابت كلماتها مُجَسِّدَة الماضي، وجَاهَدَ رافع لكيلا تفوته كلمة، بينما كان رضيع اللوحة يشع بنوره في وجه نورة ووجوه الرعاة المحيطة:

«أحياناً تُفيق على صباحٍ يقولُ لكَ إنه غير الصباحات، وإنكَ على قِمَّةِ العالم، وإن كلَّ ما مَرَّ فيَ حلم البارحة ينتظر وراء الباب وإن بوسعك بأطراف أصابع قدميك أن تُوَارِبَ له البابَ ليدخل، يُجالسكَ في فراشك

ويملأ حِجْرَك. . . ذاك الصباح كان حِجْرَها هو الطافح، وألجمتْني، الأنين الذي تكتمه يطلع من جوفي، تَتَوَسَّل:

«ساعديني. . .» استغاثةٌ وعَرَقٌ ودمعٌ بطعمِ الدم، ولم أعرف ما أفعل، ونوبات المخاض تتلاحق لا تُمهل أيّاً مِنّا،

«أين أخفيتِ هذا كل هذا الوقت؟!» نوبةُ وَجَعٍ طَيَّرت اللومَ، وانفجر الماءُ من بين ساقيها، أعمتْني حين صارت لأطرافي رائحة ذاك الدم وذاك الماء، على فخذيَّ كان بوسعي استشعار حرارة الجنين الذي كان يسبحُ لِتَوِّه في ذاك الماء، وكنتُ بين ساقيها، وجهاً لوجه مع طوفانٍ يشقُّ بجسدي، لا ثانية أُضيِّعها بالبحث عن نجدة، أنا وتلك البطن تتمخض وانغلق علينا العالمُ،

«لا يجب أن يعرف أحد. .» الأنفاس التي تُهدرها في ذاك التوسُّل تُغْلِق فَمَ الرَّحِمِ على فخذ الجنين، لا أعرف كم طالت وقفة الولد على باب الدنيا، من تلقائها غاصت أصابعي في بطانتها، وللآن. . . وكلما مددتُ يدي ترجف ذات الرجفة. .» مدت يدها التي كانت ترجف. .

«للآن أشعرُ بملمس مهبل المرأة التي تلد، وملمس الجنين المنقوع بماء، حاولتُ تحريرَ القدم الصغيرة من أسرها في التَّمَزُّق على جدار المهبل، وبهذه اليد كنتُ أدفع القدم اليُسرى المُتَعَجِّلَة للخروج، أُرجعها على العتبة لتُرافق يُمناها، خوفي كان من تَمَزُّقِ حَوضِ الجنين والأم بذاك الإيقاع المتفاوت للساقين، في تلك الساعات التي كانت في حقيقتها مثل لحظةٍ واحدة كثيفة انغمرتُ بجوف المرأة التي لم يكن لي من رفيقٍ سواها، والتي كانت تقرأني كنشيدٍ سخيفٍ محفوظ غيباً، دائماً كنت خيالاً باهتاً للشغف والحنان الذي تحفر به للعالم عبر الكتب والكلمات. . . ولكن في الشفرة بين الحياة والموت تلك فقدتُ اللغة التي تتخاطب وإيقاعها البطيء، لم تكن مُتَعجِّلة لدفع الجنين للخارج، رغم خوفها من افتضاح أمرها، كانت تتباطأ راغبة ربما في مواصلة كتمان الجنين بجوفها.

موجةُ العنف التي انفجرت في الرحم فجأة حسمت الأمرَ بيننا بلفظ الجنين للخارج، ولم يُطلق صرخة، كنتُ بين كتلتي دم، بانتظار مشيمتها وبانتظار رئتيه تنشقان بأول نَفَس. . . للحظةٍ تركتُها تموت، خُيِّلَ إليَّ أن جدران الرحم قد انطبقت على كيس المشيمة. بطرف فزعي لمحتُ بطن الأم يتقلَّص في نصف جلسة، وكيس المشيمة ينزلق بطيئاً للأرض، كل صوابي انحصر في الجسد الصغير الزلق بين كفَّيَّ، جسد شديد الكتمان، لم يكن لديّ ما أقطع به الحبل السُّري، أغلقتُه قريباً من البطن بملقط شعر، وبلا وعي نَكَّستُ الوليد في الهواء وراحتْ راحتي وجاءت على الصدر، تُدَلِّكه ليفتح رئتيه ويَعُبَّ الهواء. للحظات تَوَقَّف الزمن، بالجسد الصغير بين يدي ساكناً يتأملني بعينيه الموصدتين، مصوبتين لجوفي، وفجأة كانت شفتاي على الشفتين المزرقتين. بسبَّابتي شققتُ ما بينهما سحبتُ شهيقاً طويلاً، بمذاق لا يمكن ترجمته لكلمات، لا أقول مالحاً ولا دموياً، هو مذاق الحياة، امتلأ حلقي بذاك السائل، ولا يزال، للآن كثيراً ما أصحو ليلاً أسعل لطرده. . . شفطة أخيرة يائسة مما بين الشفتين، وشقَّت الصدرَ الصغير اختلاجةٌ. صاح، وانتابتني فرحة وخوفُ أن تلتقط صرختَه أُذُنٌ، واستجاب لخوفي، وسَكَتَ سكتةً حاسمة أخيرة، للحظة عاش ومات. . .
لا أعرف كم جلسنا بكتلتي (الحياة التي ماتت) بيننا، الحيوية التي اجتاحتْني هيَّجَتْ شعوراً بالذنب، ولم يكن بوسعي دفنه، ولا يزال غافياً على صدري يتجلد دمه على حلمتي. حين قامت كانت تعرج عرجها الخفيف شدت كيس مشيمتها لصدرها، تبعتُها وكنا نسير شبه متلاصقتين، أسفل الدرج كنتُ أحفر بيد والأخرى تضم الوليدَ عميقاً لصدري. كلُّ توقي للولادة تَجَسَّد في تلك الكتلة الطرية الحية، وحين استطالت الحفرة تَرَكتُ لها انتزاعه، تجاهلتُ عضوه الذَّكَري مُفَضِّلة دفنَه خارج الأجناس، استدرتُ صاعدة الدرج قبل أن تَمَسَّه التربة.»

على تلك الدرجات العارية بمرتفعات توليدو جلست نورة وحارسها في صمتٍ، الطاقة المشعة للوحة الطفل والرعاة حَفَّزت الحركات شبه الراقصة لأطياف السُّيَّاح، التناقض المرعب بين درجات العتم والإضاءة في اللوحة والمدينة عَزَّزَ الحِسَّ الدرامي للمَشْهَد.. وتطاولت ظلالُ السُّيَّاح، وضحكةُ تلك البنت المرفوعة على كتفي الشاب بشعره الطويل، وتعليقات تلك العجوز التي بدأت ترقص منفردة على أنغام الكمان يعزفه ذاك المشرد في ثياب الغجر الملونة، بصوت نورة كموجٍ يأتي مع الريح من مكانٍ وزمنٍ بعيد، وبأطراف أصابعها تروح وتجيء ساهمة على الطفل العاري بين الرعاة في صفحة الكتاب.

فجأة نهضت نورة، كمن يفر من تلك الولادة، وتبعها رافع. سارا كمن يخترق في إشراقة التنافر بين العتم والنور في اللوحة، وقادتهما أقدامهما إلى جسر سان مارتن القائم منذ القرن الثالث عشر، وقفا في ذلك المحيط القوطي، منفتحين لأجمل مشهدٍ للغروب في أسبانيا كلها..

«ليلتها اندسستُ تحت الدرج بأوراقي وفحمي، وأخذتُ أنبش عن ذاك الجنين، بعشرات التخطيطات، وليس منها من ينبض بتلك الحرارة التي للجسد الصغير الذي اندسّ ليموت بين أضلعي، ولا بمذاق ذاك الماء.. بعدها لم يعد بوسعي التفوه بكلمة، لأشْهُرٍ، سبعة أو تزيد، خوفَ أن يضيع من فمي ذاك المذاق، الذي هو مذاق بطانة المرأة بفم طفل.. ذاك كان مذاقي أنا المخفي... والذي بدونه سيسقط العالم ميتاً ويتركني وحدي، بلا أحد يعرفني، كان يجب أن يطلع ذاك الطفل من رحمي أنا، كان سيقشع الشك في عقمي. وأبداً لم أجرؤ بسؤال: ما الذي يدعو امرأة متزوجة للتنصُّل من جنين؟»

صمتتْ نورة فجأة، وحولهما تماهت موسيقى الكمان بحمرة الغروب تُرَقِّص الأجساد، كل ما في الهواء يتمايل ليسقط في سكرة الغروب، وتأكد حسّهما بأنهما لا يزالان يمشيان في لوحة دفن الكونت

أورجاز، بينما التشويه في المقاييس الجسدية الطاغي على اللوحة يتماهى وأجساد السياح على الجسر بنشوةٍ، تأخذ أجسادُهم أوضاعاً مبالغاً فيها كوميدية أو تراجيدية، تصير الضحكات أكثر رنيناً والسكتات أبعد غوراً ويطفو التوق على الرؤوس مثل بقعة دم تصبغ المدينة المتماهية بقمم جبلها الأحمر..

قرص الشمس الأحمر بدا مثل لوحة زيتية مُثَبَّتة بصفحةِ الأفق، وخلفهم كانت طليطلة الصخرية شامخة نشوانة برأسها في السماء بينما تغمس أقدامها في نهر تاهو، وتجمَّد الوقت، بَدَتْ نورة كائناً من عصرٍ آخر، ومهما تَنَصَّلَتْ منه مدموغة هي بملامحه ووحشته وانقراضه، صوتٌ داخلها كان يُحَلِّلها والمَشْهَد حولها:

«هناك فعل إزاحة أبدي، هذا التَخَفِّي يجري في كل مكان، حيث تضطر الكائنات لإخفاء أديانها، وانتماءاتها، وحملها، وحقيقتها، وحروبها، وحتى جنسها... تَتَمَثَّل بنوعٍ غير نوعها من ذكرٍ لأُنثى، من عاقلٍ لمجنون، ومن مسلم ليهودي لمسيحي، ومن فاسقٍ لِوَرِعٍ ومن مُتَعَصِّبٍ لمُتحَرِّرٍ... وذلك لكي تضمن القبول والتسلل للقلوب وللأماكن وللكراسي، أو لمجرَّد أن تُنْسَى لتحيا بسلام..» الإنسان حولها، وهي نورة ضمن هذا القطيع الإنساني، في حالةِ نكرانٍ، تَخَفٍّ، قناعٍ... كل تلك الأجساد الحيوانية والجماد والبشر ما هي إلا قناع القدرة الإلهية، تَتَجَلَّى في أقصى الكفر والإيمان، أقصى الزهد والفسق... لتبتعد قليلاً عن ذاتها، لتمارس كمالها... زقاق طفولتها تَلَخَّص في رفع القناع، في طفولتها جاءتها تلك الحقيقة مُبَكِّراً وإن كانت لم تُترجمها إلى كلماتٍ في حينها: في ذاك الزقاق البعيد، لكم انكشفت أقنعة!! إذ، وحين يطمئن العابر إلى أنه غير مرئي، وإلى وحدته، وإلى صمته، يجرؤ فيلعب حقيقته... يُخرج وجهَه ليراه اللهُ وحده وبلا حسابٍ أو عقابٍ، لا يعود يُفَرِّق بين الناظر والمنظور، حبكات من التراجيديا والكوميديا لُعِبَت في

ذلك الزقاق، وحده الحَمَام يلعبُ الدورَ المُكَرَّر حين يستجيبُ لصوتِ موتور عاشقها فيخفق بأجنحته، ويطير في قوس كامل على الزقاق كمَسْرَبٍ لهذا الكم من الشوق.. ودقات قلبها التي تتصاعد بشكل يُنْذِرُ بالفضح، لحشد الأقنعة بصدرها والتي تتوق للإفراج عنها، انطلاق الدراجة النارية ـ أكثر من انطلاق الرجل ـ هو ما يعصر قلبَها بتوقٍ طاغٍ للانفلات وللتكاثر، كعادمٍ في الهواء ينفذ إلى كل الأنوف والصدور...

قَاطَعَ تيارَ ماضيها ظهورُ المرأة التي افتتحت صباحهما، وهي تقول: «آه يا إلهي الرحيم، أنتما هنا، خفتُ أن تغادرا..» ابتلعتْ ريقَها بعناءٍ تلهث، ولم يكن بوسع رافع مسح الصعقة عن وجهه، حَدسٌ غامض أكَّدَ له أن ظهور المرأة يحمل شراً.

«قطعتُ كل توليدو بحثاً، عرفتُ أن هذا المكان هو آخر فرصي للعثور عليكما.»، حين تناولت يد نورة لم تجفل، وَسَّدتها لكَفِّها، مفتوحة لقارئة كف، بُيسراها مَسَحَتْ العرق الجاري على صدغيها ومسحتها ببنطالها قبل أن تُمَرِّر رطوبتها على كف عَزَّة،

«منذ تركتكما ووجهكِ لم يُغادر مُخَيِّلتي، كنتُ واثقة من أنني قد رأيته في مكان.» حولهم تَوَقَّفت الحركة بينما دَكَنت حمرة الشمس الغاربة وألقت بظلالها المريبة على جدران المدينة ومساربها. ولم تنبس نورة ولا رفيقها بنَفَسٍ، شعر رافع بأن لا سيطرة له على الأقدار التي تنحبك حول نورة في تلك الوقفة،

«رجاء تعالا معي.. لا بد أن أريكما شيئاً.» لم تترك لهما فرصة للاعتراض، سارت بهما راجعة إلى مسجد كريستودولا لوز، برهبة رفعا أعينهما لواجهة الطوب المُزَيَّنَة بسلسلة الأقواس التي تُذَكِّر بمسجد قرطبة،

«هذا المسجد بطراز عمارته العربية يرجع للعام 999، ثم تحوَّل إلى كنيسة في القرن ال12، في هذا الجدار بُنِي على تمثال المسيح لإخفائه لكيلا يلحقه التخريب، كشفوا عنه في عصر ألفونسو السادس والسيد..»

قبضت على ذراعيهما لتوقفهما لإلقاء نظرة من على العتبة، وللحال شعرا بالصمت المترصد في الداخل، بينما وقفت الشمسُ الغاربة بحمرتها في الخارج عاجزة عن الولوج إلى ساحة المسجد،

«عندها أضيف هذا الجناح من الكنيسة والجزء النصف الدائري على طراز عمارة المرابطين. .» لدهرٍ توقفت بهما المرأة على الباب بأقواسه الثلاثة، وبدا لهما المسجد مهجوراً حابساً أنفاسه يترقب، بلا حارس ولا إمام، وبدا لنورة مثل لعبة بتشكيله المُكَعَّب وحلياته البديعة.

تراجع رافع خطوات للوراء ليقرأ الكتابة العربية المنقوشة في طوب الواجهة الرئيسية: (بسم الله، أحمد بن الحديدي، بنى هذا المسجد على نفقته الخاصة راجياً الثواب من الله. وتمَّ بعون الله والمعماري موسى بن علي وسعد، في مُحَرَّم من عام 399. .)

استغلَّت المرأةُ انشغالَ رافع بتلك الكتابة لاستدراج نورة لداخل المسجد وأغلقت البابَ وراءهما بحسم تاركة رافع في الخارج. بخفة شيطانية وجدت نورة نفسَها وحيدة مع تلك المرأة في فراغ الجناح النصف دائري للكنيسة. وقد غيَّبَ الصمتُ طَرَقَات رافع الغاضبة لاقتحام الباب.

تردَّدتْ نورةُ في الهرب ناجية للخارج. أكان البريق المجنون بعين المرأة أم تَهَوّر الذات الجديدة التي تَتَلَبَّسها هو ما عَمَّق إثارتها؟ فجأة انجرفت نورة للمُضيِّ في ذلك الخطر لآخر المطاف. بخفة تَبِعَت المرأةَ في سكينة الفراغ المحيط.

تجمعَّتْ حمحمةُ الغروب لتُشَكِّل بِرَكَاً من الغموضِ الدموي بينِ الأقواس التي على شكل حدوات فرس متراكبة، تجنَّبت نورة النظر إليها حيث بدت مثل أبواب مفتوحة لموت. وحاصرتْها عينُ المرأة تغوص لجوفها تقرأ استجابتَها لنداءِ المكان وأرواحه. .

تقدمتا تُلاحقهما عيون عملاقة للأقبية المربعة التسعة المفتوحة على الأسقف، وأوقفت المرأةُ نورةَ لتُنصت تحت كل قبو، متلصصة على

نقوش تلك التربيعات البديعة، لا تجرؤ على التحديق خوف أن تمتصها لغموضها. استوقفتْها تحت ذلك القبو بفوهة منقوشة بنجمة سباعية، وأجبرتْها على تكرار النظر،

«قبل أن نتقدَّم أبعد تذكَّري، ما سأكشفه لكِ هو عن التنافس بين جدَّينا العظيمين، جَدِّي صاموئيل بن نقرالا وجَدِّكِ علي بن حزم. اليهودي والمسلم، واللذان آمنا بأن سقوط البشرية لم يتم بسقوط آدم وحواء من الجنة وإنما بسقوط قرطبة بالتناغم بين كل صيغ الإيمان.. الأديان التي تعايشت بسلام حتى القرن الحادي عشر..» فجأة وَعَتْ نورة أن المرأة تتحدَّثُ عربيةً فصيحة وبطلاقة،

«نعم، أجدادي اليهود استخدموا اللغات كمفتاح للحظوظ ومنها لغتكم، جدِّي صاموئيل أظهر موهبة لإتقان العربية وتطويع الخط العربي. مما أحدث التغير العظيم في حظوظه..» أوصدتْ نورةُ أفكارَها أمام المرأة التي كانت تقرأها بلا عناء.

«بعد سقوط مملكة البربر والحروب بين ملوك الطوائف، اتخذتْ أقدارُ الرجلين مسارين مختلفين في سعيهما للوصول إلى باب يقودهما للفردوس الذي فقداه على الأرض. ابن حزم الذي لجأ إلى مكان من أشبيلية رائياً قرطبة وثورتها الخضراء، ودمار مكتبتها العظيمة التي سُيِّرَتْ لها من بغداد قوافل الكتب في الفلك والتنجيم والعلوم والطبيعة. لقد ركض ابن حزم وراء حُلمِ إعادةِ إحياءِ الخلافة والحضارة الكونية التي رَعَتْها بصفتها مفتاح الفردوس، مما جعله يلتحق دائماً بالجانب الأضعف، فقضى عمره بين المنفى والسجن والانتقال، بعد الإفراج عنه اعتزل للكتابة في علوم الكلام ودراسة العقائد والفلسفة وسَبَقَ زمانَه بتأليف كُتُبٍ لخَّص فيها كل تلك المكتبة العظيمة لصياغة خلاصتها في مفتاح يفتح بين الأديان، سلسلة من الكتب في المقارنة بين الأديان الثلاثة تَتَوَّجت في كتاب طوق الحمامة. لقد وجد المفتاح في الحب الذي يشكل الجسور

بين البشر. على النقيض من ابن نقرالا الطبيب القرطبي الذي استقطبَه بلاطُ غرناطة، المدينة الأندلسية التي احتضنتْ أكبرَ تَجَمُّعٍ لليهود والمسلمين، كان يحيا حياتين الأولى بالعربية كأمينِ سِرِّ الحاكم وقائد جيش غرناطة لغزو الممالك المجاورة، والثانية بالعبرية حين كَتَبَ الشِّعْرَ بلغته الأم. الاثنان رثيا نهاية الفردوس الأرضي في الأندلس، ونهاية التعايش والحوار بين الثقافات والأديان. ولقد نزحا بحكمةِ قُرطبةِ القرن الحادي عشر والتي قُتِلَ علماؤها ودُمِّرَتْ مكتبتها.»

اقتربَت المرأةُ بوجهها من وجه نورة، وحاصرتْها أنفاسُها المثقلة بالبابونج،

«لقد تَرَكَ جَدِّي وجَدّك نسختَهما من مفتاح الفردوس، ابن حزم في كتابه طوق الحمامة، وابن نقرالا في الابن جوزيف الذي أورثه أشعاره. يحمل مبادئه ووسواسه بعدن، آمن جوزيف أن الترجمة هي كشف الأحجبة عن العقل المُطْلَق، أو الفردوس المُطْلَق. ترجمة خلاصة الفكر الذي نتج عن الحوار بين الحضارات فترة ازدهار الحكم الإسلامي للأندلس، ونتج عنها العصر اليهودي الذهبي في ممالك شمال الأندلس، والتي انتقلت منها العلوم إلى أوروبا، وكانت منقولات جدي جوزيف هي التي فتحت الباب للعالم. قضيتُ سنوات شبابي موسوسة بهذا الذي يُعتقد بأنهم ذبحوه مع آلاف من اليهود بشوارع قرطبة، حين صار الاتصال بين الأديان جريمةً وزندقة.» متوراية بالعتم أخذَت المرأةُ تقودُ نورةَ تدريجياً ولكن بحسم صوب الجناح نصف الدائري للكنيسة، تُعَزِّز أنفاسُها المُحَمَّلَة بالبابونج لنورة كل التوق المُضْمَر في المكان،

«لم ينقص جوزيف إلا تواضع أبيه مما حَرَّضَ أعداءه عليه، قيل إنه قُتل وصُلِبَتْ جثته ضمن جثث المئة وخمسين عائلة يهودية، لكن جوزيف في الواقع تمكَّنَ من الفرار من غرناطة، وقام برحلته السرية، والتي يُعتقد أنه يسعى لرؤيا رآها عن بابٍ بقَعْرِ عدن جزيرة العرب..» انطفأ الضوءُ

فجأة، ودفعت المرأة بنورة للجناح نصف الدائري وأغلقت البابَ، ليبتلعها الظلام التام في الداخل.

«اجلسي، استلقي على الأرض وتأملي السماء في الأعلى والأسفل..» وجدت نورة نفسَها مدفوعة للغوص في الظلمة، مسندة جذعها إلى درجاتٍ صغيرة شَعَرَتْ بها محفورة في جدران المعبد الدائري، بينما لم يعد من أثر للمرأة، حتى تيقَّنت نورة من أنها قد أُسرَتْ هناك لتموت، بجسدها وقد تَخَدَّرَ بالعتم بحيث لم يطاوعها لتنهض باحثة عن مخرج.

للحظاتٍ تَرَاجَعَ المعبدُ لظلماتٍ فوق ظلمات، متمثلاً لدوي قلبها المُتَسَارِع.. وبرودة الأرض تنهش جسدَها خلال ثوبها الرقيق. فجأة انسلَّتْ شريحةٌ من الشمس الغاربة من خلال نافذة مركزية، منيرةً تذهيبَ النوافذ المتراصفة في صفوفٍ فوقَ صفوف تُغَطِّي كامل دوران جدار المعبد. فجأة انبعث جسدُ المعبد الدائري للحياة، مُنَوَّراً حول نورة بتذهيب وردي مندفعاً في السماء أعلى وأعلى. للمحةٍ بدا لنورة أن الغروب يتدفق كشلال في المعبد، ولم تعد واثقة ما إذا كان المعبد يخترق في السماء أم في جوف الأرض تحتها ليفتح السماء من الجهة الأخرى للكرة الأرضية. اكتملَ جسدُ المعبد من هالةٍ ورديةٍ كاشفاً الدَّرَجَ الرفيع المحفور كدوامة لولبية تدور بجدرانه، ولم يكن محفوراً هناك للارتقاء لفرط ضيقه ولكونه بلا حاجز.. استغرقت وقتاً لتُمَيِّز الرُّقَع المضيئة على الجدار، من الأرض للسماء كان جدار المعبد مرصوفاً لا بالنوافذ وإنما بأبواب، بَدَتْ من الأسفل صغيرة ملونة، وبنقوشٍ تُخاتل البصرَ في ضوء الغروب لتبدو وردية أو دموية أو تتوارى مُنذرة قاتمة. رمشتْ عينُ نورة غير مصدقة ما ترى، وفي تلك الثانية اختلطت الرُّقَعُ المستطيلة لتنعجن في بابٍ عظيم مفتوح في السماء..

«هذا ما ظَهَرَ لعين جوزيف، الحامل لحلم صاموئيل بن نقرالا،

عندما ختم اعتكافَه الساهر إلى جوار خاتم سليمان بقاع عَدَن..»

في تلك اللحظة غطست الشمسُ وراء جبل توليدو، وغرق المعبدُ في عتم كامل، عتم كثيف مثل جسد حي احتضنَ نورةَ التي لم تجد بداً من الاسترخاء مستشعرة لأنفاس البابونج تهبُّ من جداريات الكنيسة الحائلة في الخارج. رائحةٌ مميزة ملأتْ حواسَ نورة ودمعتْ لها عيناها. رائحة تأتي من طفولتها، وأقرب ما تكون لرائحة القَات الذي يمضغه اليمنيون في ساعات الغروب للتجلّي، تأكدت أن المرأة تُخَدِّرها. غاصت أطرفُها في الأرض ثقيلة، وتضبَّبتْ رؤيتُها. صارت ترى عَبْرَ الأشياء وعَبْرَ جسدها، الذي انفرط لذراتٍ ساحتْ في طبقاتٍ فوق طبقات من العتم. حين توحَّدت مع العتم، وتدريجياً صار بوسع حواس نورة التقاط تلك الأصوات البعيدة، بلغةٍ عربية، لم تعد واثقة ما إذا كانت المرأة تسرد القصة عبر الباب المُوصَد أم أن القصة تسري في حواسها، كما لو كانت تمشي في عقلٍ مُطَلَق وممتدٌ في الماضي. وربما كان عقل جوزيف بن نقرالا، كما ظهر على سطح تلك السفينة البرتغالية التي تمخر البحرَ الأحمر بقاع الجزيرة العربية. غِنَاءٌ يَمَني تَعَالى بينما كان الرجال يجرون السفينةَ للمرسى. لعقت الأمواجُ قدمي جوزيف بن نقرالا في وقفته وحيداً على شاطئ ميناء عدن، لم يكن يحمل إلا الثوب على جسده بلا حقيبة ولا متعلقات، ذاهلاً بأصابعه تتحسَّس الرق بجيبه، حيث يُخفي التخطيط برسم الباب مُشبعاً بملوحة البحر.

«يا أخي، تظلَّلْ من الصَهد..» أيقظه الصوتُ الغريب من نوم يومين جائعاً منسياً على الشاطئ يلعقه المد.. فجأة وَعَى الكلمات العربية التي جَاهَدَ صاحبُها لانتشاله من غيبوبته. أول ما أفاقَ أخرجَ جوزيف الرَّسمَ من جيبه وبَسَطَه لعين الرجل الغريب، مُشيراً للباب الذهبي: «هذا بُغيتي...»

كلماتٌ عربية بملوحة البحر فاضتْ من شفتيه، ذَكَّرَتْه بأنه قد مضت أشهر لم يتخاطب فيها مع بَشَر، السفر كفَحَّامٍ في مِرْجل تلك السفينة من

الأسطول البرتغالي الغازي كان مثل أن يحمل به رحمٌ جحيمي.

«لقد ظهر لي في حلم، بابٌ بين السماء والأرض. وبالتقصّي عرفتُ أن مدينة عدن هذه بقاع الجزيرة العربية، تقود إلى قرية خاتم سليمان، والتي تحوي كل هيئات الأبواب التي عمَّرت الأرض. من هنا اكتسبتْ مدينتُكم اسمَها عدن.. لأنها تقود إلى تلك الأبواب..»

لأيام رَحَلَ جوزيف بن نقرالا في بلاد اليمن يُعيد تلك القصة بعربية أثقل من أن تبلغ أفهامَ البسطاء، لكن وما إن تقع أعينهم على رسم الباب حتى يدركوا أنه رجل مسكون بعَالَم غير عالمهم..

ظَلَّ يُعيد القصّة إلى أن قَطَعَ طريقه ذلك المُتَسوِّل، وقدمَ نفسَه بصوتٍ مفعم بالمرح،

«على خُبْرَكَ وتحت أمرك، سليمان الفرحان..» ما إن وقع بصر سليمان الفرحان على الباب حتى خرس، مُنْصِتاً لِجَانه، مُخْضِعاً جوزيف لمراقبةٍ دقيقة، نَطَقَ بعدها فقال:

«أنا أُلْسُنِي تُرْجُمَان من عبيد الديَّان، أترجم كل لسان مُعجم أو ناطق حتى لسان الحيوان، خُذني على خُبري: التقليد المُصَغَّر للنبي سليمان...» واستغلَّ سليمان الفرحان جانه في تتبُّع ذلك الرسم، «غِيَّتُكَ خارج أقدار أولاد حواء... وجاءني بخبرها الجان، خبَّروني عن جبل من الأبواب، وما منها باب يفتح لِحَيّ..»

«وتفتح للميت؟»

«حَدُّ جِنِّي الحياة، فلا تُعجزهم بألغاز الموت..» وأمام تصميم جوزيف بن نقرالا تَطَوَّعَ سليمان الفرحان أن يكون دليله لوادي حضرموت.. سارا على الأقدام عابرين قمم اليمن السعيدة، مُتجنبين لسيوم وسوقها الشهير الذي يعرض منتجات الحرفيين، ويطرحون للبيع الكثير من الأبواب. لمح جوزيف نسوة سيوم في قبعاتهن القش العريضة وثيابهن المزركشة يعترضن طرق المسافرين بالأغاني والرقص يدعونهم

للسوق، ويحاولن استدراج جوزيف لأبوابهن.

تَجَنَّب سليمان الفرحان بجوزيف الهجارين، المدينة على الجبال المشهورة بنحلها وعسله الشافي، حَذَّره:

«سلام على أبوابكَ إن غرقتَ في عسل الهجارين، هذا الجبل مثل أمّنا حواء، يفتح ساقيه لتضليل أبينا آدم عن الفردوس..»

وتَجَنَّبَا شيبام، تسلقا جبلها المواجه لينظرا من قممه إلى قلب وادي حضرموت، المسكون بعمائر الطين الشاهقة لخمسة وسبعة طوابق، كعمالقة في اجتماعٍ تتزاحم في مسافةٍ لا تزيد على الخمسمائة متر مربع، مدمنة للدمار هَشَّة بِقاع الوادي تحت رحمة فيضان الجبال،

«عليكَ عبور خزين مياه الباطن قبل بلوغك للمعابد..» وقاد سليمان الفرحان جوزيف بن نقرالا حتى قاربا مدينة مأرب القائمة على بقايا السد العظيم، والمعروفة بالمدينة القائمة بين الجَنَّتين،

«أخليكَ هنا، لتكمل رحلتَكَ، إن كنتَ محظوظاً أَذِنَ لك سيِّدُ الجِنِّ والطير بدخول قريته خاتم سليمان..» وتلاشى كأن لم يكن.

وجد جوزيف بن نقرالا نفسَه وحيداً بين المعبدين، براان معبد الشمس المعروف بعرش بلقيس، وأوام معبد القمر المعروف بمَحْرَم بلقيس، مُشارفاً لبحر الرمال العظيم في الربع الخالي.

الليلة الأولى هبطت حالكة السواد، طمست ملامح جوزيف، وشكَّلَتْ بركاً من الظِلال بقلب الوادي مُحَوِّمة على معبد القمر، كاشفة لجوزيف أين يأتي العشاق من أنحاء جزيرة العرب ليموتوا. مع تقدم الليل دَبَّت الحياةُ في حائط المعبد على هيئةِ هلالٍ منحوت من صخر كامل بعلو تسعة أمتار. انبعث من الرمل العظيم محروساً بثمانية أعمدة تشير للشرق، يدعو جوزيف للدخول تستدرجه أعمدةٌ مطهمة بأصداف البحر أو أصداف القمر، لقدس الأقداس من رخام أبيض شفَّاف مغزول بفضة وذهب وأحجار كريمة.

قضى جوزيف لياليه مسحوراً بين الأعمدة الأربعة لقدس الأقداس، يتنصّت للّوحَيْن المنصوبَيْن بارتفاع سبعة أمتار على جانبَي المدخل، يهمسان بصلوات لاستمطار الحب والرخاء، متوسلين الملكة بلقيس أن تستجيب وتَتَجَسَّد من الرمل الحليبي، بجسدٍ بخِفَّة ضوء القمر، تبرق عارية تعبر المعبد على أطراف أصابعها، لتكتسي ثوب الطقوس من فضة حائلة تكشف كتفيها وذراعيها، بشقَّين يجريان بطول الفخذين لقدميها الحافيتين، وتتقدم مُتَوَّجَة لتحتلَّ كرسيها من كراسي الصخر المحيطة بطاولة الصخر على مدخل قدس الأقداس، وتبعث للحياة كرسي الأم الشمس والأب القمر وفينوس ما بينهما ـ في لقاء لاستدراج حبيبها المُقَا من أوام، يتنور بحضوره الرخام الأبيض الشفاف يعكس وجوه العشاق في انبعاثهم للحياة ناهضين من قبورهم المصفوفة في طبقات فوق طبقات من جنوب وغرب المعبد.

قضى جوزيف لياليه في حمى بلقيس، مُنصتاً مفرغاً روحه إلا من التوق للباب.

أخيراً، وحين انسحب القمرُ للمحاق وغاب، تبعه جوزيف بن نقرالا مع فيضان العشاق المنوّرين بأنفاس بلقيس، مسافة الثلاثة كيلومترات غرباً، عابراً سهول الحِنَّاء والبُن للجَنَّة اليُسرى، تقوده الأعمدةُ الخمسة وسادسها المكسور لمعبد الشمس، خاض في قناته المائية الضخمة جنوباً، وعَبَرَ خلال بوابة المعبد الرئيسية، خلال ساحته الضخمة والتي لا تزال حَيَّة بأصداء الاحتفالات بالمُقا، وطلاسم المَحْقِ للسُرَّاق فيما لو تَعَدّوا على حَرَمِه. صعد السلالم المُتَصَدِّرة للساحة، للمنصة العظيمة لقدس الأقداس. حيث الثور يغرس قوائمه بعلوّ أربعة أمتار مُخَصِّباً الأرض ومُخَضِّباً العُشَّاق.

أمضى جوزيف أيامه مُتَرْجِماً لنذور الحب المنقوشة بالخط المسماري على الأعمدة الشمسية المُحَوِّطة للمنصة، والتقدمات من التي يأتي بها

العشاق من أطراف الأرض، جرار من البهار والعطور والبخور والفضة يتركها الحُجَّاج من المحبين مصفوفة مركونة بطول جدار ساحة المعبد الخارجية على جانبي مدخله الرئيسي. لجوزيف بدا المعبد مثل فضاء مصقول من رخام الإبليق الشفاف الذي يمتصّ الشمس ويرسل بخور قرفة فاترة في المكان، بِزْكَة طِيبٍ تشفي حواسه، فتتحوَّل إلى مصفاة للضوء الذي ينبعث منه وحوله ويُجَسِّد بجوفه خيالَ الباب.

وذاعت أخبار جوزيف بن نقرالا، بصفته الناسك الذي أحيا رحلةَ حَجٍّ بلقيس وعاشقها المُقا واحدهما للآخر في تَعَاقُبٍ أبدي بين بران وأوام، وبأنه قد اعتكف بقدس أقداس المُقا، حيث يتلقَّى حجيج العشاق القاصدين للمُقا طلباً لعزائم القمر، وكل المزارعين والرعاة القاصدين لعزائم الشمس. بشهوة البخيل تَكَرَّسَ جوزيف بن نقرالا يتلقَّى الحجيج ويجمع من أفواههم وقلوبهم كل أغنية وقصيدة من أغاني الحب وأناشيد الحصاد، واستخلص من رقصاتهم الصيحات البدائية المشقوقة من الصدور في حيوانيتها لاستجلاب عاشق أو تخصيب نبتة أو إثراء حصاد..

حُجَّاج سعداء قدموا مسافرين بأفراحهم بطول بلاد العرب ليلتقوه بين جَنَّتَيه، واجتمعت سُحُبُ الأغاني العذبة، وهطل هَتَّانُها على وادي حضرموت لثلاثة أقمار متتالية، مرشدة جوزيف للسر الذي أعطى تلك البلاد صفتها كبلاد اليمن السعيدة.

في شروق الشمس السابع على جوزيف في المعبدين، صحا ذلك الصباح، بخور فاتر أيقظه، ليعمى بشرائح الضوء البراق على الأفق، ظهر الجبل المواجه لجوزيف تغطِّيه شرائح ذهبٍ مستطيلة. حين دَقَّقَ النظر مَيَّزَ الأبواب التي تُغطي جسدَ الجبل، وبعماءٍ رَكَضَ صوبها، يريد الدخول، لكن ما إن بلغ الجبل حتى اندغمت تلك الأبواب في بوابةٍ عظيمةٍ مُوْصَدَة بوجهه، ومهما طَرَقَ ما أُجيب. مع غروب الشمس غابت الأبواب، مما دفع جوزيف للاعتقاد بأنها من سراب، لكنه لم يجرؤ على الابتعاد..

فجراً وراء فجر عادوت تلك الأبواب التألق ما إن يُدانيها حتى تستحيل لبوابة عظيمة موصدة. . وكان ينحل ويحيا على الماء ولبن الماعز تحضره له بنات قرية خاتم سليمان المجاورة لمأرب. بنات من نسل بلقيس والنبي سليمان:

«هذه أبواب تفتح بين الموجودات من جماد ونبات وحيوان، تفتح بين الألسن، بين الحياة والموت ويعلم الله بين ماذا وبين. . بعضها فَتَحَ للنبي سليمان واستحقَّ عليها لَقَبَ ملك الجن، عدا ذلك لم تفتح تلك الأبواب لِحَيٍّ. . الأمر يتعلَّق بالمفاتيح. . يجب أن تعثر على المفتاح الأصل قبل أن تحلم بأن يفتح لك أي من تلك الأبواب.»

يبّست الشمسُ جِلْدَ جوزيف وحمَّصت لحمه لخشب ساج عطري، وصَقَلَه القمرُ بلمعةِ فضة، وطالت جدائله من فحم. كان يَنْحَل ويُنْحَتُ كمفتاح، وكلما جرّب الاقتراب صَدَّتْه البوابةُ. حين بلغ السبعين من دون أن يَفتَّ في انتظاره يأس، صحا ذات صباحٍ على بذوره تُدَوِّرُ بطونَ بناتِ قريةِ خاتم سليمان. وعندما ضربهن ألمُ المخاض تزلزتْ أرضُ الجَنَّتين، كل ما يذكره هو أول الولادات، وليدةٌ بعلامة القمر على راحة يدها. تحفظ ذاكرةُ جوزيف تلك العاصفة الرملية التي حَجَبَت الجبلَ، وعندما تراخت العاصفة كان الجبل قد تلاشى، وبغشاوة يَتَعَذَّر معها التحقُّق من الرؤيا، وبالأبواب اللانهائية مبعثرة في السهل، وبأشباح تروح وتجيء، أشبه بحفنة من المتسولين تتقاطر من كل جهات الأرض، تجمع الأبواب وتُلقي بها إلى دائرة النار العظيمة التي أوقدوها للرؤيا:

«ليس في أقدار أولاد حواء الاستحواذ على هذه الأبواب، إنها لعنة محاولة كسر أقفال المستور في اللوح المحفوظ. .» حَذَّروه، لكن جوزيف بن نقرالا انفلتَ، يغوصُ بيديه العاريتين للنار ويُنقذُ الأبوابَ، وقد نسي أمرَ الوليدة من صُلبه والتي تلاشت مع قرية خاتم سليمان وولاداتها في ذلك الزلزال.

عاد جوزيف بن نقرالا بحمولته من تلك الأبواب للأندلس. في توليدو، قَصَدَ حدّاديها المشهورين ببراعتهم التي لا تُضاهى في سبك الشفرات والسكاكين والسيوف والمفاتيح. وبين قممها أفنى ربعَ القرن الأخير من عمره يصوغ مع حداديها المفاتيح، يصوغُ ويُعيدُ الصياغةَ بحثاً عن صيغةٍ مفتاحٍ واحد، يفتح كل تلك الأبواب. وأكّدَ الحدادون أنه قد استغلَّ لصهارةِ الحديد من الأغاني والأشعار والرقصات والصلوات والتعاويذ التي جَمَعَها في معبد المُقا. . مئاتُ المفاتيح صيغت وفشلت في تجسيد المفتاح المُطْلَق الذي يفتح كل الأقفال.

حين بلغ جوزيف بن نقرالا المائة من عمره، توصَّلوا لصياغة مفتاح، وحين قام بتجربته فتح باباً وراء باب، وحين لم يبق غير الباب الأخير فَطَرَت الفرحةُ قلبَ جوزيف فسقط ميتاً في هذا المسجد. وضاع المفتاح في الاضطراب الذي شاع بسقوط ذلك الرجل الأسطورة. وحين بُنِيَ هذا الجناح الدائري تَمَّ تركيبُ الأبواب لتدور على جدرانه لتظهر وفقط لأصحاب الرؤيا، لتُلهم الخلاقين أمثال ألجريكو للعثور في أعمالهم على الباب أو المفتاح المُطْلَق الذي يفتح بين الوجود البشري والإلهي. .»

اندفعَ رافعُ في المكان، مقتحماً من كُوَّة خلفية، كان يغلي غضباً بصره متفحِّصاً نورة،

«أأنتِ بخير؟ يا إلهي، لن تتخيلي الرعب الذي أصابني. . .» ملتفتاً بذات النَّفَس للمرأة، «أجُننتِ؟ أي شيطانٍ تَقَمَّصَكِ لتُقدِمي على هذه الحركة. .» أخمدَ ثورةَ غضبه مسُّ أصابع نورة الرقيق على ذراعه. البريقُ الغريب لعينيها أصاب قلبه ـ مثل لمعة الحمى ـ لكن بجلاءٍ عجيب، شعر بنظرتها تُهيمن عليه بجلائها وسكينتها، تلجلج فجأة:

«أي حارس شخصي هذا الذي يسمح لأمرأةٍ عجوز بخداعه!» اندفع في المسجد المُعتم مركِّزاً انتباهه وفزعه وشكوكه على الزوايا والحنيات ليكشف مؤامرتها، ولم تُبد المرأة أي حَذَر، ومَضَتْ في حكايتها لنورة،

التي حطَّ عليها تعبٌ مباغت، استرخت للجدار وراءها، تُمَرِّر لسانَها على شفتيها لترطيب تشققاتهما المفاجئة.

«والآن، أغمضي عينيكِ وتخيَّلي جَدَّكِ العربي: يوماً ما وإلى هنا جاء رجلٌ مُحَمَّل بنفس التوق الذي لوجهكِ. معاكساً لرحلة جوزيف بن نقرالا لعدن وراء الباب، جاء جَدُّك الشيبي قاطعاً البحار من عدن إلى هنا بحثاً عن المفتاح الذي يفتح باباً واحداً من بيوت الله، وعِوَضاً عنه وَجَد كل هذه الأبواب والأقفال..» تاهت نورة في تلك الرحلات المتعاكسة فرجل يذهب وراء باب وآخر يجيء وراء مفتاح.

«هنا..» أشارت إلى بقعةٍ على أرض المعبد حيث حبستْ نورة لاستقبال تلك الرؤيا، «قَضَى الشيبي ربعَ قرن في هذه البقعة كخادمٍ للمسجد، مُتَتبِّعاً جوزيف بن نقرالا، ومفتاح المُطْلَق.» تلكأ رافع فيَ المعبد الدائري، في محاولة يائسة لرؤية الأبواب التي انكشفت لنورة، لكن المرأة جذبتْه بحسمٍ للخارج، وعندها تَنَبَّهَا للرَّقِّ، مؤطراً بالخشب، ويبرق مُنَجَّماً بالذهب ومنمنماً بأزهار حمر وخضر، مُعلَّق على خرائب جدارية المعبد كأنه قائم على حراسة مدخل ذلك الجناح. تباطأت المرأة لتُضيف،

«في هذه الصفحة حَافَظَ الشيبي على يقينه، مشيراً دائماً صوب قِبْلَته، مكَّتكِ.» استوقفت نورةَ الكتابةُ على الرِّقِّ، قديمة بلا تنقيط، مما يُحَمِّل الكلمات ما لا حصر له من الكلمات ويفتح معناها على المعاني..

«هذه الصفحة الأولى من سورة الإسراء..» جاء تعليق ناصر في محاولةٍ لكسر السحر الذي تنسجه المرأةُ حول نورة،

«سأخبركما المزيد عن هذا الشيبي، لقد جاء الكثيرون وراءه، لكنني كتمتُ حكايته بانتظار إشارة.» ناظرة إلى نورة، «اتبعاني!» اندفعتْ بهما للخارج، مخترقة في ليل قمم توليدو البارد، حولهم وعلى كل منحدر كان بوسعهم التقاط تلك الخُطَى غير المرئية يُؤَجِّجها دويُّ القلوب ماضية

تتسلق الجبل من قرون. ارتعدت نورة وتمسَّكَتْ محتمية بذراع رافع، الذي دفعها لأضلعه، مُطْبِقاً براحته على أصابعها المثلجة.

انتهوا إلى مبنى المدرسة الداخلية الذي خرجت منه ذلك الصباح، في الليل أسفر المبنى عن سَخَطِه، وبدا متأهباً للقفز للهوة وراءه.

«ادخلا... هششش.. أية حركة قد توقظ المبنى...» تَرَدَّدَ رافع في الدخول، لكن نورا اندفعت واجتازت الباب الخشبي القصير متشبثة بذراعه. وَلَجَتْ بهما المرأةُ مَمراً ضيقاً، وهبطتْ آخرَه لتلك السلالم، حيث انتهتْ بهما إلى ذاك القبو العابق بالهجر ورطوبة الورق، التفتت إليهما فجأة،

«سأخذكما إلى الملاذ الذي لجأتُ إليه من كلِّ خوفٍ وضعفٍ...» تَعَثَّرَ صوتُها كثيفاً كأنما يتلاطم من تلك الأزقة المُخَضَّبة بالليل الأرجواني، تَرَنَّحت نورة في ذاك الضوء، وسَرَتْ من جسدِها قشعريرةٌ إلى جسدِ رافع، زاد يقينهما بأنهما قد تورَّطا مع امرأةٍ مصابة بلوثة، أشارت للجدران المُلَبَّسَة بالرفوف الطافحة بالكتب وقالت:

«لكلٍّ مِنَّا مَكْته التي يفرُّ إليها من الخوف والوحدة، وهنا مَكَّتي.. هنا وجدتُ سلوتي وطبيبي، بين هذه المخطوطات التي لأجدادكم العرب وأجدادي اليهود قبل تحوُّلهم إلى المسيحية خوفاً من الاضطهاد والتشريد. أُنظرا..» وأخذتْ تقرأ عناوين المُصَنَّفَات، انتبه رافع فجأة لكونها تُحَدِّثهما بالعربية الفصيحة:

«(تهافت التهافت) و(تفسير ما بعد الطبيعة لأرسطو) لابن رشد 1126-1198 الفيلسوف والطبيب والفقيه القرطبي، الذي قال بأبدية العقل الإنساني، وذلك بحكم اتصاله بالعقل الفَعَّال، وإفاضةِ هذا العقل عليه. والذي نَتَمَسَّكُ بمَقولَته بأنه: يكفي أن يعلم اللهُ في ذاته الشيءَ ليُوجَد، ولتدوم عناية الله به. وأننا سنُبعث في جسد أكثر كمالاً. أو كما يحلو لي اختصار كل ذلك بالقول إن: عقولنا وقلوبنا المفتوحة هي الباب للعلم

المُطْلَق، والكينونة المُطْلَقة!» التقطتْ نَفَساً واتجهت إلى رَفٍّ آخر تتنقل من عنوان إلى عنوان،

«لقد وعدتُ بأن أخبركما عن الشيبي، الذي اختطفتْه سفينةُ قراصنة برتغالية من شواطئ البحر الأحمر وجاءت به لإيبريا، حيث فَرَّ قاصداً توليدو. قضى الشيبي المسكين عمرَه هنا كحكواتي، يقصُّ على الصغار حكايا عدن، ونسوة خاتم سليمان اللواتي يُوْلَدن بصورة القمر على كفوفهن. كان يلعب تلك المسرحية بلا ملل، ولو أنصتنا الآن لسمعنا صدى حكايته يسكن الجدران والقمم. .» أرهفَ رافعُ ونورة سمعيهما، ولم يعد بوسعهما التمييز ما إذا كانت المرأة أم الجدران تُرَجِّع أصداءَ حكاية الشيبي الذي قال: «أمي من نسل الملك سليمان والملكة بلقيس، المُعَمِّرات لقرية خاتم سليمان، بنات الخاتم يولدن بالقمر على كفوفهن، فلا يُغلقنها في وجه غريب، يؤمنّ بأنه لو سقط القمر أو تهشَّم اندلعت نارٌ من قعر عدن وأمسكتْ بجزيرة العرب وقامت منها القيامة.» بصوتِ مراهقةٍ رقيق مضى الشيبي يحكي بينما المرأة تسري من كتابٍ لكتاب،

«أبي هو حفيد حفيد حامل مفتاح بيت الله على الأرض، كعبة مكة، هَاجَرَ إلى خاتم سليمان وراء مفتاح الكعبة المسروق، واستقرَّ هناك، ووَقَعَ في عشق القمر على راحة أمي، وأنجباني على قمم اليمن السعيد. .» قطعت المرأةُ أصداءَ الماضي وأضافت بصوتٍ أجشّ،

«قضى الشيبي لياليه في المسجد، معتكفاً في جناح الكنيسة الدائري يرسم الأبواب التي أريتُكِ إياها. . كان بمثل عمري تقريباً، وكان يزورني هنا ليستفسر عن رحلة جدي جوزيف بن نقرالا لعدن، وكلاهما كان يُغَنِّي بصوت ساحر، راثياً الحُبَّ الذي وجداه على الأيدي الحاملة للقمر، مما يدل على أنهما قد جاءا من عدن نفسها. . أحياناً وحين أنظر إلى رأس الشيبي مُنْكَبّاً على الأبواب يُخيَّل إليَّ أنه وجَدِّي الرَّجُلُ نفسُه. . . جوزيف بن نقرالا يتجسَّد في ذلك الشيبي. .» حبسَت المرأةُ أنفاسَها متتبِّعة صدى كلماتها،

«لم يتوقف الشيبي عن الحضور إلى هنا، وظننتُ أنه واقع في عشقي، بينما كان يجيء ليحفر في كل قصيدة خَلَّفَها جدي جوزيف بن نقرالا، مؤمناً بأن المفتاح قد صُهر وسُبِك بالأشعار، وأنه مخبأ في بيتِ شِعْرٍ أو أغنية.. لذا فلقد قضينا أنا وهو ننبش كل قصيدة جَمَعَها جوزيف بن نقرالا في معبد المُقَا، لعلَّنا نعثر على خيال للمفتاح.. انظرا..»
وفتحتْ لهما مخطوطة مصفرة الأوراق،

«هنا مَجْمَع قصائد جوزيف بن نقرالا الذي جاء للشعر من خلال الحب..»

مضت المرأة تتكلَّم وتزيد المكانَ حولهما دموية، حاولا متابعة ما تقوله بُغيةَ الوصول لغايتها من كل ذلك، شعرت نورة بالضياع بين كلماتها المتلاحقة، لَمَحَتْ أخيلةً في ثيابِ راهبات تسري في ذلك القبو وتستتر بين الرفوف..

«دَفنتُ نِصفَ قرنٍ من عمري في هذه القصائد، حتى أَفنتْ بصري، أذكرُ تلك الليلة، في عيد ميلادي الخمسين، حين انكببتُ أنا والشيبي وتلاحمتْ جبهتانا، وغفونا تعباً لفرط ما رحنا وجئنا نتفحَّص ذلك البيت الشعري من قصيدةٍ طويلة، كان الشيبي على يقين من أنه يحمل المفتاح، يقول البيت: إن المنفى هو حبرٌ في كتاب الله، كُتِبَتْ به كل نفسٍ مُشَرَّدَة، وتبحث به كلُّ روح عن طعامٍ في لقمة خبزٍ.. / هذا الصباح عاودني مع وجهكِ يا نورة ذلك الشِّعْر والوعد الغامض الذي يحمله...» أحاطتْ وجهَ نورة بالبريق المُتَمَلِّك المجنون،

«في تلك الليلة حلمتُ بوجهَكِ، وقدَّموه لي بالقول: هذه هي التي فرَّتْ من حبر الحَمَام واليمام، وانبعثتْ من الجشع حول بيت الله..»
اقتربت بالضوء من وجه نورة:

«في حلمي كانت هناك حرب، حولكِ، وفيكِ، وحَمَلَتْكِ إلى هنا... كما لو كنتِ مخطوفة..» مصبوبين من رخام، يغوص واحدهما

في ضلع الآخر، مضت نورة ورافع مُحدّقين بذهولٍ في ذاك الوجه الذي لم يكف عن الكلام:

«ظللتُ أحلمكِ لنصف عقدٍ من الزمان، ينهبني وجهُكِ كلَّ ليلة، ثم وفجأة غَادَرْتِني، تركتِ أحلامي خواء لنصف عقدٍ آخر من الزمان.. كم كنتُ ساذجة حين ظننتُ أنني لن أنسى هذا الوجه! لأنني نسيتُ.. لكن هذا الصباح شعرتُ بملامحكِ مألوفة.. مما يدل على أننا، أي المحظوظ مِنَّا، لا يُمَيِّز أحلامه حتى لو التقته على الطريق..» غاصتْ بنظرتها إلى جوف نورة، وأعادت كلماتها ببطءٍ وبمسحةِ جنون،

«حلمتُكِ في حرب.» وغَرقَ وجهُ نورة في هالة بنفسجية ساقطة من حجارة المبنى العتيق والمُشَرَّبَة بقتامة الليل «في الواقع كلنا، العالم برُمَّته، في انتظارِ حربٍ..» نَقَّلَتْ نظرتَها المُنْذِرَة بين وجهيهما تحفر تلك المخاوف براسيهما،

«نعرفه في كُتبنا بالمُخَلِّص، والذي ننتظرُ ظهورَه ليخوضَ الحربَ التي تفتحُ البابَ بين أنهار الجَنَّة الأربعة التي تجري على الأرض، لتفيضَ كواحدٍ وتُطَهِّرَ الأرضَ لهبوط مسيحنا عيسى تَقَدَّسَ مَجدُه عليه السلام، والذي سيجمع البَشَرَ في سلامٍ وعلى كلمةِ الله، الكلمة التي تبعث الموتى وتُحَوِّل صحاريكم إلى فردوس قرطبي.» بسطتْ كَفَّ نورة بيسراها، وأقفلت يمناها على القصائد،

«كلنا وجوهٌ تُخفي وجوهاً خلفها، لكن، ليست كل الوجوه مُحَمَّلَة بهذا الكَمّ من التناقض، بالبشارة وموتها، كوجهكِ، لقد حلمتُ بكِ كثيراً، أكثر مما ينبغي.. حتى اهترأتْ ملامحُكِ.» قالتها كاتهامٍ. بدا رافع ونورة مثل تمثالين من الشمع في إضاءة القبو الخافتة، مثل تماثيل الخراف المُصَغَّرة حول تمثال الرضيع عيسى على الرَّفّ، تَحرَّك الهواءُ كثيفاً حين مَدَّت المرأةُ يدَها لكتابٍ أمامهما على المنضدة، فَتَحَتْه، عن حدائق قصر الحمراء،

«لقد عرفتُكِ من رائحتكِ، كان معيار الحديقة في الأندلس الصوت والرائحة!! لذا اعتَنى أجدادُنا بتكثير الأزهار العطرية التي تسرح بينها العنادل والطواويس والحمام... وقريباً ستسرح في صحرائكم العطور والأغاني كجسدٍ واحدٍ، من كلمةٍ واحدة.» اخترقتْ بعينها في عينيهما تدعوهما لقول شيء، هَزَّ رافع رأسه داخلاً في حبكتها:

«سقوط قرطبة هو سقوطٌ لحلم يحلمه العَالَمُ.» شَخَصَت المرأةُ ببصرها ذاهلة صوب الباب، وهذه المَرة تأكد لنورة أن هناك شبحاً في ثياب راهبة يسري ويرقب جلستَهم من خلال الرفوف، بيد مرتعشة تناولت المرأة كتيباً صغيراً من الرفّ وناولتْه لهما،

«احملا مني شيئاً معكما بهذا الكتاب الذي لن تتوصلا لقراءته، فهو بالعبرية، هو نسخةٌ مُصَوَّرة من مخطوطةٍ لكتاب: طوق الحمامة لابن حزم. عن الحُبِّ كبابٍ ينفتح من النظرة الأولى لقلب الآخر، عن الحب كمنطقة وجود، كجنس من الأجناس الوجودية، كدم بوسعه أن يسري فينا ويُوَحّد الأعراق ويمنحها جسداً فردوسياً خالداً.. نظرةُ الحُبِّ هي السحر القادر على قشع الأقنعة والحُجُب.. هي مفتاحٌ أو بابٌ لكائنٍ خارق يَكمُنُ مَنسِيّاً فينا..» صمتت للحظة مُنصتة للعتم كمن يتتبَّع خطوات أقدام.

«لنتذكَّر أن الحُبَّ، كالحياة، أوله هَزْلٌ وآخره جِدٌّ. وأنه يُغذِي بالصوت والرائحة. لذا يجب ألا نحاربه، بل نفتح حواسنا ونشحذها لتلقِّي غزوه، ونستسلم له حين يُعيدُ صياغتَنا وتحويرنا...»

بعد دقيقةٍ بطول دهرٍ قامتْ وقادتْهما صاعدة، وعلى الباب الخارجي، تلفتت حولها لتتأكد أن لا أحد يسترق النظر، من بين صفحات طوق الحمامة أخرجتْ قطعةَ كتَّانٍ تحوي تخطيطاً صغيراً بالفحم للوحة ألجريكو (دفن كونت أورجاز):

«هذا تخطيط مُقَلَّد..»

سرت رجفة العتم من المرآة لنورة، وتعزَّزت أخيلةُ الأجساد المُتلصِّصة:

«كما قلتُ لكِ، الشيبي قَضَى ربع قرن في مسجد كريستو دولالوز يستحضر أجدادنا في الأحلام واليقظة، ليُطلعوه على هيئة المفتاح.. قالوا إنه قد أرَّقَ رقدةَ الأموات بتوليدو بمحاولاته تلك.. وكان يحلم بألجريكو ذاته، ووقع تحت سحره، مؤكداً أنه دون كيشوت الذي يحارب طواحين الهواء لكي يفتح أبواباً للخلود على هذه القمم.. قضى الشيبي نهاراته يُقَلِّدُ لوحتَه دفن كونت أورجاز ليعثر على ذلك الباب.. في تخطيطاتٍ بلا عَدَد، منها هذا التخطيط.. مضيفاً تفاصيل للوحة، لكن الذي يتكرَّر هو هذا التفصيل..» متلفتة حولها لضمان أن لا أحد يسترق السمع، دَنَتْ بالمصباح للتخطيط متتبعة خطوطه.

«تخطيط المفتاح هذا كان يُخفيه ويتكامل في اللوحة بعد اللوحة، على كتفٍ أو بين تلافيفِ ثيابٍ أو سحاب.. لكنه هنا، انظرا نجد المفتاح بارزاً بحجم رجل تقريباً، يهمين على المَشْهَد، تحمله اليدُ اليمنى المنبسطة للشخصية السماوية واصلاً لحِجْر مريم.. قالوا إن المكّي مسكون بما سمّاه سيِّد المفاتيح ذاك، بمقبضه على هيئة محاريب ثلاثة، يلاحقه في أحلامه لكن لم يعثر عليه في يقظةٍ قَطّ. لكن الشيبي لم يكف يُكَرِّر النبوءة بأنه سيجيء زمان تُغْلَقُ رحمةُ الله بوجه العباد الخاطئين، وتُغْلَق بيوته، ولا تفتحها معاهدات ولا حروب، لكن هذا المفتاح حين يصل ليد الرجل المناسب سيكون الوحيد القادر على فتح أبواب السماء حتى الأبواب بين الموت والحياة.. يقولون كان الشيبي في طريقه راجعاً لمكة حين عثروا عليه ميتاً على أبواب مقبرة المنبوذين بمدريد، بلا قطعة ثيابٍ تستره، لكن وعلى صدره كان يحمل ذلك المفتاح المُقَلَّد، والذي صاغه له أشهرُ حَدَّاد بتوليدو على خلاصة الهيئة التي أنبأه بها جوزيف حلماً وراء حلم.. كان في الثالثة والأربعين أو الخمسين من عمره حين هَرَّبوا جُثَّته لتُدفن بتلك المقبرة، بلا تأبين، ولا اسم معروف، غير المفتاح

المُقَلَّد مُثَبَّتاً على شاهد القبر بموضع قلب الشيبي.. منذ سبعة عشر عاماً من الآن.» عرفت نورة أنها تقصد المفتاح المسروق من على الشاهد بالمقبرة البريطانية. لكن، ما الذي جاء به لشيخها؟ هل ينتمي بشكل أو بآخر لنسل آل شيبة، حَمَلَة المفتاح؟ وتذكَّرت التخطيطَ على الورق، الذي قام الرجلان بمقارنته بالمفتاح المُنْتَزَع من القبر.

«لقد عثرتُ على هذا التخطيط في كتاب طوق الحمامة هذا، آخر ما كان يقرأه الشيبي قبل مغادرته..» فجأة انحطَّ تعبٌ على المرأة، وبحسم أغلقتْ طوقَ الحمامة على التخطيط، ودفعتْ به ليد نورة، وبنفس الحسم دفعتْهما خارجاً، وأغلقت البابَ بصمتٍ تام، بعد أن رفعتْ إصبعها مُحَذِّرة نورة:

«كان بانتظاركِ كل هذه الأعوام.»

لحظةَ انغلقَ الباب سمعا دورةَ المفتاح الحاسمة وأيقظتْهما، وقفا ذاهلين أمام الباب الموحش، طوق الحمامة بيد نورة كان دليلهما الوحيد أن ما مرا به لم يكن وهماً..

كانا يقودان على غير هدى حين لمحا أعمدة الدخان ترتفع من قمم توليدو، انقبض قلب نورة. في الأعلى وَقَفَ الحشدُ يرقبُ النارَ التي التهمتْ مبنى المدرسة ومكتبتها العظيمة.

بيدها على المقود استوقفت رافعَ فجأة،

«اسمع، أنا لا أريد حرباً من أيِ نوع، ولا حتى من أجل مفتاح يفتح الأنهار الأربعة، سننسى تلك الحكاية، لأنها لا تعنيني، أرجوكَ ارجع بي إلى مدريد..»

«أرجوكِ إلا مدريد.»

«مدريد.» قالتها بأمرٍ يائس.

«أنا لديّ ما بوسعه أن..» وقَاطعتْه بلطف:

«وحده الشيخ يملك جوازي للرجعة.»

تَوَقَّفَ يوسف عن القراءة، ألقى لناصر بصفحاتِ الرِّقِّ مبتعداً بعَرَجِه الخفيف، وبلهفةٍ أكملَ ناصرُ القراءة:

صوتُ كاهنتهم العجوز جاء من قاع الحمى، ليؤكد حملي بكَ.. وللخبر غسلوني ونقعوا جسدي في العيون الخفية لأيامٍ، قبل أن يُخَلّوني في ظل صنمهم من قار، وقد استرد جلدي نضارته البشرية.
حين ظهر الغطفاني يقود ناقتي المُسْرَجة لم يطرف لي جفن، باعتقاد أنه من التهويمات الطالعة من هذياني، ولم يستوقفنا أحد حين عبرنا حائط الجبال تلك بقرون الشيطان.
«أرسلوكِ لوضع الجنين في فراش شيخ قبيلة ذات شأن..»
كلاهما غير واثق مما إذا كانت بذرته بجوفها أم بذرة قرون الشيطان.
كلاب فرحة تهشُّ بأذيالها، وبنات في الأحمر وقرقرة ماء استقبلتنا على مشارف قبيلة صبخا،
«الشيخ سعد هو سيد أكثر القبائل نفوذاً في الصحراء، يَتَحَدَّر من نسل وائل وربيعة بن نزار..» طمأنني الغطفاني، وحَرَّكَ النخلُ في قلبي شجونَ خيبر، مرّ دهر على آخر خضرة غسلت قلبي. وسارع رجال الشيخ (سعد بن إبراهيم بن كعب) بتلقّينا والتأكد من سلامة طويتنا، وكانت نجد في حالة اضطرابٍ، بالأنباء عن نيَّة أتباع محمد بن عبد الله في التَّوَغُّل للاستيلاء على طريقِ نَجْدِ التجاري، أنا وعايف الغطفاني لم نتريث، تقدمنا من بيت الشيخ مخفورين بأخلص رجاله، ووقفنا ببابه

الطيني الذي لا يُوصد بوجه قادم، وكان الشيخ سعد خارجاً حين وقعت عينه في عيني، وجاوبني صقرٌ هوى في تلك العين مُصَوباً بنظرتي، وكنتُ لليالٍ أستجمعُ سحري لأحفر لكَ مهداً في دروع ذاك الفارس المعروف بمنعته في الصحاري العظيمة، ولم أخب، أوقدت القبيلةُ نيرانَها وعقدوا لي على شيخها سعد، ورقدتُ في فراشه، وأسلمتُه جسدي الذي أخفيت أنه مُعَمَّرٌ بكَ، لألدكَ لذاك الفراش في سبعة أشهر، حاملاً لذاك النسب.

دون كيشوت

أمام الفندق وقبل أن يُوَدِّعها رافع سلَّمها أسطوانتَيْ موسيقى:

«هذه دون كيشوت فالا، وهذه، التي وعدتُكِ بنسخة منها، شَغَف سانت ماثيو لباخ St. Matthew Passion. . » تناولت الأسطوانتين دفعتْهما في جيبها العريض، وابتسمت مُرَدِّدة،

«إن الرجل يحتاج أن يسمع ما يفوق استيعابه ليستوعب ما يفوق قدرته على السماع.» تُذَكِّره بكلمات مدام ميرانو، استحضرت ما قالته تلك المرأة: «قرأتُ مرة أنهم يُعِدُّون شغف سانت ماثيو أجمل ما نُظِمَ في تاريخ الموسيقى الغربية. يقولون إن باخ يتعامل بصرامة مع الموسيقى كما يتعامل الراباي اليهودي مع القانون التقليدي الهالاشا Halacha، القانون الذي ثار عليه فلاسفة اليهود، كسبينوزا، لانشغاله بمراقبة السلوك الظاهري وتهميش اليقين الباطني، وتحويل الإنسان إلى رجلٍ آلي والعقيدة إلى مُرَاقِبٍ للظاهر. الموسيقى لباخ هي وجود داخل التقليدي الصارم، فعلُ طاعةٍ واستقصاءٍ لمتعةٍ، حيث، ومن لُبِّ الانصياع يبني ما يفوق الانصياع،

يجعلنا نلمس الأعماقَ الجمالية التي يمكن أن نكتشفها ضمن القوالب، وإمكانية العثور على نبعٍ باطني في البُنى الصلدة، يُعيدُ خَلْقَ ما استنفدَ احتمالاته.»

لاإرادياً مَرَّرَ يداً قلقة لإزاحة خصلة الشعر الطويلة التي غطَّت عينيها، ثَبَّتَها خلف الأُذن بِخِفَّةٍ اقشعرَّتْ لها فروةُ رأسها،

«لا تسمعي ما يفوق استعابكِ، فقط أنصتي لبهجة النغم.. لا تجهدي نفسك بتحليل كل قطرة ماء.. ما يهم أن نكشف أجسادنا لنشوة المطر..»

أرادت أن تضحك، كلما قابلها رجلٌ بحنانٍ حرّض فيها قهقهة طفلة، تستمتع بتسلطهم للحماية! أدركتْ أن قِلَّةَ خبرتها كانت مكشوفة له طوال الوقت، الخجل الذي ضخَّ الدم لصدغيها انحسرَ بِدَعَةِ نظرتِه المودِّعة،

«لا تُجهدي ذهنكِ بتذكُّر ما لم يُمْكِن، لا أذكر من قال: في اللامدى الذي تحصره جدرانٌ أربعة، وبين صرامةِ جدرانِ المفاعلات النووية هناك كونٌ يُوشك أن يتخلَّق وينبثق. حيث يتمُّ التحَوُّل الأعظم من خلال أعظم الانفجارات.» بانزعاجٍ أنصتَ معها لرنين كلماته التي جاءت كوصيةٍ أخيرة، كوداع.

اندفعت أمامها طفلةٌ أفلتت من يد أمها المُتسوِّلة، ووقفتْ على بُعد خطوتين تُحدِّق فيها بعينيها الكبيرتين، لابتسامتها تجرأت الطفلةُ فدَنَتْ، سألتْ بحياءٍ وبإسبانيةٍ عذبة،

«ما اسمكِ؟» لَمَحَ رافعُ التردُّدَ، لم يَتَعَمَّد الترجمة، كان على يقين أن السؤال كان مفهوماً لنورة، رَاقَبَ ـ في تلك اللحظة من تَرَدُّدٍ انبثقت دمعة على خدِّ نورة ـ رأى الاسم (نورة) سَدَّاً يحبسُ قصةَ ماضيها وحاضرها، ارتبكَ رافع، وبالإسبانية تَبَرَّعَ شارحاً للطفلة،

«اسمها بيللا.» بينما خلعتْ نورةُ السوارَ الجلدي الأسود من حول معصمها، لِتَلُفَّه على معصم الطفلة التي باغتتْها بقُبْلَةٍ خاطفةٍ لمعصمها مع كلمةِ شكر (جراسيا) راكضةً تعرضُ السِّوَارَ على أمها! انتبه رافعُ لشريحة

المعدن المُثبَّتة على جلد السوار، لم يكن واثقاً من الرمز المحفور هناك، والذي بدا كقمم أبراجٍ أو ربما مُجَرَّد رمز ماركة A&A.

لَحِقَها بالكتابين، عن ألجريكو وطوق الحمامة الحاوي على نسخةِ لوحةِ ألجريكو هديَّةَ المرأة من طليطلة،

«هذه لكِ، لا تنسيها؟» مد إصبعه مُتَتَبِّعاً خطَّ الدمع على تلك الوجنة، أشاحت:

«لا أعتقد أن لها مكاناً هنا.» ارتعشتْ يده المهجورة في الهواء بينهما، قائلاً:

«ربما لتلك البنت التي تُشبهكِ؟» أفلتَ من بين شفتيه ذلك السؤال، أدركَ من نظرتها الواجفة التي سبَقَتْها لبهو الفندق أن لا مكان له ولا للبنت هناك.

«تعرفين، تلك المرأة مجنونة.» بقيت العبارةُ مُعَلَّقَة بحلقه بينما أخذا المصعد كغريبين. عرف أنه صعودُهما الأخير، وأن باب المصعد سيُفتح وتتلاشى كسراب،

«نورة..» ارتجفَ هواءُ المصعد بذاك النداء الهاهس،

«هل سيصدمكِ لو قلتُ بأنني مسكون بفكرة أن أمارس معكِ حُبَّاً مجنوناً.. تواصلاً جسدياً؟ هذه هي المعضلة القائمة بين الخيال والجغرافيا.. ربما مُخَيِّلتنا صارت جزءاً من وجودنا الحقيقي الملموس، أشبه بضرورة.. بدون الأحلام نصير وحدنا مع وجودنا.. والذي لا يمكننا فهمه أو فهم دواعيه... لا معنى للحياة ما لم نشحذها بالأحلام..» عيناها مثبتتان بباب المصعد، لم تكن تتنفس.

«أنت امرأة بكل معنى الكلمة... ولستِ بحاجةٍ إلى الصعود لذاك الشيخ.. بوسعكِ وببساطةٍ إعطاء ظهركِ لكل ذلك الماضي والمجيء معي.. ليس بالضرورة معي... لكن... اخرجي من كل هذا.. انطلقي لخلاص..»

النظرة التي جاوبته في عينيها قالت: «لن أعيد هذا الخروج مرة أخرى..» تركَها أمام جناحها وغابت لما ينتظرها وراء الباب.

شجرة ورق الحائط

بنفاد صبرٍ مَرَّتْ عينُ ناصر على مَوَاضِع مهترئة من الرَّقّ، لم يعد في جعبة مُشَبَّب ما يرتق به تلك الثغرات مما جَمَعَ من أفواه المعمرين، ولم تُسعفه حيلة، تسلَّمَ يوسفُ الرسالةَ بثقوبها، وتَجَاوَزَها للخاتمة:

في هشاشة الطين هجرني النوم، وكنتُ وكلما نجحتُ في خطف غفوةٍ جرفني إعصار وأنت على رأسه على صهوة جواد ناري أسود، ينبثق من أحشاء الرمل ويضرب في السماء، ويحملكَ ورجالك عائدين لخيبر.. كانت أحلامي مثل قفز السطور والصفحات في لوح الغيب لاستبصار ما يجيء من طالعكَ..

المخاض جاءني يداً بيد مع الموت، لأيامٍ ظللتُ أتوجَّع، وأدركت أنني لا أملك من الحياة إلا ما يكفي لانتشال أحدنا، لذا أرسلتُ في استدعاء الغطفاني، وكنتُ قد أمضيتُ آخر رمقي أكتبُ وصيتي هذه، بخضاب مخاضي لكيلا يفوتك شيء من حقيقة منشأك ونسبك.. وضَمَّنتُها لحجابي من نصفِ قمرٍ فضة هدية أبي في عرسي. والذي صاغه أبرعُ حِرَفيينا ليرمز إلى نفاذ القمر السِّرِّي في العقول والصخر.

ذاك الصباح: حين أقبل على فراش مخاضي واحتضاري تحت النخل بدا الغطفاني شاحباً، كأشباح الرمل التي قهرناها في طريقنا،

«تتسلَّم وصيتي بعهدٍ تقطعه لي الآن، بأن تذود عنها وتحفظها في نسلكَ، يحفظون شجرة هذا النسب عن ظهر قلب، وتَفَرُّعها في القبائل حتى رجعة نسلي لخيبر. مستردين حقهم في ريف الحجاز..»
بنظرةٍ مستحوذةٍ لجوفي الذي تَدَوَّرَ بكَ تسلَّمَ حجابَ الفضة هذا، واعداً أن يُضَمِّنه الشجرةَ، وأن يحفرها على جدران حصن أبي كعب بن الأشرف بخيبر، ليرجع لها نسلي في حال ضاع حجابي هذا أو أُتلفَ..

انقطعت الأوراق وعند هذا الحدِّ. لم يعرف الثلاثة كيف تَتَبَّعَ الغطفاني وأبناؤه وَلَدَ سارة ونسلَه خلال القرون الأربعة عشر وتناقلوا حجابها.

هبوط ليلي

كانت تُشير للعاشرة ليلاً حين فَتَحَتْ نورة بابَ جناحها بالفندق وخَطَت في تلك النظرة التي تفحَّصتْها من شَعْرِها المُبعثر بالمطر لقدميها في الحذاء الرياضي، غمامةٌ ارتطمت بملامحها مُرْسِلَة شحنتَها الكهربائية حيث يسترخي على الأريكة، بكامل ثيابه ورَبطة العنق مُتَدثِّراً بمعطفه، بالهيئة التي كان عليها منذ اكتشف غيابها صباحاً، لم يجرؤ خلالها أحدٌ على مقاطعته.
لا تعرف كَمْ حَاصَرَها في تلك الوقفة، ثم، وبصمتٍ قام، تَجَلَّدَتْ حين امتدَّتْ إليها يداه، شَقَّ قطنَ الثوب الأبيض وانتثرت الأزرار في كل مكان. لم تطرف، وبجنونٍ بارد، بما يشبه الجموح الذي لسماوات ألجريكو، أشرعَ النافذةَ الطويلة المُطِلَّة على الحدائق، ودفعها لتظهر

للمارَّة، يتدلَّى كامل جذعها للطريق، ولم ينبس أيّ منهما بكلمةٍ، فقط أنفاسه المتهدجة وغضبه الصاعق. حين لم تُبْدِ مقاومةً فَقَدَت اللعبةُ متعتَها، دَفَعَها أمامه لباب الجناح، وجَرَّها للخروج، وامتدَّ الممرُ أمامهما خالياً حابساً أنفاسَه، انصاعت سائرة بلا مقاومة حتى بَلَغَا المصعد، ضغط زر الاستدعاء. وبانتظار صعوده أطبقتْ أسنانَها: تُجهد ذهنَها بحثاً عن وسيلةِ دفاعٍ حين ينتهي بجرجرتها عارية إلى الطريق، تصميمٌ باردٌ دَاخِلها حَرَّضَها علَى أن تتظاهر بالموت وتترك له كشفها عارية لمن شاء. وانفتحَ بابُ المصعد، ولَفَحَ عُريَّها الهواءُ المُوْحِشُ، دَفَعَها لبرودته أمامه وكانت عمياء، قام بضغط زِرِّ التَّوَقُّف على G الطابق الأرضي، بدا فاقد القدرة على التفكير، مثل حيوان شلَّته الأنوارُ، لا يُحرِّكه غير غريزة انتقام أو دفاع: بإهانتها.

«في حالةِ مللتِ اللعب الانفرادي، منذ الآن أنا من يختار الجمهور...»

تَجَلَّطَ الهواءُ في المصعد حين بَلَغَ الطابقَ الأرضي، بحركةٍ سينمائية بطيئة انزلقت ضلفتا بابه لتفتحها على مكاتب الاستقبال والعيون، وتيار البيانو يهبُّ من آخر الردهة، استغرقَ البابُ دهراً ليكملَ انزلاقَه، قام خلالها وببرودٍ بخلع معطفه، بذراعيها مضمومتين حول جذعها، لم تستجب، لَفَّه حولها، شَدَّها بعنفٍ إليه وفحَّ في أُذنها:

«واصلي تحديكِ.. ولن تجدي مِزْقةً تُغَطِّيكِ.» لصوته برودةٌ فاقتْ تيارَ الهواء الذي جَلَدَهما من باب الطريق المفتوح لعبورهما، ولَمَعَتْ بوجهه قتامةٌ ذَكَّرتْها بالموت في خلفية دفن الكونت أورجاز. أشاحت برأسها، والتقط تلك النفرة التي تأسره وترميه، بعنفٍ أحكمَ قبضتَه وراء رأسها وثَبَّتها لشفتيه، حين فتحت عينيها كانت في المرسيدس الضخمة، ما إن أُغْلِقَ بابُها عليهما حتى انطلقتْ. كان مذاق الدم بحلقها يبلغ (رافا) في وقفته عن بُعْد مسلوباً تحت ضوء الطريق الأصفر.

شجرة ورق

قَلَّبَ ناصرُ الرِّقَّ الأخير بحثاً عن الشجرة، وسارع يوسفُ فخطفه من بين يديه،

«لا تبحث عن الشجرة، ليست هنا يجب أن تساعدني في العثور أولاً على بقايا الحصن.»

«أي حصن هذا الذي يصمد لقرون من المحو؟!»

أَرْجَعَهما مُشَبَّبُ لأول الوصيَّة، مهما بحثا ما كان بوسعهما تحديد موقع بقايا حصن كعب بن الأشرف، أخرج مُشَبَّب من جعبته ليوسف كومةَ خرائط،

«هذه خرائط اجتهدَ في رَسْمِها أصدقاءُ لي، وصَوَّبَها ثقاتٌ في مركز أبحاث الحج، والغطفاني مفلح رحمه الله، وتعطينا موقعاً تقريبياً، حيث يُقَدَّر وقوع الحِصنِ كضلعٍ رابعٍ لمُرَبَّعٍ: أحد أضلاعه وادي مذينب، والثاني وادي رانوناء، والثالث مسجد قباء.» كانت هناك رسوم هندسية تقريبية، يظهر منها الحصن واقعاً في تقاطع الخط المستقيم الممتد من البقيع جنوباً، مع الخط الممتد شمال شرق مسجد قباء، بنسبة اثنين لواحد، أي المسافة بين البقيع والحصن ضعف تلك التي بينه وبين المسجد. مسحا تلك المنطقة، وقد تمدَّدَ بنيانُ المدينة وتَوَسَّعَ في كلِّ اتجاهٍ، وكانا كمن ينبش عن مستحيل بعد أربعة عشر قرنٍ من الانقراض.

بندق

رسمَت الطائرةُ نصفَ دائرةٍ بمُوَاجهة حائط الجبال الذي يسد الأفق. وبينما كانت الطائرة تهبط. تأملت نورة في قمم تلك الجبال المنحوتة على هيئة قرون شياطين، تصدَّعَ قلبها وارتجفت لرؤية تلك القمم، كمن يتوقَّع شراً.

ارتطمت الطائرةُ بخِفَّةٍ بأرض المدرج البدائي في خلاء تلك الصحراء. حين صاروا على الأرض كانت الجبال قد أغلقتْ تماماً خَطَّ الأفق، وشعرت نورة بوقوعها أسيرة وراء ستار الشياطين ذاك. من على سُلَّم الطائرة تلفتت حولها فلم يكن ثمة أثر لحَيّ، فقط لوحة الطرق العشوائية تشير (خميس مشيط) والأخرى تشير (نجران). في رحلة الست ساعات من مدريد سمعت نورة شيخها في مناقشات لانهائية مع مساعده لخرائط ومخططات وميزانيات صفقة هما بسبيل توقيعها، حريصاً على تجاهلها، كان لا يزال غاضباً منها، غضبه طبقة نار حارقة تحت جلده، تلعقها رغم تشاغله. وكما تعودت نورة، ما إن وطئت قدماها أرض الطائرة حتى طمست كلَّ ما كان في مدريد، كل هبوط للطائرة هو ولادة جديدة لها بذاكرة بيضاء.

ما فهمتْه من نقاشاتهما أنهما سيلتقيان شخصيةً ذات نفوذ، يُطلقان عليها لقب غراب الإسكان، كانت نصف نائمة حين سمعت شيخها يسخر بحسد،

«مُنافسُنا وحش، أتعرف أنه يحمل جنسيات بلا عدد، هو مواطن دولي فوق الدول، وينفتح على عقارات إبليس نفسه.»

«لم يُلَقَّب بغراب الإسكان عبثاً.»

«نحتاج إلى استراتيجية شيطانية لاستدراجه كشريك لنضمن تنفيذ هذه المرحلة من مشروعنا، نستغل جشعه لتَمَلُّك الكرة الأرضية، لا تقع عينه على عَقَار إلا ويستولي عليه. بوسعه أن يهز الأرض تحت أقدامنا، شهريار هذا الزمان، يعقد على أجمل النساء، عقد زواج يتبعه عقد طلاق والمهر دار للتعزية... كما ترى لنضمن هذه الصفقة كان علينا أن نطير له في عقر داره، قرون الشياطين هذه، حيث يُخَيِّمُ للقنص..»

«لا تقلق يا شيخنا، لقد أعددنا له طُعماً يسيل له اللعاب..» غامزاً صوب المضيفتين القائمتين على خدمتهم. «نقطة ضعفه البَسْبوسة.»

عيونُ صقورٍ بشرية تبعت موكبَ سيارات المرسيدس التي اخترقت في تلك المدينة القروية الصغيرة بلا اسم، ابتلعتْهم تلك المباني الكالحة من طابقين على جانبي الطريق المتآكل الإسفلت. أغمضت نورة عينيها بوجه تلك الكلاحة التي توقظ خيالات دفينة، على مد البصر كانت بساتين الفاكهة وبيوت الطين البديعة قد مُسحت لتَحِلَّ مكانها تلك المكعَّبات الإسمنتية الممسوخة، لكن ما بقي من البساتين أعطى المدينة تلك الطمأنينة.

أشارت الساعة للعاشرة حين مات كل شيء في المدينة، وما عاد يُسمع غير صرير الجنادل وزحف العتم الكثيف. لثلاثة أيام لم تَرَ شيخها الذي أنبأتها مرافقتُها بأنه اضطر للمكوث في مُخَيَّم غراب الإسكان. وأكَّدت ذلك سحبُ الغبار التي غطَّت مساءَ المدينة حين اخترقَها موكبُ عربات اللاندروفر تحمل شيخها برفقة ابن الغراب للقنص الليلي، استعراضٌ صاخب لأجهزة اللاسلكي وأقنعة الصقور وصفير المدربين، وصلصلة البنادق ومناورات العربات المتهورة! احتفالية التهمتْها النساءُ مع خُبز البر والسمن وغَزَّت أحلام الصغار ببيوت تلك المدينة الكالحة.

تأكَّدَ لنورة أنها ستقضي ليلتها وحيدة في تلك الهدنة، أخذت حَمَّاماً مُطَوَّلاً، وخرجت حافية ملفوفة في تلك المنشفة الحمراء، تتهيأ للنوم حين جاءت تلك الطرقات الخفيفة على باب الحجرة، طرقاتٌ من الخفوت بحيث ظَنَّتْها تأتي من ذاكرة بعيدة، أعطتْ ظهرَها للباب مواجهة ذلك السرير، فندق خمسة نجوم قروي، يوحي بنظافة لكن بلا أدنى ذوق، ويفوح كل ما فيه بالهجر. تَصَاعَدت الطَّرَقَات طاردة عن وجهها النعاس: «مَن الطارق؟»

من كل الوجوه لم تتوقَّع نورة وجهَ رئيسة المضيفات، في ثوب من الحرير الأحمر المطرز، بفتحة الصدر الفاغرة، واقفة متأهبة على بابها،

«ارتدي ثيابك، أنت مدعوة للعشاء في مخيم غراب الإسكان..»

«لكنني متعبة، أفضّل النوم..»

«لقد أرسل في طلبك أنتِ خاصة، لا أحد يجرؤ على تجاهل حفل يقيمه غراب الإسكان، هي إهانة لا تُغتفر..»

«لكنني لست مستعدة لحضور أي حفل، ليس لدي هنا غير ثياب نومي وهذا البنطال الجينز.. حقائبي لا تزال في الطائرة..»

«لا مشكلة، لَوِّني وجهكِ، تحتاجين إلى أحمر شفاه ناري، وسأعود فوراً.» وتلاشت المرأة دون أن تمنحها فرصة للاعتراض، وما هي إلا لمحة حتى حضر طقم الملابس الداخلية الفاخرة، والقفطان الذهبي المطرز يدوياً، يبرقان بانتظارها على السرير. وقفت نورة عاجزة عن التفكير، تعرف جيداً أن شيخها لن يغفر لها رفضها لدعوةٍ كهذه. في لمحةٍ كانت مع المضيفتين في المقعد الخلفي لتلك المرسيدس السوداء، في تلك الثياب التي لم تعرف بأي عصا ساحر تجسَّدت، تنهب بهنّ ليل الصحراء صوب المُخَيَّم.

حشدٌ من النيران خلخلتْ سوادَ الأفق، اقتربت العربة بهن ليُفاجأن بتلك الفخامة، صواوين من الخيام المزركشة منصوبة في سماء الصحراء، ما إن دنت العربة حتى انبثق ذلك الحارس في ثياب بيضاء وشماغ أحمر ليقودهن عبر تلك الصواوين، كل صيوان تتوسَّطه نارٌ عظيمة تشيع الدفء في وحشة الرمل، كن يتحركن في سحر، جدران الخيام مزركشة بالخط العربي المغزول بالأحمر والأزرق والذهبي، والتُّحَف التي تتوزَّع المكان وتُرَجِّع لمعةَ الليل والنيران.. سرن بخطواتهن مُبَطَّنَة تغوص في بحر من السجاد الفارسي الفاخر المبسوط بامتداد البصر. استرخت نورة لذلك الجمال المُخَبَّأ في لانهائيةِ تلك الصحراء، وعَبَق البُنّ العربي المُحَمَّص وحَبِّ الهَال والزنجبيل، كيف رفضَت القدومَ إلى مثل تلك الواحة. كل المُخَيَّم كان مكيفاً ويتلألأ بالأنوار من مولدات الكهرباء التي يُسْمَعُ هديرها بعيداً في العتم.

اقتيدت النسوة الثلاث إلى تلك الخيمة العظيمة المرفوعة على مسلة ثلاثية الوجوه من الصوَّان الأبيض، كان غراب الإسكان يتصدَّر ذلك الصيوان حاسر الرأس في ثوبه الأبيض، وبلا عباءته السوداء المقصَّبة، فقط الرجل البسيط بشعره الخفيف المصبوغ بالأسود الفاحم، أبعد ما يكون عن سمعته الرهيبة. أُجْلِسَتْ نورةُ مع رفيقتيها عن يساره، مصفوفات على جلسات الدمسق الحمراء والمبسوطة على أرض الخيمة لتغطي أضلاعها الأربعة، عن يمين غراب الإسكان كان ذلك الأسود، نهض كعمود دخان متعالياً في سماء الخيمة. نظرتُه كأسياخ نار اخترقت بعين نورة وشَلَّتْها لإصبع القدم وسحقتْها، كانت تُحَدِّقُ في عين الشيطان ذاته. فَرَّتْ ببصرها إلى غراب الإسكان، والذي رغم ضخامته كان أقل رعباً من رَجُلِه الأيمن بُندق، من دون الأسماء يُلَخِّصُ الاسمُ بندق ذلك الشيطان المتأهب لينشب في المحيطين بناره، والذي يتحرَّك مستشعراً ثقةَ سيِّده، بل ومُتسلِّطاً بقواه الشيطانية على ذلك السيد، يشيع جسدُه في الصيوان بعبقٍ نفّاذ هو مزيج العرق الإبليسي والأدهان الشرقية الصارخة. جسدٌ مضفور من كابلات الفولاذ بلا ذرة شحم، شبكةٌ من الأعصاب المُنَفِّرة والتي من السهل تَتَبُّعها بوضوح على هيكله، تسري بالطاقة وتصعق بجبروت، كانت نورة واثقة من أنها ستُصعق فيما لو لامستْها تلك الأعصاب وتتساقط لرماد. حرصت على أن لا يلتقي بصرُها ببصر ذلك الشيطان الذي كان المُحَرِّك لتلك الجلسة ولغراب الإسكان، بندق بندق، ما من اسم تَكَرَّر وبإلحاحٍ وبمجونٍ كما تَكَرَّر ذلك الاسم تلك الليلة، الكلُّ يستعذبُ غناءه ويصبُّ فيه كلَّ خلاعته، يلوكون ذلك الاسم، متوسلين رضاه وحسناته، متملقين للسلطان المُطْلَق الذي يرفعه على الجميع.

كان الخدم قد انتشروا، وفي لمحةٍ تمّ رفع موائد الخَصَف التي بُسطت على أرض الصيوان بأطباق الأرز (السليق) المُتَوَّجة بخراف كاملة

ذُبحت ذلك الغروب. انتهى العشاء ولم يكن بوسع نورة أن تتذوق لقمة، غمامةٌ من عَرَق الشيطان ضبَّبت السُّفرة، عبق يثير الغثيان ويُترجِم شهواته الحالكة ونواياه. كانت تلك المائدة بخرافها الممدودة في الصواني برؤوسها تُحَدِّقُ في الآكلين، ما هي إلا فاتحة للقرابين التي تَلَت. أخذَ بندق يتحرَّك على المائدة كطوفانِ رغباتٍ متناقضة، يأكل بجشع، يلتهم الكميات المرعبة من اللحم الأحمر لا يمس الأرز المعجون بالحليب والسمن البري ولا الخضار والفواكه. فقط اللحم الدامي كلسانه الذي يلعق شفتيه بكل لقمة وباطن فمه المكشوف مع كل قهقهة ماجنة. لحمٌ يُحْرَقُ لطاقةٍ صاعقةٍ في ذلك الفرن وشبكة الأعصاب ولا يُنْتِجُ ذرّة شحم واحدة..

«أين يذهب كل هذا الأكل.. إبليس نفسه يأكلُ معكَ..» ضحك غرابُ الإسكان مداعباً بإعجاب واضح بصنيعته بندق، وبكل نظرة يتعزَّز ذلك التعجب، بينما يتضخَّم بندق باللغز الشيطاني الذي يُمَثِّله ويَحارُ فيه الجميع.

لعلعتْ أفرانُ بندق مفتتحاً السهرة، اندلعت الموسيقى صاخبة ودوَّت الطبولُ من شبكة أعصابه إلى شبكة أعصاب الحضور، متطوحاً بدويّ الطبول وراعصاً أخذ بندق يدنو، ويومئ للفتيات بتلك الإيماءات الوقحة، وبأصابعه يُشير عن بُعد لأكتافهن وذُرى صدورهن وللأفخاذ التي تلاحمت في صفٍّ دفاعٍ. .عندها قام غراب الإسكان بالحركة التي فتحت أبوابَ جهنم، فقد انبثق فجأة، بلا شيء يستره غير تلك الفوطة الملفوفة على خاصرته وتترك جذعَه الضخم مكشوفاً بأكداس الشحم المهولة والحروق التي تُعَلِّم اللحم... وجُذِبَت النسوة الثلاث للرقص، وجدت نورة نفسَها تتعثَّر بين الأجساد الراقصة يُعميها جثمان اللحم العظيم تُرَقِّطه الحروقُ، أنيابُ شيطان لا تزال ناشبة بذاك اللحم. وتَبَدَّل إيقاعُ الطبول ليصير أكثر إلحاحاً وتشنجاً وارتعدتْ نورة بفكرة أن يلامس جسدها. لكن بندق كان

يتطوَّح كذبابةٍ مصَّاصةٍ للدماء تُحَوِّم وتقترب، أقرب وأقرب وتداعب اللحم العظيم وتغوص بتلك الحروق ويفوح عبقٌ كبريتي ثخين، وتأكد للراقصات أن ذلك الجسد عار تحت ستار الفوطة الرقيق. ولقد أكد بندق تلك الحقيقة حين قام راقصاً بإسقاط ستار سيده، وانبثق غراب الإسكان عارياً، أغمضت نورة عينيها مستشعرة عينَ الصنم تُغلِّفها، كميات اللحم أخذت تتلاطم، وتُمزِّق الأحشاء بغثيان، وتتفاداها العيونُ لشبكة أعصاب بندق المنحوتة من فولاذ.

مستشعراً لرفضها انجذبَ لها الشيطان، جَعَلَها هدفاً لمجونه ودنا، مشيراً ببنصره إلى نحرها، وشهقتْ مختنقة بريقها، وتعثَّرتْ والتوى كاحلها، شعرت نورة بالقذراة وبغباء أن تمضي في تلك الرقصة، وللحال شقَّتْ طريقها متراجعة لجلستها الأولى، وتبعتْها عينُ الشيطان بشُهب، قرأ رفضَها الصريح مما دفعه للتحويم بمجون أفدح حول الراقصتين، ينخسهما برغباته الحالكة. . .

ومضى المَشْهَدُ إلى ما لانهاية، بشبكة الأعصاب تجلد سُحب الشحم ليرعد، وتَمَدَّد الشحمُ ليبتلع أجساد الإناث الثلاث، هنا انفصمت نورة عن المشهد، وتمزَّقَ سوادُ الشيطان في صواعق، انقضَّ عليها، جَلَدَتْها نظراتُه بأسياخ نار،

«ما هذا؟» حاولتْ كتمان نحيبها الذي تفجَّرَ هستيرياً، محاصرةً ببؤبؤيه المتفحمين بمحجرين من دم مُتَجَلِّط وبلا بقعة بياض، تلك العين من رمالٍ متحركةٍ فاحمة بلا قاع كانت تقطر على وجهها الدم، انفصلَ بندقُ عن الرقصة، بأصابع من نار قَبَضَ على رسغها وجرجرها خارج الصيوان، دَفَعَها إلى الخيمة المجاورة، وهناك ألقاها بكل قواه لترتطم بالأرض،

«يا فاجرة، تلعبين لعبة العذراء. . . سعرُكِ جاهز في المظروف. . ومدفوع بالدولار، مئة ألف دولار لكتلة اللحم الرخيصة هذه، ثلاثون ألف

لرفيقاتكِ البغايا.. تساومين على المزيد بتمثيلية الحشمة هذه؟!» بَدَتْ على نورة إشارات الجنون، ترتعد بعماء واحتبستْ أنفاسُها وأخذ لونها يستحيل للأزرق، نحيبُ حيوان جريح ينبعث عميقاً من صدرها، حتى الشيطان بدا مأخوذاً بذاك النزع،

«خذوني لبيتي.. يا الله.. أرجوكم أريد الرجوع لبيتي...» شعر الشيطان بالإهانة،

«أتظنين أنكِ تساوين فِلْساً؟ أمثالك من اللحم الرخيص في عالمِ سوق يزدحم بأفخر أنواع اللحم الطازج والأكثر طزاجة؟ كل يوم يُطرح فيَ السوق الأطرى والأجمل.. أشعرُ بالغثيان لـمُجَرَّد التفكير في كميات اللحم التي تُطرح تحت قدميّ، من تظنين نفسكِ؟ نحن في جاينت ستور يعرض على الرفوف بالجُملة الصدورَ والمؤخرات بكثافة وبرخصٍ يدعو للغثيان، بوسعي استيراد أمثالك في ثلاجات، أنت لا شيء، لا شيء..» جَلَدَتْها عيناه بانتظار أن تنبس بكلمة واحدة لكي يقصم عنقها، وغاب صوتُ نورة إلى مكان سحيق بصدرها، وكانت تغرق في ظلمات،

«أنتِ لا شيء، اخرسي، قَسَماً بالله، لو بلغني منكِ نَفَسٌ هشَّمتُ رأسَكِ وألقيتُ بقذراتك لضباع هذه الصحراء.» وغادرها. وقد غابت أنفاسُها، وجَفَّتْ عيناها جاحظتين على جدار الخيمة المواجه، على ذلك الجدار كانت كتابة مُذَهَّبة، أخذتْ تتوسَّعُ وتُغطِّي الآفاقَ الأربعة حولها، ولم يعد بوسعها أن تتحرَّك أو تسمع أو تنظر إلا لقلب تلك الآيات، ولكلمة الله بقلب القلب، أدركت أنها داخلة ناظرة لقلب القرآن في آية الكرسي، الموصوفة للتحصين وطرد الفزع. لم تكن تقرأ الآيةَ وإنما تزحف وتَنْسَلُّ فيها، طالبة المأوى، تشرنقت أعمق وأعمق بينما الآية تَخِفُّ وتتخفَّف، صارت نورة واعية بالصنم الأبيض على هيئة مِسَلَّة ثلاثية الوجوه، ينحني ويميل لانحنائه المُخَيَّمُ بكامله، يتناولها على عُرفه، وكان بوسعها أن تُمَيِّز وجه الأنثى يندغم بوجه الذكر والطفل، وبها.. صارت

معهم كتلة واحدة من الحياة الفوارة صوب السماء.. بينما في الصيوان المجاور بُسِطَ اللحمُ النضر يعلوه اللحم المحروق تعلوهما شبكةُ الكابلات مُرْسِلَة صعقاتها برائحة كبريت زنخة.

في الليلة الأخيرة قبل وصولهم لمعسكر شيخها، كانت نورة غارقة في النوم حين أيقظتْها رائحةُ حُرْقٍ مُقَزِّزة، انشقَّتْ عيناها في العتم لترى بُندق يتعالى في خيمتها كعمود دخان. شَلَّها في فراشها بنظراته النارية، ومن دون أن يتنفَّس ارتفعتْ ذراعُه في الهواء وانهالتْ على جسدها المشلول، وميَّزت نورة العِقَال ينهشُ لحمَها. لا شيء غير أنفاسه الكريهة تُعَكِّر فراغ الخيمة، ويجلدها بصمتٍ، وتغوصُ نهشاتُ العِقَال أعمق ونورة تتلقَّى بصمتٍ، غادرتْها كلُّ حواس الألم أو الدفاع عن الذات، كان الألم أعمق من أن تلحقه صيحة أو تنقضه حركة، مثل نَزع روحٍ استسلمَ جسدُها للجَلْدِ، بينما رفيقتاها في سريريهما جاحظتين ترقبان مشلولتين في كابوس، استهدفت الضرباتُ وجهَها خاصة، بهدفِ كسرِ شموخها، بعماءٍ تلحقُ الجَلْدات بالعنق والصدر، طَوَّقَت نورة رأسها بذراعيها، وحجَّرت جسدها لاستقبال الألم! جزءٌ منها احتضنَ ذلك الألم لغسل ذنبٍ قديمٍ يكمن في بقعةٍ عميقةٍ من جوفها.

فجأة قَاطَعَتْ ضحكةُ بُندق الشيطانية ذلك الإيقاع،

«آهِه.. هو السوط إذاً هذا الذي تشتهين؟! عرفتُ أي فاجرةٍ أنتِ مُذْ لعبتِ تمثيلية العذراى تلك.. وصرتِ تُمضين معظم وقتك في الصلاة..» انتظرَ رَدَّ فعلها عبثاً. «تَنَفَّسي بكلمةٍ مما فعلتُ، وسأتسللُ إلى نومكِ، أقصمُ عنقَكِ وأطحنُ عظامَكِ بحوافر ناقتي، وألقيكِ في هذه الصحراء بعيداً عن طُرُق البَشَر..» بَصَقَ عليها وتلاشى.

تَجَاهَلَ شيخُها آثارَ الجلد على جسدها، يعرف، لكنه يخضع لقوانين شراكةٍ حيوية لنجاح خُططه الخاتمة.

لا شيء غير ذاك الحِسّ العميق بالوحدة. تلاشتْ كلُّ الوجوه التي أعطتْ لصُوَرِ معاذ المعنى: بيت اللبابيدي ثم يوسف ومشبب ثم خليل. تَجَلَّد الحِسّ باللعن في الهواء، «مكة موقوفة على حافة القيامة.» تلك هي اللقطة التي تُلَخِّص لمعاذ الفراغ الماحق حوله. وللتعايش معها وفيها استسلم معاذُ للإيقاع المُتَبَدِّل مع المواسم باستديو الحداثة حيث يعمل، يبحث هذه المرة عن مهمة للوجود خاصة به.

الاستديو الذي لا يزيد على ثلاثة أمتار مربعة، بحاجز خشبي عارٍ من الخارج مُلَبَّس بمُلْصَقِ شلال لا تتزحرح منه قطرةٌ ليلَ نهار، ولا قطرة تسيلُ لتُنعش معاذ الذي يشعر بأن الاستديو أصغر من أن يستوعبَ خطورةَ أفكاره تلك الأيام، وخصوصاً حين يتأخَّر صاحب الاستديو وينفرد معاذ بوجهِ أنثى، لا تعود الكاميرا هي التي تلتقط الصورةَ، وإنما كاملُ جسده يلتقطها ويُحمِّضها تحت جلده القاتم، أحياناً تُبَالِغُ فتاةٌ فتُهَرِّبُ غُرَّتها لصُورَتِهِ، يعرف أن هذه الغُرَّة ستُعادُ إليه حين تصل إلى دائرة الجوازات، يُرجعونها لالتقاط أخرى، بلا غُرَّة، يُراقب محاولات البنت لتسريب توقيعٍ آخر لذاتها فتدفع هذه المَرَّة طَرْحَتَها لبدايةِ جذور شعرها الفاحم الكثيف، يصير خط الجبهة مُحَدَّداً بسواد فتنجح في تهريبها تحت يدي موظف الجوازات. خارج الرسميَّة تسترخي البناتُ يُهربهن لعيني معاذ الغارقتين خطفةً من شَقَّة الصَّدر أو من طرف الساق، أكثر ما يُعجزه رهافةُ كواحل النساء، لا ككاحل أمه الغليظ بطبقة من التراب كخُفِّ جَمَلٍ، وإنما التفافة وتكوير خاطفٍ كبُرعم،

«سأتفرَّغ لتصوير كواحل النساء، آلاف الكواحل أَبسطُها وَرَقاً للحائط، وأقف بينها بقلب الحائط.» ذاك حلمه الأخير، والذي يُشَكِّل منطقةً خارج الذنوب، لأنه لا يستحضر نَصّاً بعقوبةٍ تَطَالُ المتأملَ في كواحل النساء.

يؤمن معاذ بأنه كان يلتقط الصُّوَر قَبْلَ أن يملك كاميرا، حين ارتقى اليوم درجات المئذنة الضيقة ـ ليُطل من نافذتها الصغيرة على الزقاق ـ ووَقَفَ متوارياً، لَمَحَ الكبارَ الذين كَبُرَ بينهم أصغر، رآهم معزولين في لقطاتٍ من الوحدة والضعف والقلق، انتبه للّوحات الصغيرة التي يرسمها الأولاد الذين كان مثلهم، مُعَفَّرين بالتراب ومحصورين في مساحاتٍ ضيقة حول بيوتهم، رأى أنهم قد وجدوا اليوم مَخارِجَ لتدخين أرجيلات المقهى أو لمطاردة ظلال البنات اللواتي صرن أجرأ. رأى معاذ صغيرات أبوالرووس يبذلن جهداً أكبر للإطلال من وراء عباءاتهن، يحاولن أن يضعن أعينهن في عين العالم، يرين أكثر مما رأى وأخواته البنات. (هذا جيل بكشّافات) تُنَوِّر لقطاته وأحياناً تحرقها بجُرعة نورٍ زائدة.

في صحيفة عكاظ بيد الزبون لَفَتَتْ نظرَ معاذ اللوحةُ الفنية المُكَبَّرة لتحتلّ رُبعَ الصفحة، انهمكَ الزبونُ يتهيأ أمام المرآة، يُبلل شعثَ حاجبيه بلعابه حين اختلس معاذ من صحيفته نظرةً لتلك اللوحة الفنية، لجذعٍ بَشَريٍّ بالأسود على خلفية بيضاء، شوقٌ زَلزل قلب معاذ فجأة، يعرف تلك الهيئة، جَرَتْ عيناه في الأسطر الأولى للخبر:

(تحت رعاية معالي وزير الثقافة معالي الدكتور فيصل المعايطي يُفتتح اليوم الأربعاء الموافق 20-2. . . . . معرض الفنانة التشكيلية نورة. وذلك في تمام الساعة الثامنة مساءً بصالة عرض جاليري الأرض بمدينة جدَّة، وهي من الفنانات الواعدات في الحركة التشكيلية المعاصرة بالمملكة. . . .)

اخترقتْه عينُ الزبون شاخصة من مقعده بمسقط الكاميرا، بابتسامة ممطوطة كرغيف صامولي مُرَقَّط بالسِّمْسِم وبحزوز من سكِّين الفَرَّان، بانتظار الالتقاط، في محاولةٍ للسيطرة على رجفة يديه وقلبه وبحركةٍ آليةٍ سَلَّطَ معاذُ الضوءَ الأبيض الكاشف على ذاك الرغيف، وحامت عدستُه

على النور في محاولةٍ لتخفيفِ حِدَّةِ التقطيبة، فجأة وكشلالٍ اندفعت تهدر كلُّ اللقطات الساكنة والمتحركة التي استغرقتْ لياليه لرسومُ عَزَّة، وجذوعُها البشرية المقطوعة التي سَكَنَتْ أبوالرووس، والتي قَضَى طفولتَه يَتَلَصَّص عليها وصار يحلمها في اليقظة والصحو لتنصَبَّ في تلك الإشارة بحجم رُبعِ صفحةِ جريدة، تَجَمَّدَت يده على وجه الزبون المحبوس في العدسة، كمن يتلقَّى وَحياً طال انتظاره، وحياً مُلَخَّصاً للرسالة التي تَكَرَّسَ لها، خلاصة حياته، بنَفَاد صَبرٍ ضَرَبَ على زِرِّ الالتقاط وهشَّم ذلك الوجه برغيفه، وسَمَحَ للرَّجُلِ بالمغادرة، وفي لمحةٍ كان يركض بطول حارة الباب. بينه وبين ذلك الافتتاح ساعات قليلة، الخبر لم يمنحه فرصةً للتفكير، عليه أن يكون ذاك المساء بمدينة جدَّة، ليعثر عن ذلك العنوان: (جاليري الأرض، الكورنيش أمام مركز الجَمْجُوم التجاري، جدَّة).

كعادته لم يجد معاذُ عناءً في الانتقال بين محطات حافلات النقل الجماعي، تلك الحافلة المُلَوَّنَة بالأزرق والبرتقالي والمُعَطَّلَة التكييف، انتهتْ به لمُوَاقِفِها خلف مركز المَحْمَل بقلب جدَّة. أسلمَ معاذُ بصرَه للنسمة المالحة لبحيرة ماء البحر المبسوطة مكان (بحر الطين)، والذي كان آخر حدود مدينة جدَّة والمسكون بمَقَالِع الحجر المَنْقَبي الذي انبنت منه تُحفُ عمران جدة القديم، حجرٌ ينفثُ الرطوبةَ ويُمَلِّح عظام ساكنيه، بينما ابتلعتْه الآن عروسُ البحر الجشعة المتوسعة، وحصرتْه بين عمالقة الإسمنت والزجاج للبنك الأهلي وعمارة الملكة ومراكز الكورنيش والمَحْمَل.

من مَوَاقِف النقل الجماعي استقلَّ معاذُ سيارةَ أجرة لتأخذه إلى موقع المعرض، ارتمى على مقعد العربة وأرخى الزمام، سَمَحَ لجسده أن يَتَخَدَّر كخُلاصةٍ لفراغ لياليه بغياب خليل وبحثه المحموم عن معركة تخصه هذه المَرَّة، ببصره الشحيح والزائغ انشغل معاذ بتقطيع جدَّة (عروس البحر) وحَبْسِها في كودار ذهنية، غافلاً عن محاولات السائق لتحفيز العَدَّاد،

فعِوَضاً عن أن يسلك التاكسي طريقَ الأندلس المُخْتَصَرة لِتَقَاطُع فلسطين ثم غرباً للبحر، لجأ السائق للالتفاف من كوبري (وليِّ العهد) للأنفاق الجديدة على شارع الستين ليبدأ به من أقصى الغرب، قاطعاً بمعاذ عروسَ البحر شرقاً لغربٍ بامتداد شارع فلسطين. في صورةٍ ممطوطةٍ حَبَسَ معاذُ كاملَ الشارع مثل حبلٍ مشدودٍ في سيرك لسير المُهَرّجين في الهواء، يبدأ مشدوداً بطبقةٍ من الفقر والمباني المتآكلة، ثم حين يقترب من عَصَبِ جدَّة المعروف بطريق المدينة تظهر مباني الطفرة الزجاجية والأبراج منحدرة للبحر لتنتهي بنافورة قصر الملك فهد بقلب البحر الأحمر بشُعَبِه المرجانية النادرة، ما بين شارع الستين والمدينة، وعلى الجانبين مملكة الهواتف النقالة، تزعق أبواقُ السيارات تزحف ببطءٍ بين جيوش من العِمَالَة تشتري وتبيع الهواتفَ المتطوِّرة والمسروقة. تَجَاوَزَ القُنصليةَ الأمريكية شِبْه المهجورة بسواتر الحماية، ولم يقاوم، التقط صورةً ذهنية بانورامية للرشاشات المحمولة في السيارات المُصَفَّحة على بَوَّابتها:

«أبوسع كل تلك العزلة أن تُفَرِّخَ لقطاتٍ من السلام والأمان في الداخل؟» أمامه كان قرصُ الشمس برتقالياً فاقعاً يَغْرق بآخر شارع فلسطين، وعلى الجانبين كانت الغربان غيوماً تَتَجمَّع لتأوي لأشجار الفيلات، كلما هَبَّتْ ريحٌ أو زَعَقَ زمورُ عربةٍ هَطَلَتْ مطراً أسود، مُبَقِّعاً حوافَ قُرصِ الشمس البرتقالي، استرجعَ معاذُ نافذةَ يوسف بعنوان (الغراب التاريخي)، والتي أثارتْ زوبعةً، وأرسلتْ العشِّي في نوبة اكتئابٍ وشَكٍّ، حين أدَّتْ لاحتجابِ نافذة يوسف بعدها لأشهر:

(قمنا باستقدام الغربان كحَلٍّ للقضاء على الفئران المُتَكَاثِرة بتكاثر مُخَلَّفات مُدننا الحديثة، والآن وكلما تكاثرت الغربان وهطلت من على الأشجار يحتدم النقاش بديوان مُشَبِّب، ويُكرر أكثر جُلاَّسه حكمة بأن: «العرب تُسمِّي الغرابَ بالأعور لأنه يُغمض إحدى عينيه ويكتفي بالنظر بعينٍ واحدة لقوة إبصاره. وأنه يُبصر من تحت الأرض بقدر منقاره!» ويُحرِّك مُشَبِّبُ الحوارَ

بتصوير الغراب كرمزٍ للمسيخ الدجّال الأعور، المُمثِّل للحضارة الغربية العوراء: بعين على المادة وأخرى عمياء عن الروح!)

عَبَرَ التاكسي مركزَ فلسطين التجاري، خَطَفَتْ عدسةَ معاذ أجسادُ النساء، تلك المرأة المندفعة في مَوقف السوق على شكل حِدوة، وجه المرأة سافر، وخلفها امرأة مكسوة بسواد وقفازاتٍ، وخلفهما مجموعة فتيات تسقط الطِّرَح على أكتافهن، بنسائم البحر تُطَيِّرُ خصلات شعورهن المُلَوَّنَة. انتابَ معاذ إحساس أنه قد حَطَّ بأرضٍ غير الأرض، لولا عربة البيع الخشبية تلك، والمركونة بركن السوق، وتماماً في ظلال آلة الصرف الإلكتروني، بالمرأة الأفريقية المستندة بظهرها إلى الشعار الأزرق للبنك السعودي الأميركي، بذلك الوشاح البرتقالي بطبعة جلد النمر، يغطي شعرها باسترخاء، لتُفلت منه ضفائر ثلاث لليمين وتدويرة العنق الكاشفة للترقوتين المُسننتين، في لقطةٍ خاطفة جَمَعَ كومة البنات اللواتي اندفعن في عباءاتهن الفاخرة، بالكرانش وحليات الفضة والأقمشة الملونة للأكمام والطِّرَح، والخواتم والأساور من كلِّ أصناف الجلود والخَرَز والمعدن والكريستال. . . (والله البنات فَلَّة) استرجع معاذ حكمةَ طفولته في تلك الجملة، وتجمَّدتْ يده على زِرِّ الالتقاط بصندوق رأسه، مُتَحَسِّراً: «كيف فَاتَكَ إحضار كاميرتكَ!» كان السائق وطوال الوقت يُراقبُ وجهَ معاذ، ضحكتُه أخرجتْ معاذ من دهشته، وَجَّه له السائق الباكستاني سؤالَه:

«أنتَ نَفَر في جديد بهذا بلد؟؟»

هَزَّ معاذ رأسه: «تَصَوَّر!»

حين أقبلَ معاذ على نافورة الملك فَهد بوسط البحر تَوَسَّعتْ عدستُه وتَأَهَّب، أشارَ السائقُ إلى اليسار مُعْلِناً الوصول إلى العنوان. مَيَّزَ معاذُ عن يساره صالةَ العرض الأنيقة بازدحام العربات أمامها، ربع ساعة مضت على الافتتاح، أشار للتاكسي بالتوقف بمحاذاة مواقف مركز الجَمْجُوم

التجاري، قَاطِعاً شارع فلسطين بالعرض للصالة على قدميه. بهدوءٍ انسلَّ في الزحام، واحتوتْه غيمةُ عطورٍ بتركيبةِ بُهَارٍ شرقيةٍ للرجال وبجوهرٍ مُفْرِطِ الحلاوة للنساء، على المدخل كان بوسعه عَزلَ عَرَقه وبقايا الأحماض على أنفه، تلك الأحماض التي تُظَهِّرُ في مَعْمَلِه الملامحَ من عَدَمٍ، والتي تضاءلتْ في حضرة تلك العطور الـمُقْتَحِمَة كجَرَّافات.

وَجَدَ معاذ نفسَه بمواجهة تلك اللوحة الأخيرة، في فراغها كان بوسعه تمييز هالة زرقاء تحبس داخلها جسدين مؤنثين، يعطيان ظهريهما للعالم، لكن إحداهما كان تلتفت بوجهها لتنظر إليه، يختلط في ملامحها الألم بالسخرية. ارتعد معاذ مغمضاً عينيه، نافياً عَزَّة وعائشة اللتين تجسدتا في فراغ اللوحة، ساخراً من تهويماته، «أنتَ يا ابن الإمام لا تعرف من جنس النساء غير عزة وعائشة وتسقطهما على كل تأنيث!»

أحدُهم كان يتحدَّث مع الفنانة،

«قال بيكاسو مَرَّة إن الفن هو مذكرات الألم والحزن.. ورأى الحزنَ بصفته العمود الفقري للحياة.. قال: حين وعيتُ أن كازاجيماس قد مات بدأتُ أرسمُ بالأزرق! فما الذي دفعكِ يا نورة للرسم بهذا اللون الرمادي؟!»

«البِطَالة!» جاء الجوابُ سريعاً ممزوجاً بتلك الضحكة، لكن رَدَّ فعلها الحقيقي احتجبَ عن معاذ بجسد العامل الباكستاني الذي وَقَفَ بينه وبين الحشد بصينية المُقَبِّلات. خَطَفَ معاذ كأس الماء، وصَبَّه بجرعةٍ واحدةٍ لجوفه ليطفئ ذلك الجفاف،

«لا، لا.. حقيقة عملُكِ الفني يجب أن يُعرض على جمهور الرياض.. فقط اتصلي بي..» انغلق جلدُ معاذ كشريحةِ فيلم بولورايد على عنقِ الفَرَس التي انثنتْ للوراء عن تلك المُجَامَلَة، تَطَاوَلَ معاذ لاستراق نظرةٍ لصورة وجهها المُؤطَّر بسواد الحرير، كلما نَظَرَ إلى ما بين شرائح الأحماض برأسه تَظَهَّرَتْ له الفنانة في صورةِ مُهْرَةٍ! أبدع أمهار

سليمان وجاهزة لشفرة السيف! وزاحمتْ كاميراتُ الصحافيين والعيونُ عَدَسَةَ معاذ الذهنية، والمُضَبَّبة بِصُوَرٍ قديمةٍ لأنثى أخرى لكن محجوبة تتداخل وهذا الوجه لهذه الأنثى الصقيلة. جَاهَدَ معاذُ ليتجاوزَ طبقاتَ حِجَابِ الأمس ليُطَابِقَ ما كَتَمَتْه بإفصاح اليوم، فرجة الشفتين هي التي انفضحتْ دائماً مما وراء حجابِ الأمس لليوم، فما الذي يتضارب وأرشيفه السري؟

قَاطَعتْ عدسةَ معاذ صُورةُ الشخصية المُفْتَتِحَة، وسيلُ الكلمات، جاهد المُفْتَتِح للفت انتباه الفنانة:

«لدينا حركة تشكيلية تنشط هذه الأيام، حركة الإصلاح شملتْ كافةَ المؤسسات الثقافية، سيسر مركز جمعية الثقافة والفنون بالرياض استقبالكِ في مركزها..» أعمى معاذَ الانقسامُ الصارخ بين بياض الثياب المُذَكَّرَة وسواد حرير عباءات النساء. في الحَدِّ بين سواد وبياض استغلَّ معاذ كلَّ مهارات التظهير والتنقيح لإعادة صياغة ماضي وجه الفنانة،: مُقَشِّراً طبقةَ مساحيق التجميل، مُكَبِّراً الجزئيات الضوئية لمساحات الوجه. راح يعيد الحاجبين لكثافتهما الأصيلة قبل التشذيب، ويعيد امتلاء الوجنتين قليلاً، مُعَزِّزاً حِدَّة العينين بلمحةٍ من التوقع واليأس.. من تلك الجزيئات المُكَبَّرَة انبثقت الأجساد من اللوحات.. كلها أجساد بلا سيقان وفي حالة ركض... في الركن وفي اللوحة ما قبل الأخيرة نحجَت الفنانةُ في قبضِ خلفيةِ رُكبة... بينما نجحَ كاملُ الجسد في الفرار.. كامل ذاكرته تلخَّصَتْ في فراغ تلك اللوحة الرقيق.. وتضبَّبتْ عدستُه بحركةٍ داخلية لشبحٍ غير منظورٍ يتراكب ويتداخل مع جسد الفنانة اللامعة..

كان من المستحيل على معاذ أن يتحقَّقَ من شكوكه أو يُعرِّف ذلك الشبح. سقوطُ الحجاب وحضورُ هذا الجسد المصقول بأحدث التقليعات وأدوات التجميل شوَّها الآثار الرقيقة التي كان يحفظها في أرشيفه كمرجعية.. انفراجُ الشفتين الممتلئتين هو هو لم يتبدّل.. لكن هاتين

الأذنين المرقطتين بالألماس تشرئبان في تأهُّبٍ للفرار. . لا تطابقان الأذنين في أرشيفه السري. . التشوُّش الأكيد كان في الكاحلين، مطبوعين في ذاكرته خاطفين يعبران أبوالرووس بقلب الليل، يعرف ذلك الكاحل لكنه تبدَّلَ الآن في الحذاء بكعبٍ عالٍ. . مشدوداً للأعلى ككعب راقصة ومُلَمَّعَاً بالأدهان العطرية. . كان هناك شيء حيوي مفقود: الفرار الخاطف طلباً للحياة. . . الفرار للنجاة. . . هذا الكاحل مغروس كوتد لا يفرّ ولا يطلب الحياة. . .

لم يعد بوسع معاذ التأقلم مع زحام النساء والرجال، يتناقشون وتُفرقع ضحكاتهم ويبرقون ويتبارزون لكسب إعجاب الإعلام. .

اندفعَ خارجاً لالتقاط أنفاسه، قَطَعَ شارع فلسطين بالعرض، ليفترشَ رصيفَ مَوَاقِفِ مركز الجَمْجُوم المُقَابِلَة.

تجريد ماض

اختار مُشَبَّب أن يبحث عن الحصن في التركيبة البشرية للمنطقة، فكان يتمهَّل أمامَ كلِّ بناءٍ وحانوت، يتبادل مع الآخرين الحوار، ينبش الكلمات عن زَلَّةٍ تقوده للحصن، بينما راح ناصر ويوسف وجاءا في ذلك المُرَبَّع من أرض، أشبه بِمِزَقٍ مخطوطةٍ تاريخيةٍ، أينما نظرا كانت بيوت وبساتين نخل، حتى راودهما الشَكُّ في نجاة الحصن من الدمار مدة الأربعة عشر قرناً من الهجر، لم يبق في المنطقة ببنيانها الطوبي العشوائي ما يدلُّ على بقاء حصنٍ قديم من الحجارة، أينما توجها ردَّتْهما حوائطُ إسمنتية وسياراتُ نقلٍ واقفة أمام مكعبات البيوت المتآكلة. وكان عرج يوسف يتأكّد.

قاد يوسفَ تَخبُّطه مع ناصر الذي يبدو جذلاً لعمودِ الحجارة

القديمة، ولخرابة الحصن أمامهما ولقد تجاوزاها لأكثر من مَرَّة، وكانت محمية خلف ساترٍ كثيف من الأشجار المتسلقة الجافة يحرسها ويخفيها عن الأنظار صفٌّ نخل، وبدا كأن جهود البَشَرِ أو الحَجَر قد تضافرت لإخفاء بقايا ذاك الحصن، تقدَّما ليُباغتهما ذاك البناء الحجري العتيق المغمور في النباتات البريَّة، وكان مضموماً لفِنَاءِ بيتٍ طيني مُتَهَدِّم، ومن فتحة في الجدار موضع ما كان يُعرف بالبوابة الرئيسية تَمَكّنا من الولوج إلى دائرة البُرج، وهناك تلقَّاهما الضوءُ الشحيح وتجمدا في وقفتهما، وحولهما كانت بقايا روث جاف، وأصداءُ أفكارٍ وخُطَط حربية ومؤامراتٍ وقعقعة سلاح، لا تزال هاجعة في ذاك المعبد من حجرٍ ومتكتلة لتحجيب حقيقة ذاك الحصن مع النباتات البرية.

مَضَى يوسف وناصر يتجولان في الحجرات الصغيرة المُتَفَرِّعة من القاعة الرئيسية، والتي كانت مطمورة بالتراب ومُتَداخِلة بحجرات الدار الطينية، ومسدودة ببقايا صناديق مكسوة بالعناكب والنبات. راحا ورجعا إلى القاعة الرئيسية، وإلى ذاك الحائط يَتَصَدَّرها مثل محرابٍ مُغَطّى بطبقةٍ من الجِصّ. ولقد تآكل الجِصُّ قريباً من القاعدة وكَشَفَ بعضَ الأحرف المحفورة.

حين لَحِقَ بهما مُشَبَّبُ كانا قد شرعا في النقض، دخلوا في حلم واحد غائم، بلا ضوء غير ذلك الضوء الكشَّاف الذي تبهت بطاريتُه بِتَسَارُع، كان من العسير تحديد مَنْ منهم كان يحلم ومَنْ كان صاحياً، وأيهم يُوَجِّه دَفَّةَ الحلم للهدف الذي يُحَرِّك كل منهم للكشف.

من تلك القاعدة شَرَعوا في العمل بسِرِّيةٍ تامة، مُدَّةَ دوامِ ضوءِ النهار، حتى إذا غاب الحائط في العتم مضوا يتحسَّسون مَوَاقِعَ للكشط، يحرصون على عدم إشعال ضوءٍ يمكن أن يلفت لوجودهم، وامتدَّ اليومُ لأيامٍ، حين يتصل الليل بالنهار لا يغمض لهم جفن، بيوسف مُتأرجحاً على تلك الركبة الفولاذية، وكانوا يعتاشون على التمر وخبز القمح

الجاف، ويتبادلون الهبوط للسوق لجلب الماء المعبأ في زجاجات، ويقضون حاجتهم في حفرة تحت سور الحصن! ولأوقاتٍ تَسَمَّرَ مُشَبَّب ساكناً كنقطةٍ على الجدار المقابل، يستحضرُ عزيمةَ الأجداد للمُضِيِّ في ذاك الكشف.

في مراحل كان ناصر يتخذ مَوضِعَ الراقد، يكمن في الطرف الأقصى بالقاعة، ويمتدّ به الصمتُ حتى يغيب، ولا يبقي أمام الجدار غير أنفاس مُشَبَّب ويوسف، كلاهما واحد، كان من الضروري تقليص الإرادات والأهداف في تلك القاعة، بحيث تصير إرادةً واحدة، إزميلاً واحداً يغور في تلك الشجرة ويُعَرِّي جذورَها الخفيَّة... في الطرف القصي من كيان يوسف كان مُشَبَّب يكمن بكل معارفه من المعمرين والتواريخ غارقاً في خيالات يُرَكِّبها مما يظهر من الكتابة، بينما مضى يوسف بصبرٍ لكشط تلك الطبقة من جِصٍّ، كلما تقدمت إرادةُ ذلك الكائن التاريخي انكشفت جذور الشجرة، وبان جذعها تدريجياً وبطوله امتدَّ اسم كعب بن الأشرف، مضت الأيام والكشط منتظم، استسلمَ الجدارُ يكشف ما أخفاه طوال تلك القرون من أغصانِ الشجرة ومَعَالِمِها... وفي لحظاتٍ ينفصل يوسف عن ذاكرة الجدار وينفصل مُشَبَّب عن ذاكرة يوسف وينفصلان عن حلم ناصر، عندها يفقدان الوُجْهَة، يشح بصرهما في العتم وتضيق محاجرهما وترتعد أصابعهما، مثل مدمنين غائبين عن العالم في الخارج، بينما عين ناصر جاحظة، تستحضر كمالَ اليد التي بدأت ذلك النقش، ويستحضر إرادة تلك اليد والتي بَدَتْ له في ذلك الضوء الشحيح كيد عملاقة واصلة للسماء.

إرادات

لدهرٍ جلس معاذ منسياً على رصيف مواقف مركز الجمجوم التجاري، مواجهاً لصالة العرض، وغيَّمَتْ رطوبةُ البحر وزرقةُ الحديد

على زجاج المركز التجاري الضخم وراءه، بوعيه بُخَارُ النافورة بقلب البحر تغرف ملوحتَه لتنثرها في الفضاء، فَكَّرَ أن هذه النافورة تتحدَّى الصيرورةَ التاريخية لانهيار الحضارات والأبطال، فلم تخمد مع وفاة الملك فهد الذي انطلقتْ في عهده، ما زالت ترتفع نشوانة عشرات الأمتار في الهواء، التقط صوراً متلاحقة لبخارها المبسوط ستاراً عرضياً في سماءِ البحر، يعرف أنه حين تحميض تلك الصور سيظهر غبارُ النافورة مثل رجالٍ بثيابٍ بيض ومحلولة لتُبَقِّع السماءَ بنثارها! بوسعه هو أيضاً افتتاح معرض شخصي لخيالات تلك الرجال المحلولة. لحظتها أدركَ معاذُ أن وجهَ الفنانة قد خَدَعَه، شَاغَلَه فنسي التأمل في لغة الجسد، والمشية، والصوت، ومُطَابقتها بشريط الفيديو في رأسه، من مخبئه على درج المنارة كان يرقب خروج عَزَّة متسللة كل ليلة، متشرنقة في سواد عباءتها، سوادٌ كما هذا الإسفلت الذي يفصله عن التأكد من حقيقتها، وأن ما عليه إلا أن يعبر ليرقبها من بُعْدٍ، مُهَمّشاً الوجه، سيُغطي الوجهَ وسيعرف حقيقتها. لكن قَدَمَه خارتْ، مهما حاول الوقوفَ عَجِزَ. فكرةُ أن تكون هذه المرأة (عَزَّة) أرعبتْه، كانت كفيلة بقتل عَزَّة التي قامت عليها عوالمه التصويرية، ذلك الكائن المستحيل الذي كانته عَزَّة لأبوالرووس، والذي لا يمكن القبض عليه في حقيقة... في جلسته المشلولة تلك حَمَدَ الله أنها لم تره، ولم يُقاطعها. مهما كانت هذه الفنانة فهي ليست عَزَّة، أو ربما كنّ كلهن عَزَّة؟ هذه التي يحرص على حبسها كتخطيطاتٍ أوليَّةٍ للتجسيد على جدارِ كهف، ما إن يُفْتَح للنور والأنفاس البشرية حتى تبهت ألوانه وتنطفئ شعلتها التي دامت لملايين السنين. بعنادٍ أغلقَ معاذ وعيَه على عَزَّة التي فَضَّلَ في تلك اللحظة ألا يعرف وجهها، وألا يُعميه.

لم يكد يُفيق من صدمته الأولى حين وفجأة قام ذاك الخيال بين عدسة معاذ والرطوبة، حين رَفَعَ بصرَه لم يحتج إلى تفكيرٍ أو إلى مراجعةِ أرشيفِ صُوَرِه القديمة لتمييزِ مُحَدِّثِه، بنظرةٍ مستسلمة دَعَا تيسَ الأغوات

لمشاركته الجلسة، والذي قال بصوتٍ بالكاد مسموع بين ضجيج السيارات:

«عالمنا مات عندما ماتت بنات أبوالرووس، من غيرهن يحلم بفئران مثلنا؟ بل سمعتُ بأنه حتى الكعبة يحبسونها وراء المتاريس، منذ ضياع المفتاح.» لم يكن يُوَجِّه حديثَه لمعاذ، كان مشغولاً بعربة التسويق الحاملة لذاك المانيكان المُتعَرِّق بأذيال الموسلين والدانتيل... انقلب جوفُ معاذ وأيقنَ أنه سيُصاب بالعدوى لو وَجَّهَ عدستَه للمحةِ الجنون بتلك الأصابع المرتعدة والمعقوفة كخطاطيف تتفحَّص شرائطَ المخمل على خاصرة المانيكان البلاستيكية، وذاك الوجه الرخامي الساقط على جذع الأنثى المتحطِّب لا يُشْرِق ليُلقي بنظرةٍ على العالم، لأول مرة ينتبه معاذ للملامح المؤنثة لوجه التيس، ورأسه المحلوق يلمع، وآثار الجرح الأحمر يشق وجنته اليسرى مُخترقاً شعثَ اللحية البصلية ليغور في العنق:

«أنا كنتُ في الداخل..» طلعَ صوتُ معاذ أقرب للحزن،

«ورغم حرصي على ألا تراني فلقد أدركتُ ما جئتُ له، أنا وأنتَ وربما كل أبوالرووس، نحن لا نَمُتُّ بِصِلَةٍ لمن في الداخل. هناك مصورون محترفون. وربما رؤساء تحريرٍ ورؤساء ملاحق صحافية، وجيش من مراسلي وسائل الإعلام الدولية. من يمكن أن يموت تحت كل تلك الأضواء؟» تَغَاضَتْ نظرةُ تيس الأغوات عن علامات الزمن على وجه معاذ الذي كان آخر ما خلاه بأبوالرووس لا يزيد عن مراهقٍ يُقِلِّدُ الكبار، بينما هو الآن أقرب لمانيكان دبَّت فيه الحياة فجأة لتندفع جارفةً تحفرُ آثارَ عشرين سنةٍ في لحظة، مانيكان خاضع في تلك اللحظة لمعالجة مُضْنية بالأحماض الزمنية وتحت شحنات مدروسة من الضوء،

«لا أظن.» وبحركةٍ حاسمةٍ تَجَرَّعَ بقايا البيبسي من علبة، تلك حركة تمثيلية تليق بالتصوير،

«إن كان الفضول هو الذي جاء بكَ، فبوسعكَ الدخول، أتطمع في

أن تعرفكَ؟» أفلتَت الكلماتُ من معاذ كلقطةٍ لا يمكن التعديل عليها برتوش، ليتلقَّاه بهدوء:

«لا أظن.» رغماً عنه التقطَ معاذُ صورةً لرأس تيس الأغوات كما بَدَتْ له في تلك اللحظة: فارغة وتُرَجِّع صدى تلك الكلمة، إذ كلما استطلع صورتَه في عين تيس الأغوات لم يَرَ غير صورة ذلك المانيكان المسروق في عربة التسويق،

«من الغباء تكرارِكَ لكلمة لا أظن.. في الوقت الذي يُعوِّقكَ هذا الشعور بالدونيَّة والذي انتقلَ لكَ من يوسف... قل لي: وأنتَ من أي قبرٍ بُعِثتَ؟ آخر علمي بكَ فارًّا من شرطة الترحيل.»

«ستُصدم حين ترى ما يمكن أن يصنعه أُناسٌ يائسون مثلي، ليس لديهم ما يفقدونه، يجب أن ترى مملكتنا الصغيرة: قلاع على رؤوس الجبال، ومخابئ لا تجرؤ حتى الكلاب على ولوجها تحت أكداسِ العفن والقوارض، هناك لا يصل إلينا ترحيل ولا دورية! جيوش مُجَيَّشة ممن ينتظرون الكشف عن ذواتهم، لم نعد خُرافة، لصيقون بالأرض نُقَطِّر الذَّهَبَ من نفاياتكم... يومياً نتصدَّى للمسيخ الذي يُهَدِّد بابتلاع كوكبنا، نحرقه أولاً بأول لرفد قواتنا... لو تَوَقَّفنا عن التدوير، خرجتْ زبالتُكم عن سيطرتكم وسيطرتنا وابتلعت العَالَمَ. كل ما يخرج منكم يَنفخُ في المسيخ، لذا ليس بوسعنا أن نُغمض أعيننا لنستريح ونعشق ونفتح بيوتاً خارج المرمى... حيث لا يصيب أولادنا الربو والسرطان..» انتبه معاذ إلى أن تيس الأغوات لم يعد بلون مرمر أجرد، نَبَتَ على جلده رماد، مُنْبَعِث من محرقة،

«في مرمى للنفايات؟!!» لم يستطع كبحَ نبرة الاشمئزاز بصوته،

«في نفاياتكم أكثر وأثمن مما في متاجركم السوبر ماكس هايبر من أرزاق.»

«كالأمم المعلونة في القرآن، أنت لُعِنْتَ بسبب فعلتكَ، يُخَيَّل إليَّ أن

شرطة الترحيل أو رجال البلدية لم يُلقوا القبضَ عليكَ ليلتها، ولا خفروكَ للترحيل ولا تمكَّنتَ من الفرار، أنتَ سرقتَ حصيلةَ صندوق تيس الأغوات وفررتَ من العَشِّي المسكين وأُمكَ المخبولة أم سعدكَ، دمرت الأبوين اللذين احتضناك من القمائم لترجع للقمائم.. ظنناكَ غبتَ وراء امرأة بينما غبت لهذا..» مشيراً بقرف للمانيكان. وانفجر تيس الأغوات ساخراً:

«كل من تَعرف من النساء هم امرأة واحدة، لا يمكن خداعهن، يعرفن أن: ليس بوسع العشق أن ينبت في الخوف، ولا أن تتبادله البَشَرُ والمانيكانات.. تَخَيَّل هذا الجسد الفليني في العشق! إنه مثل داء يتآكلني، أن أجعهلن يشعرن بلمستي.. أن يبادلنني الحب.. لكن من بوسعه بعثهن للحياة؟ أجمعُ ما تقعُ يدي عليه من مانيكانات لأُعيدَ تدويرهن وبعث امرأة واحدة حقيقية منهن.» انتظر من معاذ إجابة، «انظرْ، أنتَ لم تعرف قط ما أعانيه.. طوال مراهقتكَ كنتَ مشغولاً بحفظ القرآن والفرار من خُطَطِ أبيكَ العمياء لتفهم، أنا وحدي أعرف معنى أن تفتقد ملمس اللحم والدم بين ذراعيكَ.. بنات أبوالرووس كن هذا...» مشيراً للمانيكان في عربة التسوق، «أختكَ سعدية..» اختلجتْ أهدابُ معاذ، لكنه كان مستنزفاً ليعترض على توريط سعدية في ذلك الحوار، «حسناً، لنقل عَزَّة، أو أي بنت، عاشت في رعب أن نَمَسَّها..»

بلا وعي كان ينبش عن جسد المانيكان،

«حتى لا نكتشف هذا: الأسطوانةُ مكان حوضها والعمود المعدني مكان ساقيها وفخذيها..» لم تلن ملامح معاذ بأية لمحة تعاطف، كان أقرب للغضب،

«تقول بأنني لستُ مثلكم شبان أبوالرووس، ولم أعرف معنى الحرمان من اللحم الدم، وأنني كنتُ مشغولاً بالتدرب على رفع الأذان؟ لا، لقد شعرتُ بكم جميعاً، وأحببتكم جميعاً.. ودعني أصارحك: أنتم

جميعاً جبناء. . أنتَ أبو بَرَاقِع الذي تَسلَّل إلى بيتنا ليلاً، لكنه أيضاً فعل جبان، أنتَ وأختى سعدية لم يقم أي منكما بخطوةٍ لكسب قلب الآخر. . لذا فررتَ أنتَ كفأرِ مطبخ، ولم تذرف عليكِ دمعة. .» قام تيس الأغوات بتعرية المنطقة الصماء بين ساقي المانيكان،

«أحد الموسوسين بالجنس في مدينة الطائف يُنادي بختان النساء، ليصرن كهذه، لكيلا يشتقن لِلَمْستنا. وقريباً سيُنادي بخصي الرجال بعد حلب حيواناتنا المنوية لاستعمالها لتلقيح بويضات في أنابيب المختبرات لتصنيع الجنس البشري بلا تلامس بين الجنسين حتى ولا بعقود زواج. . .» بعد صمتٍ أضافَ، «نعم أنا أُعاشر هذا الجنس الفوق بشري، أستغلُّ فوقيتهم وغضبَهم، لكن، وطوال الوقت، لا تُخامرني إلا فكرة واحدة: أن أشعل النار في العالم وأعيد تدويره.»

انتاب معاذ ضيقٌ من تلك الجرأة، أقرب للتهديد في لجهة التيس، أكمل تيسُ الأغوات:

«لِمَ أتحدثُ عن النساء مع مجرَّدِ وَلَدٍ مثلكَ؟! ربما لأصدمكَ. .» أنصتَ لصدى صوته وأضاف، «بنات أبوالرووس عشن في رعب أن يتحوَّلن إلى لحم ودم حقيقي. . . خوفاً من الفضيحة احتضنَّ الموت. ويُلحقن التهمة برجال مثل يوسف أو خليل أو تيس الأغوات أو حتى أنتَ ابن الإمام حافظ القرآن. . علينا أن نحمل ذَنْبَ الفريسة هذا من دون أن نشرب الدم. . قل لي: لِمَ تتملَّك البنتَ المعشوقة رغبةٌ في الانتحار؟!» صار معاذ على يقين من جنون تيس الأغوات، «حين تُولد البنت يحبسونها في قالب مانيكان. . كل بنت مسكونة بمانيكان يحاول الاستيلاء عليها، والآن أنا وهو وأنتَ موضوع موتها! انظرْ إلينا: كان على يوسف ألا يكفَّ عن كتابتها لكيلا تختفي في الموت، وعليَّ ألا أكف عن جمع وتخزين وحرق المانيكانات لكيلا تُغْرِق بناتَ الزقاق. لا بُدَّ من إعادة تدوير رأس أبوالرووس بكامل محتوياتها، والمواظبة على التهريب، تهريب العشق

والكلمات والصور التي تلتقطنا والعدسات المُكَبِّرَة، والأيدي والوجوه المؤنثة... لنقول إننا من لحم ودم ورغبات...»

بقرفٍ تأملَ معاذُ في الدمية التي يدفعها تيسُ الأغوات بعربة التَّسَوّق، والذي أضاف:

«أبوسعك أن تقول لي يا معاذ: من منَّا الحقيقي أنا أم هذه المانيكان؟ لا بدَّ أن نُقرِّرَ ما إذا كنا محبوسين في حلم إنسان موسوس؟ هل أنا حقيقي أم مثل هذا؟» مُشيراً للمكانيكان بالعربة، «وما إذا كان أحدٌ يُكَدِّسني في هذه المدينة؟ مَنْ يضمن لي بأنني لست دمية؟ وفي يومٍ سيُقطع تياري الكهربائي ويُوصل لخِطِّ إنتاجٍ أكثر تطوراً مني؟ ويُقذفُ بنا إلى مَكَبِّ قمامة.. بينما تُرَحَّل أرواح البشر الحقيقيين لوجودٍ آخر لا يزال لغزاً علينا.. لفردوس ما.»

لم يعد بوسع معاذ معرفة إلى أين يقود ذلك الحديث، وجاهد ليربط الخيوط التي تهمه،

«أتظن عزة رُحِّلت.. أم هي التي ماتت؟»

«ويوسف مُوَاظب على الكتابة؟؟؟!!! نحن فلسفة الزبالة.» تَحَوَّل كاملُ جسده إلى علامة استنكارٍ لهذه اللعبة الكلامية ما لبث أن تَبدَّلتْ للامبالاة، وبلا نظرةٍ للوراء دَفَعَ عَرَبَتَه أمامه وتَوَغَّل صوبَ بواباتِ السوق الخلفية، حين تلاشى في العتم انتبه معاذُ لقفزةِ السائق الأسود بثوبه الأبيض وشماغه المُرَقَّط بالأحمر... اندفع يفتح بابَ المرسيدس السوداء الخلفي حيث انسابت الفنانةُ بأناقة.. ذلك الكاحل بَرَقَ في ذاكرة معاذ... أغلقَ السائقُ البابَ واستدار لجهته وراء المقود وانطلق:

«نفس السائق.. سائقُ مُوَظَّفة الضمان.. والكاديلاك في ذلك الفجر.. هو سائق عَزَّة..»

نَهَضَ واقفاً:

«حين تدنو منها هكذا فلا بُدَّ تُصيبكَ بالخبال.. كما أصابتْ كلَّ

الرجال الذين عرفوها. الحياة أكبر من أن تدور حول امرأة.» لا يعرف من ظَلَّ يُكرِّر تلك العبارة برأسه. بينما سَكَتَت الحركةُ في صالة العرض، والأنوار كأن لم تكن. لم يَعُدْ مِنْ مَجَالٍ لالتقاط المزيد من الصُّوَر. تَلَفَّتَ معاذُ حوله، في الضوء الشحيح لم يكن واثقاً من نجاح اللقطة الأخيرة لكنه التقط صورةً للفراغ الكامل، وما كان يُخلخل كَمَالَ ذلك الفراغ غيرُ ماسح العربات الجالس على السُّلَّم الكهربائي المطفأ، يُحْصِي حصيلةَ يومه، ويتبادل حواراً مع بائع عقود الياسمين، الواقف على حافةٍ، بانتظار المشتري الأخير، طافَ ذاك المساء في المتنزهين علىٰ أرصفة البحر وبَاعَ، بَقِيَت العقودُ تتدلَّى من رسغه تلدغها ملوحةُ البحر والحَرّ، يُلاحقُ آخرَ المغادرين للمركز التجاري العملاق، عائلة مُحَمَّلَة بالأكياس لا يلتفت إليه منها غير تلك الفتاة الصغيرة بضفيرتها السوداء كثعبانٍ أجعد، تتعلَّق بذراع أبيها ليشتري لها عقداً بينما ينشغل بترتيب المشتروات في صندوق سيارته! جُلُّ زبائنه اليوم كتلك الصغيرة تحت العاشرة، يُسْعِفه أن تبقى في المدينة صغيرات بعيون مائلة لا تشبه عين باربي قابلات للدهشة وللاستسلام لعِقْد فُلّ.

أدركَ معاذُ لحظتها أن مُخيلتَه التقطتْ مع سيلِ الصورِ فيروسَ اليوميات والمانيكانات وتتلاعب به، ليظن أن ذاك المعرض هو المكان المثالي للالتقاء بعَزَّة. تأمَّلَ حوله، في الغربان التي تُهيجها الأبواقُ المُبَاغِتة، تهطل عن الأشجار على الجانبين وفي الفيلات المقابلة، تَجَاهَلَها معاذُ مُحَاوِلاً التقاط صورة لتلك الطيور الصغيرة، «عجيبة هي حركة الطيور في الهواء، لكأنها تسبح أو تُلقي بأجسادها وتَتَلَقَّاها وتُعيد تُلقيها!»

كان يخاطب الليل بصوت مرتفع، «الطيور ما هي إلا إرادة الحُريَّة في الطبيعة، تتجسَّد في حفناتٍ مُجَنَّحَة، عرفناها كطيور لكنها الحُريَّة... تخرج من أجسادنا مثل تلك الحفنات حين نلتقط صورةً للحلم الذي يظل يكبر فينا، ونجري وراءه أينما ذهبنا، حين نمسك به وإن في صورةٍ تهطل

من أجسادنا حفنات كهذه. رأيتُ كل ذلك في عشرات اللقطات التي حاولتُ تصويرها لبنات وأولاد أبوالرووس في ركضنا وراء حلم... هل رأيتُ مثل هذه الطيور تخرج من جسد الفنانة في هذا الافتتاح؟؟» لا يعرف من نَفَخَ برأسه تلك الكلمات ومن أية ورقةٍ مسروقةٍ اندفعتْ صوبه. لكنه تاق لأن ينطق جسده بتلك الأجنحة الصغيرة، وبلا حدود، لكن... قَبَضَ قلبَه سوادٌ،

«الغراب هو إرادة الافتراس في الطبيعة وتتجسَّد هكذا، في هذه الحفنات من سواد..» لحظتها شَعَرَ بأنه محبوس بين خيارين: الطير والغراب! الخيار تضعه أمامه التُّركيةُ التي هي الآن بانتظار إجابةٍ منه. لأول مَرَّةٍ صَارَحَ نفسَه بما تُريدُ منه (أن يضع إيمانَه بين يديها، هو الذي يقول: كما أن هناك خَطّاً غير منظور ينفرط فيه الجسد ليَتَجَرَّد، فإن هناك حتماً خطاً يجتمع فيه المُجَرَّد ليتجسد! لذا، فبكُلِّ ما صَوَّر وعَالَجَ، بكُلِّ ما حَفِظَ قلبُه من آياتٍ كان معاذ يبحث عن ذلك الخط، سَعَى بكل حفنات الطير وإرادةِ الحُريَّة ببصره للاقتحام للنقطة التي تجتمع فيها تجريدات عزَّة/ الحياة/ المدينة في جسدٍ يُخاطبه. وربما لم تُترجم التركية طلبَها في كلماتٍ، لكنها ستقوده حتما لأن يجمع لها كل الخيوط المُجَرَّدَة.)

في تلك الوقفة اتخذَ معاذُ قرارَه، اقتربَ من وَاجِهَةِ صَالة العرض الزجاجية، أسندَ وجهَه إلى الزجاج، رَكَّزَ بصيرتَه ـ بكل شاشات الالتقاط والترجمة والتجريد والتجسيد ـ على تلك اللوحة الأخيرة التي تختم المعرض، على الكائن المُغَادِر فيها، على بقعة الضوء التي هي ضباب أنفاسه القائمة كخلاصٍ للكائن المُغَادِرِ للوحة، ورويداً رويداً سَمَحَ لتلك الحفنات من غياب أن تُغَيِّمَ سُحُبُها بعينيه، بعينين فاغرتين مغرورقتين خَتَمَ شمعةَ بَصَرِه على تلك الخطوط السائلة من لوعةِ الكائن الذي غادر أمامه، يسيل للمدينة ويُغْرِق خيالَها برأسه، ولبرامجه التي تتسابق وتتقاطع للاكتمال، بمَحْجَرٍ فاغرٍ انقلب سواد عينيه لبياض، لا بد أن ذلك لون عين

آدم الذي أورثه إياه الحزن الذي لا يُطاق من مفارقة الجَنَّة، وحزن يعقوب على فُرْقة يوسف. .

تأكد من عماه حين أدار رأسَه صوب المدينة فلم يعد ثمة غير بقعة الضوء التي بدأت تموج بنوافير الدم بخلايا جفنيه.

في السواد الذي استقرَّ بجوف معاذ تحوَّلت (الظلال والذكرى والواقع) إلى عجينةٍ تَعَرَّفَ فيها على وجهِ خَصيِّ التركية فاتناً مثيراً حتى للرجال في ثياب النساء وزينتهن. . وبالمقابل تجسَّد له وجه عَزَّة، كما لاح ليوسف، مُلَخِّصاً لكل ما جَمَعَه أبوالرووس كمرآة، وجهٌ يُلَخِّصُ كاملَ مكة. . . أغلقَ معاذ عماه على تلك المرآة وضغط فسُمِعَ صوتُ زجاجها يطقطق. بقيت برأسه نِيَّة واحدة، أن يُبَلِّغ ما رأى. أخرج معاذ هاتفه النقَّال وباللمس طلب الرقم الذي حذَّره ألا يلجأ إليه إلا في حالة الطوارئ. . هتف للطرف الآخر:

«اسمعْ أنا معاذ. . لديّ خبر مهم. .»

«لا أفهم. ؟»

«عَزَّة عائشة. .»

«. . . . . ؟!»

وَاجَه معاذ ذلك الصمت من الطرف الآخر، اضطره للتكرار:

«عَزَّة لا زالت عائشة. .»

سَمَعَ عبارتَه مُضَخَّمَة فأدرك ما الذي يُعيقُ الطَرَفَ الآخرَ عن الفهم، اضطر لإعادة ما قاله: «عَزَّة تعيش لم تمت يا يوسف، عَزَّة حيَّة. هي مع صاحبنا طويل الحزام خالد الصبيخان. .»

لَعَقَ ملوحةَ البحر عن شفتيه بظمأ، وتهيأ للعودة لكن لم يعد لأبوالرووس من وجود، وتغوص الكعبة وراء المتاريس. . تهيأ للعودة لأبيه الإمام أينما كان، هي المَرَّة الأولى منذ أشهر يشتاق إلى علبة السردين

التي يَصُفُّهم فيها أبوه الإمام بعد صلاة العشاء، حين نظر إلى السواد خلفه وأمامه وعن جانبيه وفوقه وأسفله هَالَه المشوار الذي قَطَعَه خارج تلك العُلْبَة، والتلاوات (على العميانى) التي كان يُحظِّرها أبوه الإمام (وَجَبَت الآن)... نومة مابعد العشاء الجماعية وحضور صلاة الفجر بالمسجد، لم يجرؤ أحدٌ من نسل الإمام على تحدِّي هذين الموعدين: أولُ الليلِ موعد تفلُّت الشياطين والفجر موعد تَفَلُّت الملائكة (وبين الموعدين امتد مشواره).

أزرق

طوال مدة إقامة نورة بمدينة جدَّة أفردَ لها حجرةً بالطابق الكامل على قِمَّةِ البرج الذي يملكه مُطِلاً على البحر، أرادت أن تمحو كل ما عاشته في الصحراء.. انفردت بشيخها في الطائرة في طريق رجعتهم، لكن النظرة المكفهرة حَذَّرتْها من نبش حادثة بندق قط.

لا تعرف ما الذي دَفَعَها اليوم لتخطِّي الحدود الحمراء المرسومة لها، قامت وبتحدٍّ دَفَعَت البابَ الزجاجي المؤدي لمكتبه المُحَرَّم عليها ودخلت، حين احتواها المكتبُ لم تعرف ما تفعل هنا.. ألقت بجسدها على المقعد أمام المكتب، كمُرَاجِعٍ مهزوزٍ ضئيل جلست نورة هناك ببلادة لا تعرف ما الذي جاء بها إلى هنا.. ساحت عيناها على التُّحف الفارهة بلا هدف.. فجأة استقرَّت عيناها بذهولٍ على ذلك الصندوق.. ربما لَفَتَ نظرَها وأعلن عن وجوده تقشُّفُه المتباين مع فخامة الموجودات حوله.

تَيقَّظَت كلُّ حواسها، سحبت الصندوقَ وأمالته مُسْتَرِقَةً النظر لدخيلته. في زحمة الأوراق ـ الرطبة والمطموسة بفحم ورسوم ـ وَقَعَ بصرُها على ذلك الملف الأزرق المُعَنْوَن: (رسائل عائشة الإلكترونية)

يقف طولياً ملتصقاً بجدار الصندوق. دوّى الدم في صدغيها وبلا وعي خطفتْ جزءاً من محتويات الملف الأزرق واندفعتْ راجعةً إلى حجرتها. دسَّتْه تحت مرتبة سريرها وجلست هناك، متوارية في الضوء الشحيح للحجرة تُحاول تسكين نبضها.

تلك الليلة مرَّ نومُها مُتَقَطِّعاً بتلك الكلمات المسروقة تَتَحَرَّك تحت فراشها بنوابض وكوابيس متضخمة وتُغْرِقَها،

«ما هذه الكآبة أنتِ في مأتم؟!» اخترقت تلك العبارة نومَها الضحل، دَخَلَ عليها كعاصفةٍ، قفزتْ متيقظة، كان قد أزاح الستائر عن شرفتها وسمح للشمس بالتمدد للسرير، مدَّت ذراعيها بعرض الفراش كمن تحمي ما تخبئه، لاحقتْ آثارَ الإرهاق البادية في القتامة حول عينيه، وبَادَلَها بنظرةٍ مُتَفَحِّصة، ولم تفته آثار السهد في الأغطية المضطربة حولها، أصدر تعليماته لمُرافقتها: «جهِّزي حوضَ الجاكوزي..»

ثم لمرافقه على الهاتف:

«تأكد من إحراقه لا تترك منه ورقة. أريد الانتهاء من هذه القضية.»

أنهى مكالمتَه وتَوَجَّه لنورة:

«كلانا في حاجةٍ إلى أن نُفيق.» تَسَمَّرت نورة مذعورة في بقعتها (هل اكتشف ضياع الأوراق؟!)، ولاحقتْها عيناه، أكملَ ساخراً،

«أم تُفضلين أن نبدأ الإفاقة من السرير؟» تنفست الصعداء، وعاجلته بابتسامة وقحة، وقَاطَعَتْه رَنَّةُ هاتفه،

«اللهم اجعلْها سُقيا رحمة ولا تجعلها سُقيا عذاب..»

أنهى مكالمته وقَفَزَ إلى السرير،

«أكره أن يفوتني كَسَلُكِ البريء هذا، لكن ما باليد حيلة، مع إمبراطورية الالتزامات.. وإن كنتُ أفضِّلكِ ضبعاً مُجَوَّعَة..» كانت العاشرة مساءً حين وضع عباءته المُقَصَّبة، حريصاً على ألا يُعَكِّر قرنصات غُترته الصقيلة، خلاها مُعَفَّرَةً بدهن عوده وغادر. عنايتُه الفائقة بهيئته

طمأنتْها إلى أن أمامها ساعات وربما أياماً من الخلوة قبل أن يرجع.
أغلقتْ بابَ حجرة نومها بالمفتاح، واستخرجت تلك الأوراق المعدودة التي اختطفتها من الملف من مخبئها، وبعمقٍ ملأت رئتيها برائحة الرطوبة وعطر الصنوبر الخفيف، وجَرَتْ عيناها بين الأسطر.

(من عائشة / إعادة صياغة لرسالة 48:
يا ^
أنتَ قرأتَ كل تقارير أشعتي المقطعية والمغناطيسية وفوق الصوتية،
وجداول علاجاتي،
قل لي: أهناك شيء، أيّ شيء فيَّ لا يزال حيّاً؟ يستحق دهشةً، خطوةً أخرى للحياة؟
أُفكِّرُ أن أجمعَ كلَّ ذلك في حجابٍ وأدسّه بعنق عزة لو جاءت لوداعي.

سأبوح لكَ بسِرٍّ:
عزة على حافةٍ.. لتقفز..
أأنا مرآتها؟

هل أخبرك بسِرٍّ أخير أخير؟

أنا عائشة التي كان بوسعها أن تُغادر هذا العالم وبكلِّ شيءٍ في قراطيسه، يُمْنَحُ العالمُ لنا في عُلَبٍ وقراطيس مختومة، ونحن نفتح منها ونلتهم الحياة، أنا، لولاكَ، لقمتُ على باب موتي بتسليم نصيبي من تلك العُلَب والقراطيس مختومة لم تُفض! اكتشفتُ أنني وبالكاد أَمَسُّ زجاجةَ عطري، لا افتح جهازاً جديداً، ولا اقطع قرصاً كاملاً، وأُقَطِّر معجون أسناني لأطولِ فترةٍ، وبرهبةٍ أمسحُ من كريم الترطيب وأحمر الشفاه ولا أحفر ظلال العين ولا أبري قلم كُحْلٍ، جديد ملابسي يَصْفَرُّ مطوياً في حقيبة بأعلى الدولاب... أمرُّ بالأشياء كمن لم يمر، في مسٍّ سطحيٍّ لا يَفُضّ لبَّها ولا يُقَوِّرها (حتى بكارتي).
وحتى شَعري لم أقصه منذ الولادة، لا زال يزحف على ظهري، وكنتُ

سأسلمه لملائكة الحساب كاملاً صامتاً أملس كما تسلَّمتُه عند الولادة، لولاكَ يا فتّاحة العُلَب، أنتَ من اعتنى ذاك الأحد بقصِّ شَعْري، تحت الصفصافة المهولة، مثل قصرٍ محروسٍ بجدائلها لنا وحدنا، حين باغَتّني وقمتَ بفك ضفيرتي وبترطيب شعري برذاذ ماء إيفيان، مَوَّجتَ تلك الخصلات على جانبَي وجهي كستارةِ مطرٍ يتساقط مع كلِّ هزةِ رأسٍ وضحكةٍ، صرتُ مرحة بذاك الشَّعر!

بينما عزة تفتح كل شيء وتغرف بشغفٍ ولا تترك ماعوناً ألا وتبلغ قاعَه، وطفحت منها أقلامَ رقيب وعتيد.

القفز معجزة..

ستضحك مني،

فحتى تكوير ثديي، كنتُ أخاف النوم على بطني لكيلا أكسر كمالهما.. لم أسمح بمَسِّهما ولا حتى ليدي، بينما يعلم الله ما صنعت عزة بذاك الكمال..

وكانت تسخر مني: «ما قيمة كل هذا التدوير والكمال؟! ما صنعتِ به؟» مثل ثدي مانيكان لم أعرضه للعجن والتكوير منبعثاً لحياة...

فشلتُ في استكشاف الجسد الحي والآلي...

لو كان لعزة أن تتعامل وكمبيوتر، لقامت بإرهاق الآلة بالتجريب وبإضافة الأجهزة المُكَمِّلَه والذاكرات الإضافية، بينما أنا، وما إن يرن زرٌّ مُحَذِّرَاً حتى أتراجع.. لذا أموت ولما أكتشف بعد الوظائف الأولية المبنية في جهازي..

يمكننا تشخيص حالتي بـ: الدونية في تناول كرم الحياة؟ ربما سمّتها عزة (دونية في تركيبتي الذهنية)، بينما أسميها (دونية تناول الذات)..

عُلَبُ مشاعري ومخاوفي وطيشي ورغباتي، أي طيش مدسوس فيَّ؟!! كلها بأوراقها مختومة حتى تسلَّلت أنفاسُكَ فيها.

وكنَّا سنقف أنا مع عزة أمام مُنْكَر ونكير، قماقمي مختومة وقماقمها لُحِسَت للقاع، أآنا العابرة وهي المقيمة المخترقة؟ أتساءل.

ملحوظة مستحيلة:

لو أجلسُ إليكَ لمرَّةٍ أخيرة، وبيننا عُلبي كلها، نفتحها علبة علبة ونحيا ما فيها للحثالة.

ملحوظة:

عُلَبُ طباشير، من أيام عملي كمعلمة، بقيت عندي عاطلة، ماذا أصنع بعلبة طباشير؟!

ما إن أعطيتها لعزة انظرْ: تحرّكتْ بها وحَرّكت أكواناً.

لو أنكَ ترى حجرة عزة، مساحات تجمح فيها كائنات الأبيض والأسود. تجاوزت محدودية لونها، شديدة الحركة، تدخل وتخرج بحُريّة إلى أبوالرووس وما حولها.

ملحوظة 2:

انفاسي آخذها قصيرة، عَجِلَة لا تستغرق حتى ثانية، لا تشق لي حوصلة، حتى علّمتَني كيف اتنفّس، عميقاً (أعدُّ للعشرة) بينما أسحب النَّفَس، ثم لعشرة أحبسه (حتى يشقّ كلّ خليّةٍ ويحرق مَخزونَها لآخره)، ثم (لعشرة) أُطلقه، لآخر ذرة ثاني أوكسيد كربون. وأترك جسدي خاوياً لعشرة (اربعون ثانية أحيا في النَّفَسِ الواحد) يا الله كم هي بطيئةٌ اللذة، مختبئة تلك اللذة من أكسجين الحياة لثاني أوكسيدها.

40 ثانية بوسعي أن أعيش في النَّفَس الواحد...

يا إلهي كم هي مُسْكِرة اللذة المضْمَرَة في النَّفَس الواحد! 40 تيك توك متعة تنتقل وتتحوَّر من ثاني أكسيد الكربون للأكسجين..

في العشر ثوانٍ من الفراغ أدركتُ معنى الثلاثين ثانية من الاحتراق..

ملحوظة 3:

هذه موسيقى فايا، اتسأل مرة أخرى: أنا وعزة: أينا سانشوبانزا وأيّنا دون كيشوت؟

بين الكَمّ والكيف،

عزة هي التي تستحق الانتقال للحياة،

لأنها القادرة (من غير مُقوِّمات قدرة) على الوجود خارج الظروف والوجود.. لم تُمْنَح فرصة تعليمية كفرصتي ولا حتى بحر قراءاتي...

لان هيكلها ذَهَبٌ (لين وصلب)، يقفز للنار ويطلع في تشكيلات حياتية لامتناهية.

ملحوظة أخيرة:
حقيقةُ الوجودِ الوَجْدُ.
بمعنى أن الحياة هي التوق... أو ربما: العشق... أو العشق الذي يتوق لما لا رجعة..
ملحوظة:
اسمي عائشة، وليس حياة..
مرآة تلخصني.. أليس كذلك؟

التوقيع: عائشة.

انفرطت نورة في نحيبٍ طويل حتى فرغ دمعها، موسيقى فايا تترجَّع في الحجرة، تباطأت أنفاسُها كما تحت تأثير مُخَدِّرٍ قوي، بينما الكلمات تتدافع وتُعَرِّيها، أينما نَظَرَتْ حولها كانت دماء. . أُلقِي بقلبها أمامها على الورق يَذْوي، ولحقتْه رئتاها، وكلمات الرسالة تغوص إلى جمجمتها، وتهبط إلى قاع عمودها الفقري. يستوقفها الاسم المشطوب، من؟ ومن شطبه؟ يستفز حزناً عميقاً.

كلما تقدَّمت نورة في أوراق الرسائل المعدودة تلك تصاعدت حُمَّتُها، تسري بدمها الخيانة المُتَبَادَلَة بينها وبين كاتبة تلك الرسائل (هذه العائشة؟؟؟ هذه التي تَتَقَمَّص شخصيةً ليست هي؟ تلبس وجهَها هي؟ وملامحها؟ واستجاباتَها للحياة؟ العائشة التي سَرَقَت البنتَ التي تُشبهها وتحمل اسمها وظلَّتْ تُخفيها في خرابة؟ بينما تعيش هي بموت هذه التي تُشبهها). الطَّرَقَاتُ الغاضبة على باب الحجرة أخرجتْها من عالم آخر، انتبهت إلى أن الليل قد انقضى عليها تبكي وتقرأ، أرجعت الأوراق إلى مخبئها وفتحت،

«لِمَ تُوصدين بالمفتاح؟!!» الغشاوة التي لعينيها استوقفته، جال ببصره في الحجرة كمن يَتَوَقَّع غريماً، كَرَّرَ السؤال،

«خير؟؟» أخذها بين ذراعيه بعنف، ضغط رأسها بين كفيه حافراً بنظرته لجوفها،

«بعينيكِ كما الحجاب على عين صقر؟؟ ما الذي تُبَيِّتِينه في هذا الرأس؟!» أغمضت عينيها، استحلبت جرعةَ الريق بفمها وابتلعتْها، خوف أن يفوح بعَبَق تلك الرسائل،

«مفعول المُنَوِّم، لأول مَرَّةٍ منذ أشهرٍ أنامُ لعشر ساعاتٍ مُتَوَاصِلَة، بلا مُقَاطَعَة.» قالتْها مُصْطَنِعَةً الخِفَّة.

«ومع ذلك لا أجدُ مرارةَ الفاليوم بريقكِ. أذيقيني طعم الحقيقة...» وأطبق على شفتيها بغيرةٍ وباستحواذٍ، وغَيَّبَتْ جِذرَه مُسَابِقَةً خوفَها: هل ستصله تلك المرارة التي تفوق مرارةَ الإفاقةِ من مُخَدِّرٍ قوي، والتي انصبَّتْ بحلقها من كشفها لتلك الرسائل، لذاكرتها المُغَيَّبَة، والتي صارت تتقدَّم بها نحو خاتمتها بحسرةِ مَنْ يُؤَجِّل خاتمتَه الشخصية.

كف إبراهيم

باضطرابٍ ـ وطوال أيام عُقْبَ مكالمة معاذ ـ تَحَرَّكَ يوسف محموماً ممزقاً بين الشجرة التي تنكشف لهم على الحائط وبين المرأة التي تماسك كل تلك الشهور بحلم أن يعثر عليها في الختام ميتة... عالية بموتها فوق كل مسٍّ وتشويه.. خبرُ تلك المكالمة أربكِ مُشَبَّب، وتوزَّعا مهمةَ الخروج لجمع أية معلومات تقود لما أطلق عليه معاذُ لقبَ: «طويل الحزام»! أين هو؟ وما الصِلَة المُحْتَمَلَة بينه وبين عَزَّة؟

كان من الصعب تحديد الزمن الذي استغرقهما لكشف تلك الشجرة:

الذي بدأها الدليل عايف الغطفاني ليَتَتَبَّعَ - مدة حياته- ما يقارب ثلاثة أرباع القرن من تفرعات نسل سارة ببني صبخا، وتزاوجات ابنها مارد خارجها، حتى بَاغَتَهما انقطاع فروعها، وذلك بوفاة الدليل. مهما كشطوا من الجدار ما عثروا على كلمة أو فرع...

هنا انتبه ناصر لختم أسفل الشجرة على هيئة مجموعة بنات نعش النجمية، توقَّف الثلاثة بها، هناك حدسٌ يُنذرهم بأن فيها شفرة ما.. وقفتهم أمامها امتدت لدهرٍ، حين انطفأ ضوء نورهم الكشاف صارت للعتم كثافة حولهم، فجأة ومن تمام السواد اخترق ذاك الشعاع من فضة، صاروا واعين باكتمال القمر في الخارج، ضارباً من ثقب في السقف ليسقط بزاوية بأقصى الركن، وتماماً حيث رقدتهم كل تلك الليالي، بقعة الفضة كشفت لأعينهم تخلخل طبقة التراب هناك، حين كشطوها ظهر ذلك الحجر محفوراً بسبع نقرات ممثلة لبنات نعش، بدا لكأن بقايا الحصن تتآمر لقلع أقنعتها دفعة واحدة لهم، أو لكأنهم ولطول إقامتهم صاروا من سريرة المكان، بلمحة باشروا الكشف، الحجر انقلع لأول معالجة بالرفش، ليعثروا على ذلك الصندوق الخشبي المُبَطَّن بالنحاس، وبقلبه ذاك الرّقّ المبسوط بعناية بين ورقتي نشّاف، بَسَطَه مشبب في الضوء الشحيح عارضاً شجرته المُزَيَّنَة بالأحبار، تيقَّنوا من كونه آخر الأوراق المقتطعة من أوراق الحجاب، ويحوي تتمة الشجرة التي بدأت في الجدار وانتهت في هذه الورقة، والتي واظب وَرَثَةُ عايف الغطفاني على ملاحقة بقية فروعها عبر القرون.

في الضوء الشحيح التحمت الرؤوسُ الثلاثة واختلط دويُّها في قلب واحدٍ وانتقلت العيونُ المُسَهَّدَة للصورة الكُلّية للشجرة الممتدة بين الرّقّ والجدار.

على الجدار تَتَبَّعَتْ أعينُهم الفرعين العظيمين الأقدم للشجرة: فرع يبدأ بموسى وهارون مروراً بكعب بن الأشرف 629 م. وفرع يَتَحَدَّر من

وائل وربيعة ونزار، ويلتقي الفرعان في نسل مارد (ولد سارة المولود في فراش سعد شيخ صبخا).

على الورق كان النصف الأحدث للشَجرة، يُتَابع تفرعات نسل مارد صبخا بالبطون العربية المُهيمنة بقلب الجزيرة، وصارت الأحبار تبهت وتَتَبَقَّع وتسيح في مَوَاطِن، حسب تَفَاوُت الخِبْرة في التعامل مع رهافة أوراق الرِّقّ القديم، يُظْهِر تَعَثُّرَ الورثةِ من نسلِ عايف الغطفاني في رَصْدِ تفرعاتها خلال أربعة عشر قرن من الزمان للحاضر. بنفاد صبرٍ جَرَتْ أعينُ الثلاثة على تلك الفروع التي تمرُّ في إياد وقيس وسليم ومَعْد لبكر لمعاوية ولعوف نزولاً للعصر الحاضر، ووقعت عينُ ناصر على ما أكمل تسجيله مفلحُ الغطفاني من آخر فروع مارد ذاك.. لتنتهي باسم صريح واضح: (خالد الصبيخان). انطلقت ضحكةُ ناصر هستيرية، بينما سرت بصدر مُشَبَّب قشعريرة، وانطلق من حنجرته صفيرٌ:

«هذا طويل الحزام / الصبيخان من أحفاد سارة وابنها مارد بمكة!!» العبارة الوحيدة التي نطقوها في ذلك الرِّقّ اخترقَت الحلم، ودَمَّرَتْه وألقت بهم خارجه، اندلع ذلك الضوء الكاشف في المكان، وظهرت الأجساد في زِيِّها الرسمي الكاكي:

«سَلِّمْ نفسك...» وأطبقتْ أشباحُها على شجرة الجدار.

تَقَدَّم ناصر رافعاً يده رابط الجأش، بحركةٍ مباغتةٍ وعمياء ألقى مُشَبَّب بجسده على مصدر الضوء، هاجمتْه الأيدي وعَمَّ اضطراب، ضَرَبَ ناصر في العتم وتَلَقَّى الضربات، ما عاد فرق بين المهاجمين والمطلوبين، وفي غمرة الفوضى تسلَّل ظلٌّ يعرج إلى الوراء حتى تلاشى.

هجوم على شبكة المعلومات

من عائشة / رسالة 90:

أحياناً تُخيفني حين تقرأ أفكاري، الخبر الذي بعثته لي عن صانع الألعاب

الخرافي ميامونو Miyamoto الذي منعته شركة نينتيندو من التحدث عن هواياته وأحلامه، لأنها ثروة! الرجل الذي يحوّل أتفه مجريات يومياته إلى وسواس يستغرق العالم، كما فعل باختراعه للعبة كلب نينتيندو حين اقتنت عائلته كلباً، أو حين اخترع بوكيمون من حُبِّه للبستنة..

أراقب راقصي الهيب هوب الذين يمشون مقلوبين في الهواء ويحركون أجساداً كما لو أنها من مطاط، وأراقب حسين بولت العَدَّاء الجامايكي الذي كسر الرقم القياسي في سباق مئة متر في أولمبياد 2008، والذي بلغ خط النهاية وبينه وبين ستة رجال من خيرة العدائين في العالم مسافة لا تُصدَّق.. هذه الإنجازات الجسدية تُشعرني بأن هناك جنساً بشرياً جديداً يَتَخَلَّق ونحن خارجه.. جنس مثلي لا بدّ أن ينقرض في ركوده الجسدي والعاطفي..

لا أحلام خطر ولا حركتي.

وضعتْ نورة تلك الرسالة جانباً لتُلقي بنظرة على الطائرة الحربية التي تُقِلُّها إلى المدينة المنوّرة، تجربة العرض الفني مَرَّت كلمحةٍ ورجعتْ لسلسلة النقلات الخاطفة التي تنتظم وجودَها على رقعةِ شطرنج الشيخ، وها هي تستأنف صمتَها على ارتفاع آلاف الأمتار عن الأرض، بِضعةُ مقاعد وثيرة وطاولةُ اجتماعات مُدَوَّرَة هي خلاصة حاملة الجند تلك، وضجيج مُحركاتها الذي يمخض القلب ويعفيها من الحديث أو الإنصات، أغمضتْ عينيها مسترجعة لوحاتها المعروضة على جدارٍ، الكائنات بين الذكر والأنثى مقطوعة الأطراف في اللوحات وجمهور الزوَّار يتحركون في حيز واحد، يتبادلون الحوارات الساخنة، يقولون ما لم يجرؤوا من قبل على قوله، وما لم يتوصلوا إلى صياغته، يُملِّحونها بأنفاس البحر القريب، يفتقدون أو ينتقدون أطرافهم المفقودة، أو يبررون غيبتها. . طالبات الجامعة اللواتي حضرن في زيارة منظّمة للمعرض شكّلن تحدياً، حرَّضن أكثر خطوطها قتامة، حفرن في اللوحة الفارغة وأسقطن عليها من ثورتهن

أو لامبالاتهن. . أمام لوحاتها تبادلوا الضحكات والغمزات ووَرَّطوا شخوصها في شعورٍ بلذعة الحياة وإن للحظاتٍ. . هي نورة وقفت هناك متعرضة لهجمة الحياة، جرجرنها للحوار. . سألتها إحداهنّ:

«خائفة؟»

هزَّت نورة رأسها بلا مبالاة: «ربما. .» ثم أضافت ساخرة: «الخوف يجعلنا مُحَارِبات. .»

فتاة أخرى علّقتْ،

«لوحاتك تُشعرني بالقهر. . لم هذه القسوة تجاه الجسد. . دعيه وشأنه. .» علّقت فتاة أخرى مع الضحكة الرنانة ولمعة الشقاوة رفعت صوتها غير مبالية:

«هذا معرض بنت الجزَّار.»

لأول مرة اكتسب جسد نورة سمرة بلفحة هواء البحر القريب، انبثق جلدها للحياة، لأيام معدودة لم تعد شخوصها مونولوجاً سِرِّياً بين أصابعها وكتَّان اللوحة، تحت الأبصار صارت تتأنسن، والآن، وبختام المعرض، وعلى ذلك الارتفاع، سمحتْ لشخوصها باللف كشريطٍ سينمائي راجعة لمخبئها، للضوء الشحيح بسماء ألجريكو القائمة على قبر. فجأة قامت الطائرة بانعطافة حادة في السماء، بنظرةٍ للأسفل لمحتْ نورة حَرَّات المدينة المنورة مُبَعْثَرَة كبركانٍ غاص بأصابعه العملاقة إلى قلب الأرض وبَعثرَ فحمَها، نظرة أخرى كفيلة بتحويل كل نثار الفحم إلى ألماس كالنبع الذي تطلع منه لوحاتها. . . لحظتها تَمَنَّتْ لو كان بوسعها أن ترجع خطاً من فحم في تلك الأرض التي آوت الرسول في هجرته، وأن تأمن. طَرَدَتْ تلك الحَرَّة السوداء من رأسها، في غمامة من النخل بانت منائرُ المسجد النبوي، تعلقت نورة بتوق للمنائر، «التي لن تكف عن النداء، حتى تكون أول من يسمع بوق إسرافيل للبعث، ويكون موتاها أول من يخرج من قبور الأرض مستجيبين للقيامة!»

ارتعدت لتلك الفكرة، كانت كمن يُقبل على بَعْثٍ مُحَمَّل بالخيارات.

في جناحها بفندق الإنتركونتيننتال انتهت وحيدة، كما اعتادت أن تكون حين ينشغل شيخُها بالاجتماعات الخاصة.

الآن وكلما خَلَتْ لنفسها وَجَدَت الرِّفْقَةَ في هذه الحفنة القليلة من الرسائل التي تخفيها لتُدخنها كحشيشة، ليتها سَرَقَتْ كَامِلَ الملف، ما عساه انكشف لها - من موت أو حياة - لو قُيِّضَتْ لها النجاة بذاك الملف، كهذه الرسالة القصيرة:

رسالة من عائشة: رقم 66:

شيء فيّ انكسر.. جهاز استقبال البث الفضائي.. ربما..

لكن، ها هي ذي إشارة،

تُقَدِّمها لي في زهرة أوركيد، وتقول: «يُذكرني الأوركيد بكِ..»

يُصدِّقكَ جسدي، يُقَلِّدها فيكتشف شموخه،

يدوخ برقصة باطنية.

التوقيع: ع

وتصير نورة تَتَلَذَّذ بالأوركيد، وبملايين اللفتات الصغيرة التي تقوم بها العائشة كاتبة الرسائل للتعبير عنها هي، والتي تقودها من قِمَّةِ الحياة إلى الموت، كما غياب صورتها الآن بالمرآة، هذه التي كلما نظرت فيها نورة رأت عائشة. للمرة المائة تتصفَّح سجلّ تعليقات الزوّار على معرضها، وتتساءل لأيهما كُتِبَت كل تلك العبارات: لنورة أم لعائشة؟ تُدير موسيقى فالا في الخلفية وتَمرُّ بها كلمةً كلمةً لتعرف أيهما الميت سانشوبانزا وأيهما الحي دون كيشوت؟ وكم استغرقت واحدتُهما للرجعة للحياة وللغوص في الموت، تقرأ حتى يَتَقَلَّص الكون كله ليصير بحجم رأس رَجُلٍ، ثم بحجم فكرةٍ برأسِ ذلك الرَّجُل، ثم بحجمِ شعاعِ نورٍ

خارج من عينه، تعرف تلك العين أهي عربية أم عجمية، أم هي لمن ينبش كل هذه الأحداث ويُحوِّلها إلى قنبلة موقوتة؟ هي التي خلعتْ اسمَها، خلعت صفتَها. . . وكل ما يجعلها تُوْلَد من ذاكرة مُسبَّقة، ذاكرةُ الأنثى كاتبة الرسائل، والتي تتنشقها وتزفرها في تلك الأسطر العارية:

من عائشة: رسالة 77:

سَلِّمتُ جثة الجنين.

عليها هي أن تدفنه... أو تُحييه.

أُمَزِّقُ أوراق راسي ورقةً ورقة لأعرف أين انتهى؟ أين سيقع؟ هل بوسعنا القفز بجنين في قلبنا؟

في بعض الليالي أسمعه يحبو على السلالم لمسروقتي..

في بعض الليالي أزحف هابطة لتلقِّيه،

أتكوَّر على جسدي في حفرة بالأرض العارية.. بلا قطرة مطر... لكم يفتقد الموتى المطر!

استهلكتُ كل زجاجات عطري المخزونة لأُضَلِّل رائحته،

لكن، له رائحة أحشائي،

رائحة لا تزال حارة، وتتوقَّد بكل نَفَس أعُبّه.

التوقيع: ع

ملحوظة:

الرجل القرد، الذي اعتقدوه أصل الإنسان، والذي عثروا عليه في جبال نورث كارولينا مُحَوَّطاً بمُكَعَّب جليد، حين ذاب اكتشفوا أنه لا يزيد عن زيٍّ غوريللا من المطاط..

حين نذوب ما الذي سيكتشفونه فينا؟ أكره الموت في ثلاجة..

لا تدعهم يُجَمِّدون جثتي..

عائشة

دفعتْ نورةُ بتلك الكلمات إلى مؤخر رأسها، إلى الحافة التي ألقت منها بذاكرتها.. لاجئة للشيء الوحيد حولها: للسجلّ الذي يُؤكِّد لها أنها (الحيَّة). فجأة عثرتْ في سجلّ زوار معرضها على تلك العبارة التي لم يسبق أن رأتها، وبخطٍّ أرسلَ قشعريرةً بطول عمودها الفقري: (يوماً ما ستُفيقين وستدفنيننا جميعاً!)

قَاطَعَها رنينُ الهاتف، التقطَت السَّمَّاعة بلا وعي:

«مدام، مكالمة لكِ.» صوتُ عامل السنترال بدا حيوياً لقشع تلك العبارة الكئيبة، حين جاء الصوت الثاني،

«عَزَّة.» كلمةٌ واحدة سَرَتْ زلزلتُها بجسدها، سَدٌّ يوشك أن ينفجر برأسها ويجرفها. ألقت بالسماعة ليعود الهاتف يرن، بقي الهاتف يرن في رأسها:

«عَزَّة.» يرن لدهر، «عَزَّة» عَزَّة... في أُذنها يرنُّ يوسفُ بالاسم كما كان ينادي من السطح، مرَّ الرنين بحجرتها.. بنافذتها المُغلقة.. بعائشة عارية تسقط.. بجميلة على حوض والدها..

«عَزَّة، عَزَّة..» بالاسم نورة الذي خَلَعَه عليها خالد الصبيخان، والهاتف يرن، حين جَرَّدَها خالد من الاسم عَزَّة ليمتلكها باسم أُمِّه نورة، وأرادها أن تشعر بجميله، مؤكِّداً أهمية التسمية: «امرأة متسلطة، ماتت مسحوقة بين نساء أبي..»

لا تعرف متى توقَّفَ الرنين لتبدأ الطَّرَقَات على باب حجرتها.. لم تعرف أهي طرقات على بابٍ في ذلك الزمن البعيد أم هنا... إلا حين انفتح الباب ليُطِلَّ منه..

«عَزَّة..» كما كان دائماً صوته دافئاً، لكنه هنا يرتعش بذعرٍ، بيأسٍ، ببرد.. مَدَّت يدها لطرفٍ وهمي لطرحتها... لغطاء رأسها يحجبها عن تلك العين.. عن تلك المعرفة الجَليَّة التي تعرفها.. صوت ووجه أكَّدَا لها الخيال الذي استردتْه الآن من قاع ذاكرتها المفقودة، لتقف وجهاً لوجه

مع اسمها: عَزَّة، بالأرشيف المُحَمَّل لذلك الاسم. . . أرشيف حطَّ بثقله على كتفيها، هَوَتْ. . . رَكَعَ يوسف مُتزامناً مع ركوعها، في نفسِ الآن لَمَسَا الأرضَ. . لم تعد تسمع إلا اسمَها الذي اشتاقته: عَزَّة. . حفرةٌ فاغرة بجوفها جوعاً لذاك الاسم. . لتلك الطريقة التي ينطقه بها يوسف. . ينطقه لذاك العمق، كما ينطق مكة. . . الطريقة التي تعطي الاسم ذاك العمق السحيق. . . ينطقه كمن يضرب أرض مكة ويحفر فيها بئر زمزم أو يوم قيامة. . . لا غير يوسف من هذه الدنيا يفعل كل هذا بمُجَرَّد اسمٍ. .

«عَزَّة. . نُغادر. . . الآن. . »

وردي

«أتعرفين من هو خالد الصبيخان؟ هو تلك الجرَّافات التي جَرَفَتْ. . هو تلك القدرة الشرائية والأختام التي نَزَعَت الملكيات أزالت وطمست. . هو أبوكِ الذي عَقَدَ وحَلَّ وباع. . باعكِ. . وبيتكِ. . الصبيخان هو الإثم الذي لبسنا جميعاً. . أبوالرووس وأنا وأنتِ مُجَرَّد نقاط أُزيلتْ على خارطةِ إبادةٍ جماعية. . نحن نقاط في لحظةٍ تالية لنهب مدينةٍ. . . عيون غافلة في لحظةٍ سابقة لقصف مدينة ومدن. . أتفهمين يا عَزَّة؟؟ أنتِ مُعَلَّقَة في الهواء بحبلٍ حول عنقك. . ولا ينبغي أن تكوني على هذا الجانب الشديد الخطر. . اقفزي يا عَزَّة. . معي. . »

أجابت:

«لا تحدثني عن القفز. . في المرة الوحيدة التي جرؤتُ فيها على فتح النافذة التي سَمَّرها أبي رأيتُ موتي، موتَها موتَنا جميعاً. . ما رأيتُه دَفَعَني للقفز من الزقاق للأبد. . أنتَ خير من يعرفني يا يوسف؟ أنا لا أفلِح في القفز إلا للضفة الخطأ؟»

«بوسعنا يا عَزَّة أن نُصحِّح. . ساعدينا في الكشف. »

«أكثر من هذا الكشف؟!»

«ساعدينا لإخراجكِ أنتِ عَزَّة أبوالرووس من كل هذا أولاً. وكشف ما يجري. الصبيخان هو الدَّابَّة التي ستضرب بذيلها وتخسف بنا الأرض..»

«يوسف أرجوكَ، تلمَّس العالم الحقيقي حولك.. اخرجْ من فقاعة التاريخ ويوم القيامة، من سيُنصت لكل هذا؟»

بقلب حديدي انسلَّت بيوسف إلى مكتب خالد الملحق، ضخ الأدرينالين بعروقها وانفصلت عن جسدها الذي يرجف، في أيِّ لحظةٍ يمكن أن يُطل خادمه أو القهوجي الخاص به أو مُرَافِقه ويُفْتَضح أمرها، ولم يكن بوسعها التراجع، اندفعا للمكتب، استرعتْهما الخَزنَة أسفل صفِّ الأدراج، حين انحنى يوسف لتفحصها وجد بابها مفتوحاً..

داخل الخزنة كان الحجاب أول ما لفت انتباههما في الرف السفلي، ارتعدتْ يد يوسف تتناوله، تَفَحَّصه ليجد الرِّقَاق مطوية بعناية في الداخل،

«لم أشأ إفزاعك لكنني فررتُ لتوّي من كمين للقبض علينا، دَبَّرَه بلا شك رجالُ خالد حيث صادروا مِنَّا هذا الحجاب. لقد قضيتُ الليل مشرداً أتوارى عن الأنظار وأبحثُ عن وسيلةٍ للوصول إليكِ..» بَسَطَ لها شجرة النسب، وبسرعة جرى بها في الكلمات قافزاً معظمَ الأسطر، طوفان دماء اندفع لأُذنيها، فكرة طرأت وقادتها للنبش من جديد في الخزنة، حيث عثرت على تخطيط لوحة ألجريكو توقفت مشلولة، كيف وصل إلى هنا وما الذي آل إليه رافع؟ هل كان متآمراً أم ضحية؟ وهل استخدموها طُعماً للحصول على هذا التخطيط؟ طردت تلك التساؤلات. بسطت التخطيطَ ليوسف، لفتت نظرَه للمفتاح المحمول بيد الشخصية السماوية ليسقط إلى حِجْرِ ماري، تَوَقَّفَ الزمن بيوسف حين وقع بصره على ذلك المفتاح، ومحبوس الأنفاس أبرز المفتاح المُتَدَلِّي حول عنقه،

«هو نفس المفتاح..» حَدَّثَتْه نورة عن الرجل الذي قضى ربع قرن

من عمره ممسوساً على قمم طُليطلة ينبش هيئة ذلك المفتاح، وترك نسخة مُقَلَّدَة عنه على شاهد قبره..

«ربما تربطكَ بذلك الرجل صِلة قُربى، وربما هو أبوكَ المفقود.. أمكَ حليمة لم تكف تذكر الأندلس التي اختطفت زوجها..» عادت نورة للخزنة، نبشت لتعثر على ذلك التخطيط الذي أظهره خالد الصبيخان ذلك الصباح بمدريد لمطابقته بالمفتاح المسروق من القبر..

«كل هذه مجرد نسخ لهذا...» مشيرة للمفتاح حول عنقه، «لا شك أنه المفتاح..» مشددة على كلمة (المفتاح). تَلَفَّتتْ حولها صماء عمياء بذاك الاكتشاف، عاد الرنين لأذنيها وعاد لريقها مذاق الدم، كان على ذهنها أن يسابق الوقت بقنبلةٍ تُعادل هذا التَّفَجُّر الذي يُحدثه يوسف بدمائها،

«برأيك ما كل هذا؟؟» حدسٌ غامض تَرَكَّز على التهديد المُعَلَّق حول عنق يوسف،

«أنتَ شيبي يا يوسف..» وقفا بالمفتاح بينهما، ببصريهما على المحرابين المُلتحمين في مقبضه، والمحراب الثالث مُشْرِفاً من الأعلى بآيات سورة الإخلاص المنقوشة بالذهب محتضناً للجسدين في عناق..

عادا لنبش الخزنة عن مزيد من الدلائل، لم يعثرا إلا على شريط الفيديو DVD بالرف العلوي، سارع يوسف لتشغيله في الكمبيوتر المفتوح، كان فيلماً دعائياً، يفتتحه شِعَار (إيلاف القابضة)، احتبست أنفاسهما حين تتالت المَشَاهد تُصَوِّر مكة المستقبل: كل ما حول الكعبة تَمَّ محوه، واسْتُبدلَ بساحةٍ رخامية شاسعة تمتد من الحرم جهة شمال غرب، تصعد الساحة بمصطبات ثلاث على هيئة ساعة شمسية، لتقود إلى درجات خمس، تقود إلى ساحة تنتهي للدائرة الخارجية من المدينة، لتكتسح أبوالرووس، وتُقيم ناطحات السحاب التي تغلق الأفق كختمٍ من جهاتٍ ثلاث. سبعة عشر عملاقاً عن يمين ومثلها عن يسار، تلتقي في الصدر

عند صنمٍ جبار أشبه بالإمباير ستيت، بنموذجين مصغرين عن يمينٍ ويسار.. يليها طوقٌ آخر من ناطحات السحاب، سبع عن يمين ومثلها عن شمال تلتقي في الصدر عند كائنين جبارين يحرسان الصنم العظيم.. تشكيلة الأصنام تلك بدت مثل سفن فضائية رابضة على الأرض، ضاربة الحصار على الكعبة، في مشهد مابعد حداثي معدني.. مُحَوَّط بنطاقٍ ثانٍ من الأبراج الأقل هيبة، واقفة كحرسٍ مسكين يحمي ظهورَ الجبابرة، ويقوم سَدّاً بينها وبين هجمة الرمل والفقر المنتثر كنملٍ خارج تلك التشكيلة.. بدت الحياة وقد دُحِرَت لخارج دائرة الحرم..

«من تلك النطاقات حول الكعبة اكتسب خالد الصبيخان لقبه، طويل الحزام، يلف مكة حول خاصرته..»

تَتَوَّجَ الشريط بذلك المَشْهد الختامي، احتاجا إلى وقتٍ لإدراك أنه التصميم الحديث لكعبة المستقبل، وقد أزيل الجسد الحجري المكسو بحرير أسود ليحل محله مُكَعَّبٌ معدني، بنفس أبعاد الجسد القديم وإنما يتطاول مثل مِسَلَّة في السماء، وحوله مسارات تتراكب أدوراً فوق أدوار، لتسمح باستيعاب الأعداد المتزايدة للطائفين. وبَدَت الكعبة الحديثة مثل محور غارق بقلب تروسٍ مطحنةٍ عظيمة.

تَوَقَّفَ قلباهما، وجفَّ ريقهما، بيوسف مسمراً على كرسي المكتب وعَزَّة واقفة وارءه، يصلها عبق طين المدينة في شعره المُعَفَّر، بأعينهما ذاهلة في التصميم المابعد حداثي للكعبة.. شعرت عَزَّة بالخواء خلفها، هوة ما في مؤخر عنقها...في أيِّ لحظةٍ يدخل عليهما الصبيخان، وتنقصم الشعرة التي قد تدفعهما لنطاق لا يقل تَطَرُّفاً عن تلك النطاقات التي أخرستهما.

«الآن فهمتُ، وقد تبدو حبكة خيالية، لكن، باعتقادي أن سرقة المفتاح، والإشاعات بشأن فشل المفاتيح المصبوبة، كلها للإعداد لهذا المُخَطَّط.. لإعادة تصميم الكعبة...»

«هل يهمك ما إذا بنيت الكعبة هكذا؟ بالحجر أو المعدن، ما همَّ؟ المهمّ هو الرَّمز..»

«عَزَّة، هذه ليست الكعبة التي نعرفها، هذه هُبل، الصنم يحتلُّ بيتَ الله، نفس الصنم الذي تعبده قبائلُ قرون الشيطان، يتعالى للسماء على أُسس الكعبة، هذه الأُسس بناها أبونا آدم والملائكة، ومجلوبة من حجارة الجنة، إنها كنز إنساني...»

«لكنكَ سبقَ أن قلتَ إن تلك الحجارة الخضراء من يواقيت الجنة قد قُلِعَت وأُلْقِيَ بها في البحر حتى لا تُعْبَد..»

«ليس الأُسس، آمل ألا تكون تلك الأُسس قد مُسَّتْ، أي محاولة لاقتلاع تلك الأُسس ستُقَوِّض مكة. أقل ما يمكن أن نفعله أن نفضح هذه الوثائق، للسلطات للتحقق من نوايا واضعيها..» تأملتْه بصمت، بدا نحيلاً شاحباً لكن بتصميمٍ لا يتزحزح.

«نفضحها لمن؟»

«لجمعيات حماية التراث الإنساني بلندن ونيويورك، الديوان الملكي، مجلس الشورى، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر..» بدا ساذجاً حتى لنفسه.

«لكن كبداية، يجب أن تغادري معي الآن..» لَمْلَمَ كلَّ تلك الوثائق ليخرج،

«سأُعيدُ عليكَ ما قالته لي مرة امرأة مجنونة: هذا المفتاح، وبيد الرجل المناسب، بوسعه أن يفتح كل أبواب بيوت الله، أبواب لا تخطر على بال..»

«انظري إلى كعبة المستقبل من معدن، أي مفتاح يمكن أن يفتح هذا التكوين؟»

«حتى هذا..» مسَّت المفتاح حول عنقه، «الأمر كله يتعلَّق بهذا المفتاح، يجب أن تغادر به الآن..»

«لا يا عَزَّة، الأمر كله يتعلَّق بكِ، أنتِ ومكة، لن أخرج من هنا حتى تخرجي معي. .» ألحَّ يوسفُ ليخترق ذهولَها. كان عقلُها يدور في دوائر، ويتحرَّك جسدُها من تلقائه، وَضَعَتْ عباءتها ولَحَقتْ به مغادرة الجناح، حين انفتح باب المصعد في قاعة الاستقبال لَمَحَت الصبيخان داخلاً مع مُرَافِقِه، بينما انتشر حُرَّاسُه على الباب وفي البهو، جَرَّها يوسف للمصعد ضاغطاً على زرّ الصعود، الدقائق التي استغرقها المصعد ليستجيب مرَّت كدهر، تقدمت عَزَّة رافعة عباءتها لرأسها في محاولة لحجب يوسف عن الصالة، فجأة ظهر ذلك الرجل أمام المصعد، والتقتْ عيناه بعيني يوسف، كان أحد المشاركين في مطاردته من بقايا الحصن، دفع الرجلُ بيده لداخل المصعد ليمنع إغلاقه، كبرقٍ لمح في عين عزة، امتدَّت يد يوسف حطَّمت تلك الذراع دافعة بالرجل بعيداً. سقط الوجه الملتوي بالألم أرضاً بينما انغلق باب المصعد.

لبرهةٍ لم يعرف لأي دور يصعد، لكن المصعد أخذهما للدور الثاني، ما إن توّقف حتى اندفعا يساراً لمخرج النجاة. قام يوسف بتهشيم جهاز الإنذار وأطلق إعصاراً في الفندق. بينما قفزا درجات سُلّم النجاة هابطين، دفعا ما لا حصر له من الأبواب، وعندما انبثقا فجأة وجدا نفسيهما في موقف العربات، في تلك اللحظة كان ناصر يترجَّل من عربته اللاندروفر. وتوقف مشلولاً بمواجهة الجسدين اللذين ظهرا أمامه فجأة، وابيضَّت عيناه بلون الشمع الخالص جاحظة على الأنثى، تراجعت عزَّة للوراء بينما تقدم يوسف بحماسة متنفساً الصعداء،

«مُحَقِّق ناصر، حمداً لله أنكَ نجحتَ أنتَ أيضاً في الفرار!!» مسافة كانت تفغر بينه وبين عَزَّة، نظر إلى الوراء ليواجه نظرتها المتهمة، وبصوت كالصفير،

«أنتَ تعمل معه؟!!»

«هذا المُحَقِّق ناصر، ويعرف كل شيء. .» وتراجعت أبعد،

«لقد رأيتُ قبرَ أبيك في مدريد، لقد سافر كل تلك البلاد بحثاً عن هذا المفتاح، بوسعي القول بأنه قد جرجرني إلى هناك وفقط لكي تعرف من أنتَ، وأنتَ تعمل مع هذا؟!» في صوتها استنكارُ مغدورٍ.

«عَزَّة اسمعيني..» تقدَّم ناصر ليقف في المسافة المتوسعة بينهما، هتف غير مُصَدِّق:

«هذه ليست عَزَّة...» تراجعت عَزَّة باتجاه الفندق،

«مهلاً، إلى أين تذهبين؟»

«هناك أمر لا بد من تسويته...» قالتها لنفسها، وبالكاد بَلَغَه همسُها.

«ليس هناك من تُسَمَّى عَزَّة، هي من اختراع عائشة المُعَوَّقَة، إنها تحلمنا جميعاً..» بدا ناصر يائساً، أراد يوسف أن يلحق بعَزَّة لكن ناصر سد عليه الطريق، بطرف عينيه راقبَ الجسدَ المتراجع، هل ذلك عرجٌ خفيف؟ أيمكن أن تكون تلك عائشة التي كرهها دائماً؟

ما إن غابت العباءة بمبنى الفندق حتى شعر يوسف بتمزق الجسد عن الجسد الذي شعر به حين شَقّوه عن الكعبة وانتزعوا مفتاحه من قفلها.. نفس الانشطار بجرح.. وَقَعَ كما في غِشية، وباغتْته تلك الضربة التي غارت إلى معدته، صارع ليفلت من مهاجمه ويبلغ الباب الذي ابتلع عَزَّة، ليبلغ أي بابٍ...

تكة

استغرقَ المصعدُ زمناً ليبلغ غايتها، رُكنٌ برأسها كان يزعق،

«عليكِ بالباب... للطريق، للطريق...» وثلاثة أركان تدفع بها لهذا الباب، متجاوزة زهرة الأوركيد البنفسجية الوحيدة التي تذكِّرها بثوب أمها المحشور في نافذةٍ بعيدة مُسَمَّرة، وكلمات عائشة تُتمتم بأذنيها:

(في المرة الأولى التي انفردنا فيها سألَتني: من هو الرجل الذي يلمسك الآن؟ من هو الذي يجعلك تشعرين؟ ويبعثك للحياة؟
أنا سوداء،
عيناي سوداوان،
شعري أسود،
قلبي أسود،
دمي أسود، هل يجيء السواد من فرط المَسّ.
أم، من الا تُلْمَس قط..؟؟؟)

فَتَحَتْ بابَ الجناح ببطء ووَلَجَتْ، خَطَتْ خطوةً فكانت وجهاً لوجه معه، وبينهما بنفسج الأوركيد الوحشي، وتلك الكلمات من عُشبِ زاه:
(عَزَّة ليست حتى شجرة، هي أقرب ما تكون لعشبة، عشبٌ غير قابل للموت، تُغْرَق تُحْرَق تُداس تُجَمَّد لصقيع، في اليوم التالي تعود للنمو من جديد..)

التَّكَّةُ التي تَلَتْ: سَمِعَتْها عميقاً بعمودها الفقري، ثخينة كانبجاس ضرسٍ تُخْلَعْ، تَكَّةُ البابِ أَمْ انبجاس العُنُقِ التي انقصمتْ؟
«عَزَّة عُشبة.»

ولاعة

في الصمت المُضْغِي الذي أطبق على فندق الإنتركونتيننتال، ومن حجرةٍ بآخر الممر، وَقَفَ مُرَافِق خالد الصبيخان بشعورٍ عميق بالضياع، ألقى إلى السرير بالمظروف الذي تسلَّمه من الصبيخان، ويداخله أمر التحويل البنكي. . العديد من الأصفار، زاغَ بصرُه وقَفَزَ قلبُه في مُلاَحقة آخرها، بينما راقبه الصبيخان ساخراً، ظَنَّه يبكي، نعم يُبالغ في تراجيديته

لكنه من الجفاف بحيث تتقصَّف عروقه تحت جلده ولا تُقَطِّر دمعة.

كل تلك الأصفار تفوق كل أحلامه.. ليس هٰذا فقط لكن هناك الترقيات التي سترفعه لأقصى درجات سُلَّم البحث الجنائي، مع الصبيخان الحياة مَصَاعِد ومنشآت من الفولاذ والزجاج تتسلَّق السماوات.. مع الصبيخان ليس إلا الأصفار لما لا نهاية.. شِعَار (الصفر) ذاك معروف عن الصبيخان.. بحيث لا يعود بوسعك إحصاء حساباتك.. كلمة الصبيخان محور يسقط حوله العالم ليدور، هو نفسه قَضَى حياته يدور..

فتح دولابَ ثيابه، تناول حقيبة السامسونايت الضخمة، فَتَحَها مُتَحَسِّساً ليطمئن إلى وجود الأوراق التي يكاد يحفظها غيباً بالداخل، أغلقها وغادر بها الفندق، تَهَدَّمَ كتفاه، الإنهاك الذي لحقه من أحداث الأسبوع الماضي لا يُقارن بمذاق العفن الذي يطفح بحلقه.. جرذ اختار أن يحفر نفقاً بجوفه ليموت، أخذ نَفَساً عميقاً وخاف أن يزفر الهواء لكيلا يزعج المارة بعفن الفأر، لكيلا يعديهم بفأره..

زَعَقَتْ كوابحُ اللاندروفر البيضاء الفاخرة مُغَادِرَةً موقف الفندق، ولحقتها الأنظارُ.. ساق على غير هدى تاركاً المدينةَ وحَرَمَها وراءه. على طرف الطريق المُغَادِرة شمالاً أوقف عربته وتَرَجَّل، وقف أمام الباب الجانبي ذاهلاً... ثم، فتح الحقيبة وبأصابع عاشق مرتعشة تناول الملف الأزرق، وتقرفص خلف عجلة سيارته الخلفية، تَقَلَّصَ جوفُه حين مَدَّ يده لجوف الملف، هنا خلاصة قلبه النابض.. لعبة الملاهي الأفعوانية التي صعدت به وتَلَوَّت ودارت بالزمن 360 درجة لترجع للنقطة التي بدأ منها، للمرأة الوحيدة التي لَفَّها ولفَّ كلماتها لتُقفل حول عنقه كطوقٍ وقفز في الفراغ. ارتعد أبو وَنَّان باللمسة الأولى بعد طول فراق،

«آه، يا لكِ من امرأة...» سَحَقَ جبهتَه لمعدن العربة الساخن «لِمَ لَمْ أحرقكِ مبكراً، كما أُمِرْتُ؟! لِمَ جرؤتُ على عصيان الصبيخان وفقط معكِ، وحين جاء الأمر بتدمير رسائلكِ الإلكترونية؟! لماذا نعجز عن تغيير

طينتنا؟ أنا جبان خائن لآخر قطرة من دمي، وسأموت خائناً. . . في النهاية لقد قُدتِني لمواجهة ذاتي، وَضَعتِني بين خيارين: الهرب بكِ أو اللحاق بيوسف. . واخترتُ الحسابَ البنكي!! لم عجزتُ عن خوض معركةٍ حقيقية ضد خوائي؟ لم عجزتُ عن أكون رجلاً أفضل يا عائشة؟» انشقَّ اسمُها بصدره كعويل ذئب ضار. .

«يا عائشة. . لا أَصِلُ إلا على يديكِ.» من لَهَبِ ولاعته أشعلَ الرسالةَ الأولى، وبدأ الدمع يطشُّ من عينيه للرمل المتقد، أطلق المُحَقِّقُ ناصر القحطاني لدمعهِ العنان وعلا نشيج أبو وَنَّان حين توالت الأوراق تتآكل اللهب.

النهاية

***

رجاء عالم

طوق الحمام

في أكثر من رواية، كانت رجاء عالم تدور حول عالم مكّة، معبّرة عن حبّها وشغفها بكل ما يحيط بتلك المدينة. تدور في الهامش، في الأسطوري، تكتب عن مكّة/ المدينة، الغيب، كأنها تبحث عن بوابة للدخول إلى المتن: الانسان.

ها هي في "طوق الحمامة" تخترق تلك البوابة، وتسير ذهاباً وإياباً عبر "آلة للزمن" تجوب ذلك الوجود الإنساني، الذي هو وجودها الشّخصي أيضاً.

تقول: "أقرأ هذا الكتاب لجدّي الأوّل يوسف العالِم المكّي، الذي كان يجسّد الخبز تحت سجّادة صلاته في الحَرَم. العالِم الذي آمن بأن العلم المنقول هو علم ميت عن ميت.. وأن الحيّ هو ما يفيض في روح العارف من بحر الحيّ"



المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
cca_casa_bey@yahoo.com
markaz@wanadoo.net.ma



لوحة الغلاف: شادية عالم